



سلسلة تفسير القرآن الكريم

التفسير المنهجي

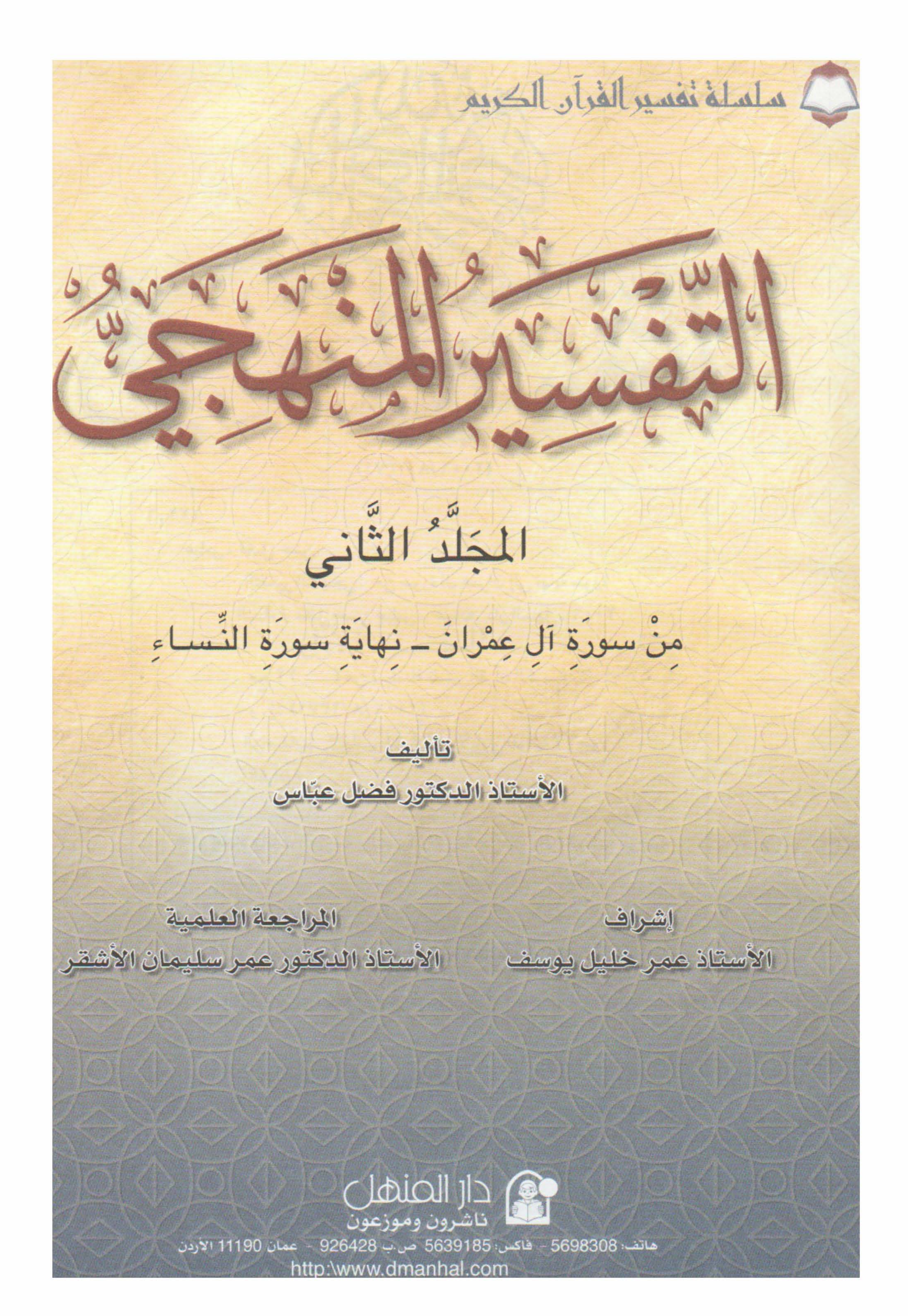
المجلَّدُ الثَّاني

مِنْ سورَةِ آلِ عِمْرانَ ـ نِهايَةِ سورَةِ النِّساءِ



تأليف

أ. د.فضل عبّاس


سلسلة تفسير القرآن الكريم
التفسير المنهجي
المجلَّدُ الثَّاني
مِنْ سورَةِ آلِ عِمْرانَ - نِهايَةِ سورَةِ النِّساءِ
تأليف
الأستاذ الدكتور فضل عبّاس
إشراف
الأستاذ عمر خليل يوسف
المراجعة العلمية
الأستاذ الدكتور عمر سليمان الأشقر
دار المنهل
ناشرون وموزعون
هاتف: 5698308 - فاكس: 5639185 ص.ب 926428 - عمان 11190 الأردن
http:\www.dmanhal.com



المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٣٧١/٨/٢٠٠٦)

٢٢٢,٦

عباس، فضل حسن

التفسير المنهجي: من سورة آل عمران إلى نهاية سورة النساء/ فضل حسن عباس. عمان: دار المنهل، ٢٠٠٦

مج ٢ (   ) ص (سلسلة تفسير القرآن الكريم؛ ٣).

ر.إ: (٢٣٧١/٨/٢٠٠٦).

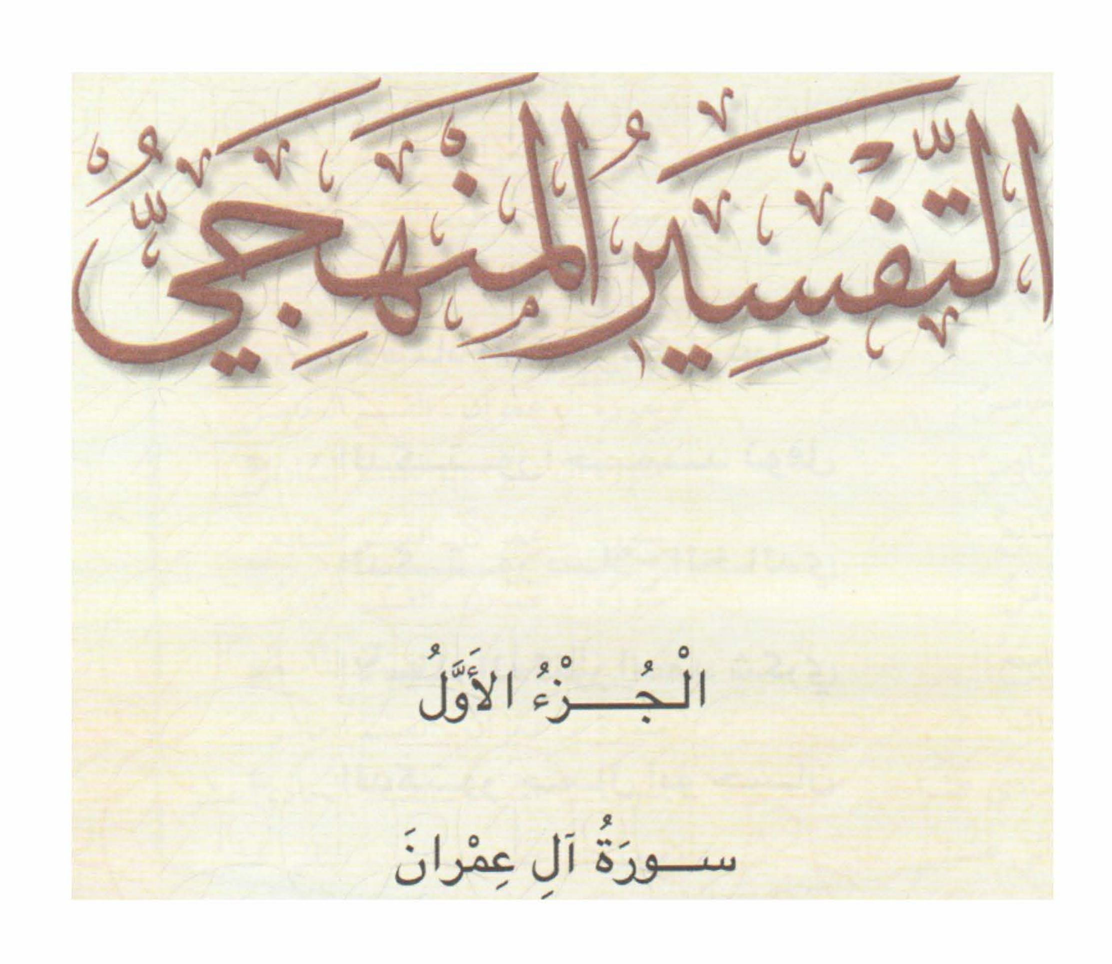
الواصفات: / تفاسير القرآن// الآيات القرآنية// سور القرآن/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الطبعة الأولى

2006

رقم الإجازة: 2006 / 8 / 3035
رقم الإيداع: 2006 / 8 / 2371
التصنيف الدولي: 9957-08-572-7


التفسير المنهجي
الْجُـــزْءُ الأَوَّلُ
ســـورَةُ آلِ عِمْرانَ

قائمة المحتويات

قائمة المحتويات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ ، وَالصَّلاةُ والسّلامُ على نبيِّنا محمَّدٍ خاتمِ الأنبياءِ والمُرْسَلينَ ، وعلى آلهِ وصَحْبهِ ومن سارَ على دربِهِ إلى يوم الدينِ ، وبعدُ ،

فإنَّ القرآنَ الكريمَ هُوَ كلامُ اللهِ المُعجزُ ، أنزلَهُ على نَبيِّهِ مُحمَّدٍ ﷺ ؛ ليُخْرِجَ به الناسَ من الظُّلُماتِ إلى النّورِ ، ويَهدِيَهُم به إلى كلِّ خيرٍ ورشادٍ ، كما قالَ سبحانَهُ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم : ١) ، وقالَ تعالى : ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ (المائدة : ١٥-١٦) .

وقد وردَ في عَدَدٍ مِنَ الأَحاديثِ الحثُّ على تعلُّم القرآنِ ومُدارَسَتِهِ ، ومِنْ ذلِكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ :«خيرُكُمْ مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَهُ»[1] ، وَقولُهُ : « وما اجتمعَ قومٌ في بَيتٍ من بُيوتِ اللهِ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ وَيتدارَسُونَهُ بينَهَم إلاَّ نَزلتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ ، وغَشِيَتْهُم الرَّحمةُ ، وحفَّتْهُم الملائِكَةُ ، وذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »[2] .

وقد بَذلَ المُسْلِمُونَ على مرِّ العُصور جُهوداً كثيرة مُتَوالِيَةً في خِدْمةِ هذا الكِتابِ العزيزِ ، ومِنْ بينِ هذه الجهودِ ما يتعَلَّقُ بتبيينِ مَعاني الآياتِ وتَفْسيرِها ، وكان لكلِّ تفسيرٍ مِيزَتُهُ وخَصائِصُهُ .

ومِيزةُ هذا التفسير أنَّه أُعِدَّ لِيكونَ مِنْهاجاً للتَّدْريس في المَدارِسِ التي تلتزمُ في مِنْهاجِها تدريسَ الطلبةِ تفسيرَ القرآنِ الكريمِ كاملاً ، والتزمَ مُؤَلِّفُوهُ السَّيْرَ على نَمَطٍ مُتقارَبٍ مُتدرِّجٍ ، وفيما يلي أَهمُّ النِّقاطِ التي تمَّ الالتزامُ بها :

* اختيارُ العبارةِ السَّهْلَةِ الواضِحَةِ بمايتناسبُ مَعَ أَعمارِ الطَّلَبَةِ ومستوياتِهم .
* بَدْءُ كلِّ درسٍ بتبيينِ مَعاني المفرداتِ والتراكيبِ التي يحتاجُ الطلبةُ إلى معرفَتِها .
* التَّعْريفُ بالسُّورَةِ بإيجازٍ قبلَ الشروعِ في تفسيرِها .

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، رقم الحديث (٤٦٣٩) .
(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم الحديث (٤٨٦٧) .

* تفسيرُ الآياتِ بصورةٍ معتدلةٍ وبعبارةٍ قريبةٍ مباشرةٍ .

* الرَّبْطُ بينَ آياتِ الدَّرْسِ السَّابقِ والتَّالِي .

* اختيارُ القولِ الرَّاجِحِ في معنى الآيةِ ، وعدمُ إشغالِ الطلبةِ بالأقوالِ المتعدِّدةِ أو الضعيفةِ .

* الالتزامُ بمنهَجِ السَّلَفِ في تَفسيرِ آياتِ الصِّفاتِ .

* إغْناءُ كُلِّ درسٍ بعدَدٍ مِنَ الأنشطةِ المناسبةِ ذاتِ الصِّلَةِ بالآياتِ لِحَفْزِ الطالبِ على البحثِ والتفكيرِ وترسيخِ المعلومةِ في ذهنهِ ، ولذا فالمأمولُ من السَّادَةِ المدرسينَ ، ومِنَ الطلبةِ ، الاعتناءُ بهذه الأنشطةِ وعدمُ إهمالِها ، ومُناقشةُ ما يتمُّ التوصُّلُ إليهِ في الفصلِ أَو طابورِ الصباحِ أو تعليقُهُ في مجلَّةِ المدرسةِ .

* إتْباعُ كلِّ دَرْسٍ بعدَدٍ من العِبَرِ والدروسِ المُستنْبَطَةِ من الآياتِ الكريمةِ ، والمأمولُ من المدرِّسِ والطالبِ قراءةُ هذه العِبَرِ والرَّبْطُ بينها وبينَ الآيةِ التي استُنْبِطَتْ منها ، والحرصُ على الإفادةِ منها في تقويمِ السُّلوكِ وتنميةِ التفكيرِ وترسيخِ القِيَمِ الإسلاميةِ التي تضمَّنَتْها .

* خَتْمُ كُلِّ دَرْسٍ بعددٍ من الأسئلةِ المتنوِّعةِ التي تهدِفُ إلى تقويمِ الطالبِ وتبيينِ مقدارِ استيعابِهِ للدَّرسِ وحَفزِهِ على البحثِ عن الإجابةِ لِلأَسئلَةِ في مظانِّها .

* تذييلُ بعضِ الدُّروسِ بفائدةٍ أو رِوَايةٍ أو حادثةٍ أو حديثٍ له صلةٌ بموضوعِ الدَّرْسِ بهدَفِ إِمْتاعِ القارىءِ وإفادتِهِ بهذه المَعْلومةِ .

* تَخريجُ الأحاديثِ النَّبَويَّةِ ورواياتِ أَسْبابِ النُّزولِ ، والحرصُ على الاقتصارِ على الصَّحيحِ من رواياتِ الأحاديث .

واللهَ تعالى نَسأَلُ أن يَجْعلَ هذا العملَ خالصاً لِوَجْهِهِ الكريمِ ، وأَنْ يَنْفَعَ به ، وأَنْ يتقَّبلَهُ بقَبُولٍ حَسَنٍ ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

* * *

الدَّرسُ الأوَّلُ

سورةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الأَوَّلُ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾

تعريفٌ بالسُّورَةِ :

سورةُ آلِ عِمرانَ هِيَ السُّورةُ الثَّالِثةُ في القرآنِ الكَريمِ ، وتَبْلُغُ آياتُها مائتَي آيةٍ ، وهِيَ مَدَنِيَّةٌ ، باتِّفاقِ العُلَماءِ .

وسُمِّيَتْ (آلِ عِمْرانَ) ، لِورودِ قِصَّةِ آلِ عِمْرانَ مُفَصَّلَةً ، حيثُ لم تُفَصَّلْ قِصَّتُهم في غَيْرِ هذِهِ السُّورةِ ، وقَدْ حَوَتِ السّورةُ الكَريمَةُ مقاصِدَ عِدَّةً :

الأولُ : اهتمَّتِ السُّورةُ بإثْباتِ وَحْدانيَّةِ اللهِ تَعالى ، وأنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ حَقٌّ وما سِواهُ باطِلٌ .

الثّاني : فصَّلَتِ الحَديثَ عَنْ أَحْوالِ أَهْلِ الكِتابِ بأُسلوبٍ مُقْنِعٍ حكيمٍ .

الثّالثُ : اهتمَّتِ السُّورةُ بِتَرْبيَةِ المُؤْمِنينَ تَرْبيةً يَنالونَ باتِّباعِها النَّصْرَ والسَّعادةَ في الدُّنْيا والفَوْزَ في الآخِرَةِ .

الرّابعُ : عَرَضَتِ السُّورةُ أَحْداثَ غَزْوةِ أُحُدٍ عَرْضاً مُؤَثِّراً ، مُبْرِزَةً العِظاتِ والعِبَرَ مِنَ الغَزْوةِ .

مَعاني المُفْرَداتِ :

الم	: حروفٌ افْتَتَحَ اللهُ بِها بَعْضَ السُّوَرِ عَلى سبيلِ التَّنْبيهِ والتَّحدّي للعَرَبِ .
القيُّومُ	: الدَّائِمُ القيّام بِتَدْبيرِ أمْرِ الخَلْقِ .
مُحكماتٌ	: مُتقَناتٌ ذواتُ معانٍ واضحةٍ .
مُتشابهاتٌ	: يَشْتَبِهُ مَعْناها عَلى النّاسِ .
زَيْغٌ	: ميلٌ .
الرّاسِخونَ	: الثّابِتونَ والمُتَمَكِّنونَ .
الألبابِ	: العُقولِ .

التَّفسيرُ :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ .

افْتُتِحَتِ السّورةُ الكَريمةُ بالأَحرُفِ المُقطّعةِ الّتي جاءَتْ لِتَنْبيهِ المُشْرِكينَ إلى أنَّ هذا القُرْآنَ نَزَلَ بنفسِ اللُّغةِ والأَحْرُفِ الّتي تتكلَّمونَ بِها ، ومَعَ ذَلِكَ فإنَّكُمْ لا تَسْتَطيعونَ الإتْيانَ بمثْلِهِ ، ثُمَّ جاءَتِ الآياتُ لِتَقْريرِ وَحْدانيَّةِ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ المُتَفَرِّدُ بالأُلوهِيَّةِ ، وهُوَ الحَيُّ الّذي يَقومُ بِتَدْبيرِ شُؤونِ الخَلْقِ ورعايَتِهِمْ .

﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ .

وبَيَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ سُبْحانَهُ أَوْحَى بِهذا القُرْآنِ المَكْتوبِ إلى النَّبيِّ ﷺ بالتَّدريجِ ، ويَدُلُّ عَلى التَّدريجِ كَلِمَةُ (نَزَّلَ) بالتَّضعيفِ ، وقدْ نَزَلَ هذا القُرْآنُ مُلْتَبِساً بالحَقِّ وأَنَّ فيهِ ما يُحقّقُ أنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، فَلا يَحْتاجُ إلى دليلٍ مِنْ غَيْرِهِ ، وجاءَ هذا القُرْآنُ كذلِكَ ﴿ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ أيْ : مُبَيِّناً صِدْقَ ما تَقَدَّمَهُ مِنَ الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ عَلى الأَنْبياءِ ، وأَنَّها وَحْيٌ مِنَ اللهِ تَعالى .

﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾ إِنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، قَدْ أَنْزَلَ التَّوْراةَ عَلى موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، مِنْ قَبْلِ تَنْزيلِ القُرْآنِ الكَريمِ لِهدايةِ النّاسِ ، وقَدِ اشْتَمَلَتِ التَّوْراةُ والإنجيلُ عَلى البِشارةِ بالنَّبيِّ ﷺ ، والحَضِّ عَلى طاعَتِهِ ﴿ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ ﴾ والفُرْقانُ مَصْدرٌ كالغُفرانِ ، وهُوَ هُنا

مَا يُفَرِّقُ ويَفصِلُ بينَ الحَقِّ والباطِلِ ، والحلالِ والحرام ، ولا يُقْصَدُ بالفُرْقانِ هُنا القُرْآنُ ، إذْ إنَّهُ ذَكَرَ القُرْآنَ في قولِهِ : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ، أمّا الفُرْقانُ فَهُوَ الدَّلائِلُ والبَراهينُ الّتي بَثَّها اللهُ تَعالى ، والّتي تُفرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ في كُلِّ أَمْرٍ .

وَبيَّنَتِ الآياتُ سوءَ عاقِبَةِ الّذينَ كَفَروا وانْحَرَفوا عَنِ الحَقِّ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الّتي أَنْزَلَها سُبْحانَهُ وتَعالى لِهِدايَةِ عِبادِهِ وإرْشادِهم إلى ما فيه خَيْرُهُمْ في دُنياهُمْ وآخِرَتِهِمْ ، هؤلاءِ الّذينَ كفروا بآياتِ اللهِ الّتي تدلُّ عَلى وحدانيّتِهِ تَعالى ، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ بِسَبَبِ كُفْرِهِمُ الّذي حَمَلَهُمْ عَلى التَّصْديقِ بالخُرافاتِ والأَباطيلِ ، وجَعَلَهم يَقْتَرِفونَ المعاصِيَ الّتي أَفْسَدَتْ نُفوسَهُمْ وعُقولَهُمْ ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ فهُوَ سُبْحانَهُ غالِبٌ عَلى أمْرِهِ ، يَفْعَلُ ما يَشاءُ ويَحْكُمُ ما يُريدُ ، وهُوَ بعِزَّتِهِ يُنَفِّذُ فيهِم سُنَّتَهُ فَيَنْتَقِمُ مِمَّنْ خالَفَ هذهِ السُّنَنَ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآيةُ لِتُبَيِّنَ شُمولَ عِلْمِ اللهِ تَعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ فَهُوَ المُطَّلِعُ عَلى كُلِّ صَغيرةٍ وَكَبيرةٍ في هذا الكَوْنِ ، وَهَوَ سُبْحانَهُ يُنَزِّلُ لِعبادِهِ الكُتُبَ الّتي يَعْلَمُ أَنَّ فيها صلاحَهُمْ ، وهُوَ يَعْلَمُ حَقيقةَ أَمْرِهِمْ في سرِّهِم وَجَهْرِهِمْ ، لا يَخفى عَلَيْهِ أَمْرُ المُؤْمِنِ الصّادِقِ وأَمْرُ الكافِرِ والمُنافِقِ . وذَكَرَ سُبْحانَهُ (السَّماءَ) و(الأرضَ) لِيُبيِّنَ أَنَّ عِلْمَهُ قَدْ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ ، وذُكِرَتْ كَلِمَةُ (لا) هُنا مَرّتينِ ، لِيُبيِّنَ عِلْمَ اللهِ بكُلِّ شَيْءٍ ، فَهُوَ أوّلا لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ في الأَرْضِ ، وهُوَ ثانياً لا يَخْفى عليهِ شيءٌ في السّماءِ ، إنَّهُ سُبْحانَهُ يَعْلَمُ الكُلّيّاتِ ، ويَعْلَمُ الجُزْئياتِ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ .

ذَكَرَتِ الآيةُ دَليلاً عَلى عِلْمِ اللهِ تَعالى الشّامِلِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ والأَرْحامُ : جَمْعُ رَحِمٍ ، وهُوَ مُسْتَوْدَعُ الجنينِ مِنَ المرأةِ ، وفي تَصويرِ الأَجِنَّةِ في الرَّحِمِ مِنَ الحِكَمِ البَديعةِ والنِّظام الدَّقيقِ ، الّذي يَدُلُّ عَلى قُدْرَةِ اللهِ تَعالى العليمِ الخبيرِ بالدَّقائِقِ ، الحَكيمِ الّذي يَسْتَحيلُ عَلَيهِ العَبَثُ ، العَزيزِ الّذي لا يُغْلَبُ عَلى ما قَضى بِهِ عِلْمُهُ . لَقَدْ صوَّرَكُمْ في الأَرْحام ، فَجَعَلَ مِنْكُمُ الأَبْيَضَ ومِنْكُمُ الأَسْوَدَ ، ومِنْكُمْ ما بينَ ذَلِكَ ، وجَعَلَ بَعْضَكُمْ طويلاً وبَعْضَكُمْ قَصيراً .

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ تَأْكيدٌ لِما وَرَدَ مِنَ انْفِرادِهِ سُبْحانَهُ بالأُلوهِيّةِ ، وأَحقيّتِهِ بالعُبوديّةِ ، بَعْدَ أَنْ أَقامَ الأَدِلَّةَ الواضِحَةَ عَلى ذَلِكَ .

المُحْكَمُ والمَتَشابهُ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ .

لَقد اقْتضَتْ حِكْمَةُ اللهِ تعالى أَنْ يَشْتَمِلَ هذا الكِتابُ ـ القُرآنُ الكريمُ ـ عَلى المُحْكَم ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ أيْ : واضحاتُ المعاني والدَّلالةِ ، هُنَّ أُمُّ الكِتابِ ، بِمعنى : أَصْلُهُ وجُلُّه والّذي يُرْجَعُ إليهِ في التَّمييزِ بينَ الحلالِ والحرام . وأُخَرُ مُتَشابهاتٌ ، وهِيَ لُغَةً : الّتي يُشبهُ بَعْضُها بَعْضاً في الهدايةِ والبَلاغةِ ، وسَلامتِهِ مِنَ التَّناقُضِ والتَّفاوُتِ ، وشَرْعاً : هِيَ الآياتُ الّتي تَشْتَبهُ عَلى المفسِّرِ ، فلا يَصِلُ إلى مَعْناها إلاّ بَعْدَ طولِ فِكْرٍ وإجالةِ نَظَرٍ .

وَبيَّنَتِ الآياتُ مَوْقِفَ الّذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ مِنَ المُتَشابهِ ، وهُمُ الّذينَ انْحَرفوا عَنِ الحَقِّ . إنَّ هؤلاءِ الفاسِقينَ الّذينَ مالوا وانْحَرفوا عَنْ مَنْهَجِ اللهِ تَعالى القَويم ، يَتَّبعونَ ما تَشابَهَ مِنَ القُرْآنِ ، وهُوَ الّذي لا يُمْكِنُ أَنْ نَصِلَ إلى تَفْسيرِهِ إلاّ بَعْدَ تَفْكيرٍ وتَدبُّرٍ ، يَتَّبعونَ المُتشابهَ وهُمُ يَقْصِدونَ مِنْ وراءِ ذَلِكَ أَمْرَيْنِ :

الأَوَّلُ : ابْتِغاءُ الفِتْنَةِ : أيْ أنّهم يَتَّبعونَهُ بالإِنْكارِ والتَّنفيرِ مُسْتَغلِّينَ ما في أَنْفُسِ النّاسِ مِنْ إنكارِ ما لَمْ يَصِلْ إليهِ عِلْمُهُمْ ، فَيَفْتِنونَ النّاسَ عَنْ دينِهِمْ .

الثاني : ابْتِغاءُ تَأْويلِهِ : أيْ أنَّهم يُرْجِعونَهُ إلى أَهْوائِهِمْ وتَقاليدِهِمْ ، ولَيْسَ إلى الأَصْلِ المُحْكَمِ الّذي بُنِيَ عَلَيْهِ الاعْتِقادُ ، فَيُفَسِّرونَها حَسَبَ أهوائِهِمْ .

وبيَّنَتِ الآياتُ أَنَّ تأويلَ المُتَشابهِ لا يَعْلَمُهُ إلاّ اللهُ تَعالى ، والرّاسِخونَ في العِلْمِ ، والرُّسوخُ بِمعْنى الثَّباتِ والتَّمكُّنِ . إنّ هَذا دَليلٌ عَلى أَنَّ هُناكَ مَنِ اخْتَصَّهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بالرُّسوخِ في العِلْمِ ، ومِنْ هَؤلاءِ حَبْرُ الأُمَّةِ عبدُاللهِ بنُ عباسٍ ـ رضِيَ اللهَ عَنْهُما ـ الّذي دَعا لَهُ النَّبيُّ ﷺ بِأَنْ يُعَلِّمَهُ اللهُ التَّأْويلَ ويُفَقِّهَهُ في الدّينِ . إنّ الرّاسخينَ في العِلْمِ يَعْلَمونَ تَأْويلَ المُتَشابهِ وحالُهُمْ يَقولُ آمنّا بِكَ يا ربّ ، وصدّقنا بِما أنزلْتَ وأذعَنّا لِما أَمَرْتَنا ، وكُلُّ ما في الكِتابِ مِنْ عِنْدِكَ لا شَكَّ في ذَلِكَ ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فإنَّهُ لا يَعْقِلُ آياتِ اللهِ ويَفْقَهُ حِكْمَتَهُ إلاّ أَرْبابُ القُلوبِ النَّيِّرةِ والعُقولِ الكَبيرةِ ، وهؤلاءِ الرّاسِخونَ لَمْ يَكونوا راسِخينَ إلاّ بالتَّعقُّلِ والتَّدبُّرِ لِجَميعِ الآياتِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ القُرآنُ الكَريمُ مُعجِزٌ أنْزَلَهُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، يَجِبُ الإيمانُ بِكُلِّ ما جاءَ فيهِ مِنْ آياتٍ ودَلائِلَ .

٢ـ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى وَحْدَهُ المُسْتَحِقُّ للعُبوديَّةِ والأُلوهيَّةِ .

٣ـ إنَّ الرّاسِخينَ في العِلْمِ يَعْلَمونَ ما يُوَفِّقُهُمُ اللهُ تَعالى لِمَعْرِفَتِهِ ، ويُؤْمِنونَ بأَنَّ القُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللهِ .

٤ـ إنَّ القُرْآنَ الكَريمَ كِتابٌ هادٍ للحقِّ لا يَأْتيهِ الباطِلُ مِنْ بينِ يَدْيهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ .

٥ـ الخيرُ كلُّهُ فيما يَختارُهُ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ذَهَبَ العُلَماءُ مَذاهبَ شَتَّى في تَفْسيرِ الأَحْرُفِ المُقَطَّعةِ ، اذْكرِ التَّفْسيرَ الصَّحيحَ لها .

٢ـ لِمَ ذُكِرَ حَرْفُ النَّفي (لا) مَرَّتَيْنِ في قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ؟

٣ـ وَضِّحْ مَعْنى قولِهِ تَعالى : ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ ، وعلامَ تَدُلُّ الآيَةُ ؟

٤ـ وضِّحِ الفَرْقَ بَيْنَ المُحْكَمِ والمُتَشابِهِ .

٥ـ هَلْ يُمْكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يَتوصَّلَ لِمَعْرِفَةِ المُتَشابِهِ ؟ بَيِّنْ ذَلِكَ .

٦ـ مَنْ هُمُ الرَّاسِخونَ في العِلْمِ ؟

٧ـ يَقْصُدُ متَّبعو المُتَشابِهِ مِنْ فِعْلِهِمْ هذا أَمْرَيْنِ ، ما هُما ؟

٨ـ فسِّرْ مَعنى : الفُرْقانَ ، زيغٌ ، الألباب .

٩ـ النّاسُ بالنِّسْبَةِ للمُتَشابِهِ فَريقانِ ، اذْكُرْهُما ، وبيِّنْ مَوْقِفَ كُلٍّ مِنْهُما مَعَ الدَّليلِ .

نَشاطٌ :

١ـ وَرَدَتْ آيةٌ في سورةِ الأَنْعامِ تُبيِّنُ أنَّ اللهُ يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ ؛ الجُزئياتِ ، والكُلّيّاتِ ، اكْتُبِ الآيَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ارْجِعْ إلى أَحَدِ المُعْجَماتِ اللُّغويَّةِ ، واسْتَخْرِجْ أصْلَ كَلِمَتَيْ : التَّوراةِ والإنْجيلِ .

* * *

الدَّرسُ الثّاني

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الثّاني

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تُزِغْ	:	الزَّيغُ : المَيْلُ عَنِ الاسْتِقامةِ أو الانْحرافُ .
وَقودُ النّارِ	:	بِفَتْحِ الواوِ ، ما تُوقَدُ بِهِ النّارُ كالحَطَبِ .
دأبِ	:	أصلهُ الدّوامُ والاسْتِمرارُ .
آلِ فِرعونَ	:	هُمْ أعوانُهُ ونُصَراؤُهُ .
أخَذَهُم اللهُ بِذُنوبِهِمْ	:	عذَّبَهُمْ وعاقَبَهُمْ .
المِهادُ	:	المَقامُ والمُسْتَقرُّ ، والمكانُ المُمَهَّدُ الّذي يُنامُ عَلَيْهِ كالفراشِ .

التَّفسيرُ :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ .

اشْتَمَلَتِ الآيَةُ الأُولى والثّانِيَةُ على دَعَواتٍ طَيِّبَةٍ . ويَرى بَعْضُ العُلَماءِ أنَّ هَذِهِ الدّعواتِ مِنْ مَقولِ الرّاسِخينَ في العِلْمِ ، فهُمْ يَقولونَ : (آمنّا بِهِ) ، ويَقولونَ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ ويَرى بَعْضُهُمْ أنَّ

هذا كَلامٌ جَديدٌ ، وهُوَ تَعليمٌ مِنَ اللهِ لِعبادِهِ لِيُكْثِروا مِنَ التَّضرُّعِ إليهِ بِهذِهِ الدَّعواتِ .

والمَعْنى : نَسْأَلُكَ يا ربَّنا ونَضْرَعُ إليْكَ ألاّ تُميلَ قُلوبَنا عَنِ الهُدى بَعْدَ إذْ ثَبَّتَّنا عَلَيْهِ ، وأنْ تُباعِدَ بَيْنَنا وبَيْنَ الزَّيغِ والانْحرافِ ، وامنحْنا مِنْ عِندِكَ إنْعاماً وإحْساناً تَشْرَحُ بِهِما صُدورَنا ، إنَّكَ أنتَ الوهّابُ لا غيرُكَ ، فأنتَ مالكُ المُلْكِ .

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾ .

ثُمَّ حكى سُبْحانَهُ ضَراعةً أخرَى ، تَضرَّعَ بِها المُؤْمِنونَ ، فقالَ تعالى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ ﴾ أيْ : ربّنا ، إنّكَ جامعُ النّاسِ أي : في يوم القيامةِ لِتُجازيَ الّذينَ أَساءُوا بما عَمِلوا ، وتُجازِيَ الّذينَ أحسَنوا بالحُسْنى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ جاءَتِ الآيَةُ لِتَنْفِيَ الرَّيْبَ في وقوعِ يومِ القِيامَةِ وما سَيَكونُ فيهِ مِنْ ثوابٍ وعِقابٍ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾ .

إنَّ الّذينَ كَفَروا بِالحَقِّ لمّا جاءَهُمْ لَنْ تَنفعَهُمْ أموالُهمْ وَلا أولادُهُمْ يومَ القيامةِ ، ولَنْ تَدْفَعَ عنهُمْ شيئاً مِنْ عذابِ اللهِ الّذي استحقُّوهُ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ واغْتِرارِهِمْ بِكثرةِ المالِ ، والإشارةُ في قوْلِه : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ لأولئِكَ الكافِرينَ الّذينَ اغْتَرّوا بأموالِهِم وأولادِهِمْ ولَمْ يسمَعوا للحقِّ ، فهُمْ وَقودُ النّار ؛ أيْ : حَطَبُها .

وجاءَ باسْمِ الإشارةِ (أولئكَ) للإشارةِ إلى كُفرِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ وانْغِماسِهِمْ في الكُفْرِ ، ولِذلِكَ كانَتِ العُقوبَةُ شَديدةً .

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾ .

ثُمَّ بيَّنَ سُبْحانَهُ ، أنَّ حالَ الكافِرينَ بالحَقِّ كَحالِ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الأَقْوام ، فقالَ تعالى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أيْ : حالُ هؤلاءِ الكافِرينَ الّذينَ كَفَروا بالحَقِّ الّذي جِئْتَ بِهِ يا مُحَمَّدُ كَحالِ آلِ فِرْعونَ والذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ أَهْلِ الضّلالِ ، كَفروا بآياتِ اللهِ وكَذَّبوا بما جاءَتْ بِهِ الآياتُ فكانَتْ نَتيجةُ ذلِكَ أنْ أخذَهُمُ اللهُ أَخْذَ عَزيزٍ مُقْتَدر ، حَيْثُ أهْلَكَهُمْ إهْلاكاً شَديداً . وخَصَّ القُرْآنُ آلَ فِرْعونَ بالذِّكرِ ، لأنَّ فِرْعونَ كانَ أَشَدَّهُمْ طُغْياناً وأكبَرَهُمْ غُروراً ، وأكْثَرَهُمُ اسْتِهانةً بِقَوْمِهِ ، واحْتِقاراً لَهُمْ .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾ .

ثُمَّ أَنْذَرَ اللهُ تَعالى الكافِرينَ بِسوءِ المَصيرِ ، وَبَشَّرَ المُؤْمِنينَ بِحُسْنِ العاقِبَةِ ، فَقالَ تَعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ ﴾ قِيلَ في سَبَبِ نُزُولِ هذهِ الآيةِ ما ذَكَرَهُ ابنُ إسْحاقَ عاصِمُ بنُ عُمَرَ بنِ

قَتادةَ : إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا أصابَ مِنْ قُرَيشٍ ما أصابَ في غَزْوةِ بَدْرٍ ، ورَجَعَ إلى المدينةِ ، جَمَعَ اليَهودَ في سوقِ بَني قَيْنُقاعَ ، وقالَ : « يا مَعْشَرَ اليهودِ احْذروا مِنَ اللهِ مِثْلَ ما نَزَلَ بِقُرَيْشٍ يومَ بَدْرٍ قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ بِكُمْ ما نزَلَ بهِمْ ، فَقَدْ عَرَفْتُم أنّي نبيٌّ مُرْسَلٌ تَجدونَ ذلِكَ في كِتابِكُمْ وعَهْدِ اللهِ إلَيْكُم » فقالوا : يا مُحَمَّدُ لا يَغُرنَّكَ أنَّكَ قَتَلْتَ نفَراً مِنْ قريشٍ كانوا أَغْماراً لا عِلْمَ لَهُمْ بالحَرْبِ فأَصَبْتَ فيهِمْ فُرْصَةً ، إنّكَ واللهِ لَوْ قاتَلْتَنا لَعَرَفْتَ أنّا نَحْنُ النّاسُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ ﴾ .

والمَعْنى : قلْ يا مُحمَّدُ لِهؤلاءِ اليَهودِ وأَمْثالِهِمْ مِنَ المُشْرِكينَ الّذينَ يُدْلُّونَ بِقُوَّتِهِمْ ، ويَغْترّونَ بِأَمْوالِهِمْ وأَوْلادِهِم ، قُلْ لَهُمْ سَتُغْلَبونَ وتُهْزَمونَ في الدُّنْيا عَلى أَيْدي المُؤْمِنينَ ، وتُحْشَرونَ يَوْمَ القِيامةِ ، ثُمَّ تُساقونَ إلى نارِ جهنَّمَ لِتَلْقَوْا فيها مَصيرَكُمُ المُؤْلِمَ ، وبِئْسَ المِهادُ ، أيْ : بِئْسَ المكانُ الّذي هَيَّؤوهُ لأَنْفُسِهِمْ في الآخِرَةِ بِسَبَبِ سوءِ فِعْلِهِمْ . وقَدْ أَمَرَ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ أنْ يَتولّى الرَّدَّ عَلَيْهِمْ ، وأنْ يُواجِهَهُمْ بِهذا الخِطابِ المشتملِ عَلى التهديدِ والوعيدِ ، لأنَّهُم كانوا يَتَفاخَرونَ عليهِ بأموالِهِمْ وقُوَّتِهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عَلى المُؤْمِنينَ أنْ يُكثِروا مِنَ التَّضرُّعِ إلى اللهِ سُبْحانَهُ وسُؤالِهِ أنْ يُثبِّتَ قُلوبَهُمْ عَلى الإيمانِ .

٢ـ كانَ الرَّسولُ يُكْثِرُ مِنْ دُعائِهِ : ثَبِّتْ قُلوبَنا عَلى دينِكَ .

٣ـ لَنْ تَنْفَعَ الكافِرينَ أمْوالُهُمْ وأَوْلادُهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ .

٤ـ النَّصْرُ سَيَكونُ للنَّبيِّ ولأَصْحابِهِ ، وأنَّ الدّائِرةَ سَتدورُ عَلى الجاحِدينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ فسِّرْ مَعْنى : تُزِغْ ، الميعادَ ، المهادُ .

٢ـ فَسَّرَ العُلَماءُ الدَّعَواتِ في آخِرِ الآيَتَيْنِ : الثّامنةِ والتّاسعةِ تَفْسيرَيْنِ ، هاتِ ما ذَهبوا إليهِ .

٣ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ .

٤ـ بِمَ شَبَّهَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الكافِرينَ في قَوْلِهِ : ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ؟

٥ـ لِمَ خَصَّ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى آلَ فِرْعونَ بالذِّكْرِ في الايةِ الكَريمةِ : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ ؟

٦ـ لِمَنْ يَكونُ الخِطابُ المُوجَّهُ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبِ الآيَةَ مِنْ سورةِ التَّحْريمِ الّتي تُشيرُ إلى وَقودِ النّارِ .

٢ـ عُدْ إلى أَحَدِ كُتُبِ أَسْبابِ النُّزولِ ، وهاتِ روايةً أُخْرى عَنْ سَبَبِ نُزولِ الآيةِ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ .

٣ـ عُدْ إلى أَحَدِ المُعْجَماتِ واسْتَخْرِجْ مَعْنى لَفظةِ « أغْمارٍ » الواردةِ في سَبَبِ النُّزولِ .

* * *

الدَّرسُ الثَّالِثُ

سورةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الثَّالِثُ

قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

آيةٌ : عَلامةٌ ودَليلٌ .

الشَّهواتِ : رَغَباتِ النَّفْسِ في الحُصولِ عَلى الشَّيءِ .

الأَنْعامِ : واحِدُها نَعَمٌ ، وهِيَ الإِبلُ والبَقَرُ والغَنَمُ .

الخَيْلِ المُسَوَّمةِ : الخَيْلِ المُعلَّمةِ ، وهي الأَصيلةُ .

الحَرْثِ : الزَّرْعِ والنَّباتِ .

أَؤُنَبِّئُكُمْ : أَأُخْبِرُكُمْ .

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ .

تُحَذِّرُ الآياتُ الكَريمَةُ أُولئِكَ اليَهودَ الّذينَ تَحدَّثَتْ عَنْهُمْ مِنْ قَبْلُ ، أو الكافِرينَ عَلى العُموم بألاّ يَغترُّوا بِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ فَيقولُ سُبْحانَهُ لِنبيِّهِ ﷺ : قُلْ لأُولئِكَ اليَهودِ الّذينَ غَرَّتْهُمْ أَمْوالُهُمْ ، واغْترّوا بِأَوْلادِهِمْ وأَنْصارِهِمْ ، لا تَغُرَنَّكُمُ الكَثْرةُ ، ولا المالُ والوَلَدُ ، فَلَيْسَ هذا هُوَ طَريقُ النَّصْرِ وَوسيلَتُهُ ، وما يَجْري في الكَوْنِ أعْظَمُ دليلٍ عَلى ذَلِكَ ، وانْظُروا إلى الفِئَتَيْنِ اللّتَيْنِ التَقَتا يَوْمَ بَدْرٍ ، حَيْثُ كانَتْ فِئَةُ المُؤْمنينَ قَليلةً ، ولكنَّها كانَتْ تُقاتِلُ في سبيلِ اللهِ ، فَكَتَبَ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى النَّصْرَ والغَلَبَةَ عَلى الفِئَةِ المُشْرِكَةِ ، مَعَ أنَّ عَدَدَهُمْ كانَ أَضْعافَ أضْعافِ المُؤْمِنينَ ، وفي هذا عِبْرَةٌ لِمَنِ اعْتَبَر ، إذْ إنَّ هُناكَ قُوَّةً فَوْقَ جَميعِ القُوى البَشَرِيَّةِ ، تُؤَيِّدُ الفِئَةَ المُؤْمِنَةَ عَلى قِلَّتِها ، مادامتْ تُقاتِلُ في سَبيلِ اللهِ ، لِحِمايةِ الحقِّ والدِّفاعِ عَنِ الدِّينِ والأَهْلِ .

وقولُهُ تَعالى : ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾ يَعْني : إنَّ المُشْرِكينَ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ ضِعْفَي المُسْلِمينَ لِيَسْتَهينوا ، والمُسْلِمونَ يَرَوْنَ المُشْرِكينَ ضِعْفَيْهِمْ لِيشْحَذوا عَزْمَهُمْ مَعَ كَثْرةِ عَدَدِهِم ، إلاّ أنَّهُمْ كانوا يَرَوْنَ المُسْلِمينَ ضِعْفَي عددِهِمْ ، وهذا ما أرادهُ سُبْحانَهُ لِيَسْتَرْخِيَ المُشْرِكونَ في قِتالِ المُسْلِمينَ ، وأيَّدَ اللهُ تَعالى المُسْلِمينَ بالملائِكَةِ يُقاتِلونَ مَعَهُمْ .

﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ وهذا تأْكيدٌ لِما سَبَقَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُقَوِّي بِمَعونَتِهِ مَنْ يَشاءُ ، كَما أَيَّدَ سُبْحانَهُ المُسْلِمينَ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، وفي كُلِّ ذَلِكَ عِبْرَةٌ وعِظَةٌ لِمَنْ عَقِلَ وتَدبَّرَ .

إنَّ أُولي الأَبْصارِ هُمُ الّذينَ اسْتَعْمَلوا عُقولَهُمْ فيما هُوَ خَيْرٌ ، أمّا غَيرُهُمْ فإنَّهُمْ مِنَ الظّالِمينَ لأَنْفُسِهِمْ ، وَمِنْ هُنا جاءتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ تلكَ المُغْرياتِ الّتي أنعمَ بها سُبْحانَهُ عَلى النّاسِ ، ولكنَّ صاحبَ العَقْلِ وُجْهَتُهُ نَحْوَ الخيرِ ، أمّا غَيْرُهُ فقَدْ تكونُ وُجْهَتُهُ نَحْوَ الشَّرِ .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ الزِّينةُ هِيَ تَحْسينُ الشَّيْءِ ، وهَذهِ الزِّينَةُ قَدْ تَكونُ تامَّةً حَقيقيَّةً وذَلِكَ كالإيمانِ والعِلْمِ والأَخْلاقِ الحَميدةِ ، وقَدْ تَكونُ زينةً ناقِصَةً إذا ظَهَرَ فيها جانِبُ الخَيْرِ ، وذَلِكَ مِثْلُ

المالِ ، والأَثاثِ والثِّيابِ وغَيْرِها ، وهذِهِ الزِّينةُ تَرْجِعُ كُلُّها إلى أُصولٍ ثَلاثةٍ :

١ـ زينةٍ نَفْسيةٍ : كالعِلْمِ والإيمانِ والأَخْلاقِ .

٢ـ زينةٍ بَدنيَّةٍ : كالقُوَّةِ والطّولِ والجَمالِ .

٣ـ زينةٍ خارجيَّةٍ : كالجاهِ والمالِ .

والقِسْمانِ : الثّاني والثّالِثُ ، قَدْ يَغْلِبُ فيهما جانِبُ الخَيْرِ ، إذا كانا سَبَباً لِشُكْرِ اللهِ ، وقَدْ يَكونانِ شَرّاً وَوبالاً إذا كانا سَبَباً للطُّغيانِ ، ومِنْ هُنا جاءَ الفعلُ (زُيِّنَ) مبنياً للمَجْهولِ ، لأَنَّ المُزَيِّنَ قَدْ يكونُ هُوَ اللهُ تَعالى ، وذَلِكَ إذا تَمتَّعَ الإنْسانُ بهذِهِ المُشْتَهياتِ في دائِرَةِ المُباحِ الّذي أحلَّهُ اللهُ ، وقَدْ يَكونُ المُزَيِّنُ هَوَ الشَّيْطانُ ، وذَلِكَ إذا خَرَجَ الإنْسانُ عَنِ الطّريقِ الصَّحيحِ ولَمْ يُبالِ بالحَلالِ والحَرام .

أمّا الشَّهواتُ ، فَهِيَ الّتي تُوجِّهُ النَّفْسَ الإنسانيّةَ ، وهَذِهِ الشَّهْوَةُ قَدْ تَكونُ أمْراً لابُدَّ مِنهُ ؛ كالطَّعامِ والشَّرابِ وغيرِها ، وقَدْ لا تكونَ أمْراً ضروريّاً حينَما تَسْتَقيمُ الحياةُ بدونِها ، واللهُ سُبْحانَهُ أودعَ في الإنْسانِ الشَّهواتِ ، ولَكنَّهُ أرْسَلَ إليهِ الرُّسُلَ ، لِيُحذِّروهُ حتّى لا تَطْغَى هَذِهِ الشَّهْوةُ فَيَنْجَرِفَ وَيَنْزلِقَ ، وَقَدْ ذَكَرتِ الآيةُ مِنَ الشهواتِ الّتي زُيِنَتْ للنّاسِ :

الزِّينَةُ الأُولى : النِّساءُ ، وهَذِهِ تَشْمَلُ النِّساءَ والرِّجالَ ، وحُبَّ الشَّهْوَةِ مِنَ النِّساءِ ، وحُبَّها مِنَ الرِّجالِ ، ولَكنَّ القُرْآنَ مبنيٌّ عَلى الإيجازِ ، فاكْتَفى بِذِكْرِ جانِبِ الرَّجُلِ الّذي يُحِبُّ الشَّهَواتِ أكْثَرَ مِنَ النِّساءِ .

لَقَدْ بَدأَتِ الآيةُ بِهذِهِ الشَّهْوَةِ ، لأنَّ هذِهِ الشَّهْوةَ تَشتَرِكُ فيها الغَريزةُ والعاطِفَةُ عَلى حدٍّ سواءٍ ، وقدَ ذَكَرَ لنا النَّبيُّ ﷺ أنَّه لَيْسَ هُناكَ فِتنةٌ أَشَدَّ عَلى الرِّجالِ مِنْ فتنةِ النِّساءِ ، وأَنَّ أوَّلَ فِتْنةِ بَنى إسْرائيلَ كانَتْ في النِّساءِ[1] .

وهذِهِ الزِّينةُ قَدْ تَجُرُّ صاحِبَها وتَحْمِلُهُ عَلى فِعْلِ شيءٍ ممّا يلي أوْ جَميعِهِ :

١ـ الفاحشةِ .

٢ـ قَطيعةِ الرَّحِمِ .

٣ـ عَدم تحرّي الحَلالِ في الرِّزقِ .

٤ـ تَرْكِ الواجباتِ .

وَلِذا حَذَّرَ النَّبيُّ ﷺ مِنْ أنْ يَنْساقَ الرِّجالُ في طاعةِ النِّساءِ فَتُزَيِّنَ لَهُمُ الشَّهواتِ فَيَعُقَّ أباهُ ويَعُقَّ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب : الذكر ، باب : أكثر أهل الجنة الفقراء ، حديث رقم ٢٧٤١ وحديث رقم ٢٧٤٢ .

أُمَّهُ . وَهَذِهِ الزِّينةُ لِها جانِبٌ خَيْرٌ ؛ فَيَكونُ في هَذِهِ الشَّهْوةِ عِفَّةُ فَرْجٍ وغَضُّ بَصَرٍ وطَهارةُ لِسانٍ ونظافةُ قَلْبٍ .

الزِّينَةُ الثّانِيةُ : البنونَ ، وهذِهِ زينةٌ طَبيعيَّةٌ فُطِرَ الإنْسانُ عَلى حُبِّها والمَيْلِ إليْها ، لأنَّ الإنْسانَ يَجِدُ في البَنِينَ امْتدادَ أَثَرِهِ ، وهَؤلاءِ الأَوْلادُ قَدْ يَكونونَ سَبَباً في ارْتِكابِ المُحرَّمِ وتَرْكِ الواجِبِ ، حَيْثُ يَحولونَ بَيْنَ الأَبِ والجِهادِ ، ويَمْنَعونَهُ مِنْ قَوْلِ الحقِّ ، ويَجْمَعُ لَهُمُ المالَ الحرامَ ، ويَشْغَلونَهُ في دُنياهُ عَنْ آخِرَتِهِ ، وقَدْ يَكونونَ سَبَباً لِلْخَيْرِ ، فَهُمْ في الدُّنيا أداةُ شُكْرٍ وبِرٍّ ، حَيْثُ يَبرّونَ آباءَهُمْ ، ويَجِدُ الأبُ فيهِمْ نِعْمَةً يَشْكُرُ اللهَ عَليْها ، وهُمْ في الآخِرَةِ مَصْدرُ إكْرامٍ لآبائِهِمْ ، وذَلِكَ أَنَّ مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ وعَمِلَ بِما فيهِ أَلْبَسَ والِداهُ تاجاً يَوْمَ القِيامةِ[1] .

الزِّينَةُ الثّالِثَةُ : القناطيرُ المُقنْطَرةُ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، ونَحْنُ إذا اسْتَخْدَمْنا المالَ فيما هُوَ حَلالٌ ، فَنَصِلُ بِهِ رَحِمَنا ، ونُنَفِّسُ عَنْ صاحِبِ كُرْبَةٍ ، بارَكَ اللهُ لَنا فيهِ ، ورتَّبَ عَلى ذَلِكَ الأَجْرَ والثَّوابَ الحَسَنَ ، ولَكِنْ إذا كُنِزَ هَذا المالُ ولَمْ تُؤَدَّ زَكاتُهُ ، واسْتُخْدِمَ في طَريقٍ حَرامٍ كانَ وَبالاً عَلى صاحِبِهِ .

الزِّينَةُ الرّابِعَةُ : الخَيْلُ المُسوَّمةُ ، فَهِيَ مُحبَّبَةٌ طيِّبَةٌ إذا كانَتْ غايَتُها إعْلاءَ كَلِمَةِ اللهِ والجِهادَ في سَبيلِهِ ، أمّا إذا كانَتْ غايَتُها الفَخْرَ الكاذِبَ ، والاخْتِيالَ عَلى الخَلْقِ ، والبَغْيَ في الأَرْضِ ، فَتِلْكَ زينةٌ فاسِدَةٌ .

الزِّينَةُ الخامِسَةُ : الأنعامُ والحَرْثُ ، والأَنْعامُ هِيَ المَواشي ، وتُطْلَقُ عَلى الإبِلِ والغَنَمِ والبَقَرِ ، والحَرْثُ تُطْلَقُ عَلى الزَّرْعِ والنَّباتِ والثِّمارِ ، وهذِهِ إنْ أُدِّيَ حَقُّ اللهِ فيها ، وكانَتْ وَسيلةً مِنْ وسائِلِ الشُّكْرِ كانَتْ مِنَ الزِّينةِ الطَّيبةِ ، وإنْ شَغَلَتْ صاحِبَها عَنْ حُقوقِ اللهِ تَعالى كانَتْ عَلى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ .

ويقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ فَمتاعُ الدُّنيا قَليلٌ ، لَوَ أُعْطِيَ الإنْسانُ الدُّنْيا كُلَّها ، فَكَيْفَ بِهِ إذا لَمْ يَأْخُذْ مِنها إلاّ قَليلاً ، واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ ، أي : حُسْنُ المَرْجِعِ في الحياةِ الآخِرَةِ الّتي تَكونُ بَعْدَ مَوْتِ النّاسِ ، وبَعْثِهِمْ فلا يَنْبَغي أنْ يَجْعَلوا كُلَّ هَمِّهِمْ في هذا المتاعِ القريبِ العاجِلِ ، بِحَيْثُ يَشْغَلُهُمْ عَنِ الاسْتِعدادِ لِما هُوَ خَيْرٌ .

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ .

ثُمَّ جاءتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ وتُفَصِّلَ ما أُجْمِلَ هُنا ، وبَدأتْ بالاسْتِفهامِ ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب : في ثواب قراءة القرآن .

أيْ : بِخَيْرٍ مِنْ تِلْكَ الشَّهواتِ ، وهذا دَليلٌ عَلى أنَّ هذهِ خَيْرٌ في ذاتِها ، وجَوابُ الاسْتِفْهامِ : ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ فَقَدْ أعَدَّ اللهُ سُبْحانَهُ للمُتَّقينَ جَزاءً عَلى تَقْواهُمْ :

١ـ الجَزاءُ المادِيُّ : وهُوَ الجَنَّاتُ وَما فيها مِنْ خَيْراتٍ كالأَزْواجِ المُطَهَّرَةِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ ورِجْسٍ .

٢ـ الجَزاءُ المَعْنَوِيُّ : رِضوانُ اللهِ تَعالى .

﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ فَلَيْسَ كُلُّ مَنِ ادّعى التَّقوى كانَ تَقِيّاً ، فالمُتَّقي مَنْ عَلِمَ اللهُ ذَلِكَ مِنْهُ ، فَكانَ باطِنُهُ طاهِراً ، وظاهِرُهُ طاهِراً ، وفي هذا تَنبيهٌ للنّاسِ لِمُحاسَبةِ أنْفُسِهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ قَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعالى أنْ يَنْصُرَ عِبادَهُ المُتَّقينَ ، الّذينَ يُقاتِلونَ في سَبيلِهِ ، ولَوْ كانوا قِلَّةً وعَدوُّهُمْ كَبيرُ العَدَدِ .

٢ـ فَطَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى البَشَرَ عَلى حُبِّ الشَّهواتِ وزَيَّنَها في نُفوسِهِمْ .

٣ـ المُؤْمِنُ المتَّقي هُوَ الّذي لا تَفْتِنُهُ الشَّهواتُ ، ولا يَجْعلُها أكْبَرَ هَمِّهِ ، والشّاغِلَ لَهُ عَنْ آخِرَتِهِ .

٤ـ عِلْمُ اللهِ تَعالى بالمُتَّقينَ ، يَحْمِلُ الإنْسانَ عَلى مُحاسَبةِ نَفْسِهِ ، دائِماً ، ورَدِّها عَنِ الضّلالِ إلى الحَقِّ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَنِ الفِئَتانِ اللَّتانِ ذَكَرَتْهُما الآيةُ وضُرِبَ بِهما المَثَلُ ؟

٢ـ ما المَقصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِ﴾ ؟

٣ـ عَرِّفِ الزّينةَ ، مُبيِّناً الجوانبَ الّتي تَظْهَرُ فيها ، والأُصولَ الّتي تَرْجِعُ إليْها .

٤ـ لِماذا جاءَ الفِعْلُ « زُيِّنَ » مَبْنِيّاً لِلْمَجْهولِ ؟

٥ـ كَيْفَ كانَتِ النِّساءُ مِنَ المُزَيِّناتِ ؟ وما مَظاهِرُ هذهِ الزِّينةِ ؟

٦ـ الأَولادُ قَدْ يَكونونَ سَبَباً في ارْتِكابِ المُحرَّم ، وضِّحْ ذَلِكَ .

٧ـ هاتِ ما يَدُلُّ عَليْهِ قوْلُهُ تَعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ .

٨ـ ما الجزاءُ الّذي أعدَّهُ اللهُ تعالى للمُتَّقينَ ؟

٩ـ اذْكُرِ الشَّهواتِ الّتي تَميلُ لَها النُّفوسُ ، مُرَتَّبَةً حَسَبَ وُرودِها في الآيةِ الكَريمةِ .

نَشاطٌ :

١ـ كَمْ كانَ عَدَدُ المُؤْمِنينَ وعَدَدُ المُشْرِكينَ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ هُناكَ سورةٌ قُرْآنيَّةٌ تَحدَّثَتْ عَنْ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، أيُّ سورَةٍ تِلْكَ ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ مِنْ سورَةِ الفَجْرِ الدَّالةَ عَلى حُبِّ المالِ .

* * *

الدَّرسُ الرَّابعُ

سورةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ الرّابعُ

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

القانِتينَ	: المُداوِمينَ عَلى طاعةِ اللهِ في طُمَأْنينةٍ وخُشوعٍ .
بالأَسْحارِ	: في أواخِرِ اللَّيلِ إلى طُلوعِ الفَجْرِ .
قائِماً بالقِسْطِ	: مُقيماً لِلعَدْلِ .
الإِسْلامُ	: الإقْرارُ بالتَّوْحيدِ مَعَ التَّصْديقِ والعَمَلِ بِشَريعَتِهِ تَعالى .
بَغْياً	: تَجاوُزاً لِلْحَدِّ .

التَّفسيرُ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

ذَكَرَتِ الآياتُ الكَريمَةُ السَّابِقَةُ أنَّ المُتَّقينَ لَهُمْ جَزاءٌ عَظيمٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى ، وجاءَتِ الآياتُ هُنا لِتُبَيِّنَ شَأْناً مِنْ شُؤونِ هَؤلاءِ المُتَّقينَ ، فَهُمْ لِتأثُّرِ قُلوبِهِمْ بِتِلْكَ التَّقوى ، تَعْتَرِفُ أَلْسِنَتُهُمْ بِهذا الإيمانِ باللهِ تَعالى ، فَجاءَتِ الجُمْلَةُ اسْتِئْنافاً بَيانِيّاً ، أيْ : إجابةً عَنْ سُؤالٍ مُقَدَّرٍ في ذِهْنِ السّامِعِ ، فَكَأنَّ سائِلاً سَألَ : مَنْ هُمْ أُولئِكَ المُتَّقونَ الّذينَ لَهُمْ هَذا الجَزاءُ الحَسَنُ ؟ فَقيلَ : هُمُ الّذينَ يَقولونَ :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ ثُمَّ طَلَبوا المَغْفِرَةَ مِنَ اللهِ تعالى ، فَهُمْ أَقَرّوا أَوّلاً بالإيمانِ ، ثُمَّ طَلَبوا المَغْفِرَةَ ، وهِيَ سِتْرُ ذُنوبِهِمْ وتَخْليصُهُمْ مِنْها ، وأَنْ يَقِيَهُمْ عَذابَ النّارِ .

﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ .

ثُمَّ وَصَفَتِ الآياتُ هَؤلاءِ المُتَّقينَ بِخَمْسِ صِفاتٍ ؛ لابُدَّ أنْ يَتَحصَّنَ بِها المُسْلِمُ وَيَتسلَّحَ ، لِتَمْنَحَهُ القُدْرَةَ والقُوَّةَ ، وتَمْنَعَهُ مِنْ أنْ يَضْعُفَ أمامَ المُزَيَّناتِ الّتي ذَكَرَتْها الآيَةُ السّابِقَةُ ، وهَذِهِ الصِّفاتُ هِيَ :

١ـ « الصّابِرينَ » : وقَدْ بَدَأَتْ بِهذِهِ الصِّفَةِ ، لأنَّ مُقاوَمَةَ ما لا يَحِلُّ مِنَ المُزَيَّناتِ المَذْكورةِ سابِقاً لا بُدَّ لَهُ أوّلاً وقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الصَّبْرِ ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ مَثَلاً أنْ تُقاوَمَ شَهْوَةٌ مِنْ هذهِ الشَّهواتِ إذا لَمْ يَكُنِ المُسْلِمُ مُتَحَصِّناً بالصَّبْرِ ؟ ، لِذا وَجَدْنا الآيَةَ هُنا تَبْدأُ بِهذِهِ الصِّفَةِ ، والصَّبْرُ : حَبْسُ النَّفْسِ عَلى ما يَقتضيهِ الشَّرْعُ ، فَهُوَ أَصْلٌ لِفَضائِلَ كَثيرةٍ ، ولِعِظَمِ الصَّبْرِ لم يَخصَّهُ اللهُ بِجزاءٍ مُقَدَّرٍ ، وإنّما جَعَلَ أجْرَهُ لا يُحصى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : ١٠] .

٢ـ « الصّادِقينَ » : إنَّ صِفَةَ الإيمانِ لابُدَّ لَها مِنْ صِدْقٍ ، فَكثيرونَ هُمْ أُولئِكَ الّذينَ يَدَّعونَ الزُّهْدَ والعِفَّةَ والتَّواضُعَ والقَناعةَ ، ومَعَ ذَلِكَ لا يَكونونَ صادِقينَ . والصِّدقُ لَيْسَ صِدْقَ الحديثِ فَحَسْبُ ، إنّما الصِّدْقُ أنْ تَصْدُقَ مَعَ نَفْسِكَ ومَعَ النّاسِ بَعْدَ أنْ تَصْدُقَ مَعَ اللهِ تَعالى . الصِّدْقُ هُوَ أنْ يَكونَ ظاهِرُكَ وباطِنُكَ سواءً ، كُلٌّ مِنْهُما يُصَدِّقُ الآخَرَ . وقَدْ يَتَنَوَّعُ الصِّدْقُ فَيَكونُ في القَوْلِ والعَمَلِ والمَشاعِرِ . والصِّدِّيقُ : هُوَ الّذي يَتَحرَّى الصِّدْقَ في كُلِّ شَيْءٍ ، في قَوْلِهِ وعَمَلِهِ ، ونِيَّتِهِ وظَنِّهِ ، فَلا يَكْذِبُ ولا يُرائي ولا يَفْخَرُ بِما يَعْمَلُ ، ولا يُسيءُ الظَّنَّ بالآخَرينَ .

٣ـ « القانِتينَ » : القُنوتُ هُوَ الطّاعَةُ والخُضوعُ للهِ تَعالى ، ولَهُ أثَرٌ كَبيرٌ ووظيفَةٌ عَظيمَةٌ في مُحارَبَةِ المُزَيَّناتِ وعَدَمِ الاغْتِرارِ بِها ، ذَلِكَ لأنَّ الصَّبْرَ حَبْسُ النَّفْسِ ، فَهُوَ في الحَقيقَةِ قَهْرٌ لِهذِهِ النَّفْسِ وحَمْلُها عَلى تَحَمُّلِ ما تَكْرَهُ ، وأمّا الصِّدْقُ ، فَفيهِ حمْلُ النَّفسِ عَلى أنْ تَكونَ صادِقَةً مَعَ واقِعِها ، وأمّا القُنوتُ فَهُوَ يَشْغَلُ الإنْسانَ ، ويملأُ عَلَيْهِ تَفْكيرَهُ ، فإذا هَيْمَنَتْ صِفَةُ القُنوتِ عَلى صاحِبِها ، وَبَدأَ يَتَذوَّقُ حَلاوةَ العِبادةِ والطّاعَةِ ، كانَ ذَلِكَ خَيْرَ عَوْنٍ لَهُ عَلى طَرْحِ كلِّ ما تَعَلَّقَتْ بِهِ النَّفْسُ مِنْ حُبِّ الشَّهواتِ .

٤ـ « المنْفِقينَ » : الإنْفاقُ مِنْ أَبْرَزِ الصِّفاتِ الّتي تُمْتَحَنُ بِها النُّفوسُ ، ويُخْتَبَرُ بِها النّاسُ ، وقَدْ جاءَتْ هذِهِ الصِّفَةُ في المَرْتَبَةِ الرّابِعةِ ، ذَلِكَ أنَّ الصِّفاتِ الثّلاثَ الأُولى لَيْسَتْ لِفِئَةٍ دونَ فِئَةٍ مِنَ النّاسِ ، أمّا الإنْفاقُ ، فإنَّما هوَ للقادِرينَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ إنَّ حُبَّ الشَّهواتِ قَدْ يَحْمِلُ كَثيراً مِنَ النّاسِ عَلى إنْفاقِ المالِ دونَ حِسابٍ ، فَجاءَتْ صِفَةُ الإنْفاقِ ، ومِنْ ذَلِكَ أنَّ الإنْفاقَ قَدْ يَكونُ رياءً إذا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ المُنْفِقِ صَبْرٌ وصِدْقٌ وقُنوتٌ .

الإنْفاقُ إذا كانَ ناشئاً عَنْ صِدْقٍ وعِبادَةٍ ، فإنَّهُ يُعينُ عَلى انْتِزاعِ حُبِّ الدّنْيا مِنْ قِبَلِ المُنْفِقِ ، لِيَطْمَعَ فيما عِنْدَ اللهِ تعالى ، وبِذلِكَ تَخفُّ حِدَّةُ الشَّهْوةِ في نَفْسِهِ .

٥ـ « والمستغفِرينَ بالأسْحار » : جاءَتْ هَذِهِ الصِّفَةُ في المَرْتَبَةِ الأخيرةِ ، لأنّها كالسِّياجِ لِما تَقدَّمَها مِنْ صِفاتٍ ، والسَّحَرُ هُوَ آخِرُ اللَّيلِ ، وقَدْ أثْنى اللهُ سُبْحانَهُ عَلى المُتَّقينَ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧ـ١٨] .

إنّ الاسْتِغْفارَ لَهُ فوائدُهُ وهِيَ مَحْوُ الذُّنوبِ ، ولا شَكَّ في أنَّ في هذا جَلاءً لِلْقَلْبِ ، وتَفريجاً لِلْكَرْبِ ، وسِتْراً لِلْعَيْبِ .

وبَعْدَ أنْ تَحدَّثَتِ الآياتُ عَمّا أعدَّهُ اللهُ للمُتَّقينَ ، بيَّنَتْ أساسَ هذِهِ التَّقوى ، وهُوَ عقيدةُ التَّوْحيدِ ، وبَيَّنَتْ أنَّ الإسلامَ هُوَ الدِّينُ الّذي ارْتَضاهُ اللهُ للنّاسِ .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ .

والمَعْنى : إنَّ اللهَ تَعالى أخْبَرَ عِبادَهُ وأعْلَمَهُمْ عَنْ طَريقِ الآياتِ القُرْآنيَّةِ والآياتِ الكَوْنيَّةِ ، وغَيْرِها مِنَ الأدلَّةِ الّتي تَشْهَدُ عَلى وَحْدانيَّتِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وأنَّهُ المَعْبودُ بِحَقٍّ ، وهُوَ المُتَفَرِّدُ بالأُلوهيَّةِ ، وشَهِدَ بِذَلِكَ الملائِكَةُ بأنْ أقَرّوا بِوَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى ، وأُولوا العِلْمِ اعْتَرَفوا لَهُ بالوَحْدانيَّةِ ، وصَدَّقوا بِما جاءَهُمْ بِهِ الرَّسولُ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعالى : ﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴾ في أفْعالِهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ مُقيمٌ لِلْعَدْلِ في تَدْبيرِ أَمْرِ خَلْقِهِ وفي أَحْكامِهِ ، وفيما يُقيمُ بَيْنَهُمْ مِنَ الأَرْزاقِ والآجالِ ، وفيما يَأْمُر بِهِ ويَنْهى عَنْهُ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ والعِزَّةُ إشارَةٌ إلى كَمالِ القُدْرَةِ ، والحِكْمَةُ إشارةٌ إلى كَمالِ العِلْمِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ مطَّلِعٌ عَلى مَصالِحِ عبادِهِ وأحْوالِهِمْ ، لا يَغْلِبُهُ أحَدٌ عَلى إقامَةِ العَدْلِ بَيْنَ خَلْقِهِ ، ولا يَخرُجُ شَيْءٌ مِنَ الخَلْقِ عَنْ حِكْمَتِهِ البالِغَةِ .

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ .

وَذَكَرَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ الدُّسْتورَ الّذي يَقومُ عَلَيْهِ الدِّينُ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴾ إنَّ جَميعَ المِلَلِ والشَّرائِعِ الّتي جاءَ بِها الأَنْبياءُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ تَقومُ على الانْقِيادِ والخُضوعِ للهِ تَعالى . والمُرادُ بالإسْلامِ هُنا : شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ ، والإقْرارُ بما جاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، وهُوَ دينُ اللهِ الّذي شَرَعَهُ بِنَفْسِهِ ، وبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ ، ودَلَّ عليهِ أولياؤُهُ ، لا يَقْبَلُ غَيْرَهُ ، ولا يَجْزي بالإحْسانِ إلاّ بِهِ . ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ اخْتِلافَ أَهْلِ الكِتابِ في شَأْنِ الدِّينِ الحَقِّ ، لَمْ يَكُنْ عَنْ جَهْلٍ مِنْهُمْ

بالحَقائِقِ ، وإنَّما كانَ سَبَبُهُ البَغْيَ والحَسَدَ ، وطَلَبَ الدُّنيا .

وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللهُ سُبْحانَهُ بأنَّهُمْ أُوتوا الكِتابَ ، وقالَ : ﴿ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ وَهَذا فيهِ ما فيهِ مِنْ زِيادةِ التَّشْنيعِ عَلَيْهِمْ ، فالاخْتِلافُ بَعْدَ إتْيانِ الكِتابِ ومَجيءِ العِلْمِ ، فاحِشٌ قَبيحٌ ، إذِ الأصْلُ أنْ يَحْمِلَهُمُ الكِتابُ والعَمَلُ عَلى الإيمانِ ولَيْسَ عَلى الاخْتِلافِ .

لَقَدْ جاءتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ (وفْدِ نَجْرانَ) وهُمْ مِنَ النَّصارَى الّذينَ جاءوا لِيُحاجّوا النَّبيَّ ﷺ في أُمورِ الدِّينِ .

إنَّ المُلوكَ والأَحْبارَ هُمُ الّذينَ جَعَلوا الدِّينَ المَسيحيَّ مَذاهِبَ شَتَّى يَتناقَضُ بَعْضُها مَعَ بَعْضِها الآخَرِ ، وجَعَلوا أهلَهُ شِيَعاً يَفْتِكُ بَعْضُهُمْ بِبَعضٍ .

وَخُتِمَتِ الآياتُ الكَريمةُ بالتَّهْديدِ والوَعيدِ لأُولئِك الّذينَ اخْتَلَفوا في أُمورِ الدِّينِ :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِئَايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ مَنْ يَكْفُرْ بالآياتِ الدَّالَّةِ عَلى وَحْدانيَّتِهِ وعَلى وُجوبِ الاعْتِصامِ بدينِهِ سُبْحانَهُ ، والتي تُحرِّمُ الاخْتِلافَ والتَّفرُّقَ ، فإنَّ اللهَ تَعالى مُحاسِبُهُ ومُعاقِبُهُ . وسُرْعَةُ الحِسابِ تَدُلُّ عَلى العِقابِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الاتِّصافُ بِالصِّفاتِ المُحبَّبَةِ إلى اللهِ تَعالى ، مِنْ صَبْرٍ وصِدْقٍ وقُنوتٍ وإنْفاقٍ واسْتِغفارٍ بالأَسْحارِ ، يَحْمِلُ الإنْسانَ عَلى تَقوى اللهِ تَعالى وعَدَمِ الوُقوعِ فيما هُوَ حَرامٌ .

٢ـ عَدْلُ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى يَظْهَرُ في تَدبيرِ أَمْرِ خَلْقِهِ ، وفي أحْكامِهِ ، وفي تَدْبيرِ أمْرِ الرِّزْقِ والآجالِ .

٣ـ شَرَفُ العِلْمِ والعُلَماءِ ، ولِفَضْلِ العُلماءِ ومَكانَتِهِمْ رَفَعَ اللهُ مِنْ شَأْنِهِمْ وذَكَرَهُمْ مَعَ مَلائِكَتِهِ بَعْدَ ذِكْرِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى .

٤ـ وُجوبُ الابْتِعادِ عَنِ الخِلافِ في الدِّينِ والتَّفرُّقِ فيهِ إلى شِيَعٍ ومَذاهِبَ ، حتّى لا تُصابَ الأُمَّةُ بالذُّلِّ والخِذْلانِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَنِ المتَّقونَ الّذينَ أعدَّ اللهُ لَهُمْ جَزاءً حَسَناً ؟

٢ـ ذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الصِّفاتِ لِلْمُتَّقينَ ، اذْكُرْ هَذِهِ الصِّفاتِ مُرَتَّبَةً كَما جاءَتْ في الآيةِ .

٣ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ ذِكْرِ هذِهِ الصِّفاتِ هُنا وِفْقَ هذا التَّرْتيبِ ؟

٤ـ لِماذا ذُكِرَتْ صِفَةُ الصَّبْرِ أَوّلاً ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بالصِّدْقِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ ؟ وَمَنْ هُوَ الصِّدِّيقُ ؟

٦ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ ذِكْرِ صِفَةِ القُنوتِ في مُقابِلِ المُزيِّناتِ الّتي ذُكِرَتْ سابِقاً ؟

٧ـ ما العَلاقَةُ بَيْنَ حُبِّ الشَّهَواتِ والإنْفاقِ ؟

٨ـ بيِّنْ فوائِدَ الاسْتِغْفارِ في الأَسْحارِ .

٩ـ ذَكَرَتِ الآياتُ الدُّسْتورَ الّذي يَقومُ عَلَيْهِ الدِّينُ ، بيِّنْ هذا الدُّسْتورَ .

١٠ـ عَمَّنْ تَحدَّثَتْ آياتُ الدَّرْسِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الصِّفَةَ المُضادَّةَ لِكُلٍّ مِنْ الصِّفاتِ الوارِدَةِ في الآيةِ (١٧) مُبيِّناً الصِّفَةَ وضِدَّها .

٢ـ تَفرَّقَ النَّصارى فِرَقاً كَثيرةً ، سَمِّ أَرْبَعةَ فِرَقٍ مِنْهُم ، واكْتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدّرس الخامس

سورةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الخامِسُ

فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

حاجُّوكَ : جادَلوكَ .

أَسْلَمْتُ : اسْتَسْلَمْتُ وخَضَعْتُ .

الأُمّيّينَ : مُشركي العَرَبِ ، واحدُهُمْ أُمّيٌّ ، سُمُّوا كَذَلِكَ لِجَهْلِهِمْ في الكِتابَةِ والقِراءَةِ .

فَبَشِّرْهُمْ : فخَبِّرْهُم خَبَراً سارّاً .

حَبِطَتْ : بَطَلَتْ .

التَّفسيرُ :

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

تَتَحدَّثُ الآياتُ عَنْ أُولئِكَ الّذينَ اخْتَلَفوا في الكِتابِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمْ ، ويُخاطِبُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى نَبيَّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ أيْ : إنْ جادَلَكَ أَهْلُ الكِتابِ وَمَنْ كانَ عَلى شاكِلَتِهِمْ بَعْدَ أنْ

جِئْتَهُمْ بالحَقِّ المُبينِ ، وبَعْدَ أنْ قامَتِ الحُجَجُ والبَيِّناتُ والبَراهينُ عَلى ذَلِكَ الحَقِّ ، ودَمَغَتِ الباطِلَ بالآياتِ والدَّلائِلِ ، بَعْدَ هذا كُلِّهُ إنْ جادَلَكَ أهْلُ الكِتابِ ، فَقُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ : إنّي قَدْ أخْلَصْتُ عِبادتي للهِ سُبْحانَهُ وتَعالى وَحْدَهُ ، وأطَعْتُهُ وخَضَعْتُ لَهُ سُبْحانَهُ ، وكَذلِكَ مَنِ اتَّبَعَني مِنَ المُؤْمِنينَ أخْلَصوا للهِ عِبادَتَهُمْ .

وأَهْلُ الكِتابِ هُمُ اليَهودُ والنَّصارى ، والأُميّونَ هُمُ العَرَبُ الذينَ سُمّوا كَذلِكَ لِعَدَمِ عِلْمِهِمْ بالكِتابَةِ والقِراءَةِ ، وَقَدْ خَصَّهَمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بِالذِّكْرِ ، مَعَ أَنَّ الآيَةَ عامَّةٌ ، وذَلِكَ أنَّهُمْ هُمُ الّذينَ خاطَبَهُمْ الرَّسولُ ﷺ بالدَّعْوَةِ مُباشَرَةً .

يَقولُ سُبْحانَهُ : قُلْ يا مُحمَّدُ لِهؤلاءِ ﴿أَأَسْلَمْتُم﴾ والهَمْزَةُ للاسْتِفْهام ، وقَدْ جاءَ تَقْريعاً وتَوْبيخاً لأُولئِكَ المُعْرِضينَ عَنْ دينِ اللهِ تَعالى . والمَقْصودُ بالإسْلام : الخُضوعُ التّامُّ للهِ تَعالى ، والانْقيادُ لَهُ فيما يَأْمُرُ ويَنْهى عَنْهُ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ وُجوهَهُم للهِ تَعالى ، وَصَدَّقوا بالحَقِّ ، وكانَ إسْلامُهُمْ كإسْلام الرَّسولِ ﷺ والمُؤْمِنينَ ، فَقَدِ اهْتَدَوْا إلى طَريقِ الحَقِّ ، ولَكِنَّهُمْ إنْ تَوَلَّوْا مُعْرِضينَ عَنِ الاعْتِرافِ بِصِحَّةِ ما جِئْتَ بِهِ يا مَحَمَّدُ مِنَ الحَقِّ ، فإنَّ إعْراضَهُمْ هذا لَنْ يَضُرَّكَ ـ أيُّها الرَّسولُ ـ لأَنَّ كُلَّ الّذي عَلَيْكَ هُوَ تَبْليغُ هذِهِ الدَّعْوَةِ للنّاسِ ، ولَسْتَ مُحاسَباً عَلى عَدَمِ إيمانِهِمْ .

وفي قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ قَصْرٌ ، فَقَدْ قَصَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى نَبيَّهُ ﷺ عَلى تَبْليغِ الدَّعْوَةِ ، أمّا الحِسابُ فَهُوَ عَلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ .

﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ إنَّهُ سُبْحانَهُ ، أَعْلَمُ بِمَنْ طَمَسَ عَلى قَلْبِهِ فَكانَ في شَقاءٍ دامِسٍ ، وأعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى فَوَفَّقَهُ اللهُ تَعالى إلى مَعْرِفَةِ الحَقِّ .

لَقَدْ بَيَّنَتِ الآياتُ أنَّ الإسْلامَ هُوَ الدِّينُ الحَقُّ الّذي ارْتَضاهُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِعِبادِهِ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ ، ولَكِنَّ كَثيراً مِنَ النّاسِ بَدّلوا وَحَرَّفوا وأَعْرَضوا عَنْ دينِ اللهِ تَعالى ، ومِنْ هَؤلاءِ أَهْلُ الكِتابِ الّذينَ كَفَروا بآياتِ اللهِ تَعالى ، قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ .

لَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ هَؤلاءِ الكافِرينَ ومِنْهُمُ اليَهودَ ، بِحَيْثُ لَوْ فَكَّرَ فيها كُلُّ مَنْ عِنْدَهُ عَقْلٌ لَنَفَرَ مِنْهُمْ ، واتَّجَهَ إلى طَريقِ الحَقِّ ، وهذِهِ الصِّفاتُ هِيَ :

١ـ يَكفُرونَ بآياتِ اللهِ : هَؤلاءِ يَكْفُرونَ بآياتِ اللهِ تَعالى الّتي تَدُلُّ عَلى وَحْدانِيَّتِهِ تَعالى ، واليَهودُ مِنْ عَهْدِ موسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، حَتّى عَهْدِ محمَّدٍ ﷺ اعْتادوا عَلى الكُفْرِ بآياتِ اللهِ تَعالى الواضِحَةِ البَيِّنَةِ ، ولا أَدَلَّ عَلى ذَلِكَ مِنْ عِبادَتِهِمُ العِجْلَ بَعْدَ أنْ نَجّاهُمُ اللهُ مِنْ فِرْعَونَ وقَوْمِهِ .

٢ـ وَيقتُلونَ النَّبيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ : وَقَتْلُ الأَنبياءِ فيه ما فيهِ مِنَ البَشاعَةِ ، وَهُمْ لَيْسَ لَهُمْ أيُّ عُذْرٍ في قَتْلِهِمْ ، فَهذا القَتْلُ لا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ بِحقٍّ أبداً ، وقَدْ عَبَّرَ بِالفِعْلِ المضارِعِ (يَكْفُرونَ) ، (يَقتُلونَ) لِيَدُلَّ عَلى الاسْتِمرارِ والتَّجدُّدِ ، فَهُمْ مُسْتَمِرُّونَ عَلى هذا الفِعْلِ .

٣ـ ويقتُلونَ الّذينَ يَأْمُرونَ بالقِسْطِ مِنَ النّاسِ : إنَّهُمْ لا يَكْتَفونَ بِقَتْلِ الأَنْبياءِ الّذينَ بَعَثَهُمُ اللهُ تَعالى لِهدايَتِهِمْ وإسْعادِهِمْ ، لَكنَّهُمْ يَقتُلونَ كَذلِكَ الحُكَماءَ والمُصْلِحينَ والدُّعاةَ إلى اللهِ الّذينَ يُرْشِدونَهُمْ إلى العَدالَةِ في كُلِّ شَيْءٍ ، هذهِ بَعْضُ أَفْعالِهِمْ وجَرائِمِهِمْ ، فَما هِيَ نَتيجَةُ هذهِ الجرائِمِ ؟

يَقولُ تَعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إنَّهُ سُبْحانَهُ وتعالى يُخبِرُهُمْ بِمَصيرِهِمُ اسْتِهْزاءً بِهِمْ بِأَنَّ بِشارَتَهُمْ هِيَ العَذابُ الأَليمُ ، فَهُمْ قَدْ كانوا في الدُّنْيا يَدَّعونَ أَنَّهُمْ أَبناءُ اللهِ وأَحِبّاؤُهُ ، فَأَخْبَرَهُمْ سُبْحانَهُ بِهذِهِ النَّتيجَةِ .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

إنَّ هَؤلاءِ قَدْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُم ، فَلا يَنْتَفِعونَ بِشَيْءٍ مِنْها ، لأنَّ العَمَلَ الصّالِحَ ، يَنْفَعُ مَنْ كانَتْ نَفْسُهُ مُطْمَئِنَّةً بالإيمانِ ، أَمَّا هَؤلاءِ فإنَّ نُفوسَهُمْ قَدْ أَوْغَلَ فيها الفَسادُ ، وَقَسَتْ قُلوبُهُمْ ، فَهُمْ مَهْما عَمِلوا مِنْ عَمَلٍ يَرَوْنَهُ صالِحاً ، فإنَّهُ لَنْ يَنْفَعَهُمْ يَوْمَ القِيامةِ عِنْدَ اللهِ تَعالى ، ولِذا لَنْ يَجِدوا لَهُمْ ناصِراً يَنْصُرُهُمْ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى لا في الدُّنْيا ولا في الآخِرَةِ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وأَفْعالِهِمُ القَبيحةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإسْلامُ لَيْسَ مُجرّدَ حَرَكاتٍ نَقومُ بِها ، أَوْ مُجرّدَ كَلِمَةٍ نَتَفوَّهُ بِها ، ولَكِنَّ الإسْلامَ خُضوعٌ واسْتِسْلامٌ للهِ سُبْحانَهُ وتَعالى في كُلِّ ما يَأْمُرُ بِهِ وتركٌ لما نَهى عنهُ .

٢ـ وَظيفةُ الرَّسولِ هِيَ التَّبْليغُ فَقط ، فَهُوَ لَيْسَ مُسَيْطِراً عَلى النّاسِ ، ولا جَبّاراً ولا مُكْرِهاً لَهُمْ عَلى الدُّخولِ في الإسْلام .

٣ـ أَحَقُّ النّاسِ بالعَذابِ الأَليمِ الّذينَ طَغَوْا وأَسْرَفوا في الشَّرِ ، وبَعُدوا عَنِ الحَقِّ ، وحارَبوا كلَّ مَنْ يَدعو إلى دينِ اللهِ تَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ مَعانِيَ الكَلِماتِ التّاليةِ :

حاجُّوكَ ، الأُميِّينَ ، حَبِطَتْ أعْمالُهُمْ .

٢ـ مَنِ الذينَ حاجّوا النَّبيَّ ﷺ ؟

٣ـ بِمَ أَمَرَ اللهُ تَعالى الرَّسولَ ﷺ أنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ ؟

٤ـ ما مَعْنى الاسْتِفهامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بالإسْلامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ ؟

٦ـ هَلْ يَضُرُّ النَّبيَّ ﷺ إعْراضُ الكافِرينَ عَنِ الحَقِّ ؟

٧ـ ذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الصِّفاتِ لِلْيَهودِ تَنْفيراً مِنْهُم ، هاتِ هذِهِ الصِّفاتِ مُرَتَّبَةً كَما جاءَتْ في الآيةِ .

٨ـ بيِّنِ النَّتيجَةَ الّتي أعَدَّها اللهُ تَعالى لِهؤلاءِ الكافِرينَ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً يَدُلُّ عَلى عُمومِ بَعْثَةِ الرَّسولِ ﷺ .

٢ـ اذْكُرِ اسْمَ نَبيٍّ قَتَلَهُ اليَهودُ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ السَّادِسُ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ السّادِسُ

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

نصيباً : حظّاً .

الكِتابِ : التَّوراةِ .

لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم : لِيَفْصِلَ بَيْنَهُمْ .

يَتولّى : يُعْرِضُ .

يَفْتَرونَ : يُكذِّبونَ .

كَسَبَتْ : عَمِلَتْ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ .

المُلكِ : السُّلطةِ والتَّصرُّفِ في الأَمْرِ .

تُولجُ : تُدْخِلُ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابقَةُ بَعْضَ الأَوْصافِ الّتي اتَّصَفَ بِها أَهْلُ الكُفْرِ ومِنْهُمُ اليَهودُ ، وما زالَتِ الآياتُ تَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ ، يَقولُ سُبْحانَهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

سَبَبُ النُّزولِ :

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما : دَخَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ بَيْتَ المِدراسِ عَلى جَماعةٍ مِنَ اليَهودِ، أيْ : مَكانٌ يَتَدارسونَ فيهِ ـ فَدَعاهُمْ إلى اللهِ ، فَقالَ لَهُ بَعْضُهُمْ : عَلى أيِّ دينٍ أَنْتَ يا مُحَمَّدُ ؟ فَقالَ : إنّي عَلى مِلَّةِ إبْراهيمَ ودينِهِ ، قالوا : فإنَّ إبْراهيمَ كانَ يَهوديّاً ، فَقالَ النَّبيُّ فَهَلُمّوا إلى التَّوراةِ فَهِيَ بيْنَنا وَبَيْنَكُمْ ، فأبَوْا عَليهِ فَأَنْزَلَ اللهُ هذِهِ الآياتِ .

فَهذِهِ الآياتُ تُخْبِرُ عَنْ طائِفَةٍ مِنَ اليَهودِ المُعاصِرينَ للنَّبيِّ أنَّهُمْ دُعوا إلى التَّوْراةِ لِلتَّحاكُمِ إليْها في بَعْضِ ما تَنازَعوا فيهِ مَعَ رَسولِ اللهِ فَأَبَوْا ، ويَجوزُ أنْ يكونَ هَذا التَّنازُعُ في أَمْرِ نُبوَّتِهِ ، أوْ في أَمْرِ نُبوَّةِ إبْراهيمَ ودينِهِ ، أوْ في حدٍّ مِنَ الحُدودِ ، فإنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ ممّا نازَعوا فيهِ الرَّسولَ ﷺ .

بَدَأَتِ الآياتُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بِهذا الاسْتِفهامِ الّذي يُفيدُ التَّعجُّبَ مِنْ شَأْنِ اليَهودِ ومِنْ سوءِ صُنْعِهِمْ . ومَعْنَى الآيَةِ : ألَمْ تَرَ يا مُحَمَّدُ إلى هَؤلاءِ الّذينَ تَعْجَبُ لِعدمِ إيمانِهِمْ بِكَ ، إذْ إنَّهم يُعْرِضونَ عَنِ العَمَلِ بالكِتابِ الّذي أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ والّذي يُؤْمِنونَ بِه كما يَدَّعونَ لأَنَّهُ لا يُوافِقُ أَهْواءَهُمْ ، فإذا لَمْ يَعْمَلوا بِما في كتابِهِمْ ، فَهُمْ لَنْ يَعْمَلوا كَذلِكَ بِما أُنْزِلَ عَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ في القُرْآنِ الكَريمِ ، لأنَّ شَأْنَهُمْ ودَأْبَهُمُ الإعْراضُ عَنِ الحَقِّ والصَّوابِ دائِماً .

إنّ عِلْمَهُمْ بالكِتابِ كانَ أنْ يَتَّبعوهُ ويَعْمَلوا بِأَحْكامِهِ ، ولَكنَّهُمْ أبَوْا ذَلِكَ لِفَسادِ نُفوسِهِمْ . ويُبَيِّنُ سُبْحانَهُ وتَعالى الافْتِراءاتِ الّتي صَرَفَتْهُمْ عَنِ الحَقِّ :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ أيْ : ذلِكَ التَولّي والإعْراضُ عَنِ الحَقِّ الّذي صَدَرَ عَنْ كَثيرٍ مِنَ اليَهودِ سَبَبُهُ أَنَّهُمْ تَوَهَّموا أنَّ العَذابَ لَنْ يَمسَّهُمْ طَويلاً ، فَلَنْ يُعَذَّبوا إلاّ أياماً مَعْدوداتٍ في نارِ جَهنّمَ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُخْرَجونَ مِنها لأَنَّهُم أبناءُ اللهِ وأحبّاؤُهُ ، ولأَنَّ آباءَهُمْ سَيَشْفَعونَ لَهُمْ في زَعْمِهِمْ .

﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ لَقَدْ حَدَّدوا المُدَّةَ الّتي سَيُعاقَبونَ فيها ، وهذا مِنَ الافْتِراءِ الّذي يَنْشأُ عَنْ غُرورِهِمْ في دينِهِمْ ، فَقَدْ سَهَّلوا الأُمورَ عَلى أنْفُسِهِمْ ، ولَمْ يُبالوا بِالمعاصي والذُّنوبِ . والغُرورُ هُوَ أكْبَرُ الشُّرورِ الّتي تُبْعِدُ الإنْسانَ عَنْ دينِهِ .

ويُحدِّثُنا القُرْآنُ عَنْ حالِهِمْ يَوْمَ القيامةِ :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

كَيْفَ يَكونُ حالُهُمْ إذا حَشرَهُمُ اللهُ وجازاهُمْ بِما اكْتَسَبوهُ مِنْ أَعْمالِهِمُ القَبيحةِ ؟ والاسْتِفْهامُ هُنا لاسْتِعْظامِ ما أُعِدَّ لَهُم ، وتَهويلِهِ ، فَهمْ سَوْفَ يَقَعونَ فيما لا حيلَةَ لَهمْ في دَفْعِهِ والخَلاصِ مِنْهُ .

لَقَدْ كانَ أَهْلُ الكِتابِ مُنْكِرينَ لِنُبوَّةِ النَّبيِّ ، فَهُمْ يُنْكِرونَ أنْ يَكونَ نبيٌّ مِنْ غَيْرِ بَني إسْرائيلَ ، ولِذا جاءَتِ الآياتُ تُسلّي النَّبيَّ ﷺ ، وتُذَكِّرُهُ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعالى عَلى نُصْرَةِ وإعلاءِ كَلِمَتِهِ ، فقالَ لَهُ سُبْحانَهُ :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

إنّكَ يا اللهُ صاحِبُ السُّلْطانِ المُطْلَقِ في هذا الوُجودِ ، تَتصرَّفُ فيهِ كَما تَشاءُ ، وفي هذه الجُمْلَةِ تَحقيقٌ لِمَعْنى العُبوديّةِ والتَّنزيهِ والتَّقديسِ للهِ تَعالى ، ومِنْ مَظاهِرِ هذا السُّلطانِ المُطْلَقِ :

١ـ ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ : والمُلكُ يُحمَلُ عَلى جَميعِ أنْواعِهِ : مُلْكِ النُّبوَّةِ ، والعِلْمِ والعَقْلِ والصِّحَّةِ والأَخْلاقِ ، والسُّلْطانِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُؤتي هذا المُلْكَ لِمَنْ يَشاءُ أنْ يُؤْتِيَهُ إيّاهُ ، ويَنْزِعُهُ مِمّنْ يَشاءُ أنْ يَنْزِعَهُ مِنْهُ .

٢ـ ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يُعِزُّ مَنْ يَشاءُ إعْزازَهُ بالنَّصْرِ والتَّوفيقِ ، ويُذِلُّ مَنْ يَشاءُ إذْلالَهُ بالهَزيمَةِ والخِذْلانِ .

٣ـ ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ : فأَنْتَ وَحْدَكَ يا ربُّ الّذي تَمْلِكُ الخَيْرَ كُلَّهُ والشَّرَّ كُلَّهُ ، وتَتصرَّفُ فيهِ حَسَبَ إرادَتِكَ ومَشيئَتِكَ ، لأنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ .

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

٤ـ ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ أيْ : بِقُدْرَتِكَ يا ربُّ تُدْخِلُ جُزْءاً مِنَ اللّيْلِ في النَّهارِ ، فَيَقْصُرُ الليلُ ويَطولُ النّهارُ ، وتُدْخِلُ جُزْءاً مِنَ النَّهارِ في اللَّيلِ ، فَيَقْصُرُ النَّهارُ ويَطولُ اللَّيلُ ، وتَجْعَلُ اللَّيلَ والنَّهارَ مُتعاقِبَيْنِ .

٥ـ ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ أيْ : بِقُدْرَتِكَ يا رَبُّ تُخْرِجُ الحَيوانَ الحيَّ مِنَ النُّطْفَةِ وهِيَ مَيتةٌ ، وتُخْرِجُ النَّبْتَةَ الحيَّةَ مِنَ الحبَّةِ المَيتةِ ، والحبَّةَ الميتةَ مِنَ النَّبتةِ الحيَّةِ .

٦ـ ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فأَنْتَ يا ربّ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ أنْ تَرْزُقَهُ رِزْقاً واسِعاً عَظيماً ، فَأَنْتَ صاحِبُ الجودِ والكَرَم ، تُعْطي دونَ أنْ يَكونَ هُناكَ مُحاسِبٌ يُحاسِبُكَ ، ودونَ مُحاسَبةِ مَنْ تُعطيهِ ، لأنَّ خَزائِنَ مُلْكِكَ لا يُنْقِصُها العَطاءُ مَهْما كَثُرَ .

هذهِ هِيَ مَظاهِرُ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى وسُلطانِهِ المُطْلَقِ ، ورَحْمَتِهِ الواسِعَةِ ، يَنْبَغي أنْ تَحمِلَ كُلَّ مَنْ عِنْدَهُ عَقْلٌ عَلى إخْلاصِ العِبادَةِ للهِ تَعالى وَحْدَهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عَلى المُؤْمِنِ أنْ يَرْجِعَ في جَميعِ أُمورِهِ إلى كِتابِ اللهِ تَعالى ، فَلا يَحْتَكِمُ إلاّ إليْهِ .

٢ـ افْتراءُ اليَهودِ الكَذِبَ وغُرورُهُمْ ، بِسَبَبِ ادِّعائِهِمْ أنَّهُمْ أحْبابُ اللهِ تَعالى ، وأنَّهُمْ لَنْ تَمسَّهُمُ النّارُ إلاّ أيّاماً مَعْدودَةً .

٣ـ المالِكُ والمُتَصَرِّفُ والمُعْطي والمانِعُ في الكَوْنِ هُوَ اللهُ تَعالى ، والمُؤْمِنُ يَقْنَعُ بِما أَعْطاهُ سُبْحانَهُ وتعالى .

٤ـ المَغْرورُ والجاهِلُ الّذي يَعْتَزُّ بِغَيْرِ اللهِ ، ويَلْجَأُ إلى غَيْرِ اللهِ ويَذِلُّ لِغَيْرِهِ .

٥ـ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى غالِبٌ على أمْرِهِ ، قادِرٌ على نَصْرِ أوْلِيائِهِ وَعبادِهِ الصّالِحينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ سَبَبَ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَلَم تَرَ الَّذينَ أُوتُوا نَصيباً مِّنَ الْكِتَابِ﴾ .

٢ـ لَقَدْ دَعا النَّبيُّ ﷺ اليَهودَ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فيما تَنازَعوا فيهِ ، ما الأُمورُ الّتي تَنازعوا فيها ؟

٣ـ ما المَقْصودُ بالاسْتِفهامِ ﴿أَلَم تَرَ﴾ ؟

٤ـ هاتِ حادِثةً تَدُلُّ عَلى أنَّ أهْلَ الكِتابِ مُعْرِضونَ عَنِ الحَقِّ ، ولا يَعْمَلونَ بِما في كِتابِهِمْ .

٥ـ ما الأَسْبابُ الّتي صَرَفَتْ أهْلَ الكِتابِ عَنِ اتِّباعِ الحَقِّ ؟

٦ـ كَيْفَ سَيَكونُ حالُ أَهْلِ الكِتابِ يَوْمَ القِيامَةِ ؟

٧ـ ذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ المَظاهِرِ لِقُدْرَةِ اللهِ وسُلْطانِهِ المُطْلَقِ . هاتِ هذهِ المَظاهِرَ مُرَتَّبَةً كَما جاءَتْ في الآيةِ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ آيةً قُرْآنِيَّةً تَدُلُّ عَلى أنَّ العِزَّةَ للهِ ولِرَسولِهِ ﷺ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الوَقْتَ الّذي يَكونُ فيهِ اللّيلُ أَطْولَ مِنَ النَّهارِ ، والنهّارُ أطْوَلَ مِنَ الَّليلِ .

* * *

الدَّرسُ السَّابعُ

سورةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ السّابِعُ

لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَولياءَ : بِطانَةً وأَعْواناً .

تتّقوا مِنْهُمْ تُقاةً : تَخافوا مِنْ شرِّهِمْ ومَكْرِهِمْ .

يُحذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ : يُخوِّفُكمُ اللهُ غَضبَهُ وعِقابَهُ .

مُحْضَراً : مُشاهَداً في صُحُفِ الأَعْمالِ .

أَمَداً : مَسافَةً .

التَّفسيرُ :

﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

تَتحَدَّثُ الآياتُ عَنِ العَلاقةِ الّتي يَنْبَغي أَنْ تَكونَ بَيْنَ الكافِرينَ والمُؤْمِنينَ ، وذَلِكَ أَنَّه لا يَحِلُّ

للمُؤْمنينَ أنْ يتَّخِذوا الكافِرينَ أَوْلياءَ ونُصَراءَ ، ولَكنْ عَلَيْهِمْ أن يُراعوا ما فيهِ مَصْلَحَةُ الإسْلامِ ، ومَصْلَحَةُ المُسْلِمينَ ، وعَلَيْهِمْ أنْ يُقَدِّموا مَصْلَحَةَ الدِّينِ عَلى ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الكُفّارِ مِنْ قَرابَةٍ أَوْ صَداقَةٍ أَوْ أَيِّ صِلَةٍ أُخرى ﴿ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾ أيْ : مِنْ مَكانٍ دونَ مَكانِ المُؤْمِنينَ ، وهُوَ مَكانُ الكافِرينَ .

إنَّ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَيتَّخِذُ لَهُ أَوْلِياءَ مِنَ الكافِرينَ ﴿ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ ﴾ أيْ : لَيْسَ مِنْ وِلايَةِ اللهِ في شَيْءٍ . وَوِلايَةُ اللهِ مِنَ العَبْدِ طاعتُهُ وَنَصْرُ دينِهِ ، ومِنَ اللهِ مَثوبَتُهُ ورِضْوانُهُ ، ومَعْنى الآيَةِ : أنَّهُ تَنْقَطِعُ الصِّلَةُ بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ ، فَيَكونُ مِنَ الكافِرينَ ، فإنَّ مَنْ تَوَلّى الكافِرينَ كانَ مِنْهُم وكانَ عَدُوّاً للهِ .

﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةًۗ ﴾ اسْتِثْناءٌ مَعْناهُ : لا تَتَّخِذوا أيُّها المُؤْمِنونَ الكافِرينَ أَوْلياءَ في أيِّ حالٍ مِنَ الأَحْوالِ إلاّ في حالِ اتِّقائِكُمْ مِنْهُم ، أي : إلاّ أنْ تَخافوا مِنْهُم مَخافَةً ، أَوْ إلاّ أنْ تَخافوا مِنْ جِهَتِهِمْ أَمْراً يَجِبُ إتِّقاؤُهُ مِنَ الضَّرَرِ في النَّفْسِ أَوِ المالِ أَوِ العِرْضِ .

وإذا جازَ لِلْمُسْلِمينَ أنْ يَتَّقوا ضَرَرَ الكافِرينَ ، فَيَجوزُ لَهُمْ ـ إذَنْ ـ أنْ يُوالوهُمْ لأَجْلِ مَصْلَحَتِهِمْ . وعَلَيْهِ ، يَجوزُ للحُكّامِ المُسْلِمينَ أنْ يُحالِفوا الدُّوَلَ غَيْرَ المُسْلِمَةِ لأَجْلِ فائِدَةِ المُؤْمِنينَ بِدَفْعِ الضُّرِّ أَوْ جَلْبِ المَصْلَحَةِ ، ولَيْسَ لَهُمْ أنْ يوالوهُمْ في شَيْءٍ يَضُرُّ بِالمُسْلِمينَ كَما هُوَ حالُ المُسْلِمينَ اليَوْمَ وللأَسَفِ ، فهم يُوالونَ غَيْرَ المُسْلِمينَ مِنْ أَجْلِ إيْقاعِ الضَّرَرِ بالمُسْلِمينَ .

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ تَهْديدٌ وتَخْويفٌ مِنْ مُوالاةِ الكافِرينَ ، أيْ : يُحَذِّرُكُمْ اللهُ مِنْ عِقابِهِ وانْتِقامِهِ ، وذَكَرَ سُبْحانَهُ كَلِمَةَ ﴿نَفۡسَهُۥ﴾ لِيَعْلَمَ كُلُّ مَنِ اتَّخَذَ الكافِرينَ أَوْلِياءَ أنَّ الوَعيدَ والعِقابَ صادِرٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ قادِرٌ عَلى إنفاذِ أَمْرِهِ ، لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ في الأَرْضِ ولا في السَّماواتِ ، إليهِ وَحْدَهُ سُبْحانَهُ المَرْجِعُ والمَآلُ ، وسَيُجازيهِمْ عَلى أعْمالِهِمْ بِما يَسْتَحِقّونَ .

﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

وَبَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّهُ عَليمٌ بِظَواهِرِ النّاسِ وبَواطِنِهِمْ ، ﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ ﴾ قُلْ يا مُحَمَّدُ لِمَنْ يَتَّخِذُ الكافِرينَ أَوْلِياءَ مِنْ دونِ المُؤْمِنينَ مُرْشِداً لَهُمْ ومُحَذِّراً : إنَّ تُخفوا ما في صُدورِكُمْ مِنْ وِلايَةِ الكُفّارِ أَوْ أيّ أَمْرٍ آخَرَ مِنْ قَوْلٍ أو فِعْلٍ فإنَّ اللهَ تَعالى يَعْلَمُهُ ، فَهُوَ يَعْلَمُ ما تَنْطَوي عَلَيْهِ نُفوسُكُمْ مِنْ مُوالاةِ الكافِرينَ ، أَوْ كُرْهِكُمْ لَهُمْ ونُفورِكُمْ مِنْهُمْ ، إنَّه سُبْحانَهُ وتَعالى يُجازيكُمْ عَلى حَسَبِ عِلْمِهِ الّذي يُحيطُ بِما في السَّماواتِ والأَرْضِ ، فَهُوَ الخالِقُ لَهُما ، وهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ، فلا يُمْكِنُ أنْ يَفْلِتَ مِنْ قُدْرَتِهِ أَحَدٌ ، ولا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : احْذَروا يوماً تَجِدُ كُلُّ نفْسٍ عَمَلَها مِنَ الخَيْرِ مُحْضَراً ، ومَعْنى ذلِكَ : أنَّ عَمَلَهُ في الدُّنْيا عادَ عَلَيْهِ بالنَّفْعِ والفائِدَةِ يَوْمَ القِيامَةِ ، وكَذلِكَ كُلُّ نَفْسٍ عَمِلَتِ السُّوءَ تَجِدُهُ أمامَها ، فَتَودُّ كُلُّ نَفْسٍ اقْتَرَفَتْ هذا السُّوءَ لَوْ أنَّهُ كانَ بَعيداً عَنْها ولمْ تَرَهُ وَلَمْ تُحاسَبْ عَلَيْهِ .

إنَّ النَّفْسَ الّتي عَمِلَتْ خَيْراً سَتجِدُ ما عَمِلَتْهُ مُحْضَراً فَتَتَنَعَّمُ بِسَبَبِ إحْسانِها ، ولكنَّ النَّفْسَ المُسيئَةَ سَوْفَ تَبْتَئِسُ وتَغْتَمُّ بِما أساءَتْ في الدُّنْيا ، وتَودُّ لَوْ كانَ بَيْنَها وبَيْنَ عَمِلِها بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ . ويُحذِّرُكُمُ اللهُ عِقابَهُ في الآخِرَةِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ مُحيطٌ بِأَعْمالِكُمْ ، وهُوَ رَؤوفٌ في إنْذارِهِ إيّاكُمْ حَيْثُ حذَّرَكُمْ مِنْ عِقابِهِ ، وعرَّفَكُمْ كَمالَ عِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ ، وأنَّهُ يُمْهِلُ ولا يُهْمِلُ ورغَّبَكُمْ في رَحْمَتِهِ ، وحَذَّرَكُمْ مِنَ اسْتِحقاقِ غَضَبِهِ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ للنّاسِ الطّريقَ الّذي يَنْبَغي عَلَيْهِمْ أنْ يَسْلُكوهُ ، لِيَكونوا ممّنْ يُحبُّهُمُ اللهُ تَعالى :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ .

يُروى في سَبَبِ نُزولِ هذِهِ الآيَةِ أنَّ وفدَ نَجْرانَ وهُمْ مِنَ النَّصارى قالوا : إنّما نُعَظِّمُ المَسيحَ عيسى ونَعبُدُهُ حبّاً للهِ تَعالى وتَعْظيماً لَهُ ، فَأنْزَلَ اللهُ الآيَةَ ردّاً عَلَيْهِمْ . ومَعنى الآيةِ : قُلْ يا مُحمَّدُ مُرْشِداً ومُبيِّناً لأهْلِ الكِتابِ وللنّاسِ أجْمَعينَ : إنْ كُنْتُم تُحبُّونَ اللهَ تَعالى كَما تَدَّعونَ فاتَّبعوني ، إذْ إنَّ اتِّباعَكُمْ لي يُؤدِّي إلى مَحبَّةِ اللهِ تَعالى لَكُمْ ، وإلى غُفْرانِهِ لِذُنوبِكُمْ ، وذَلِكَ لأنَّ مَحبَّةَ اللهِ تَعالى لَيْسَتْ مُجرَّدَ دَعوى باللِّسانِ ، ولَكنَّ مَحبَّةَ اللهِ تَتَحقَّقُ باتِّباعِ كُلِّ ما أَمَرَ اللهُ تَعالى بِهِ ، واجْتِنابِ كُلِّ ما نَهى اللهُ تَعالى عَنْهُ ، قالَ الشّاعِرُ :

تَعْصي الإلهَ وأنتَ تُظهِرُ حُبَّهُ	هذا لَعَمْري في القِياسِ بَديعُ
لَوْ كانَ حُبُّكَ صادِقاً لأطَعْتَهُ	إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطيعُ

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

ويُؤَكِّدُ سُبْحانَهُ على الأَمْرِ بإطاعتِهِ وذَلِكَ باتِّباعِ كِتابِهِ ، وإطاعةِ الرَّسولِ ﷺ باتِّباعِ سُنَّتِهِ والاهْتِداءِ بِهَدْيِهِ فإنْ تَوَلَّوْا وأَعْرَضوا ولَمْ يُجيبوا دَعْوَتَكَ يا مُحَمَّدُ ، فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافِرينَ الّذينَ تَصرِفُهُمْ أهْواؤُهُمْ عَنِ النَّظَرِ الصَّحيحِ في آياتِ اللهِ ، واتِّباعِ سُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ ، ويَتَمسَّكونَ بِالشِّرْكِ والضَّلالِ ، هَؤلاءِ كافِرونَ ، وإنِ ادَّعَوْا أنَّهُمْ مُؤْمِنونَ يُحبُّونَ اللهَ ورَسُولَهُ ﷺ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ يَحْرُمُ عَلى المُؤْمنينَ مُوالاةُ الكافِرينَ إلاّ إنْ خافوا ضَرَراً عَلى دينِهِمْ .

٢ـ المُؤْمِنُ هُو الّذي يَحْذَرُ عِقابَ اللهِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، فلا يَعْمَلُ إلاّ خَيْراً، ويَتجنَّبُ عَمَلَ السُّوءِ.

٣ـ مَنْ يدَّعي مَحَبَّةَ اللهِ تَعالى ، ولا يَسيرُ عَلى طريقِ الحقِّ الّذي شَرَعَهُ اللهُ ، كاذبٌ في مَحبَّتِهِ ، فالدّعوى لابدَّ وأنْ يُصَدِّقَها العَمَلُ .

٤ـ مَحبَّةُ اللهِ تَكونُ بإخْلاصِ العِبادةِ لَهُ ، والوُقوفِ عِنْدَ حُدودِهِ ، والاسْتِجابةِ لِتَعاليمِ رَسولِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الّذي يَنْبَغي لِلْمُسْلِمِ أنْ يُراعِيَهُ مِنْ صِفاتٍ فيمَنْ يَتَّخِذُهُ وليّاً ؟

٢ـ كَيْفَ يَنْبَغي أنْ تَكونَ العَلاقةُ بَيْنَ الكافِرينَ والمُؤْمِنينَ ؟

٣ـ بِماذا تَوعَّدَ اللهُ تَعالى مَنْ يَتّخِذُ الكافِرينَ أَوْلياءَ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿إلاّ أَنْ تَتَّقوا مِنْهُمْ تُقاة﴾ ؟

٥ـ ما مَعْنى : ويُحَذِّرُكُم اللهُ نَفْسَهُ ؟

٦ـ مِمَّ حَذَّرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى النّاسَ يَوْمَ القِيامَةِ ؟

٧ـ بيَّنَتِ الآياتُ الطَّريقَ الّتي يَنْبَغي عَلى المُسْلِمينَ أنْ يَسْلُكوها لِيَكونوا مِمّنْ يُحبُّهُمُ اللهُ تَعالى ، وضِّحْها .

٨ـ ما الدَّليلُ عَلى مَحبّةِ العَبْدِ للهِ تَعالى ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما فَعَلَهُ عَمّارُ بنُ ياسرٍ عِنْدَما عَذَّبَهُ الكُفّارُ ، لِيَنْجوَ بِنَفْسِهِ ، وعَلامَ يَدُلُّ فِعْلُهُ .

٢ـ ارْجِعْ إلى أَحَدِ المُعْجَماتِ اللُّغويةِ واسْتَخْرِجِ الفَرْقَ بَيْنَ الأَمَدِ والأَبَدِ والزَّمانِ .

الدَّرْسُ الثَّامِنُ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الثّامِنُ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

اصْطَفى	: اخْتارَ .
آلَ عِمْرانَ	: عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ وأُمَّهُ عليها السَّلامُ ، وعِمْرانَ وامْرأةَ عِمْرانَ .
مُحرَّراً	: مُعْتَقاً مِنْ شَواغِلِ الدُّنيا ، ومُفرَّغاً لِعبادةِ اللهِ .
أُعيذُها	: أُحَصِّنُها بِكَ .
كَفَّلَها زكرِيا	: جَعَلَهُ كافِلاً لَها وضامِناً لِمصالِحِها .
المِحْرابَ	: غُرْفَةَ العِبادةِ في بَيْتِ المَقْدِسِ .
أنّى لكِ هذا	: مِنْ أينَ لكِ هذا .

التَّفسيرُ :

ذَكَرَ سُبْحانَهُ أنَّ مَحبَّتَهُ مُرْتَبِطَةٌ باتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ ، فَمَنْ كانَ صادِقاً في حُبِّهِ ، وكَذلِكَ مَنِ اتَّبَعَ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فإنَّهُ يَصِلُ إلى مَحبَّةِ اللهِ تَعالى ، فَقَدِ اصْطَفى اللهُ تَعالى الرُّسُلَ

وبعثَهُمْ لِلنّاسِ ، لِيُبيِّنَ لَهُمْ طريقَ الحَقِّ مِنْ طُرُقِ الضَّلالِ .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

لَقَدِ اخْتارَهُمُ اللهُ تَعالى وجَعَلَهُمْ صَفْوةَ العالَمينَ وخِيارَهُمْ ، وذَلِكَ بأنْ جَعَلَ الرِّسالةَ والنُّبُوَّةَ فيهم ، فَقَدِ اخْتارَ آدمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أباً لِلْبَشَرِ ، وجَعَلَ مِنْ ذُرِّيَتِهِ مِنَ النَّبيِّينَ والمُرْسَلينَ ، ونُوحاً عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، أرْسَلَهُ لِقَوْمِهِ فلَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُم إلاّ القَليلُ ، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ ، وكانَ مِنْ سُلالَتِهِ الأَنْبياءُ والمُرْسَلونَ ، وتَتابَعَ المُخْتارونَ بَعْدَهُ ، وكانَ مِنْ أرْفَعِهِمْ قَدْراً آلُ عِمرانَ الّذينَ مِنْهُمْ مَريمُ عَلَيْها السّلامُ وابنُها عيسى عَلَيْهِ السّلامُ .

وتَتَحدَّثُ الآياتُ عَنْ آلِ عِمرانَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى كانَ سَميعاً لِقَوْلِ امْرأَةِ عِمْرانَ ، عَليماً بنيَّتِها وَقْتَ مُناجاتِها لِرَبِّها سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَقَدْ نَذَرَتْ للهِ نَذْراً .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

اذْكُرْ يا مُحمَّدُ ويا مَنْ تَقرأُ كِتابَ اللهِ مُتَدبِّراً وقَتَ أنْ قالتِ امْرأةُ عِمرانَ : رَبِّ إنّي نَذَرْتُ لَكَ ما في بَطْني مُحَرَّراً ، لَقَدْ نَذَرَتْ أنْ يَكونَ ما في بَطْنِها مُعتَقاً للهِ تَعالى ، وخِدْمَةِ بَيْتِهِ ومُخْلِصاً لِهذِهِ العِبادَةِ والخِدْمَةِ لا يَشْتَغِلُ بأيِّ شَيْءٍ آخَرَ ، وقَدْ نَذَرَتْ هَذا النَّذْرَ لأنَّها كانَتْ تَعتقدُ أنَّ ما في بطنِها ذَكَرٌ ، وأَثْنَتْ عَلى اللهِ تَعالى بأنَّهُ سَميعُ الدُّعاءِ ، عَليمٌ بما في أنْفُسِ الدّاعينَ .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ . هَذِهِ الجُمْلَةُ خَبَرِيَّةٌ تُفيدُ التَّحسُّرَ والاعْتِذارَ ، لَقَدْ كانَتْ تَعتقدُ أنّ ما في بَطْنِها ذَكَرٌ ، ولَكنَّهُ جاءَ أُنْثى ، فَأَكَّدَتْ بِهذا المُؤَكِّدِ (إنِّي) لِتُزيلَ كُلَّ ما عَلِقَ في نَفْسِها مِنْ كَوْنِ ما في بَطْنِها ذَكَراً ، واللهُ أَعْلَمُ بما وَضَعَتْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ أعْلَمُ بِأَنَّها وَضَعَتْ أنْثى وأنَّ هذِهِ الأُنْثى لَها مَكانَتُها العَظيمةُ ، وهِيَ خَيْرٌ مِنْ كَثيرٍ مِنَ الذُّكور ، ثُمَّ قالَتْ : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ ﴾ لأنَّ الأُنْثى لا تَصْلُحُ لِما يَصْلُحُ الذَّكرُ لَهُ ، فَقَدْ كانوا يُجيزُونَ تَحريرَ الذُّكورِ لِخِدْمَةِ بَيْتِ المَقْدِسِ ، ولا يُجيزونَ ذَلِكَ للإناثِ ، لأنَّ الأُنْثى تَحيضُ .

﴿ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ . لَقَدْ سَمَّتِ ابْنَتَها مَرْيَمَ ، وطَلَبَتْ مِنَ اللهِ أنْ يَعْصِمَها وذُرِّيَتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيم . عَنْ أبي هُريرةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ : « ما مِنْ مَولودٍ يُولدُ إلاّ والشَّيْطانُ يمسُّهُ حينَ يُولدُ ، فَيَسْتَهِلُّ صارِخاً مِنْ مَسِّ الشَّيْطانِ إيَّاهُ إلاّ مَرْيَمَ وابنَها » ،

قالَ أبو هُريرةَ : « واقرأوا إنْ شِئتُمْ : وإنّي أُعيذُها بِكَ وذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ[1] » .

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

وطَمْأَنَ اللهُ تعالى الأمَّ بأنَّهُ قَدْ قَبِلَ ابنتَها : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ أَيْ : تقبَّلَ مَرْيَمَ مِنْ أُمِّها ، وَرَضِيَ أنْ تكونَ مُحرَّرَةً للانْقِطاعِ لِعِبادَتِه ، وخِدْمَةِ بَيْتِهِ وفاءً بنذرِ الأُمِّ التَّقيَّةِ ، وفي الجُمْلَةِ مُبالغةٌ ، فَلَمْ يَقُلْ سُبْحانَهُ : فقَبِلَها ، ولكنَّهُ قالَ : فتقبَّلَها ، ثُمَّ أكَّدَ هذا الأَمْرَ بأنْ وَصَفَ القَبولَ بأنَّهُ حَسَنٌ ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ، ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ أيْ : ربّاها ونَمّاها في خَيْرِهِ سُبْحانَهُ ، ورِزْقِهِ وعِنايَتِهِ وتَوْفيقِهِ تَربيةً حَسَنَةً ، شَمِلَتْ روحَها وجَسَدَها ، كما تُرَبَّى الشَّجَرةُ في الأَرْضِ الصّالِحَةِ حتّى تَنْمو وتُثْمِرَ الثِّمارَ الصّالِحَةَ .

وَمِنْ مَظاهِرِ عِنايةِ اللهِ بِها أنْ كَفَّلَها زَكَرِيّا عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَكانَ هُوَ الكَفيلُ بِمصالِحِها والمَسؤولُ عَنْ إحْضارِ الطَّعامِ والشَّرابِ لَها إلى المِحْرابِ .

وَمِنْ مَظاهِرِ عِنايةِ اللهِ بِها أَنْ تَكَفَّلَ هُوَ سُبْحانَهُ بِطَعامِها وشَرابِها ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ لَقَدْ كانَ زَكرِيّا يَدْخُلُ عَلَيْها في مَكانِ عِبادَتِها وخَلْوَتِها لِيَأْتِيَها بالطَّعامِ والشَّرابِ ، ولَكِنَّهُ كانَ يَجِدُ عِنْدَها الرِّزْقَ ، ، فَيَجِدُ عِنْدَها طعاماً وشَراباً ، فَيَتعجَّبُ مِنْ ذَلِكَ ، إذْ إنَّهُ لا يَدْخُلُ عَلَيْها أَحَدٌ إلاّ هُوَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ولِذا قالَ لَها : ﴿ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ مِنَ أينَ لَكِ هذا الطَّعامُ ، فَقالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى رازِقِ النّاسِ ، فَهُوَ يَسوقُ إلى مَنْ يَشاءُ مِنْ خَلْقِهِ رِزْقَهُ بِغَيْرِ إحْصاءٍ ولا عَدٍّ يُحاسِبُ عَلَيْهِ عَبْدَهُ .

إنّ رَحْمَةَ اللهِ تَعالى واسِعَةٌ فهُوَ لا يَنْسَى عِبادَهُ ، فَقَدْ كانَتْ حِكْمَتُهُ أنْ يَكونَ ما في بَطْنِ إمْرأةِ عِمْرانَ أُنْثى ، وشاءَ بِحِكْمَتِهِ أنْ يَتكفَّلَها زَكرِيّا ويَرْعاها ويَمُنَّ عَلَيْها بالرِّزْقِ ، لِيُهيِّئَها لأَمْرٍ عَظيمٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إثْباتُ نُبوَّةِ النَّبِيِّ مُحمّدٍ وَردُّ شُبُهاتِ أَهْلِ الكِتابِ الّذينَ جَعَلوا النُّبُوَّةَ خاصَّةً بِبَني إسْرائيلَ .

٢ـ الذَّكَرُ والأُنْثى كِلاهُما هِبَةٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، ولا فَرْقَ بَيْنَهُما مِنْ حَيْثُ الكَرامةُ ، وقَدْ تَكونُ الأُنْثى أَفْضَلَ مِنَ الذَّكَرِ .

٣ـ اللهُ تَعالى يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب : وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، حديث رقم ٤٢٧٤ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أسماءَ بَعْضِ الأَنْبياءِ ، مَنْ هُمْ ؟

٢ـ ما الّذي فَعَلَتْهُ امْرأةُ عِمْرانَ عِنْدَما عَلِمَتْ بِحَمْلِها ؟

٣ـ ما الّذي كانَتْ تَعتقدُهُ في جِنْسِ الجَنينِ الّذي في بَطْنِها ؟

٤ـ لِمَ قالَتِ امْرَأَةُ عِمرانَ : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ ؟

٥ـ بيِّنِ المَقْصودَ مِنْ قَوْلِها : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ﴾

٦ـ بِمَ طَمْأَنَ اللهُ تَعالى امْرأةَ عِمْرانَ بَعْدَ وِلادَتِها مَرْيَمَ عَلَيْها السَّلامُ ؟

٧ـ مَنِ الّذي كَفِلَ السَّيدةَ مَرْيَمَ ؟

٨ـ ما مَظاهِرُ عِنايةِ اللهِ تَعالى بِمريمَ عَلَيْها السَّلامُ ؟

نَشاطٌ :

ـ ارْجِعْ إلى أَحَدِ المُعْجماتِ ، واسْتَخْرِجْ مِنْهُ مَعْنَى : مَرْيَمَ .

* * *

الدرس التاسع

سورةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ التّاسِعُ

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ (٤١)﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

هُنالِكَ : ظَرْفٌ يُسْتَعْمَلُ للزَّمانِ والمَكانِ ، وأَصْلُهُ لِلْمَكانِ .

حَصوراً : أَصْلُ الحَصْرِ المَنْعُ والحَبْسُ ، أيْ : يَحْبِسُ نَفْسَهُ عَنِ الوُقوعِ في المُنْكَراتِ .

عاقِرٌ : عقيمٌ لا تَلِدُ .

آيتُكَ : علامَتُكَ .

رَمْزاً : أَصْلُ الرَّمْزِ الحَرَكَةُ ، وأُطْلِقَ عَلى الإشارةِ .

العَشيِّ : جَمْعُ عَشيَّةٍ ، وهُوَ حينَ تَزولُ الشَّمسُ إلى أنْ تغيبَ .

الإبْكارِ : مَصْدرُ أَبْكرَ ؛ إذا خَرَجَ لأَمْرٍ في أوّلِ النَّهارِ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ رَأى زَكَريّا عَليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قُدْرَةَ اللهِ تَعالى بِأُمِّ عَيْنَيْهِ ، لَقَدْ رأى ما عِنْدَ مَرْيَمَ مِنْ رِزْقِ اللهِ وفَضْلِهِ الّذي آتاها ، وعَرَفَ مَكانَتها عِنْدَ اللهِ تَعالى ، وكَيْفَ تَقَبَّلَها ربُّها قَبولاً حَسَناً وجَعَلَها مِنَ

الصّالِحاتِ ، عِنْدَها طَمِعَ في طَلَبِ الوَلَدِ مَعَ كِبَرِ سِنِّهِ ، وقَوِيَّ رَجائِهِ في ذلك .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

هُنالِكَ دَعا زكرِيّا رَبَّهُ ، فقالَ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ في ذَلِكَ المَكانِ الطّاهِرِ الّذي كانَتْ تَجلِسُ فيهُ السَّيِّدةُ مَرْيمُ ـ المحرابِ ـ تَحرَّكَتْ في نَفْسِ زكريّا عَلَيْهُ السَّلامُ مَشاعِرُ الأُبُوَّةِ ، وهُوَ الشَّيْخُ الكَبيرُ ، فَدَعا ربَّهُ بِقَلْبٍ مُنيبٍ ونَفْسٍ صافِيَةٍ ، وبِجوارِحَ خاشِعَةٍ للهِ تَعالى أنْ يَرْزُقَهُ الذُّرِّيَّةَ الصّالِحةَ ، لَقَدْ تَوَجَّهَ إلى ربِّهِ مُناجياً : ربِّ ، أنتَ خلقتَني ، وأَرَيْتَني شَيْئاً مِنْ قُدْرَتِكَ الّتي لا يَقِفُ أمامَها شَيْءٌ ، أسْأَلُكَ يا خالِقي أنْ تَهبَ لي مِنْ عِنْدِكَ ذُرِّيَّةً صالِحةً ، تقرُّ عَيْني بِها ، وتَكونُ خَلَفاً مِنْ بَعْدي إنَّكَ سَميعُ الدُّعاءِ ، فَأَنْتَ يا رَبِّ عَليمٌ بِدُعائِي عِلْمَ مَنْ يَسْمَعُ ، قَريبُ الإجابةِ لِمَنْ يَدْعوكَ ، فإنّي يا ربِّ ما التَجأتُ إلَيْكَ إلاّ لأنّكَ مُجيبُ الدُّعاءِ .

ولَكِنْ ماذا كانَتْ نَتيجةُ هذا الدُّعاءِ الخاشِعِ والتَّضرُّعِ الخالِصِ ؟ لَقَدْ كانَتْ نَتيجَتُهُ أنْ أجابَ اللهُ تَعالى دُعاءَ زَكَريّا عَلَيْهِ السَّلامُ :

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ . لَقَدْ نادتِ الملائِكةُ زَكريّا عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَهُوَ قائِمٌ يَدْعو اللهَ تَعالى في ذَلِكَ المَكانِ المُبارِكِ ، مُخْبِرَةً إيّاهُ بأنَّ اللهَ تَعالى قدِ اسْتَجابَ دُعاءَهُ ، وهُوَ سُبْحانَهُ يُبَشِّرُكَ بغلامٍ اسْمُهُ يَحيى لِكَيْ تَقرَّ بِهِ عَينُكَ ، ويُسَرَّ بِهِ قلبُكَ . وهَذا الاسْمُ يُشعِرُ بأنّ هذا الغُلامَ سَيَحْيا حَياةً طَيِّبَةً بأنْ يَكونَ وارثاً لِوالِدِهِ ، ومِنْ آلِ يَعقوبَ ما كانَ فيهِمْ مِنَ النُّبوَّةِ والفَضْلِ ، وبِذلِكَ يحيا اسْمُهُ وذِكْرُهُ بَعْدَ موتِهِ ، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعالى هذا الغُلامَ بِصفاتٍ عِدّةٍ :

١ـ ﴿ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أيْ أنَّهُ مُصَدِّقٌ بعيسى الّذي يُبَشِّرُ اللهُ بِهِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ، فَهُوَ سَيُؤْمِنُ بِعيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، بأنَّهُ رَسولٌ مِنَ اللهِ ، وكَلِمَتُهُ أَلْقاها إلى مَرْيَمَ وروحٌ مِنْهُ .

٢ـ ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ والسَّيدُ هُوَ مَنْ يَسودُ قومَهُ ، بِأَنْ يَكونَ مالِكاً لِزِمامِهِمْ ومُسَيْطِراً على أهْوائِهِمْ .

٣ـ ﴿ وَحَصُورًا ﴾ أيْ أنَّه عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سَيَكونُ حابِساً نَفْسَهُ عَنِ الشَّهواتِ ، وقَدْ قيلَ : إنّه امْتَنَعَ مِنَ الزَّواجِ زَهادةً مِنْهُ واسْتِعْفافاً مَعَ أنّه قادِرٌ عَلَيْهِ .

٤ـ ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وفي هذا بِشارةٌ لِزَكريّا عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ ابْنَهُ سَيَكونُ مِنَ الأَنْبياءِ الّذينَ اصْطَفاهُمُ اللهُ تَعالى لِتَبْليغِ دَعْوَتِهِ إلى النّاسِ ، وهذهِ أسْمى وأعلى الصِّفاتِ ، لأنَّ مَنْزِلَةَ النُّبُوَّةِ لا تَعْدِلُها مَنْزِلةٌ .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

ويَسْتَعْظِمُ زكَريّا عَلَيْهِ السَّلامُ قُدْرَةَ اللهِ تَعالى ، فها هُوَ يَقولُ : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ إنَّهُ يَسْأَلُ مُعظِّماً لقُدْرَةِ اللهِ تَعالى ، ومُتَشوِّقاً إلى مَعْرِفةِ الكَيفيّةِ ، فهُوَ قَدْ أصابَهُ الكِبَرُ وأدْرَكَهُ الضَّعْفُ ، وامْرأتُهُ كذَلِكَ عاقِرٌ لا تَلِدُ إمّا لِكِبَرِ سنِّها أوْ لأنَّها أصْلاً مُنْذُ صِغَرِها كانَتْ عاقِراً ، ويُجيبهُ سُبْحانَهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ أيْ : مِثْلُ ذَلِكَ الفِعْلِ العَجيبِ والصُّنْعِ البَديعِ الّذي رَأيتَهُ وَهُوَ أنْ يَكونَ لَكَ وَلَدٌ وأنْتَ شَيْخٌ كَبيرٌ وامْرأتُكَ عاقِرٌ ، مثلَ ذَلِكَ الفِعْلِ يَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ أنْ يَفْعَلَ ، فهُوَ سُبْحانَهُ متى شاءَ أمْراً أوْجَدَ لَهُ سَبَباً ، أوْ خَلَقَه بِغَيْرِ الأَسْبابِ المَعْروفةِ ، لا يَحولُ دونَ مَشيئَتِهِ شَيءٌ .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾ .

إنَّ زكريّا عَلَيْهِ السَّلامُ يَتَلهَّفُ لِحُصولِ الحَمْلِ عِنْدَ زَوْجِهِ ، ومَجيءِ الوَلَدِ ، ولِذا فَقَدْ طَلَبَ مِنَ اللهِ تَعالى أنْ يُكْرِمَهُ بِمَعْرِفَةِ الزَّمَنِ الّذي يَنالُ بِهِ تِلْكَ المِنْحَةَ الإلهيّةَ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ ، ويُبَشِّرَ بِهِ أهْلَهُ ، فَأَخْبَرَهُ سُبْحانَهُ أنَّ علامَتَكَ ألاّ تَقْدِرَ عَلى كَلامِ النّاسِ مِنْ غَيْرِ آفةٍ ولا مَرَضٍ في لِسانِكَ لِمُدّةِ ثَلاثةِ أيامٍ ، إلاّ عَنْ طَريقِ الإيحاءِ والإشارةِ . لَقَدْ أمَرَهُ اللهُ أنْ لا يُكلِّمَ النّاسَ هذِهِ الأيامَ الثّلاثةَ ، بَلْ يَنقطِعُ للذِّكْرِ والتَّسبيحِ صَباحاً ومَساءً ، فإذا احْتاجَ إلى خِطابِ النّاسِ أوْمأَ إليهِمْ إيماءً .

لَقَدْ أمَرَهُ اللهُ تَعالى أنْ يُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِهِ ومِنْ تَسْبيحِهِ في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِهِ ، وفي كُلِّ وَقْتٍ لا سيَّما هذِهِ الأيامُ الثّلاثةُ شُكْراً للهِ تَعالى عَلى ما أعْطاهُ مِنْ نِعَمٍ جَليلةٍ لا تُحْصى ، حَيْثُ وَهَبَهُ الذُّريَّةَ بَعْدَ أنْ بَلَغَ مِنَ الكِبَرِ مَبْلَغاً ، وجَعَلَ هذا المَوْلودَ نَبيّاً صالِحاً عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنَ السُّنَّةِ أنْ يَطْلُبَ الإنْسانُ الوَلَدَ ، لِما يَرْجوهُ مِنْ نفعِهِ في حَياتِهِ وبَعْدَ مَماتِهِ .

٢ـ الحِرْصُ عَلى الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ إلى اللهِ تَعالى ، وتَوخِّي الوَقْتِ المُناسبِ والمَكانِ المُناسِبِ للدُّعاءِ .

٣ـ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى موجِدُ الأَسْبابِ ، وقَدْ يوجِدُ سُبْحانَهُ أشْياءَ بِغَيْرِ أسْبابِها المَعروفةِ ، لا يَحولُ دونَ مَشيئتِهِ شَيْءٌ .

٤ـ الإكْثارُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تعالى ، لأنّ ذِكْرَ اللهِ تَطْمَئِنُّ بِهِ القُلوبُ ، وتَسْكُنُ النُّفوسُ ، وتُغْفَرُ بِهِ الخَطايا والذُّنوبُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ مَعانِيَ المُفْرَداتِ التَّاليةِ :

حَصوراً ، رَمْزاً ، العَشيِّ ، الإبْكارِ ، عاقِرٌ .

٢ـ ما الّذي جَعَلَ زَكَرِيّا عَلَيْهِ الصّلاةُ والسَّلامُ يَتوجَّهُ إلى اللهِ تَعالى بالدُّعاءِ ؟

٣ـ في أيّ مَكانٍ تَوجَّهَ زَكَرِيّا بالدُّعاءِ إلى اللهِ ؟

٤ـ هَلِ اسْتَجابَ اللهُ تَعالى لِزَكريّا عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٥ـ عَلامَ يَدُلُّ هذا الاسْمُ للغُلامِ (يحيى) ؟

٦ـ ما صِفاتُ هذا الغلامِ الّذي رزَقَهُ اللهُ لِزَكَرِيّا عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٧ـ ما مَعْنى الاسْتِفْهامِ في قَولِهِ تَعالى : ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ ؟

٨ـ لَقَدْ طَلَبَ سيّدُنا زَكَرِيّا مِنْ ربِّه علامَةً ، ما تِلْكَ الآيةُ والعَلامَةُ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اقرأ الآياتِ مِنْ سورَةِ مَرْيمَ عَلَيْها السَّلامُ الّتي تَحدَّثَتْ عَنْ سُؤالِ زَكريّا عَلَيْهِ السَّلامُ الوَلَدَ ، وتَدبَّرْ كَيْفَ فصَّلَتْ سورةُ مريمَ هذِهِ القَضيَّةَ .

٢ـ هاتِ ثلاثَ آياتٍ مِنْ كِتابِ اللهِ تَحُثُّ عَلى ذِكْرِ اللهِ تَعالى .

* * *

الدَّرسُ العاشِرُ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ الْعاشِرُ

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- اصْطَفاكِ : اخْتارَكِ .
- طَهَّرَكِ : نَظَّفَكِ مِنَ الأَدْناسِ والرَّذائِلِ والأَخْلاقِ السَّيِّئَةِ .
- اقنُتي : أَخْلِصي العِبادَةَ للهِ وأديمي الطّاعَةَ لَهُ .
- أَقْلامَهُم : سِهامَهُمُ الّتي يَقْتَرِعونَ بها .
- وَجيهاً : ذا جاهٍ وشَرَفٍ وقَدْرٍ في الدّارَيْنِ .

التَّفسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنْ مَظْهرٍ مِنْ مَظاهِرِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى في وِلادةِ يحيى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وتَتحدَّثُ الآياتُ هُنا عَنْ وِلادةِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، الّذي هُوَ مِنْ أَدلِّ الدَّلائِلِ عَلى قُدْرةِ اللهِ تَعالى .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : اذْكُرْ يا محمَّدُ وَقْتَ أنْ قالتِ الملائِكَةُ لِمريمَ : إنَّ اللهَ ﴿اصْطَفَاكِ﴾ أيْ : اختارَكِ واجْتَباكِ لِطاعتِهِ وقَبلَكِ لِخِدْمَةِ بَيْتِهِ ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ مِنَ الأَدْناسِ والأَقْذارِ ومِنْ كُلِّ ما يَتَنافى مَعَ الخُلُقِ الحَميدِ ، والطِّباعِ السَّليمةِ ﴿وَاصْطَفَاكِ﴾ وهذا الاصْطِفاءُ الثّاني هُوَ ما خَصَّها بِهِ مِنْ خِطابِ الملائِكَةِ لها ، واصْطِفاءٌ مِنْ أجْلِ وِلادةِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ولِذا قالَ ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أيْ : فضَّلَها عَلى النِّساءِ بِما اخْتَصَّها بِهِ مِنْ وِلادَةِ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ دونَ أبٍ ، ولم تُشارِكْها في ذَلِكَ امْرَأةٌ قطُّ في أيّ زمانٍ أوْ مَكانٍ ، وقَدْ يكونُ المَقْصودُ تَفْضيلُها مِنْ حيثُ قوةُ إيمانِها وصَلاحُ أعمالِها ، عَلى النِّساءِ في زَمانِها ، حَيْثُ كانَتْ أفْضَلَهنَّ مِنْ هذهِ الناحِيَةِ .

عَنْ عَليٍّ بنْ أبي طالِبٍ رَضي اللهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ : (خيرُ نِسائِهِمْ مريمُ بنتُ عِمرانَ ، وخيرُ نِسائِنا خَديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ)[1] .

﴿ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

وَأَمَرتِ المَلائِكَةُ مَرْيَمَ بالقُنوتِ ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أيْ : الْزَمي طاعَةَ اللهِ ، مَعَ الخُضوعِ لَهُ ، ﴿ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ ، وَما ذُكِرَ هُنا مِنْ هيئاتِ الصّلاةِ ، القُنوتُ والسُّجودُ والرُّكوعِ . فَقَدْ طَلَبَتْ مِنْها المَلائِكَةُ أنْ تُخْلِصَ العِبادَةَ للهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وأنْ تُداوِمَ عَلَيْها ، وأنْ تُكْثِرَ مِنَ السُّجودِ للهِ ومِنْ الرُّكوعِ مَعَ الرّاكِعينَ ، لأنَّ مُلازَمَةَ الطّاعاتِ والصَّلواتِ مِنْ شَأْنِها أنْ تَحْفَظَ النِّعَمَ وأنْ تَزيدَ الإنْسانَ قُرْباً وحُبّاً مِنْ خالِقِهِ عَزَّ وجلَّ . ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ أنَّ هذِهِ القَصصَ الّتي يَقُصُّها عَلَيْنا هِيَ مِنْ أنْباءِ الغَيْبِ .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ ؛ أي : ذلك الّذي قَصَصْناهُ عَلَيْكَ يا مُحمَّدُ مِنْ أخْبارِ مَرْيَمَ وزَكريّا مِنْ أنباءِ الغَيْبِ ، إذْ لَمْ تَشْهَدْهُ أَنْتَ ولا أحَدٌ مِنْ قَوْمِكَ ، ولَمْ تطَّلِعْ عَلى شَيْءٍ مِنهُ مِنْ أيّ مَصْدَرٍ ، وإنَّما نَحْنُ الّذينَ أوْحَيناهُ إليْكَ ، وذَلِكَ بإنْزالِ الرُّوحِ الأمينِ عَلى قَلْبِكَ ، لِيَكونَ دَليلاً عَلى صِدْقِكَ فيما تُبلِّغُهُ عَنْ ربِّكَ ، ولِتكونَ عِبْرَةً وذِكرى لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ ، وقَدْ أكَّدَ سُبْحانَهُ أنَّ هذِهِ مِنْ أُمورِ الغَيْبِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي : ما كُنْتَ يا مُحَمَّدُ عِنْدَهُمْ وَقْتَ أنْ أجْرَوْا القُرْعَةَ بَيْنَهُمْ لِيَعْرِفوا مَنْ يَكْفُلُ السَّيدةَ مريمَ عَلَيْها السَّلامُ ، وما كُنْتَ

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح ، حديث رقم ٢٤٣٠ باب : فضائل خديجة رضي الله عنها .

حاضِراً عِنْدَهُمْ كذلِكَ وهُمْ يَخْتَصِمونَ ويَتنازَعونَ فيما بَيْنَهُمْ ، إذْ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يُريدُ أنْ يَكْفُلَ مَرْيَمَ عَلَيْها السَّلامُ ويَفوزَ بِهذا الشَّرَفِ ، ولَكِنْ شاءَ اللهُ تَعالى ، أنْ يَكونَ الكافِلُ سَيِّدَنا زَكَرِيّا عَلَيْهِ السَّلامُ .

التَّبشيرُ بعيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ : اذْكُرْ يا مُحمَّدُ وَقْتَ أنْ جاءَ جبْريلُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ للسَّيِّدةِ مَريمَ عَلَيْها الصَّلاةُ والسَّلامُ وبَشَّرها بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ، أيْ بمولودٍ يَحْصُلُ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ سُبْحانَهُ . وسُمِّيَ هذا المَوْلودُ كَلِمَةً لأنَّهُ وُجِدَ بِكَلِمَةِ (كُنْ) ، فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وُجِدَ مِنْ غَيْرِ مَألوفِ النّاسِ ، وذَلِكَ أنّ غَيْرَهُ مِنَ البَشَرِ وإنْ وُجِدوا بِتِلْكَ الكَلِمَةِ ، ولكنْ بِواسِطَةِ أبٍ ، وهذا المَولودُ اسمُهُ المَسيحُ عيسى ابنُ مَرْيَمَ ، والمَسيحُ لَقَبٌ مِنَ الألْقابِ المُشرَّفةِ يَعْني المُبارَكَ ، وعيسى اسمٌ يَدلُّ عَلى البَياضِ والصَّفاءِ والنَّقاءِ ، ومَرْيَمُ أُمُّهُ ، وهَذا يَدُلُّ عَلى أنَّ نَسبَهُ ثابتٌ لأُمِّهِ ، ولَيْسَ لأحَدٍ سِواها كما يدَّعي النَّصارى .

وذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الصِّفاتِ لِسَيِّدِنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ تَدُلُّ عَلى فَضْلِهِ وعُلوِّ مَنْزِلَتِهِ ، وهذِهِ الصِّفاتُ هِيَ :

١ـ ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي : أنَّهُ ذُو جاهٍ وشَرَفٍ ومَنْزِلَةٍ عالِيَةٍ في الدُّنيا والآخِرَةِ .

٢ـ ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي : هُوَ مِنْ عِبادِ اللهِ تَعالى المقرَّبينَ إليهِ .

٣ـ ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي : أنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سَوْفَ يُكلِّمُ النّاسَ في حالِ كَوْنِهِ صَغيراً ، أي : قَبْلَ أنْ يَحينَ مَوْعِدُ الكَلامِ للصِّغارِ ، كَما يُكلِّمُهُمْ في حالِ كُهولَتِهِ ، واكْتِمالِ شَبابِهِ ، وقَدْ كَلَّمَ النّاسَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَهُوَ في المَهْدِ صَغيراً .

٤ـ ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي : مِنْ عِبادِ اللهِ الّذينَ أنْعَمَ عَلَيْهِمْ وأصْلَحَ حالَهُمْ ، واخْتارَهُمْ لِحَمْلِ رِسالَتِهِ وتَبْليغِها للنّاسِ .

هذا ما ذَكَرَتْهُ الملائِكَةُ لِمريمَ عَلَيْها السَّلامُ ، ولكِنْ ماذا كانَ مَوْقِفُها ؟ لَقَدْ تَعجَّبَتْ ودُهِشتْ ممّا يُقالُ لَها :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ . لَقدْ قالَتْ عَلى سَبيلِ التَّعجُبِ والاسْتِغرابِ : كَيْفَ

يَكونُ لي وَلَدٌ يا ربِّ والحالُ أَنّي لمْ أتزوَّجْ ، ولمْ يَحْصُلْ مِنّى ما يَكونُ بَيْنَ الرَّجلِ والمَرأةِ حتّى يَكونَ عِنْدي وَلَدٌ ؟

وَهُنا يُزالُ عَجَبُ مَرْيمَ واسْتِغْرابُها ويُقالُ لَها : ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إلاَّ أنَّها قِيلَ لَها هُنا : (يَخْلُقُ) ، وهِيَ تَدُلُّ عَلى الإبْداعِ والإيجادِ ، ولَوْ لَمْ يَجْرِ عَلى قوانينِ الأَسْبابِ المَعْروفةِ ، وذَلِكَ أنَّ يحيى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وُجِدَ بواسِطَةِ زَوْجَينِ وهذا كإيجادِ سائِرِ البَشَرِ فَعَبَّرَ سُبْحانَهُ بالفِعْلِ ، أمّا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فَوُجِدَ مِنْ أمٍّ دونَ أبٍ فَعَبَّرَ بالخَلْقِ .

قيلَ لِمَريمَ إنَّ اللهَ تَعالى يَخْلُقُ ما يشاءُ كَهذا الخَلْقِ الّذي تَجدينَهُ بأنْ يَكونَ لَكِ وَلَدٌ مِنْ غَيْرِ أنْ يَمَسَّكِ بَشَرٌ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُبْدِعُ ما يشاءُ لا رادَّ لِمَشيئتِهِ ، وإنّما يَقولُ للشَّيءِ الّذي يُريدُهُ (كُنْ) فيكونُ مِنْ غَيْرِ تأخُّرٍ ومنْ غيرِ وُجودِ أسْبابٍ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يُعْجِزُهُ أنْ يَخْلُقَ وَلَداً مِنْ غيرِ أبٍ ، وهُوَ أوْجَدَ آدمَ عليهِ السّلامُ بَشَراً مِنْ غَيْرِ أمٍّ ولا أبٍ كذلِكَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ خَيْرُ النِّساءِ في الدُّنيا والآخِرَةِ السَّيِّدةُ مَريمُ عَلَيْها السَّلامُ .

٢ـ المُحافَظَةُ عَلى أداءِ العِباداتِ مَعَ اسْتِشْعارِ الخُشوعِ والتَّذلُّلِ والتَّواضُعِ للهِ تَعالى .

٣ـ القَصصُ القُرآنيُّ أكْبرُ دَليلٍ عَلى صِدْقِ النَّبيِّ ﷺ وعلى أنَّ هذا القُرْآنَ كِتابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى .

٤ـ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَبْدٌ مِنْ عِبادِ اللهِ تَعالى اصْطَفاهُ وكَرَّمَهُ بالرِّسالَةِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الّذي قالَتْهُ الملائِكَةُ لِمَرْيَمَ عَلَيها السّلامُ ؟

٢ـ فَرِّقْ بَيْنَ الاصْطِفاءِ الأوّلِ والاصْطِفاءِ الثّاني في قَوْلِهِ تَعالى ﴿اصْطَفَاكَ﴾ و﴿وَاصْطَفَاكَ﴾ .

٣ـ مِمَّ طُهِّرَتِ السَّيِّدةُ مريمُ عَلَيْها السَّلامُ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ مِنَ اصْطِفائِها عَلى نِساءِ العالَمينَ ؟

٥ـ هَلْ كانتِ الصَّلاةُ الّتي أُمِرَتْ بِها السَّيِّدةُ مريمُ مثلَ صَلاتِنا ؟

٦ـ عَلامَ يَدُلُّ قولُهُ تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ؟

٧ـ بِمَ بُشِّرَتِ السَّيدةُ مَرْيمُ عَلَيها السّلامُ ؟

٨ـ ذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الصِّفاتِ لِعيسى عَلَيْهِ السّلامُ ، اذكُرْها .

٩ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ قَوْلِهِ تعالى : ﴿فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ ؟

١٠ـ ما الفَرْقُ بَيْنَ قولِهِ تَعالى : ﴿كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وقولِهِ تَعالى : ﴿كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أواخِرَ سورةِ التَّحريمِ الدَّالَّةَ عَلى فَضْلِ مَرْيمَ عَلَيْها السَّلامُ .

٢ـ ذَكَرَتْ سورةُ مَرْيمَ ما تَكلَّمَ بِهِ سيِّدُنا عيسى عَلَيْهِ الصّلاةُ والسَّلامُ وهُوَ في المَهْدِ ، اكْتُبِ الآياتِ الكَريمةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ مَنِ الّذي أوْجَدَهُ اللهُ تَعالى مِنْ غَيْرِ أُمٍّ ولا أبٍ ؟ وَمَنِ الّذي أوْجَدَهُ مِنْ غيرِ أُمٍّ ؟ اكْتُبِ الإِجابةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

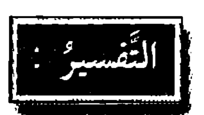
الدَّرسُ الحادي عَشَرَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الحادي عَشَرَ

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- الكِتابَ : الكِتابةَ والخَطَّ باليَدِ وعِلْمَ الكِتابِ السّماويّ الّذي كانَ مَوْجوداً وَقْتَهُ .
- الحِكْمَةَ : الإصابةَ في القَوْلِ والعَمَلِ .
- الأَكْمَهَ : مَمْسوحَ العَيْنِ ، وهُوَ مَنْ وُلِدَ أعْمى لا يُبْصِرُ .
- الأَبْرَصَ : البَرَصُ : مَرَضٌ يُصيبُ الجِلْدَ .
- تَدَّخرونَ : تُخبّئونَ للأَكْلِ فيما بَعْدُ .



﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ .

ما زالتِ الآياتُ تَتحدَّثُ عَنْ صِفاتِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وعَنْ مُعْجزاتِهِ ، فاللهُ سُبْحانَهُ تَكفَّلَ بِتَرْبِيتِهِ ، وتَنْشئتِهِ ، وهُوَ سُبْحانَهُ علَّمَهُ الكِتابَ بالخَطِّ ، وعَلَّمَهُ الحِكْمَةَ الّتي هِيَ العِلْمُ

الصَّحيحُ الّذي يَبْعَثُ الإرادةَ إلى العَمَلِ النّافِعِ ، وعَلَّمَهُ التَّوراةَ الّتي هي الكِتابُ الإلهيُّ الّذي أُنْزِلَ عَلى سيِّدِنا موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وقَدْ أَخَّرَ تَعليمَ التَّوراةِ عَنْ تعليمِ الخَطِّ والحِكْمَةِ ، ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحانَهُ أنَّهُ يَعُلِّمُهُ الإنْجيلَ كَذلِكَ ، وهَذا الّذي عَلَّمَهُ اللهُ دَرَجَةٌ عَظيمَةٌ ومَرْتَبَةٌ عُليا خصَّ بِها نبيَّهُ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَقَدْ خَصَّهُ اللهُ تَعالى بِكِتابٍ يُنَزِّلُهُ عَلَيْهِ .

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ لِمَرْيَمَ عَلَيْها السَّلامُ هُويَّةَ القَوْمِ الّذينَ سُيبْعَثُ إليْهِمْ وهُمْ بَنو إسْرائيلَ ، وقَدْ أكْرَمَهُ اللهُ تَعالى بأنْ أيَّدَهُ بمُعْجِزاتٍ تَدُلُّ عَلى صِدْقِ رسالتِهِ ، وهَذِهِ الآياتُ والمُعْجِزاتُ مِنْ ربِّكُمُ الّذي خَلَقَكُمْ وربَّاكُمْ وتَعهدَكُمْ بالرِّعايةِ وَرزَقَكُمْ ، ولِذا عَلَيْكُم أنْ تُؤْمِنوا بِهِ أيُّها النّاسُ ، وهَذِهِ المُعْجِزاتُ هِيَ :

١ـ ﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ ﴾ هَذِهِ أوَّلُ مُعْجِزَةٍ لِسيِّدِنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَهِيَ أَنَّهُ سَيَصْنَعُ مِنَ الطِّينِ جِسْماً على هَيْئَةِ الطَّيْرِ ، ثُمَّ إنَّهُ سَيَنْفُخُ في هذا الطَّيْرِ المَصنوعِ مِنَ الطِّينِ ، فَيَصيرُ بَعْدَ ذَلِكَ طائِراً حَقيقياً ذا حياةٍ بإذْنِ اللهِ تَعالى ، فَهذا الّذي فَعَلَهُ إنَّما هُوَ بإذْنِ اللهِ وأمْرِهِ وإرادَتِهِ وتَيْسيرِهِ .

٢ـ ﴿ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ ﴾ ويُقالُ إنَّ الأكْمَهَ هُوَ الأعْمَى ، ولكنَّ الصَّحيحَ أنَّهُ الّذي خُلِقَ وهُوَ مَمْسوحُ العَيْنِ ، أي : لا عَيْنَ لَهُ أصْلاً ، فَهذِهِ لا شَكَّ مُعْجِزَةٌ ، إذْ لا يُمْكِنُ لأَحَدٍ عِلاجُ الأكْمَهِ ، حتّى الطِّبُّ في وَقْتِنا هذا لا يُمْكِنُهُ ذلِكَ ، ولَكِنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ ، جَعَلَهُ يُبْصِرُ بِأَمْرِ اللهِ تَعالى .

٣ـ إبراءُ الأَبْرصِ ، والأَبْرَصُ هُوَ الّذي يَكونُ في جِلْدِهِ بَياضٌ مَشوبٌ بِحُمْرَةٍ ، وَهُوَ مَرَضٌ مِنَ الأَمْراضِ المُنَفِّرَةِ الّتي عَجِزَ الأطبّاءُ حتّى يَوْمِنا عَنْ شِفائِها .

٤ـ إحْياءُ المَوْتى بِإذْنِ اللهِ تَعالى ، وهَذِهِ مِنْ خَوارِقِ العاداتِ ، أنْ يُحيِيَ الإنْسانَ الّذي ماتَ ، وهذا الّذي يَفْعَلُهُ إنَّما هُوَ بأَمْرِ اللهِ تَعالى وتَيْسيرِهِ وإرادَتِهِ .

٥ـ إنباؤُهُمْ بِما يَأْكُلونَ ومَا يَدَّخِرُونَ ، والإنْباءُ : الإخْبارُ عَنِ الأمْرِ العَظيمِ الشَّأْنِ ، فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سَيُخْبِرُكُمْ بالشّيءِ الّذي تَأْكُلونَهُ ، وبالشَّيءِ الّذي تُخَبِّئُونَهُ في بيوتِكُمْ لِوَقْتِ حاجَتِكُمْ إلَيْهِ ، ولا شَكَّ أنَّ هذا أيْضاً يَدُلُّ عَلى صِدْقِهِ ، لأنّ الإخْبارَ عَنِ الأمْرِ الغَيْبِيِّ الّذي لَمْ يُشاهِدْهُ دَليلٌ عَلى أنَّ اللهَ تَعالى قَدْ أعطاهُ عِلْمَ ما أَخْبَرَ بِهِ .

هذهِ هِيَ مُعْجِزاتُ سَيِّدِنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ جاءَتْ صَفْعَةً لأُولئِكَ اليَهودِ الّذينَ كانوا لا يُؤْمِنونَ إلاّ بالأُمورِ الماديَّةِ ، فَكانَتْ هَذِهِ المُعْجِزاتُ بَعيدةً عَنِ المادةِ .

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

يُبَيِّنُ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، أَنَّهُ جاءَ كذلكَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوراةِ ، أي : جِئْتُ مُقَرِّراً لِما تَقدَّمَ قَبْلي ، ولَمْ أَكُنْ ناسِخاً لِرِسالةِ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، بَلْ مُصَدِّقاً لها ، مُقرِّراً وعامِلاً بِها ، ولكنَّ الّذي كانَ أنْ نُسِخَتْ بَعْضُ الأَحْكام الّتي كانَ فيها شيءٌ مِنَ الشِّدَّةِ على بَني إسْرائيلَ ، فَجِئْتُ مُخففاً عَنْهُمْ ، وأحَلَلْتُ لَهُمْ بَعْضَ الطَّيباتِ الّتي حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وكَثْرَةِ سُؤالِهِمْ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ .

وحَثَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قَوْمَهُ عَلى الإيمانِ بِما جاءَهُمْ بِهِ مِنْ آياتٍ لِيَسْتَجيبوا لَهُ ، ولِيَكونَ كَلامُهُ مُؤَثِّراً فيهِمْ ، ثُمَّ خوَّفَهُمْ فَقالَ : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ لأَنَّ طاعةَ الرَّسولِ مِنْ لوازم تَقوى اللهِ ، فَبيَّنَ أنَّهُ إذا لَزِمَكُمْ أنْ تتَّقوا اللهَ لَزِمَكُمْ أنْ تُطيعوني ، إنَّ هذهِ المُعْجزاتِ الّتي جِئْتُكُمْ بِها لَنْ تُخْرِجَني عَنْ كَوْنِي عَبْداً للهِ تَعالى ومَخْلوقاً لَهُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ هذا الإلهُ هُوَ الّذي خَلَقَني وخَلَقَكُمْ ، ورَزَقَني ورَزَقَكُمْ وتَوَلاّني وتَولاّكُمْ بالعِنايةِ والرِّعايَةِ ، فَهُوَ إذنْ وَحْدَهُ الّذي يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ ، ولِذا عَلَيْكُمْ أنْ تُخْلِصوا لَهُ سُبْحانَهُ العِبادَةَ ، لأنَّ هذا هُوَ الطَّريقُ المُسْتَقيمُ الّذي لا اعْوِجاجَ فيهِ ، هُوَ وَحْدَهُ الموصِلُ إلى رِضا اللهِ تَعالى . وهَكذا نَرَى أنَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قَدْ خَتَمَ كَلامَهُ بالدَّعْوَةِ إلى تَوْحيدِ اللهِ تَعالى ، والاعْترافِ لَهُ وَحْدَهُ بالعُبودِيَّةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِد الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ نبيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى .

٢ـ الحَكيمُ هُوَ الّذي يَتوخَّى دائماً الصَّوابَ في القَوْلِ والعَمَلِ .

٣ـ أيَّدَ اللهُ تَعالى عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِبَعْضِ المُعْجِزاتِ لِتَكونَ صَفْعَةً للماديَّةِ والمادِّيينَ الّذينَ لا يُؤْمِنونَ إلاّ بِما هُوَ مَحْسوسٌ .

٤ـ طاعةُ اللهِ تَعالى وعِبادَتُهُ هِيَ الطَّريقُ المُسْتَقيمُ الموصِلُ إلى رضا اللهِ وإلى جَنّاتِهِ .

التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لَقَدْ عَلَّمَ اللهُ تَعالى عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ الكِتابَ والحِكْمَةَ ، ما المَقْصودُ بِهما ؟

٢ـ لِماذا كانَ تعلُّمُ التَّوْراةِ بَعْدَ تَعَلُّمِ الحِكْمَةِ والكِتابِ ؟

٣ـ ما المُعْجزاتُ الّتي أيَّدَ اللهُ بِها عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ ؟ اذْكُرْها مُرَتَّبَةً كما جاءَتْ في الآياتِ .

٤ـ بيِّنِ المَقْصودَ بالأَكْمَهِ والأَبْرَصِ .

٥ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ ؟

٦ـ لِكَيْ يَصِلَ الإِنْسانُ إلى الطَّريقِ المُسْتَقيمِ ، ما الّذي يَنْبَغي عَلَيْهِ فِعْلُهُ ؟

نَشاطٌ :

ـ ما الأَطْعِمَةُ الّتي حَرَّمَها اللهُ عَلى بَني إِسْرائيلَ ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرس الثاني عشر

سورةُ آلِ عِمرانَ - القِسمُ الثّاني عَشَرَ

۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أحَسَّ : عَلِمَ وعَرَفَ ، والإحْساسُ : الإدْراكُ .

أنْصاري : أَعْواني الّذينَ يتّبعونَ دينَ اللهِ .

الحَواريُّونَ : المُؤْمِنونَ الأَصْفِياءُ .

مَكروا : دبَّروا تَدْبيراً مُحْكَماً .

التَّفسيرُ :

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

لَقَدْ بَدَأَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَدْعو قَوْمَهُ كما أَمَرَهُ اللهُ تَعالى وجاءَ قَوْمَهُ بالمُعْجزاتِ الباهِرَةِ الّتي تَشْهَدُ بِصِدْقِهِ ، ولَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ مِنْهُمْ أُذُناً صاغِيَةً ، ورأى أَنَّ بَني إسْرائيلَ مُصِرُّونَ على الكُفْرِ والعِنادِ ، وأَحَسَّ هذا الأَمْرَ مِنْهُمْ وَعَلِمَهُ عِلْماً يَقينِيّاً ، وعِنْدَ ذَلِكَ تَوجَّهَ لِلْبَحْثِ عَمَّنْ يَكونُ مُسْتَعِداً

لِنُصْرَةِ دينِ اللهِ وَتبليغِ دَعْوَتِهِ ، فَقالَ : ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ قالَ ذَلِكَ حَضّاً لَهُمْ عَلى المُسارَعَةِ إلى نُصْرَةِ الحَقِّ ، فَهُمْ يَنْصُرونَهُ لأنَّهُ يُدافِعُ عَنْ دينِ اللهِ ويُبَشِّرُ بِهِ .

وَكَعادةِ الأَقْوامِ السّابِقينَ ، كانَ الكافِرونَ هُمُ الكَثْرَةُ ، ولِذلِكَ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ﴾ حَيْثُ نَسَبَ الكُفْرَ إليْهِمْ وهُمُ الأَغْلَبُ ، أمّا القِلَّةُ القَليلَةُ الّذينَ آمَنوا بِهِ فَقَدْ لَبّوا نِداءَ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ ، وهُمُ الحَوارِيّونَ فَقالوا نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ ، والحَوارِيُّونَ هُمْ أَنْصارُ سيِّدنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الّذينَ آمَنوا بِهِ وصَدَّقوهُ وأَخْلَصوا لَهُ ولازَموهُ ، وسُمُّوا كَذلِكَ لِشِدَّةِ إخْلاصِهِمْ ، فَأَصْلُ الكَلِمَةِ الحَوَرُ : وَهِيَ شِدَّةُ البَياضِ أَوْ الخالِصُ مِنَ البَياضِ .

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

لَقَدْ وَقَفَ هَؤلاءِ الحَوارِيُّونَ مَعَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لِنُصْرَةِ دينِهِ ، وإعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ، وقَدْ نطَقوا بالإيمانِ بِأَلْسِنَتِهِمْ بَعْدَ أنْ أقرُّوا بِهِ في قُلوبِهِمْ ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ مُنْقادونَ لأَوامِرِ اللهِ تَعالى مُخْلِصونَ لَهُ بالعِبادَةِ ، وهُمْ يَطْلُبونَ مِنْ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يَكونَ شاهِداً لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، بِأَنَّهُمْ أَسْلَموا وُجوهَهُمْ للهِ ، إنَّ هَذا كُلَّهُ يَدُلُّ عَلى قُوَّةِ إيمانِهِمْ وصِدْقِهِمْ فيما يَدَّعونَ ، فَهاهُمْ يَتوجَّهونَ إلى اللهِ تَعالى بالدُّعاءِ والتَّضرُّعِ ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾ إنَّنا يا ربِّ آمنَّا بما أَنْزَلْتَ عَلَيْنا وهُوَ الإنْجيلُ ، وامتَثَلْنا أوامِرَ رَسولِنا عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

وَقَدْ ذَكَروا الاتِّباعَ بَعْدَ الإيمانِ ، لأنَّ العِلْمَ الصَّحيحَ وَهُوَ الإيمانُ يَسْتَلْزِمُ العَمَلَ ، فالعِلْمُ الّذي لَيْسَ لَهُ أثرٌ في العَمَلِ يَكونُ ناقِصاً ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ اكْتُبْنا بِفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ مَعَ الشّاهِدينَ لِرَسولِكَ بِأَنَّهُ قَدْ بلَّغَ دَعْوَتَهُ ، ومِنَ الشّاهِدينَ عَلى قَوْمِنا بِأَنَّهم كَفَروا وجَحَدوا نَبِيَّهُمْ ، ومِنَ الشّاهِدينَ بِوَحْدانِيَّتِكَ ، العامِلينَ بِشَريعَتِكَ ، المُسْتَحِقِّينَ لِرِضاكَ وَرَحْمَتِكَ .

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

وَبَعْدَ أَنْ تحدَّثَتِ الآياتُ عَنْ مَوْقِفِ الحَوارِيّينَ ، انْتَقَلَتْ لِتُحدِّثَنا عَنْ أولئكَ الّذينَ أَحَسَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ مِنهُمُ الكُفْرَ ، فقالَ : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ أي : مَكَرَ هَؤُلاءِ فَحاوَلوا قَتْلَهُ ، واتَّخَذوا كُلَّ وَسيلَةٍ حتّى يَقْتُلوهُ ، ولَكنَّ اللهَ تَعالى أَحْبَطَ مَكْرَهُمْ وأَبْطَلَ ما دبَّروهُ ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ أَحْكَمُ مَكْراً وأَقْدَرُ عَلى العِقابِ .

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ مَظاهِرِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى ، ورِعايَتِهِ لِنَبيِّهِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ

والسَّلامُ ، بَعْدَ أنْ مَكَرَ بِهِ قومُهُ ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ لِنبيِّهِ إنّي يا عيسى قابِضُكَ مِنَ الأَرْضِ ورافِعُكَ إلى السَّماءِ بِجَسَدِكَ وروحِكَ لِتَسْتَوفِيَ حَظَّكَ مِنَ الحَياةِ هُناكَ ، والمَقْصودُ بالتوفّي هُنا أَخْذُكَ وافياً بروحِكَ وَجَسَدِكَ ، ومَعْنى : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ رافِعُكَ إلى مَحلِّ كَرامَتي في السَّماءِ ، إنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمْ يَمُتْ ، فَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء : ١٥٧ـ١٥٨] .

وعَنْ أبي هُريرَةَ قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « يوشِكُ أنْ يَنْزِلَ فيكُمُ ابنُ مريمَ حَكَماً عَدْلاً يَقْتُلُ الدَّجالَ ، ويَقْتُلُ الخِنزيرَ ، ويَكْسِرُ الصَّليبَ ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ ، وَيفيضُ المالَ ، وتَكونُ السَّجْدَةُ واحِدَةً للهِ ربِّ العالَمينَ »[1] ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذينَ كَفَرُوا﴾ وَذلِكَ بإبْعادِكَ عَنْهُمْ ، وإنجائِكَ مِمّا دبَّروهُ وخَطَّطوهُ لَكَ مِنَ القَتْلِ غيلَةً ، وتَبرِئَتِكَ مِمّا أشاعوهُ عَلَيْكَ وعلى أُمِّكَ مِنْ أكاذيبَ وافْتِراءاتٍ .

﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ ﴾ وَهُمُ الّذينَ آمَنوا بِكَ وَصَدَّقوكَ ، فَوْقَ الّذين كَفروا بِكَ وبِغَيْرِكَ مِنَ الرُّسُلِ إلى يَوْمِ القيامةِ . والمَقْصودُ بالفَوْقيَّةِ : فَوقيَّةٌ رَوْحانيَّةٌ ، وهِيَ كَوْنُهُمْ أَحْسَنَ أَخْلاقاً وأَكْملَ أَدَباً وأَقْرَبَ إلى الحَقِّ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ ومَصيرُكُمْ أيُّها النّاسُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ الحَكَمُ العَدْلُ ، الّذي يَحْكُمُ فيما كُنْتُمْ تَخْتَلِفونَ فيهِ في دُنياكُمْ مِنْ شُؤونٍ دينيَّةٍ ودُنْيويَّةٍ ، ثُمَّ يَفصِلُ بَيْنَكُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى ، ويُحاسِبُ كُلاًّ على عَمَلِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإسْلامُ هُوَ دينُ اللهِ تَعالى الّذي جاءَ بِهِ كُلُّ نَبيٍّ .

٢ـ العِلْمُ الصَّحيحُ هُوَ الّذي يُثْمِرُ العَمَلَ الصّالِحَ ، ومَنِ ادّعى العِلْمَ دونَ عَمَلٍ كانَ عِلْمُهُ ناقِصاً لا جَدوى مِنْهُ .

٣ـ المَكْرُ السَّيِّءُ لا يَحيقُ إلاّ بأَهْلِهِ .

٤ـ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمْ يُقْتَلْ ولمْ يُصْلَبْ ، بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إليهِ .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، باب : نزول عيسى عليه السلام ، حديث رقم ٣٢٦٤ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ماذا كانَ مَوْقِفُ بَني إِسْرائيلَ مِنْ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٢ـ ما الّذي فَعَلَهُ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ عِنْدَما أَحَسَّ مِنْ قَوْمِهِ الكُفْرَ ؟

٣ـ مَنْ هُمُ الحَوارِيُّونَ ؟

٤ـ بِماذا أجابوا عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٥ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ قَوْلِ الحواريّينَ ﴿آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ؟

٦ـ ما المَقْصودُ بالتَّوفّي والرَّفع ؟

٧ـ كَيْفَ طهَّرَ اللهُ تَعالى عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ مِنَ الّذين كَفَروا ، وجَعَلَ أَتْباعَهُ فَوْقَ الكافِرينَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ ذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ لِكُلِّ نَبيٍّ حَوارِيّاً ، فَمَنْ حَوارِيُّ النَّبِيِّ مُحمَّدٍ ﷺ ، اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةَ سورةِ الأنْفالِ الّتي تُبيِّنُ مَكْرَ قريشٍ برسولِ اللهِ ﷺ .

٣ـ بيِّنْ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ حَديثُ الرَّسولِ ﷺ الواردِ في شَرْحِ الآيةِ (٥٥) ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرس الثالث عشر

سُورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الثّالِثَ عَشَرَ

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

المُمْتَرِينَ : الشّاكّينَ .

حاجَّكَ : جادَلَكَ وخاصَمَكَ .

تعالَوْا : اسْمُ فِعْلِ أَمْرٍ لِطَلَبِ القُدومِ .

نَبْتَهِلْ : نَتَلاعَنْ ، وأَصْلُ الابْتِهالِ : الاجْتِهادُ في الدُّعاءِ بالنَّصِّ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ اللهَ تَعالى يَحْكُمُ بَيْنَ النّاسِ فيما كانوا فِيهِ يَخْتَلِفونَ ، ثُمَّ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ سُبْحانَهُ ، ويُحاسِبُ كُلاًّ على عَمَلِهِ .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

أمّا الّذين كفروا فَسوْفَ يُعذِّبُهُمُ اللهُ عَذاباً شَديداً في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وذلِكَ بأنْ جَعَلَ العَداوةَ والبَغْضاءَ بَيْنَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ يُعانونَ مِنَ الحُروبِ والهَزائمِ والأَمراضِ ، هَذا في الدُّنْيا ، أمّا في الآخِرَةِ ، فإنَّهُ سُبْحانَهُ يَسوقُهُمْ إلى عَذابِ النّارِ ، وما لَهُمْ مِنْ ناصِرٍ يَنصُرُهُمْ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى .

هَذا هُوَ جَزاءُ الكافِرينَ ، أمّا جَزاءُ المُؤْمِنينَ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ ، فإنَّهُ سُبْحانَهُ سَيُعْطيهِمْ فَضْلاً مِنْهُ وإحْساناً ، بِسَبَبِ إيمانِهِمْ وعَمَلِهِمُ الصّالحِ ، وسَيُعْطيهِمْ أُجورَهُمْ كامِلَةً . وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإنَّ ما كانَ مِنْ أُولئِكَ الكافِرينَ مِنْ أَفْحَشِ الظُّلْمِ ، حَيْثُ افْتَرَوْا عَلى السَّيِّدةِ مَرْيم وابْنَها ، واتَّهموها بالفاحِشَةِ ، وقالوا : إنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثةٍ ، وقالوا : إنَّ اللهَ هُوَ المَسيحُ ابنُ مَرْيَمَ .

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

ذَلِكَ الّذي تَقَدَّمَ مِنْ خَبَرِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، نَتْلوهُ عَلَيْكَ مِنَ الحُجَجِ الدّالَّةِ عَلى نُبوَّتِكَ ، والذِّكْرِ ، أي : القُرْآنِ المُحْكَمِ الّذي لا يَأْتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ ، والّذي يُبيِّنُ وُجوهَ العِبَرِ في الأَخْبارِ ، والحِكَمَ في الأَحْكامِ ، فَيَهْدي المُؤْمِنينَ إلى لُبابِ الدّينِ وفِقْهِ الشَّريعةِ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ شُبْهَةِ أُولئِكَ المَفْتونينَ المُنْكِرينَ الّذينَ يُحاجّونَ بِغَيْرِ عِلْمٍ في وِلادَةِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

وحالُهُ الغَريبةُ في خَلْقِ اللهِ تَعالى إيّاهُ عَلى غَيْرِ مِثالٍ سابقٍ كَشَأْنِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . وحالُهُ الغَريبةُ العَجيبةُ ، في أنَّ كِلَيْهِما قَدْ خَلَقَهُ اللهُ تَعالى مِنْ غيرِ أبٍ ، وأنَّ شَأْنَ آدمَ أشَدُّ عَجَباً ، إذْ خُلِقَ مِنْ غَيْرِ أبٍ ولا أمٍّ كَذلِكَ .

إنَّ آدمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ خَلَقَهُ اللهُ مِنْ تُرابٍ ، أيْ : كوَّنَ جِسْمَهُ مِنْ تُرابٍ مَيِّتٍ أصابَهُ الماءُ ، فَكانَ طيناً فيهِ لُزوجَةٌ ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي : كَوَّنَهُ تَكْويناً آخَرَ بِنَفْخِ الرُّوحِ فيهِ ، وعَبَّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ (يَكونُ) لاسْتِحضارِ الصُّورةِ وهِيَ تَدُلُّ على اسْتِمرارِ الخَلْقِ بالنِّسْبَةِ للهِ تَعالى ، إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ولَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ ولا أُمٌّ ، كَذلِكَ حالُ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، الّذي اخْتُصَّ بِطَرَفِ الأُمِّ دونِ طَرَفِ الأَبِ .

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

إنَّ ما أخْبَرَ اللهُ بِهِ عِبادَهُ عَنْ شأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ هُوَ الحَقُّ ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ وما دامَ حقّاً لا مجالَ للشَّكِ فيهِ ، فعَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ أنْ تَثْبُتَ عَلى ما أنتَ عَلَيْهِ مِنْ حَقٍّ ، ولا تَكُنْ في ذَلِكَ مِنَ الشَّاكّينَ ، والنَّبيُّ ﷺ لا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ شاكّاً في الحقِّ ، فالخِطابُ لَهُ ، ولكنْ يُقْصَدُ بِهِ أمَّتُهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ .

ويَقولُ سُبْحانَهُ لِنبيِّهِ ﷺ : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ مَنْ حاجَّكَ وجادَلَكَ بَعْدَ هَذِهِ الدَّلائِلِ الواضِحَةِ والأَجْوبَةِ القاطِعَةِ في شَأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فَلا تُبادِلْهُ الكَلامَ ، ولا تُجادِلْهُ كما يُجادِلُك ، إذْ هُوَ مُعانِدٌ لا يُقْنِعُهُ الدَّليلُ حتّى لَوْ كانَ واضِحاً أشدَّ الوُضوحِ ، ولَكِنْ قُلْ لَهُمْ ولأَمْثالِهِمْ : ﴿ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ .

إنَّ هَذِهِ الآياتِ تَتَحدَّثُ عَنْ أَهْلِ الكِتابِ ، ومِنْهُمْ وَفْدُ نَجْرانَ النَّصارى الّذينَ جاءوا يُحاجُّونَ النَّبيَّ ﷺ في شأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ويَزْعُمونَ أنَّهُ ابنُ اللهِ ، وأنَّهُ هُوَ اللهُ ، وكانوا سِتّينَ راكِباً يَتزعَّمُهُمْ ثَلاثةٌ : الأميرُ وهُوَ مُلقَّبٌ بالعاقِبِ واسْمُهُ عَبْدُ المسيحِ ، وصاحِبُ الرَّحْلِ واسْمُهُ الأَيْهَمُ ، والحَبْرُ أبو الحارثِ بنُ عَلْقَمةَ ، ولمّا نَزَلَتِ الآياتُ تَتَحدَّثُ عَنْ شَأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَأُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بِمُلاعَنَتِهِمْ ، دَعاهُمْ إلى ذلكَ فَقالوا لَهُ : يا أبا القاسِمِ : دَعْنا نَنْظُرْ في أَمْرِنا ثُمَّ نأْتيكَ بِما نُريدُ أنْ نَفْعَلَ فيما دَعَوْتَنا إليهِ ، فانْصَرَفوا عَنْهُ ، ثُمَّ خَلَوا بالعاقِبِ ، وكانَ ذا رَأْيٍ فيهم ، فَقالوا : يا عبدَ المسيحِ ، ماذا تَرى ؟ فقالَ : واللهِ يا مَعْشَرَ النَّصارى لَقَدْ عَرَفْتُمْ أنَّ مُحمّداً لَنبيٌّ مُرْسَلٌ ، ولَقَدْ جاءَكُمْ بالفَصْلِ مِنْ خَبَرِ صاحِبِكُمْ ، ولَقَدْ عَلِمْتُم ما لاعَنَ قومٌ نبيّاً قَطُّ فبَقِيَ كَبيرُهُمْ ، ولا نَبَتَ صَغيرُهُمْ ، وإنَّهُ لَلاسْتِئْصالُ مِنْكُمْ إنْ فَعَلْتُم ، فإنْ كُنْتُمْ أَبيتُمْ إلاّ إلفَ دينِكُمْ ، والإقامَةَ عَلى ما أنتُمْ عَلَيْهِ مِنَ القَولِ في صاحِبِكُمْ ، فواعِدوا الرَّجُلَ ، ثُمَّ انْصَرِفوا إلى بِلادِكُمْ ، فأَتَوْا رسولَ اللهِ ﷺ فَقالوا : يا أبا القاسِمِ ، قَدْ رَأَيْنا ألاّ نُلاعِنَكَ ، ونَتْرُكَكَ عَلى دِينِكَ ونَرْجِعَ عَلى دِينِنا ، ولَكِنْ ابْعَثْ رَجُلاً مِنْ أصحابِكَ تَرْضاهُ لَنا يَحْكُمُ بَيْنَنا في أشْياءَ اخْتَلَفْنا فيها مِنْ أَمْوالِنا ، فإنَّكُمْ عِنْدَنا رضاً[1] .

وَعَنْ سَعيدِ بنِ أبي العاصِ قالَ : لمّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ : ﴿تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ﴾ دَعا

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٨٤) .

رسولُ اللهِ ﷺ فاطمةَ وحَسَناً وحُسَيْناً ، فقالَ : (اللّهمَّ هَؤلاءِ أهْلي)[1] .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

وَيُؤَكِّدُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى صِدْقِ هذا القَصصِ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ فما ذَكَرْناهُ في شَأْنِ المسيحِ هُوَ الحَقُّ ، وما عَداهُ مِنْ قَوْلِ القائِلينَ عَنْهُ أنَّهُ وَلَدُ زِنا ، وقَوْلُ الغالِينَ فيهِ إنَّهُ اللهُ أو ابنُ اللهِ ، فباطلٌ ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ نَفْيٌ قاطِعٌ لأَنْ يَكونَ هُناكَ إلهٌ سِوى اللهِ تَعالى ، وإثْباتُ أنَّ الأُلوهيَّةَ الحقَّةَ إنَّما هِيَ للهِ تَعالى ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يُساويهِ أحَدٌ في عِزَّتِهِ ومُلْكِهِ ، وَلا في حِكْمَتِهِ في خَلْقِهِ ، فَيَكونُ شَريكاً لَهُ في أُلوهيَّتِهِ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ وأعْرَضُوا ولم يُجيبوا الدَّعْوَةَ إلى المُباهَلةِ ، ولمْ يَقْبَلوا عَقيدةَ التَّوْحيدِ الخالِصِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ لِعقائِدِ النّاسِ بإصْرارِهِمْ عَلى الباطِلِ ، مُقلِّدينَ في هذا الباطِلِ غَيْرَهُمْ مِنْ غَيْرِ بُرْهانٍ ولا دَليلٍ .

وَبِهذا تَكونُ الآياتُ قَدْ تحدَّثَتْ عَنْ آلِ عِمرانَ : زكريّا ، ويحيى عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ومَرْيَمَ وابنِها عيسى عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَبيَّنَتِ القَوْلَ الحَقَّ في شَأْنِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إنَّ خَلْقَ آدمَ عَلَيْهِ السَّلامُ أعْجَبُ مِنْ خَلْقِ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ .

٢ـ أَهْلُ الكِتابِ يَعْتَقِدونَ صِدْقَ الرّسولِ ، ولَكنَّهُمْ لِعنادِهِمْ وجُحودِهِمْ وتَكبرُّهِمْ يُحاجُّونَ ويُجادِلونَ .

٣ـ الحَقُّ في شَأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ما أخْبَرَتْ بِهِ الآياتُ مِنْ أنَّهُ عَبْدُاللهِ اصطَفاهُ اللهُ ، ولَيْسَ إلهاً أوْ ابْناً للهِ كَما يَدَّعي النَّصارى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ قارِنْ بَيْنَ الجَزاءِ الّذي أعدَّهُ اللهُ لِلْكافِرينَ والجَزاءِ الّذي أَعَدَّهُ لَلْمُؤْمنينَ .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ، آل عمران ، حديث رقم ٣٠٠٢ وقال حديث غريب صحيح .

٢ـ ما الشُّبْهَةُ الّتي يُثيرُها الكافِرونَ في شَأْنِ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٣ـ بِمَ ردَّتْ عَلَيْهِمُ الآياتُ القُرآنيَّةُ ؟

٤ـ هَلْ كانَ النَّبيُّ شاكّاً في شَأْنِ عيسى حتّى يُقالَ لَهُ : ﴿فَلاَ تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ؟

٥ـ فيمَنْ نزَلَتِ الآياتُ ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ ؟

٦ـ بِمَ سُمِّيَتْ هذهِ الآياتُ ؟

٧ـ لِماذا دَعاهُمُ النَّبيُّ للمُلاعَنةِ ؟ وهَلْ أجابوا دَعْوَتَهُ ؟

٨ـ علامَ يَدُلُّ عَدَمُ اسْتِجابَتِهِمْ للنَّبيِّ ومُلاعَنَتِهِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ صورَةَ المُباهَلةِ (المُلاعَنَةِ) الّتي ذُكِرَتْ في الآياتِ .

* * *

الدرس الرابع عشر

سورة آل عمران - القسم الرابع عشر

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

كَلِمَةٍ سواءٍ : كَلِمَةِ عَدْلٍ أوْ كَلامٍ لا تَخْتَلِفُ فيهِ الشَّرائِعُ .

أرْباباً : في مَنْزِلةِ الرَّبِّ يُحلِّلونَ ويُحرِّمونَ .

التَّفسيرُ :

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ .

ما زالتِ الآياتُ الكَريمةُ تَتَحَدَّثُ عَنْ أَهلِ الكِتابِ ، وتَرُدُّ عَلَيْهِمُ افْتِراءاتِهِمُ الّتي افْتَروْها . فَقَدْ دَعاهُمُ النَّبيُّ ﷺ إلى المُباهَلَةِ ، ولَكِنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلوا خَوْفاً على أَنْفُسِهِمْ ، فَدَعاهُمْ إلى أَمْرٍ آخَرَ هُوَ عَدْلٌ بَيْنَ الفَريقَيْنِ ووَسَطٌ ، يَقولُ سُبْحانَهُ لِنَبيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ : هَلُمّوا وأَقْبِلوا إلى كَلِمَةٍ عادِلَةٍ مُسْتَقيمةٍ لَيْسَ فيها بُعْدٌ عَنْ الحَقِّ ، وبَيِّنْ لَهُمْ هذهِ الكَلِمَةَ العادِلَةَ الّتي اتَّفَقَ عَلَيْها الأَنْبِياءُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ جميعاً ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هذا تَقْريرٌ لِوَحْدانيَّةِ اللهِ

تَعالى ورُبوبيَّتِهِ ، أنْ لا يَعْبُدوا إلاّ اللهَ ، ويَتْرُكوا عِبادَةَ غَيْرِهِ ، ولا يُشْرِكوا مَعَهُ أحَداً في العِبادَةِ والخُضوعِ ، ولا يُطيعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً في مَعْصِيَةِ اللهِ تَعالى .

إنَّ جَميعَ الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ جاءوا يَدْعونَ إلى عِبادةِ اللهِ تَعالى ، ولِذا فإنّنا نَحْنُ وأَنْتُمْ يا أهْلَ الكِتابِ نَعْتَقِدُ أنَّ هَذا العالَمَ مِنْ صُنْعِ إلهٍ واحِدٍ ، والمُتَصَرِّفُ فيهِ إلهٌ واحِدٌ ، فَتَعالَوْا بنا نَتَّفِقْ عَلى إقامةِ هَذِهِ الأُصولِ المُتَّفَقِ عَلَيْها ، وَنَرْفُضْ كُلَّ شُبْهَةٍ تَعرِضُ لَها ، وما دامَ الإلهُ واحِداً فإنَّ لَهُ حَقَّ التَّشْريعِ والتَّحليلِ والتَّحْريمِ .

عَنْ عَديٍّ بنِ حاتمٍ قالَ : أَتَيْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ وفي عُنُقي صَليبٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقالَ يا عَديُّ : اطْرَحْ عَنْكَ هذا الوَثَنَ . وسَمِعْتُهُ يَقْرأُ في سورةِ بَراءةٍ : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ﴾ فَقُلْتُ لَهُ : يا رسولَ اللهِ ، لَمْ يَكونوا يَعْبُدونَهُمْ ، فَقالَ : أَلَيْسَ يُحرِّمونَ ما أحلَّ اللهُ فَيُحرِّمونَ ، ويُحلّونَ ما حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلّونَ ؟ فقلتُ : بلى[1] .

لَقَدْ دَعاهُمُ النَّبيُّ ﷺ إلى عِبادةِ اللهِ وعَدَمِ الإشْراكِ بِهِ ، والتَّحاكُمِ إلى اللهِ تَعالى في التَّحْليلِ والتَّحْريمِ ، وأَرْشَدَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ إلى ما يَجِبُ أنْ يَكونَ عَلَيْهِ مَوْقِفُهُمْ إذا اسْتَمرَّ هَؤُلاءِ عَلى جُحودِهِمْ ، فَقالَ تَعالى : ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي : إنْ أعْرَضوا عَنْ دَعْوةِ الحَقِّ وانْصَرَفوا عَنْ مُوافَقَتِكُمْ بِسَبَبِ عِنادِهِمْ وجُحودِهِمْ ، فَلا تُجادِلوهُمْ وقولوا إنَّنا نَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ ، لا نَدْعو سِواهُ ، ولا نَتوجَّهُ إلى غَيْرِهِ في طَلَبِ نَفْعٍ ولا دَفْعِ ضُرٍّ ، ولا نُحِلُّ إلاّ ما أَحَلَّهُ اللهُ ، ولا نُحرِّمُ إلاّ ما حَرَّمَهُ اللهُ . وبِذلِكَ فَنَحْنُ نُلزِمُكُمُ الحُجَّةَ ، ويَجِبُ عَلَيْكُمْ أنْ تَعْتَرِفوا وَتُسَلِّموا بأنّا مُسْلِمونَ .

إنَّ هَذِهِ الآيَةَ ذَكَرَتْ أَساسَ الدِّينِ المَتينِ ، ولِذلِكَ كانَ النَّبيُّ ﷺ يَدعو بِها أَهْلَ الكِتابِ إلى الإسْلامِ في كُتُبِهِ الَّتي أَرْسَلَها لَهُمُ ، فَقَدْ كَتَبَ إلى هِرَقْلَ مَلِكِ الرُّومِ : « بسمِ اللهِ الرحمنِ الرَّحيمِ ، مِنْ مُحمَّدٍ عبدِ اللهِ ورَسولِهِ إلى هِرَقْلَ عَظيمِ الرُّومِ ، سَلامٌ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الهُدى ، أمّا بعدُ ، فإنّي أَدْعوكَ بِدِعايَةِ الإسْلامِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عَلَيْكَ إثْمَ الأريسيِّينَ ، ويا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ ألاّ نَعْبُدَ إلاّ اللهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ أَحَداً » .

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ .

وتَوَجَّهتِ الآياتُ إلى نداءِ أهْلِ الكِتابِ مَرَّةً ثانِيَةً تَنْهاهُمْ عَنِ الجِدالِ بالباطِلِ في شَأْنِ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَقالَ اللهُ تَعالى : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لِماذا تُجادِلونَ في دينِ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير .

إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وشَريعتِهِ ، فتدَّعونَ أنَّهُ كانَ عَلى اليَهوديَّةِ تارَةً ، وتارةً أُخرى تَدَّعونَ أنَّهُ كانَ عَلى النَّصرانيَّةِ ، إنَّ كلامَكُمْ لَيْسَ عَلَيْهِ أيُّ دَليلٍ ، وذَلِكَ أنَّ التَّوراةَ والإنْجيلَ ما أُنْزِلَتا إلاّ بَعْدَهُ ؟ وإذا كُنْتُمْ تَقولُونَ أيها اليَهودُ إنَّ الحَقَّ لَيْسَ إلاّ في التَّوراةِ ، وأنتُمْ أيُّها النَّصارى إذا كُنْتُمْ تقولُونَ إنَّ الحَقَّ لَيْسَ إلاّ في الإنْجيلِ ، وهُما لمْ يَنزِلا إلاّ بَعْدَ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَكَيْفَ يَكونُ إبراهيمُ عَلى الحَقِّ ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ لَوْ كانَ عِنْدَكُمْ مِسْحَةُ عَقْلٍ ، ولَوْ أنَّكُم لَمْ تَغْفَلوا ، لَما قُلْتُمْ هذا الّذي صَدَرَ عَنْكُمْ . والاسْتِفْهامُ جاءَ لِتَوْبيخِهِمْ .

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

لَوْ كانَ أَهْلُ الكِتابِ يَعْقِلونَ لَما جادَلوا في أُمورٍ لا يَعْلَمُونَها ، فإذا كانوا يُحاجُّونَ ويُجادِلونَ في أُمورٍ يَعْلَمونَها ، لأنَّهُمْ وَجَدوها في كُتُبِهِمْ ، وذَلِكَ مِثْلُ جِدالِهِمْ في أَمْرِ عيسى وموسى عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، أوْ جِدالِهِمْ في بَعْضِ الأَحْكامِ المَوْجودةِ فيهِما ، فَكَيْفَ يُبيحونَ لأَنْفُسِهِمْ أنْ يُجادِلوا في أُمورٍ لا يَعْلَمونَها ، وهِيَ كَوْنَ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَهودياً أوْ نَصْرانِياً .

أَلَيْسَ الواجِبُ عَلَيْكُمْ يا أَهْلَ الكِتابِ أن تَتَّبِعوا ما يُوحيهِ اللهُ تَعالى إلى عَبْدِهِ مُحمَّدٍ ﷺ ؟ وذَلِكَ أنَّ اللهَ تَعالى يَعْلَمُ حالَ إبْراهيمَ ودينَهُ ، ويَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ في هذا الوُجودِ ، أمّا أنْتُمْ فَعِلْمُكُمْ قاصِرٌ ، ولا تَعْلَمونَ شَيْئاً مِمّا أخْبَرناكُمْ عَنْهُ .

فَقَدْ جاءَتْ هذهِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ أنَّ الإسْلامَ هُوَ دينُ جَميعِ الأَنْبياءِ الذينَ يُؤْمِنُ بِهِمْ أَهْلُ الكِتابِ ، ومِنْهُمْ إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وقَدْ كانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في مَوْضِعِ إجْلالٍ مِنْ قِبَلِ اليَهودِ والنَّصارَى ، حَيْثُ كانَتْ كُتُبُهُمْ تُثْني عَلَيْهِ ، وكانَتْ كَذَلِكَ قُرَيْشٌ تُجِلُّهُ وتَدَّعي أنَّها عَلى دينِهِ ، فَأَرادَ اللهُ أنْ يُبيِّنَ لَهُمْ جميعاً أنَّ هذا النَّبِيَّ الكَريمَ الّذي كانوا يُجِلّونَهُ لَمْ يَكُنْ عَلى شَيْءٍ مِنْ تَقاليدِهِمْ ، وإنَّما كانَ عَلى الإسْلامِ الّذي جاءَ يَدْعوهُمْ إليْهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإسْلامُ هُوَ دينُ الأَنْبياءِ جَميعاً عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ لَدُنِ آدَمَ إلى سَيِّدِنا مُحمَّدٍ ﷺ .

٢ـ لا مَعبودَ بِحَقٍّ ولا رَبَّ بِصِدْقٍ إلاّ اللهُ تَعالى ، فَهُوَ المُشَرِّعُ لِعبادِهِ ، ولِذا لا مُحلِّلَ ولا مُحرِّمَ إلاّ اللهُ .

٣ـ إبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، لم يَكُنْ يَهوديّاً ولا نَصْرانيّاً ، ولَكنَّهُ كانَ مُسْلِماً .

٤ـ الإنْسانُ العاقِلُ لا يُجادِلُ إلاّ في الأُمورِ الّتي يَعْلَمُها ويُتْقِنُها ، أمّا ما لا يُتْقِنُهُ فيترُكُهُ ولا يَخوضُ فيهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ إلامَ دَعا النَّبيُّ ﷺ أَهْلَ الكِتابِ ؟

٢ـ ما الكَلِمَةُ الّتي هِيَ سواءٌ بَيْنَ المُسْلِمينَ وأَهْلِ الكِتابِ ؟

٣ـ كَيْفَ يَتَّخِذُ النّاسُ بَعْضَهُمْ بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دونِ اللهِ ؟

٤ـ ما مَوْقِفُ المُسْلِمينَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ إذا رَفَضوا دَعْوَتَهُمْ ؟

٥ـ هذِهِ الآيةُ : ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ تُعَدُّ أساسَ الدّينِ المَتينِ ، وضِّحْ ذَلِكَ .

٦ـ ناقَشَتِ الآياتُ أَهْلَ الكِتابِ الّذينَ جادَلوا في شَأْنِ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، بَيِّنْ ذَلِكَ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ رِسالةَ النَّبِيِّ ﷺ إلى كِسْرَى .

* * *

الدرسُ الخامسَ عَشَرَ

سورةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الخامِسَ عَشَرَ

مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

حَنيفاً : مائِلاً عَنِ الباطِلِ إلى الحَقِّ .

مُسْلِماً : مُنْقاداً للهِ مُطيعاً لَهُ .

أَوْلى النّاسِ : أَحقُّهُمْ .

تَلْبِسونَ : تَخْلِطونَ .

التَّفسيرُ :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

ما زالتِ الآياتُ تَرُدُّ على أَهْلِ الكِتابِ الّذينَ ادَّعَوْا أنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ يَهوديّاً أَوْ نَصْرانيّاً ، فهُوَ سُبْحانَهُ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ رَدّاً قاطِعاً بِقَوْلِهِ : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ وَلَكِنَّهُ كانَ حَنيفاً مائِلاً عَنِ العَقائِدِ الزّائِفَةِ الباطِلَةِ ، مُتَحَرِّياً طَريقَ الحَقِّ والاسْتِقامَةِ وكانَ مُسْتَسْلِماً للهِ تَعالى مُنْقاداً لَهُ ، مُخْلِصاً لَهُ العِبادَةَ ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الّذينَ يُشْرِكونَ مَعَ اللهِ آلِهةً

أُخرى ، فيُسمّونَ أنْفُسَهُمُ الحُنَفاءَ ، وهُمْ قُرَيشٌ ومَنْ وافقَهُم مِنَ العَرَبِ ، ولَمْ يَكُنْ مِنَ المُشْرِكينَ الّذين يَقولونَ : إنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثةٍ ، أوْ يَقولونَ : عُزَيرٌ ابنُ اللهِ ، أوَ يَقولونَ : المَسيحُ ابنُ اللهِ .

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

وبَيّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ أَحَقَّ النّاسِ بإبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَيسوا اليَهودَ ولا النَّصارى ولا المُشْرِكينَ ، ولَكِنَّ أحقَّهُمْ بالانْتِسابِ وأَقْرَبَهُمْ إليْهِ هُمْ ثَلاثةُ أَصْنافٍ :

الأولُ : ﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ أي : الّذينَ أَجابوا دَعْوَتَهُ في حياتِهِ ، واتَّبَعوا دينَهُ وشَريعَتَهُ ، واهْتَدَوْا بِهَدْيِهِ ، ومِنْهُمْ لَوطٌ عَلَيْهِ السَّلامُ .

الثاني : ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ والمَقصودُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ ، الّذي جاءَ يَدْعو إلى التَّوْحيدِ الخالِصِ ، وهُوَ ما دَعا إليْهِ إبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

الثّالِثُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ ﴾ أي : الّذينَ آمَنوا بِمُحمَّدٍ ﷺ ، فَهُمْ أَهْلُ التَّوْحيدِ المَحْضِ ، والإخْلاصِ في الأَعْمالِ الّذي لا يُبْطِلُهُ شِرْكٌ ولا رياءٌ ، وهذا هُوَ روحُ الإسْلامِ ، والمَقْصودُ مِنَ الإيمانِ . فالإسْلامُ لَيْسَ مُجرَّدَ تَقاليدَ وكَلِماتٍ وحَرَكاتٍ يُؤَدِّيها الإنْسانُ ، وَلَكِنَّ الإسْلامَ جاءَ لِتَنْقِيَةِ القُلوبِ وتَزْكيةِ النُّفوسِ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إنَّهُ سُبْحانَهُ ناصِرُ المُؤْمنينَ ومُتَوَلّي أُمورَهُمْ ، أولئِكَ الّذينَ لا يَتَوَجّهونَ إلى غَيْرِهِ سُبْحانَهُ لِيَكْشِفَ عَنْهُمْ ضُرّاً أوْ يَجْلِبَ لَهُمْ نَفْعاً ، هَؤلاءِ هُمُ الّذينَ يَتولّى أُمورَهُمْ ويُصْلِحُ شُؤونَهُمْ ، ويَتولّى إثابَتَهُمْ عَلى أعْمالِهِمْ ، نَسْأَلُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنا مِنْهُم في الدُّنيا وَمَعَهُمْ في الآخِرَةِ .

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

لَقَدْ كانَ أَهْلُ الكِتابِ أَشَدَّ النّاسِ حِرْصاً عَلى إضْلالِ غَيْرِهِمْ ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ تَمنَّتْ جَماعةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ إضْلالَكُمْ عَنِ الحَقِّ أيُّها المُؤْمِنونَ ، وذلِكَ بأنْ يُخْرِجوكُمْ مِنْ دينِ الإسْلامِ الّذي هَداكُمْ ربُّكُمْ إليهِ ، ويَرُدّوكُمْ إلى دينِ الكُفْرِ الّذي يَعْتَنِقونَهُ هُمْ ، ولكِنَّ هَؤلاءِ في الحَقيقَةِ ما يُهْلِكونَ إلاّ أنْفُسَهُمْ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وغِوايَتِهِمْ ، واسْتيلاءِ الأَهْواءِ عَلى قُلوبِهِمْ ، وبِسَبَبِ إيثارِهِمُ العَمَى عَلى الهُدَى ، فَهُمْ يَعْبَثونَ بِعُقولِهِمْ ، ويُفْسِدونَ فِطْرَتَهُمْ باخْتِيارِهِمْ ، ولكنَّهُمْ لا يَشْعرونَ بِذلِكَ ، ولا يَفْطَنونَ لَهُ ، لأنَّ الشَّيْطانَ قَدْ زَيَّنَ لَهُمْ سوءَ عَمَلِهِمْ فرَأَوْهُ حَسناً .

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِنداءِ أَهْلِ الكِتابِ مُحاجَجَةً لَهُمْ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ والاسْتِفهامُ تَوْبيخِيٌّ تَعَجُّبِيٌّ مِنْ شَأْنِهِمْ وحالِهِمْ ، أي : لِماذا تَكْفُرونَ بآياتِ اللهِ تَعالى

الّتي يَتْلوها عَلَيْكُمْ نَبيُّهُ مُحمَّدٌ ﷺ ، والحالُ أنَّكُمْ تَعْلَمونَ صِدْقَها وصِحَّتَها عِلْماً يَقينيّاً ، وتَعْلَمونَ كَذلِكَ أنَّ مُحَمّداً نبيٌّ حَقّاً مِنْ عِنْدِ اللهِ ، ولَكِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْحَدونَ وتَتَعنَّتونَ .

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١ ﴾ .

إنَّ اللهَ تَعالى قَدْ أَعْطاكُمْ مِنَ العِلْمِ ما يَكْفيكُمْ لِتُسارِعوا إلى الإيمانِ ولَيْسَ إلى الكُفْرِ بآياتِ اللهِ تَعالى .

ووَجَّهَتْ لَهُمُ الآياتُ نِداءً آخَرَ ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ لِماذا تَخْلِطونَ الحَقَّ الّذي جاءَ بِهِ الأَنْبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلامُ ، ونَزَلَتْ بِهِ الكُتُبُ ، وهُوَ عِبادةُ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وعَمَلُ البِرِّ والخَيْرِ ، وكَوْنُ الأَنْبياءِ بَشَّروا بِنَبيِّ اللهِ مُحمَّدٍ ﷺ ، لِمَ تَخْلِطونَ هذا الحَقَّ بالباطِلِ الّذي لَقَّنَكُمْ إيّاهُ أَحْبارُكُمْ ورُهْبانُكُمْ .

لَقَدْ نادتْهُمُ الآياتُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، وجاءَ الحديثُ مَعَهُمْ بِأُسْلوبِ الاسْتِفهامِ ، زيادةً في تَوْبيخِهِمْ والإنكارِ عَلَيْهِمْ والتَّعجُّبِ مِنْ شَأْنِهِمْ ، فَهُمْ قَدْ جَمَعَوا أفْحَشَ الرَّذائِلِ وعلى رَأْسِها الكُفْرُ بآياتِ اللهِ ، وخَلَطوا الحَقَّ بالباطِلِ وكَتَموا الحَقَّ ، فَهُمْ قَدْ سَلَكوا طَريقَيْنِ لإغْواءِ النّاسِ :

الأَوّلُ : خَلْطُ الحقِّ بالباطِلِ حتَّى لا يَتميَّزَ أَحَدُهُما عَنِ الآخَرِ .

الثّاني : إخْفاءُ الحَقِّ حتَّى لا يَظْهَرَ ، فَقَدْ كَتَموا البِشاراتِ الخاصّةَ بالنَّبيِّ ﷺ ، وكَتَموا الكَثيرَ مِنَ الأَحْكامِ الّتي نَزَلَتْ بِها شَريعَتُهُمْ ، وجَعَلوا كِتابَهُمْ قَراطيسَ يُبْدونَها ، ويُخْفونَ كَثيراً مِنْها .

إنّهم يَفْعَلونَ ما يَفْعَلونَ وهُمْ يَعْلَمونَ ؛ أي : والحالُ أنَّكُمْ تَعْلَمونَ أنَّ ما أَخْفَيْتُموهُ هُوَ الحَقُّ ، وهذا لَعَمْري أَشَدُّ فُحْشاً مِمَّنْ يَكْتُمُ شَيْئاً جاهِلاً بِهِ ، لا يَدْري أَهُوَ حَقٌّ أَمْ باطِلٌ !!

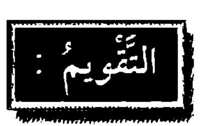
دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإسْلامُ لَيْسَ كَلِماتٍ وحَرَكاتٍ وتَقاليدَ يؤدّيها الإنْسانُ ، ولَكِنَّهُ انْقيادٌ وخُضوعٌ واسْتِسْلامٌ لِلْخالِقِ سُبْحانَهُ وإخْلاصٌ في الطّاعَةِ والعِبادَةِ لَهُ .

٢ـ بَراءةُ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ الشِّرْكِ أَوْ كَوْنِهِ يَهودِيّاً أَوْ نَصْرانِيّاً .

٣ـ اللهُ تَعالى هُوَ الّذي يَتولّى أُمورَ المُؤْمِنينَ ، ويُصْلِحُ شُؤونَهُمْ ويُثيبُهُمْ عَلى أَعْمالِهِمْ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعنى : حَنيفاً مُسْلِماً ؟

٢ـ مَنِ المُشْرِكونَ في قَولِهِ تَعالى : ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

٣ـ مَنْ أحَقُّ النّاسِ بإبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿لَو يُضِلُّونَكُمْ﴾ ؟

٥ـ ما نَتيجةُ إضْلالِهِمْ لِغَيْرِهِمْ ؟

٦ـ لِمَ وُجِّهَ النِّداءُ لأهلِ الكِتابِ أكْثرَ مِنْ مَرَّةٍ ؟ ولِمَ اسْتَخْدَمَ مَعهُمْ أُسلوبَ الاسْتِفهامِ ؟

٧ـ لَقَدْ سَلَكَ أَهْلُ الكِتابِ طَريقَينِ لإِغْواءِ النّاسِ ، ما هُما ؟

نَشاطٌ :

ـ كَيْفَ نُثْبِتُ أنَّ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَيْسَ يَهودِيّاً ولا نَصْرانِيّاً ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرس السادس عشر

سورةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ السادِس عَشَر

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

وجْهَ النَّهارِ : أَوّلَ النَّهارِ .

قِنطارٍ : مالٍ كثيرٍ يُساوي زِنَةَ قنطارٍ .

قائِماً : مُلازِماً لَهُ تُطالِبُهُ وتُقاضيه .

الأُمِّيين : العَرَبُ والأُمَمُ غيرُ الإسْرائيليَّةِ .

التَّفسيرُ :

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ .

لَقَدْ جاءَتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ مَكرِ أَهْلِ الكِتابِ ، وأَساليبِهِمْ في خِداعِ المُسْلِمينَ وصَدِّ النّاسِ

عَنِ الدُّخولِ في الإسْلام ، فَقَدْ أَرادَ اليَهودُ أنْ يَغُشّوا المُسْلِمينَ ، فَكانوا يَدَّعونَ الدُّخولَ في الإسْلام ، ثُمَّ يَخرجونَ مِنْهُ مُدَّعينَ أَنَّهُمْ دَخلوا في الإسْلام ، ولكنَّهُمْ ظَهرَ لَهُمْ بُطْلانُ هذا الدِّينِ فَرَجَعوا إلى دينِهِمْ . فَعَنْ قَتادةَ : قالَ بَعْضُ أَهْلِ الكِتابِ لِبَعْضٍ أَعْطوهُمُ الرِّضا بِدينِهِمْ أَوَّلَ النَّهارِ ، واكْفُروا آخِرَهُ ، فإنَّهُ أَجْدرُ أنْ يُصَدِّقوكُمْ ، ويعْلَموا أنَّكُمْ قَدْ رَأَيْتُمْ ما تَكْرَهونَهُ في دينِهِمْ ، وهُوَ أَجْدرُ أنْ يَرْجِعوا عَنْ دينِهِمْ .

وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعالى هذِهِ الآياتِ لِيُبَيِّنَ خُبْثَ نَوايا هؤلاءِ ، ولِيَفْضَحَهُمْ . يَقولُ سُبْحانَهُ بأنّ طائِفَةً مِنْ أَهْلِ الكِتابِ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعضٍ : نافِقوا وأَظْهِروا أنَّكُمْ صدَّقْتُم بالإسْلام وبالنَّبِيِّ مُحمَّدٍ ، وبما أُنْزِلَ عَلَيْهِ وعَلى أَصْحابِهِ مِنْ قُرْآنٍ في أَوَّلِ النَّهارِ ، وسُمِّيَ أَوَّلُ النَّهارِ وَجْهاً ؛ لأنّ أَوَّلَ ما يُواجِهُ الإنْسانَ نهارُ اليَوْمِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ اكفُروا آخِرَ النَّهارِ . وعودوا إلى دينِكُمْ ـ اليَهوديَّةِ ـ حتّى يَنْخَدِعَ المُسْلِمونَ بحيلَتِكُمْ ، فَيَشُكّوا في دينِهِمْ ويَعودوا إلى الكُفْرِ . وفي بَيانِ هذا الأَمْرِ إخْبارٌ للنَّبِيِّ ﷺ وأُمَّتِهِ بأَخْبارِ الغَيْبِ ، ولِكَيْ لا يَتأَثَّرَ ضِعافُ الإيمانِ بما يَكونُ مِنَ اليَهودِ عَلَيْهِمُ اللَّعنَةُ .

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

وَلَمْ يَكْتَفِ اليَهودُ بِهذا الأُسلوبِ الشَّيْطانِيِّ ، ولَكنَّهُمُ اتَّبعوا أَمْراً آخَرَ ، وهُوَ أَنَّهُمْ قالوا : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ فَهُمْ يَقولونَ عَلى سَبيلِ المَكْرِ والخَديعةِ لا تُقِرُّوا ولا تَعْتَرِفوا بأنَّ أَحَداً مِنَ المُسْلِمينَ أَوْ غَيْرِهِمْ يُمْكِنُ أَنْ يُؤْتى مِثْلَ ما أُوتيتُمْ مِنَ النُّبوَّةِ والكِتابِ ، وهكذا فَقَدْ حَصَروا الثِّقَةَ فيهِمْ هُمْ ، لِزَعْمِهِمْ أَنَّ النُّبوَّةَ لا تَكونُ إلاّ فيهِمْ ، ولَقَدْ حَقَّروا جَميعَ النّاسِ ، فَجَعَلوا كُلَّ ما يَكونُ مِنْهُمْ حَسَناً ، وَما يَكونُ مِنْ غَيْرِهِمْ قَبيحاً ، وقَدْ ردَّ سُبْحانَهُ عَلى هَؤلاءِ فَقالَ لِنَبيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : قُلْ إنَّ الهُدَى مُلْكٌ للهِ تَعالى فَهُوَ يَهْدي مَنْ يَشاءُ ويُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ، وقَدْ هَدانا اللهُ تَعالى لِهذا الدِّينِ ولَنْ نَرْجِعَ عَنْهُ ، وقُلْ لَهُمْ كَذلِكَ عَلى سَبيلِ التَّوْبيخ : أَتَفْعَلونَ ما تَفْعَلونَ مِنَ الكيدِ لِلْمُؤْمِنينَ ، ومِنْ كِتْمانِ الحَقِّ عَنْ غَيْرِ أَبْناءِ دينِكُمْ كَراهةَ أنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتيتُمْ مِنَ الكِتابِ والنُّبُوَّةِ ، أَوْ كَراهةَ أَنْ يُحاجِجَكُمُ المُسْلِمونَ عِنْدَ رَبِّكُمْ يَوْمَ القِيامةِ ، حيثُ آمنوا هُمْ بالحَقِّ ، وكَفَرتُمْ بِهِ أنتُم ، إنَّ ما حَمَلَكُمْ على مَكْرِكُمْ وخِداعِكُمْ هُوَ حَسَدُكُم لِمحمَّدٍ ﷺ ولِقَوْمِهِ .

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

وَقُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ : إنَّ الفَضْلَ ـ ويَعني بِهِ نِعَمَ اللهِ تَعالى العَظيمةَ وأَوّلُها النُّبُوَّةُ ـ بيدِ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَتَفَضَّلُ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، فَيَجْعَلُهُ نَبيّاً ، فَهُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ صاحِبُ الفَضْلِ العَظيمِ .

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ حالٍ أُخرى مِنْ أَحْوالِ أَهْلِ الكِتابِ ، وهِيَ خيانَةُ طائِفَةٍ مِنْهُمْ للأَمانةِ ، واسْتِحْلالُهُمْ أَكْلَ أَمْوالِ كُلِّ مَنْ لَيْسَ يَهودِيّاً ، قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ ﴾ لَقَدْ جاءَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ غُرورَ أَهْلِ الكِتابِ ، فَهُمْ يَزْعُمونَ أَنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ المُخْتارُ ، وأَنَّ الفَضْلَ والخَيْرَ لَهُمْ وَحْدَهُمْ وأَنَّهُمْ يَفْعَلونَ ما يَفْعَلونَ باسْمِ الكِتابِ الّذي حَرَّفوهُ ، حَيْثُ زَعَموا أَنَّ كِتابَهُمْ لَمْ يَنهَهُمْ عَنْ أَكْلِ أَمْوالِ النّاسِ الّذينَ لَيْسوا مِنْهُمْ .

إنَّ مِنْ هَؤلاءِ مَنْ إنْ أَمِنْتَهُ على الكَثيرِ مِنَ الأَمْوالِ ، يُؤَدِّها إليْكَ عِنْدَما تَطْلُبُ مِنْهُ إعادةَ أموالِكَ ، لا يُنْقِصُ مِنْها شَيْئاً ، ومِنْهُمْ فَريقٌ إنِ ائْتَمَنْتَهُ على القَليلِ مِنَ المالِ لا يُؤَدّيهِ إليْكَ ، إلاّ إذا بَقيتَ تُلِحُّ عَلَيْهِ وتُطالِبُهُ بمالِكَ الّذي مَعَهُ ، ولَجأتَ إلى المَحاكِمِ لأَخْذِ حَقِّكَ مِنْهُ .

وَذَكَرَتِ الآياتُ سَبَبَ جُحودِهِمْ حُقوقَ غَيْرِهِمْ وخِيانَتِهِمْ لَها ، قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ ذَلِكَ الامْتِناعُ عَنْ أداءِ الأَمانةِ سَبَبُهُ غُرورُهُمْ بِشَعْبِهِمْ ، فَهُمْ يَقولونَ : كُلُّ مَنْ لَيْسَ مِنْ شَعْبِ اللهِ المُخْتارِ ، ولَيْسَ مِنَ اليَهودِ فَهُوَ ساقِطٌ مِنْ نَظَرِ اللهِ ومَبْغوضٌ عِنْدَهُ ، ولا حُقوقَ ولا حُرْمَةَ لِمالِهِ ، فَيَحِلُّ أَكْلُ مالِهِ . وقَدْ ردَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بقَوْلِهِ : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فذَلِكَ كَذِبٌ على اللهِ تَعالى ، فَلَمْ يَرِدْ في التَّوْراةِ الّتي أَنْزَلَها اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ ، وهُمْ يَعْلَمونَ أنَّ ذَلِكَ الأَمْرَ لَيْسَ فيها ، ولَكِنْ في الحَقيقةِ هُمْ لا يَأْخُذونَ دينَهُمْ مِنْ كِتابِهِمْ ، ولَكِنْ مِنْ أَحْبارِهِمُ الّذينَ يَأْمُرونَهُمْ بِأَوامِرَ يَنْسِبونَها إلى اللهِ تَعالى .

لَقَدْ قالَ فيهِمْ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : ١١٦-١١٧] .

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

وَيُؤَكِّدُ سُبْحانَهُ عَلى كَذِبِ هَؤلاءِ اليَهودِ فَيقولُ : ﴿بَلَىٰ﴾ الّتي جاءَتْ لإثْباتِ ما نَفاهُ اليَهودُ في قَوْلِهِمْ فَهُوَ يَقولُ لهمُ : بلى ، عَلَيْكُم سَبيلٌ وأيُّ سَبيلٍ إذْ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الوَفاءَ بالعَهْدِ والتَّقْوى ، ومَنْ أوفَى بعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فآمَنَ بنَبيِّهِ مُحمَّدٍ ﷺ واسْتَقامَ عَلى دينِهِ ، واتَّقى ما نَهى اللهُ عَنْهُ مِنْ تَرْكِ الخِيانَةِ والغَدْرِ وَما إلى ذَلِكَ ، واللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يُحِبُّ عِبادَهُ المُتَّقينَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عَلامَةُ الحقِّ أنَّ مَنْ عَرَفَهُ لا يُمْكِنُ أنْ يَرْجِعَ عَنْهُ ويَعودَ إلى الباطِلِ .

٢ـ الفَضْلُ مِنَ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ يُؤْتي فَضْلَهُ ونِعَمَهُ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ .

٣ـ التَّحْذيرُ مِنَ ائْتِمانِ اليهودِ عَلى الأَمْوالِ ، وتَخويفُ المُسْلِمينَ مِنَ الاغْتِرارِ بِهِمْ ، لأَنَّهُمْ يَسْتَحِلّونَ أَمْوالَ المُؤْمِنينَ .

٤ـ بعضُ أَهْلِ الكِتابِ يُؤَدّونَ ما ائتُمِنوا عليهِ مِنَ الأَموالِ ، ولا يَكْتُمونَهُ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هُناكَ بَعْضُ العَلاماتِ الّتي تَدُلُّ عَلى صِدْقِ الدِّينِ ، هاتِ عَلامةً مِنْها تحدَّثَتْ عَنْها الآياتُ .

٢ـ ما الّذي فَعَلَهُ اليَهودُ لِيَحْمِلوا ضِعافَ الإيمانِ عَلى تَرْكِ دينِهِمْ ؟

٣ـ عَلامَ يَدُلُّ إخْبارُ اللهِ تَعالى لِنَبيِّهِ ﷺ عَمّا يُخْفيهِ اليَهودُ في نُفوسِهِمْ ؟

٤ـ لَقَدْ حَصَرَ اليهودُ لِغُرورِهِمُ الثِّقَةَ فيهِمْ وَحْدَهُمْ ، وضِّحْ ما كانَ مِنْهُمْ مِنْ خِلالِ الآيةِ القُرْآنيَّةِ .

٥ـ كَيْفَ رَدَّتِ الآياتُ عَلى القائِلينَ ﴿وَلاَ تُؤْمِنُوا إلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ؟

٦ـ ما مَوْقِفُ أَهْلِ الكِتابِ مِنْ أداءِ الأَمانةِ ؟

٧ـ ما السَّبَبُ الّذي يَجْعَلُ أَهْلَ الكِتابِ يُمَجِّدونَ الأَمانَةَ ؟

٨ـ عَلَّمَتْنا الآياتُ المَوْضوعيَّةَ في إصْدارِ الحُكْمِ عَلى النّاسِ ، وضِّحْ ذلِكَ .

* * *

الدرسُ السابعَ عشرَ

سورةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ السّابِعَ عشَرَ

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأَٰخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَشتَرونَ	: يَسْتَبدِلونَ ، لأَنَّ المُشْتري يَأْخُذُ شَيْئاً ويُعطي شَيْئاً .
لا خَلاقَ لَهُمْ	: لا نَصيبَ لَهُمْ مِنَ الخَيْرِ .
يُزكّيهِمْ	: يُطَهِّرُهُم مِنْ دَنَسِ الذُّنوبِ .
يَلوونَ ألسِنَتَهُمْ	: يُميلونَها عَنِ الصَّحيحِ إلى المُنْحَرِفِ ، ويُقْصَدُ بِذَلِكَ الكَذِبُ .
الكِتابِ	: ما كَتَبوهُ بأَيْديهِمْ .

التَّفسيرُ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأَٰخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

إنّ الّذينَ يُوفونَ بِعُهودِهِمْ ويَتَّقونَ اللهَ تَعالى في ما يَعْمَلونَ وكُلِّ ما يَذَرونَ ، هُمُ المتّقونَ الّذينَ يَنالونَ رِضا اللهِ وجَنّاتِهِ ، أمّا الّذينَ يَخونونَ العُهودَ ، فَقَدْ توعَّدَتْهُمُ الآياتُ هُنا بِسوءِ المَصيرِ .

سَبَبُ النّزولِ :

عَنْ عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ ؛ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ : مَنْ حَلَفَ عَلى يمينٍ لِيَقْطَعَ بها مالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللهَ وهُوَ عَلَيْهِ غضبانُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْديقَ ذلك ﴿إِنَّ الَّذينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ﴾ قالَ عبدُ اللهِ : فَدَخلَ الأَشْعَثُ بنُ قيسٍ فقالَ : ما يُحَدِّثُكم أبو عبدِ الرحمنِ ؟ قُلْنا : كَذا وكَذا ، فَقالَ : صَدَقَ ، فِيَّ نَزَلَتْ ، كانَ بَيْني وبَيْنَ رَجُلٍ خُصومَةٌ في بِئْرٍ ، فاخْتَصَمنا إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ شاهِداكَ أو يَمينُهُ ؟ قُلْتُ : إنَّهُ إذاً يَحْلِفُ ولا يُبالي ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : مَنْ حَلَفَ عَلى يَمينٍ لِيَقْطَعَ بِها مالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ وهُوَ فيها فاجرٌ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ غَضْبانُ عليهِ ، ونزلَتْ : ﴿إِنَّ الَّذينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ﴾[1] .

إنَّ عَهْدَ اللهِ تَعالى هُوَ كُلُّ ما يَجِبُ الوَفاءُ بِهِ ، فَيَدْخُلُ بِهِ كلُّ ما أوجَبَهُ اللهُ تَعالى عَلى عِبادِهِ مِنْ تَكاليفِ عَقيدَتِهِ وهِيَ الإيمانُ باللهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ والقَدَرِ خَيْرِ وشَرِّهِ ، ويَدْخُلُ فيهِ ما افْتَرَضَهُ اللهُ عَلَيْنا مِنْ عِباداتٍ ومُعامَلاتٍ وأَخْلاقيّاتٍ وغَيْرِها . وقَدْ عَهِدَ اللهُ تَعالى إلى جَميعِ البَشَرِ سَواءٌ أكانوا مُؤْمِنينَ أَمْ أَهْلَ كِتابٍ أنْ يوفوا بِعَهْدِهِ .

وَقَدْ ذَكَرَتِ الآيَةُ أَنَّ أُولئِكَ الَّذينَ يَشْتَرونَ بِعَهْدِ اللهِ تَعالى ، والأَيْمانِ الكاذِبَةِ الّتي يَحْلِفونَها ، الثَّمَنَ القَليلَ ، وهُوَ ما في الدُّنْيا مِنْ مَتاعٍ وشَهَواتٍ ، وقَدْ سُمِّيَ قَليلاً تَحقيراً لَهُ ، فَهُوَ في مُقابِلِ نَعيمِ الآخِرَةِ ورِضا اللهِ والوَفاءِ بِعَهْدِهِ قَليلٌ وحَقيرٌ .

إنَّ أولئِكَ الّذينَ يَخونونَ عَهْدَ اللهِ تَعالى ولا يوفونَ بِهِ ، ويَحْلِفونَ الأَيْمانَ الكاذِبَةَ لِينالوا عَرَضَ الدُّنيا الزائِلَ أُولئِكَ :

١ـ لا نَصيبَ لَهُمْ ولا حَظَّ لَهُمْ مِنْ نَعيمِ الآخِرَةِ بِسَبَبِ ما ارْتَكَبوهُ مِنْ خِيانَةٍ وافْتِراءٍ عَلى اللهِ تَعالى وعلى رَسولِهِ ﷺ .

٢ـ ولَيْسَ هذا فقط ، بَلْ إنّه تَعالى لَنْ يُكَلِّمَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، وهَذا بَيانٌ لِشدَّةِ سَخَطِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِمْ ، فإنَّ مَنْ لَمْ يُكلِّمْ شَخْصاً فإنَّما يَكونُ لِسَخَطِ عَلَيْهِ ، أَلا تَرى أنَّ الأَبَ إذا غَضِبَ عَلى ابْنِهِ امْتَنَعَ عَنِ الكَلامِ مَعَهُ ، وهؤُلاءِ لِشِدَّةِ سَخَطِ اللهِ عَلَيْهِمْ فَهُمْ لَيْسوا حَرِيّينَ بأنْ يُكَلِّمَهُمُ اللهُ أَبَداً .

٣ـ ومِنْ عِقابِهِمْ أَيْضاً وشِدَّةِ سَخَطِ اللهِ عَلَيْهِمْ ، أَنَّهُ سُبْحانَهُ لَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِمْ نَظَرَ عَطْفٍ ورَحْمَةٍ وإِحْسانٍ .

٤ـ وهُوَ سُبْحانَهُ لَنْ يُزَكِّيَهُمْ كَذَلِكَ ، أي : لا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ الذُّنوبِ بِمَغفِرَتِها ، ولَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِمِ سُبْحانَهُ كَما يُثْني عَلى الصّالِحينَ مِنْ عِبادِهِ ، ولَكِنَّهُ يَسْخَطُ عَلَيْهِم .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٢٣٨٠ .

٥ـ والنَّتيجةُ المُترتِّبَةُ عَلى كُلِّ ما ذُكِرَ ، أَنَّهُمْ لَهُمْ عَذابٌ أليمٌ مُوجِعٌ بِسَبَبِ ما ارْتَكَبوهُ مِنْ آثامٍ .

وَلَقَدْ توعَّدَ اللهُ تَعالى الّذينَ يَنْكُثونَ العَهْدَ ويَخونونَ الأَمانةَ ، لأنَّ مَفاسِدَ النَّكْثِ والخِيانةِ أَعْظَمُ مِنْ جَميعِ المَفاسِدِ الأُخْرى ، ولَقَدْ بَيَّنَ الرَّسولُ ﷺ آيةَ المُنافِقِ والعلاماتِ الّتي يُعْرَفُ بِها .

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُحَدِّثَنا عَنْ بَعْضِ الرَّذائِلِ الّتي كانَتْ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ، وأَنَّ مِنْهُمْ لَفريقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بالكِتابِ . يَرى جُمهورُ المُفَسِّرينَ أَنَّ هذهِ الآيَةَ تَتحدَّثُ عَنْ بَعْضِ عُلماءِ اليَهودِ الّذينَ خَلَطوا بَيْنَ ما كَتَبوهُ بِأَيْدِيهِمْ وما هُوَ في التَّوْراةِ ، وجَعَلوا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ يُوهِمونَ النّاسَ أَنَّهُ مِنَ التَّوراةِ ، وهذا يَدُلُّ عَلى فَسادِ عَقيدَتِهِمْ وعَدَمِ تَمسُّكِهِمْ بِكتابِهِمْ . والمَقْصودُ بِلَيِّ اللِّسانِ : فَتلُهُ وتَحْريفُهُ لِلْكلامِ ، وذلكَ بِصَرْفِ الكَلامِ عَنْ مَعْناهُ إلى مَعْنىً آخَرَ ، قالَ تَعالى : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ [النساء : ٤٦] .

لَقَدْ وَضَعوا (غيرَ مُسمَعٍ) في مَكانِ الدُّعاءِ (لا أُسْمِعْتَ مكروهاً) وهُوَ دُعاءٌ يُقالُ عندَ العَرَبِ عِنْدَ ذِكْرِ السَّماعِ ، وَوَضَعوا كَلِمَةَ (راعِنا) مِنَ الرُّعونةِ ، مَكانَ (راعِنا) الّتي هِيَ طَلَبٌ مِنَ اللهِ بأَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِمْ ويَرْحَمَهُمْ ، وكانوا يَنطِقونَ بِكَلِمةِ (السَّامُ عليكُمْ) بَدَلاً مِنَ (السَّلامُ عَلَيْكُمْ) .

ومِنْ تَحْريفِهِمْ تَسْمِيَتُهُمُ اللهَ تَعالى أباً ، وعيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ابناً للهِ تَعالى . لَقَدْ فَعَلوا هَذا الفِعْلَ وتَعَمَّدوا تَحريفَ الكِتابِ ، لِتَظُنُّوا أَيُّها المُسْلِمونَ أَنَّ هذا الّذي حَرَّفوهُ مِنَ الكِتابِ الّذي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلى أَنْبيائِهِ ، والحَقُّ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الكِتابِ في شَيْءٍ ، وإِنَّما هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ نَطَقوا بِهِ زوراً وبُهْتاناً إِرْضاءً لأَهْوائِهِمْ .

ثُمَّ إِنَّ هَؤلاءِ لَمْ يَكْتَفوا بالتَّحْريفِ فقط ، بَلْ إِنَّهُمْ يَقولونَ إِنَّ هذا الكَلامَ الذي حَرَّفوهُ ﴿مِنْ عِندِ اللهِ﴾ وَلكنَّهُ في الحَقيقةِ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، ولكنَّهُمْ قَوْمٌ ضالّونَ ، يُصَرِّحونَ بالكَذِبِ لِجُرْأَتِهِم عَلى اللهِ تَعالى وعَدَمِ خَوْفِهِمْ مِنه سُبْحانَهُ وتَعالى ، إنَّهم يَكذِبونَ عَلى اللهِ وهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهُمْ يَكْذِبونَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ آيةُ المُنافِقِ : إذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ ، وإذا أؤْتُمِنَ خانَ .

٢ـ إذا خانَ النّاسُ العَهْدَ اخْتَلَّ أمْرُ الدِّينِ ، وفَسَدَتْ مَصالِحُ الدُّنْيا بِسَبَبِ انْعِدامِ الثِّقَةِ بَيْنَ النّاسِ ، فالثِّقَةُ هِيَ روحُ المُعامَلاتِ ، وأَساسُ عِمْرانِ البَشَرِيَّةِ .

٣ـ القُلوبُ الفاسِدَةُ الّتي يَسْتَولي عَلَيْها الحَسَدُ والحِقْدُ ، تَرْتَكِبُ الرَّذائِلَ العَظيمةَ دونَ تَفْكيرٍ في عَواقِبِها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ سَبَبَ نُزولِ الآياتِ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ. . . . . . .﴾ .

٢ـ ما المَقْصودُ بِعَهْدِ اللهِ تَعالى ؟

٣ـ ما مَوْقِفُ اليَهودِ مِنْ عَهْدِ اللهِ تَعالى ؟

٤ـ ما نَتيجةُ أولئِكَ الّذينَ يَخونونَ عَهْدَ اللهِ ويَحْلِفونَ الأَيْمانَ الكاذِبَةَ ؟

٥ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ .

٦ـ هاتِ مِثالينِ مِنْ لَيِّ اليَهودِ لأَلْسِنَتِهِمْ .

٧ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أنَّ لليهودِ جَريمةً عَظيمةً غَيْرُ قَضيَّةِ تَحريفِ الكِتابِ ، ما هِيَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبِ الحَديثَ الشَّريفَ الّذي بَيَّنَ آيةَ المُنافِقِ .

٢ـ هاتِ آيتَيْنِ مِنْ كِتابِ اللهِ تَدُلّانِ عَلى تَحريفِ اليَهودِ لِكِتابِ اللهِ تَعالى .

* * *

الدرس الثامن عشر

سورةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الثّامِنَ عَشَرَ

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الكِتابَ : الإنْجيلَ .

الحُكْمَ : الفَهْمَ والعِلْمَ .

رَبَّانِيِّينَ : عُلَماءَ معلِّمينَ ، فُقَهاءَ في الدِّينِ .

تَدْرُسونَ : تَقْرؤُونَ الكِتابَ .

مِيثاقَ : عَقداً مؤكَّداً بيمينٍ وعَهْدٍ .

حِكْمَةٍ : عِلْمِ أسْرارِ الشَّريعةِ .

إِصْري : عَهْدي المؤكَّدَ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ بيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ حالَ اليَهودِ وكَيْفَ فَعَلوا بدينِهِمْ وكِتابِهِمْ ، وانْتَقَلَتِ الآياتُ هُنا لِتُبيِّنَ حالَ النَّصارى وما يَقولونَ في المَسيحِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

جاءَتِ الآياتُ الكَريمَةُ لِتَرُدَّ على أُولئِكَ الجاهِلِينَ الّذينَ زَعَموا أنَّ بَعْضَ النَّبيِّينَ يَصِحُّ لَهُ أنْ يَطْلُبَ مِنَ النَّاسِ أنْ يَعْبُدوهُ مِنْ دونِ اللهِ ، فَلا يَصِحُّ وَلا يَنْبَغي لِبَشَرٍ أَعْطاهُ اللهُ الكِتابَ الّذي يَنْطِقُ بالحَقِّ ، ويَأْمُرُ بِالحَقِّ ، ويَنْهَى عَنِ الشِّرْكِ ، وآتاهُ ﴿الْحُكْم﴾ أي : العِلْمَ النافِعَ والعَمَلَ بِهِ ، وآتاهُ النُّبُوَّةَ ، أي : الرِّسالَةَ الّتي يُبلِّغُها عَنهُ سُبْحانَهُ إلى النّاسِ يَدْعوهُمْ فيها إلى عِبادةِ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وَيَدْعوهُمْ إلى التَحلِّي بِمَكارِمِ الأَخْلاقِ ، إنَّ هذا لا يَصِحُّ لَهُ وَلا يَنْبَغِي بَعْدَما أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمٍ أنْ يَكْفُرَها ﴿ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي : بَعْدَ هذا العَطاءِ مِنَ اللهِ تَعالى لا يَجوزُ أنْ يَقولَ للنّاسِ كونوا عابِدينَ لي مِنْ دونِ اللهِ تَعالى . إنّ العِبادَةَ الصَّحيحةَ لا تَتَحقَّقُ إلاّ إذا أُخْلِصَتْ للهِ تَعالى وَحْدَهُ ، فَمَنْ دَعا إلى عِبادَةِ نَفْسِهِ فَقَدْ دَعا النّاسَ إلى أنْ يَكونوا عابِدينَ لَهُ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى ، وإنْ لَمْ يَنْهَهُمْ عَنْ عِبادةِ اللهِ تَعالى ، ومَنْ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ واسِطةً في العِبادةِ كالدُّعاءِ ، فَقَدْ عَبَدَ هذهِ الواسِطَةَ مِنْ دونِ اللهِ ، لأنَّ هذهِ الوساطةَ ، تُنافي الإخْلاصَ له وَحْدَهُ ، وإذا انتفى الإخْلاصُ انْتَفتِ العِبادةُ .

ثُمَّ إنَّ مَنْ يَتوجَّهُ بِعبادتِهِ إلى غَيْرِ اللهِ تَعالى ، وَيَتَّخِذُهُ وَسيلةً ويَعْتَقِدُ أنَّهُ يَضُرُّ ويَنْفَعُ فَفي تَوجُّهِهِ هَذا عِبادةٌ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ تَعالى .

ويُبيِّنُ سُبْحانَهُ ما يَصِحُّ للأنْبياءِ أنْ يَقولوا للنّاسِ : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ والرَّبانيُّ هُوَ الإنْسانُ الّذي أخْلَصَ للهِ تَعالى في عِبادَتِهِ ، وراقَبَهُ في كُلِّ أقْوالِهِ وأفْعالِهِ ، واتَّقاهُ حَقَّ التَّقوى ، وجَمَعَ بَيْنَ العِلْمِ النّافِعِ والعَمَلِ بِهِ ، وقَضَى حَياتَه في تَعْليمِ النّاسِ وإرْشادِهِمْ إلى ما يَنْفَعُهُمْ .

إنَّهُ لا يَصِحُّ لِبَشرٍ آتاهُ اللهُ تَعالى ما آتاهُ مِنَ النِّعَمِ أنْ يَقولَ للنّاسِ اعْبُدوني مِنْ دونِ اللهِ ، ولَكِنَّ الّذي يَنْبَغي عَلَيْهِ أنْ يَقولَهُ لَهُمْ : كونوا رَبَّانِيِّينَ مُقْبلينَ عَلى اللهِ تَعالى وعِبادَتِهِ وَحْدَهُ بِجدٍّ ونَشاطٍ وإخْلاصٍ مِنْ غَيْرِ واسِطَةٍ ولا وَسيلةٍ ، ويَنْبَغي أنْ يَهْدِيَهُمْ إلى الوَسيلةِ الحَقيقيَّةِ الموصلةِ إلى ذَلِكَ ، وَهِيَ تَعليمُ الكِتابِ ودِراسَتُهُ ، ومَنْ فَعَلَ هذا كانَ ربّانِياً مَرْضِياً عِنْدَ اللهِ تَعالى ، التَّقَرُّبُ إلى اللهِ تَعالى إذن لا يَكونُ إلاّ بالعِلْمِ والعَمَلِ ، والعِلْمُ الّذي لا يَبْعَثُ عَلى العَمَلِ لا يُعدُّ صَحيحاً .

إنَّ العِلْمَ والتَّعلُّمَ والدِّراسةَ تُوجِبُ أنْ يَكونَ الإنْسانُ ربّانِياً ، فَمَنِ اشْتَغَلَ بِهذا الأَمْرِ ولَيْسَ مَقْصدُهُ أنْ يَكونَ ربّانِياً ضاعَ سَعْيُهُ ، وخابَ عَمَلُهُ ، وكانَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَخصٍ يَزْرَعُ شَجرةً جَميلةً بِمَظْهرِها ، ولكنَّ ثمارَها لا نَفْعَ فيها .

﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

إنَّ هَذا هو الّذي أكْرَمَهُ اللهُ تَعالى به ، وخَصَّ الملائِكَةَ والنَّبِيِّينَ بالذِّكْرِ ، لأنَّ عِبادَتَهُمْ شاعَتْ عِنْدَ كَثيرٍ مِنَ النّاسِ ، حَيْثُ عَبدَ بَعْضُهُمْ الملائِكَةَ ، وعَبَدَ بَعْضُهُمُ الأَنْبياءَ ، فَعَبدوا المَسيحَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، والاسْتِفْهامُ في قَوْلِهِ ﴿أَيَأْمُرُكُم﴾ للإنْكارِ الّذي يُفيدُ النَّفْيَ ، فَهؤلاءِ الرُّسُلُ لا يُمْكِنُ أنْ يَأْمُروا النّاسَ بالكُفْرِ باللهِ بَعْدَ أنْ هَداهُمُ اللهُ عَنْ طريقِ هَؤلاءِ الرُّسُلِ إلى الإسْلامِ .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

لَقَدْ أخَذَ اللهُ تَعالى الميثاقَ مِنَ النَّبِيِّينَ أنْ يُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، وأخَذَ العَهْدَ عَلى كُلِّ نَبيٍّ أنْ يُؤْمِنَ بِمَنْ جاءَ بَعْدَهُ مِنَ الأَنْبياءِ ، ويَنْصُرَهُ إنْ أدْرَكَهُ ، أمّا إنْ لَمْ يُدْرِكْهُ فَعَلَيْهِ أنْ يَأْمُرَ قَوْمَهُ بنَصْرِ النَّبيِّ الّذي يَأْتي بَعْدَهُ ، وهكَذا فَقَدْ أخَذَ الميثاقَ عَلى عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنْ يُؤْمِنَ بِمُحمَّدٍ ﷺ ، فإذا كانَ الميثاقُ قدَ أُخِذَ عَلى الأَنْبياءِ ، فإنَّهُ مِنْ بابٍ أوْلَى يَكونُ قَدْ أُخِذَ عَلى أتْباعِ الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

وَقَوْلَهُ تَعالى : ﴿ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ اللّامُ فيهِ المُوطِّئَةُ لِلْقَسَمِ ، لأنَّ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ بِمَعْنى القَسَمِ ، فَقَدْ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الميثاقَ سُبْحانَهُ وتَعالى بأنَّهُ بما آتاهُمْ مِنْ كِتابٍ وحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَهُمْ رَسولٌ مُصَدِّقٌ لِما وَرَدَ في كِتابِهِمُ الّذي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، لَيُؤمِنُنَّ بهذا الرَّسولِ ولا يَكْفُرونَ بِهِ ، ولَيْسَ هَذا فقط ، بَلْ يَنْصُرونَهُ كَذلِكَ ، و﴿ما﴾ اسمُ شَرْطٍ ، وفِعْلُ الشَّرْطِ جُمْلَةُ : ﴿أتَيْتُكُم﴾ وجُمْلَةُ : ﴿ثُمَّ جاءَكُمْ﴾ .

ويُروى أنَّ المَقْصودَ بالرَّسولِ هُنا النَّبيُّ مُحمَّدٌ ﷺ ، فَقَدْ أخَذَ اللهُ ميثاقَ النَّبِيِّينَ جَميعاً أنْ يُؤمِنوا بِمحمَّدٍ وَيَنْصُروهُ إنْ أدْرَكوهُ ، وأَمَرَهُمْ أنْ يَأْخُذوا ذَلِكَ الميثاقَ عَلى أُمَمِهِمْ .

وَبَعْدَ أنْ أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِمُ الميثاقَ ، قالَ لَهُمْ : ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ أيْ : أأَقْرَرْتُمْ بهذا الّذي أَمَرْتُكُمْ بِهِ وقَبِلْتُمْ عَهْدي ؟ والاسْتِفْهامُ للتَّقريرِ ، وقَدْ أجابوهُ بقَوْلِهِم ﴿أَقْرَرْنَا﴾ يا ربَّنا ، وقَبِلْنا عَهْدَكَ ، فردَّ عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿فاشْهَدُوا﴾ أي : فَلْيَشْهَدْ بَعضُكُمْ عَلى بَعْضٍ ، وأنا مَعَكُمْ شاهِدٌ عَلَيْكُمْ جمعياً لا يَغيبُ عَنْ عِلْمي شيءٌ ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ فإنَّ مِنْ مُقْتَضى ذَلِكَ الميثاقِ أنَّ دينَ اللهِ واحِدٌ ، ولِذا يَنْبَغي عَلى الدُّعاةِ في كُلِّ زَمانٍ أنْ يَكونوا مُتَّفِقينَ ، فَمَنْ تولّى بَعْدَ ذَلِكَ ، ولَمْ يُؤْمِنْ بالنَّبيِّ الّذي بُعِث لَهُ ، ولَمْ يَنْصُرْهُ ، مِثْلما فَعَلَ أولئِكَ الّذين جَحَدوا نُبوَّةَ مُحمَّدٍ ﷺ ، وآذَوْهُ هُوَ وأَصْحابَهُ ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ الخارِجونَ مِنْ ميثاقِ اللهِ تَعالى ومِنْ دينِ اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ العِبادةُ الصَّحيحةُ لا تتحقَّقُ إلاّ إذا أَخْلَصَ العَبْدُ للهِ تَعالى .

٢ـ لا يَجوزُ لأَحَدٍ أنْ يَدَّعِيَ الأُلوهيَّةَ لِنَفْسِهِ أوْ لِغَيْرِ اللهِ تَعالى ، أوْ أنْ يَعْتَقِدَ أنَّ أَحَداً قَدْ يَنْفعُهُ أوْ يَدْفَعُ عَنْهُ الضُّرَّ غَيْرُ اللهِ تَعالى .

٣ـ التَّقرُّبُ إلى اللهِ تَعالى لا يَكونُ إلا بالعِلْمِ والعَمَلِ .

٤ـ الواجِبُ عَلى الأُمَمِ الّتي أُعْطِيَتِ الكِتابَ ، إذا جاءَهُمْ رَسولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُم ، أنْ يُؤْمِنوا بِهذا الرَّسولِ وَيَنْصُروهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الّذي يَزْعُمُهُ اليَهودُ الجاهِلونَ تُجاهَ بَعْضِ الأَنْبياءِ ؟

٢ـ دافعتِ الآياتُ بِكُلِّ قُوَّةٍ عَنْ أَنبياءِ اللهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، هاتِ ما جاءَ في الآياتِ .

٣ـ مَتى تَكونُ العِبادةُ خالِصةً للهِ ؟ وَمَتى تَكونُ لِغيرِ اللهِ تَعالى ؟

٤ـ ما الّذي يَنْبَغي عَلى الأنْبياءِ قَوْلُهُ للنّاسِ ؟

٥ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أنَّ التَّقرُّبَ إلى اللهِ لا يَكونُ إلاّ بِأَمْرَيْنِ ، ما هُما ؟

٦ـ لِماذا خُصَّ الأَنْبياءُ والمَلائكةُ بالذِّكرِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ ﴾ ؟

٧ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ .

٨ـ مَنِ المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ ؟

٩ـ ما مَعْنى الاسْتِفهامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ ﴾ ؟

١٠ـ ما واجِبُ الدُّعاةِ إلى اللهِ تَعالى تُجاهَ النَّبيِّ ﷺ ؟

نَشاطٌ :

١ـ هاتِ آيَتَيْنِ مِنْ كِتابِ اللهِ تَأْمُرانِ بِإخْلاصِ العِبادَةِ للهِ تَعالى واكْتُبْهُما في دَفْتَرِكَ .

٢ـ أيْنَ جوابُ الشَّرْطِ في الآيةِ (٨٢) ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

الدَّرسُ التَّاسِعَ عَشَرَ

سورةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ التَّاسِعَ عَشَرَ

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَبغُونَ : يَطْلُبونَ .

طَوْعاً : اخْتِياراً .

كَرْهاً : قَسْراً وإِجْباراً .

الأَسْباطِ : أولادِ سَيِّدِنا يَعْقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

التَّفسيرُ :

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ .

إنَّ الدِّينَ واحِدٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى ، وقَدْ جاءَ الأَنْبياءُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ جميعاً للدَّعْوَةِ إلى هَذا الدِّينِ ونُصْرَتِهِ ، ولِذا لابُدَّ مِنْ نُصْرَةِ النَّبيِّ مُحمَّدٍ ﷺ بَعْدَ الدُّخولِ في دينِهِ ، إلاّ أنَّ كَثيرينَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وغَيْرِهِمْ أَنْكَروا نُبُوَّتَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فقالَ فيهِمْ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ الاسْتِفْهامُ للاسْتِنْكارِ والتَّوْبيخِ ، والمَعْنى : أَيَقولونَ عَنِ الإيمانِ بَعْدَ هَذا البيانِ ، فَيَبغونَ

ديناً غَيْرَ دينِ اللهِ تَعالى الّذي هُوَ الإسْلامُ ، أي : يَطْلُبونَ لَهُمْ ديناً غَيْرَ دينِ اللهِ تَعالى .

ثُمَّ قالَ : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي : أيَطْلُبونَ ديناً غَيْرَ دينِ اللهِ تَعالى والحالةُ أنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى قَدْ خَضَعَ لأَمْرِهِ جَميعُ مَنْ في السَّماواتِ والأَرْضِ مِنَ العُقَلاءِ طائِعينَ وكارِهينَ ، أي : إمّا عَنْ طَواعيةٍ واخْتيارٍ وهمُ المُؤْمِنونَ ، لأنَّهُم راضونَ في جَميعِ الأَحْوالِ بِقَضاءِ اللهِ تَعالى وقَدَرِهِ ، مُسْتَجيبونَ للهِ تَعالى في المَنْشَطِ والمَكْرَهِ والعُسْرِ واليُسْرِ . وإمّا عَنْ قَهْرٍ وتَسْخيرٍ ، فالكافِرونَ يَقَعونَ تَحْتَ سُلطانِ اللهِ تَعالى ، فَهُمْ مَعَ اخْتيارِهِمُ الكُفْرَ ، لا يَسْتَطيعونَ دَفْعَ قَضاءِ اللهِ تَعالى فَهُمْ طائِعونَ للهِ تَعالى في إيجادِهِم وفَنائِهِمْ .

إنَّ الدِّينَ الحَقَّ هُوَ إسْلامُ الوَجْهِ للهِ تَعالى ، والإخْلاصُ في الخُضوعِ لَهُ سُبْحانَهُ ، وإنَّ الأَنْبياءَ كُلَّهُمْ كانوا عَلى ذَلِكَ ، وقَدْ أَخَذَ اللهُ الميثاقَ عَلَيْهِمْ وعلى أُمَمِهِمْ ولَكنَّهُمْ نَقَضُوهُ ، فَجاءَهُمُ النَّبيُّ المَوْعودُ بِهِ يَدْعُوهُمْ إليْهِ فَكذَّبوهُ ، فَهُمْ بِذلِكَ قَدِ ابْتَغَوْا غَيْرَ دينِ اللهِ تَعالى ﴿ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾ إلَيْهِ وَحْدَهُ سُبْحانَهُ يَرْجِعُ الخلقُ فَيُجازي كُلَّ مَخلوقٍ بِما يَسْتَحِقُّهِ مِنْ خَيْرٍ أوْ شَرٍّ .

﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤ ﴾ .

إنَّ أَهْلَ الكِتابِ قَدْ تولَّوْا عَنِ الإسْلامِ ، ولِذا فَعلى المُؤْمِنينَ أنْ يُقِرُّوا بالإيمانِ بالنَّبيِّ ﷺ ، ولِذا خاطَبَ سُبْحانَهُ وتَعالى نَبيَّهُ ﷺ قائِلاً لَهُ : ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ أي : قُلْ لأَهْلِ الكِتابِ الّذينَ جادَلوكَ وجَحَدوا الحَقَّ ، قُلْ لَهُمْ آمَنْتُ أنا ومَنْ مَعِيَ بِوُجودِ اللهِ تَعالى وَوَحْدانيَّتِهِ وكَمالِهِ ، واسْتَجَبْنا للهِ تَعالى في كُلِّ ما أمَرَنا بِهِ أوْ نَهانا عَنْهُ ، وآمنّا كَذَلِكَ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا ، وَهُوَ كِتابُ اللهِ تَعالى : القُرْآنُ الكَريمُ ، الّذي يَهْدي إلى الحَقِّ ، ويُخْرِجُ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ . والإيمانُ بالقُرْآنِ الكَريمِ إيمانٌ تَفْصيليٌّ .

وآمنّا بِما أَنْزَلَ اللهُ تَعالى عَلى أَنْبيائِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ : إبْراهيمَ وإسْماعيلَ وإسْحقَ ويَعقوبَ والأَسْباطِ . والإيمانُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ يَكونُ إجْماليّاً ، أيْ : صَدَّقْنا بِما أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِم مِنْ وَحْيٍ هِدايةٍ لأَقوامِهِمْ ، وأنَّهُ مُوافِقٌ لِما أُنْزِلَ عَلَيْنا في أَصْلِه .

وقُلْ لَهُمْ يا مُحمَّدُ كَذَلِكَ : إنَّنا قَدْ آمنّا بِما أُوتِيَ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ التَّوْراةِ ، ومَا أُوتِيَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ الإنْجيلِ والمُعْجِزاتِ ، وبِما آتاهُ اللهُ تَعالى لِسائِرِ أَنْبيائِهِ مِنْ وَحْيٍ وآياتٍ تَدُلُّ عَلى صِدْقِهِمْ ، ومِنْ هَؤلاءِ سَيِّدُنا داودُ وسُلَيْمانُ وأيوبُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ومَنْ قَصَّ اللهُ عَلَيْنا قَصَصَهُمْ ، ومَنْ لَمْ يَقْصُصْ عَلَيْنا قَصَصَهُمْ .

وقَدْ قَدَّمَ سُبْحانَهُ وتَعالى ما أُنْزَلَ عَلَيْنا عَلى ما أُنزِلَ عَلى مَنْ قَبْلَنا ، مَعَ أنَّ ما أُنزلَ عَلى مَنْ قَبْلَنا

يَتقدَّمُ عَلى ما أُنزلَ عَلَيْنا بالزَّمانِ ، لأنَّ ما أُنزلَ عَلى سَيِّدنا مُحمّدٍ ﷺ هُوَ الأَصْلُ لِمَعْرِفةِ ما أُنْزِلَ عَلى السّابِقينَ ، فَلولاَ القُرْآنُ ما عَرَفْنا أَخْبارَ المُتَقدِّمينَ .

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ جَماعةِ الرُّسلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ فَنُؤْمِنُ بِهِمْ جَميعاً ، ولَيْسَ كَما يَفْعَلُ أَهْلُ الكِتابِ ، حَيْثُ يُؤْمِنونَ بِبَعْضِ الكِتابِ ويَكْفُرونَ بِبَعْضٍ ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ مُنْقادونَ لأَمْرِ اللهِ تَعالى بالرِّضى والإخْلاصِ ، لا نَتَّخِذُ الدِّينَ مِنْ أَجْلِ تَحقيقِ أَهْوائِنا وشَهَواتِنا ، وإِنَّما نَبْتَغي بِهِ التَّقَرُّبَ إلى اللهِ تَعالى . وفي قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ حَصْرٌ ، أَيْ : أننا أَسْلَمْنا لَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى وَحْدَهُ ، وأَخْلَصْنا عِبادَتَنا لَهُ ، وَهَذا يَدُلُّ عَلى مَرْتَبَةِ الإخْلاصِ والطّاعَةِ الّتي يَنْبَغي أنْ يَصِلَ إليْها المُسْلِمُ .

وبَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَطْلُبُ ديناً سِوى دينِ الإسْلامِ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ أَبَداً .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

إنَّ الدِّينَ إذا لَمْ يَكُنْ هُوَ الإسْلامُ فَلَنْ يَكونَ سِوى رُسوم وتَقاليدَ يَتَّخِذُها أَصْحابُها وَسيلةً لِمَنافِعِهِمُ الدُّنْيويَّةِ ، وهَذا لا شَكَّ يَزيدُ القُلوبَ فَساداً ، ولا يَزيدُ النّاسَ في الدُّنْيا إلا عُدْواناً وفي الآخِرَةِ إلاّ خُسْراناً ، ولِذَلِكَ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ فهو يَكونُ يَوْمَ القِيامةِ خاسِراً للنَّعيمِ المُقيمِ ولِجوارِ اللهِ تَعالى ، لأَنَّهُمْ خَسِروا في الدُّنْيا أَنْفُسَهُمْ ، فَلَمْ يُطَهِّروها بالإسْلامِ ، ولَمْ يُخْلِصوا للهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الدِّينُ الحَقُّ هُوَ الإسْلامُ للهِ تَعالى ، وقَدْ أَخَذَ الأَنْبياءُ ميثاقَهُمْ عَلى أُمَمِهِمْ بالإيمانِ بِمُحمَّدٍ ﷺ .

٢ـ التَّحذيرُ مِنَ الإعْراضِ عَنِ الدِّينِ ، فما دامَ مَرْجِعُ الخَلْقِ جَميعاً إلى اللهِ فَعلى العاقِلِ أنْ يُسْلِمَ نَفْسَهُ إلى خالِقِهِ اخْتِياراً .

٣ـ مَنْ دانَ بِغَيْرِ دينِ اللهِ تَعالى فَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ جاءَتِ الآياتُ لِتُبيِّنَ قَضيةً أساسيَّةً ، ما هِيَ ؟

٢ـ ما مَعْنى الاسْتِفهامِ في قَوْلِهِ تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾ ؟

٣ـ وضِّحِ المَقْصودَ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ .

٤ـ بِماذا أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ أنْ يُواجِهَ أَهْلَ الكِتابِ الّذينَ يُجادِلونَهُ بالباطِلِ ؟

٥ـ ما المَطْلوبُ مِنّا نَحْنُ المُسْلِمينَ تُجاهَ الأَنْبياءِ السَّابِقينَ ، وتُجاهَ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ ؟

٦ـ ما الدِّينُ الّذي يُقْبَلُ مِنَ الإنْسانِ ؟ وما مَصيرُ مَنِ اتَّخَذَ دينَهُ هَواهُ ؟

نَشاطٌ :

ـ فرِّقْ بَيْنَ الإيمانِ بالشَّيْءِ تَفْصيلاً ، والإيمانِ بِهِ إجْمالاً ، اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ العِشرونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ العِشْرونَ

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

البيِّناتُ : البَراهينُ والدَّلائِلُ .

لَعْنَةُ اللهِ : اللَّعْنُ ؛ الطَّرْدُ والإبْعادُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ .

يُنْظَرونَ : يُمْهَلونَ .

افْتَدى : قَدَّمَ الفِدْيَةَ ؛ وهِيَ ما يُقدِّمُهُ الإنْسانُ مِنْ مالٍ مُقابِلَ تَخْليصِ نَفْسِهِ مِنَ العَذابِ أوِ الأَسْرِ .

التَّفسيرُ :

إنَّ أَهْلَ الكِتابِ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى ، رأَوْا نَعْتَ مُحمَّدٍ ﷺ في كِتابِهِمْ ، وأَقَرُّوا أنَّهُ حَقٌّ ، فَلمّا بُعِثَ مِنْ غَيْرِهِم حَسَدوا العَرَبَ عَلى ذَلِكَ ، فَأَنْكَروا نُبُوَّتَهُ وَكَفروا بَعْدَ إقْرارِهِمْ ، حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ .

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

قالَ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ سُنَّةُ اللهِ تَعالى في هِدايةِ البَشَرِ لِلْحَقِّ ، أنْ يُقيمَ الدَّلائِلَ والبيِّناتِ لَهُمْ ، ويُعْطِيَهُمْ ما يَهديهِمْ إلى تِلْكَ الدَّلائِلِ ، فَقَدْ أَعْطاهُمُ العَقْلَ الّذي يُفَكِّرونَ بواسِطَتِهِ ، وَيَتَوصَّلونَ إلى الحَقِّ ، إلاّ أنَّ أَهْلَ الكِتابِ مَعَ كُلِّ الدَّلائِلِ والمُعْجِزاتِ الّتي أُعْطِيَتْ لَهُمْ ، صَدُّوا عَنْ طَريقِ الحَقِّ ، ولِذا جاءَتِ الآياتُ هُنا تَسْتَبْعِدُ هِدايَتَهُمْ ، وتُيَئِّسُ النَّبيَّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أنْ يَهْتَدِيَ هَؤلاءِ القَوْمُ وهُمْ مُنْغَمِسونَ في الضَّلالِ مَعَ عِلْمِهِمْ بالحَقِّ ، فَقَدْ آمَنوا مِنْ قَبْلُ ، وجاءَتْهُمُ البَراهينُ ، والحُجَجُ الّتي يُفَرِّقونَ بها بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ ، ولَكِنَّهُمْ كَفَروا بَعْدَ ذَلِكَ ، ولَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ ما آتاهُمُ اللهُ وذَلِكَ لِغَلَبَةِ العِنادِ والاسْتِكْبارِ عَلى نُفوسِهِمْ ، والحَسَدِ والبَغْيِ عَلى قُلوبِهِمْ ، فَكانوا بِذَلِكَ ظالِمينَ لأَنْفُسِهِمْ ، لأَنَّهُمُ اسْتَحَبّوا العَمَى عَلى الهُدَى ، وهُوَ سُبْحانَهُ لا يَهْدي الظّالِمينَ الّذينَ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ بإبْعادِها عَنِ الحَقِّ وإيقاعِها في العَذابِ ، وظَلَموا الحَقَّ بِطَمْسِهِ واسْتِبدالِ الباطِلِ بِهِ ، وظَلَموا أَنْفُسَهُمْ ، فَكَفَروا باللهِ تَعالى ، فَلَمْ يَرْعَوْهُ حَقَّ رِعايَتِهِ .

ولَكِنْ كَيْفَ شَهِدوا بأنَّ الرَّسولَ حَقٌّ ؟ إنَّهُمْ كانوا يَعْرِفونَ بِشاراتِ الأَنْبياءِ بمُحَمَّدٍ ﷺ ، وكانوا يَنْتَظِرونَ قُدومَهُ حَتّى يُؤْمِنوا بِهِ ويَنْصُروهُ ، ولَكِنَّهُ عِنْدَما جاءَ ﷺ كَفَروا بِهِ وعانَدوهُ بَعْدَ أنْ جاءَهُمْ بالبيِّناتِ .

﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

وَبَيَّنَتِ الآياتُ جَزاءَ أُولئِكَ الظّالِمينَ أنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ ، ولَعْنَةُ اللهِ : سَخَطُهُ عَلَيْهِمْ ، وهِيَ في الدُّنْيا عَدَمُ رَحْمَتِهِمْ وتَوْفيقِهِمْ ، وفي الآخِرَةِ عُقوبةٌ عَظيمةٌ أعَدَّها اللهُ تَعالى لَهُمْ ، وعَلَيْهِمْ كَذَلِكَ سَخَطُ الملائِكَةِ والنّاسِ أَجْمعينَ وغَضَبُهُمْ ، ودُعاؤُهُمْ عَلَيْهِمْ باللَّعْنَةِ والطَّرْدِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ .

إنَّ هَؤلاءِ مَلْعونونَ مِنَ اللهِ تَعالى خالِقِهِمْ ، ومِنْ مَلائِكَةِ اللهِ الّذينَ لا يَعْصونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ ، ويَفْعَلونَ ما يُؤْمَرونَ ، ومِنَ النّاسِ جَميعاً ، فالإنْسانُ صاحِبُ الفِطْرَةِ السَّليمَةِ في الدُّنْيا لا يَمْلِكُ إلاّ أنْ يَلْعَنَ اليَهودَ دائِماً لِما يَبْدو مِنْهُمْ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ ، وفي الآخِرَةِ يَلْعَنُ الكافِرونَ بَعْضَهُمْ بَعْضاً .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

إنَّ عذابَ هَؤلاءِ شَديدٌ ، فَهُمْ خالِدونَ في جَهنَّمَ لا يُخفَّفُ عَنْهُمُ العَذابُ فيها ، بِسَبَبِ إصْرارِهِمْ عَلى الكُفْرِ ، وانْغِماسِهِمْ فيما يُغْضِبُ اللهَ تَعالى ، وهُمْ لَنْ يُمْهَلوا بَعْدَ ذَلِكَ ، ولَنْ يُؤَخَّرَ عَنْهُمُ العَذابُ ، فإنَّ عَذابَهُمْ عاجِلٌ لا يَقْبَلُ التَّأْخيرَ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

ولكنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعالى واسِعَةٌ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ قَدْ فَتَحَ بابَ التَّوْبَةِ لِكُلِّ إنْسانٍ وحَضَّ عَلى التَّوْبَةِ حتّى لا يَقْنَطَ النّاسُ مِنْ رَحْمَةِ الله تَعالى ، ولِذا قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ إنَّ هَؤُلاءِ اليَهودَ ومَنْ كانَ عَلى شاكِلَتِهِمْ مَلعونونَ دائِماً ، إلاّ الّذينَ تابوا مِنْهُمْ ورَجَعوا عَنْ كُفْرِهِمْ وظُلْمِهِمْ نادِمينَ عَلى ما اقْتَرَفوهُ ، وأَصْلَحوا ما أفْسَدوهُ ، وحَرِصوا عَلى العَمَلِ الصّالِحِ ، لأنَّ العَمَلَ الصّالِحَ هُوَ الّذي يَزيدُ الإيمانَ ، ويَمْحو كُلَّ سَيِّئَةٍ كانتْ عِنْدَ الإنْسانِ .

إنَّ مَنْ تَوَجَّهَ إلى اللهِ تَعالى بالتَّوْبَةِ عمّا اقْتَرَفَتْهُ يَداهُ ، ونَدِمَ عَلى فِعْلِ المَعاصي ، وأَصَرَّ عَلى تَرْكِ المُنْكَراتِ وعلى عَدَمِ العَوْدَةِ إلَيْها ، وعَمِلَ صالِحاً ، فإنَّ اللهَ تَعالى غفورٌ للذُّنوبِ ، حَيْثُ يَمْحوها عَنِ الإنْسان التّائِبِ فَهُوَ بِهِ رحيمٌ ، وهَذِهِ نَتيجةُ الإنْسانِ التّائِبِ عَنْ ذَنْبِهِ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

أمّا الّذينَ لا يَتوبونَ ولا يَسْتَغفِرونَ لِذُنوبِهِمْ والّذينَ يَظَلُّونَ مُنْغَمِسينَ في كُفْرِهِمْ وضَلالِهِمْ فَقَدْ قالَ عَنْهُمْ سُبْحانَهُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ إنَّ هَؤلاءِ الّذينَ كَفَروا بَعْدَ أنْ آمَنوا ، ثُمَّ ازْدادوا كُفْراً وعِناداً وجُحوداً ، وذَلِكَ بِمُقاوَمَةِ الحَقِّ الّذي دُعوا إليهِ ، وإيذاءِ الرَّسولِ ، والصَّدِّ عَنْ سَبيلِ اللهِ بالكَيْدِ والتَّشكيكِ في دينِ اللهِ ، وبِمُحارَبَةِ الحَقِّ وأَصْحابِهِ ، فهؤلاءِ لَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ تَوْبَةٌ ، فإنَّهم وإنْ تَرَكوا بَعْضَ الذُّنوبِ والشُّرور فَلَنْ يُقبَلَ مِنْهُمْ ما لَمْ يُصلِحوا نُفوسَهُمْ ، ويُخْلِصوا للهِ تَعالى ، فَهُمْ يَزْعُمونَ التَّوْبَةَ بِأَلْسِنَتِهِمْ فَقَط ، أمّا قُلوبُهُمْ فَهِيَ مَليئَةٌ بالكُفْرِ ، فهؤلاءِ هُمُ الضّالُّونَ الغارِقونَ في الضَّلالِ ، البَعيدونَ عَنْ طَريقِ الحَقِّ ، المُسْتَحِقّونَ لِسَخَطِ اللهِ تَعالى وعَذابِهِ .

لَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ قِسْمَيْنِ مِنَ الكافِرينَ ؛ قِسمٍ تابَ وقُبِلَتْ تَوْبَتُهُ ، وقِسْمٍ تابَ ولَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ ، وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبيِّنَ قِسْماً ثالِثاً ، وهُمُ الّذينَ يَظَلُّونَ عَلى كُفْرِهِمْ حتّى يَأْتِيَهُمُ المَوْتُ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ ﴾ فظَلُّوا عَلى كُفْرِهِمْ وأَعْمالِهِمُ الباطِلَةِ حتّى أدْرَكَهُمُ المَوْتُ ﴿ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا ﴾ لَنْ يُقبَلَ مِنْهُمْ ما كانوا قَدْ أَنْفَقوهُ في الدُّنيا ، لأنَّ الكُفْرَ يُحْبِطُ العَمَلَ ، قال تَعالى : ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

ولَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ فِدْيَةٌ مِنْ عِقابِ اللهِ تعالى لَهُ بِسَبَبِ مَوْتِهِ عَلى الكُفْرِ ، ولَوِ افْتَدَى نَفْسَهُ بِمِلْءِ

الأَرْضِ ذَهَباً ، لأنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الذَّهَبِ والمالِ أوّلاً ، ولأنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْ إيمانِ النّاسِ وأَعْمالِهِمْ ثانياً ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لَمْ يَجْعَلْ نَجاةَ الإنْسانِ مِنْ عَذابِ الآخِرَةِ بِمالٍ يَبْذُلُهُ ، أوْ إنْسانٍ عَظيمٍ يَشْفَعُ لَهُ ، ولكنْ جَعَلَ نَجاتَهُ بِأَمْرٍ داخِلِيٍّ في نَفْسِ الإنْسانِ ، فَمَنْ زَكّى نَفْسَهُ بالعَمَلِ الصّالحِ فَقَدْ أَفْلَحَ ، ومَنْ دسّاها بالكُفْرِ والعَمَلِ السَّيِّءِ ، فَقَدْ خابَ وخَسِرَ .

إنَّ أُولئِكَ الكافِرينَ لَهُمْ وَحْدَهُمْ عَذابٌ مُؤلِمٌ موجِعٌ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ، وَما لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ ناصِرينَ يَنْصُرونَهم بِدَفْعِ العَذابِ عَنْهُمْ ، وإيصالِ الخَيْرِ لَهُمْ .

عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : (يُقالُ للرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النّارِ يَوْمَ القِيامةِ : أَرَأَيْتَ لَوْ كانَ لَكَ ما عَلى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِياً بِهِ ؟ قالَ : فَيَقولُ : نَعَمْ ، فَيَقولُ اللهُ لَهُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنَ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ في ظَهْرِ أَبيكَ آدَمَ أنْ لا تُشْرِكَ بِي شَيْئاً فَأَبَيْتَ إلاّ أنْ تُشْرِكَ)[1] .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أَهْلُ الكِتابِ يَعْرِفونَ صِدْقَ الرَّسولِ ، لَكِنَّهُمْ لِعنادِهِمْ وحَسَدِهِمْ كَفَروا بِهِ .

٢ـ بابُ التَّوْبَةِ مَفْتوحٌ أَمامَ النّاسِ جَميعاً ، وخَيْرُ الخطّائينَ التَّوابونَ .

٣ـ الظُّلْمُ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ ، وهُوَ إذا سَيْطرَ عَلى النُّفوسِ البَشَرِيَّةِ أَفْقَدَها رُشْدَها .

٤ـ العاقِلُ هُوَ الّذي يُزكّي نَفْسَهُ ويُطَهِّرُها بالإيمانِ والعَمَلِ الصّالحِ ، والضّالُّ مَنْ دسَّى نَفْسَهُ بالكُفْرِ والعَمَلِ السَّيِّءِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بالاسْتِفهامِ في قَوْلِه تَعالى : ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُواْ﴾ ؟

٢ـ هَلْ كانَ أَهْلُ الكِتابِ مُؤْمِنينَ ؟ وَضِّحْ ذَلِكَ .

٣ـ كَيْفَ شَهِدَ أَهْلُ الكِتابِ بِأَنَّ الرَّسولَ حَقٌّ ؟ ولِمَ كَفروا بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ؟

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح ، حديث رقم ٢٨٠٥، باب: طلب الكافر الغداء .

٤ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أصْنافاً ثَلاثةً للكافِرينَ ، مَنْ هُمْ ؟

٥ـ مَتى تُقْبَلُ تَوْبَةُ التَّائِبِ ؟ وَمَتى لا تُقْبَلُ ؟ أيِّدْ إجابَتَكَ بِدَليلٍ مِنَ الآياتِ .

٦ـ مَا المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ ؟ وَمَتى يَكونُ ذَلِكَ ؟

٧ـ لِماذا لا يَقْبَلُ اللهِ تَعالى ما يُمْكِنُ أن يُقَدِّمَهُ الكافِرونَ لِفداءِ أنْفُسِهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ فَرِّقْ بَيْنَ اللَّعْنةِ والغَضَبِ مِنَ اللهِ تَعالى ، واكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ شُروطَ التَّوْبَةِ الصَّحيحةِ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ قِصةً مِمّا قَصَّ الرَّسولُ ﷺ عَلَيْنا ، تَدُلُّ عَلى قَبولِ اللهِ تَعالى للتّوبةِ مِنَ الذَّنْبِ ، ولَوْ كانَ الذَّنْبُ عَظيماً .

* * *

الدَّرسُ الحادي والعشرونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ الحادي والعِشْرونَ

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۚ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

البِرَّ : الإحْسانَ وكَمالَ الخَيْرِ .

حِلاً : حَلالاً مُباحاً .

افْتَرى : اخْتَلَقَ الكَذِبَ .

حَنيفاً : مائِلاً عَنِ الباطِلِ إلى الدِّينِ الحَقِّ .

التَّفسيرُ :

إنَّ أَهْلَ الكِتابِ ـ كَما عَرَفْنا ـ يَدَّعونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنونَ ، وأَنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ المُخْتارُ ، ولِذا جاءَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الميزانَ الصَّحيحَ الّذي يُبَيِّنُ المُؤْمِنَ بالحَقِّ ، والكافِرَ البَعيدَ عَنْهُ ، وهذا الميزانُ هُوَ الإنْفاقُ في سَبيلِ اللهِ .

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

يَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾ أي : لَنْ تَنالوا إحْسانَ اللهِ تَعالى وثَوابَهُ الجَزيلَ ، وجَنَّتَهُ الّتي أَعَدَّها للمُتَّقينَ ، إلاّ إذا بَذَلْتُمْ مِمّا تُحبّونَهُ وتُؤْثِرونَهُ مِنَ الأَمْوالِ ، ومِنْ رَحْمَةِ اللهِ عَلَيْنا أنِ اكْتَفى مِنّا لِنَيْلِ البِرِّ أنْ نُنْفِقَ ممّا نُحِبُّ ؛ أي : جُزْءاً مِنْهُ لأنَّ (مِنْ) للتَّبعيضِ ، ولَمْ يَشْتَرِطْ عَلَيْنا سُبْحانَهُ أنْ نُنْفِقَ جَميعَ ما نُحِبُّ .

وَما تُنْفِقوا مِنْ شَيْءٍ أَيُّها النَّاسُ سَواءٌ أكانَ قَليلاً أَمْ كَثيراً ، فإنَّهُ سُبْحانَهُ ، لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وهُوَ يَعْلَمُ إنْ كانَ ما أنْفَقْتُموهُ مَحْبوباً لَدَيْكُمْ أوْ أنَّكُمْ قدْ زَهِدْتُمْ بِهِ ، ويَعْلَمُ إنْ كُنْتُمْ مُخْلِصينَ في الإنْفاقِ أمْ أنَّكُمْ مراؤونَ تَطْلبونَ الشُّهْرَةَ والجاهَ ، وهو سُبْحانَهُ يُجازيكُمْ عَلى نَفَقَتِكُمْ بِحَسَبِ ما يَعْلَمُ مِنْ نِيّاتِكُمْ .

عَنْ أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ : كانَ أبو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصارِ بالمدينةِ مالاً مِنْ نَخْلٍ ، وكانَ أَحَبُّ مالِهِ إليهِ بيرُحاءَ ـ مَوْضِعٌ في المدينةِ ـ وكانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدَ ، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُها ويَشْرَبُ مِن ماءٍ طيِّبٍ فيها ، قالَ أنسُ : فَلَمّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾ قامَ أبوُ طَلْحَةَ إلى رسولِ اللهِ فَقالَ : يَا رسولَ اللهِ ، إنَّ اللهَ تَعالى يَقولُ في كِتابِهِ : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾ وإنَّ أحَبَّ أمْوالي إليَّ بيرُحاءَ ، وإنَّها صَدَقَةٌ للهِ تَعالى ، أَرْجو بِرَّها وذُخْرَها عِنْدَ اللهِ ، فَضَعْها يا رَسولَ اللهِ حَيْثُ أراكَ اللهُ . قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : بخٍ بخٍ ـ كَلِمَةُ اسْتِحْسانٍ ومَدْحٍ ـ ذَلِكَ مالٌ رابِحٌ ، ذَلِكَ مالٌ رابِحٌ ، وقَدْ سَمِعْتُ ما قلتَ : وإنّي أرى أَنْ تَجْعَلَها في الأَقْرَبينَ ، قالَ أبوُ طَلْحَةَ : أفْعَلُ يا رَسولَ اللهِ ، فَقَسمَها أبوُ طَلْحَةَ في أقاربِهِ وبَني عَمِّهِ[1] .

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

إنَّ عِنادَ أَهْلِ الكِتابِ واسْتِكْبارَهُمُ عَنِ الحَقِّ ، جَعَلَهُمْ يُجادِلونَ الرَّسولَ في قَضايا كَثيرةٍ ، ومِنْ هذا جِدالُهُمْ فيما أَحَلَّهُ اللهُ تَعالى وحَرَّمَهُ مِنَ الأَطْعِمَةِ ، وجِدالُهُم في تَحويلِ القِبْلَةِ :

١ ـ أمّا القَضيَّةُ الأُولى فَيَقولُ سُبْحانَهُ فِيها : ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ ﴾ .

لَقَدْ جادَلوا الرَّسولَ ﷺ فيما هُوَ مُباحٌ أَكْلُهُ لَهُ ولأُمَّتِهِ ، مُدَّعينَ أنَّ هَذا كانَ مُحَرَّماً على الأَنْبياءِ مِنْ قَبْلُ ، فَكَيْفَ تَأْكُلُهُ ، فَقالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى : إنَّ كُلَّ أنْواعِ الأَطْعِمَةِ كانَتْ حَلالاً لِبَني إسْرائيلَ قَبْلَ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة ، باب : الزكاة على الأقارب ، حديث رقم ١٣٩٢ .

نُزولِ التَّوْراةِ ، إلاّ نَوْعاً واحِداً مِنَ الأَطْعِمَةِ حَرَّموهُ هُمْ عَلى أنْفُسِهِمْ ، وذَلِكَ لأنَّ أبَاهُمْ يَعقوبَ عَلَيْهِ السَّلامُ حَرَّمَهُ عَلى نَفْسِهِ ، فَحَرَّموهُ على أنْفُسِهِمُ اقْتِداءً بِه ، ولمّا أَنْزَلَ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمُ التَّوراةَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أنْواعاً كَثيرةً بِسَبَبِ الذُّنوبِ الّتي اقْتَرَفوها تَأْديباً لَهُمْ .

إنّ هَذا هُوَ الحَقُّ الّذي لا شَكَّ فيه ، فإذا جادَلوكَ يا مُحَمَّدُ فَقُلْ مُتَحدِّياً لَهُمْ : أحْضِروا التَّوراةَ واقْرأوا حتّى يَتبيَّنَ الصّادِقُ مِنَ الكاذِبِ ، إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ في زَعْمِكُمْ أنَّ ما حَرَّمَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ كانَ مُحرَّماً عَلى الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ .

ثُمَّ تَوَعَّدَ اللهُ أَهْلَ الكِتابِ عَلى كُفْرِهِمْ وكَذِبِهِمْ ، فَقالَ لَهُمْ : ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ أي : مَنْ تَعمَّدَ الكَذِبَ عَلى اللهِ تَعالى ، وَزَعَمَ أنَّهُ سُبْحانَهُ قَدْ حَرَّمَ عَلى اليهودِ ما لَمْ يُحرِّمْهُ عَلَيْهِمْ ، فَأولئِكَ هُمْ وَحْدَهُمُ الظّالِمونَ ، حَيْثُ تَطاوَلوا عَلى اللهِ تَعالى فافْتَرَوْا عَلَيْهِ ما لَمْ يُنزِّلْ بِهِ سُلْطاناً ، وافْتَرَوا عَلى الحَقِّ فَطَمسوهُ بالباطِلِ .

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ .

إنَّ ما أَنْزَلَ اللهُ تعالى هُوَ الحَقُّ والصِّدْقُ ، وأَنْتمْ أيها اليَهودُ كاذِبونَ في دَعْواكُمْ ، وإذا كُنْتُمْ تُريدونَ أنْ تَصِلوا إلى الحَقِّ ، وأنْ تتَّبعوا الطَّريقَ الّذي كانَ عَلَيْهِ إبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فهذا لا يَكونُ إلاّ باتِّباعِكُمْ لِما جاءَ بِهِ مُحمَّدٌ ﷺ ، فإبْراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، لَمْ يَكُنْ يَهودياً ولا نَصْرانياً ، وإنَّما كانَ حَنيفاً مُسْلِماً .

٢ـ أمّا القَضيَّةُ الثّانيةُ الّتي جادَلوا فيها الرَّسولَ ﷺ ، فَهِيَ جَعْلُ الكَعْبَةِ قِبْلَةً لِلْمُسْلِمينَ ، بَعْدَ أنْ كانوا يَتوجَّهونَ في صَلاتِهِمْ إلى بَيْتِ المَقْدِسِ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : قُلْ لِهؤلاءِ المُجادِلينَ إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَهُ اللهُ تَعالى للنّاسِ لِيَكونَ مَكاناً لِلْعِبادَةِ هُوَ البَيْتَ الحَرامُ في مَكَةَ المُكرَّمةِ ، حَيْثُ بَناهُ إبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وهذا البَيْتُ لَهُ فَضائِلُ كَثيرةٌ ، مِنها أنَّهُ :

١ـ مُبارَكٌ : والبَرَكَةُ تعْني : النُّموَّ والزِّيادَةَ والبَقاءَ والدَّوامَ ، فَقَدْ بارَكَ اللهُ في هذا المكانِ ، فَجَعَلَ فيهِ ثَمَراتٍ وزُروعاً مَعَ أنَّهُ كانَ بِوادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ .

٢ـ هُدَىً للعالَمينَ : وذَلِكَ لأنَّ القُلوبَ تَهوي إلَيْهِ ، فَيأتي النّاسُ مُشاةً ورُكْباناً مِنْ كُلِّ مكانٍ لأداءِ مَناسِكِ الحَجِّ والعُمْرَةِ .

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

٣ـ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ ﴾ ، أي : فيهِ دَلائِلُ واضِحاتٌ عَلى أنَّ دينَ اللهِ واحِدٌ ، أَحَدُها مَقامُ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وهُوَ الحَجَرُ الّذي كان يقومُ عليهِ عِنْدما ارتَفَعَ ، ثُمَّ أُمِرْنا باتّخاذِهِ مصلّىً .

٤ـ ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ ﴾ أي : مِنْ آياتِهِ البَيِّنَةِ الواضِحَةِ أنَّ مَنْ دَخَلَ الحرمَ كانَ آمِناً عَلى نَفْسِهِ ومالِهِ ، فَقَدِ اتَّفَقَ العَرَبُ عَلى احْتِرام البَيْتِ الحَرام وتَعْظيمِهِ ، فَمَنْ دَخَلَهُ أَمِنَ عَلى نَفْسِهِ مِنَ الاعْتِداءِ والإيذاءِ ، وجاءَ الإسْلامُ فَحرَّمَها كَذلِكَ . خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ ، ومِمّا قالَهُ : إنَّ مَكَّةَ حَرَّمَها اللهُ ، ولَمْ يُحَرِّمْها النّاسُ ، فَلا يَحِلُّ لامْرِيٍ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ أنْ يَسْفِكَ بِها دَماً أوْ يَعْضُدَ بها شَجَرَةً ، فإنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتالِ رَسولِ اللهِ ﷺ فيها ـ إني آخِذُ فيهِ بالرُّخصةِ ـ فَقولوا لَهُ إنَّ اللهَ أَذِنَ لِنبيِّهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لكُمْ ، وإنّما أَذِنَ لِي فيها ساعَةً مِنْ نَهارٍ ، وقَدْ عادَتْ حُرْمَتُها اليَوْمَ كَحُرْمَتِها بالأَمْسِ ، فَلْيُبَلِّغِ الشّاهِدُ الغائِبَ[1] .

لَقَدْ عَظَّمَ اللهُ تَعالى هَذا البَيْتَ ، ولِذا فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ تَعالى عَلى المُسْتَطيعِ مِنَ البَشَرِ حَجَّ البَيْتِ تَعظيماً لَهُ .

إنّ مَنْ كَفَرَ وَجَحَدَ أنَّ هَذا البَيْتَ هُوَ أوّلُ بَيْتٍ وَضَعَهُ اللهُ لِلْعِبادةِ في الأَرْضِ ، وأدّى كُفْرُهُ إلى تَرْكِ الحَجِّ ، فإنَّ اللهَ تَعالى غَنِيٌّ عَنْهُ وعَنْ حَجِّهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لَيْسَ مُحْتاجاً لأَحَدٍ ولِعبادةِ أَحَدٍ ، فَما يَقومُ بِهِ الإنْسانُ مِنْ عَمَلٍ ومِنْ طاعَةٍ ، يَنْفَعُ بِهِ نَفْسَهُ هوَ لا أَحَداً غَيْرَهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ التَّرْغيبُ في الإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ ممّا يُحبُّهُ الإنْسانُ .

٢ـ الحَثُّ عَلى إخْفاءِ الصَّدَقةِ ، كَيْ لا يَكونَ للشَّيْطانِ مَنْفَذٌ إلى قُلوبِ الأَبْرارِ المُخْلِصينَ .

٣ـ تَكذيبُ اليَهودِ في دَعْواهُمْ أنَّ ما حُرِّمَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وبَغْيِهِمْ ، وإنّما كانَ مُحرَّماً عَلى غَيْرِهِمْ مِمَّنْ سَبَقَهُمْ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب : فليبلغ الشاهد الغائب ، حديث رقم ١٠٤ .

٤ـ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ لِعبادةِ اللهِ تَعالى هُوَ البَيْتُ الحَرامُ ، الّذي هُوَ في مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بالبِرِّ ؟ ومَتَى يَنالُهُ الإنْسانُ ؟

٢ـ هاتِ مِثالاً عَلى تَحرِّي الصَّحابَةِ النَّفقةَ مِنَ المالِ الّذي يُحبُّونَهُ .

٣ـ ناقَشَتِ الآياتُ أَهْلَ الكِتابِ في قَضِيَّةِ تَحريمِ بَعْضِ الأَطْعِمَةِ ، اكْتُبِ الآيَةَ المُتحدِّثَةَ عَنْ ذلِكَ .

٤ـ لِمَ حَرَّمَ اللهُ عَلى اليَهودِ بَعْضَ الأَطْعِمَةِ ؟ وهَلْ كانَتْ مُحَرَّمَةً عَلى غَيْرِهِمْ ؟ وضِّحْ ذَلِكَ .

٥ـ بِمَ تَوَعَّدَ اللهُ أَهْلَ الكِتابِ الّذينَ جادَلوا في قَضِيَّةِ التَّحريمِ ؟

٦ـ ذَكَرَتِ الآيةُ بَعْضَ الفَضائِلِ لِلْبَيْتِ الحرامِ ، اذْكُرْها بالتَّرتيبِ كَما وَرَدَتْ في الآيَةِ .

٧ـ كَيْفَ عَظَّمَ اللهُ تَعالى البَيْتَ الحَرامَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ آياتِ سورةِ الإنْسانِ (الدَّهرِ) الّتي تُشيرُ إلى المَعْنى الواردِ في الآيةِ (٩٢) .

٢ـ أينَ يَقَعُ مَقامُ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ اكْتُبِ في دَفْتَرِكَ مَتَى يَكونُ المُسْلِمُ مُسْتَطيعاً للحَجِّ .

٤ـ ما الّذي حَرَّمَهُ يَعقوبُ عَلى نَفْسِهِ ؟ وما الّذي حَرَّمَهُ اللهُ عَلى بَني إسْرائيلَ ؟ ارْجِعْ إلى كُتُبِ التَّفْسيرِ المُتاحَةِ واسْتَخْرِجْ مِنْها هذيْنِ الأَمْرَيْنِ .

* * *

الدَّرسُ الثّاني والعِشرون

سورَةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ الثّاني والعِشْرونَ

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

شَهيدٌ : عالِمٌ بالشَّيءِ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ .

تَصدُّونَ : تَصْرِفونَ غَيْرَكُمْ .

سَبيلِ : طَريقِ .

عِوَجاً : ومَيْلاً عَنِ الاسْتواءِ ، وهُوَ هُنا : الزَّيْغُ التَّحْريفُ .

يَعْتَصِمْ : يَتَمَسَّكْ .

التَّفسيرُ :

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ .

لَقَدْ جُبِلَ أَهْلُ الكِتابِ عَلى الكَيْدِ لِدينِ اللهِ تَعالى ، فَهُمْ يُحاوِلونَ دائِماً إثارةَ الفِتَنِ بَيْنَ المُسْلِمينَ ، لِيَصدُّوهُمْ عَنْ دينهِمْ ، ولِذا تَأْتي الآياتُ القُرْآنيَّةُ لِتُحذِّرَ المُؤْمِنينَ مِنْ شُرورِهِم وتوبِّخَ أَهْلَ الكِتابِ عَلى مَكْرِهِمْ وتَتوعَّدهُمْ بالمَصيرِ السَّيِّىء .

سَبَبُ نُزُولِ الآياتِ :

أخْرَجَ ابنُ جَريرِ الطَّبَريُّ ، أنَّ شاسَ بنَ قَيْسٍ مَرَّ عَلى نَفَرٍ مِنَ الصَّحابَةِ مِنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ في مَجْلِسٍ ، فَغاظَهُ ما رَأى مِنْ جَماعَتِهِمْ وأُلْفَتِهِمْ ، فَأَمَرَ شاباً مِنَ اليَهودِ كانَ مَعَهُ ، فَقالَ لَهُ : اعْمَدْ إلَيْهِمْ فاجْلِسْ مَعَهُمْ وذَكِّرْهُمْ يَوْمَ بُعاثٍ[1] ، وما كانَ قَبْلَهُ ، وأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ ما قالوهُ مِنْ أَشْعارٍ ، وعِنْدَ ذَلِكَ تَنازَعَ الأَوْسُ والخَزْرَجُ وتَفاخَروا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ ، حتّى أصابَ كُلَّ فَريقٍ الغَضَبُ ، فَتَواعَدوا القِتالَ مَرَّةً أُخْرى وهُمْ في الإسْلامِ ، وسَمِعَ رَسولُ اللهِ ﷺ بذَلِكَ فَخَرَجَ إلَيْهِمْ فيمَنْ مَعَهُ مِنَ المُهاجِرينَ حتّى جاءَهُمْ فَقالَ : يا مَعْشَرَ المُسْلِمينَ ، اللهَ اللهَ ، أبِدَعْوى الجاهِلِيَّةِ وأَنا بَيْنَ أظْهُرِكُمْ بَعْدَ أنْ هَداكُمُ اللهُ إلى الإسْلامِ وأكْرَمَكُمْ بِهِ وقَطَعَ بِهِ عَنْكُم أمْرَ الجاهِلِيَّةِ ، واسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الكُفْرِ ، وأَلَّفَ بِهِ بَيْنَكُم . فَأَلْقَوْا السِّلاحَ مِنْ أيديهِمْ ، وبَكَوْا وعانَقَ الرِّجالُ مِنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، ثُمَّ انْصَرَفوا مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، سامِعينَ مُطيعينَ ، قَدْ أطْفَأَ اللهُ عَنْهُمْ كَيْدَ عَدُوِّ اللهِ شاسَ بنِ قَيْسٍ ، وأَنْزَلَ اللهُ هذِهِ الآياتِ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى: قُلْ يا مُحمَّدُ ﷺ مُخاطِباً أهْلَ الكِتابِ ومُنادِياً عَلَيْهِمْ : لأيِّ سَبَبٍ تَكْفُرونَ بِتِلْكَ الآياتِ الدّالَّةِ عَلى صِدْقي ، سَواءٌ أكانَتْ آياتٍ نَزَلَتْ في كِتابِ اللهِ ، أمْ تِلْكَ الآياتِ المَبْثوثَةِ في الكَوْنِ ، لِمَ تَكْفُرونَ بِها والحالُ أنَّ اللهَ تَعالى مُطَّلِعٌ عَلَيْكُمْ وعالِمٌ بِأَعْمالِكُمْ ظاهِرِها وباطِنِها ، وسَيُجازيكُمْ عَلَيْها بِما تَسْتَحِقّونَ مِنْ عِقابٍ ، والاسْتِفْهامُ في (لِمَ) لِلتَّوْبيخِ . وقَدْ ناداهُمُ اللهُ تَعالى ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ زِيادَةً في تَوْبيخِهِمْ ، فإنَّ كَوْنَهُمْ أصْحابَ كِتابٍ يَنْبَغي أنْ يَحْمِلَهُمْ عَلى مَعْرِفَةِ الحَقِّ ، وتَصْديقِهِ ، ولَكِنَّهُم كَفَروا بِهِ وصَدّوا عَنْهُ .

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

وَقُلْ لَهُمْ يا مُحمَّدُ ﷺ مُوَبِّخاً كَذلِكَ : لِماذا تَصْرِفونَ أُولئِكَ الّذينَ آمَنوا بي واتَّبَعوني عَنْ هذا الحَقِّ وتَمْنَعونَهُمْ مِنَ الاسْتِمْرارِ عَلى هذا الدّينِ ، وذَلِكَ بِإثارَتِكُمْ لِلْفِتَنِ وإلْقاءِ الشُّبُهاتِ الباطِلَةِ في قُلوبِ الضُّعَفاءِ مِنَ المُسْلِمينَ بَغْياً وكَيْداً لِلنَّبِيِّ ﷺ ، تَبْغونَ لأَهْلِ دينِ اللهِ ولِمَنْ هُوَ عَلى سَبيلِ الحَقِّ عِوَجاً وضَلالاً ، فَأَنْتُمْ تَلْبِسونَ عَلى النّاسِ حَتّى تُوهِموهُمْ أنَّ في دينِهِمْ عِوَجاً ، لِمَ تَفْعَلونَ كُلَّ هَذا ؟ والحالُ أنَّكُمْ تَعْلَمونَ أنَّ الإسْلامَ هُوَ الدّينُ الحَقُّ ، فَكُفْرُكُمْ لَيْسَ عَنْ جَهْلٍ بَلْ عَنْ مَكْرٍ وخِداعٍ .

إنَّ اللهَ تَعالى لَيْسَ غافِلاً عَنْ أعْمالِكُمْ ، وصَدِّكُمْ عَنْ دينِ اللهِ تَعالى ، وَسَيُجازيكُمْ عَلَيْها بِما تَسْتَحِقّونَ ، وفي هذا تَهْديدٌ وَوَعيدٌ لَهُمْ عَلى ضَلالِهِمْ وإضْلالِهِمْ غَيْرَهُمْ .

---

(١) يوم بعاث : يوم اقتتلت في الأوس والخزرج وكان النصر فيه للأوس .

وبَعْدَ أنْ هدَّدتِ الآياتُ أهْلَ الكِتابِ ، حَذَّرَتِ المُؤْمِنينَ مِنْ خَطَرِ إغْواءِ أَهْلِ الكِتابِ وإضْلالِهِم ، فَقالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ .

ناداهُمْ بِهذا النِّداءِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ واصِفاً لَهُمْ بِتِلْكَ الصِّفةِ المُحبَّبَةِ : الإيمانَ ، مُثيراً لَهُمْ وحاثّاً عَلى الاسْتِجابَةِ لِما تأمُرُهُمْ بِهِ الآياتُ ، قائِلاً لَهُمْ بأنَّكُمْ أيُّها المُؤْمِنونَ إذا أصْغَيْتُم لِما يُلْقيه إلَيْكُمْ هَؤلاءِ اليَهودُ مُثيرينَ بَيْنَكُمُ الفِتْنَةَ ، واسْتَجَبْتُمْ لِما يَدْعونَكُمْ إلَيْهِ ، رَدّوكُمْ إلى الكُفْرِ بَعْدَ الإيمانِ كَما قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

إنَّ الكُفْرَ يُؤَدِّي إلى الهَلاكِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، أمّا في الدُّنيا فَيَكونُ بِوُقوعِ العَداوةِ والبَغْضاءِ ، وكَثْرَةِ الفِتَنِ الّتي تُؤدِّي إلى سَفْكِ الدِّماءِ ، وأمّا في الآخِرَةِ فَيَكونُ بإيقاعِ النَّفْسِ في عَذابِ اللهِ وعِقابِهِ .

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

ولَكِنْ كَيْفَ يُتصوَّرُ مِنْكُمُ الكُفْرُ أَيُّها المُؤْمِنونَ ، والحالُ أنَّ القُرْآنَ الكَريمَ تُتْلى آياتُهُ عَلى مَسامِعِكُمْ عَلى لِسانِ رَسولِكُمْ ﷺ صَباحَ مَساءَ ، وهُوَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بَيْنَ أظْهُرِكُمْ يُنَبِّهُكُمْ على الصَّوابِ إنْ أَخْطأْتُمْ ، ويَعِظُكُمْ ، ويُبيِّنُ لَكُم ما أُنْزِلَ إلَيْكُمْ ، ولَكُمْ في سُنَّتِهِ خَيْرَ أُسْوَةٍ تَزيدُ إيمانَكُمْ وتُنيرُ قُلوبَكُمْ ، ومَنْ كانَ هذا مَثَلُهُ فلا يَنْبَغي أنْ يَلْتَفِتَ إلى ما يُثيرُهُ أَهْلُ الكِتابِ مِنْ فِتَنٍ ، بَلِ الواجِبُ عَلَيْهِ أنْ يَرْجِعَ إلى الرَّسولِ ﷺ عِنْدَ كُلِّ شُبْهَةٍ يُثيرُها أَهْلُ الكِتابِ ، لِيَتَبَيَّنَ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ اليَهودُ يُحاوِلونَ دائِماً الكَيْدَ لِهذا الدِّينِ بإيقاعِ الفِتَنِ وإثارةِ الشُّبُهاتِ .

٢ـ اللهُ تَعالى بِالمِرْصادِ لِكُلِّ مُعْتَدٍ صادٍّ عَنْ دينِ اللهِ تَعالى .

٣ـ مَنْ تَمسَّكَ بِكِتابِ اللهِ تَعالى وسُنَّةِ نَبيِّهِ ﷺ فَقَدِ اهْتَدى إلى الصِّراطِ المُسْتَقيمِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ اذْكُرْ سَبَبَ نُزولِ هذهِ الآياتِ.

٢ـ ما مَعْنى الاسْتِفهامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ ؟ ولِمَ ناداهُم هَذا النِّداءَ : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ؟

٣ـ ما المَقْصودُ بآياتِ اللهِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ ؟

٤ـ لِماذا يُحاولُ اليَهودُ دائِماً إثارَةَ الفِتَنِ بيْنَ المُسْلِمينَ ؟

٥ـ مِمَّ حَذَّرتِ الآياتُ المُؤْمِنينَ ؟

٦ـ اسْتَبْعَدَتِ الآياتُ أنْ يَكْفُرَ الّذينَ آمنُوا بَعْدَ أنْ هَداهُمُ اللهُ ، وضِّحْ ذَلِكَ .

٧ـ ما الطَّريقُ للوُصولِ إلى الحَقِّ ؟

نَشاطٌ :

١ـ هاتِ ما تَسْتَفيدُه مِنْ عِبَرٍ مِنْ حادِثَةِ تحريضِ اليهودِ بَيْنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ . واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ما الواجِبُ عَلَيْنا نَحْنُ المُسْلِمينَ اليَوْمَ تِجاهَ تِلْكَ الشُّبُهاتِ الّتي يُثيرُها أَعْداءُ الإسْلامِ ؟ وما المَرْجِعُ لَنا في ذَلِكَ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الثَّالِثُ والعِشرونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ الثَّالِثُ والعِشْرونَ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- تُقاتِهِ : تَقْواهُ .
- حَبْلِ اللهِ : كِتابِ اللهِ .
- شَفَا حُفْرَةٍ : طَرَفِها .
- أُمَّةٌ : جَماعةٌ مُؤَلَّفَةٌ .
- الخَيْرِ : ما فيهِ صَلاحُ النّاسِ في الدِّينِ والدُّنيا .
- المَعْروفِ : ما اسْتَحْسَنَهُ الشَّرْعُ والعَقْلُ .

التَّفسيرُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

إنَّ الطَّريقَ الموصِلَةَ إلى دينِ اللهِ تَعالى ورِضاهُ هُوَ الاسْتِمْساكُ بِكِتابِ اللهِ تَعالى ، وسُنَّةِ

رَسولِهِ ﷺ ، والاسْتِمْساكُ بِكِتابِ اللهِ إنَّما يَكونُ بِطاعةِ اللهِ تَعالى ، وامْتِثالِ أَوامِرِهِ وتَرْكِ نَواهيهِ ، وهَذِهِ هِيَ تَقوى اللهِ تَعالى ، وفي هذِهِ الآياتِ مَجْموعةٌ مِنَ التَّوجيهاتِ الإلهيَّةِ للمُؤْمِنينَ :

١ـ تَقوى اللهِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ يُناديهِمْ سُبْحانَهُ بِهذِهِ الصِّفَةِ الكَريمةِ حاثّاً لَهُمْ عَلى امْتِثالِ أوامِرِهِ تَعالى ، فَيَقولُ لَهُمْ : عَلَيْكُمْ أيُّها المُؤْمِنونَ أنْ تَتَّقوا اللهَ تَعالى ، وذَلِكَ بِمُراقَبَتِهِ تَعالى وخَشْيَتِهِ ، وأنْ تَلْتَزِموا بِما أَمَرَكُمْ بِهِ سُبْحانَهُ ، وتَجتَنِبوا ما نَهاكُمْ عَنْهُ ، عَنِ ابنِ مَسْعودٍ أنَّهُ قالَ : تَقوى اللهِ أنْ يُطاعَ فَلا يُعْصَى ، ويُشْكَرَ فَلا يُكْفَرَ ، ويُذْكَرَ فَلا يُنْسى .

وَعَلَيْكُمْ أنْ تَسْتَمِرُّوا عَلى دينِكُمْ ، وتُداوِموا عَلَيْهِ إلى أنْ يُدْرِكَكُمُ المَوْتُ ، فَتَموتوا عَلى هذهِ المِلَّةِ السَّمْحاءِ وهِيَ مِلَّةُ الإسْلام حتّى تَفوزوا بِرضا اللهِ تَعالى وحُسْنِ ثَوابِهِ . إنَّ أَهْلَ الكِتابِ يَحْرِصونَ عَلى أنْ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمانِكُمْ كافِرينَ ، ولَكِنْ عَلَيْكُم أنْ لا تَسْمَحوا لَهُمْ ، وتَسْتَمِرُّوا عَلى دينِكُمْ وتَموتوا مُسْلِمينَ لِتَنالوا رِضا اللهِ تَعالى .

٢ـ الاعْتِصامُ بِدينِ اللهِ : وبَعْدَ أنْ أَمَرَتِ الآياتُ بِخَشْيَةِ اللهِ تَعالى أَمَرَتِ المُسْلِمينَ بالاعْتِصام بِدينِ اللهِ تَعالى ، فَقالَ تَعالى لَهُمْ : تَمسَّكوا أيّها المُؤْمِنونَ بِكِتاب اللهِ تعالى وبِدينِهِ وعَهْدِهِ الّذي أَخَذَهُ عَلَيْكُمْ ، ولا تَفرَّقوا كَما كانَ حالُكُمْ في الجاهِلِيَّةِ ، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ ، بَلِ اجْتَمِعوا عَلى طاعَةِ اللهِ وطاعةِ رَسولِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

لَقَدْ شَبَّهَ سُبْحانَهُ وتَعالى العَهْدَ الّذي أَخَذَهُ عَلَيْنا بالحَبْلِ ، فَكِلاهُما فيهِ النَّجاةُ ، فالعَهْدُ يُنَجِّي صاحِبَهُ مِنْ نارِ جَهنَّمَ ، والحَبْلُ يُنَجّي مَنْ تَمسَّكَ بِهِ مِنَ الغَرَقِ والهَلاكِ ، وحَذْفُ المُشَبَّهِ هُنا ، وذِكْرُ المُشَبَّهِ بِهِ عَلى سَبيلِ الاسْتِعارةِ التَّصريحيَّةِ .

لَقَدْ جعلَ اللهُ الدِّينَ كَأَنَّهُ حَبْلٌ مَتينٌ يَأْخُذُ بِهِ الإنْسانُ حتَّى يَأْمَنَ مِنَ السُّقوطِ في الهاوِيَةِ ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : (القُرْآنُ حَبْلُ اللهِ المَتينُ ، لا تَنْقضي عَجائِبُهُ ، ولا يَخْلَقُ عَلى كَثْرَةِ الرَّدِّ مَنْ قالَ بِهِ صَدَقَ ، ومَنْ عَمِلَ بِهِ رَشَدَ ، ومَنِ اعْتَصَمَ بِهِ هُدِيَ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ)[١] .

٣ـ النَّهْيُ عَنِ التَّفرُّقِ : لَقَدْ أَمَرَ اللهُ المُؤْمِنينَ بالتَّمَسُّكِ بِدينِهِ ، وأَنْ يَكونوا كالجَسَدِ الواحِدِ إذا اشْتَكى مِنْهُ عُضْوٌ تَداعى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بالحُمَّى والسَهَرِ ، وأنْ لا يَتفرَّقوا ؛ لأنَّ التَّفَرُّقَ يُؤَدِّي إلى الضَّعْفِ والفَشَلِ .

٤ـ ذِكْرُ نِعْمَةِ اللهِ : عَلَيْكُمْ أيها المُؤْمِنونَ أنْ تَذْكُروا نِعَمَ اللهِ تَعالى الكَثيرةَ عَلَيْكُمْ ، ومِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ النِّعَمِ أنَّهُ سُبْحانَهُ أَلَّفَ بَيْنَكُمْ وجَمَعَ بَيْنَكُمْ ، وجَعَلَكُمْ إخْواناً ، بَعْدَ أنْ كُنْتُم أَعْداءً في الجاهِلِيَّةِ تَتقاتَلونَ وتَتنازَعونَ فيما بَيْنَكُمْ ، يَأْكُلُ قَوِيُّكُمْ ضَعيفَكُمْ ، لَقَدْ جاءَ الإسْلامُ لِيُؤَلِّفَ بَيْنَكُمْ بِأُخوَّةِ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن .

الدِّينِ ، فَأَصْبَحْتُم مُتَحابِّينَ مُتَناصِحينَ مُتوادِّينَ بَعْدَ أنْ كُنْتُم بِوَثَنِيَّتِكُمْ وشِرْكِكُمْ وضَلالِكُم واخْتِلافِكُمْ عَلى وَشْكِ الوُقوعِ في نارِ جَهنَّمَ ، لَوْلا رَحْمَةُ اللهِ بِكُمْ حَيْثُ أَنْقَذَكُمْ مِنَ التَّرَدِّي في نارِ جَهنَّمَ ؛ وذلِكَ بِهِدايَتِكُمْ إلى الحقِّ عَنْ طَريقِ الرَّسولِ ﷺ الّذي جاءَكُمْ بِهذا الدِّينِ .

لَقَدْ صَوَّرَ سُبْحانَهُ حالَ المُؤْمِنينَ وَقْتَ أنْ كانوا كافِرينَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بحالِ مَنْ يَكونُ عَلى طَرَفِ حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ يوشِكُ أنْ يَقَعَ فيها ، وصَوَّرَ هِدايَتَهُ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ بِحالَةِ مَنْ يُبْعِدُ غَيْرَهُ عَنْ تِلْكَ الحُفْرَةِ ، ويُنْقِذُهُ مِنَ الوُقوعِ فيها .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي : كَما بيَّنَ لَكُمْ سُبْحانَهُ ما يُثيرُهُ اليَهودُ مِنْ فِتَنٍ ، وبَيَّنَ لَكُمْ سُبْحانَهُ ما أمَرَكُمْ بِهِ ، وما نَهاكُمْ عَنْهُ ، وبَيَّنَ لَكُمُ الحالَ الّتي كُنتُمْ عَلَيْها ، والحالَ الّتي صِرْتُمْ إلَيْها ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ سُبْحانَهُ سائِرَ حُجَجِهِ وبَراهينِهِ عَلى لِسانِ نَبيِّهِ ﷺ حتّى تَكونوا مُهْتَدينَ .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

٥ـ الدَّعْوةُ إلى اللهِ : إنَّ المُؤْمِنَ الصّادِقَ لا يَكْتَفي بأنْ يَكونَ مُهْتَدِياً إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ وأنْ يَكونَ مُؤْمِناً لِنَفْسِهِ فَقَط ، ولَكِنْ عَلَيْهِ لِكَمالِ إيمانِهِ ، أنْ يَدعُوَ النّاسَ إلى دينِ اللهِ تَعالى .

٦ـ بَعْدَ أنْ أَمَرَ المُؤْمِنينَ بِتَقواهُ وطاعَتِهِ ، يَأْمُرُهُمْ بالدَّعْوةِ إلى اللهِ تَعالى قائِلاً لَهُمْ : كونوا أُمَّةً مُتَميِّزَةً ، تَقومُ بالدَّعْوَةِ إلى الخَيْرِ ، وتَأْمُرُ بالمَعروفِ ، وتَنْهى عَنِ المُنْكَرِ ، وكُلُّ مُؤْمِنٍ مُخاطَبٌ بِهذِهِ الآيَةِ بالأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنْ المُنْكَرِ ، ويَدْخُلُ فيها دُخولاً أَوليّاً العُلَماءُ بالقُرْآنِ والسُّنَّةِ وسيرةِ النَّبيِّ ﷺ والخُلَفاءُ الرَّاشِدونَ ، ثُمَّ كُلُّ إنْسانٍ مَأْمورٌ بالدَّعْوةِ إلى الخَيْرِ حَسَبَ الأُمورِ الّتي يَعْلَمُها ، لا يُكلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها .

إنَّ الأُمَّةَ الّتي تَأْمُرُ بالمَعْروفِ وتَنْهى عَنِ المُنْكَرِ هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وأَفْضَلُها ، وهذا ما ضَمِنَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لها : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

إنّها أُمَّةٌ تَسودُ غَيْرَها مَنَ الأُمَمِ باجْتِماعِ كَلِمَتِها ، واتِّفاقِ أَهْوائِها ، إذْ لا مَطْمَعَ لَها إلاّ رِفْعَةُ هذا الدِّينِ وعِزَّةُ أَبْنائِهِ .

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

٧ـ عَدَمُ التَّشبُّهِ بالكافِرينَ : إنَّ الأُمَّةَ الدّاعِيَةَ ، الآمِرَةَ بالمَعْروفِ والنّاهيةَ عَنِ المُنْكَرِ ، لا يُمْكِنُ أنْ تَكونَ أُمَّةً مُتَفرِّقَةً ، ولِذا يَنْهى سُبْحانَهُ المُؤْمِنينَ عَنْ أنْ يَكونوا مِثْلَ أَهْلِ الكِتابِ الّذينَ تفرَّقوا في دينِهِمْ ، وكانوا شِيَعاً ، تَذْهَبُ كُلُّ شيعةٍ مِنْها مَذْهَباً يُخالِفُ مَذْهَبَ الآخَرِ ، ويُكَفِّرُ بَعْضُها بَعْضاً ، إذْ

يَزْعُمُ كُلُّ أصحابِ مَذْهبٍ أنّه عَلى الحَقِّ وغَيْرَه عَلى الباطِلِ ، وها نَحْنُ اليَوْمَ نَرى النَّصارى فِرَقاً مُتَعدِّدةً ، ونَرى اليَهودَ كَذَلِكَ ، واخْتلافُهُمْ هَذا إنّما كانَ بَعْدَ مَجيءِ الآياتِ الواضِحَةِ الّتي تَجْمَعُ النّاسَ عَلى الحَقِّ ، ولكنَّ هَؤلاءِ لِعنادِهِمْ وجُحودِهِمْ تفرَّقوا واخْتَلَفوا ، وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ يَشْمَلُ خُسْرانَهم في الدُّنيا ، وخُسْرانَهُمْ في الآخِرَةِ ، ولِذا عَلَيْكُمْ أيّها المُؤْمِنونَ أنْ لا تَكونوا مِثْلَهُمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الأَمْرُ بِتَقْوى اللهِ تَعالى وذَلِكَ بامْتِثالِ أوامِرِهِ واجْتِنابِ نَواهيهِ، والاسْتِمرارِ عَلى دينِ اللهِ تَعالى .

٢ـ الاعْتِصامُ بِحَبْلِ اللهِ المَتينِ ، وعَدَمُ الاعْتِدادِ بالعَصبيّاتِ الجِنْسِيَّةِ ، وذَلِكَ لأنَّ الأُمَمَ والأَوْطانَ لَنْ تَرقى إلاّ باتِّحادِها عَلى دينِ اللهِ تَعالى .

٣ـ رَحْمَةُ اللهِ تَعالى بالخَلْقِ ، حَيْثُ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ ، مُنْقِذاً لَهُمْ مِنْ نارِ جَهنَّمَ ومُخْرِجاً لَهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ .

٤ـ بالدَّعْوةِ إلى الخَيْرِ والأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ تَكونُ الأُمَّةُ الإسْلاميَّةُ خَيْرَ الأُمَمِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنى ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ ؟ وما المَقْصودُ بالتَّقْوى ؟

٢ـ قارِنْ بَيْنَ ما يُريدُه أَهْلُ الكِتابِ مِنَ المُسْلِمينَ وما يُريدُهُ اللهُ تَعالى مِنْهُم .

٣ـ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً﴾ صورةٌ بَيانِيَّةٌ بَديعيَّةٌ . وضِّحْها .

٤ـ قارِنْ بَيْنَ حالِ النّاسِ قَبْلَ الإسْلامِ وحالِهِمْ بَعْدَهُ .

٥ـ ما واجِبُ المُسْلِمِ الّذي يَهْتَدي إلى الحَقِّ ؟

٦ـ كَيْفَ تَفرَّقَ أَهْلُ الكِتابِ في دينِهِمْ ؟

٧ـ ما واجِبُ المُسْلِمينَ اليَوْمَ تِجاهَ هذا الدِّينِ ؟

٨ـ اذْكُرْ بالتَّرتيبِ التَّوجيهاتِ الرَّبانيَّةَ للمُؤْمِنينَ كما جاءَ في الآياتِ الكَريمةِ .

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ تَفْسيراً لِقَوْلِ الرَّسولِ ﷺ (القُرآن حَبْلُ اللهِ المتينُ . . . . .) .

٢ـ اذْكُرْ ثَلاثَ صُوَرٍ : أَمْثِلَةٍ ؛ مِنْ صُوَرِ الأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ، واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٣ـ بيِّنْ حالَ المُسْلِمينَ اليَوْمَ ، هَلْ هُم مُتَّفِقونَ ؟ أَوْ أَنَّهُمْ صاروا مِثْلَ أَهْلِ الكِتابِ ؟ ولِمَ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرس الرابع والعشرون

سورةُ آلِ عِمرانَ - القِسْمُ الرّابعُ والعِشْرونَ

يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تَبْيَضُّ وُجوهٌ : تُسَرُّ بِما قدَّمَتْ مِنْ عَمَلٍ صالحٍ فتَراها بَيْضاءَ مُشْرِقَةً .

تَسْوَدُّ وُجوهٌ : تَسوءُ وتَغْتَمُّ بِسَبَبِ عَمَلِها السَّيِّءِ فتَراها سَوْداءَ مُعْتِمَةً .

رَحْمةِ اللهِ : جَنّتِهِ .

ظُلْماً : وَضْعُ الشّيءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ .

أُخْرِجَتْ : أُظْهِرَتْ حتّى تميّزَتْ .

التَّفسيرُ :

﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

إنَّ مِنْ رَحْمةِ اللهِ تَعالى بالخَلْقِ أنَّهُ يُبيِّنُ لَهُمُ الحَقَّ والباطِلَ ، لِيَتَّبِعوا الحَقَّ ، وَيَبْتَعِدوا عَنِ

الباطِلِ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ يُبيِّنُ لَهُمَ نَتيجةَ الحَقِّ أوِ الباطِلِ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، لِيَجْتَهِدَ العاقِلُ المُدْرِكُ لِيَكونَ مِنْ أَصْحابِ الحَقِّ ، ولِيَحْذَرَ مِنَ أنْ يَكونَ مِنْ أصْحابِ الباطِلِ .

لَقَدْ جاءَتِ الآياتُ تُحذِّرُ المُؤْمِنينَ مِنْ أَهْوالِ يَوْمِ القِيامَةِ ، فَيَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى : اذْكُروا أيُّها النّاسُ ذَلِكَ اليَوْمَ الّذي تَبْيَضُّ فيهِ وُجوهٌ وتُشْرِقُ بنورِ اللهِ تَعالى ، مَسْرورةً مُسْتَبْشِرَةً بِرِضا اللهِ تَعالى بِسَبَبِ الإيمانِ والأَعْمالِ الصّالِحةِ الّتي كانتْ مِنْ أصْحابِها في الدُّنيا ، وتَسْوَدُّ وُجوهٌ مُغْتَمَّةٌ حَزينةٌ بِسَبَبِ كُفْرِها وما اقْتَرَفَتْهُ مِنْ سوءٍ في الدُّنيا . وفي هذا تَهْويلٌ لِيَوْمِ القِيامةِ وتَعْظيمٌ لِشَأْنِهِ ، وتَرْغيبٌ لِلْمُؤْمِنينَ في التَّزوُّدِ بالعَمَلِ الصّالِحِ ، وتَرْهيبٌ للكافِرينَ مِنَ التَّمادي في الكُفْرِ والضَّلالِ .

ويُبيِّنُ سُبْحانَهُ حالَ الّذينَ اسْودَّتْ وُجوهُهُمْ ، وسوءَ عاقِبَتِهِم ، وقَدِ ابْتَدأَتْ بهمُ الآياتُ تَرْهيباً لَنا كيْ لا نَكونَ مِنْهُمْ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ وذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وأَعْمالِهُمُ القَبيحَةِ وبِسَبَبِ تَفرُّقِهِمْ واخْتِلافِهِم في دينِهِمْ ، وهَؤُلاءِ يُقالُ لَهُمْ يومَ القيامةِ

﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ والاسْتِفْهامُ للتَّوْبيخِ والتَّعجُّبِ مِنْ حالِهِمْ ، ويُقالُ لَهُمُ ادْخلوا جَهنَّمَ ، وذوقوا مَرارةَ العذابِ والآلامَ بِسَبَبِ اسْتِمْرارِكُمْ عَلى الكُفْرِ ومَوْتِكُمْ عَلَيْه ، والأَمْرُ في قَوْلِهِ : ﴿فَذُوقُوا﴾ للإهانَةِ والإذْلالِ لَهُمْ .

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

وَبيَّنَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ حالَ الّذينَ ابْيَضَّتْ وُجوهُهُمْ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ بِسَبَبِ إيمانِهِمْ وعَمَلِهِمُ الصّالِحِ ﴿ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ أي : هُمْ خالِدونَ في الجَنَّةِ ، وإنَّ الجَنَّةَ مَحَلٌّ للرَّحْمةِ ، والرَّحْمَةُ حالَّةٌ في الجَنَّةِ ، ولِذا حَسُنَ أنْ يَحِلَّ أحَدُ المَعْنَيَيْنِ مَحِلَّ الآخَرِ ، فَفي الآيةِ مَجازٌ مُرْسَلٌ عَلاقَتُهُ الحاليةُ .

إنَّ هَؤلاءِ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ ، وهذا فَضْلٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، وهُمْ خالِدونَ في هذهِ الجَنَّةِ ونَعيمِها الدّائِمِ الّذي لا يَنْفَدُ ، والّتي فيها مالا عَيْنٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ ، وفي هذا ما يُغري الإنْسانَ لِيَكونَ مِمَّنْ يَعْمَلُ الصّالِحاتِ ويَتَمسَّكُ بِدينِ اللهِ تَعالى .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ .

إنَّ هذِهِ الآياتِ الّتي يَتْلوها سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ وعَلَيْنا ، جاءَتْ لِتُقرِّرَ الحَقَّ الّذي لا شُبْهَةَ فيهِ ، تِلْكَ الآياتُ الّتي تَهْدي إلى الرُّشْدِ ، وتَشْهَدُ بوَحْدانيَّةِ اللهِ تَعالى ، وبِصِدْقِ الرَّسولِ ﷺ ، وقَدْ أَسْنَدَ سُبْحانَهُ التِّلاوَةَ إلى نَفْسِهِ ﴿ نَتْلُوهَا ﴾ لِلتَّنبيهِ عَلى شَرَفِ هذِهِ الآياتِ وعِظَمِها ، وهُوَ سُبْحانَهُ في إنْزالِ هذِهِ الآياتِ ، إنَّما يُريدُ هِدايةَ البَشَرِ ، إلى ما فيهِ خَيْرُهُمْ ، وهُوَ لا يُريدُ ظُلْمَهُمْ ، ولَكنَّهُمْ هُمْ لاخْتِيارِهِمُ الضَّلالةَ عَلى الهُدى ، ولِكَوْنِهِمْ فَسَقوا عَنْ أَمْرِ اللهِ ، ولِتَفرُّقِهِمْ واخْتِلافِهِمْ ، كانوا ظالِمينَ لأَنْفُسِهِمْ .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

إنّ اللهَ تعالى هُوَ المالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ وهُوَ المُتَصرِّفُ في شُؤونِ العِبادِ مُلْكاً وخَلْقاً وتَدْبيراً وإحْياءً وإماتَةً ، وإلَيْهِ سُبْحانَهُ وَحْدَهُ تُرْجَعُ أُمورُ النّاسِ ، فَيُجازي الّذينَ أَحْسَنوا الحُسْنى ، والّذينَ أساءوا بما عَمِلوا .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

خيريَّةُ أُمَّةِ الإسْلام : وتَعودُ الآياتُ لِتُؤَكِّدَ على قَضيةِ الأمْرِ بالمَعروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ، لأنَّ فيهِ الخَيْرَ العَظيمَ لأُمَّةِ هذا الدينِ ، ولِذا يَقولُ سُبْحانَهُ لِلْمُؤْمِنينَ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ : كُنتمْ خَيْرَ أُمَّةٍ في الوُجودِ ، أَخْرَجها اللهُ تَعالى لِنَفْعِ النّاسِ ، وهِدايَتِهِمْ ، وأمّا سَبَبُ كَوْنِهِمْ خَيْرَ أُمَّةٍ فلأنَّهُمْ يَأْمُرونَ بالمَعْروفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ويُؤْمِنونَ باللهِ ، أي : يُصَدِّقونَ بِهِ ، ويَخْضَعونَ لَهُ ، ويُخلِصونَ لَهُ في العِبادةِ ، ويُطيعونَهُ في كل ما أمرَهُمْ بِهِ وما نَهاهُمْ عَنْهُ ، وقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : كُنْتُمْ ، ولمْ يقلْ : أنتُم ، لأنَّهُ لَوْ قالَ أنتُم كانتِ الآيَةُ خاصَّةً بَصَحابَةِ رسولِ اللهِ ، ولكنَّهُ قالَ كُنْتمْ ، لِيَدْخُلَ فيها كُلُّ مَنْ يَأْمُرُ بالمَعْروفِ في كُلِّ زمانٍ ومَكانٍ مِنْ أُمَّةِ الإسْلام .

وانْظُر إلى أهميّةِ هذا الأَصْلِ العَظيمِ مِنْ أُصولِ الإسْلام ، وهُوَ الأَمْرُ بالمَعْروفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ ، حَيْثُ قدَّمهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى الإيمانِ ، مَعَ أنَّ الإيمانَ باللهِ هُوَ أَساسٌ لِقَبولِ العَمَلِ ، وما ذلِكَ إلاّ لِيُبيِّنَ لَنا سُبْحانَهُ أنَّ هَذا الإيمانَ إذا أرَدْنا أنْ نَسْتَظِلَّ بِظلالِهِ الوارِفةِ ونَجْنِيَ مِنْ ثمارِهِ اليانِعَةِ ، ونَسْتَضيءَ بأَنْوارِهِ الكاشِفَةِ ، إذا أرَدْنا ذَلِكَ فلابُدَّ مِنَ الأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنْ المُنْكَرِ ، وإلاّ اتَّبَعَ كُلٌّ هواهُ ، وكانَ الإيمانُ أمانِيَّ عِنْدَ كَثيرٍ مِنَ النّاسِ ، ولَيْسَ الإيمانُ بالتَّمنِّي ، ولَكِنَّ الإيمانَ بِصِدْقِ العَمَلِ .

ومِنَ مَخاطِرِ تَرْكِ الأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهيِ عَنِ المُنْكَرِ :

١ـ تَكونُ الأُمةُ شرَّ أُمّةٍ ، إذْ يصيرُ الضَّعْفُ والجَهْلُ ، والتّأخُّرُ والذِّلَّةُ ، والبُغْضُ والتّدابُرُ ، والجُبْنُ والبُخْلُ والجَزَعُ والأنانيَّةُ مِنَ الصِّفاتِ البارِزَةِ فيها .

٢ـ وَهُوَ سُبْحانَهُ يَحولُ بَيْنَ الأُمّةِ وبَيْنَ الانْتِصارِ عَلى عَدوِّها ، بِسَبَبِ تَرْكِها للأَمْرِ بالمَعْروفِ . قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : (يا أيُّها النّاسُ ، إنَّ اللهَ يَقولُ لَكُمْ مُروا بالمَعْروفِ ، وانْهَوْا عَنِ المُنْكرِ مِنْ قَبْلِ أنْ تَسْتَنصِروني فلا أَنْصُرُكُمْ)[١] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٥٩ برقم ٢٥٢٩٤ .

٣ـ والأُمةُ الّتي تَترُكُ الأمْرَ بالمَعْروفِ لا يُسْتَجابُ لَها ، وهُوَ سُبْحانَهُ يُسلِّطُ عَلَيْها شِرارَ النّاسِ ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : (لَتأمُرُنَّ بالمَعْروفِ ، ولتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ ، أوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ شِرارَكُمْ ، فَيدعو خِيارُكم فلا يُسْتَجابُ لَهُمْ)[1] .

إنَّ الأَمْرَ بالمَعْروفِ والنَّهيَ عَنِ المُنْكَرِ فيهِما صَلاحُ الدُّنيا والآخِرَةِ ، والمُسْلِمونَ الّذينَ يَلْتَزِمونَ هذا الأَصْلَ مَعَ إيمانِهِمْ باللهِ يُصْلِحونَ دُنياهُمْ وآخِرَتَهُمْ .

وبَعْدَ أنْ مَدَحَ اللهُ أُمّةَ الإِسْلامِ ، ذمَّ أَهْلَ الكِتابِ لِعَدَمِ إيمانِهِمْ بما أُنْزِلَ على مُحمَّدٍ ﷺ ولوْ آمنوا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ في دُنْياهُمْ وآخِرَتِهِمْ ، وكانوا مِثْلَ المُؤْمِنينَ في الظَّفَرِ بِتِلْكَ الخَيْرِيّةِ ، ولَكنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنوا فامْتَنَعَ الخَيْرُ مِنْهُم ، إنَّ القِلّةَ القَليلةَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ آمنَتْ بِمُحمَّدٍ ﷺ ، ولَكِنَّ الكَثيرينَ خَرجوا عَنِ الطّريقِ المُسْتَقيمِ الّذي دَعَتْ إليهِ الشّرائِعُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ العَذابُ لا يَحِلُّ بِأُمّةٍ مِنَ الأُمَمِ ، إلاّ إذا فَشَتْ فيها الذُّنوبُ ، وَزَحْزَحَتْها عَنِ الصِّراطِ المُسْتَقيمِ .

٢ـ كُلُّ إنْسانٍ يُلاقي نَتيجةَ عَمَلِهِ يَوْمَ القيامةِ ، فَقَدْ يَكونُ مِمَّنِ ابْيَضَّ وجْهُهُ ، وقَدْ يَكونُ مِمَّنِ اسْوَدَّ وجْهُهُ والعِياذُ باللهِ .

٣ـ اللهُ تعالى خالِقُ الكَوْنِ والمُتَصرِّفُ فيهِ ، والمُدبِّرُ لِشُئونِهِ ، وإليْهِ وَحْدَهُ يَرْجِعُ الخَلْقُ كُلُّهُ .

٤ـ لَنْ تَنالَ الأُمّةُ الخَيريّةَ عَلى الأُمَمِ ، ولَنْ تنتصِرَ عَلى عَدوِّها ، ولَنْ يُسْتَجابَ لها دُعاءٌ إلاّ إذا أَمَرَتْ بِالمَعْروفِ ونَهَتْ عَنِ المُنْكَرِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بِكَوْنِ الوُجوهِ مُبْيَضّةً أوْ مُسْوَدّةً ؟ ومَتى يَكونُ ذلِكَ ؟

٢ـ لِماذا كانَتْ هَذِهِ النّتيجةُ لِكِلا الفَريقَيْنِ ؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٩٠) برقم ٢٣٣٦٠ .

٣ـ ما الّذي يُقالُ لِمَنِ اسْوَدَّ وَجْهُهُ يَوْمَ القيامةِ ؟

٤ـ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللهِ﴾ صُورةٌ بَيانيَّةٌ بَديعةٌ ، وضِّحْها .

٥ـ ما جَزاءُ الّذينَ ابْيَضَّتْ وُجوهُهُمْ ؟

٦ـ لِمَ أَسْنَدَ اللهُ تَعالى التِّلاوةَ لِنَفْسِهِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿نَتْلُوهَا﴾ ؟

٧ـ هَلْ في تَعْذيبِ اللهِ الكافِرينَ ظُلْمٌ لَهُمْ ؟ وضِّحْ ذَلِكَ .

٨ـ لِماذا كانتْ أُمَّةُ الإسْلامِ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ ؟

٩ـ لِمَ تَقدَّمَ الأَمْرُ بالمَعْروفِ والنَّهيُ عَنِ المُنْكَرِ عَلى الإيمانِ باللهِ في الآيةِ ؟

١٠ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ قَولِ اللهِ تَعالى (كُنْتُم) دونَ (أَنْتُم) ؟

١١ـ لِتَرْكِ الأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْي عَنِ المُنْكَرِ بَعْضُ المَساوِئ ، اذْكُرْ ثَلاثاً مِنْها مَعَ الدَّليلِ .

نَشاطٌ :

١ـ وَصَفَتْ سورةُ القِيامةِ وُجوهَ المُؤْمِنينَ وَوُجوهَ الكافِرينَ يَوْمَ القيامةِ ، اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ المُتَحدِّثَةَ عَنْ ذَلِكَ .

٢ـ سَمِّ ثَلاثةً مِنَ الّذينَ آمنوا بالنَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ، واكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرس الخامس والعشرون

سورةُ آلِ عِمرانَ - القِسْمُ الخامِسُ والعِشْرونَ

لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أذىً	ضَرراً يَسيراً .	يُوَلُّوكُمُ الأَدْبارَ	يَنْهزِموا مِنْكُم .
ضُرِبَتْ	أُلْصِقَتْ بِهِم .	ثُقِفوا	وُجِدوا .
حَبْلٍ	عَهْدٍ .	باءُوا	رَجَعوا .
يَعْتَدونَ	يَتَجاوَزونَ الحدَّ .	سواءً	مُتَساوونَ .
قائِمةٌ	مُسْتَقيمةٌ وعادِلَةٌ .	آناءَ	ساعاتٍ .
يُكْفَروهُ	يُمْنَعوا ثَوابَهُ .		

التَّفسيرُ :

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ .

جاءَتِ الآياتُ الكَريمَةُ لِتُبَشِّرَ المُؤْمِنينَ ، بأَنَّ أُولئِكَ الَّذينَ فَسَقوا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وهُمُ الكَثْرَةُ ، والَّذينَ ناصَبوكُمُ العِداءَ ، لَنْ يَضرُّوكُمْ ضَرَراً بالِغاً عَظيماً ، ما دُمْتُمْ مَتَمَسِّكينَ بِدينِكُمْ .

إنَّ أَهْلَ الكِتابِ لا يَقْدِرونَ عَلى إيقاعِ الضَّرَرِ بِكُمْ ، وغايةُ ما يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ مِنْهُمْ ، أَنْ يُؤْذُوكُمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، ويُلْقوا الشُّبُهاتِ لِيَصدّوا ضِعافَ الإيمانِ عَنْ دينِهِمْ ، ويَخوضوا في النَّبيِّ ﷺ فَيَتَّهِموهُ اتّهاماتٍ باطِلَةً ، إنَّ هذا الأَذى مِنْهُمْ لَنْ يُؤَثِّرَ في هذِهِ الأُمّةِ ، فَيَمْحوها ويَهْدِمَها ، ويُضْعِفَ قوَّتَها ، ويَهْدُرَ كَرامَتَها .

وإنْ يُقابِلوكُمْ في مَيْدانِ القِتالِ ، فإنَّهُمْ يَنْهَزِمونَ ، لأَنَّ اللهَ تَعالى يُؤَيِّدُكُمْ بَنَصْرِهِ ، ويُلْقي الرُّعْبَ في قُلوبِهِمْ ، فَيَجعلُهُمْ يُوَلُّونَ الأَدْبارَ ، ثُمَّ لا يُنْصَرونَ عَلَيْكُمْ أَبَداً ما داموا عَلى فِسْقِهِمْ وما دُمْتُمْ أَنْتُمْ عَلى خَيريَّتِكُمْ ، تَأْمُرونَ بالمَعْروفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ .

إنَّ هَذِهِ الأُمورَ الثّلاثَةَ الّتي ذَكَرَتْها الآيَةُ وَهِيَ : عَدَمُ هَدْمِ الأُمَّةِ المُسْلِمَةِ ، وعَدَمُ القُدْرَةِ عَلى إِضْعافِ قُوَّتِها وهَدْرِ كَرامَتِها ، ثُمَّ يُولّوكُمُ الأَدْبارَ إذا قاتلتُموهُمْ ، ثُمَّ نَصْرُ اللهِ تَعالى لَكُمْ عَلَيْهِمْ ؛ إنَّ هَذِهِ الأُمورَ كُلَّها مَشْروطَةٌ بِمُحافَظَةِ الأُمَّةِ عَلى الأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ، أمّا إذا تَرَكَتِ الأُمَّةُ ما أُمِرَتْ بِهِ ، فإنَّها يُصيبُها مِنْ عَدُوِّها ما يُؤَثِّرُ في كِيانِها وفي وُجودِها .

إنَّ هَذِهِ البِشاراتِ الثّلاثَ الّتي وُعِدَ بِها النَّبِيُّ ﷺ ، قَدْ تحقَّقَتْ كُلُّها ، وصَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ ، حَيْثُ نَصَرَ المُسْلِمينَ عَلى اليَهودِ ، ولَكِنَّ هذا الأَمْرَ قَدْ كانَ عِنْدَما حافَظَ المُسْلِمونَ عَلى دينِهِمْ ، ونَصَروا اللهَ تَعالى بإعْلاءِ كَلِمَتِهِ ونَشْرِ دينِهِ ، كَما قالَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] . أمّا اليومَ فَقَدْ فرّطَ المُسْلِمونَ في دينِهِمْ ، وأَضاعوا الصَّلاةَ واتَّبَعوا الشَّهَواتِ ، وكانوا شِيَعاً ، ولِذا سَلَّطَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلَيْهِمْ عَدوَّهُمْ .

وَماذا كانَ حالُ اليَهودِ يَوْمَ أَنْ كانَ للمُسْلِمينَ دَوْلَةٌ ؟ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾ فَقَدْ أُلْزِموا الذِلَّةَ ، وأَحاطَتْ بِهِمْ ، فَهُمْ لا يَسْتَطيعونَ التَّخلُّصَ مِنْها ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ولَكِنْ ما المَقْصودُ مِنْ هذا الاسْتِثْناءِ ؟

الّذي يَظْهَرُ مِنَ الآيةِ ـ واللهُ أَعْلَمُ ـ أنَّ اليَهودَ لا يَسْتَطيعونَ الوُقوفَ عَلى أقْدامِهِمْ ، ولَيْسَ بِوُسْعِهِمْ أنْ يَحيَوْا حَياةَ العِزَّةِ والمَنْعَةِ ، هُمْ دائماً مُحْتاجونَ إلى حَليفٍ يَحميهِمْ ، ونَصيرٍ يَشُدُّ عَلى أيديهِمْ ، ونَحْنُ نَجِدُ أنَّ وَعْدَ اللهِ تَبارَكَ وتَعالى يَتَحَقَّقُ ، فها هُمْ اليَهودُ يُعوِّلونَ في مَسيرَتِهِمْ ، وبَقاءِ دَوْلَتِهِمْ عَلى كَثيرٍ مِنَ قُوى البَغْيِ مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ ، فَهُمْ يَمدّونَهُمْ بِكُلِّ المُقوِّماتِ الماديَّةِ مِنْ سِلاحٍ ومالٍ وغِذاءٍ ، وبِكُلِّ المُقوِّماتِ المَعْنَويَّةِ كَذَلِكَ ، ولا يَجْهَلُ أَحَدٌ مِنّا مَوْقِفَ أَمْريكا وغَيْرِها في مَجْلِسِ الأَمْنِ وهَيئَةِ الأُمَمِ . هذا المَقْصودُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ولكنْ ما المَقْصودُ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ ؟

إنّ حَبْلَ اللهِ يكونُ لِهؤلاءِ حينَما يَبْتَعِدُ المُسْلِمونَ عَنْ طَريقِ اللهِ ، ويُعْرِضونَ عَنْ كَلامِهِ وهَدْيِهِ ، فَلَيْسَ حَبْلُ اللهِ لليهودِ دَليلاً على حُبِّ اللهِ لَهُمْ ، بَلْ هُوَ عُقوبةٌ للمُسْلِمينَ ، وتَذْكِرَةٌ لَهُمْ لِيَرْتَدِعوا عَنْ إعْراضِهِمْ ، ولِيَرْجِعوا إلى اللهِ ، ولِتَحْيا كَلِماتُ اللهِ في نُفوسِهِمْ ، ذَلِكُمْ هُوَ حَبْلُ اللهِ وحَبْلُ النّاسِ ، وهذا مِنَ الإعْجازِ الغَيْبِيِّ في الآيةِ .

ويَقولُ سُبْحانَهُ عَنِ اليَهودِ : ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي : رَجَعوا مَصْحوبينَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ تَعالى ﴿ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ﴾ والمَقْصودُ بالمَسْكَنَةِ : الضَّعْفُ النَفْسِيُّ الّذي اسْتَولى عَلَيْهِمْ ، فَجَعَلَهُمْ يَحُسّونَ بالذُّلِّ والهَوانِ ، فالمَسْكَنَةُ تَنْشَأُ مِنْ داخِلِ النَّفْسِ نَتيجةَ بُعْدِها عَنِ الحقِّ ، أمّا الذِّلَّةُ ، فَأَسْبابُها خارجيّةٌ فَقَدْ يَكونُ مِنْ عَدوِّهِمُ الّذي انْتُصِرَ عَلَيْهِمْ .

إنَّ هَذِهِ العُقوبَةَ الّتي حَلَّتْ بِيَهودَ إنّما كانَتْ بِسَبَبِ :

١ـ كُفْرِهِمْ بآياتِ اللهِ تَعالى مَعَ وُضوحِها ، وعَبَّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ (يَكْفُرونَ) لِتَجَدُّدِ هذا الأَمْرِ منهُمْ .

٢ـ قَتْلِهِمُ الأَنْبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، أولئِكَ الأنْبياءُ الّذينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ لِهدايَتِهِمْ ، فَأَساؤوا إلَيْهِمْ وقَتَلوهُم ، وفي قَوْلِه (بِغَيْرِ حَقٍّ) زِيادةُ تَشْنيعٍ عَلَيْهِمْ وتَوْبيخٍ لَهُمْ ، فَهُمْ قَدْ قَتَلوا الأَنْبياءَ عَنْ عَمْدٍ ، لا عَنْ خَطأٍ .

٣ـ عِصيانِ أوامِرِ اللهِ تَعالى ، وخُروجِهِمْ عَنْ طاعتِهِ ، وتَجاوُزِهِمْ لِما حَدَّهُ اللهُ تَعالى لَهُمْ .

﴿ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ .

وَلكنْ هَلْ أَهْلُ الكِتابِ كُلُّهُمْ مُتَساوونَ في ابْتِعادِهِمْ عَنِ الحَقِّ والكُفْرِ بآياتِ اللهِ ، أَلَيْسَ فيهِم أحَدٌ قَدْ آمَنَ بدينِ اللهِ وشَرْعِهِ ؟

تُجيبُ الآياتُ الكَريمَةُ بأنَّ أهْلَ الكِتابِ لَيْسوا سواءً في الكُفْرِ وسوءِ الأَخْلاقِ ، بَلْ إنَّ مِنْهُمْ طائِفَةً آمَنَتْ باللهِ تَعالى . وقَدْ وَصَفَتِ الآياتُ هذِهِ الطّائِفَةَ بِصِفاتٍ ، وهَذِهِ الصِّفاتُ هِيَ :

١ـ ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ ﴾ أي : مِنْهُمْ جَماعةٌ مُسْتَقيمةٌ على الحَقِّ ، مُتَّبِعَةٌ العَدْلَ ، لا تَظْلِمُ أحَداً ، ولا تُخالِفُ أَمْرَ الدِّينِ . والمَفْهومُ مِنَ الآيَةِ أنَّ مِنْهُمْ كَذلِكَ أُمَّةً مَذْمومَةً ، والمَقْصودُ بالأُمَّةِ العادِلَةِ القائِمةِ على الحقِّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ ، مِثْلَ عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ ، وثَعْلبةَ بنِ سعيدٍ وأُسيدِ بنِ عُبَيْدٍ وغَيْرِهِمْ .

٢ـ ﴿ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ ﴾

٣ـ ﴿ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ .

إنّهمْ يَتْلونَ كِتابَ اللهِ تَعالى في ساعاتِ اللَّيْلِ تَقرُّباً إلى اللهِ تَعالى ، وهُمْ مُنْشَغِلونَ بالصَّلاةِ مُتَهجِّدينَ ، وخُصَّ السُّجودُ بالذِّكْرِ ، لِبيانِ كَمالِ خُشوعِهِمْ ، وخُضوعِهِمْ للهِ تَعالى .

٤ـ ﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ يُؤْمِنونَ باللهِ تَعالى مُذْعِنينَ لَهُ ، خاضِعينَ ومُسْتَعدِّينَ لليومِ الآخِرِ .

٥ـ ﴿ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ فَهُمْ بَعْدَ أنِ اهْتَدَوْا إلى الطَّريقِ الحَقِّ ، وأَصْلَحوا أنفُسَهُمْ ، وطَهَّروها مِنَ الفَسادِ ، سَعَوْا إلى إرْشادِ غَيْرِهِمْ للحقِّ بِأَمْرِهِمْ بالمَعْروفِ ونَهْيِهِمْ عَنِ المُنْكَرِ ، وذَلِكَ لأنَّ المُؤْمِنَ يُحِبُّ الخَيْرَ لغيرِهِ كَما يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ .

٦ـ ﴿ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ ﴾ أي : يُبادِرونَ إلى فِعْلِ الخَيْراتِ ويَعْمَلونَ الأَعْمالَ الصَّالِحَةَ غيرَ مُتثاقِلينَ ، لِعِلْمِهِمْ بِحُسْنِ عاقبَةِ العَمَلِ الصّالِحِ .

٧ـ ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي : أُولئِكَ المتَّصِفونَ بِتِلْكَ الصِّفاتِ العَظيمةِ مِنَ الّذينَ صَلَحَتْ أحْوالُهُمْ ، وحَسُنَتْ أعْمالُهُمْ ، فَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ . وفي وَصْفِهِمْ بالصَّلاحِ غايةُ المَدْحِ ونِهايةُ الشَّرَفِ والفَضْلِ .

﴿ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ .

إنَّ هَؤلاءِ مَهْما فَعَلوا مِنَ خَيْرٍ وطاعةٍ ، فَلَنْ يَحْرِمَهُمُ اللهُ تَعالى ثَوابَها ، ولَنْ يُضيعَ شَيْئاً ممّا قَدَّموهُ مِنْ عَمَلٍ صالِحٍ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ سَيُثيبَهُمُ الأَجْرَ العَظيمَ على فِعْلِهِمْ ، أمّا غَيرُهُمْ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ ، فإنَّ الخَيْرَ الّذي يَفْعَلونَهُ في الدُّنْيا ، يَجِدونَهُ عِنْدَ اللهِ تَعالى هَباءً مَنثوراً .

وتَخْتِمُ الآياتُ بِقَوْلِهِ تَعالى ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ عَليمٌ بِأَحْوالِ عِبادِهِ مَن اتَّقى مِنْهُمْ فامْتَثَلَ أمْرَهُ ، وتَرَكَ ما نَهى عَنْهُ ، وسَيُجازي هَؤلاءِ المُتَّقينَ بما يَسْتَحِقُّونَ . نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أنْ يَجْعَلَنا مِنَ المُتَّقينَ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

هَذِهِ هِيَ نَتيجةُ هَؤلاءِ المُتَّقينَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ، أمّا الّذينَ كَفَروا مِنْهُمْ ومِنْ غَيْرِهِمْ واغْتَرّوا بِأَمْوالِهِمْ وأولادِهِمْ في الدُّنْيا ، فإِنَّ هَذِهِ الأَمْوالَ وهَؤلاءِ الأَولادَ لَنْ تَغْنِيَ عَنْهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، فَلَنْ يَدْفَعوا عَنْهُمْ عذابَ اللهِ تَعالى الّذي سَيَحيقُ بِهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، إنْ هَذِهِ كانَتْ تَنْفَعُهُمْ في الدُّنْيا فَلَنْ تَنْفَعَهُمْ يَوْمَ القِيامةِ أَبَدَاً .

إنَّ الأَمْوالَ والأَوْلادَ لَنْ يَنْفَعوا أَحَداً يَوْمَ القِيامةِ ، سَواءٌ كانوا مُؤْمِنينَ أَمْ كافِرينَ ، ولَكِنَّهُ سُبْحانَهُ خَصَّ الكافِرينَ بالذِّكْرِ ، لأَنَّهُمْ هُمُ الّذينَ اغْتَرُّوا بالأَمْوالِ والأَوْلادِ ، أمّا المُؤْمِنونَ فَهُمْ يَعْتَقِدونَ أَنَّهُ لَنْ يَدْفَعَ عِقابَ اللهِ تَعالى شيءٌ ، ويَعْلَمونَ أَنَّ الأَمْوالَ والأَوْلادَ فِتْنَةٌ ، فَلَمْ يَعْتَمِدوا في نَجاتِهِمْ مِنْ عِقابِ اللهِ تَعالى إلاّ على فَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ .

إنَّ أُولئكَ الكافِرينَ المُغْتَرِّينَ بالأَمْوالِ والأَوْلادِ هُمْ أَصْحابُ النّارِ الّذينَ سَيَخْلُدونَ فيها بِسَبَبِ ما اقْتَرَفوهُ ، نَعوذُ باللهِ مِنْ عذابِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وَعَدَ اللهُ تَعالى أنْ يَنْصُرَ أُمَّةَ الإِسْلامِ عَلى عَدُوِّهِمْ ، وذَلِكَ إذا تمسَّكوا بِدينِهِمْ واعْتَصَموا بِهِ .

٢ـ سُنَّةُ اللهِ تَعالى أَنَّهُ إذا تَخلَّى المُسْلِمونَ عَنْ دينِهِمْ ، وأعْرَضوا عَنِ الحَقِّ ، عاقَبَهُمُ اللهُ تَعالى بِتَسْليطِ عَدوِّهِمْ عَلَيْهِمْ .

٣ـ العُقوبةُ الّتي حَلَّتْ بيهودَ كانَتْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بآياتِ اللهِ ، وقَتْلِهِمْ لأنبيائِهِمْ وتَعدِّيهِمْ حُدودَ اللهِ تَعالى .

٤ـ دينُ اللهِ تَعالى واحِدٌ عَلى أَلْسِنَةِ الأَنْبياءِ جَميعاً ، فَمَنْ أَخَذَهُ مُذْعِناً ، وعَمِلَ بِهِ مُخْلِصاً ، وأَمَرَ بالمَعْروفِ ونَهى عَنِ المُنْكَرِ كانَ مِنَ الصّالِحينَ .

٥ـ اسْتِمالةُ أَهْلِ الكِتابِ إلى هذا الدِّينِ الحَقِّ ، الّذي كانَ عادِلاً في الحُكْمِ عَلَيْهِمْ ، فَلَمْ يُساوِ بَيْنَ جَميعِ أَهْلِ الكِتابِ في الكُفْرِ والأَخْلاقِ القَبيحةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

ضُرِبَتْ ، ثُقِفوا ، باءُوا ، أُمَّةٌ قائِمةٌ ، فَلَنْ يُكْفَروهُ .

٢ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً﴾ ؟

٣ـ لَقَدْ بَشَّرتِ الآياتُ المُؤْمِنينَ بِشاراتٍ ثلاثاً ، اذْكُرها مُبيِّناً الوَقْتَ الّذي تَتَحقَّقُ فيهِ .

٤ـ ما الفَرْقُ بَيْنَ الذِّلَّةِ والمَسْكَنةِ ؟

٥ـ لَقَدْ حَلَّتْ بِأَهْلِ الكِتابِ العُقوباتُ الكَثيرةُ ، لأَسْبابٍ ذَكَرَتْها الآياتُ ، هاتِ تِلْكَ الأَسْبابَ ودَليلَها مِنَ الآياتِ .

٦ـ هَلْ كانَ أَهْلُ الكِتابِ سَواءً في الكُفْرِ ؟ وضِّحْ ذلِكَ .

٧ـ هاتِ أَرْبعاً مِنْ صِفاتِ الطَّائِفةِ المُؤْمِنةِ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ .

٨ـ قارِنْ بَيْنَ ما يَفْعَلُهُ المُؤْمِنونَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ، وما يَفْعَلُهُ الكافِرونَ مِنْهُم مِنْ صالحِ الأَعْمالِ في الدُّنْيا ، مِنْ حَيْثُ قَبولُها عِنْدَ اللهِ وعَدَمُ قَبولِها .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مِنْ سورةِ عَبَسَ الآياتِ الدَّالَّةَ على عَدَمِ انْتِفاعِ الإنْسانِ مِنْ أقارِبِهِ يَوْمَ القِيامةِ .

* * *

الدَّرْسُ السَّادِسُ والعِشْرونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ السّادِسُ والعِشْرونَ

مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

صِرٌّ	: بَرْدٌ شَديدٌ .
حَرْثَ قَوْمٍ	: الحَرْثُ ، هُوَ فَلْحُ الأَرْضِ وَإِلقاءُ البذرِ فيها ، ومَعْناهُ هُنا : الزَّرْعُ .
بطانَةً	: خواصَّ يَسْتَبْطِنونَ أمْرَكُمْ .
لا يألُونَكُمْ خَبالاً	: لا يُقَصِّرونَ في إِفْسادِكُمْ ؛ والخَبالُ : نُقْصانُ العَقْلِ ، وَالفَسادُ .
عَنِتُّمْ	: شَقيتُمْ .
البَغْضاءُ	: شِدَّةُ البُغْضِ .
عَضوا عَلَيْكُمُ الأنامِلَ	: كِنايَةٌ عَنْ شِدَّةِ الغَيْظِ .
تَمْسَسْكُمْ	: تَلْمَسْكُمْ ، إلاّ أنَّ المَسَّ يَكونُ لِلأُمورِ المَعْنَويَّةِ كالتَّعَبِ وَالعَذابِ ، واللَّمْسُ لِلأُمورِ المادِيَّةِ .
كَيْدُهُمْ	: الاحْتِيالُ لإيقاعِ الآخَرينَ في المَكْروهِ .



إنَّ أَعْمالَ الخَيْرِ الّتي يُقَدِّمُها الكافِرونَ في الدُّنْيا لا تَنْفَعُهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، وَهذا ما جاءَتِ الآياتُ الكَريمةُ لِبيانِهِ ، فَقَدْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْ حُكْمِ النَّفَقَةِ الّتي يُنْفِقُها أُولئِكَ الكافِرونَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

إنَّ مَثَلَ ما يُنْفِقُهُ هَؤُلاءِ مِنْ أَمْوالٍ في وجوهِ الخَيْرِ المُتَنَوِّعَةِ ، كَمواساةِ البائِسِ وَقَضاءِ حاجَةِ المُحْتاجينَ مِنْ فُقَراءَ وَمَساكينَ ، كَمَثَلِ ريحٍ فيها بَرْدٌ شَديدٌ قاتِلٌ ، أَصابَتْ هَذِهِ الرِّيحُ زَرْعَ قَوْمٍ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ بِالكُفْرِ وارْتِكابِ المَعاصي ، فَدَمَّرَتْ هذا الزَّرْعَ وَأَهْلَكَتْ ما فيهِ مِنْ ثِمارٍ ، وَهُمْ أَحْوَجُ ما يَكونونَ إلى الزَّرْعِ .

إنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ أَنْفَقوا هَذا المالَ ، كَحالِ أَصْحابِ الزَّرْعِ ، لَقَدْ أَنْفَقوا في الدُّنْيا وَرَجَوْا الخَيْرَ والثَّوابَ عَلى هذا الإنْفاقِ ، وَلَكِنَّ كُفْرَهُمُ الّذي كانوا عَلَيْهِ ، حالَ دونَ حُصولِ الثَّوابِ ، وَكَذلِكَ أَصْحابُ الزَّرْعِ تَوَقَّعوا ثَمَراً جَيّداً ، وَلَكِنْ هَيْهاتَ ، فَقَدْ أَصابَتْهُ الرِّيحُ وَلَمْ يَنْتَفِعوا بِهِ ، وَلَمْ يَبْقَ لِكلا الطَّرَفَيْنِ سِوى الحَسْرَةِ وَالنَّدامَةِ .

لَقَدْ كانَتْ هَذِه نَتيجَةُ عَمَلِ الكافِرينَ ، واللهُ سُبْحانَهُ لَمْ يَظْلِمْهُمْ بِعَدَمِ انْتِفاعِهِمْ بِنَفَقاتِهِمْ ، ولَكِنَّهُمْ هُمُ الَّذينَ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ ؛ لأَنَّهُمْ أَنْفَقوا الأَمْوالَ في طَريقٍ غَيْرِ صَحيحٍ ، بَعيدٍ عَنِ الحَقِّ والدِّينِ ، بَلْ أَنْفَقُوها وَهُمْ كافِرونَ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُحَذِّرَ المُؤْمِنينَ مِنْ مُخالَطَةِ كُلِّ مَنْ كانَ خارِجاً عَنْ دينِ اللهِ تَعالى وَشَرْعِهِ سَواءً كانوا يَهوداً أَمْ نَصارى أَمْ مُنافِقينَ أَمْ كُفّاراً ، وذَلِكَ لأَنَّ هَمَّ أَعْداءِ اللهِ تَعالى إطْفاءُ نورِ الدَّعْوَةِ وَإبْطالُ ما جاءَ بِهِ الإِسْلامُ ، وَالمُسْلِمونَ عَلى النَّقيضِ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إلاّ نَشْرُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَإِعْلاءُ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِلْمُؤْمِنينَ : لا تَتَّخِذوا أَيُّها المُؤْمِنونَ الكافِرينَ أَوْلِياءَ تُلْقونَ إِلَيْهِمْ بِأَسْرارِكُمُ الّتي لا يَصِحُّ لَكُمْ أَنْ تُطْلِعوهُمْ عَلَيْها ، وَهُناكَ بَعْضُ الأَسْبابِ الّتي يَنْبَغي أَنْ تَجْعَلَكُمْ تَجْتَنِبونَ هَؤُلاءِ الضّالِّينَ المُضِلّينَ :

١ـ ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ أي : لا يُقَصِّرونَ في بَذْلِ جُهْدِهِمْ مِنْ أَجْلِ مَضَرَّتِكُمْ ، وَإِفْسادِ الأَمْرِ عَلَيْكُمْ ، فَهُمْ يُريدونَ إِلحاقَ الضَّرَرِ بِكُمْ في دُنْياكُمْ وَآخِرَتِكُمْ .

٢ـ ﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ إِنَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ ضُرَّكُمْ وَمَشَقَّتَكُمْ وَتَفْريقَ جَمْعِكُمْ وَذَهابَ قُوَّتِكُمْ .

٣ـ يُبدونَ البَغْضاءَ لَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ ، إِنَّ البُغْضَ كامِنٌ في قلوبِهِمْ حَتَّى طَفَحَ وَخَرَجَ مِنْ أَفْواهِهِمْ ، فَهُمْ يُثَرْثِرونَ بما يُنْبِئُ عَنْ شِدَّةِ بُغْضِهِمْ ، وَما تُخْفيهِ نُفوسُهُمُ المَريضَةُ لَكُمْ مِنْ أَحْقادٍ أَكْبَرُ بِكَثيرٍ مِمّا تَنْطِقُ بِهِ أَلْسِنَتُهُمْ .

لِهَذِهِ الأَسْبابِ يَجِبُ عَلى المُسْلِمينَ أَنْ يَتَجَنَّبوا مُوالاةَ الكافِرينَ واتِّخاذِهِمْ أَوْلِياءَ وبِطانَةً . وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِبَيانِ فَضْلِ اللهِ عَلى النَّاسِ حَيْثُ بَيَّنَ لَهُمْ سُبْحانَهُ العَلاماتِ الواضِحاتِ ، الّتي يَتَميَّزُ بها الوَلِيُّ مِنَ العَدُوِّ ، وَمَنْ يَصِحُّ أَنْ يُتَّخَذَ بِطانَةً ، وَمَنْ لا يَصِحُّ أَنْ يُتَّخَذَ لِخيانَتِهِ ، إِنَّ المُسْلِمينَ إِنْ كانوا مِنْ أَهْلِ الفَهْمِ وَالعَقْلِ ، وَإِنْ كانوا مِمَّنْ يُدْرِكونَ الحَقائِقَ ، اسْتَطاعوا التَّمييزَ بَيْنَ النّاسِ وَحَدَّدوا عَلاقاتِهِمْ عَلى ضوءِ شَرْعِهِمُ الحَنيفِ .

لَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بِطانَةِ السُّوءِ ، فَقَدْ قالَ ﷺ : ما بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ ولا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَليفَةٍ إِلاّ كانَتْ لَهُ بِطانَتانِ ، بِطانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالخَيْرِ وتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَبِطانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِ وَتَحُثُّهُ عَلَيْهِ[1] .

﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ .

وَتَذْكُرُ الآياتُ أُموراً أُخرى مِنْ شَأْنِها أَنْ تَجْعَلَ المُسْلِمينَ يَكُفّونَ عَنْ مُوالاةِ الكافِرينَ واتِّخاذِهِمْ بِطانَةً ، وَهَذِهِ الأُمورُ :

١ـ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ إِنَّكُمْ تُحِبُّونَ هَؤُلاءِ الكُفّارَ ، وَتَمَنَّوْنَ هِدايَتَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ أَشَدُّ النّاسِ عَداوَةً لَكُمْ ، لا يُقَصِّرونَ في إِفْسادِكُمْ وَتَمنّي وُقوعِ الضَّرَرِ فيكُمْ ، فَإِذا كانَ هَذا حالُهُمْ ، فَكَيْفَ تُوادُّونَهُمْ وَتُحِبُّونَهُمْ .

٢ـ ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ تُؤْمِنونَ بِجَميعِ الكُتُبِ السَّماوِيَّةِ سَواءٌ مِنْها ما أُنْزِلَتْ عَلَيْهِم أَمْ ما أُنزِلَ عَلَيْكُمْ ، أَمَّا هُمْ فَإِنَّهُمْ لا يُؤْمِنونَ بِشَيْءٍ مِنْ كِتابِكُمُ الّذي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ ، وَإِذا كانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ فَكَيْفَ تَتَّخِذونَهُمْ بِطانَةً مُقَرَّبينَ .

٣ـ ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ إِنَّهُمْ إِذا لَقوا المُؤْمِنينَ مِنْ أَصحابِ رَسولِ اللهِ قالوا : آمَنّا وَصَدَّقْنا بِما جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَلَكِنَّهُمْ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، بِحَيْثُ لا يَطَّلِعُ عَلَيْهِمُ المُؤْمِنونَ أَظْهَروا حِقْدَهُمْ وَشِدَّةَ عَداوَتِهِمْ وَغَيْظِهِمْ حَتّى إِنَّ الأَمْرَ لَيَصِلُ بِهِمْ إِلى عَضِّ الأَنامِلِ ، كَما يَفْعَلُ الإِنْسانُ إِذا

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، باب: الإمام وأهل مشورته، حديث رقم ٦٧٧٣ .

اشْتَدَّ غَيْظُهُ ، وَنَدِمَ وَتَحَسَّرَ عَلى أَمْرٍ فَإِنَّهُ يَعُضُّ عَلى أَصابِعِهِ .

إِنَّ مَنْ كانَ كَذَلِكَ في كُفْرِهِ وَنِفاقِهِ ، وَجَبَ عَلى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْهُ لأَنَّهُ لا يُرِيدُ لِلْمُؤْمِنينَ إلاّ الشَّرَ والأَذَى ، وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِما يَغيظُ هَؤُلاءِ الأَعْداءَ ، فَيقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ : ﴿ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ دعاءٌ عَلَيْهِمْ بازْدِيادِ الغَيْظِ في نفوسِهِمْ حتّى يَهْلَكوا ، وذَلِكَ لأَنَّ قُوَّةَ الإِسْلام وعزَّتَهُ سَتَبْقى ، وتَسْتَمِرُّ بِإِذْنِ اللهِ تَعالى ، وإِنَّ أَحْقادَهُمْ لَنْ تُنْقِصَ مِنْ قُوَّةِ المُسْلِمينَ ، وفي هذا عِبْرَةٌ لَنا نَحْنُ المُسْلِمينَ ، لَعَلَّنا نَتَذَكَّرُ وَنَعْلَمُ أَنَّ ما حَلَّ بنا مِنْ تَمَكُّنِ عَدُوِّنا مِنّا ما كانَ إلاّ بِسَبَبِ تفرُّقِنا وَضَعْفِنا .

إِنَّ اللهَ تعالى أَيُّها الكافِرونَ ، عَليمٌ بِكُلِّ ما تَنْطَوي عَلَيْهِ نُفوسُكُمْ مِنَ البَغْضاءِ وَالحِقْدِ وَالحَسَدِ لِلمُؤْمِنينَ ، لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمّا تَقولونَهُ في خَلواتِكُمْ وَلا يَخْفى عَلَيْهِ ما تُدَبِّرونَهُ مِنْ مَكائِدَ لِلْمُسْلِمينَ ، وَهُوَ عَليمٌ كَذَلِكَ بِما في نُفوسِ المُؤْمِنينَ مِنْ حُبِّ الخَيْرِ والنُصْحِ لَكُمْ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ مُجازٍ كُلاًّ مِنْكُمْ على ما يَكونُ مِنْهُ .

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ .

٤ـ وَتَذْكُرُ الآياتُ كَذَلِكَ أَمْراً آخَرَ يَدُلُّ عَلى بُغْضِ الكافِرينَ لِلْمُؤْمِنينَ ، كانَ يَنْبَغي أَنْ يَحْمِلَ المُؤْمنينَ عَلى عَدَمِ مُوالاتِهِمْ قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ﴾ إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ إذا نالَكُمُ الخَيْرُ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَذَلِكَ كانْتِصارِكُمْ على عَدُوِّكُمْ ، وَدُخولِ النّاسِ في دينِ اللهِ ، أَوْ إذا نالَكُمُ الخَيْرُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُم بِالصِّحَةِ وَالعافِيَةِ ، حَزِنوا لِذلِكَ وَمَلأَ الغَيْظُ قُلوبَهُمْ ، أَمّا إذا أَصابَتْكُمْ مُصيبَةٌ وَذَلِكَ كاخْتِلافِكُمْ وافْتِراقِ كَلِمَتِكُمْ ، وَانْتِصارِ عَدُوِّكُمْ عَلَيْكُمْ ، فَرِحوا وَابْتَهَجوا لِذَلِكَ .

وَقَدْ عَبَّرَ سُبْحانَهُ في جانِبِ الحَسَنَةِ بِالمَسِّ ، وَفي جانِبِ الإِساءَةِ بالإِصابَةِ ، لِيُبَيِّنَ كَيْفَ تَمَكَّنَ الحِقْدُ مِنْ قُلوبِ هؤلاءِ ، فَهُمْ إذا رأَوْا حَسَنَةً بِالمُؤْمِنينَ ، وَلَوْ كانَ مَسُّ تِلْكَ الحَسَنَةِ خَفيفاً بِهِمْ حَزِنوا ، فَهُمْ يَسْتَكْثِرونَ الخَيْرَ عَلى المُؤْمِنينَ وَلَوْ كانَ ضَئيلاً ، أَمّا بِالنِّسْبَةِ لِلسَّيِّئَةِ والمُصيبَةِ ، فَإِنَّ الكافِرينَ لا يَشْفي غَيْظَهُمْ وحِقْدَهُمْ إلاّ إذا أَصابَتِ المُسْلِمينَ المَصائِبُ الشَّديدَةُ الّتي تُؤْذيهِمْ في دينِهِمْ وَدُنْياهُمْ .

وَتَخْتِمُ الآيَةُ بِالأَمْرِ بالصَّبْرِ ، فاللهُ سُبْحانَهُ يَذْكُرُ الصَّبْرَ في كُلِّ مَقامٍ يَشُقُّ عَلى النَّفْسِ تَحَمُّلُهُ ، فَإِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ إِنْ صَبَرْتُمْ عَلى مَشاقِّ التَّكاليفِ ، وامْتَثَلْتُمْ أَوامِرَ اللهِ ، واتَّقَيْتُمْ كُلَّ ما نُهيتُمْ عَنْهُ ، فَلَنْ يَضُرَّكُمْ كَيْدُ الكافِرينَ بِإِذْنِ اللهِ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ يَجِبُ الإِخْلاصُ للهِ تَعالى في كُلِّ عَمَلٍ يَقومُ بِهِ الإنْسانُ ، حَتَّى في الصَّدَقَةِ الَّتي يُقَدِّمُها لِمَنْ يَحتاجُها .

٢ـ التَّحْذيرُ مِنَ اتِّخاذِ الكافِرينَ بِطانَةً ، لأَنَّهُمْ لا يَأْمُرونَ إلاّ بِشَرٍّ ، وَلا يُريدونَ خَيْراً لِلدِّينِ وَأَهْلِهِ .

٣ـ إظهارُ سَماحَةِ هذا الدِّينِ ، وَتَساهُلِهِ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ إنْ لَمْ يُريدوا لِهذا الدِّينِ شَرّاً ، وَبَيانُ رَحْمَةِ المُؤْمِنينَ وَرَأْفَتِهِمْ بِغَيْرِهِمْ ، في مُقابِلِ قَساوَةِ قُلوبِ وَغِلْظَةِ غَيْرِهِمْ .

٤ـ أَهْلُ الباطِلِ يُغيظُهُمْ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ اجْتِماعُ كَلِمَةِ المُسْلِمينَ وَصَلاحُ ذاتِ بَيْنِهِمْ .

٥ـ الحالُ الَّتي وَصَلَ إِلَيْها المُسْلِمونَ اليَوْمَ إنّما كانَتْ بِسَبَبِ بُعْدِهِمْ عَنْ دينِهِمْ ، وَتَفَرُّقِ كَلِمَتِهِمْ .

٦ـ تَحَلِّي المُسْلِمِ بالأَخْلاقِ الفاضِلَةِ الحَميدَةِ يُغيظُ العَدُوَّ الحاسِدَ لَهُ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ذَكَرَتِ الآياتُ نَتيجَةَ ما يُنفِقُهُ الكافِرونَ مِنْ مالٍ في هذِهِ الدُّنْيا . هاتِ ما ذَكَرَتْهُ مُوَضِّحاً لِلآيَةِ .

٢ـ ما المَقْصودُ بِالبطانَةِ ؟

٣ـ ذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الأَسْبابِ الَّتي يَنْبَغي أَنْ تَحْمِلَ المُسْلِمينَ عَلى عَدَمِ اتِّخاذِ الكافِرينَ بِطانَةً ، هاتِ تِلْكَ الأَسْبابَ مَعَ الدَّليلِ .

٤ـ بيِّنْ مَعْنى ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ﴾ ، وعَلامَ تَدُلُّ الآيَةُ ؟

٥ـ ذَكَرَتِ الآياتُ ما يَدُلُّ عَلى أَنَّ هَؤلاءِ الذينَ تَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ مِنَ الأَعْداءِ مُنافِقونَ ، هاتِ نصَّ الآيَةِ .

٦ـ لِمَ قيلَ لَهُمْ ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ ؟ وعَلامَ يَدُلُّ ذلِكَ ؟

٧ـ ما الفَرْقُ بَيْنَ المَسِّ وَاللَّمْسِ ؟

٨ـ لِمَ عَبَّرَ سُبْحانَهُ في جانِبِ الحَسَنَةِ بِالمَسِّ ، وَفي جانِبِ السَّيِّئَةِ بِالإصابَةِ ؟

٩ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ أَمْرِ المُؤْمِنينَ بِالصَّبْرِ ؟

١٠ـ قارِنْ بَيْنَ مَوْقِفِ المُؤْمِنينَ مِنَ الكافِرينَ وَمَوْقِفِ الكافِرينَ مِنَ المُؤْمِنينَ كَما جاءَ في آياتِ الدَّرْسِ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبِ الآيَةَ مِنْ سورَةِ الصَّفِ الدَّالَّةَ على إرادَةِ الكافِرينَ إِطْفاءَ نورِ الإسْلامِ .

* * *

الدرس السابع والعشرون

سورةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ السّابِعُ والعِشْرونَ

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

غَدَوْتَ : الغُدْوَةُ ما بَيْنَ طُلوعِ الفَجْرِ وطُلوعِ الشَّمْسِ ، وَالمَعْنى : خَرَجْتَ مُبَكِّراً .

تُبَوِّئُ : تُهَيِّئُ .

مَقاعِدَ : مَواطِنَ وَمَواقِفَ .

هَمَّتْ : حَدَّثَتْ نَفْسَها ، ورَجَّحَتْ فِعْلَ أَمْرٍ ما .

تَفْشَلا : تَضْعُفا وَتَجْبُنا .

وَلِيُّهُما : ناصِرُهُما .

يَتَوَكَّلْ : يَعْتَمِدْ .

أَذِلَّةٌ : لا مَنَعَةَ لَكُمْ وَلا قُوَّة .

يَكْفِيَكُمْ : يَسُدَّ حاجَتَكُمْ .

يُمِدَّكُمْ : يُعطيكُمُ الشَّيْءَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ .

بَلَى : كَلِمَةٌ لِلجَوابِ ، لا تَقَعُ إلاّ بَعْدَ النَّفْيِ ، وَهِيَ تُفيدُ إِثْباتَ ما بَعْدَها .

مِنْ فَوْرِهِمْ : مِنْ ساعَتِهِمْ بِلا إِبْطاءٍ .

مُسَوِّمينَ : مُعَلِّمينَ بِعَلاماتٍ .



التَّفسيرُ :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾ .

إنَّ هَذِهِ الآياتِ تَتَحَدَّثُ عَنِ المَعْرَكَةِ الثّانِيةِ الّتي خاضَها المُسْلِمونَ مَعَ المُشْرِكينَ ، أَلا وَهِيَ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ .

لَقَدْ أَمَرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ المُؤْمِنينَ بِالصَّبْرِ والتَّقوى ، وَلا شَكَّ أَنَّهُمْ أَحْوَجُ ما يَكونونَ لِلصَّبْرِ وَهُمْ يَخوضونَ القِتالَ مَعَ عَدُوِّهِمْ .

بَدَأَتْ هَذِهِ الآياتُ حَديثَها بِتَذْكيرِ المُؤْمِنينَ بِما كانَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، وَما وَقَعَ لَهُمْ لِيَعْتَبِروا وَيَتَّعِظوا وَيَعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ تَعالى ، يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ : اذْكُرْ يا مُحَمَّدُ خُروجَكَ مُبَكِّراً مِنْ بَيْتِكَ ، وَذَلِكَ يَوْمَ السَّبْتِ في السّابعِ مِنْ شَوّالٍ سَنَةَ ثَلاثٍ لِلْهِجْرَةِ ، لَقَدْ خَرَجْتَ مُبَكِّراً لِتُنَظِّمَ المُؤْمِنينَ وتُسَوِّيَ صُفوفَهُمْ وتُهَيِّئَهُمْ لِلْقِتالِ ، وتُقَسِّمَ الجُنودَ حَسَبَ أَمْكِنَتِهِمْ لِلْقِتالِ ، مِنْهُمْ مَنْ كانَ في مَوْضِعِ الرُّماةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كانَ في مَوْضِعِ الفُرْسانِ .

لَقَدِ اهْتَمَّ الرَّسولُ ﷺ بِتَنْظيمِ صُفوفِ المُسْلِمينَ ، وَبِرَسْمِ الخُطَّةِ الحَكيمَةِ الّتي تَكْفُلُ لِلْمُسلِمينَ النَّصْرَ بِمَشيئَةِ اللهِ تَعالى .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : اللهُ سَميعٌ لِما يَقولُ المُؤْمِنونَ لَكَ فيما شاوَرتَهُمْ فيهِ مِنْ مَوْضِعِ لِقائِكَ عَدُوَّكَ وَعَدُوَّهُمْ ، فَقَدْ أَشارَ بَعْضُهُمْ قائِلاً : أُخْرُجْ بِنا إِلَيْهِمْ حَتّى نَلْقاهُمْ خارِجَ المَدينَةِ ، وَأَشارَ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ : لا تَخْرُجْ إِلَيْهِمْ وَأَقِمْ بِالمَدينَةِ حَتّى يَدْخُلوها ، وَاللهُ عَليمٌ سُبْحانَهُ بِما أَخَذْتُمْ بِهِ ، وَعَليمٌ بِأَصْلَحِ الآراءِ وَبِنِيّاتِ أَصْحابِها .

﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

إنَّ اللهَ سَميعٌ عَليمٌ لِما يَجري في تِلْكَ المَعْرَكَةِ ، فَقَدْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنَ المُسْلِمينَ أَنْ تَفْشَلا ، وَهُما طائِفَةُ بَني سَلَمَةَ مِنَ الخَزْرَجِ ، وَطائِفَةُ بَني حارِثَةَ مِنَ الأَوْسِ ، وَقَدْ وَضَعَهُما النَّبِيُّ ﷺ في جَناحَي الجَيْشِ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ المُنافِقينَ بِقِيادَةِ زَعيمِهِمْ عَبدِ اللهِ بنِ أُبَيّ بن سَلولٍ رَجَعَ قَبْلَ المَعْرَكَةِ إلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، وَكانَ مَعَهُ ثُلُثُ الجَيْشِ وَذَلِكَ تَثْبيطاً لِعَزيمَةِ المُسْلِمينَ ، وَلَمّا رَأَتِ الطّائِفتانِ ما كانَ مِنَ انْسِحابِ ثُلُثِ الجَيْشِ ، كَأَنَّ خاطِراً خَطَرَ في نُفوسِهِمْ ، بِأَنْ يَنْسَحِبوا هُمْ مِنَ الجَيْشِ كَذلِكَ ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعالى رَدَّ الطائِفَتَيْنِ عَنْ هَذا الهَمِّ وَثَبَّتَهُمْ في المَعْرَكَةِ ، وَجَعَلَهُمْ يَصْبِرونَ ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ ﴾ أي : مُتَوَلّي أُمورِهِما وَذَلِكَ لأَنَّهُ يَعْلَمُ صِدْقَ إيمانِ الطّائِفَتَيْنِ ، وَلِذلِكَ صَرَفَ الفَشَلَ عَنْهُما

وَثَبَّتَهُما ، فَلَمْ يُجيبا داعِيَ الضَّعْفِ ، نَتيجَةَ رُجوعِ المُنافِقينَ إلى المَدينةِ ، فَقَدْ تَذَكَّروا وِلايَةَ اللهِ لِلمُؤْمِنينَ ، وَهَكذا عَلى المُؤْمِنينَ دائِماً أَنْ يَتَوَكَّلوا عَلى اللهِ تَعالى ، وَيَدْفَعوا ما يُمْكِنُ أَنْ يُصيبَهُمْ مِنْ جَزَعٍ وَخَوْفٍ ، فَهُمْ لَنْ يَنْتَصِروا بِحَوْلِهِمْ وقُوَّتِهِمْ ، وَأَنْصارِهِمْ وَأَعْوانِهِمْ ، وَلكِنْ بِالتَّوَكُّلِ عَلى اللهِ تَعالى والثِّقَةِ فيهِ سُبْحانَهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ بِقُدْرَتِهِ يَنْصُرُ الفِئَةَ القَليلَةَ عَلى الفِئَةِ الكَثيرَةِ كَما كانَ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ .

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

وَيُخاطِبُهُمُ اللهُ تَعالى : إنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ إذا صَبَرْتُمْ وَاتَّقَيْتُمُ اللهَ تَعالى ، فَلَنْ يَضُرَّكُمْ كَيْدُ المُشْرِكينَ شَيْئاً ، وَسَيَنْصُرُكُمُ اللهُ تَعالى كَما نَصَرَكُمْ عَلى أَعْدائِكُمْ يَومَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، وَقَدْ كُنْتُمْ قَليلي العَدَدِ وَالعُدَّةِ ، فَأَظْهَرَكُمُ اللهُ تَعالى عَلى عَدُوِّكُمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ ، وَها أَنْتُمُ اليَوْمَ أَيُّها المُسْلِمونَ أَكْثَرُ عَدَداً مِمّا كُنْتُمْ عَلَيْهِ يَوْمَ بِدْرٍ ، فَإِنْ صَبَرْتُمْ فَإِنَّهُ تَعالى سَيَنْصُرُكُمْ كَذلِكَ في هذِهِ المَعْرَكَةِ .

وَتَأْمُرُ الآياتُ بِتَقْوى اللهِ تَعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : اتَّقوا اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى بِطاعَتِهِ واجْتِنابِ مَحارِمِهِ ، حَتّى تُعِدُّوا أَنْفُسَكُمْ لِشُكْرِ اللهِ تَعالى عَلى ما مَنَّ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ النَّصْرِ عَلى أَعدائِكُمْ وإِظْهارِ دينِكُمْ ، وَلِما هَداكُمْ سُبْحانَهُ إِلَيْهِ مِنَ الحَقِّ ، ومَنْ لَمْ يَتَّقِ اللهَ بِامْتِثالِ أَوامِرِهِ وَاجْتِنابِ نَواهيهِ ، وَتَغلُّبِهِ عَلى هُواهُ وَشَهواتِهِ ، فَلَنْ يَكونَ شاكِراً للهِ تَعالى .

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ .

وَيُذَكِّرُهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بِما كانَ يَوْمَ بَدْرٍ ، ذلِكَ اليَوْمَ الّذي نَصَرَهُمُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى فيهِ ، يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ ذَكِّرْهُمْ ذَلِكَ الوَقْتَ الّذي كُنْتَ تَقولُ لَهُمْ فيهِ : أَلَنْ يَكْفيكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمُ اللهُ بِثَلاثَةِ آلافِ مَلَكٍ يُنَزِّلُها لِتُقاتِلَ مَعَكُمْ .

﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ .

وَقَدْ وَعَدَهُمْ سُبْحانَهُ بِأَنَّهُمْ إِنْ صَبَروا واتَّقَوا وَجاءَكُمُ المُشْرِكونَ مِنْ ساعَتِهِمْ لِيُقاتِلوكُمْ سَيُمِدُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُعَلِّمينَ أَنْفُسَهُمْ أَوْ خَيْلَهُمْ بِعَلاماتٍ مَخْصوصَةٍ ، لِيُعَجِّلَ نَصْرَهُمْ . وَالظّاهِرُ ـ كما قُلنا ـ بِأَنَّ اللهَ تَعالى قَدْ أَمَدَّ المُسْلِمينَ بِالمَلائِكَةِ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، أَمّا في أُحُدٍ ، فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ لَمْ يَمُدَّهُمْ ، فَقَدْ شَرَطَ ذَلِكَ بِالصَّبْرِ ، وَهُمْ في هَذِهِ المَعْرَكَةِ لَمْ يَصْبِروا وَخالَفوا أَمْرَ الرَّسولِ ﷺ .

وَيُبَيِّنُ سُبْحانَهُ وتَعالى بِأَنَّهُ ما جَعَلَ هذا الإمدادَ بِالمَلائِكَةِ لِلمُسْلِمينَ يَوْمَ بَدْرٍ إلاّ بِشارَةً لِقُلوبِكُمْ وَتَطْميناً لِنُفوسِكُمْ ، فَالإِمْدادُ بِالمَلائِكَةِ لَهُ غايَتانِ :

١ـ إدْخالُ السُّرورِ في القُلوبِ .

٢ـ حُصولُ الطُمَأْنينَةِ ، فَإذا عَلِموا أَنَّ اللهَ مُعينُهُمْ وَناصِرُهُمْ فَلَنْ يَجْبُنوا عَنِ القِتالِ حينَئِذٍ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الواجِبُ عَلَيْكُمْ أَيُّها المُسْلِمونَ أَنْ تَتَوَكَّلوا عَلى اللهِ تَعالى ، فَالنَّصْرُ لا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ إلاّ مِنْ عِنْدِهِ تَعالى ، فَهُوَ العَزيزُ الّذي لا يَغْلِبُهُ غالِبٌ ، وَهُوَ الحَكيمُ يُدَبِّرُ الأُمورَ عَلى خَيْرِ السُّنَنِ سُبْحانَهُ وتَعالى . نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أَنْ يَنْصُرَ المُسْلِمينَ في جَميعِ بِقاعِ الأَرْضِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ القائِدُ النَّاجِحُ الّذي يُنَظِّمُ صُفوفَهُ ، وَيَضَعُ لَهُمُ الخُطَطَ المُناسِبَةَ ، وَقَبْلَ ذَلِكَ يُشاوِرُ جُنْدَهُ في جَميعِ أُمورِهِمْ .

٢ـ مِنْ أَسْبابِ النَّصْرِ حُسْنُ التَّوَكُّلِ عَلى اللهِ تَعالى ، وَعَدَمُ الجَزَعِ وَالخَوْفِ ، أَو الانْتِباهِ إلى المُنافِقينَ الذينَ يُثَبِّطونَ عَزائِمَ المُسْلِمينَ .

٣ـ الصَّبْرُ وَتَقْوى اللهِ تَعالى أَمْرانِ مُهِمَّانِ لِيَخوضَ المُسْلِمُ مَعْرَكَتَهُ مَعَ عَدُوِّهِ بِثَباتٍ وَعَزْمٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ مَعانِيَ المُفْرداتِ التّاليةِ :

غَدَوْتَ ، تَفْشَلا ، مُسَوِّمينَ ، هَمَّتْ ، مِنْ فَوْرِهِمْ .

٢ـ متى حَدَثَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ ؟ وَما الّذي فَعَلَهُ النَّبيُّ ﷺ قَبْلَ بَدْءِ المَعْرَكَةِ ؟

٣ـ لِمَ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَاللهُ سَميعٌ عَليمٌ﴾ ؟ وَما المَقْصودُ بِالآيَةِ ؟

٤ـ ما الطَّائِفَتانِ اللّتانِ كانَ يُمْكِنُ أَنْ تَفْشَلا ؟

٥ـ ما الّذي كانَ مِنْ هاتَيْنِ الطّائِفَتَيْنِ ؟

٦ـ لِلمُنافِقينَ دَوْرٌ كَبيرٌ في التَّثْبيطِ مِنْ عَزائِمِ المُسْلِمينَ . وَضِّحْ مَوْقِفَهُمْ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ، وَأَثَرَ ذَلِكَ عَلى المُسْلِمينَ .

٧ـ ما نَتيجَةُ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ؟ وَكيفَ أَمَدَّهُمُ اللهُ بِما يُعينُهُمْ في تِلْكَ المَعْرَكَةِ ؟

٨ـ هَلْ أَمَدَّ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ بِالملائِكَةِ يَوْمَ أُحُدٍ ؟ وَلِمَ ؟

٩ـ ما الغايَةَ مِنْ إمدادِ اللهِ المُسْلِمينَ بِالمَلائِكَةِ ؟

١٠ـ ما الحِكْمَةُ في خَتْمِ آياتِ الإِمْدادِ بِالمَلائِكَةِ بِقَوْلِ اللهِ تَعالى : ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ ؟



١ـ ما الخُطَّةُ الّتي خَطَّها الرَّسولُ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ؟ وَكَيْفَ رَتَّبَ الجَيْشَ ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ كَمْ كانَ عَدَدُ المُسْلِمينَ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ؟ وكَمْ كانَ عَدَدُ المُشْرِكينَ مُقارَنَةً بِعَدَدِهِمْ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ ما الّذي كانَ مِنَ المُسْلِمينَ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ حَتّى سَبَّبَ لَهُمُ الهَزيمَةَ ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٤ـ ارْجِعْ إلى أَحَدِ كُتُبِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، واكْتُبْ مُقارَنَةً بَيْنَ غَزْوَةِ بَدْرٍ وَغَزْوَةِ أُحُدٍ ، وَضَعْ ما تَوَصَّلْتَ إِلَيْهِ في مَجَلَّةِ المَدْرَسَةِ .

* * *

الدرس الثامن والعشرون

سورةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ الثّامِنُ والعِشْرونَ

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

طَرَفاً : طائِفَةً .

يَكْبِتَهُمْ : مِنَ الكَبْتِ ؛ وَهُوَ شِدَّةُ الغَيْظِ وَالإِذْلالِ .

أَضْعافاً : الزِّيادَةَ في الرِّبا .

أُعِدَّتْ : هُيِّئَتْ .

التَّفسيرُ :

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

ذَكَرَتِ الآياتُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ النَّصْرَ لَنْ يَكونَ إلاّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ .

وَجاءَتِ الآياتُ تُبَيِّنُ أَنَّ اللهَ تَعالى فَعَلَ ما فَعَلَ لِيُهْلِكَ طائِفَةً مِنَ المُشْرِكينَ وَيَسْتَأْصِلَهُمْ بِالقَتْلِ . وَقَدْ عَبَّرَتِ الآياتُ عَنِ الطائِفَةِ بِالطَّرَفِ ، لأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إلى المُسْلِمينَ مِنَ الوَسَطِ ، ولأَنَّ طَرَفَ الجَيْشِ إذا تَمَكَّنَ مِنْهُ المُسْلِمونَ ، فَقَدْ تَمَكَّنوا مِنَ الوُصولِ إلى وَسَطِ الجَيْشِ وَاسْتَطاعوا تَوْهينَهُ .

وَفعَلَ كَذَلِكَ سُبْحانَهُ ما فَعَلَ لِيُخْزِيَ طائِفَةً أُخْرَى مِنَ الَّذينَ كَفَروا وَيَغيظَهُمْ ، فَيَرْجِعوا خائِبينَ لا أَمَلَ لَهُمْ في النَّصْرِ ، وَعَبَّرَ هُنا بِالخَيْبَةِ فَقالَ : خائِبينَ ، وَلَمْ يَقُلْ آيِسينَ ، لَقَدْ كانَ المُشْرِكونَ يَقصِدونَ إِطفاءَ نورِ الإِسلامِ ، وَلكِنَّ اللهَ تَعالى خَيَّبَ أَمَلَهُمْ وَفَشَّلَ قَصْدَهُمْ ، وَعادوا مِنْ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، وَقَدْ فَقَدوا الكَثيرينَ مِنْ أَسْيادِهِمْ .

وَيَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبيِّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ فإِنَّ أَمْرَ النّاسِ إِلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، أَمّا أَنْتَ فَوَظيفَتُكَ التَّبليغُ وَالإِرشادُ ، وَالقَضاءُ فيهِمْ بِيَدِ اللهِ تَعالى : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ إِنَّ أَمْرَ هؤلاءِ المُشْرِكينَ بِيَدِ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ نَصَرَ المُسْلِمينَ عَلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ بِالقَتْلِ أَوْ الأَسْرِ ، أَوْ الإِذْلالِ وَالإِغاظَةِ بِسَبَبِ الهَزيمَةِ ، أَوْ يَتوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَسْلَموا ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ سُبْحانَهُ إِنْ أَصَرُّوا عَلى الكُفْرِ ، وَلَيْسَ لَكَ مِنْ أَمْرِ هَؤُلاءِ يا مُحَمَّدُ شَيءٌ فما أَنْتَ إِلاّ بَشيرٌ وَنَذيرٌ .

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾ .

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبيَّ كُسِرَتْ رُباعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَشُجَّ في وَجْهِهِ حَتّى سالَ الدَّمُ على وَجْهِه ، فَقالَ : كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلوا هَذا بِنَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدعوهُمْ إِلى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾(١) .

إِنّ المُؤْمِنينَ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ قَدْ كانوا على ثِقَةٍ مِنْ نَصْرِ اللهِ تَعالى لِنَبيِّهِ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ ، خاصَّةً أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ اللهَ تَعالى قَدْ نَصَرَهُمْ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ على قِلَّةِ عَدَدِهِمْ ، فَوَقَعَ في نُفوسِ الكَثيرينَ أَنَّ نَصْرَهُمْ سَيَكونُ عَنْ طَريقِ الآياتِ الإِلهِيَّةِ ، وَأَنَّ وُجودَ الرَّسولِ فيهِمْ وَدُعاءَهُ على أَعْدائِهِمْ سَيَكونُ كَذلِكَ سَبَباً لِنَصْرِهِمْ ، وَإِذْلالِ عَدُوِّهِمْ ، لِذلِكَ كانَتْ كَلِمَةُ اللهِ تَعالى بِأَنْ نَصَرَ عَدُوَّهُمْ عَلَيْهِمْ ، فَقَدْ أَرادَ سُبْحانَهُ أَنْ يُعَلِّمَ المُسْلِمينَ أَنَّ الرَّسولَ بَشَرٌ لَيْسَ لَهُ مِنْ أَمْرِ العِبادِ وَلا مِنْ أَمْرِ الكَوْنِ شَيْءٌ ، إِنّما هُوَ مُعَلِّمٌ وَأُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فيما يُعَلِّمُهُ ، وَالأَمْرُ كُلُّهُ للهِ تَعالى ، فَلَهُ سُبْحانَهُ مُلْكُ السّماواتِ والأَرْضِ مِنْ مَشْرِقِها إِلى مَغْرِبِها ، يَقْضي فيهِمْ سُبْحانَهُ بِما شاءَ ، وَبِما أَحَبَّ ، وَيَتوبُ على مَنْ يَشاءُ مِنْ خَلْقِهِ ، ويَغْفِرُ لَهُمْ ، وَيُعاقِبُ مَنْ شاءَ وَيَنْتَقِمُ مِنْهُ فَهُوَ سُبْحانَهُ الغَفورُ الرَّحيمُ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ حُكمٍ مِنَ الأَحْكامِ التَّشْريعِيَّةِ ، وَهُوَ حُكْمُ الرِّبا ، فَيَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ : يا أَيُّها الذينَ آمَنوا لا تَأْكُلوا الرِّبا أَضْعافاً مُضاعَفَةً في إِسْلامِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَداكُمُ اللهُ تَعالى كَما

---

(١) أخرجه الإمام مسلم ، حديث رقم ١٧٩١ .

كُنتُمْ تَأكُلونَهُ في جاهِلِيَّتِكُمْ قَبْلَ الإِسْلام ، فَقَدْ كانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَكونُ لَهُ على رَجُلٍ مالٌ إلى أَجَلٍ ، وَعِنْدَما يَحِلُّ الأَجَلُ يَطْلُبُهُ مِنْ صاحِبِهِ ، فَيَقولُ الّذي عَلَيْهِ الدَّيْنُ : أَخِّرْ عَنّي دَيْنَكَ وَأَزيدُكَ على مالِكَ فَيَفْعَلانِ ذلِكَ ، فَذلِكَ هُوَ الرِّبا أَضْعافاً مضاعَفَةً .

لَقَدْ كانَ الكافِرونَ يَسْتَكْثِرونَ مِنْ تَعاطي الرِّبا ، وَلِذا يَنْبَغي على المُؤْمِنينَ مُخالَفَتُهُمْ وذَلِكَ بِاجْتِنابِ هذا الفِعْلِ القَبيحِ ، وَأَنْ يَتَحَرَّوْا الحَلالَ في كُلِّ أُمورِهِمْ ، وَقَدْ خَصَّتِ الآيَةُ بِالنَّهْيِ : الربَا المضاعَفَ لِمُراعاةِ الواقِعِ ، فَلَيْسَ المَقْصودُ أَنَّ الرِّبا لا يَحْرُمُ إلاّ إذا كانَ مُضاعَفاً ، لَقَدْ جاءَ هذا القَيْدُ لِبَيانِ الواقِعِ ، وَلِبيانِ ما كانوا عَلَيْهِ في الجاهِلِيَّةِ مِنَ التَّعامُلِ الفاسِدِ الّذي يُؤَدّي إلى اسْتِئْصالِ المالِ .

ثُمَّ أَمَرَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بِتَقواهُ وَخَشْيَتِهِ فَقالَ : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ اتَّقوا اللهَ فيما نُهيتُمْ عَنْهُ وَمِنْهُ الرِّبا ، وَلا تَكونوا قُساةً على عِبادِ اللهِ المُحتاجينَ ، فَتُحَمِّلوهُمْ ما لا يُطيقونَ ، وَتَسْتَغِلُّوا عَوَزَهُمْ وَحاجَتَهُمْ ، لَعَلَّ ذَلِكَ يَكونُ سَبَبَ فَلاحِكُمْ في دُنْياكُمْ .

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ .

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ابْتَعِدوا عَنْ مُتابَعَةِ المُرابينَ وَتعاطي ما يَتَعاطَوْنَهُ مِنْ أَكْلِ الرِّبا الّذي يُؤَدّي بِكُمْ إلى دُخولِ النّارِ الّتي أَعَدَّها اللهُ للكافِرينَ ، وَفي الآيَةِ زَجْرٌ شَديدٌ ، فَإِنَّ على المُؤْمِنينَ أَنْ يَتَّقوا المَعاصي ، وَهُمْ إِنْ فارَقوا التَّقْوى أُدْخِلوا نارَ جَهَنَّمَ .

رُوِيَ عَنْ أبي حَنيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ كانَ يَقولُ : إِنَّ هَذِهِ أَخْوَفُ آيَةٍ في القُرآنِ ، حَيْثُ تَوَعَّدَ اللهُ المُؤْمِنينَ بِالنّارِ المُعَدَّةِ لِلكافِرينَ كَيْ يَتَّقوهُ في اجْتِنابِ مَحارِمِهِ .

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ بِأَنْ أَمَرَ المُؤْمِنينَ بِطاعَتِهِ وَطاعَةِ رَسولِهِ لِينالوا رَحْمَةَ اللهِ الّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ القادِرُ عَلى إِهْلاكِ العَدُوِّ بِالقَتْلِ وَالأَسْرِ وَالتَعْذيبِ .

٢ـ أَمْرُ الخَلْقِ بِيَدِ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ وَهُوَ سُبْحانَهُ إِنْ شاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شاءَ غَفَرَ لَهُمْ .

٣ـ الرِّبا بِكُلِّ أَنواعِهِ مُحَرَّمٌ تَحْريماً قاطِعاً .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنى ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ ؟

٢ـ لِماذا ذَكَرَتِ الآياتُ الطَرَفَ دونَ غَيْرِهِ ؟

٣ـ لِمَ اختِيرَتْ كَلِمَةُ خائِبينَ دونَ يائِسينَ ؟

٤ـ ما سَبَبُ نُزولِ الآياتِ الكَريمَةِ ؟

٥ـ ما الحِكْمَةُ الّتي أرادَتِ الآياتُ تَوْجيهَ المُسْلِمينَ إِلَيْها في قَضِيَّةِ النَّصْرِ ؟

٦ـ ما الرِّبا الّذي حرَّمَتْهُ الآيَةُ القُرآنيَّةُ ؟ وَلِمَ قُيِّدَ بِقَوْلِهِ : ﴿أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ حَرَّمَ القُرآنُ الرِّبا وَنَفَّرَ مِنْهُ تَنْفيراً شَديداً حَيْثُ شَبَّهَهُ بِمَنْ مَسَّهُ الشَّيْطانُ ؛ هاتِ الآيَةَ القُرآنِيَّةَ الدَّالَّةَ على ذَلِكَ ، واكتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ قَسَّمَ العُلماءُ الرِّبا على قِسْمَيْنِ ، ما هُما ؟ وَما الأَموالُ الّتي يَدْخُلُها الرِّبا ؟ حاوِلْ أَنْ تَكْتُبَ تَقريراً مُخْتَصراً عَنِ الرِّبا .

* * *

الدَّرسُ التَّاسِعُ والعِشرونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ التّاسِعُ والعِشْرونَ

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أُعِدَّتْ : هُيِّئَتْ .

عَرْضُها السَّماواتُ وَالأَرْضُ : كِنايةٌ عَنْ سَعَتِها العَظيمَةِ .

السَّرَّاءِ : الحالِ الّتي تَسُرُّ الإنْسانَ .

الضَّرَّاءِ : الحالِ الّتي تَضُرُّ الإنْسانَ .

التَّفسيرُ :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ .

القُرْآنُ الكَريمُ يَحْرِصُ عَلى حَثِّ المُسْلِمِ دائِماً عَلى العَمَلِ الصَّالِحِ الّذي يوصِلُهُ إلى مَغْفِرَةِ اللهِ تَعالى وَيُدْخِلُهُ في رَحْمَتِهِ ، وَقَدْ جاءَتِ الآياتُ هُنا لِتَحُثَّهُمْ عَلى ذَلِكَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَقولُ لَهُمْ :

بادِروا إلى العَمَلِ الّذي يوصِلُكُمْ إلى مَغْفِرَةِ اللهِ تَعالى ، وَيُدْخِلُكُمْ جَنّاتِهِ الواسِعَةَ الّتي أَعَدَّها اللهُ لِلمُتَّقينَ الَّذينَ صانوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ مَحارِمِ اللهِ ، وَجَعَلوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَها سِتْراً ، وَهَؤُلاءِ هُمُ الَّذينَ يَتَّصِفونَ بِبَعْضِ الصِّفاتِ وَمِنْها :

١ـ الإِنْفاقُ في السَّرّاءِ وَالضَّرّاءِ : أي العُسْرِ وَاليُسْرِ ، وَالمَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ ، فَهُمْ يُنْفِقونَ عَلى الرُّغْمِ مِنْ قِلَّةِ اليَدِ ، وَهَذا هُوَ الأَجْرُ العَظيمُ ، وَهَذِهِ هِيَ المَنْزِلَةُ الرَّفيعَةُ ، أَنْ يُنْفِقَ المُنْفِقُ مَعَ الحاجَةِ المُلِحَّةِ لِلمالِ .

وَقَدْ جاءَ في الحَديثِ الشَّريفِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ : (سَبَقَ دِرْهَمٌ مائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، قالوا يا رَسولَ اللهِ كَيْفَ يَسْبِقُ دِرْهَمٌ مائَةَ أَلْفٍ ، قالَ : رَجُلٌ لَهُ دِرْهَمانِ فَأَخَذَ أَحَدَهُما فَتَصَدَّقَ بِهِ ، وَآخَرُ لَهُ دَراهِمُ كَثيرَةٌ فَأَخَذَ مِنْ عَرَضِهِ مائَةَ أَلْفٍ)[١] .

٢ـ كَظْمُ الغَيْظِ : وَمَعْناهُ أَنْ يَكْتُمَ الإِنْسانُ غَيْظَهُ وَأَنْ يُطْفِيءَ غَضَبَهُ ، وَأَنْ لا يَتْرُكَ في قَلْبِهِ شَيْئاً مِنَ الحِقْدِ عَلى أَحَدٍ . قالَ ﷺ : (مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ يَقْدِرُ عَلى إِنْفاذِهِ مَلأَ اللهُ جَوْفَهُ أَمْناً وَإِيماناً)[٢] ، وَقالَ : ما تَجَرَّعَ عَبْدٌ مِنْ جُرْعَةٍ أَفْضَلَ مِنْ أَجْرِ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَها ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ[٣] .

٣ـ العَفْوُ عَنِ النّاسِ : أَنْ يَعْفوَ الإِنْسانُ عَمَّنْ أَساءَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ يَطْمَعُ في عَفْوِ اللهِ تَبارَكَ وتَعالى ، وَقَدْ حَثَّ القُرْآنُ الكَريمُ والسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ عَلى العَفْوِ ، اقْرأ هذا التَّوْجيهَ القُرْآنيَّ لأَبي بَكْرٍ الصِّدّيقِ ، وَقَدْ كانَ يُنْفِقُ عَلى مِسْطَحٍ ، وَلَمّا اشْتَرَكَ في حادِثَةِ الإِفْكِ أَرادَ أَبو بَكْرٍ الصِّدّيقُ أَنْ يَمْتَنِعَ عَنِ الإِنْفاقِ عَلَيْهِ وَيَقْطَعَ صِلَتَهُ عَنْهُ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالى قُرْآناً لِيَكونَ مَوْعِظَةً لِلمُسْلِمينَ جَميعاً ، قالَ تَعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] .

فَلَمّا نَزَلَتْ قالَ أَبو بَكْرٍ الصِّدّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : عَفَوْنا ، عَفَوْنا ، وَأَعادَ الصَّدَقَةَ لِقَريبِهِ .

وَقَدْ جاءَ رَجُلٌ إِلى الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَقالَ : يا رَسولَ اللهِ ، إِنَّ لِيَ قَرابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعونَني ، أُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسيئونَ إِلَيَّ ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلونَ عَلَيَّ ، قالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : (لَئِنْ كُنْتَ كَما قُلْتَ فَكَأَنَّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ ، وَلا يَزالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهيرٌ مُعينٌ عَلَيْهِمْ ما دُمْتَ عَلى ذَلِكَ)[٤] . وَمَعْنَى تُسِفُّهُمُ المَلَّ ، أي : كَأَنَّكَ تُطْعِمُهُمْ رَماداً حارّاً ، فَهُوَ تَشْبيهٌ لِما يَلْحَقُهُمْ مِنَ الأَلَمِ بِما يَلْحَقُ مَنْ يَأْكُلُ الرَّمادَ الحارَّ .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ، كتاب الزكاة (١/ ٤١٦) وقال على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

(٢) رواه الترمذي : كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في كظم الغيظ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ١٢٨) .

(٤) أخرجه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة ، باب الرحم وتحريم قطعها ، حديث رقم ٢٥٥٨ .

وَقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ذَلِكَ لأَنَّ كَظْمَ الغَيْظِ وَالعَفْوَ عَنِ النّاسِ هُوَ غَايَةُ الإِحْسانِ .

٤ـ الاسْتِغْفارُ لِلذُّنوبِ .

٥ـ عَدَمُ الإِصْرارِ عَلى الفاحِشَةِ .

وَهاتانِ الصِّفَتانِ في قَوْلِهِ تَعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ .

وَفي هاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ الكَريمَتَيْنِ حِكْمَةٌ وَبَيانٌ ، فَرُبَّما يَظُنُّ بَعْضُ النّاسِ أَنَّ التَّقِيَّ مَعْصومٌ عَنْ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ خَطأٌ ، وَأَنْ تَكونَ مِنْهُ زَلَّةٌ ، وَلَكِنَّ العِصْمَةَ لِلأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ فَالتَّقِيُّ مَهْما كانَتْ دَرَجَةُ تَقْواهُ قَدْ يَزِلُّ وَقَدْ يُخْطِىءُ ، وفي الحَديثِ الشَّريفِ : (والّذي نَفْسي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبونَ ، فَيَسْتَغْفِرونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ) فالتَّقِيُّ قَدْ يَزِلُّ وَلَكِنَّهُ بِمُجَرَّدِ زَلَّتِهِ يَذْكُرُ جَلالَ اللهِ وَعَظَمَتَهُ ، وَيَذْكُرُ عَفْوَهُ وَمَغْفِرَتَهُ ، فَيَسْتَغْفِرُ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَيَقولُ اللهُ : « وَلَقَدْ أذنَبَ عَبْدي ولقدْ عَرَفَ أنَّ لَهُ ربّاً يَغفِرُ الذَّنْبَ فيغفِرُ اللهُ له » .

وَمِنْ صِفاتِ المُتَّقي أَنَّهُ لا يُصِرُّ على ذَنْبِهِ ، فَهُوَ إذا وَسْوَسَ لَهُ الشَّيْطانُ لا يُمَكِّنُ الشَّيْطانَ مِنْ أَنْ يَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِ ، بَلْ تَذَكَّرَ قَوْلَ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ .

أُولئِكَ المُتَّقونَ المُتَّصِفونَ بِتِلْكَ الصِّفاتِ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَلَهُمْ ثَوابٌ عَظيمٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَهُمْ جَنّاتٌ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ، وَإِنَّ هذا الجَزاءَ إِنَّما هُوَ على تِلْكَ الأَعْمالِ الّتي مِنْها ما هُوَ نافِعٌ لِلأُمَّةِ كَإِنْفاقِ المالِ ، وَمِنْها ما هُوَ إِصْلاحٌ لِنَفْسِ الإِنْسانِ .

فَقَدْ ذُكِرَتْ هَذِهِ الصِّفاتُ في سِياقِ غَزْوَةِ أُحُدٍ الّتي كانَتْ فيها دُروسٌ كَثيرَةٌ لِلْمُسْلِمينَ ، فَذَكَرَ سُبْحانَهُ الإِنْفاقَ في السَّرّاءِ وَالضَّرّاءِ ، وَذَلِكَ لِحاجَةِ المُجاهِدينَ إِلَيْهِ ، وَذُكِرَ فيها كَظْمُ الغَيْظِ ، وَالعَفْوُ عَنِ النّاسِ ، وَذَلِكَ لأَنَّ المُسْلِمينَ أُصيبوا في أُحُدٍ ، وَقَدْ أَسْلَمَ فيما بَعْدُ كَثيرٌ مِمَّنْ حارَبَ المُسْلِمينَ في هَذِهِ الغَزْوَةِ ، فَكانَ كَظْمُ الغَيْظِ وَالعَفْوُ عَنِ النّاسِ أَمْراً لابُدَّ مِنْهُ ، وَذُكِرَ فيها الاسْتِغْفارُ مِنَ الذَّنْبِ ، وَقَدْ كانَ مِنَ المُسْلِمينَ في هَذِهِ الغَزْوَةِ مُخالَفَةٌ لأَمْرِ الرَّسولِ ﷺ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنْ أَهَمِّ عَلاماتِ التَّقْوى ، بَذْلُ المالِ في السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ .

٢ـ كَظْمُ الغَيْظِ وَالعَفْوُ عَنْ النَّاسِ غايَةُ الإِحْسانِ .

٣ـ المُتَّقي مَهْما بَلَغَتْ دَرَجَةُ تَقْواهُ فَهُوَ لَيْسَ مَعْصوماً عَنِ الخَطَأ ، وَلَكِنَّهُ يَنْبَغي أَنْ لا يُمَكِّنَ الشَّيْطانَ مِنْ نَفْسِهِ فَيُصِرُّ عَلى خَطَئِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنَى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ ؟ وَما المَقْصودُ بِالجَنَّةِ الّتي عَرْضُها السَّماواتُ والأَرْضُ ؟

٢ـ كَيْفَ يُنْفِقُ الإِنْسانُ في السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ؟

٣ـ ما الحِكْمَةُ مِنَ اتِّصافِ الإِنْسانِ بِكَظْمِ الغَيْظِ ؟

٤ـ لِمَ خُتِمَتِ الآيَةُ المُتَحَدِّثَةُ عَنْ كَظْمِ الغَيْظِ وَالعَفْوِ عَنِ النَّاسِ بِقَوْلِهِ ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ؟

٥ـ تَحَدَّثْ عَنْ صِفَتَي المُتَّقينَ الرَّابِعَةِ والخامِسَةِ ، وما هُما ؟ وَما المَقْصودُ بِهِما ؟

نَشاطٌ :

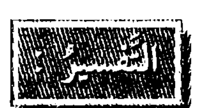
ـ ما المَقْصودُ بِحادِثَةِ الإِفْكِ ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الثَّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمرانَ ـ القِسْمُ الثَّلاثونَ

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾



خَلَتْ : مَضَتْ .

سُنَنٌ : وَاحِدُها سُنَّةٌ وَهِيَ الطَّرِيقَةُ .

تَهِنوا : تَضْعُفوا ، وَالوَهَنُ هُوَ الضَّعْفُ .

تَحْزَنوا : مِنَ الحُزْنِ وَهُوَ أَلَمٌ يَعْرِضُ لِلنَّفْسِ إِذا فَقَدَتْ ما تُحِبُّ .

قَرْحٌ : ما يُصيبُ الإِنْسانَ مِنْ جِراحٍ .

نُداوِلُها : نُصَرِّفُها ، وَنَجْعَلُها مُتَنَقِّلَةً بَيْنَ النَّاسِ .

وَلِيُمَحِّصَ : كَيْ يُخَلِّصَ الإِنْسانَ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ .

لِيَمْحَقَ : المَحْقُ هُوَ النُّقْصانُ .



﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ .

إنَّ الخَلْقَ كُلَّهُمْ يَجْرونَ في هذا الكَوْنِ وِفْقَ سُنَنِ اللهِ الثَّابِتَةِ الَّتي اقْتَضَتْها الحِكْمَةُ الإلهيَّةُ ، وَمَصالِحُ العِبادِ ، وَمِنْ هَذِهِ السُّنَنِ ما قَدَّرَهُ سُبْحانَهُ وَتعالى مِنْ نَصْرٍ وَهَزيمَةٍ ، وَعِزَّةٍ وَذِلَّةٍ ، وَعِقابٍ وَثوابٍ ، فالحَقُّ يُصارِعُ الباطِلَ دائماً ، فَيَنْتَصِرُ أَحَدُهُما على الآخَرِ ، بِما سَنَّهُ اللهُ تَعالى مِنْ سُنَّةِ النَّصْرِ وَالهَزيمَةِ ، فَمَنْ وَافَقَ سُنَّةَ اللهِ في تَحْقيقِ النَّصْرِ نَصَرَهُ اللهُ ، وَمَنْ لَمْ يَسِرْ عَلَيْها خَسِرَ ، وَلِذَلِكَ وَجَدْنا المُسْلِمينَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ يَنْهَزِمونَ بَعْدَ أَنْ أَحْرَزوا نَصْراً على المُشْرِكينَ ، وَيَصِلُ المُشْرِكونَ إلى الرَّسولِ ﷺ فَيَشُجُّوا رَأْسَهُ وَيَكْسِروا سِنَّهُ ، وَيُرْدوهُ في حُفْرَةٍ ، وَذَلِكَ لأَنَّ المُسْلِمينَ خالَفوا سُنَنَ اللهِ تَعالى ، الَّتي تَقْضي الاتِّكالَ على اللهِ تَعالى وَالاعْتِمادَ عَلَيْهِ في مَعْرَكَتِهِمْ مَعَ المُشْرِكينَ ، وَلَكِنَّهُمْ غَرَّتْهُمُ الغَنائِمُ والأَمْوالُ ، وَخالَفوا أَمْرَ الرَّسولِ ﷺ .

وَيُبَيِّنُ اللهُ لِلمُسْلِمينَ أَنَّ مَشيئَتَهُ اقْتَضَتْ أَنْ تَكونَ العاقِبَةُ لِلمُؤْمِنينَ الصَّادِقينَ وَأَنْ يُمْهِلَ الكافِرينَ ثُمَّ يَأْخُذَهُمْ أَخْذَ عَزيزٍ مُقْتَدِرٍ ، وَعَلى المُؤْمِنينَ أَنْ يَسيروا في الأَرْضِ مُتَأَمِّلينَ مُعْتَبِرينَ مِمَّا حَدَثَ لِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ المُكَذِّبينَ ، الَّذينَ مَكَّنَ اللهُ لَهُمْ في الأَرْضِ ، وَمَنَحَهُمُ الكَثيرَ مِنْ نِعَمِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَشْكُروهُ عَلَيْها ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بِسَبَبِ طُغْيانِهِمْ .

وَأَنْتُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ إذا سِرْتُمْ في طَريقِ الضَّالِّينَ مِمَّنْ قَبْلَكُمْ ، وَحِدْتُمْ عَنْ سُنَنِهِ ، فَإِنَّ عاقِبَتَكُمْ سَتَكونُ وَخيمَةً مِثْلَ عاقِبَةِ مَنْ قَبْلَكُمْ .

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ .

إنَّ هَذا الَّذي ذَكَرَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، بَيانٌ لِلنَّاسِ كافَّةً ، وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلمُتَّقينَ مِنْهُمْ خاصَّةً ، وَما ذَكَرَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى هو وَعْدُهُ وَوَعيدُهُ وَأَوامِرُهُ وَنَواهيهِ ، وَحَضُّهُ على الاعْتِبارِ بِأَحْوالِ النَّاسِ ، إنَّ هَذا كُلَّهُ بَيانٌ لِلنَّاسِ يَهْديهِمْ إلى السَّعادَةِ والخَيْرِ ، وَفيهِ مَوْعِظَةٌ ، أي : تَخْويفٌ وَزَجْرٌ لِلمُتَّقينَ الَّذينَ يَتَّعِظونَ وَيَعْتَبِرونَ وَيَنْتَفِعونَ بالآياتِ .

لَقَدْ ذَكَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى هَذِهِ الآيَةَ رَدّاً عَلى المُشْرِكينَ والمُنافِقينَ الَّذينَ قالوا : لَوْ كانَ مُحَمَّدٌ رَسولاً حَقّاً لَما هُزِمَ في المَعْرَكَةِ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَعْزِيَةِ المُسْلِمينَ عَمّا أَصابَهُمْ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ مِنْ هَزيمَةٍ ، فَقالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحۡزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ .

لا تَضْعُفوا أَيُّها المُسْلِمونَ عَنِ القِتالِ بِسَبَبِ ما أَصابَكُمْ مِنْ جُروحٍ وَفَشَلٍ في المَعْرَكَةِ ، وَلا تَحْزَنوا على مَنْ فُقِدَ مِنْكُمْ في هذا اليَوْمِ ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ لِلوَهَنِ وَالحُزْنِ أَنْ يَلْحَقَ بِكُمْ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ بِإِذْنِ اللهِ ، فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعالى أَنَّ النَّصْرَ دائِماً لِلْمُتَّقينَ ، فَهُمْ أَجْدَرُ بِذَلِكَ مِنَ الكافِرينَ ، فَالمُسْلِمونَ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ هُمُ الأَعْلَوْنَ ما داموا مُطَبِّقينَ لِشَرْعِ اللهِ تَعالى .

لَقَدْ رَبَطَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَمْرَ العُلُوِّ لِلْمُسْلِمينَ بِقَوْلِهِ ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ ، وَهذا دَليلٌ على أَنَّ العُلُوَّ لَنْ يَكونَ إِلاَّ بالإِيمانِ باللهِ تَعالى وَحُسْنِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالعَمَلِ بِأَوامِرِهِ ، وَاجْتِنابِ نَواهيهِ وَها نَحْنُ نَرى حالَ المُسْلِمينَ اليَوْمَ مِنَ الذُّلِّ وَالمَهانَةِ والتَّبَعِيَّةِ لِغَيْرِهِمْ . وَكُلُّ هذا بِسَبَبِ تَرْكِهِمْ لِدينِ اللهِ .

وَتُسَلِّي الآياتُ المُؤْمِنينَ فَتَقولُ لَهُمْ :

﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٌ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٌ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ .

إِنْ كُنْتُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَصابَتْكُمُ الجِراحُ مِنَ المُشْرِكينَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، فَقَدْ مَسَّتْهُمُ الجِراحُ هُمْ كَذلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَقَدْ كانوا على باطِلِهِم ، وَمَعَ ذَلِكَ ما وَهَنوا وَما ضَعُفوا وَعادوا الآنَ لِقِتالِكُمْ ، فَأَنْتُمْ أَيُّها المُسْلِمونَ أَوْلَى مِنْهُمْ بِأَنْ لا تَهِنوا ولا تَحْزَنوا ، وَأَنْ تَكونَ عَزيمَتُكُمْ صادِقَةً .

﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى مُداوَلَةُ الأَيّامِ ، أي تَصْريفُها بَيْنَ النَّاسِ ، فَتَكونُ الغَلَبَةُ تارَةً لِدَوْلَةٍ ، وَالهَزيمَةُ لأُخْرَى ، وَتارَةً تَكونُ العَكْسَ ، وَالغَلَبَةُ لا تَكونُ إِلاَّ لِمَنْ عَرَفَ أَسْبابَ النَّجاحِ وَعَمِلَ بِها كَالإِنْفاقِ ، وَعَدَمِ التَّنازُعِ ، وَقُوَّةِ العَزيمَةِ ، وَأَخْذِ الأُهْبَةِ والاسْتِعْدادِ ، فَعَلَيْكُمْ أَيُّها المُسْلِمونَ أَنْ تَقوموا بِتِلْكَ الأُمورِ حَتَّى تَظْفَروا وَتَفوزوا .

وَما أَصابَ المُسْلِمينَ يَوْمَ أُحُدٍ كانَ لأُمورٍ أَرادَها اللهُ تَعالى ، وَمِنْ هَذِهِ الأُمورِ :

١ـ لِيُمَيِّزَ قَوِيَّ الإِيمانِ مِنَ الضَّعيفِ ، وَلِيَثْبُتَ وَلِيَتَحَقَّقَ صِدْقُ إِيمانِ الَّذينَ آمَنوا ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ ﴾ أي : لِيُكَرِّمَ سُبْحانَهُ وتعالى بَعْضاً مِنْكُمْ بِالشَّهادَةِ وَالقَتْلِ في سَبيلِ اللهِ ، حَيْثُ تَمَنَّى بَعْضُ المُسْلِمينَ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ الاسْتِشْهادَ في سَبيلِ اللهِ ، وَفي هذا حَثٌّ لِلْمُسْلِمينَ عَلى أَنْ يَكونوا مِثالاً لِغَيْرِهِمْ في التَّضْحِيَةِ بِالنَّفْسِ مِنْ أَجْلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وَالدِّفاعِ عَنِ الحَقِّ .

٢ـ إِنَّ الشُّهَداءَ هُمُ الَّذينَ أَخْلَصوا في إِيمانِهِمْ وَأَعْمالِهِمْ للهِ تَعالى ، وَلَمْ يَظْلِموا أَنْفُسَهُمْ بِمُخالَفَةِ أَوامِرِ اللهِ تَعالى أَوْ الخُروجِ عَنْ سُنَّتِهِ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ لا يَصْطَفي للشَّهادَةِ مَنْ كانَ مِنَ الظَّالِمينَ .

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ .

٣ـ وَقَدْ جعَلَ اللهُ الأَيامَ دُولةً بَيْنَ النَّاسِ لِيَتَميَّزَ المُؤْمِنونَ الصَّادِقونَ مِنَ المُنافِقينَ وَتَظْهَرَ نُفُوسُ بَعضِ ضِعَافِ المُؤْمِنينَ ، ويُصَفِّيها مِنْ ذُنوبِها . إنَّ الشَّدائِدَ التي تُصيبُ الإنْسانَ تُمَحِّصُهُ وَتُخلِّصُه مِنَ الخَبَثِ وَالرَّذائِلِ وَالذُّنوبِ ، وهذا ما كانَ بِالنِّسْبَةِ لِلمُسْلِمينَ بَعْدَ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ، فَقَدْ مَحَّصَهُمُ اللهُ تعالى فَعَلِموا أَنَّهُمْ ما خُلِقوا إلاّ لِيَكونوا أَكْثَرَ النّاسِ جِدّاً في العَمَلِ ، وَأَعْظَمَهُمْ تَفانِياً في تَطْبيقِ الوَاجباتِ الشَّرعِيَّةِ ، وَلِذلِكَ أَمَرَ الرّسولُ ﷺ بَعْدَ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ بِتَتَبُّعِ المُشْرِكينَ ، وَلكِنْ أَمَرَ بِأَلاّ يَتْبَعَهُمْ إلاّ مَنْ شَهِدَ غَزْوَةَ أُحُدٍ . وَامْتَثَلَ المُسْلِمونَ بِقُلوبٍ مُطْمَئِنةٍ وَعَزيمةٍ صادِقَةٍ عَلى ما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ جِراحاتٍ عَظيمَةٍ ، فَلَحِقوا بِالمُشْرِكينَ إِلى مِنْطَقَةٍ تُسمى (حَمْراءَ الأَسَدِ) .

٤ـ ﴿ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أي : يَجْعَلُ سُبْحانَهُ اليَأْسَ مُسَيْطِراً عَلى قُلُوبِ الكافِرينَ ، فَلاَ يَبْقَى لَدَيْهِمْ شَجَاعَةٌ وَقُوَّةٌ ، فَيُهْلِكُهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى وَيَسْتَأْصِلُهُمْ شَيْئاً فَشَيْئاً .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ أَنَّ طَرِيقَ الجَنَّةِ مَحْفوفٌ بِالمَكارِهِ ، وَأَنَّ الوُصولَ إلى رِضا اللهِ تَعالى يَحْتاجُ إلى جِهادٍ عَظيمٍ وَصَبْرٍ طَويلٍ .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِلمُسْلِمينَ : أَعَلِمْتُمْ أَنَّ للهِ تَعالى سُنَناً في النَّصْرِ وَالهَزيمَةِ ، وَأَنَّ الأَيّامَ دُوَلٌ بَيْنَكُمْ ، وَأَنّ الوُصولَ إلى رِضا اللهِ يَحْتاجُ إلى صَبْرٍ وَجِهادٍ ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّكُمْ تَدْخُلونَ الجَنَّةَ مِنْ غَيْرِ جِهادٍ وَلا صَبْرٍ طَويلٍ شاقٍّ ؟ فَفي الآيةِ اسْتِفْهامٌ مُقَدَّرٌ جاءَ لِلتَّبْكيتِ .

إنَّ دُخولَ الجَنَّةِ مَحْفوفٌ بِالمَكارِهِ فَهُوَ يَحْتاجُ إلى جِهادِ النَّفْسِ عَلى أَداءِ حُقوقِ اللهِ وَحُقوقِ العِبادِ ، وَجِهادِها لِتَبْليغِ دَعْوَةِ اللهِ تَعالى ، وَيَحْتاجُ إلى جِهادِ النَّفْسِ لأَجْلِ التَّخَلُّصِ مِنَ الشُّحِ وَذَلِكَ بِبَذْلِ المالِ في سَبيلِ اللهِ ، وَيَحْتاجُ إلى جِهادِ أَعْداءِ اللهِ تَعالى لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ، وَلِتَطْهيرِ الأَرْضِ مِنْ دَنَسِ المُشْرِكينَ . وَهذا كُلُّهُ لا يَكونُ إلاّ بِالصَّبْرِ حَتّى يَتَميَّزَ الصّابِرونَ في جِهادِهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَالصَّبرُ هُوَ عُدَّةُ المُجاهِدِ لِيَصِلَ إلى ما يُريدُ . وَفي مَعْرَكَةِ أُحُدٍ كانَ عَدمُ صَبْرِ الرُّماةِ ، وَمُسارَعَتُهُمْ إلى جَمْعِ الغَنائِمِ مِنْ أَهَمِّ الأَسْبابِ الّتي أَدَّتْ إلى هَزيمَةِ المُسْلِمينَ .

وَتُذَكِّرُ الآياتُ المُسْلِمينَ بما كانَ مِنهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، حَيْثُ تَمنَّى كَثيرٌ مِنْهُمُ الاسْتِشْهادَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، فَقَدْ كَانوا يَقولونَ : لَئِنْ لَقِينا مَعَ النَّبيِّ ﷺ المُشْرِكينَ لَنَفْعَلَنَّ ، فابْتُلوا بِذَلِكَ في أُحُدٍ . وَلَمّا كانَ يَوْمُ أُحُدٍ تَولَّى مِنْهُمْ مَنْ تَولّى فَعاتَبَهُمُ اللهُ تَعالى .

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ .

لَقَدْ جاءَتِ الآياتُ لِتَقولَ لِلْمُؤْمِنينَ إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ المَوْتَ قَبْلَ أَنْ تُلاقوا القَوْمَ

في المَيْدانِ ، فها أَنْتُمْ أُوْلاءِ قَدْ رَأَيتُمْ ما كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهُ ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرونَ إِلَيْهِ لا تَغْفَلونَ عَنْهُ ، فَما بالُكُمْ دُهِشْتُمْ عِنْدَما وَقَعَ المَوْتُ فيكُمْ ، وَما بالُكُمْ تَحْزنونَ وَتَضْعُفونَ عِنْدَ لِقاءِ ما كُنْتُمْ تُحِبُّونَ وَتَتَمَنَّوْنَ ، وَمَنْ تَمَنَّى الشَّيْءَ وَسَعَى إِلَيْهِ لا يَنْبَغي أَنْ يُحْزِنَهُ لِقاؤُهُ وَيَسوءَهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ الهادِيَةُ لا يَسْتَفيدُ مِنها إلاّ القَلْبُ المُؤْمِنُ ، وَالعِظَةُ البالِغَةُ لا يَنْتَفِعُ بِها إلاّ القَلْبُ الخاشِعُ .

٢ـ عَدَمُ الحُزْنِ عَلى ما فاتَ ، لأَنَّهُ يُفْقِدُ الإِنْسانَ الكَثيرَ مِنْ عَزيمَتِهِ ، وَعَلى الإِنْسانِ أَنْ يُعالِجَ نَفْسَهُ لِكَيْ لا يَحْزَنَ .

٣ـ الأَخْذُ بِالأُهْبَةِ وَالاسْتِعْدادِ مَعَ العَزيمَةِ الصَّادِقَةِ وَالحَزْمِ ، وَالتَّوَكُّلُ عَلى اللهِ يَقودُ المُسْلِمينَ إِلى النَّصْرِ وَالظَّفَرِ بِما يُريدونَ .

٤ـ الظُّلْمُ لا تَدومُ لَهُ سُلْطَةٌ وَلا تَثْبُتُ لَهُ دَوْلَةٌ ، بَلْ إِنَّ دَوْلَةَ الظُّلْمِ وَالكُفْرِ سَريعَةُ الزَّوالِ بِإِذْنِ اللهِ .

٥ـ الطَّريقُ إِلى الجَنَّةِ لَيْسَ سَهْلاً ، وَإِنَّما هُوَ طَريقٌ مَحْفوفٌ بِالمَكارِهِ ، وَلا يَصِلُ إِلى غايَتِهِ إِلاَّ الَّذين جاهَدوا وَصَبروا وَصابَروا .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ أَحْداثُ غَزْوَةِ أُحُدٍ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللهِ في الكَوْنِ الّتي لا تَتَخَلَّفُ . بَيِّنِ المَقْصودَ بِذَلِكَ .

٢ـ ما الّذي حَدَثَ بَعْدَ انْتِهاءِ غَزْوَةِ أُحُدٍ ؟ هَلْ عادَ المُسْلِمونَ إِلى بُيوتِهِمْ ؟

٣ـ إِلامَ دَعا الرَّسولُ ﷺ صَحابَتَهُ بَعْدَ المَعْرَكَةِ ؟

٤ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ مَجيءِ هَذِهِ الآيَةِ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بِالوَهَنِ وَالحُزْنِ ؟ وَلِماذا نَهى اللهُ المُسْلِمينَ عَنْهُما ؟

٦ـ ما الّذي تَسْتَفيدُهُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿وَتِلْكَ الأَيّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النّاسِ﴾ ؟

٧ـ لِماذا جَعَلَ اللهُ الأَيّامَ دُوَلاً بَيْنَ النّاسِ ؟

٨ـ ما الطَّريقُ المُؤَدِّي إِلى الجَنَّةِ الَّذي يَجِبُ عَلى المُسْلِمينَ أَنْ يَسْلُكوهُ ؟

نَشاطٌ :

١ـ ما الأَسْبابُ الحَقيقيَّةُ وَراءَ هَزيمَةِ المُسْلِمينَ في المَعْرَكَةِ ؟ اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ هَاتِ أَسْماءَ ثَلاثَةٍ مِنَ الصَّحابَةِ الَّذينَ اسْتُشْهِدوا في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ . اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

* * *

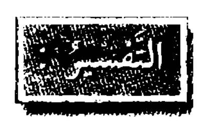
الدَّرسُ الحادي والثَّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الحادي والثَّلاثونَ

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

انْقَلَبْتُمْ على أَعْقابِكُمْ	: رَجَعْتُمْ كُفَّاراً بَعْدَ إِيمانِكُمْ .
مُؤَجَّلاً	: ذَا أَجَلٍ ، وَالأَجَلُ المُدَّةُ المضْروبَةُ لِلشَّيْءِ .
رِبِّيُّونَ	: جَماعاتٌ كَثيرةٌ .
وَهَنوا	: ضَعُفوا .
اسْتَكانوا	: خَضَعوا وَاسْتَسْلَموا .
إِسْرافَنا	: مُجاوَزَتَنا الحَدَّ .



﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

ما زالَتِ الآياتُ تَتَحَدَّثُ مَعَ تِلْكَ الفِئَةِ المُؤْمِنَةِ الَّتي شَهِدَتْ مَعْرَكَةَ أُحُدٍ بِخاصَّةٍ وَمَعَ المُسْلِمينَ بِعامَّةٍ .

لَقَدْ أُشيعَ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ قَدْ قُتِلَ ، وَرَجَعَ أَحَدُ المُشْرِكينَ وَيُدْعى ابْنُ قُمَيْئَةَ ، قائِلاً لِلْمُشْرِكينَ : قَتَلْتُ مُحَمَّداً ، فَوَقَعَ ذلِكَ في قُلوبِ كَثيرٍ مِنَ النَّاسِ ، وَاعتَقَدوا أَنَّهُ قَدْ قُتِلَ حَقّاً عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَحَصَلَ ضَعْفٌ وَوَهَنٌ وَتَأَخُّرٌ بَيْنَ المُسْلِمين عَنِ القِتالِ ، فَجاءَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ لِهَؤُلاءِ أَنَّ مُحَمَّداً لَيْسَ إِلاَّ بَشَراً قَدْ مَضَتِ الرُّسُلُ قَبْلَهُ وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ ، وَذلِكَ مِثْلُ سَيِّدِنا زَكَرِيَّا وَيَحْيى عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَمَا دامَ أَنَّهُ بَشَرٌ فَهُوَ لَنْ يَخْلُدَ في هَذِهِ الأَرْضِ ، وَلِذلِكَ يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى : أَفَإِنْ ماتَ مُحَمَّدٌ كما ماتَ إبراهيمُ ومُوسى وَغَيْرِهِما مِنَ الأَنْبِياءِ ، أَوْ قُتِلَ كَما قُتِلَ يَحْيى وَزَكَرِيَّا عَلَيْهِما الصَّلاةُ وَالسَّلامُ انقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ ، وَإِنَّ مَنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ بَعْدَ وَفاةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَذلِكَ بِأَنْ يَرْجِعَ إِلى ما كانَ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ وَالضَّلالِ ، فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وَلَكِنَّهُ يَضُرُّ نَفْسَهُ بِتَعْريضِها لِلسَّخَطِ وَالعَذابِ ، وَبِحِرْمانِها مِنَ الأَجْرِ وَالثَّوابِ . وَبَعْدَ هذا الوَعيدِ وَعَدَ اللهُ تَعالى الشَّاكِرينَ بِالأَجْرِ العَظيمِ ، وَهؤُلاءِ هُمُ الَّذينَ يَشْكُرونَ اللهَ تَعالى عَلى نِعَمِهِ في السَّراءِ والضَّراءِ .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

وَيُبَيِّنُ سُبحانَهُ وَتَعالى لِلْصَّحابَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الآجالَ بِيَدِ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، فَهُو سُبْحانَهُ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ نَفْسٍ أَجَلاً مُحَدَّداً ، وَوَقْتاً تَموتُ فيهِ لا تَتَعَدَّاهُ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ إِنَّ كَثيراً مِنَ النَّاسِ تَجِدُهُمْ يَخوضونَ الحُروبَ ، وَيَتَعَرَّضونَ لِلأَمْراضِ الخَطيرَةِ ، أَوِ الحَوادِثِ العَظيمَةِ ، وَمَعَ ذلِكَ لا يَموتونَ في أَثْناءِ ذلِكَ ، لأَنَّ لأَعْمارِهِمْ آجالاً ، وَالآجالُ لَها أَقْدارٌ قَدَّرَها اللهُ تَعالى لَها .

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ إِنَّ مَنْ قَصَدَ بِعَمَلِهِ حُظوظَ الدُّنْيا وَمَتاعَها ، أَعْطاهُ اللهُ تَعالى شَيْئاً مِنْ ثَوابِها ، وَمَنْ قَصَدَ ثوابَ الآخِرَةِ أَعْطاهُ اللهُ حَظّاً مِنْ ثَوابِها ، وهَذا هُوَ مَعْنى قَوْلِهِ ﷺ : (إِنَّما الأَعْمالُ بالنِيَّاتِ ، وَإِنَّما لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوى) .

إنَّ الإنْسانَ مُخيَّرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يُريدَ الدُّنْيا ، وَإمَّا أَنْ يُريدَ الآخِرَةَ ، وَلِكُلٍّ مَنْهُما طَريقٌ يُمْكِنُ لِلإنْسانِ أَنْ يَسْلُكَهُ ، قَالَ تَعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ ، [الشورى : ٢٠] ، وَقَدْ عَلَّمَنا سُبحانَهُ وَتَعالى أَن نَقولَ دائِماً : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِه تَعالى : ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ وَهُمُ الّذينَ يَعْرِفونَ نِعَمَ اللهِ تَعالى وَيَشْكُرونَهُ عَلَيْها ، فَها هُوَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ وَأَمْثالُهُ يُشارِكُ في المَعْرَكَةِ وَيُجاهِدُ في سَبيلِ اللهِ وَيَصْبِرُ ، شاكِراً اللهَ على ما أَنْعَمَ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمٍ عَظيمَةٍ وَقُوَّةٍ بَدَنِيَّةٍ ، لِيَكونَ سَبَباً في تَطْهيرِ الأَرْضِ مِنَ الشِّرْكِ .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ .

إنَّ عَلى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، أَنْ تَأْخُذَ العِبْرَةَ مِنَ السَّابِقينَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى قَدْ بَعَثَ أَنْبياءَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكان لَهُمْ أَتْباعٌ قَليلونَ ، وَلَكِنَّهُمْ ما ضَعُفوا وَما اسْتَكانوا بِسَبَبِ الإيمانِ العَميقِ وَالعَزْمِ الوَثيقِ الَّذي كانوا عَلَيْهِ . إِنَّ كَثيرا مِنَ الأَنْبياءِ قاتَلَ مَعَهُمْ مُؤْمِنونَ صادِقونَ في إِيمانِهِمْ مِنْ أَجْلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وَإِعْزازِ دِينِهِ ، وَلَمْ يَهِنوا وَلَمْ يَضْعُفوا أَوْ يَجْبُنوا بِسَبَبِ ما أَصابَهُمْ مِنْ جِراحٍ ، أَوْ بِسَبَبِ ما أَصابَ أَنْبياءَهُمْ مِنْ قَتْلٍ ، لأَنَّ مَا أَصابَهُمْ كانَ في سَبيلِ اللهِ وَسَبيلِ طاعَتِهِ وَإِقامَةِ دِينِهِ ، لَقَدْ نَفَتِ الآياتُ عَنِ أَتْباعِ الأَنْبياءِ ثَلاثَةَ أُمورٍ :

١ـ الوَهَنُ : وَهُوَ الاضْطِرابُ النَّفْسِيُّ وَالهَلَعُ القَلْبِيُّ الَّذي يَسْتَوْلي عَلى الإِنْسانِ فَيُفْقِدهُ عَزيمَتَهُ .

٢ـ الضَّعْفُ : وَهُوَ ضِدُّ القُوَّةِ ، وَهُوَ ناتِجٌ مِنَ الوَهَنِ ، سَواءٌ أَكانَ ضَعْفاً في الجِسْمِ أَمْ في الدِّينِ .

٣ـ الاسْتِكانَةُ : هِيَ الرِّضا بِالذُّلِّ وَالخُضوعِ لِلأَعْداءِ .

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ .

إِنَّ هَؤُلاءِ المُؤْمِنينَ ، لَمْ يوصَفوا بِأَيِّ صِفَةٍ مِن هَذِهِ الصِّفاتِ ، وَلَكِنَّهُمْ كانوا مِنَ الصَّابِرينَ عَلى تَحَمُّلِ المَكارِهِ ، وَالشَّدائِدِ ، وَهَؤلاءِ الصَّابِرونَ هُمُ الَّذينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ تَعالى ؛ لأَنَّهُمْ صَبَروا عَلى آلامِ القِتالِ ، وَمَشاقِّ الطَّاعاتِ وَالتَّكاليفِ الَّتي كَلَّفَهُمُ اللهُ بِها ، إضافَةً إِلى ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ كانوا يَتَوَجَّهونَ بِالدُّعاءِ إِلى اللهِ تَعالى دائِماً ، وَخاصَّةً في مواطِنِ القِتالِ ، بِأَنْ يُهَيِّىءَ لَهُمْ أُموراً ثَلاثَةً :

الأَوَّلُ: أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ذُنوبَهُمْ صَغيرَها وَكَبيرَها ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ «إِسْرافَهُمْ فِي أَمْرِهِمْ»

أَيْ مَا تَجاوَزوهُ مِنَ الحُدودِ الَّتي حَدَّها اللهُ تَعالى لَهُمْ ، وَأَمَرَهُمْ بِعَدَمِ تَجاوُزِها .

الثَّاني : أَنْ يُثَبِّتَ أَقْدامَهُمْ في المَعْرَكَةِ ، وَأَنْ لا يَجْعَلَهُمْ مِنَ الجُبَناءِ الَّذينَ يَفِرّونَ مِنَ المَعْرَكَةِ ، إِذا ما لاقوا العَدُوَّ وَاحْتَدَمَ القِتالُ .

الثَّالِثُ : أَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلى القَوْمِ الكافِرينَ ، بِأَنْ يَجْعَلَ النَّصْرَ لَهُمْ دائِماً عَلى أَعْداءِ هَذا الدِّينِ الَّذينَ جَحَدوا وَحْدانِيَّةَ اللهِ ، وَكَذَّبوا نَبِيَّهُ ، وَضَلُّوا ضَلالاً كَبيراً ، وَهَذِهِ الأُمورُ كُلُّها تَدُلُّ عَلى صِدْقِ هَؤُلاءِ المُقاتِلينَ المُؤْمِنينَ .

وَماذا كانَتْ نَتيجَةُ مَا طَلَبوا مِنَ اللهِ تَعالى ؟ هَلْ أَجابَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ؟ يَقولُ : إِنَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى أَكْرَمَهُمْ بِالخَيْرِ في الدُّنْيا مِنْ نِعْمَةٍ وَإِكْرامٍ وَنَصْرٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ هَذا فَقَطْ ، بَلْ آتاهُمْ ثَوابَ الآخِرَةِ مِنْ مَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ وَإِكْرامٍ بِالجَنَّةِ وَرُؤْيَةِ اللهِ تَعالى ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نَعيمٍ عَظيمٍ ، وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فَإِنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ طَلَبوا مَا طَلَبوا وَصَلوا إِلى دَرَجَةِ الإِحْسانِ ، والإِحْسانُ كَما قالَ الرَّسولُ ﷺ : (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ) نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أَنْ يَجْعَلَنا مِنْ هَؤُلاءِ المُحْسِنينَ الَّذينَ يُحِبُّهُمْ اللهُ رَبُّ العالَمينَ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حَثُّ المُؤْمِنينَ عَلى القِتالِ ، وَتَحْذيرُهُمْ مِنَ الجُبْنِ وَالفِرارِ ، لأَنَّ الجُبْنَ لا يُؤَخِّرُ الحياةَ ، كَما أَنَّ خَوْضَ المَعْرَكَةِ لا يُؤَدِّي إِلى المَوْتِ قَبْلَ حُلولِ الأَجَلِ .

٢ـ الدَّعْوَةُ إِلى الزُّهْدِ في الحَياةِ الدُّنْيا ، وَأَنْ يَجْعَلَ الإِنْسانُ غايَتَهُ ثَوابَ الآخِرَةِ .

٣ـ وَعَدَ اللهُ تَعالى الشَّاكِرينَ لَهُ فَضْلَهُ وَإِحْسانَهُ بِالثَّوابِ العَظيمِ مِنْ نَصْرٍ وَخَيْرٍ وَفيرٍ .

٤ـ عَلى المُؤْمِنينَ أَنْ يَعْتَبِروا بِحالِ السَّابِقينَ الصَّادِقينَ ، وَيَقْتَدوا بِعَمَلِهِمْ ، وَيَقولوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ .



أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّالِيةِ :

١ـ ما سَبَبُ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَمَامُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ. . . . .﴾ ؟

٢ـ بيِّنْ مَوْقِفَ المُسْلِمينَ عِنْدَما أُشيعَ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَدْ قُتِلَ .

٣ـ لَقَدْ وَضَعَتِ الآياتُ الإِنْسانَ أَمامَ خيارَيْنِ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتارَ واحِداً مِنْهُما ، ما هُما ؟

٤ـ مَنْ هُمُ الشّاكِرونَ في الآيَةِ ؟ وَما دَليلُ ذلِكَ ؟

٥ـ ما العِبْرَةُ الَّتي جاءَتِ الآياتُ الكَريمَةُ لإِرْشادِ المُؤْمِنينَ إِلَيْها ؟

٦ـ هُناكَ صِفاتٌ يَنْبَغي أَنْ لا يَتَّصِفَ بِها المُؤْمِنونَ ، ما هِيَ ؟

٧ـ أَعَدَّ اللهُ لِلصّابِرينَ دائِماً وَخاصَّةً في القِتالِ ، أَجْراً عَظيماً ، ما هُوَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَوْقِفَ أَنَسِ بنِ النَّضْرِ يَوْمَ أُحُدٍ بَعْدَ ما أُشيعَ عَنْ قَتْلِ الرّسولِ ﷺ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما قالَهُ خالِدُ بنُ الوَليدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَ مَوْتِهِ .

٣ـ لِماذا رُتِّبَتْ هَذِهِ الأمورُ هَذا التَّرْتيبَ : طَلَبُ المَغْفِرَةِ ، ثُمَّ التَّثَبُّتُ ، ثُمَّ النَّصْرُ ؟ حاوِلْ أَنْ تَسْتَعينَ بِأَحَدِ التَّفاسيرِ لِتَعْرِفَ الإِجابَةَ .

* * *

الدَّرسُ الثَّاني والثَّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الثَّاني والثَّلاثونَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ

مَوْلاكُمْ : ناصِرُكُمْ وَمُعينُكُمْ .

الرُّعْبَ : شِدَّةَ الخَوْفِ الَّتي تَمْلأُ القَلْبَ .

سُلْطاناً : حُجَّةً وَبُرْهاناً .

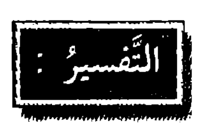
مَثْوى : مَكانٌ يَكونُ مَقَرَّ الإِنْسانِ .

تَحُسُّونَهُمْ : تَسْتَأْصِلونَهُمْ بِالقَتْلِ .

بِإِذْنِهِ : بِعَوْنِهِ وَتَأْييدِهِ .

فَشِلْتُمْ : ضَعُفْتُمْ في أَمْرِ الحَرْبِ .

عَفا عَنْكُمْ : تابَ عَلَيْكُمْ .



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ .

لَقَدْ حَثَّتِ الآياتُ السَّابِقَةُ المُؤْمِنينَ عَلى الاقْتِداءِ بِأَتْباعِ الأَنْبياءِ السَّابقينَ الصَّادِقينَ في إيمانِهِمْ ، وَجاءَتِ الآياتُ هنا لِتَنْهاهُم عَنْ مُتابَعَةِ الكافِرينَ ، وَذَلِكَ لأَنَّ الإيمانَ وَالكُفْرَ نَقيضانِ لا يَجْتَمِعانِ .

يَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ إِنْ تُطيعوا الَّذينَ كَفَروا وَجَحَدوا نُبُوَّةَ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ عَلَيْه وَعلى آلِهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، يُرْجِعوكُمْ إِلى ما كُنْتُمْ عَلَيْهِ قَبْلَ الإِسْلامِ مِنْ ضَلالٍ وَكُفْرٍ ، أَوْ يَرُدُّوكُمْ إِلى الحالَةِ الَّتي كُنْتُمْ عَلَيْها مِنَ الضَّعْفِ وَالهَوانِ ، إِنَّكُمْ إِنْ تَفْعَلوا هَذا تَرْجِعوا خاسِرينَ لِخَيْرَيِ الدُّنْيا والآخِرَةِ ، أَمَّا خُسرانُ الدُّنيا فَهُوَ بِسَبَبِ خُضوعِكُمْ لِلكافِرينَ وَأَمَّا خُسْرانُ الآخِرَةِ فَبما يُصيبُكُمْ مِنَ العَذابِ الأَبَدِيِّ فِي النَّارِ .

وَيُؤَكِّدُ سُبْحانَهُ وَتَعالى النَّهْيَ فَيَقولُ لَهُمْ : لا تَكْفُروا بِموالاةِ أَحَدٍ مِنَ الكافِرينَ وَلا تَأْبَهوا لإِغوائِهِمْ ، لأَنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطيعوا نَصْرَكُمْ ، وَلَكِنَّ الَّذي يَنْصُرُكُمْ هُوَ اللهُ تَعالى بِعِنايَتِهِ الَّتي وَعَدَكُمْ بِها ، فَهُوَ وَلِيُّكُمْ وَمُعينُكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرينَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ .

وَكَلِمَةُ (بَلْ) هُنا لِلإِضْرابِ الانْتِقالِيِّ[1] ، وَذَلِكَ لأَنَّهُ سُبْحانَهُ حَذَّرَ المُؤْمِنينَ مِنْ إِطاعَةِ الكافِرينَ ، وَانْتَقَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلى تَوْجيهِهِمْ إِلى ما فيهِ عِزُّهُمْ وَكَرامَتُهُمْ .

﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ .

إِنَّ المُؤْمِنينَ الَّذينَ يَعْتَمِدونَ عَلى اللهِ تَعالى ، ولا يَعْتَمِدونَ عَلى بَشَرٍ ، سَيَنْصُرُهُمُ اللهُ تَعالى ، وَلِذَلِكَ يَقولُ سُبْحانَهُ مُبَشِّراً لَهُمْ : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ .

إِنَّهُ سُبْحانَهُ سَيَنْتَقِمُ لَكُمْ مِنَ المُشْرِكينَ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَمْلأَ قُلوبَهُمْ بِالخَوْفِ وَالفَزَعِ ، بِسَبَبِ إِشْراكِهِمْ مَعَ اللهِ تَعالى تِلْكَ الأَصْنامَ وَالمَعْبوداتِ ، الَّتي لَمْ يُنَزِّلْ بها سُبْحانَهُ بُرْهاناً ولا حُجَّةً ، فَإِنَّهُ لَمْ يَقُمْ بُرْهانٌ مِنْ عَقْلٍ ولا نَقْلٍ عَلى صِحَّةِ ما زَعَموا مِنْ أُلوهِيَّةِ هَذِهِ الأَصْنامِ ، وَكَوْنِها وَاسِطَةً بَيْنَ اللهِ

---

(١) ذلك بأن الله تعالى يذكر أمراً ، ثم يضرب عنه ، أي يتركه وينتقل إلى بيان أمر أعظم منه .

تَعالى وَبَيْنَ خَلْقِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ قَلَّدوا في ذَلِكَ آباءَهُمُ الَّذينَ ضَلُّوا فَأَضَلُّوهُمْ عَنْ طَريقِ الحَقِّ ، وَلِذا فَإِنَّ مَأْواهُمْ وَمَسْكَنَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ بِالكُفْرِ والجُحودِ ، وَبِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ لِلحَقِّ بِمُعانَدَتِهِ وَاسْتِبْدالِهِ بِالباطِلِ ، وَبِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ لِدينِ اللهِ ، وَادِّعاءِ الواسِطَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ سُبْحانَهُ ، وَبِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ لِلنَّاسِ بِسوءِ مُعامَلَتِهِمْ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُحَدِّثَنا عَمَّا حَدَثَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، وَكَيْفَ انْتَصَروا عَلى أَعْدائِهِمْ في بِدايَةِ المَعْرَكَةِ ، ثُمَّ كَيْفَ كانَتْ هَزيمَتُهُمْ بعد ذَلِكَ .

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ لِلمُؤْمِنينَ : لَقَدْ وَفَّى لَكُمْ رَبُّكُمْ بما وَعَدَكُمْ بِهِ مِنَ النَّصْرِ عَلى أَعْدائِكُمْ ؛ إِذْ أَيَّدَكُمْ في بِدايَةِ المَعْرَكَةِ بِالنَّصْرِ حَتَّى صِرْتُمْ تَقْتُلونَ المُشْرِكينَ قَتْلاً ذَريعاً ، بِتَيْسيرِ اللهِ تَعالى وَمَعونَتِهِ ، لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ حينَ كُنْتُمْ تُقاتِلونَ أَعْداءَكُمْ بِإيمانٍ صادِقٍ وَإِخْلاصٍ للهِ تَعالى حَتَّى إِذا ما ضَعُفَتْ نُفوسُكُمْ ، وَلَمْ تَسْتَطيعوا مُقاوَمَةَ إِغْراءِ الغَنائِمِ المُلْقاةِ أَمامَكُمْ ، وَقالَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ : لِماذا نَبْقى وَقَدِ انْهَزَمَ المُشْرِكونَ ؟ وَقالَ آخَرونَ : لا نُخالِفُ أَمْرَ الرَّسولِ ﷺ وهذا هُوَ تَنازُعُهُمْ ، وَعَصَيْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرَ رَسولِكُمْ وَقائِدِكُمْ حَيْثُ تَرَكَ أَكْثَرُ الرُّماةِ أَماكِنَهُمُ الَّتي أَقامَهُمْ فيها الرَّسولُ الكَريمُ ، عِنْدَ ذَلِكَ تَحَوَّلَ نَصْرُكُمْ إِلى هَزيمَةٍ ، فَقُتِلَ مَن قُتِلَ مِنْكُمْ ، وَلَمْ تَنالوا الغَنائِمَ الَّتي عَصَيْتُمْ أَمْرَ الرَّسولِ ﷺ لأَجْلِها .

إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ فَريقانِ : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وَهُمُ الَّذينَ تَرَكوا مَقْعَدَهُمْ وَمَكانَهُمْ عَلى الجَبَلِ ، وَذَهَبوا يَجْمَعونَ الغَنائِمَ ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ﴾ وَهُمُ الَّذينَ أَطاعوا الرَّسولَ ﷺ وَثَبَتوا يُقاتِلونَ مَعَهُ وَيُدافِعونَ عَنْهُ . يَقولُ ابنُ مَسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : ما عَلِمْنا أَنَّ أَحَداً مِنْ أَصْحابِ رَسولِ اللهِ ﷺ كانَ يُريدُ الدُّنْيا وعَرَضِها حتّى كانَ يومُ أُحُدٍ .

ثُمَّ إِنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لمّا كان مِنكُمْ ما كانَ ـ أَيُّها المُؤْمِنونَ ـ مَنَعَ نَصْرَهُ بِسَبَبِ فَشَلِكُمْ وَتَنازُعِكُمْ ، وَمَعْصِيَتِكُمْ لِنَبِيِّكُمْ ، لِيُعامِلَكُمْ مُعامَلَةَ مَنْ يُمْتَحَنُ ، لِيَتَمَيَّزَ قَوِيُّ الإيمانِ مِنْ ضَعيفِهِ ، وَلِيَتَبَيَّنَ لَكُمُ الصَّابِرُ المُخْلِصُ مِنْ غَيْرِهِ .

وَقَدْ جاءَ سُبْحانَهُ بِكَلِمَةِ (ثُمَّ) في قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ ﴾ لِيُبَيِّنَ لِلْمُؤْمِنينَ التَّفاوتَ العَظيمَ بَيْنَ الغايَةِ الَّتي خَرَجوا مِنْ دِيارِهِمْ لأَجْلِها وَهِيَ النَّصْرُ عَلى المُشْرِكينَ ، وَبَيْنَ النَّتيجَةِ الَّتي انْتَهوْا إِلَيْها وَهِيَ عَوْدَتُهُمْ مَقْهورينَ ، بِسَبَبِ افْتِتانِهِمْ بِالغَنيمَةِ ، وَمُخالَفَتِهِمْ لأَمْرِ الرَّسولِ ﷺ .

وَخُتِمَتِ الآيةُ الكَريمَةُ بِما فيهِ تَخْفيفٌ عَلى المُسْلِمينَ ، وَتَسْلِيَةٌ لَهُمْ عَمَّا أَصابَهُمْ ، فَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

فَقَدْ مَحا عَنْكُمْ سُبْحانَهُ أَثَرَ الذَنْبِ بَعْدَ أَنْ مُحِّصتُمْ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ ذُو فَضْلٍ عَلى أَهْلِ الإيمانِ بِهِ وَبِرَسولِهِ ﷺ ، فَيَعْفو عَنْ كَثيرٍ مِمَّا يَسْتَحِقُّونَ بِهِ العُقوبَةَ مِنَ الذُّنوبِ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ النَّهيُ عَنْ طاعَةِ الكافِرينَ خَشْيَةَ الرُّجوعِ إلى الضَّلالِ بَعْدَ الهُدى ، وَالخُسْرانِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

٢ـ سُنَّةُ اللهِ تَعالى إِلقاءُ الرُّعْبِ في قُلوبِ الكافرينَ حَتَّى يَقْهَرَهُمْ ، وَيُظْهِرَ الدِّينَ الإِسْلاميَّ عَلى سائِرِ الأَدْيانِ .

٣ـ إِنَّ الفَشَلَ وَالتَّنازُعَ يَحولُ بَيْنَ الأُمَّةِ ونَصْرِ اللهِ تَعالى لَها .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التَّالِيَةِ :

الرُّعْبَ ، سُلْطاناً ، مَثْوى ، فَشِلْتُمْ ، تَحُسُّونَهُمْ .

٢ـ ما عاقِبَةُ الَّذينَ يُطيعونَ الكافِرينَ ؟ وما دَليلُ ذلِكَ ؟

٣ـ ما مَعْنى : (بل) ؟ وما المَعْنى الَّذي أَفادَتْهُ في الآيةِ (١٥٠) ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تعالى : ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ ؟

٥ـ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَمَّا حَدَثَ لِلْمُؤْمِنينَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، هاتِ ما ذَكَرَتْهُ باخْتِصارٍ .

٦ـ لِمَ خُتِمَتِ الآياتُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ؟



ـ اكْتُبْ مَوْضوعاً عَنْ مُهِمَّةِ الرُّماةِ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَما حَصَلَ مِنْهُمْ ، وَعَلِّقِ القِصَّةَ عَلى مجلّةِ الحائِطِ في مَدْرَسَتِكَ .

الدَّرسُ الثَّالِثُ والثَّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الثَّالِثُ والثَّلاثونَ

۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ

تُصْعِدونَ : تُذْهِبونَ في الأَرْضِ وَتُبْعِدونَ .

لا تَلوونَ : لا تَلْتَفِتونَ إلى أَحَدٍ مِنْ شِدَّةِ الهَرَبِ .

أُخْراكُمْ : آخِرَتِكُمْ .

أَثابَكُمْ : جازاكُمْ .

غَمّاً : ضيقاً في صَدْرِ الإِنْسانِ مِنْ سوءٍ أَصابَهُ .

أَمَنَةً : الأَمْنُ ، وَهُوَ ضِدُّ الخَوْفِ .

يَغْشى : يُغَطّي ويَسْتُرُ .

بَرَزَ : خَرَجَ وَظَهَرَ .

مَضاجِعِهِمْ : مَصارِعِهِمْ .

اسْتَزَلَّهُم : أَوْقَعَهُمْ في الزَّلَلِ وَالخَطيئَةِ .

التَّفسيرُ :

﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ .

لَقَدْ خالَفَ المُسْلِمونَ أَوامِرَ رَسولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَماذا كانَتِ النَّتيجَةُ ؟ يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِلْمُؤْمِنينَ : اذْكُروا وَقْتَ أَنْ كُنْتُمْ تُهَرْوِلونَ بِسُرْعَةٍ في بَطْنِ الوادي ، بَعْدَ أَنْ اخْتَلَّتْ صُفوفكُمْ وَاضْطربَ جَمْعُكُمْ ، وَصِرْتُمْ لا تَلْتَفِتونَ مِن شِدَّةِ الدَّهْشَةِ الَّتي اعْتَرَتْكُمْ ، وَالذّعرِ الَّذي فاجَأَكُم ، لا تَلْتَفِتونَ إِلى أَحَدٍ ، وَبَيْنما أَنْتُمْ عَلى هَذهِ الحالِ ، وَإِذْ بِالرَّسولِ ﷺ يَدْعوكُمُ مِنْ وَرائِكُمْ وَيُناديكُمْ ، وَقَدْ كانَ الرَّسولُ مَعَ الجَماعَةِ الأُخْرى ، لَقَدْ ناداكُمُ الرَّسولُ ﷺ قائِلاً :« إِلَيَّ عِبادَ اللهِ ، أَنا رَسولُ اللهِ ، مَنْ يَكِرُّ فَلَهُ الجَنَّةُ » .

وَقَدْ كانَتْ نَتيجَةُ هَذا الِاضْطرابِ في صُفوفِكُمْ أَنْ جازاكُمُ اللهُ تَعالى على ذَلِكَ بِسَبَبِ عِصْيانِكُمْ أَمْرَ رَسولِكُمْ ﷺ ، أَذاقَكُمْ اللهُ غَمَّ الانْهِزامِ وَقَتْلَ مَنْ تُحِبُّونَ ، فَالغَمُّ الأَوَّلُ : ما حَصَلَ لِلْمُسْلِمينَ مِنْ هَزيمَةٍ وَقَتْلٍ ، وَالغَمُّ الثّاني لِلرَّسولِ بِمُخالَفَةِ أَمْرِهِ ، وَقيلَ الغَمُّ الأَوَّلُ : ما فاتَهُمْ مِنَ الظَّفَرِ وَالغَنيمَةِ ، والغَمُّ الثّاني : اسْتِعْلاءُ المُشْرِكينَ عَلَيْهِمْ .

لَقَدْ أَثابَكُمُ اللهُ غَمّاً بِغَمٍ حَتَّى تَتَمَرَّنوا أَيُّها المُؤْمِنونَ عَلى تَجَرُّعِ الغُمومِ ، وَتَتَعوَّدوا احْتِمالَ المَشاقِّ ، فَلا تَحْزَنوا فيما بَعْدُ عَلى ما يَفوتُكُمْ مِنَ المَنافِعِ ، أَوْ ما يُصيبُكُمْ مِنَ المَضارِّ .

﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ عَليمٌ بِأَعمالِكُمْ وَنِيّاتِكُمْ ، وهُوَ خَبيرٌ بِالأَسْبابِ الَّتي دَعَتْكُمْ إِلى مُخالَفَةِ أَمْرِ الرَّسولِ ، وَهُوَ قادِرٌ عَلى مُجازاتِكُمْ .

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ .

إِنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى بِعِبادِهِ ، أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْهُمْ وما أَصابَهُمْ مِنْ غَمٍّ ، وَلَكِنَّهُ سُبْحانَهُ عَمَّهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ ، حَيْثُ أَنْزَلَ عَلى طائِفَةٍ مِنْهُمُ الأَمْنَ وَالطُّمأْنينَةَ ، وَمِنْ مَظاهِرِ هَذا الأَمْنِ النُّعاسُ الَّذي

أَصابَهُمْ ، وهي السِّنَةُ الَّتي تكونُ في بِدايَةِ النَّوْمِ ، وَمِنْ شأْنِ هَذا النُّعاسِ أَنْ يُزيلَ عَنِ الإِنْسانِ بَعْضَ مَتاعِبِهِ ، وَلِذَلِكَ اسْتَراحَتْ أَبْدانُهُمْ مِنْ غَيْرِ فَزَعٍ وَلا قَلَقٍ ، فَالنُّعاسُ في مِثْلِ تِلْكَ الحالِ ، دَليلٌ عَلى الأَمْنِ ، وَالطَّائِفَةُ الَّتي غَشِيَها النُّعاسُ أَمَنَةً نُعاساً هِيَ الَّتي أَخْلَصَتْ للهِ تَعالى .

عَنْ أَبي طَلْحَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : كُنْتُ فيمَنْ تَغَشَّاهُ النُّعاسُ يَوْمَ أُحُدٍ حَتَّى سَقَطَ سَيْفي مِنْ يَدي مِراراً ، يَسْقُطُ وآخُذُهُ[1] . أَمَّا غَيْرُهُمْ فَلَمْ يُنْزِلْ عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى النُّعاسَ ، بَلْ ظَلُّوا في قَلَقِهِمْ وَحَيْرَتِهِمْ .

وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، يَظُنُّونَ باللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ ، هَذِهِ الطَّائِفَةُ الَّتي اشْتَرَكَتْ في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، وَلَمْ تَكُنْ صادِقَةً في إِيمانِها ، فَهُمْ مُكَذِّبونَ بالرَّسُولِ ﷺ ، وَقَدْ شارَكوا في المَعْرَكَةِ مِنْ أَجْلِ الحُصولِ عَلى الغَنائِمِ ، هَؤُلاءِ أَوْقَعوا أَنْفُسَهُمْ في الهَمِّ والحُزْنِ وَعَدَمِ الاطْمِئنانِ وَعَدَمِ الصَّبْرِ .

لَقَدْ كانَ هَؤُلاءِ يَقولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَلى سَبيلِ الإِنْكارِ : هَلْ لَنا مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ نَصيبٌ ؟ أَيْ : إِنَّنا لَيْسَ لَنا مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ إِنَّ اللهَ تَعالى لا يَنْصُرُ مُحَمَّداً ، وَما دامَ كَذَلِكَ ، فَهَذا الدِّينُ لَيْسَ حَقّاً ، وَلِذا رَدَّ عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ أَي : إِنَّ كُلَّ ما يَجْري إِنَّما هُوَ حَسَبُ سُنَنِ اللهِ تَعالى في الخَلْقِ وَوِفْقَ النِّظامِ الَّذي وَضَعَهُ سُبْحانَهُ مِنْ رَبْطِ الأَسْبابِ بِالمُسَبِّباتِ ، حَيْثُ رَبَطَ نَصْرَ المُؤْمِنينَ بِنُصْرَةِ دينِهِ سُبْحانَهُ .

وَيَقولُ سُبْحانَهُ عَنْ هَؤُلاءِ : ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ إِنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، فَهُمْ يُخْفونَ في أَنْفُسِهِمْ ما لا يَسْتَطيعونَ إِعْلانَهُ مِنَ الأَقْوالِ القَبيحَةِ وَالظُّنونِ السَّيِّئَةِ ، وَتَكْذيبِهِمُ الرَّسولَ ﷺ ، وَمِمَّا كانوا يُخْفونَهُ قَوْلُهُمْ : لَوْ كانَ لَنا كَلِمَةٌ مسْموعَةٌ أَوْ أَيُّ رأْيٍ مُطاعٍ ، ما خَرَجْنا مِنَ المَدينَةِ إِلى هَذا المَكانِ الَّذي قُتِلَ فيهِ أَقارِبُنا وَأَصْحابُنا . عَنِ الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ قالَ : وَاللهِ إِنِّي لأَسْمَعُ قَوْلَ مُعْتَبِ بنِ قَشيرٍ ، وَالنُّعاسُ يَغْشاني ، مَا أَسمَعُهُ إِلاَّ كَالحُلْمِ حِينَ قالَ : لَوْ كانَ لَنا مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا[2] .

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ بالرَّدِّ عَلى هَؤُلاءِ المُنافِقينَ فَقالَ : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ : لَوْ كُنْتُمْ أَيُّها المُنافِقونَ في مَنازِلِكُمْ في المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، وَلَمْ تَخْرُجوا لِلقِتالِ ، وَكانَ سُبْحانَهُ وَتَعالى قَدْ قَدَّرَ قَتْلَ جَماعَةٍ مِنْكُمْ في أُحُدٍ ، لَخَرَجَ أُولَئِكَ الَّذينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ لأَيِّ سَبَبٍ كانَ إِلى الأَماكِنِ الَّتي قَدَّرَ اللهُ تَعالى أَنْ يُقْتَلوا فيها ، وَلَنْ يَنْجوَ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ قَدَرِ اللهِ تَعالى أَحَدٌ .

إِنَّ ما حَدَثَ لِلْمُسْلِمينَ يَوْمَ أُحُدٍ كانَ للهِ تَعالى فيهِ حِكْمَةٌ ، فَقَدْ حَلَّ بِهِمْ ما حَلَّ لِيُعامِلَهُمْ سُبْحانَهُ

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في كتاب التفسير ، باب : يغشيكم النعاس أمنة منه رقم ٣٨٤١ .

(٢) جامع البيان ، ابن جرير الطبري (٤/١٤٣) .

مُعامَلَةَ المُخْتَبِرِ لِنفوسِهِمْ ، فيَتَبَيَّنُ الخبيثُ مِنَ الطّيّبِ ، ولِيُخَلِّصَ ما يُمْكِنُ أنْ يكونَ قدْ عَلِقَ في قلوبِهِمْ مِنْ أَدْرانٍ ، ويُطَهِّرَها مِمَّا خالَطَها مِنْ ظُنونٍ سَيِّئَةٍ وَمِنْ وَساوِسِ الشَّيْطانِ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ عَليمٌ بِالأَسْرارِ وَالضَّمائِرِ ، وَلا تَخْفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ .

دُروسٌ وعِبَرٌ

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ التَّرْبِيَةُ الصَّحيحَةُ للإِنْسانِ ، تَكونُ بِالعَمَلِ ، وَالمِرانِ ، فَبِذَلِكَ يَكْمُلُ إيمانُ الإِنْسانِ .

٢ـ التَّرْغيبُ في طاعَةِ اللهِ تَعالى ، وَالزَّجْرُ عَنِ الإِقْدامِ عَلى مَعْصِيَةِ اللهِ تَعالى .

٣ـ الفِتَنُ الَّتي تُصيبُ البَشَرَ مِنْ مِحَنٍ وَشَدائِدَ تُمَحِّصُ القُلوبَ مِمَّا يُخالِطُها مِنَ الظُّنونِ السَّيِّئَةِ ، وَوَساوِسِ الشَّيْطانِ ، وَحُبِّ الشَّهَواتِ .

٤ـ حُرِّيَّةُ الاعْتِقادِ هِيَ أَوَّلُ الحُقوقِ الَّتي أَعْطاها الإِسْلامُ لِلإِنْسانِ ، وَمَنْ سَلَبَ إِنْساناً حُرِّيَّةَ الاعْتِقادِ فَكَأَنَّما سَلَبَ مِنْهُ إِنْسانِيَّتَهُ .



أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ كَيْفَ كانَ حالُ المُؤْمِنينَ بَعْدَ مُخالَفَةِ الرَّسولِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ؟

٢ـ ما نَتيجَةُ اضْطِرابِ المُسْلِمينَ في صُفوفِهِمْ ؟

٣ـ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿غَمَّاً بِغَمٍ﴾ ما هَذانِ الغَمّانِ ؟

٤ـ لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعالى عَلى المُؤْمِنينَ بِنِعْمَةٍ عَظيمَةٍ بَعْدَ ما أَصابَهُمْ بِغَمٍّ ، ما تِلْكَ النِّعْمَةُ ؟

٥ـ مَنِ الَّذينَ غَشِيَهُمُ النُّعاسُ بَعْدَ المَعْرَكَةِ ؟ وَمَنِ الّذين حُرِموا مِنْهُ ؟

٦ـ بِمَ رَدَّ سُبْحانَهُ عَلى الَّذينَ يَخافونَ المَوْتَ في المَعْرَكَةِ ؟

٧ـ ما الحِكْمَةُ مِمَّا حَدَثَ لِلْمُسْلِمينَ يَوْمَ أُحُدٍ ؟



ـ مَتَى ظَهَرَتْ طائِفَةُ المُنافِقينَ ؟ هَلْ كانوا في مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ؟ وَلِمَ ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

الدرسُ الرابعُ والثلاثونَ

سورةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ الرّابعُ والثّلاثون

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الجَمْعانِ : جَمْعُ المُؤْمِنينَ وَجَمْعُ الكافِرينَ .

اسْتَزَلَّهُمْ : أَزَلَّهُمْ بِوَسْوَسَتِهِ .

إذا ضَرَبوا في الأَرْضِ : سافروا في الأَرْضِ لِلتِّجارَةِ وَالكَسْبِ .

غُزّىً : مُقاتِلينَ في الحَرْبِ .

حَسْرَةً : نَدامَةً في قُلوبِهِمْ .

التَّفسيرُ :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾﴾ .

قُلْنا مِنْ قَبْلُ إِنَّ الَّذينَ شَهِدوا مَعْرَكَةَ أُحُدٍ ، صاروا فَريقَيْنِ بَعْدَ انْتِهاءِ المَعْرَكَةِ :

الأَوّلُ : الفَريقُ الَّذي تَذَكَّرَ وَعْدَ اللهِ تَعالى لَهُ بِالنَّصْرِ ، وَعَرَفَ تَقْصيرَهُ في المَعْرَكَةِ ، فَاسْتَغْفَروا اللهَ تَعالى لِذُنوبِهِمْ .

الثّاني : الفَريقُ الَّذي اسْتَوْلى عَلَيْهِ الخَوْفُ ، ووقعَ عليهِمُ اللُّبسُ في أمْرِهِمْ .

وَفي هَذِهِ الآياتُ يُبَيِّنُ اللهَ تَعالى أَنَّ الَّذينَ تَوَلَّوْا مِنَ المُؤْمِنينَ عَنِ القِتالِ ، أَوْ تَرَكوا أَماكِنَهُمْ فَلَمْ يَثْبُتوا فِيها طَلَباً لِلْغَنيمَةِ يَوْمَ التَقى المُشْرِكونَ والمُؤْمِنونَ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ، إِنَّما اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ ، أَيْ كانَ ما كانَ مِنْهُمْ بِسَبَبِ إِغْواءِ الشَّيْطانِ وَوَسْوَسَتِهِ ، فَقَدْ ذَكَّرَهُمْ بِذُنوبِهِمُ الَّتي اقْتَرَفوها ، فَكانَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَثْبُتوا في المَعْرَكَةِ ، وَتَرَكوا أَماكِنَهُمْ لأَخْذِ الغَنائِمِ ، وَلَمَّا رَأَوْا المُشْرِكينَ يَلْحَقونَ بِهِمْ فَرُّوا مِنَ المَعْرَكَةِ .

وَلَكِنَّ اللهَ تَعالى لِرَحْمَتِهِ قَدْ عَفا عَنْ هَؤُلاءِ الّذينَ زَلُّوا ، حَتى تَكونَ أَمامَهُمُ الفُرَصَ لِتطْهيرِ نُفوسِهِمْ ، وبَعْثِها عَلى التَّوْبَةِ الصّادِقَةِ ، وَالإِخْلاصِ للهِ رَبِّ العالَمينَ ، لَقَدْ عَفا عَنْهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِصِدْقِ تَوْبَتِهِمْ ، وَلِنَدَمِهِمْ عَلى ما كانَ مِنْهُمْ ، فَإِنَّ فِرارَهُمْ لَمْ يَكُنْ كَفِرارِ المُنافِقينَ ، بَلْ حَدَثَ عِنْدَما اضْطَرَبَتْ صُفوفُ المُسْلِمينَ ، لَكِنَّهُمْ عادوا وَثَبَتوا مَعَ الرَّسولِ ﷺ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتَنْهى عَنِ التَّشَبُّهِ بالكافِرينَ ، وَالاسْتِماعِ إِلى أَكاذيبِهِمْ وَأَباطيلِهِمْ ، يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . يُناديهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى بِهذا النِّداءِ الَّذي يَدْفَعُهُمْ لِلحِرْصِ عَلى أَنْ يَكونوا مُتَّصِفينَ بِصِفَةِ الإيمانِ ، وَعَلى الاسْتِجابَةِ للهِ تَعالى ، وَيَنْهاهُمْ نَهْياً قاطِعاً أَنْ يَكونوا مِثْلَ الَّذينَ كَفَروا ، وَهَذا النَّهْيُ يُشْعِرُ بِالتَّفاوُتِ العَظيمِ بَيْنَ الكُفْرِ والإيمانِ ، فَلا يَليقُ بِالمُؤْمِنِ أَنْ يَنْحَدِرَ إِلى الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ رَفَعَهُ اللهُ تَعالى .

يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِلمُؤْمِنينَ : لا تَكونوا كَأُولَئِكَ المُنافِقينَ الَّذينَ قالوا في شَأْنِ إِخْوانِهِمْ حينَ سافَروا في البِلادِ لِلتِّجارَةِ ، أَوْ كانوا غُزاةً مُحارِبينَ : لَوْ كانوا باقينَ عِنْدَنا ما ماتوا وَما قُتِلوا ، فَإِنَّ هَذا جَهْلٌ في الدِّينِ ، وَضَلالٌ عَنِ الحَقِّ ، فَإِنَّ الحَياةَ وَالمَوْتَ كِلاهُما بِيَدِ اللهِ تَعالى ، فَمِنَ الخَطَأَ القَوْلُ بِأَنَّ الشَّخْصَ لَوْ كانَ في مَنْزِلِهِ أَوْ بَلَدِهِ ما ماتَ وَلا قُتِلَ ، لأَنَّ القُعودَ عَنِ الجِهادِ لا يَحْفَظُ الحَياةَ ، وَكَذا التَّعَرُّضُ لِقِتالِ الأَعْداءِ لا يَسْلِبُ الحَياةَ وَلا يُعَجِّلُ المَوْتَ .

إِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وَتَعالى سَيَجْعَلُ الغَمَّ والحَسْرَةَ في قُلوبِهِمْ ، وَيُضَيِّقُ صُدورَهُمْ عُقوبَةً لَهُمْ بِسَبَبِ

هَذا الاعْتِقادِ الَّذي يَعْتَقِدونَهُ ، وَقَدْ رَدَّ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَلى قَوْلِهِمُ الباطِلِ بِما يَلي :

١ـ ﴿ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ إِنَّ الأَرْواحَ كُلَّها بِيَدِ اللهِ تَعالى يَقْبِضُها مَتى شاءَ ، وَيُرْسِلُها مَتى شاءَ ، فَإِنَّ القُعودَ في البُيوتِ ، لا يُطيلُ الآجالَ ، كَما أَنَّ الخُروجَ لِلْجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى أَوْ لِلسَّعْي في طَلَبِ الرِّزْقِ لا يُنْقِصُها ، وَما دامَ الأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَعَلى العاقِلِ أَنْ يُسارِعَ إِلى الجِهادِ مِنْ أَجْلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ، وَأَنْ يَسْعى في الأَرْضِ طَلَباً لِلرِّزْقِ الحَلالِ .

﴿ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ .

٢ـ قولُهُ تَعالى : ﴿ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ . إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ إِنْ جاهَدْتُمْ في سَبيلِ اللهِ تَعالى وَقُتِلْتُمْ ، أَوْ مُتُّمْ عَلى فِراشِكُمْ بَعْدَ أَنْ أَدَّيْتُمْ رِسالَتَكُمْ في الحَياةِ وَأَطَعْتُمُ اللهَ تَعالى فيما أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ ، سَتَنالونَ مَغْفِرَةً مِنَ اللهِ تَعالى لِذُنوبِكُمْ ، وَرَحْمَةَ اللهِ تَعالى الواسِعَةَ ، وَهذا خَيْرٌ لَكُمْ مِمّا يَجْمَعُهُ الكَفَرَةُ مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا وَشَهَواتِها الزّائِلَةِ ، لأَنَّ رَحْمَةَ اللهِ وَمَغفِرَتَهُ باقِيَتانِ تَنْفَعانِ الإِنْسانَ في دُنْياهُ وَآخِرَتِهِ ، وَما يَجْمَعُهُ الإِنْسانُ مِنْ عَرَضِ الدنْيا زائِلٌ ذاهِبٌ .

وَبَيَّنَ سُبْحانَهُ وَتَعالى بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ مَصيرَ العِبادِ إِلَيهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى وَحْدَهُ ، لَئِنْ مِتُّمْ وَأَنْتُمْ في بُيوتِكُمْ ، أَوْ قُتِلْتُمْ بِأَيْدي أَعْدائِكُمْ في المَعْرَكَةِ وَأَنْتُمْ تُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، عَلى كُلِّ الأَحْوالِ فَإِنَّ مَرْجِعَكُمْ وَمَصيرَكُمْ إِلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، الَّذي تُحشَرونَ إِلَيْهِ ، وَسَيُجازيكُمْ عَلى أَعْمالِكُمْ .

إِنَّ الآياتِ الكَريمَةَ جاءَتْ تُحَذِّرُ المُؤمِنينَ وَتَحُثُّهُمْ عَلى العَمَلِ وَالجِهادِ ، وَتَبُثُّ فيهِمْ روحَ التَّضْحِيَةِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الشَّيْطانُ يَقِفُ لِلإِنسانِ بِالمِرْصادِ ، يُوَسْوِسُ لَهُ وَيُزَيِّنُ لَهُ الشَّرَّ ، فَعَلى الإِنْسانِ المُؤْمِنِ أَنْ يَقْطَعَ عَلَيْهِ الطَّريقَ ، وَلا يَلْتَفِتَ لِوَساوِسِهِ .

٢ـ الحَياةُ والمَوْتُ كِلاهُما بِيَدِ اللهِ تَعالى ، فَالقُعودُ عَنِ الجِهادِ لا يَحْفَظُ الحَياةَ ، وَالتَّعَرُّضُ لِلْقِتالِ لا يُعَجِّلُ بِالمَوْتِ .

٣ـ الحَثُّ عَلى العَمَلِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَبَثُّ روحِ التَّضْحِيَةِ وَالجِهادِ ، لأَنَّ مَصيرَ الخَلائِقِ كُلِّهِمْ إِلى اللهِ تَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ لَقَدِ انْقَسَمَ المُسْلِمونَ بَعْدَ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ إلى فَريقَيْنِ ، وَضِّحْ ذَلِكَ .

٢ـ بَيِّنْ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التَّالِيَةِ :

اسْتَزَلَّهُمْ ، غُزَّىً ، حَسْرَةً .

٣ـ ما الَّذي حَمَلَ بَعْضَ المُسْلِمينَ عَلى تَرْكِ أَماكِنِهِمْ في المَعْرَكَةِ ؟

٤ـ بِماذا جزَى اللهُ تَعالى هَذِهِ الفِئَةَ الَّتي تَوَلَّتْ في المَعْرَكَةِ ؟

٥ـ لَقَدْ نَهى اللهُ تَعالى المُؤْمنينَ أَنْ يَكونوا مِثْلَ الكافِرينَ ، ما الَّذي كانَ مِنَ الكافِرينَ ؟

٦ـ ما الجَزاءُ الَّذي جَعَلَهُ اللهُ تَعالى لأولئِكَ الكافِرينَ والمُنافِقينَ ؟

٧ـ بِماذا ردَّ اللهُ تَعالى عَلى ادّعاءِ الكافِرينَ : ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُوا﴾ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ اسْمَ زَعيمِ المُنافِقينَ وَماذا كانَ مَوْقِفُهُ يَوْمَ أُحُدٍ .

* * *

الدَّرسُ الخامِسُ والثّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الخامِسُ والثَّلاثُونَ

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

لِنْتَ	: اللِّينُ : الرِّفْقُ وَالتَّساهُلُ في المُعامَلَةِ .
فَظّاً	: سَيِّءَ الخُلُقِ .
غَليظَ القَلْبِ	: قاسياً جافِياً .
لانْفَضُّوا	: لَتَفرَّقوا مِنْ حَوْلِكَ .
تَوَكَّلْ	: اعْتَمِدْ عَلى اللهِ تَعالى .
يَغُلَّ	: يَأْخُذْ مِنَ الغَنيمَةِ خِفْيَةً قَبْلَ تَقْسيمِها .

التَّفسيرُ :

ما زالَتِ الآياتُ تَتَحَدَّثُ عَنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ وَآثارِها ، فَقَدْ بَيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ اللهَ تَعالى قَدْ عَفا عَمَّا بَدَرَ مِنَ المُسْلِمينَ في هَذا اليَوْمِ ، وَجاءَتِ الآياتُ هُنا لِتَتَحَدَّثَ عَنْ عَفْوِ الرَّسولِ ﷺ عَنْ هَؤُلاءِ ، وَتَتَحَدَّثَ عَنْ بَعْضِ صِفاتِ الرَّسولِ ﷺ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِنَبيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

فَبِسَبَبِ رَحْمَةٍ عَظيمَةٍ فَيَّاضَةٍ مَنَحَكَ اللهُ إِيَّاها يا مُحَمَّدُ ، كُنْتَ لَيِّناً مَعَ أَتْباعِكَ في جَميعِ أَوْقاتِكَ وَأَحْوالِكَ ، فَقَدْ كُنْتَ مَعَهُمْ قائِداً حَكيماً ، اسْتَشَرْتَهُمْ أَوَّلاً في الخُروجِ لِمُلاقاةِ عَدُوِّهِمْ ، وَأَحْسَنْتَ تَرْتيبَ صُفوفِهِمْ ، ثُمَّ كانَ مِنْهُمْ ما كانَ مِنْ مُخالَفَةٍ لأَوامِرِكَ حَيْثُ تَركوا أَماكِنَهُمْ عَلى الجَبَلِ أَمَلاً في جَمْعِ الغَنائِمِ ، فَلَمْ تُعَنِّفْهُمْ عَلى ما وَقَعَ مِنْهُمْ ، وَأَنْتَ تَراهُمْ قَدِ اسْتَغْرَقَهُمُ الحُزْنُ ، وَلَكِنَّكَ كُنْتَ مَعَهُمْ رَفيقاً لَيِّناً ، وَلَوْ كُنْتَ يا مُحَمَّدُ فَظّاً غَليظاً سَيِّءَ الخُلُقِ ، جافِياً قاسِياً في أَقْوالِكَ وَأَفْعالِكَ ، لا تَتَأَثَّرُ لِما يُصيبُ أَصْحابَكَ لَتَفَرَّقوا عَنْكَ وَنَفَروا مِنْكَ ، وَلَكِنْ لأَنَّكَ لَيِّنَ القَلْبِ رَحيمٌ بِهِمْ تَجِدُ أَصحابَكَ قَدْ التَفُّوا حَوْلَكَ يَفْتَدونَكَ بِأَرْواحِهِمْ . وَيُحِبّونَكَ حُبّاً يَفوقُ حُبَّهُمْ لأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ وَآبائِهِمْ .

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِما يَتَرَتَّبُ عَلى صِفَةِ الرَّحْمَةِ فَقالَ لَهُ : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ لَقَدْ أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ تجاهَ أَصْحابِهِ بِعِدَّةِ أُمورٍ :

١ـ ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾ : فَإِذا كُنْتَ يا مُحَمَّدُ لَيِّنَ الجانِبِ مَعَ أَصْحابِكَ ، رَحيماً بِهِمْ ، فَيَنْبَغي ـ إِذَنْ ـ أَنْ تَعْفوَ عَنْهُمْ فيما وَقَعوا فيهِ مِنْ أَخْطاءٍ وَمُخالَفاتٍ أَدَّتْ إِلى ما حَصَلَ يَوْمَ أُحُدٍ .

٢ـ ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وَعَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ أَنْ تَتَوجَّهَ إِلى اللهِ تَعالى بِالدُّعاءِ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ما بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، لِتُذْهِبَ عَنْهُمْ هَمّاً كَبيراً ، وَتُشَجِّعَهُمْ عَلى الطَّاعَةِ وَالاسْتِجابَةِ لأَوامِرِ اللهِ تَعالى وَأَوامِرِكَ .

٣ـ ﴿ وَشَاوِرْهُمْ ﴾ وَأَمَرَ النَّبيَّ ﷺ أَنْ يُشاوِرَهُمْ في أَمْرِ الحَرْبِ وَغَيْرِهِ ، مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَشيروا أَهْلَ العِلْمِ وَالدِّينِ . وَالمُشاوَرَةُ لا تَكونُ إِلاَّ فيما لا نَصَّ فيهِ ، أَيْ : الأُمورُ الَّتي لَمْ يَرِدْ حُكْمُها في كِتابِ اللهِ ولا في سُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ هِيَ الَّتي تَكونُ الاسْتِشارَةُ فيها .

وَإِذا شاوَرَ القائِدُ أَصْحابَهُ عَلى شَيءٍ ، وَتَمَّتْ هَذِهِ المَشورَةُ عَلى أَحْسَنِ الوُجوهِ ، وَاسْتَقَرُّوا عَلى رَأْيٍ مُعَيَّنٍ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُمْضِيَ مَا اسْتَقَرَّ الرَّأْيُ عَلَيْهِ دونَ تَرَدُّدٍ أَوْ تَخاذُلٍ ،

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِذا عَقَدْتَ نِيَّتَكَ عَلى أَمْرٍ بَعْدَ أَنْ شاوَرْتَ أَصْحابَكَ فَعَلَيْكَ أَنْ تُنَفِّذَ ما عَزَمْتَ عَلَيْهِ ، وَأَنْ تَعْتَمِدَ في الوُصولِ إِلى غايَتِكَ عَلى اللهِ تَعالى ، فَإِنَّ المُؤْمِنَ لا يَتَوَكَّلُ وَلا يَعْتَمِدُ إِلاَّ عَلى اللهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، لا عَلى القُوَّةِ المادِّيَّةِ ، فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّها لا تُغْني عَنِ اللهِ تَعالى ، وَالعاقِلُ مَنِ اتَّخَذَ الأَسْبابَ فَدَرَّبَ الجُنْدَ ، وَجَهَّزَ الأَسْلِحَةَ وَغَيْرَها ، وَكانَ فَوْقَ ذَلِكَ مُعْتَمِداً مُتَوَكِّلاً

عَلى اللهِ تَعالى ، وَمَنِ اعْتَمَدَ عَلى قُوَّتِهِ وَحْدَها فإِنَّ نَتيجَتَهُ الفَشَلُ وَالخُذْلانُ .

ويُؤَكِّدُ سُبْحانَهُ وَتعالى عَلى وُجوبِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ فَيَقولُ :

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ .

إِنَّ اللهَ تَعالى ـ أَيُّها المُؤْمِنونَ ـ إِنْ يُرِدْ أَنْ يَنْصُرَكُمْ كَما نَصَرَكُمْ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، فَلَنْ يَقْهَرَكُمْ ، وَلَنْ يَهْزِمَكُمْ أَحَدٌ ، وَمَنْ كانَ اللهُ مَعَهُ فَلَنْ يَغْلِبَهُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعالى .

وَإِنَّهُ سُبْحانَهُ إِنْ يُرِدْ أَنْ يَخْذِلَكُمْ بِأَنْ يَمْنَعَكُمْ عَوْنَهُ وَنَصْرَهُ ، كَما حَدَثَ لَكُمْ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ، فَلَنْ يَسْتَطيعَ أَحَدٌ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ مَهْما كانَتْ قُوَّتُهُ أَنْ يَجْلِبَ لَكُمُ النَّصْرَ . وَالاسْتِفْهامُ في قَوْلِهِ (فَمَنْ) إِنْكارِيٌّ يُفيدُ النَّفْيَ ، أَي لا أَحَدَ يَسْتَطيعُ نَصْرَكُمْ إِنْ أَرادَ اللهُ تعالى خِذْلانَكُمْ .

وَتُخْتَمُ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ عَلى اللهِ وَحْدَهُ لا عَلى أَحَدٍ سِواهُ ، وَلِذا فَقَدْ قَدَّمَ اللهُ تَعالى الجارَّ والمَجْرورَ لِيُفيدَ الاخْتِصاصَ ؛ أَيْ : أَنْ نَخُصَّ اللهَ وَحْدَهُ بِالتَّوَكُّلِ وَالاعْتِمادِ عَلَيْهِ ، لأَنَّ مَنْ اعْتَمَدَ عَلى قُوَّةٍ سِوى قُوَّةِ اللهِ تَعالى ، فَلَنْ يَصِلَ إِلى النَّتيجَةِ وَالعاقِبَةِ الطَّيِّبَةِ .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُنَزِّهَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الغُلولِ ، وَتُنَزِّهَ الأَنْبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ كَذَلِكَ ، إِذْ لا يُعْقَلُ أَنْ يَكونَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أُولَئِكَ الَّذينَ يَغُلُّونَ ، وَالغُلولُ : هُوَ الأَخْذُ مِنَ الغَنيمَةِ الَّتي يَغْنَمُها المُسْلِمونَ مِنَ المَعْرَكَةِ خِفْيَةً ، قَبْلَ تَقْسيمِها بَيْنَ الجنودِ .

إِنَّ مَنْ يَغُلُّ مِنَ الغَنيمَةِ ، يَأْتِ بِما غَلَّ حامِلاً لَهُ عَلى ظَهْرِهِ يَوْمَ القِيامَةِ ، مُعَذَّباً بِحِمْلِهِ وَثِقْلِهِ وَمُوبَّخاً بِإِظْهارِ خِيانَتِهِ أَمامَ الخَلائِقِ كُلِّها ، وَلا شَكَّ أَنَّ في هَذا فَضيحَةً وَخِزْياً لَهُ .

ثُمَّ تُعْطى كُلُّ نَفْسٍ جَزاءَ ما عَمِلَتْ وافِياً غَيْرَ مَنْقوصٍ ، وَهُمْ لا يُظْلَمونَ ؛ أَيْ : لا يُنْقَصُ مِنْ أُجورِهِمْ أَوْ يُزادُ في عِقابِهِمْ ، بَلْ يَأْخُذُ كُلُّ واحِدٍ جَزاءَ عَمَلِهِ كامِلاً دونَ نَقْصٍ أَوْ زِيادَةٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ القائِدُ الحَكيمُ هُوَ الَّذي يَكونُ رَحيماً رَفيقاً لَيِّناً مَعَ أَصْحابِهِ ، وَلا يَكونُ فَظّاً قاسِياً مَعَهُمْ .

٢ـ القائِدُ الحَكيمُ هُوَ الَّذي يَسْتَشيرُ أَصْحابَهُ في جَميعِ أُمورِهِمْ وَقَضاياهُمْ .

٣ـ وُجوبُ التَّوَكُّلِ والاعْتِمادِ عَلى اللهِ تَعالى لا عَلى قُوَّةٍ أُخْرى غَيْرِهِ سُبْحانَهُ .

٤ـ عَدَمُ خيانَةِ الأَمانَةِ ، وَيَدْخُلُ فيها الغَنيمَةُ ، إِذْ لا يَحِلُّ غُلولُها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنى المُفْرَداتِ التّالِيَةِ :

لِنْتَ ، فَظّاً ، غَليظَ القَلْبِ ، انْفَضُّوا ، غَلَّ .

٢ـ ما الصِّفاتُ الَّتي أَكْرَمَ اللهُ بِها النَّبِيَّ ﷺ ؟

٣ـ ما أَثَرُ الغِلْظَةِ وَسوءِ الخُلُقِ عَلى الأَتْباعِ ؟ أَيِّدْ إِجابَتَكَ بِدَليلٍ .

٤ـ لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ تجاهَ أَصْحابِهِ بِأُمورٍ ، اذْكُرْها مُرَتَّبَةً .

٥ـ ما الواجِبُ عَلى القائِدِ إِذا اسْتَشارَ أَصْحابَهُ وَاسْتَقَرُّوا عَلى رَأْيٍ مُعَيَّنٍ ؟

٦ـ قارِنْ بَيْنَ مَنْ يَعْتَمِدُ عَلى اللهِ تَعالى ، وَمَنْ يَعْتَمِدُ عَلى قُوَّتِهِ وَحْدَها .

٧ـ ما المَقْصودُ بِالغُلولِ الَّذي نَهَتْ عَنْهُ الآياتُ ؟

٨ـ ما الجَزاءُ الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ تَعالى لِمَنْ يَغُلُّ الغَنيمَةَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دفترِكَ آخِرَ آيَتَيْنِ مِنْ سورَةِ التَّوْبَةِ ، وَبَيِّنْ صِفاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةً تَدُلُّ عَلى الإِعْدادِ وَالتَّجهيزِ لِقِتالِ المُشْرِكينَ .

٣ـ فَرِّقْ بَيْنَ التَّوَكُّلِ وَالتَّواكُلِ ، وَاكْتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

تَعَلَّمْ :

عَنْ أبي هُرَيرَةَ قالَ : قامَ فينا رَسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ ، فَذَكَرَ الغُلولَ فعَظَّمَهُ وعَظَّمَ أَمْرَهُ ، ثُمَّ قالَ : لا أَلْفَيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجيءُ يَوْمَ القِيامَةِ عَلى رَقَبَتِهِ بَعيرٌ لَهُ رُغاءٌ يَقولُ : يا رَسولَ اللهِ أَغِثْني ، فَأَقولُ : لا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، قَدْ أَبْلَغْتُكَ ، وَلا أَلْفَيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجيءُ يَوْمَ القِيامَةِ عَلى فَرَسٍ لَهُ حَمْحَمَةٌ فَيَقولُ : يا رَسولَ اللهِ أَغِثْني ، فَأَقولُ : لا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ ، لا أَلْفَيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجيءُ يَوْمَ القِيامَةِ عَلى رَقَبَتِهِ شاةٌ لَها ثُغاءٌ يَقولُ : يا رَسولَ اللهِ أَغِثْني ، فَأَقولُ : لا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ ، لا أَلْفَيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجيءُ يَوْمَ القِيامَةِ عَلى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَها صِياحٌ ، فَيَقولُ يا رَسولَ اللهِ أَغِثْني ، فَأَقولُ : لا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ ، لا أَلْفَيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجيءُ يَوْمَ القِيامَةِ عَلى رَقَبَتِهِ رِقاعٌ تَخْفِقُ أَيْ؛ ثِيابٌ فَيَقولُ : يا رَسولَ اللهِ أَغِثْني فَأَقولُ : لا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ ، لا أَلْفَيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجيءُ يَوْمَ القِيامَةِ عَلى رَقَبَتِهِ صامِتٌ أَيْ ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ ـ فَيَقولُ يا رَسولَ اللهِ أَغِثْني ، فَأَقولُ : لا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ »[1] .

* * *

(١) أخرجه الإمام مسلم، باب : غلظ تحريم الغلول ، حديث رقم ١٨٣١ .

الدرس السادس والثلاثون

سورة آل عمران ـ القسم السادس والثلاثون

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾

معاني المفردات

باءَ بِسَخَطٍ	: رَجعَ مُتَلَبِّساً بِغَضَبٍ شَديدٍ .
مَأْواهُ	: مَكانُهُ الَّذي يَأْوي إِلَيْهِ .
يُزَكِّيهِمْ	: يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الأَدْناسِ .
أَصابَتْكُمْ مُصيبَةٌ	: هِيَ مَقْتَلُ سَبْعينَ مِنَ المُسْلِمينَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ .
أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها	: في غَزْوَةِ بَدْرٍ حَيْثُ قَتَلْتُمْ سَبعينَ وَأَسَرْتُمْ سَبعينَ ، وَقَتَلْتُمْ سَبعينَ أَيْضاً في أُحُدٍ .



التفسير

إنَّ اللهَ تَعالى هُوَ العَدْلُ الحَكَمُ ، فَلَيْسَ في أَفْعالِهِ ظُلْمٌ وَلا جَوْرٌ على أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَقَدْ جاءَتِ الآياتُ هُنا تُؤَكِّدُ هَذا العَدْلَ ، وَتَنْفي الظُّلْمَ عَنِ اللهِ سُبْحانَهُ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾ .

أَيُمكِنُ أنْ يكونَ مَنْ واظبَ عَلى فِعْلِ ما يُرْضي اللهَ تَعالى والْتَزَمَ بِطاعَتِهِ ، وَتَرَكَ كُلَّ مَا نَهى اللهُ

تَعالى عَنْهُ مِنْ غُلولٍ وَغَيْرِهِ ، أَيُمْكِنُ أَنْ يَكونَ مِثْلَ مَنْ رَجَعَ بِغَضَبٍ عَظيمٍ مِنَ اللهِ تَعالى بِسَبَبِ عَدَمِ امْتِثالِهِ لأَوامِرِ اللهِ تَعالى ، وبِسَبَبِ غُلولِهِ وَخيانَتِهِ .

والاسْتِفهام في قَوْلِهِ ﴿أَفَمَنِ﴾ إنْكارِيٌّ يُفيدُ النَّفْيَ ، أَيْ لا يَسْتوي مَنِ اتَّبَعَ رُضوانَ اللهِ مَعَ مَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ تَعالى .

إِنَّ أَيَّ عاقِلٍ لا يُمْكِنُ أَنْ يُساوِيَ بَيْنَ المُحْسِنِ والمُسيءِ ، إِنَّ هَذا المُسيءَ الَّذي رَجَعَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ تَعالى وَغَضَبٍ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِ أَوْ فُسوقِهِ أَوْ خِيانَتِهِ ، مَأْواهُ وَمَصيرُهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ هَذا المَصيرُ الَّذي يَنْتَهي إِلَيْهِ هَذا الإِنْسانُ .

﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ .

إِنَّ عَدَمَ تَساوي المُحْسِنِ وَالمُسيءِ ، يَسْتَلْزِمُ مِنْهُ أَنْ يَكونوا مُتَفاوِتينَ في الثَّوابِ وَالعِقابِ عَلى حَسَبِ أَعْمالِهِمْ ، كَما تَتَفاوَتُ دَرَجاتُ كُلِّ فَريقٍ مِنْهُمْ ، فالَّذينَ اتَّبَعوا رضوانَ اللهِ تَعالى يَتَفاوَتونَ في الثَّوابِ الَّذي يُثيبُهُمْ إِيّاهُ رَبُّهُمْ سُبْحانَهُ وَتعالى ، كُلٌّ حَسَبَ قُوَّةِ إيمانِهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ ، وَكَذلِكَ الَّذينَ باءُوا بِغَضَبٍ وَسَخَطٍ مِنَ اللهِ ، يَتَفاوَتونَ في العِقابِ الَّذي يُنْزِلُهُ اللهُ تَعالى بِهِمْ ، حَسَبَ ما اكْتَسَبوهُ مِنْ آثامٍ وَشُرورٍ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ مُطَّلِعٌ عَلى أَعْمالِ العِبادِ ، صَغيرِها وَكَبيرِها ، ظاهِرِها وَخَفِيِّها ، لا يَغيبُ عَنْهُ شَيءٌ ، وَسَيُجازي كُلَّ إِنْسانٍ بِما يَسْتَحِقُّهُ حَسَبَ عَمَلِهِ .

وَقَدِ اسْتُعْمِلَتْ كَلِمَةُ الدَّرَجاتِ هُنا لِلفَريقَيْنِ لِلتَّغْليبِ ، مَعَ أَنَّ الدَّرجاتِ تَأْتي في القُرْآنِ غالِباً لِلْجَنَّةِ ، والدَّرَكاتِ لِلنَّارِ ، وَلِذا قيلَ دَرَجاتُ الجَنَّةِ وَدَرَكاتُ النَّارِ .

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى وَرَحْمَتِهِ عَلى عِبادِهِ ، حَيْثُ بَعَثَ لَهُمْ رَسولاً مِنْهُمْ ، فَتِلْكَ نِعْمَةٌ عَظيمَةٌ يَمُنُّ اللهُ بِها عَلى عِبادِهِ ، أَنْ بَعَثَ فيهِمْ رَسولاً عَظيمَ القَدْرِ ، مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَعْرِفونَ حَسَبَهُ وَنَسَبَهُ وَشَرَفَهُ وَعِفَّتَهُ وَأَمانَتَهُ ، فَهُوَ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعالى وَهَبَهُ الرِّسالَةَ ، لِيُخْرِجَ النَّاسَ جَميعاً عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ مِنْ ظُلماتِ الشِّرْكِ إِلى نورِ الإيمانِ .

وَقَدْ خَصَّ اللهُ تَعالى هَذِهِ المِنَّةَ وَالنِّعْمَةَ بِالمُؤْمِنينَ ، لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذينَ انْتَفَعوا بِنِعْمَةِ الإِسْلامِ ، فَآمَنوا بِهِ ، وَالْتَزَموا بِأَحْكامِهِ ، وابْتَعَدوا عَنْ نَواهيهِ .

وَمِنْ مَظاهِرِ هَذِهِ المِنَّةِ وَالفَضْلِ بِبِعْثَةِ الرَّسولِ ﷺ ، أَنَّ هَذا الرَّسولَ الكَريمَ :

١ـ يَتلو عَلَيْهِمْ آياتِهِ : وَالتِّلاوَةُ هِيَ القِراءَةُ ، فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الآياتِ الَّتي أَنْزَلَها اللهُ تَعالى عَلَيْهِ لِهِدايَةِ النَّاسِ .

٢ـ وَيُزَكِّيهِمْ : أَيْ يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الكُفْرِ وَالذُّنوبِ ، وَذَلِكَ بِدَعْوَتِهِمْ إِلى التَّمَسُّكِ بِالعَقيدَةِ الصَّحيحَةِ ، وَالتَّحَلِّي بِالأَخْلاقِ الحَسَنَةِ وَتَرْكِ الرَّذائِلِ السَّيِّئَةِ .

٣ـ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ : أَيْ يُبَيِّنُ لَهُمُ الأُمورَ الأَساسيَّةَ الَّتي نزَلَ القُرْآنُ لأَجْلِها ، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ أَحْكامَ القُرْآنِ ، وَيُفَسِّرُ لَهُمْ ما خَفِيَ عَنْهُمْ مِنَ الأَلْفاظِ .

٤ـ وَيُعَلِّمَهُمُ الحِكْمَةَ : وَالحِكْمَةُ هِيَ السُّنَّةُ ـ كَما يَقولُ العُلَماءُ ـ وَالسُّنَّةُ تَشْتَمِلُ عَلى بيانٍ وَتَفْسيرٍ لِلْقُرْآنِ الكَريمِ وَتَعْليمِ النَّاسِ أُمورَ دينِهِمْ ، وَتَشْتَمِلُ عَلى تَشريعاتٍ وَأَحْكامٍ ، مِنْ تَحْليلٍ وَتَحْريمٍ ، فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوى إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَى .

هَذِهِ هِيَ حالُ النّاسِ بَعْدَ مَبْعَثِ الرَّسولِ ﷺ ، وَلَكِنْ : كَيْفَ كانَ حالُهُمْ قَبْلَ مَبْعَثِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟ تُجيبُ الآياتُ القُرْآنِيَّةُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ لَقَدْ كانوا قَبْلَ بِعْثَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ في ضَلالٍ واضِحٍ ، لا يَخْفى عَلى مَنْ عِنْدَهُ عَقْلٌ سَليمٌ ، فَقَدْ كانوا يُشْرِكونَ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى ، يَصْنَعونَها بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الحِجارَةِ أَوْ التَّمْرِ ، وَيَعْبُدونَها وَهذا هُوَ ضَلالٌ في نَفْسِهِ ، فَالصّانِعُ أَكْرَمُ مِنَ المَصْنوعِ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقومونَ بِعِبادَتِها .

لَقَدْ كانَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى بِالنَّاسِ أَنْ أَرْسَلَ فيهِمْ مُحَمَّداً ﷺ ، حَتَّى يُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ .

وَلا زالَتِ الآياتُ تَتَحَدَّثُ عَنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ وَآثارِها ، فَها هُوَ سُبْحانَهُ وَتَعالى يُذَكِّرُ عِبادَهُ المُسْلِمينَ بِما حَصَلَ فَيَقولُ :

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ ﴾ .

إِنَّ مِنْ نَتائِجِ غَزْوَةِ أُحُدٍ أَنَّها كَشَفَتْ عَنْ صاحِبِ الإِيمانِ القَوِيِّ ، وَصاحِبِ الإِيمانِ الضَّعيفِ ، فَمَيَّزَتْ بَيْنَ الخَبيثِ وَالطَّيِّبِ ، وَذَلِكَ أَنَّ كَثيراً مِنَ المُنافِقينَ دَخَلوا في الإِسْلامِ طَمَعاً في الغَنائِمِ ، بَعْدَ أَنْ وَجَدوا أَنَّ المُسْلِمينَ قَدِ انْتَصَروا في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، وَلَكِنَّ عَدَمَ انْتِصارِ المُسْلِمينَ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ، أَظْهَرَ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ عَلى حَقيقَتِهِمْ ، وَعَرَّفَ المُسْلِمينَ بِهِمْ .

وَالاسْتِفْهامُ في قَوْلِهِ : ﴿أَوَلَمَّا﴾ إِنْكارِيٌّ تَعَجُّبِيٌّ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُوَبِّخُهُمْ عَلى ما كانَ مِنْهُمْ ، فَهُمْ قَتَلوا مِنَ المُشْرِكينَ في بَدْرٍ سَبْعينَ رَجُلاً ، وَأَسَروا سَبْعينَ رَجُلاً ، وَقَدْ كانَ لَهُمُ النَّصْرُ في بِدايَةِ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ، فَقَتَلوا مِنَ المُشْرِكينَ حَوالي عِشْرينَ رَجُلاً ، وَلَكِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ خالَفوا أَمْرَ الرَّسولِ ﷺ وَأَغْرَتْهُمُ الغَنائِمُ فَتَرَكوا أَماكِنَهُمْ عَلى الجَبَلِ ، فَقَتَلَ مِنْهُمُ المُشْرِكونَ سَبْعينَ رَجُلاً .

وَبَعْدَ أَنْ أَصابَهُمْ ما أَصابَهُمْ قالوا : ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أَي : كَيْفَ حَصَلَ لَنا هَذا القَتْلُ ، والخِذْلانُ ،

وَنَحْنُ نُقاتِلُ في سَبيلِ اللهِ ؟ فيَقولُ لَهُمْ سُبْحانَه : ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يُوَبِّخُهُمْ ، لأَنَّهُمْ لَمْ يُحْسِنوا التَّصَرُّفَ في المَعْرَكَةِ ، فَهَذا هُوَ السَّبَبُ الحَقيقيُّ لِهَزيمَةِ المُسْلِمينَ ؛ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ سَبَبُ هَذِهِ الهَزيمَةِ ، حَيْثُ أَشارَ عَلَيْكُمُ الرَّسولُ ﷺ قَبْلَ المَعْرَكَةِ بالبَقاءِ في المَدينَةِ ، وَلَكِنَّكُمْ أَبَيْتُمْ إلاَّ الخُروجَ خارِجَ المَدينَةِ ، وَقَدْ أَمَرَكُمُ الرسولُ ﷺ بالمُكوثِ في أَماكِنِكُمْ عَلى الجَبَلِ ، وَلَكِنَّكُمْ خالَفْتُمْ أَمْرَهُ وَنَزَلْتُمْ عَنِ الجَبَلِ فَكانَ ما كانَ .

وَخَتَمَ اللهُ سُبْحانَهُ الآيَةَ الكَريمَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ القَديرُ عَلى نَصْرِكُمْ وَخِذْلانِكُمْ ، وَقُدْرَتُهُ تَعالى لَيْسَ فَوْقَها شَيءٌ ، وَقَدْ مَنَعَكُمُ النَّصْرَ سُبْحانَهُ وَتَعالى حَتّى تَتَّعِظوا وَتَعْتَبِروا .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُحْسِنُ الَّذي اتَّبَعَ رُضوانَ اللهِ تَعالى ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَتَساوى مَعَ المُسيءِ الَّذي يَرْجِعُ بِغَضَبٍ وَسَخَطٍ مِنَ اللهِ تَعالى بِسَبَبِ كُفْرِهِ وَفِسْقِهِ .

٢ـ المُؤْمِنونَ وَالكافِرونَ ، مُتَفاوِتونَ في دَرَجاتِهِمْ عِنْدَ اللهِ تَعالى مِنْ حَيْثُ الثَّوابُ وَالعِقابُ ، فَالجَنَّةُ دَرَجاتٌ مُتَفاوِتَةٌ ، وَالنَّارُ كَذَلِكَ دَرَكاتٌ مُتَفاوِتَةٌ .

٣ـ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ تَعالى عَلى الخَلْقِ بَعْثُهُ الرَّسولَ ﷺ لِيَتْلُوَ عَلَيْهِمْ آياتِ اللهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ .

٤ـ الأَيّامُ سِجالٌ بَيْنَ النَّاسِ ؛ يَومٌ لَهُمْ وَيَوْمٌ عَلَيْهِمْ ، يَوْمُ نَصْرٍ ، وَيَوْمُ هَزيمَةٍ ، وَلَكِنَّ العاقِبَةَ لِلمُتَّقينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنى الاسْتِفْهامِ في قَوْلِه تَعالى : ﴿أَفَمَنِ﴾ ؟

٢ـ قارِنْ بَيْنَ المُحْسِنِ وَالمُسيءِ مِنْ حَيثُ أَعْمالُهُمْ وَمِنْ حَيْثُ جَزاؤُهُمْ في الآخِرَةِ .

٣ـ لِماذا اسْتَعْمِلَتْ كَلِمَةُ (الدّرَجاتِ) لِفَريقَي الجَنَّةِ والنّارِ في الآيَةِ (١٦٣) ؟

٤ـ لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلى المُؤْمِنينَ بِنِعْمَةٍ عَظيمَةٍ ، ذَكَرَتْها الآياتُ ، ما هِيَ ؟

٥ـ ما صِفاتُ الرَّسولِ ﷺ الَّتي ذَكَرَتْها الآياتُ ؟

٦ـ كَيْفَ كانَ حالُ النَّاسِ قَبْلَ بِعْثَةِ الرَّسولِ ﷺ ؟

٧ـ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْ بَعْضِ نَتائِجِ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ، ما هِيَ ؟

٨ـ ما مَعْنى الاسْتِفْهامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَوَلَمَّا﴾ وما الَّذي أَنْكَرَهُ سُبْحانَهُ عَلى المُؤْمِنينَ هُنا ؟



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةَ سورَةِ السَّجْدَةِ الَّتي تَدُلُّ عَلى المَعْنى الوارِدِ في الآيَةِ (١٦٢) .

٢ـ هاتِ مِثالاً تُبَيِّنُ فيهِ تَفْسيرَ الرَّسولِ ﷺ لِكَلِماتٍ مِنْ كِتابِ اللهِ ، وَاكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ بَيِّنْ ضَلالَ المُشْرِكينَ قَبْلَ الإِسْلامِ مِنَ النَّواحي الأَخْلاقِيَّةِ ، وَاكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرس السابع والثلاثون

سورةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ السّابعُ والثّلاثونَ

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾



الجَمْعانِ : جَمْعُ المُؤْمِنينَ وَجَمْعُ الكافِرينَ .

ادْرَأُوا : ادْفَعوا .

يَسْتَبْشِرونَ : يَفْرَحونَ .



ما زالَتِ الآياتُ تَتَحَدَّثُ عَنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ ، وَما أَصابَ المُسْلِمينَ في هَذِهِ الغَزْوَةِ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ لِلْمُؤْمِنينَ :

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ .

إِنَّ ما أَصابَكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ مِنْ قَتْلٍ وَجِراحٍ يَوْمَ الْتَقى جَمْعُكُمْ بِجَمْعِ الكافِرينَ إِنَّما بِإِذْنِ اللهِ

تَعالى، أَيْ : بِإرادَتِهِ وَعِلْمِهِ ، لأَنَّ كُلَّ ما يَحْدُثُ في هَذا الكَوْنِ إِنَّما هُوَ بِإرادَةِ اللهِ وَعِلْمِهِ ، وَلذا عَلى المُسْلِمِ أَنْ يَرْضى بِما يَكونُ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَيُسَلِّمُ أَمْرَهُ للهِ ، فَما حَدَثَ كانَ بِإرادَةِ اللهِ لِيَعْلَمَ المُؤْمِنينَ ، أَيْ : يَتَمَيَّزُ المُؤْمِنُ مِنْ غَيْرِهِ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ﴾ فَيُعَرِّفَهُمْ لِلمُؤْمِنينَ مَعْرِفَةً تامَّةً .

وَقَدْ قُلْنا مِنْ قَبلُ ، إنَّ نَصْرَ المُسْلِمينَ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، جَعَلَ الكَثيرينَ يَتَظاهَرونَ باعْتِناقِ الإِسْلامِ وَلَكِنَّ عَدَمَ نَصْرِ المُسلمينَ في أُحُدٍ ، كَشَفَ عَنْ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ ، وأَظْهَرَهُمْ عَلى حَقيقَتِهِمْ .

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ .

إنَّ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ قَدْ قالَ لَهُمُ المُسْلِمونَ تَعالَوْا قاتِلوا مَعَنا في سَبيلِ اللهِ ، وَعلى الأَقَلِّ انْضمُّوا إلى صُفوفِ المُقاتلينَ لِتُكْثِروا مِنْ عَدَدِهِمْ فَيَخافُهُمْ عَدُوُّهُمْ ، وَإنْ لَمْ تُقاتِلوا طَلَباً لِمَرْضاةِ اللهِ تَعالى ، فَقاتِلوا دِفاعاً عَنْ أَنْفُسِكُمْ وَوَطَنِكُمْ ، وَلَكِنْ بِماذا أَجابَ هَؤُلاءِ المُنافِقونَ ؟ لَقَدْ قالوا لِلمُسْلِمينَ : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ ﴾ أَيْ : لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تُقاتِلونَ حَقّاً ، لَذَهَبْنا مَعَكُمْ ، وَاتَّبَعْناكُمْ ، وَلَكِنَّنا لَمْ نَفْعَلْ ، وَذَلِكَ لأَنَّ خُروجَكُمْ راجِعٌ إلى خَطَأٍ في رَأْيِكُمْ ، فَقَدْ كانَ رَأْيُ المُنافِقينَ أَنْ يَظَلّوا في المَدينَةِ ، وَلا يَخْرُجوا خَوْفاً مِنَ القِتالِ .

قالَ ابنُ جَريرٍ : خَرَجَ رَسولُ اللهِ ﷺ إلى أُحُدٍ في أَلْفِ رَجُلٍ مِنْ أَصْحابِهِ ، حَتَّى إذا كانوا بِالشَّوْطِ بَيْنَ أُحُدٍ وَالمَدينَةِ ، انْخَذَلَ عَنْهُمْ عَبْدُ اللهِ بنُ أُبيّ بنُ سَلولٍ بِثُلُثِ النَّاسِ ، وَقالَ : أَطاعَهُمْ ، أَيْ : الرَّسولُ ﷺ فَخَرَجَ وَعَصاني ، واللهِ ما نَدْري عَلامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنا هاهُنا أَيُّها النَّاسُ ، فَرَجَعَ بِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ النَّاسِ مِنْ قَوْمِهِ أَهْلِ النِّفاقِ وَالرَّيْبِ ، فَاتَّبَعَهُمْ عَبْدُ اللهِ بن عَمْرِو بنِ حَرامٍ ـ أَخو بَني سَلَمَةَ ـ يَقولُ لَهُمْ : يَا قَوْمُ أُذَكِّرُكُمُ اللهَ أَنْ لا تَخْذلوا نَبِيَّكُمْ وَقَوْمَكُمْ ، فَقالوا : لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تُقاتِلونَ ما أَسْلَمْناكُمْ ، وَلَكِنَّنا لا نَرى أَنْ يَكونَ قِتالٌ ، فَلَمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ ، وَأَبَوْا إلاَّ الانْصِرافَ عَنِ المُؤْمِنينَ ، قالَ لَهُمْ أَبْعَدَكُمُ اللهُ يَا أَعْداءَ اللهِ ، فَسَيُغْني اللهُ رَسولَهُ عَنْكُمْ ، ثُمَّ مَضى مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ .

وَلِمَوْقِفِ المُنافِقينَ هَذا يَقولُ عَنْهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ ﴾ فَهُمْ بَعْدَ أَنْ قالوا ما قالوا فَهُمْ أَقْرَبُ لأَهْلِ الكُفْرِ مِنْهُمْ لأَهْلِ الإيمانِ ، لأَنَّهُمْ يَقولونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ قَوْلاً يُخالِفُ مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ قُلوبُهُمْ مِنْ كُفْرٍ ، وَقَدْ ذَكَرَ الأَفْواهَ مَعَ القُلوبِ تَصْويراً لِنِفاقِهِمْ ، فَإيمانُهُمْ مَوْجودٌ في أَفْواهِهِمْ مَعْدومٌ مِنْ قُلوبِهِمْ ، بِخِلافِ صِفَةِ المُؤْمِنينَ في مُوافَقَةِ ما في قُلوبِهِمْ لِما يَقولونَ وَيَنْطِقونَ ، أَمّا المُنافِقونَ فَإنَّ ما يُضْمِرونَ وَما يُظْهِرونَ مِنْ كُفْرٍ ، وَمِنْ كَراهِيَةٍ لِدينِ اللهِ تَعالى فَهُوَ يَعْلَمُ مَا يُخْفونَهُ وَما يُظْهِرونَهُ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَذْكُرَ لَنا لَوْناً آخَرَ مِنْ أَكاذيبِ المُنافقينَ .

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ .

إِنَّهُمْ بَعْدَ انْتِهاءِ المَعْرَكَةِ ، يَقولونَ لإخْوانِهِمُ الَّذينَ هُمْ مِثْلُهُمْ في النِّفاقِ ، وَقَدْ قَعَدوا عَنِ القِتالِ : لَوْ أَنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ اسْتَشْهَدوا في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ أَطاعونا وَ ظَلُّوا في المَدينَةِ ، وَلَمْ يَخْرُجوا لِلْقِتالِ ، مَا أَصابَهُمُ القَتْلُ ، وَلَكِنَّهُمْ خالَفونا فَكانَ مَصيرُهُمُ القَتْلَ ، هَذا القَوْلُ يَدُلُّ عَلى خُبْثِهِمْ وجَهْلِهِمْ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعالى وَإِرادَتِهِ ، وَلِذَلِكَ فَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ بِقَوْلِهِ ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ ـ مُوَبِّخاً لَهُمْ ـ إِذا كُنْتُمْ ـ كَما تَدَّعونَ ـ قَدْ دَفَعْتُمْ عَنْ أَنْفُسِكُمُ القَتْلَ بِقُعودِكُمْ في بُيوتِكُمْ وَعَدَمِ خُروجِكُمْ لِلْقِتالِ ، فَادْفَعوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ المَوْتَ الَّذي كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ في زَعْمِكُمْ أَنَّ الَّذينَ قُتِلوا في أُحُدٍ لَوْ أَطاعوكُمْ ما قُتِلوا وما ماتوا ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ المَوتَ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ هَؤُلاءِ الشُّهَداءِ ، الَّذينَ اسْتَشْهَدوا في سَبيلِ اللهِ تَعالى وَما أَعَدَّهُ اللهُ تَعالى لَهُمْ مِنْ نَعيمٍ ، يَقولُ تَعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ .

أَيْ لا تَظُنَّ أَيُّها الرَّسولُ ، وَأَيُّها المُؤْمِنونَ أَنَّ الَّذينَ قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَمِنْ أَجْلِ إِعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى لا تَظُنَّهُمْ أَمْواتاً ، وَلَكِنَّهُمْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقونَ وَيَتَنَعَّمونَ بِأَلْوانِ النِّعَمِ ، وَذَلِكَ لِما كانَ مِنْهُمْ مِنْ بَذْلِ أَنْفُسِهِمْ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَمَعْنى : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَيْ : خَصَّهُمُ اللهُ بِالمَنازِلِ الرَّفيعَةِ وَالدَّرَجاتِ العالِيَةِ .

أَخْرَجَ أَبو دَوادَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : لَمَّا أُصيبَ إِخْوانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْواحَهُمْ في أَجوافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهارَ الجَنَّةِ تَأْكُلُ ثِمارَها ، وَتَأْوي إِلى قَناديلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ في ظِلِّ العَرْشِ ، فَلَمَّا وَجَدوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقيلِهِمْ قالوا : مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوانَنا عَنَّا أَنَّنا أَحْياءٌ في الجَنَّةِ نُرْزَقُ ، لِئَلاَّ يَزْهَدوا في الجِهادِ ، وَلا يُنْكِلوا عِنْدَ الحَرْبِ ، فَقالَ اللهُ تَعالى : أَنا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ ، قالَ : فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآياتِ .

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ .

إِنَّ لِلْشُهَداءِ مِزْيَةٌ تَجْعَلُهُمْ يَخْتَلِفونَ عَنْ بَقِيَّةِ المَوْتى ، فَهُمْ في نَعيمٍ وَحَياةٍ وَرِزْقٍ حَسَنٍ عِنْدَ

ربِّهِمْ ، ولَكِنْ كَيْفَ هِيَ هَذِهِ الحَياةُ ؟ هَذا ما لا يُمَكِنُنا إدْراكُهُ ، لأَنَّها مِنْ شُؤونِ الغَيْبِ ، وبَيَّنَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ ماهُمْ فيهِ مِنْ مَسَرَّةٍ ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فَهُمْ فَرِحونَ فَرَحاً عَظيماً بِما أَعْطاهُمُ اللهُ تَعالى بَعْدَ انْتِقالِهِمْ مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا إلى الآخِرَةِ ؛ إنَّهُمْ في الحَياةِ الآخِرَةِ يَفْرَحونَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ شَرَفِ الشَّهادَةِ ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ وَيُسَرُّونَ بِإِخْوانِهِمْ وَرُفَقائِهِمْ الَّذينَ تَرَكوهُمْ خَلْفَهُمْ عَلى قَيْدِ الحياةِ يَنْتَظِرونَ الشَّهادَةَ ، إذْ هُمْ عِنْدَما يَموتونَ أَيْضاً شُهداءُ مِثْلُهُمْ ، سَوْفَ يَنالُهُمْ رِضا اللهِ وَكَرامَتُهُ ، إنَّهُمْ يُسرّونَ بِما تَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ حالِ الَّذينَ تَرَكوهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ في الدُّنيا مِنْ رُفَقائِهِمْ المُجاهِدينَ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ في مُسْتَقْبَلِهِمْ ، وَهُمْ لا يَحْزَنونَ عَلى ما تَرَكوهُ في الدنْيا ، فَهُمْ سَيَكونونَ آمِنينَ مُطْمَئِنّينَ .

﴿ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ .

وَكَما أَنَّهُمْ يَسْتَبْشِرونَ وَيُسَرُّونَ بِحالِ إخْوانِهِمُ الَّذينَ لَمْ يَلْحَقوا بِهِمْ ، فَهُمْ كَذَلِكَ يَسْتَبْشِرونَ بِسَبَبِ ما أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمٍ عَظيمَةٍ ، وَمِنْ مَنْزِلَةٍ رَفيعَةٍ ؛ إنَّهُمْ يَهْتَمّونَ بِأَحوالِ إخْوانِهِمْ كَما يَهْتَمُّونَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَيُحِبُّونَ الخَيْرَ لإِخْوانِهِمْ كَما يُحِبُّونَهُ لأَنْفُسِهِمْ ، نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أَنْ يُكْرِمَنا بِالشَّهادَةِ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُنافِقونَ فِئَةٌ مُنْبَثَّةٌ بَيْنَ المُسْلِمينَ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ ؛ لِذا فَقَدْ بَيَّنَ القُرْآنُ الكَريمُ لَنا صِفاتِهِمْ ، لِنَحْذَرَهُمْ .

٢ـ طاعَةُ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ في كُلِّ أَمْرٍ أَساسُ الإيمانِ .

٣ـ لا تَصْلُحُ حَياةُ الأُمَمِ إلاَّ بِقِتالِ المُعْتَدينَ الضّالّينَ وَجِهادِهِمْ ، لِتَكونَ كَلِمَةُ اللهِ تَعالى هِيَ العُليا .

٤ـ الشَّهيدُ لَهُ مَكانَتُهُ العَظيمَةُ عِنْدَ اللهِ تَعالى ، وَهُوَ يَحْيا حَياةً دائِمَةً لا يُدْرِكُ كُنْهَها إلاَّ اللهُ تَعالى .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بقَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ ؟

٢ـ إلامَ دَعا المُسْلِمونَ المُنافِقينَ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ؟

٣ـ بِماذا أَجابَ المُنافِقونَ ؟

٤ـ ما مَوْقِفُ عَبْدِ اللهِ بنْ أُبيَّ بن سَلولٍ وَأَصْحابِهِ في مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ؟

٥ـ هَلِ المُنافِقونَ مُؤْمِنونَ أَمْ كافِرونَ ؟ أَيِّدْ إِجابَتَكَ بِالدَّليلِ .

٦ـ ما الَّذي قالَهُ المُنافِقونَ بَعْدَ انْتِهاءِ المَعْرَكَةِ في حَقِّ المُسْلِمينَ ؟ وَبِمَ رَدَّ عَلَيْهِمُ القُرْآنُ ؟

٧ـ ما مَصيرُ الشُّهداءِ الّذينَ قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ ؟ وَما الحَياةُ الَّتي يَحْيَوْنَها عِنْدَ رَبِّهِمْ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةً تَدُلُّ عَلى أَنَّ المَوْتَ يَأْتي الإِنْسانَ أَيْنَما كانَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيْفَ يُعامَلُ الشَّهيدُ مِنَ المُسْلِمينَ قَبْلَ دَفْنِهِ .

٣ـ اكْتُبْ حَديثاً شَريفاً يَدُلُّ عَلى حَثِّ المُسْلِمينَ عَلى تَمَنِّي الشَّهادَةِ .

٤ـ اكْتُبْ مَوْضوعاً عَنِ المُنافِقينَ وَصِفاتِهِمْ كَما ذُكِرَ في القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَاقْرَأ المَوْضوعَ عَلى الطَّلَبَةِ في طابورِ الصَّباحِ .

* * *

الدرسُ الثامنُ والثلاثونَ

سورةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الثّامِنُ والثَّلاثونَ

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

القَرْحُ	الجِراحُ الشَّديدَةُ الَّتي أَصابَتِ المُسْلِمينَ يَوْمَ أُحُدٍ .
قالَ لَهُمُ النَّاسُ	المُنافِقونَ .
إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعوا لَكُمْ	كُفَّارُ مَكَّةَ .
حَسْبُنا اللهُ	كافينا هُوَ اللهُ تَعالى .
يُسارِعونَ في الكُفْرِ	يَدْخُلونَ في الكُفْرِ بِرَغْبَةٍ .

التَّفسيرُ :

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ .

إِنَّ المُؤْمِنينَ هُمُ الَّذينَ يُطيعونَ اللهَ وَرَسولَهُ في كُلِّ ما يُؤْمَرونَ بِهِ ، وَها هُمُ الصَّحابَةُ رُضْوانُ اللهِ

عَلَيْهِمْ بَعْدَ ما كانَ لَهُمْ في مَعرَكَةِ أُحُدٍ ، وَبَعْدَ أَنْ أَصابَتْهُمُ الجِراحُ الشَّديدَةُ يَدْعوهُمُ الرَّسولُ لِلخُروجِ مَرَّةً أُخْرى لِلْجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، فَلا تَمْنَعُهُمُ الجِراحُ والآلامُ مِنَ الاسْتِجابَةِ لِلرَّسولِ ﷺ .

سَبَبُ النُّزولِ :

رُوِيَ أَنَّ أَبا سُفْيانَ وَأَصْحابَهُ بَعْدَ أَنِ انْصَرَفوا مِنْ أُحُدٍ وَبَلَغوا الرَّوْحاءَ ، نَدِموا وَقالوا : إِنّا قَتَلْنا أَكْثَرَهُمْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلاَّ القَليلُ فَلِمَ تَرَكْناهُمْ ؟ بَلِ الواجِبُ أَنْ نَرْجِعَ وَنَسْتأْصِلَهُمْ ، فَهَمُّوا بِالرُّجوعِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسولَ اللهِ ﷺ فَأَرادَ أَنْ يُرْهِبَ الكُفَّارَ وَيُرِيَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ أَصْحابِهِ قُوَّةً ، فَنَدَبَ أَصْحابَهُ إِلى الخُروجِ في طَلَبِ أَبي سُفْيانَ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى : إِنَّ الَّذينَ أَجابوا داعِيَ اللهِ تَعالى وأَطاعوا رَسولَهُ فَخَرَجوا لِلجِهادِ في سَبيلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، دونَ ضَعْفٍ أَوْ تَخاذُلٍ مَعَ ما أَصابَهُمْ مِنْ جِراحٍ وَآلامٍ شَديدَةٍ ؛ إِنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ أَحْسَنوا بِأَنْ أَدَّوا كُلَّ ما أَمَرَهُمْ رَسولُ اللهِ ﷺ وَاتَّقوا اللهَ تَعالى في كُلِّ أَحْوالِهِمْ ، فَصانوا أَنْفُسَهُمْ عَمَّا نَهاهُمُ اللهُ عَنْهُ ، لَهُمْ أَجْرٌ عَظيمٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى .

وَبَعْدَ أَنْ مَدَحَهُمُ اللهُ تَعالى عَلى حُسْنِ اسْتِجابَتِهِمْ للهِ وَلِرَسولِهِ ﷺ امْتَدَحَهُمْ عَلى ثَباتِهِمْ وَشَجاعَتِهِمْ .

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ .

يَذْكُرُ المُفَسِّرونَ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ في غَزْوَةِ بَدْرِ الصُّغْرى ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبا سُفيانَ لَمَّا عَزَمَ عَلى الانْصِرافِ إِلى مَكَّةَ بَعْدَ أُحُدٍ ، نادى : يا مُحَمَّدُ ، مَوْعِدُنا مَوْسِمُ بَدْرِ الصُّغْرى ، فَنَقْتَتِلُ بِها إِنْ شِئْتَ ، فَقالَ رَسولُ اللهِ لِعُمَرَ : قُلْ لَهُ بَيْننا وَبَيْنَكَ ذَلِكَ إِنْ شاءَ اللهُ .

فَلَمَّا حَضَرَ الأَجَلُ خَرَجَ أَبو سُفيانَ مَعَ قَوْمِهِ حَتَّى نَزَلَ بِمَرِّ الظَّهرانِ فَأَلْقى اللهُ الرُّعْبَ في قَلْبِهِ ، فَبَدا لَهُ أَنْ يَرْجِعَ ، فَلَقِيَ نَعيمَ بنَ مَسْعودٍ وَقَدْ كانَ مُعْتَمِراً ، فَقالَ لَهُ : يا نَعيمُ : إِنّي وَعَدْتُ مُحَمَّداً أَنْ نَلْتَقِيَ بِمَوْسِمِ بَدْرٍ ، وَإِنَّ هَذا عامُ جَدْبٍ وَلا يَصْلُحُنا إِلاَّ عامٌ نَرْعى فيهِ الشَّجَرَ ، وَنَشْرَبُ فيهِ اللَّبَنَ ، وَقَدْ بَدا لي أَنْ أَرْجِعَ ، وَلَكِنْ إِنْ خَرَجَ مُحَمَّدٌ وَلَمْ أَخْرُجْ زادَ بِذَلِكَ جُرْأَةً عَلَيْنا ، فَاذْهَبْ إِلى المَدينَةِ فَثَبِّطْهُمْ وَلَكَ عِنْدي عَشَرَةٌ مِنَ الإِبِلِ .

فَخَرَجَ نَعيمٌ إِلى المَدينَةِ فَوَجَدَ المُسْلِمينَ يَتَجَهَّزونَ ، فَقالَ لَهُمْ : ما هَذا بِالرَّأْيِ ، أَتَوْكُمْ في دِيارِكُم وَقَتَلوا أَكْثَرَكُمْ ، فَإِنْ ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَمْ يَرْجِعْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ، فَوَقَعَ هَذا الكَلامُ في قُلوبِ قَوْمٍ مِنْهُمْ ، فَلَمَّا رَأى النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ قالَ : وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لأَخْرُجَنَّ إِلَيْهِمْ وَلَوْ وَحْدي .

ثُمَّ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ في جَمْعٍ مِنْ أَصْحابِهِ ، وَذَهَبوا إِلى أَنْ وَصَلوا إِلى بَدْرِ الصُّغْرى ، وَهِيَ ماءٌ

لِبَني كِنانَةَ ، وكانَتْ مَوْضِعَ سوقٍ لَهُمْ يَجْتَمِعونَ فيها كُلَّ عامٍ ثَمانِيَةَ أَيّامٍ وَلَمْ يَلْقَ رَسولُ اللهِ وَأَصْحابُهُ أَحَداً مِنَ المُشْرِكينَ . وَوَقَفوا في السُّوقِ وَ كانَتْ مَعَهُمْ نَفَقاتٌ تِجاراتٍ فَباعوا وَ اشْتَرَوْا أَدَماً وَزَبيباً ، وَرَبِحوا وَأَصابوا بِالدِّرْهَمِ دِرْهَمَيْنِ وَانْصَرَفوا إِلى المَدينَةِ سالِمينَ ، أَمّا أَبُو سُفيانَ وَمَنْ مَعَهُ فَقَدْ عادوا إِلى مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ بَعْدَ أَنْ وَصلوا إِلى مَرِّ الظَّهرانِ .

﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ .

إِنَّ هَؤُلاءِ المُؤْمِنينَ الَّذينَ لَمْ تَمْنَعْهُمْ جِراحُهُمْ مِنَ الخُروجِ لِلْقِتالِ ، وَلَمْ يُرْهِبْهُمْ قَوْلُ مَنْ قالَ مُخَوِّفاً مُثَبِّطاً بِأَنْ قُرَيْشاً قَدْ جَمَعَتْ لَهُمُ الجُيوشَ لِتَسْتَأْصِلَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، وَلاَ تَخْرُجوا لِقِتالِهِمْ ، لَكِنَّهُمْ لإِيمانِهِمُ الشَّديدِ وَصِدْقِ اعْتِمادِهِمْ عَلى اللهِ تَعالى ، لَمْ يَلْتَفِتوا إِلى هَذا القَوْلِ ، ﴿ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ فَقَدْ زادَهُمْ هَذا القَوْلُ إِيماناً وَثَباتاً ، فَقالوا لِلْمُثَبِّطينَ : ﴿ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ ﴾ أَيْ هُوَ يَكْفينا أَمْرَ أَعْدائِنا ، قَدْ تَوَكَّلْنا عَلَيْهِ ، وَهُوَ نِعْمَ النَّصيرُ .

عَنْ ابنِ عَبّاسٍ قالَ : « (حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكيلُ) قالَها إِبْراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ حينَ أُلْقِيَ بِهِ في النّارِ ، وَقالَها مُحَمَّدٌ ﷺ حينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ . إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ »[1] .

وَلَقَدْ كافَأَ اللهُ المُؤْمِنينَ بِالعاقِبَةِ الحَسَنَةِ . ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴾ .

لَقَدْ عادَ المُسْلِمونَ إِلى المَدينَةِ ـ بَعْدَ أَنْ وَجَدوا جُموعَ قُرَيْشٍ قَدْ فَرَّتْ ـ رَجَعَ المُسْلِمونَ مَصْحوبينَ بِنِعْمَةٍ عَظيمَةٍ مِنَ اللهِ تَعالى ، حَيْثُ سَلَّمَهُمْ مِنْ شَرٍّ ، فَلَمْ يُصِبْهُمْ أَذىً أَوْ مَكْروهٌ ، وَرَجَعوا كَذَلِكَ مَصْحوبينَ بِفَضلٍ مِنَ اللهِ تَعالى حَيْثُ أَكْرَمَهُمْ بِالرِّبْحِ الوَفيرِ في تِجارَتِهِمْ ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالأَجْرِ الجَزيلِ ، وَقَدْ اتَّبَعوا ما يُرْضي اللهَ تَعالى ، وَيُوصِلُهُمْ إِلى ثَوابِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَذَلِكَ بِاسْتِجابَتِهِمْ لِلرَّسولِ ﷺ .

وَيَأْمُرُ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ أَنْ يَكونَ خَوْفُهُمْ مِنْهُ وَحْدَهُ ، وَأَنْ لا يَخافوا الشَّيْطانَ، يَقولُ تَعالى :

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ .

وَذَلِكَ أَنَّ الَّذينَ ثَبَّطوا المُسْلِمينَ وَخَوَّفوهُمْ مِنْ لِقاءِ العَدوِّ هُمْ أَتْباعُ الشَّيْطانِ ، إِضافَةً إِلى ذَلِكَ فَإِنَّ الشَّيْطانَ دائِمُ الوَسْوَسَةِ في قُلوبِ المُؤْمِنينَ بِالشَّرِّ ، وَالخَوْفِ مِنَ المُشْرِكينَ ، وَلِذا عَلَيْكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَنْ لا تَخافوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ ، بَلْ اجْعَلوا خَوْفَكُمْ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ حَقّاً .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، سورة آل عمران .

إنَّ الَّذي يَجْعَلُ خَوْفَهُ مِنَ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، لَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْهُ الشَّيْطانُ ، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الإسراء : ٦٥] وَلا شَكَّ أَنَّ الخَوْفَ مِنَ اللهِ تَعالى إِنَّما يَكونُ بِتَقوى اللهِ ، أَيْ امْتِثالِ أَوامِرِهِ وَاجْتِنابِ نَواهِيهِ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَسْلِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ :

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ .

لا يَحْزُنْكَ يا مُحَمَّدُ وَلا تَتَحَسَّرْ لِحالِ أُولَئِكَ القَوْمِ الَّذينَ يَقَعونَ سَريعاً في الكُفْرِ ، وَيَرْغَبونَ فيهِ أَشَدَّ الرَّغْبَةِ ، فَإِنَّهُمْ تَمادَوْا في كُفْرِهِمْ وَضَلالِهِمْ وَإِضْلالِ غَيْرِهِمْ ، فَلَنْ يَضُرُّوا دينَ اللهِ تَعالى أو أَوْلياءَهُ بِشَيءٍ حَتَّى لَوْ كانَ ضَرَراً يَسيراً . إِنَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى يُريدُ أَنْ يُزيلَ مِنْ نَفْسِ حَبيبِهِ وَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ هذا الحُزنَ ، وَيُطَمْئِنَهُ إلى أَنَّ العاقِبَةَ لَنْ تَكونَ إلاَّ لَهُ وَلأَتباعِهِ المُؤْمِنينَ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ يُريدُ أَنْ لا يَجْعَلَ لِهَؤُلاءِ الكافِرينَ نَصيباً مِنَ الخَيْرِ في الآخِرَةِ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ اخْتِيارِهِمُ الكُفْرَ بِإِرادَتِهِمْ ، وَلَهُمْ كَذَلِكَ عَذابٌ عَظيمٌ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لا يُؤْمِنُ الإِنْسانُ حَتَّى يَكونَ اللهُ وَرَسولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سَواهُما .

٢ـ إذا وَقَعَ الإِنْسانُ في أَمْرٍ عَظيمٍ يَقولُ : حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكيلُ .

٣ـ الباطِلُ لا يَتْرُكُ أَيَّ فُرْصَةٍ تَسْنَحُ لَهُ إلاّ وَ يُحاوِلُ أَنْ يَنالَ مِنَ الحَقِّ ، فَالصِّراعُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ دائِمٌ إلى أَنْ يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ وَما عَلَيْها ، وَالعاقِبَةُ لِلحَقِّ إنْ شاءَ اللهُ .

٤ـ عَلى الإِنْسانِ أَنْ يُحاوِلَ دائِماً التَّغَلُّبَ عَلى وَساوِسِ الشَّيْطانِ وأَتْباعِهِ ، وَذَلِكَ باتِّباعِ أَمْرِ اللهِ وَاجْتِنابِ نَهْيِهِ ، وَالشُّعورِ بِرَقابَةِ اللهِ عَلَيْهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما سَبَبُ نُزولِ الآياتِ الكَريمَةِ ؟

٢ـ لِمَنْ أَعَدَّ اللهُ تَعالى الأَجْرَ العَظيمَ ؟ اذْكُرِ الدَّليلَ .

١ـ لِماذا امْتَدَحَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ عَلى ثَباتِهِمْ وَشَجاعَتِهِمْ ؟

٢ـ مَنْ نَعيمُ بنُ مَسْعودٍ ؟ وَماذا كانَ دَوْرُهُ يَوْمَ بَدْرِ الصُّغْرى ؟

٣ـ أ ـ لَقَدْ قِيلَ لِلْمُؤْمِنينَ ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُم﴾ ، فَماذا كانَ مَوْقِفَهُمْ مِمَّا قيلَ لَهُمْ ؟

ب ـ مَنِ المَقْصودُ بِالنَّاسِ الأُولى والنَّاسِ الثَّانِيَةِ الَّتي وَرَدَتْ في الآيَةِ (١٧٣) ؟

٤ـ لَقَدْ رَجَعَ المُجاهِدونَ إِلى المَدينَةِ مَصْحوبينَ بِأُمورٍ ، ما هِيَ ؟

٥ـ كَيْفَ يُمْكِنُ لِلإِنْسانِ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلى وَساوِسِ الشَّيْطانِ ؟

٦ـ جاءَ في الآياتِ الكَريمَةِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَضِّحْ ذَلِكَ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ المَكانَ الَّذي ذَهَبَ إِلَيْهِ الرَّسولُ ﷺ بَعْدَ غَزْوَةِ أُحُدٍ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةَ سورَةِ التَّوْبَةِ الدَّالَةَ عَلى خَشْيَةِ اللهِ .

* * *

الدَّرسُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ - القِسْمُ التّاسِعُ والثّلاثون

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

اشْتَروا : اسْتَبْدَلوا ، وَيَأتي بِمَعْنى باعوا .

نُمْلي : نُمْهِلُ .

يَميزَ : يُحَدِّدَ وَيُبَيِّنَ ، وَيَأْتي بِمَعْنى يُفَصِّلَ .

الخَبيثَ : المُنافِقَ وَمَنْ عَلى شاكِلَتِهِ مِنْ ضِعافِ الإيمانِ .

الطَّيبِ : المُؤْمِنِ الصَّادِقِ .

يَجْتَبي : يَخْتارُ وَيَصْطَفي .

التَّفسيرُ :

بَيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ الكافِرينَ مُنْغَمِسونَ في كُفْرِهِمْ وَضَلالِهِمْ ، وَلِذا فَقَدْ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً عَظيماً ، وَتُؤَكِّدُ آياتُ الدَّرْسِ هَذِهِ العاقِبَةَ لِلكافِرينَ ، فَيَقولُ اللهُ تَعالى :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)﴾ .

وفي الآيَةِ اسْتِعارَةٌ تَمْثيلِيَّةٌ ، حَيْثُ شَبَّهَ اللهُ تَعالى الَّذين يَتْرُكونَ الحَقَّ الواضِحَ الَّذي قامَتِ الأَدِلَّةُ

عَلى صِحَّتِهِ ، وَيَخْتارونَ الضَّلالَ الَّذي قامَتِ الأَدِلَّةُ على بُطْلانِهِ بِمَنْ يَكونُ في يَدِهِ سِلْعَةٌ ثَمينَةٌ فَيَتْرُكُها وَيَأْخُذُ مُقابِلَها سِلْعَةً فاسِدَةً رَديئَةً .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمٗاۚ وَلَهُمْ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ ﴾ .

إِنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ اسْتَبْدَلوا الباطِلَ بِالحَقِّ لَنْ يَضُرُّوا دينَ اللهِ تَعالى وَلا رَسولَهُ وَلا أَوْلياءَهُ بِشَيءٍ ، وَلَكِنَّهُمْ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ ، وَلِذا سَتَكونُ نَتيجَتُهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ ، وَهِيَ العَذابُ المُؤْلِمُ الشَّديدُ بِسَبَبِ إِيثارِهِمُ الكُفْرَ عَلى الإيمانِ ، وَهَذا هُوَ حالُهُمْ فعَلى المُسْلِمِ أَنْ لا يَغْتَرَّ بِحالِهِمْ في هَذِهِ الدُّنيا ، لِما يراهُ مِنْ تَمَتُّعِ أُولَئِكَ الكافِرينَ بِمُتَعِ الدُّنْيا وَتَقَلُّبِهِمْ في نَعيمِها ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعالى يُمْهِلُهُمْ بِتَطويلِ أَعْمارِهِمْ وَإِعْطائِهِمُ الكَثيرَ مِنْ وَسائِلِ العَيْشِ الرَّغيدِ ، فَلا يَحْسَبَنَّ أُولَئِكَ الكافِرونَ أَنَّ تَنَعُّمَهُمْ في الدُّنْيا ، هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ ، بَلْ هُوَ سَبَبٌ لِلمَزيدِ مِنْ عَذابِهِمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ إِنَّما يُمْهِلُهُمْ لِيَزْدادوا إِثْماً بِكَثْرَةِ ارْتِكابِهِمْ لِلمَعاصي ، وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ مُهينٌ ، لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ بِنِعَمِهِ في الدُّنيا ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَشْكُروا هَذِهِ النِّعَمَ ، وَلِذا فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ سَيُذِلُّهُمْ وَيُهينُهُمْ في الآخِرَةِ . قالَ تَعالى : ﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥] .

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ ﴾ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ بَعْضِ الحِكَمِ الَّتي اشْتَمَلَتْ عَلَيْها غَزْوَةُ أُحُدٍ ، قالَ تَعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ وَلا سُنَّتِهِ أَنْ يَتْرُكَكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ ، وَقَدِ التَبَسَ عَلَيْكُمْ أَمْرُ المُنافِقينَ ، وَلَكِنَّ سُنَّةَ اللهِ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ وَيَمْتَحِنَكُمْ بِالمَصائِبِ ، حَتَّى يَتَمَيَّزَ المُؤْمِنُ مِنَ المُنافِقِ ، وَيَظْهَرَ وَلِيُّ اللهِ تَعالى ، وَيَفْضَحَ بِها عَدُوَّهُ ، وَقَدِ امْتَحَنَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَظَهَرَ إِيمانُهُمْ وَصَبْرُهُمْ وَثَباتُهُمْ وَطاعَتُهُمْ للهِ وَرَسولِهِ ، وَظَهَرَتْ مُخالَفَةُ المُنافِقينَ وَنُكوصُهُمْ عَنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ ، وَخِيانَتُهُمْ للهِ وَلِرَسولِهِ ﷺ ، وَيُبَيِّنُ سُبْحانَهُ لِلمُؤْمِنينَ بِأَنَّهُ ما كانَ لِيُطْلِعَ أَحداً مِنْهُمْ عَلى الغَيْبِ الذي تَعْرِفونَ بِهِ المُؤْمِنَ مِنَ المُنافِقِ ، فَإِنَّ عِلْمَ ذَلِكَ إِلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وَلَكِنَّهُ سُبْحانَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ أَنَّهُ يَصْطَفي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ لِيُطْلِعَهُ عَلى بَعْضِ الغَيْبِيَّاتِ ، وَهَذا ما كانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الَّذي اخْتارَهُ اللهُ وَاصْطَفاهُ ، وَأَطْلَعَهُ عَلى بَعْضِ الغَيْبِيَّاتِ . قالَ تَعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ

بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن : ٢٦-٢٧] . إذا علِمْتُمْ أيُّها المُؤْمِنونَ بِأنَّ اللهَ تَعالى لا يُطْلِعُ أحَداً على الغَيْبِ إلاَّ مَنِ اخْتارَهُ واجْتَباهُ لِلرِّسالَةِ ، فعَلَيْكُمْ أنْ تُؤْمِنوا باللهِ وبِرَسولِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وجَميعِ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فإنَّكُمْ إنْ آمَنْتُمْ وسَلَّمْتُمْ أمْرَكُمْ للهِ تَعالى ، واتَّقَيْتُمُ اللهَ تَعالى بامْتِثالِ أوامِرِهِ واجْتِنابِ نَواهيهِ ، فلَكُمْ مقابِلَ ذلِكَ أجْرٌ عَظيمٌ مِنَ اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الَّذينَ يَتْرُكونَ الحَقَّ ويَتَّبِعونَ الباطِلَ لَهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى .

٢ـ تَنَعُّمُ الكافِرينَ وأهْلَ الضَّلالِ في الدُّنْيا ، لَيْسَ لِكَرامَتِهِمْ وعِظَمِ مَنْزِلَتِهِمْ .

٣ـ لَمْ يُطْلِعِ اللهُ تَعالى أحَداً عَلى الغَيْبِ إلاَّ الرَّسولَ ﷺ .

التَّقْويمُ :

أجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ اسْتِعارَةٌ ، وَضِّحْ هَذِهِ الاسْتِعارَةَ .

٢ـ هَل يُمْكِنُ لِلكافِرينَ أنْ يَضُرُّوا اللهَ ورَسولَهُ ؟ ومَنِ الَّذينَ يَتَضَرَّرونَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ؟

٣ـ ما النَّتيجَةُ الَّتي أعَدَّها اللهُ لِلكافِرينَ ؟

٤ـ كَيْفَ يُمْكِنُ أنْ يَتَّعِظَ المُؤْمِنونَ مِمَّا عَرَفوهُ مِنْ جَزاءٍ لِلكافِرينَ ؟

٥ـ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْ بَعْضِ حِكَمِ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ، بَيِّنْ هَذِهِ الحِكَمَ .

٦ـ هَل يُمْكِنُ لأحَدٍ أنْ يَطَّلِعَ عَلى الغَيْبِ ؟ ومَنِ الَّذي يَخْتَصُّهُ اللهُ بِعِلْمِ بَعْضِ الغَيْبِ ؟

نَشاطٌ :

ـ هاتِ مِثالَيْنِ مِمَّا أطْلَعَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ الأُمورِ الغَيْبِيَّةِ سَواءٌ ما كانَ مِنَ اليَهودِ أمْ كانَ مِنَ المُنافِقينَ أمْ غَيْرِهِمْ ، واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الأرْبَعونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الأرْبَعون

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَبْخَلونَ : مِنَ البُخْلِ ، وَهُوَ : ضِدُّ الكَرَم .

سَيُطَوَّقونَ : مُشْتَقٌّ مِنَ الطَّوْقِ ، وَهُوَ : ما يُلْبَسُ حولَ الرَّقَبَةِ .

التَّفسيرُ :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ .

لَقَدْ حَثَّتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَلى بَذْلِ الأَرْواحِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَجاءَتِ الآياتُ هُنا لِتَحُثَّ عَلى بَذْلِ المالِ كَذَلِكَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى : وَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ الَّذينَ يَبْخَلونَ بِما أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمٍ وأَمْوالٍ ، أَنَّ بُخْلَهُمْ خيرٌ لَهُمْ ، وَحِفْظٌ لِمالِهِمْ ، بلْ إِنَّ بُخْلَهُمْ هَذا فيهِ شَرٌّ عَظيمٌ لَهُمْ ، إِنَّهُمْ قَدْ بَخِلوا بِما لَيْسَ لَهُمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ بِفَضْلِهِ وَجودِهِ مَنَحَهُمْ إِيَّاهُ ، وَكانَ الأَوْلى أَنْ يَشْكُروا اللهَ تَعالى عَلى ما أَعْطاهُمْ ، وَذَلِكَ بِبَذْلِ مالِهِمْ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

عَنْ جابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ : (اتَّقوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يَوْمَ القِيامَةِ ، وَاتَّقوا الشُّحَ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ على أَنْ سَفَكوا دِماءَهُمْ ، وَاسْتَحلُّوا محارِمَهُمْ)[1] .

وَيُبَيِّنُ سُبْحانَهُ وَتَعالى المَصيرَ المُؤْلِمَ لأُولَئِكَ الَّذينَ بَخِلوا بِمالِهِمْ ، حَيْثُ سَتُجْعَلُ أَمْوالُهُمْ أَطْواقاً حَوْلَ رِقابِهِم ، وأَغْلالاً حَوْلَ أَجْسادِهِمْ .

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبيِّ ﷺ قالَ : مَنْ أَتاهُ اللهُ مالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكاتَهُ ، مَثَلَ لهُ يومَ القِيامَةِ شُجاعاً أَقْرَعَ لهُ زَبيبتانِ يُطَوِّقُهُ يومَ القيامَة ثُمَّ يَأْخُذُ بلهْزِمَتَيْهِ ـ أَيْ شِدْقَيْهِ ـ ثُمَّ يَقولُ : أَنا مالُكَ أَنا كَنْزُكَ ، ثمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[2] .

وهَذا الحَديثُ يُبَيِّنُ أَنَّ العُقوبَةَ حَقيقيَّةٌ هي تَطويقُ أَعْناقِ الَّذينَ بَخِلوا بِالمالِ .

الآياتُ القُرْآنِيَّةُ تَدعو المُؤْمِنينَ إِلى تَرْكِ البُخْلِ وَتَدعو إِلى الجودِ بِالمالِ ، لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وتُحَذِّرُهُمْ مِنَ البُخْلِ وَتَتوعَّدُهُمْ عَلَيْهِ بِالعَذابِ الأَليم ، وَتُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ مالِكَ الكَوْنِ كُلِّهِ هُوَ اللهُ تَعالى ، فَكُلُّ ما في السَّماواتِ والأَرْضِ ، مِمَّا يَتوارَثُهُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، إِنَّما هُوَ مُلْكٌ للهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ المُعْطي وَالمانِعُ ، فَلِماذا يَبْخَلونَ عَلى اللهِ تَعالى بِما يَمْلِكُهُ سُبْحانَهُ ، وَلِماذا لا يُنْفِقونَهُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ مُطَّلِعٌ عَلى ما يَكونُ مِنْكُمْ مِنْ جُودٍ وَكَرَم أَوْ بُخْلٍ ، وَسَيُجازي كُلَّ إِنْسانٍ على عَمَلِهِ .

وَبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنِ المُنافِقينَ وَفَضَحَتْهُمْ ، انْتَقَلَتْ لِلحَديثِ عَنْ أَهْلِ الكِتابِ ، وَبَعْضِ رذائِلِهِمْ ، لِيَحْذَرَ المُؤْمِنونَ مِنْهُمْ ، قَالَ تَعالى :

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ .

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قالَ : دَخَلَ أبو بَكْرٍ الصِّديقُ بَيْتَ المدراسِ فَوَجَدَ مِنْ يَهودَ ناساً كَثيرَةً قَدِ اجْتَمَعوا عَلى رَجُلٍ مِنْهُمْ يُقالُ لَهُ : فِنْحاصُ ، وكانَ مِنْ عُلَمائِهِمْ ، وَمَعَهُ حَبْرٌ يُقالُ لَهُ « أَشْيَعُ » فَقالَ لَهُ أَبو بَكْرٍ : وَيْحَكَ يَا فِنْحاصُ ، اتَّقِ اللهَ وأَسْلِمْ ، فواللهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، قَدْ جاءَكُمْ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ ، تَجِدونَهُ مَكْتوباً عِنْدَكُمْ في التَّوْراةِ والإِنْجيلِ ، فَقالَ فِنْحاصُ : واللهِ يا أَبا بَكْرٍ ما بِنا إِلى اللهِ مِنْ حاجَةٍ مِنْ فَقْرٍ ، وإِنَّهُ إِلَيْنا لَفَقيرٌ ، ما نَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ إِلاَّ كَما يَتَضَرَّعُ إِلَيْنا وإِنَّا

---

(١) أخرجه الإمام مسلم ، حديث رقم ٢٥٧٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٤٢٨٩ .

لأَغْنِياءُ ، وَلَوْ كانَ عنَّا غَنِيّاً ما اسْتَقْرَضَ منَّا كَما يَزْعُمُ صاحِبُكُمْ ، يَنْهاكُمْ عَنِ الرِّبا ويُعْطينا ، وَلَوْ كانَ غَنيّاً ما أَعْطانا الرِّبَ .

فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ وَضَرَبَ وَجْهَ فِنْحاصَ ضَرْباً شَديداً ، وَقالَ : وَالّذي نَفْسي بِيَدِهِ لولا الَّذي بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مِنَ العَهْدِ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ يا عدّوَ اللهِ ، فَذَهَبَ فِنْحاصُ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، فَقالَ : يا مُحَمَّدُ ، أَبْصِرْ مَا صَنَعَ بي صاحِبُكَ ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : مَا حَمَلَكَ على ما صَنَعْتَ يا أَبا بَكْرٍ ؟ فَقالَ أَبو بَكْرٍ : يا رَسولَ الله ، إنَّ عدوَّ اللهِ قالَ قولاً عَظيماً ، يَزعمُ أنَّ اللهَ فَقيرٌ وَأَنَّهُمْ عَنْهُ أَغْنياءُ ، فَلمَّا قالَ ذَلِكَ غضبتُ للهِ مِمَّا قالَ فَضَرَبْتُ وَجْهَهُ ، فَجَحَدَ فِنْحاصُ ذَلِكَ وَقالَ : مَا قُلْتُ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ فيما قالَ فنحاصُ : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[1] .

يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى بِأَنَّهُ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ هَؤُلاءِ الكافِرينَ الَّذينَ قالوا هَذِهِ المَقالَةَ ، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ ، وَلِذَلِكَ قالَ : ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ وَالكِتابَةُ عَلى حَقيقَتِها ، فَإِنَّ الأَعْمالَ والأَقوالَ تُكْتَبُ في صُحُفِهِمْ ثُمَّ يُعاقِبُهُمْ عَلَيْها سُبْحانَهُ وَتَعالى عِقاباً شَديداً .

وَلَيْسَ هَذا ما سَيُسَجِّلُهُ في صَحائِفِ أَعْمالِهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، بَلْ سَيَكْتُبُ عَلَيْهِمْ قَتْلَهُمُ الأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقَدْ نَسَبَ اللهُ تَعالى إِلَيْهِم هَذا الفِعْلَ ، مَعَ أَنَّ الَّذي قَتَلَ الأَنْبِياءَ هُمْ أَسْلافُهُمْ مِنْ قبلُ ، وَلَكِنْ لَمَّا رَضوا مَا فَعَلَهُ أَسْلافُهُمْ ، كانوا كَأَنَّهُمْ قَدْ فَعَلوا هَذِهِ الفِعْلَةَ .

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ .

إِنَّ هَؤُلاءِ سَيَقولُ لَهُمْ سُبْحانَه ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أَيْ : سَنَنْتَقِمُ مِنْهُمْ وَسَنُذيقُهُمُ العَذابَ ، كَما أَذاقوا المُسْلِمينَ وأَتْباعَ الأَنْبِياءِ أَلْواناً مِنَ العَذابِ ، وآذَوْهُمْ أَشَدَّ الإيذاءِ وهَذا العَذابُ المُحْرِقُ الَّذي يَذوقونَ حَرارَتَهُ بِسَبَبِ أَعْمالِهِمُ الَّتي عَمِلوها في الدُّنْيا ، مِنْ وَصْفِ اللهِ تَعالى بِالفَقْرِ ، وَقَتْلِ للأَنْبياءِ ، وَما كانَ مِنْهُمْ مِنْ ضُروبِ الكُفْرِ ، وإِنَّ هَذا العذابَ أَصابَهُمْ بِسَبَبِ عَمَلِهِمْ ، وَبِسَبَبِ كَوْنِ اللهِ تَعالى عادِلاً في حُكْمِهِ وأَفْعالِهِ ، فَهُوْ لا يَجورُ وَلا يَظْلِمُ ، وَلا يُعاقِبُ غَيْرَ المُسْتَحِقِّ لِلْعقابِ ، ولاَ يَجْعلُ المُجْرِمينَ كالمُتَّقينَ .

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٤/ ١٩٤ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الحَثُّ عَلى الإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، فالبُخْلُ شَرٌّ عَظيمٌ ، وَلا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ فيهِ أَيُّ خَيْرٍ .

٢ـ كُلُّ ما يُعْطاهُ الإِنْسانُ مِنْ مالٍ وَجاهٍ وَقُوَّةٍ وَعِلْمٍ عَرَضٌ زائِلٌ .

٣ـ إنَّ اللهَ تَعالى لا تَخْفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ مِنْ أَعْمالِ البَشَرِ ، فَعَلى الإِنْسانِ أَنْ يَحْرِصَ عَلى الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لِماذا كانَ الشَّرُّ العَظيمُ في البُخْلِ ؟

٢ـ ما المَصيرُ الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذينَ يَبْخَلونَ بِأَمْوالِهِمْ ؟

٣ـ ما المَقْصودُ في قَوْلِهِ : ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ﴾ ؟ وَهَلْ هَذا حَقيقَةٌ ؟

٤ـ بَيَّنَتِ الآياتُ رَذيلَةً مِنْ رَذائِلِ أَهْلِ الكِتابِ في حَقِّ اللهِ تَعالى ، ما هِيَ ؟

٥ـ ما مَوْقِفُ اليَهودِ مِنْ أَنْبيائِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلامُ ؟

٦ـ ما المَصيرُ الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ لِهَؤُلاءِ اليَهودِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اشْرَحْ مُفْرَداتِ الحديثِ : شُجاعاً أقرعَ ، زَبيبتانِ ، واكتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرس الحادي والأربعون

سورة آل عمران ـ القسم الحادي والأربعون

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

معاني المُفْرَدات :

عَهِدَ إِلَيْنا : أَوْصانا .

قُرْبانٍ : ما يُتَقَرَّبَ بِهِ إِلى اللهِ تَعالى مِنْ ذَبائِحَ وَأَمْوالٍ .

البَيِّناتِ : المُعْجِزاتِ الواضِحاتِ .

الزُّبُرِ : واحِدها زَبُورٌ وَهُوَ الكِتابُ المَقْصورُ عَلى الحِكَمِ .

تُوَفَّوْنَ : تَأْخُذونَها كامِلَةً غَيْرَ مَنْقوصَةٍ .

زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ : نُجِّيَ وَأُبْعِدَ عَنْها .

التَّفْسيرُ :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ .

ما تَزالُ الآياتُ تَتَحَدَّثُ عَنْ رَذائِلِ أَهْلِ الكِتابِ اليَهودِ . عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ، أَنَّ

جماعةً مِنَ اليَهودِ أَتَوْا رَسولَ اللهِ ﷺ فقالوا : يَا مُحَمَّدُ تَزْعُمُ أَنَّكَ رَسولُ اللهِ ، وَأَنَّهُ تعالى أَوْحى إِلَيْكَ كِتاباً ، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيْنا في التَّوْراةِ أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسولِ اللهِ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ، ويَكونَ لِلنّارِ دَوِيٌّ خَفيفٌ ، حينَ تَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ ، فَإِنْ جِئْتَنا بِهذا صَدَّقْناكَ ، فَنَزَلَتِ الآيَةُ .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾ .

إِنَّ ادِّعاءَهُمْ هَذا مِنْ مُفْتَرَياتِهِمْ وأَباطيلِهِمْ ، الَّتي قَصَدوا مِنْها عَدَمَ الإيمانِ بالرَّسولِ ﷺ ، وَإِذا كانَتْ هَذِهِ مُعْجِزَةٌ لِرَسولٍ مِنَ الرُّسُلِ السَّابِقينَ ، وَهِيَ أَنْ تَأْتِيَ نارٌ مِنَ السَّماءِ فَتَأْكُلَ ما يَتَقَرَّبونَ بِهِ إِلى اللهِ ، فَإِنَّ هَذِهِ لاَ يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ كَذَلِكَ مُعْجِزَةً لِلرَّسولِ ﷺ ، وَلِذَلِكَ رَدَّ عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى بِما يُبْطِلُ قَوْلَهُمْ : ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، أي قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ مُوَبِّخاً وَمُكَذِّباً ، قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ كَثيرونَ مِنْ قَبْلي كَزَكَرِيّا وَيَحيى وَغَيْرِهِما بِالمُعْجِزاتِ الدَّالَّةِ عَلى صِدْقِ نُبُوَّتِهِمْ ، وَبِما كُنْتُمْ تَقْتَرِحونَ وَتَطْلُبونَ ، وَأَتوا بِالقُرْبانِ الَّذي تَأْكُلُهُ النَّارُ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّكُمْ لَمْ تُؤْمِنوا بِهِمْ ، بَل تَجرأتُمْ عَلى اللهِ تَعالى ، وَقُمْتُمْ بِقَتْلِ أَنْبيائِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

إِنَّ هَؤُلاءِ اليَهودَ كانوا مُتَعَنِّتينَ ، قُلوبُهُمْ قاسِيَةٌ ، لا تَتَأَثَّرُ بالآياتِ الَّتي تَأْتيها ، وَلِذا فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى يُوبِّخُهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أَي : إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ فيما تَدَّعونَهُ مِنْ أَنَّكُمْ لا تُؤْمِنونَ إِلاَّ بِمَنْ جاءَكُمْ بِهَذِهِ المُعْجِزَةِ الَّتي طَلَبْتُمْ ، فَقَدْ جاءَ بِها أَنْبياءٌ مِنْ قَبْلُ ، فَلِمَ قَتَلْتُموهُمْ ؟

وَيُسَلّي اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى نَبِيَّهُ ﷺ ، فَيُبَيِّنُ لَهُ أَنَّكَ لَسْتَ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ يا مُحَمَّدُ ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ إِنْ كَذَّبوكَ بَعْدَ أَنْ جِئْتَهُمْ بِالبَيِّناتِ وَالبَراهينِ الواضِحَةِ ، وَالكِتابِ المُبينِ ، فَلا تَحْزَنْ لِفَسادِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَتَعَنُّتِهِمْ ، فَإِنَّ هَذِهِ هِيَ سُنَّةُ اللهِ تَعالى في الخَلْقِ ، فَقَدْ بَعَثَ اللهُ تَعالى رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ أَيَّدَهُمْ اللهُ تَعالى بِالمُعْجِزاتِ الباهِرَةِ ، وَالآياتِ البَيِّنَةِ ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ كُذِّبوا وَأُوذوا مِنْ أَقْوامِهِمْ ، فَصَبَروا عَلى ما كُذِّبوا وَأُوذوا .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ .

وَيُبَيِّنُ سُبْحانَهُ وَتَعالى زِيادَةً في تَسْلِيَةِ رَسولِهِ ﷺ ، بِأَنَّ ما تَراهُ يا مُحَمَّدُ مِنْ أُولَئِكَ الكافِرينَ ، فَهُوَ مُنْتَهٍ فَلا تَضجرْ وَلاَ تَحْزَنْ ، فَإِنَّ كُلَّ نَفْسٍ مَهْما طالَ عُمْرُها لابُدَّ وأَنْ يُصيبَها المَوْتُ ، قالَ تَعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي : كُلُّ نَفْسٍ خَلَقَها اللهُ تَعالى ، لا بُدَّ وأَنْ تَذوقَ طَعْمَ المَوْتِ ، وَتُحِسَّ بِهِ ، وَحينَ تُفارِقُ الجَسَدَ وَتَصْعَدُ إِلى بارِئِها سُبْحانَهُ وَتَعالى ، وَلا تَأْخُذُ أَجْرَها كُلَّهُ في الدُّنيا ، تُوَفَّى أَجْرَها وَتُعْطى جَزاءَ عَمَلِها وافِياً يَوْمَ القِيامَةِ .

وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ « التوْفِية » أي : أَخْذُ الجَزاءِ كُلِّهِ كامِلاً يَوْمَ القِيامَةِ ، وَفي هَذا إشارَةٌ إلى أَنَّ جُزْءاً مِنْ هَذا الجَزاءِ قَدْ يَصِلُ لِلإنْسانِ في الدُّنْيا ، سَواءٌ أكانَ خَيْراً أَمْ شَرّاً ، وَقَدْ يَصِلُ إِلَيْهِ في قَبْرِهِ ، وَلِذَلِكَ قالَ النَّبيُّ ﷺ : « القَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ »[1] .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ إنَّ النَّاسَ سَيُحاسَبونَ عَلى أَعْمالِهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، فَمَنْ خَلَصَ مِنَ العَذابِ ، وَأَبْعَدَ نَفْسَهُ عَنْها ، فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظيماً ، وَقَدْ عَبَّرَ عَنِ النَّجاةِ مِنَ النَّارِ بالزَّحْزَحَةِ ، كَأَنَّ الشَّخْصَ كانَ يَقِفُ عَلى حافَّةِ النَّارِ ، وَيُوشِكُ أَنْ يَسْقُطَ فيها لأَعْمالِهِ السَّيِّئَةِ ، وَلَكِنَّهُ عَمِلَ صالِحاً فَزَحزَحَتْهُ تِلْكَ الأَعْمالُ عَنِ النَّارِ والسُّقوطِ فيها ، وَجَعَلَتْهُ يَنْجو مِنْها بِرَحْمَةِ اللهِ تَعالى وَعَفْوِهِ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ إنَّ هَذِهِ الحَياةَ الدُّنْيا الَّتي نَعيشُ فيها ، وَنَتَمَتَّعُ بِلَذَّاتِها الحِسِّيَّةِ مِنْ مأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ أَوْ المَعْنَوِيَّةِ كَالجاهِ والسِّيادَةِ ، لَيْسَتْ إلاَّ مَتاعاً يَسْتَمْتِعُ بِهِ المَغْرورُ ، حَيْثُ لاَ يُفَكِّرُ إلاَّ فيها ، فَتَشْغَلُهُ في كُلِّ وَقْتِهِ ، فَلا يُفَكِّرُ إلاَّ في جَلْبِ لَذّاتِها وَمَنافِعِها لِنَفْسِهِ ، وَدَفْعِ آلامِها عَنْهُ ، فَهُوَ يُتْعِبُ نَفْسَهُ لِما لا يَسْتَحِقُّ التَّعَبَ ، وَيَشْقى فيما يَتَوَهَّمُهُ سَعادَةً لَهُ .

وَالعاقِلُ هُوَ الَّذي لاَ تَخْدَعُهُ الدُّنْيا بِزُخْرُفِها وَزينَتِها ، وَيَحْذَرُ مِنَ الإِسْرافِ في الاشْتِغالِ بِمتاعِها ، وَالعاقِلُ هُوَ الَّذي يَسْعى لِكَسْبِ ما يُفيدُهُ مِنْ تَعَلُّمِ عِلْمٍ ، أَوْ عَمَلٍ صالِحٍ يَنْتَفِعُ بِهِ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كَثيرَةٍ ، مِنْها :

١ـ طِباعُ البَشَرِ في كُلِّ الأَزْمِنَةِ سَواءٌ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَقَبَّلُ الحَقَّ وَيُقْبِلُ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُقاوِمُهُ وَيَبْتَعِدُ عَنْهُ .

٢ـ كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ ، وَالعاقِلُ الَّذي يَسْتَعِدُّ لِلِقاءِ رَبِّهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى .

٣ـ العاقِلُ مَنْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ وَأَدْخَلَها الجَنَّةَ ، وَذَلِكَ بِالإيمانِ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وَالالتِزامِ بِما أَمَرَ اللهُ بِهِ .

٤ـ الحَياةُ الدُّنْيا ما هِيَ إلاّ خِداعٌ ، تَخْدَعُ أَصْحابَها ، وَتُشْغِلُهُمْ عَنِ العَمَلِ الصَّالِحِ .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن ، حديث رقم ٢٤٦٠ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليَةِ :

١ـ ذَكَرَتِ الآيةُ أَنَّ اللهَ أَمَرَ اليَهودَ أَلاَّ يُؤْمِنوا بِرَسولٍ إلاَّ إذا شاهَدوا عَلامَةً مُعَيَّنَةً ، ما تِلْكَ العلامَةُ ؟

٢ـ هَلْ هُمْ صادِقونَ في ادِّعائِهِمْ هَذا ؟ اذْكُرِ الدَّليلَ .

٣ـ بِماذا رَدَّ القُرْآنُ الكَريمُ عَلى هَؤُلاءِ اليَهودِ ؟

٤ـ بيَّنَتِ الآياتُ تَسْلِيَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ وَسُنَّةً مِنْ سُنَنِ اللهِ في الخَلْقِ ، ما هِيَ ؟

٥ـ كَيْفَ كانَ مَوْقِفُ الأَنْبياءِ السَّابِقينَ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ أَقْوامِهِمْ ؟

٦ـ ما مَعنى قَوْلِهِ تَعالى : تُوَفَّى ؟

٧ـ هَلْ يَكونُ الجَزاءُ في الآخِرَةِ فَحَسْبُ ؟ وَضِّحْ ذَلِكَ .

٨ـ وَضِّحْ مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ عَلى مَنْ أُنْزِلَ الكِتابُ المُسَمَّى الزَّبورَ ، اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ مَوْضوعاً موجَزاً عَنِ افْتِراءاتِ أَهْلِ الكِتابِ ، وَكَيْفَ رَدَّ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ ، وَضَعِ المَوْضوعَ في مَجَلَّةِ المَدْرَسَةِ .

* * *

الدَّرْسُ الثّاني والأربعونَ

سورَةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الثّاني وَالأَرْبَعونَ

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

لَتُبْلَوُنَّ : لَتُخْتَبَرُنَّ .

تَصْبِروا : تَحْتَمِلوا المَكْروهَ ، وَتَكْظِموا النَّفْسَ عَلَيْهِ .

مِيثاقَ : عَهْداً مُؤَكَّداً .

لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ : لَتُظْهِرُنَّ جَميعَ ما فيهِ مِنَ الأَحْكامِ وَالأَخْبارِ .

نَبَذوهُ : طَرَحوهُ .

بِمَفازَةٍ مِنَ العَذابِ : بِمَنْجاةٍ مِنْهُ .

التَّفْسيرُ :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ .

جاءَ في الآياتِ السّابِقَةِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَبَيانُ ما لَقِيَهُ المُسْلِمونَ مِنْ أَذىً مِنَ المُشْرِكينَ ،

وَجَاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ لِلْمُسْلِمينَ بِأَنَّهُمْ كَما تَعَرَّضوا في السَّابِقِ لِلْمِحَنِ وَالآلام ، فَإِنَّهُمْ كَذَلِكَ في المُسْتَقْبَلِ سَيَلْقَوْنَ أذىً كَثيراً مِنَ الكافِرينَ في أَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُوَطِّنوا أَنْفُسَهُمْ عَلى الصَّبْرِ وَتَرْكِ الجَزَع ، وَقَدْ أَخْبَرَهُمُ اللهُ بِوقوعِ البَلاءِ حَتَّى لا يَشُقَّ عَلَيْهِمْ عِنْدَ نُزولِهِ ، لأَنَّ الشِّدَّةَ المُتَوَقَّعَةَ يَسْهُلُ عَلى المُؤْمِنِ احْتِمالُها ، أَمّا الشِّدَةُ الَّتي تَقَعُ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّعٍ فَإِنَّهُ يَصْعُبُ احْتِمالُها .

وَالابْتِلاءُ في المالِ يَكونُ بِما يُصيبُكُمْ مِنَ الضَّياعِ ، وَبِما يُطالِبونَ بِهِ مِنْ إِنفاقٍ في سَبيلِ اللهِ تَعالى وَفي وُجوهِ البِرِّ الكَثيرَةِ ، وَالابْتِلاءُ في الأَنْفُسِ يَكونُ بِما يُصيبُها مِنْ جِراحٍ وَآلامٍ ، وَبِبَذْلِها في الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

وَمِمّا يُبْتَلى بِهِ المُؤْمِنونَ ، أَنَّهُمْ سَيَسْمَعونَ إيذاءً كَثيراً مِنَ اليَهودِ وَالنَّصارى وَالمُشْرِكينَ ، وَالمَقْصودُ هُنا الإِيذاءُ في الدِّينِ .

وَقَدْ رُتِّبَتْ هَذِهِ الابْتِلاءاتُ مِنَ الأَدْنى إِلى الأَعْلى وَالأَشَدِّ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْوَنَ أَنْواعِ الابْتِلاءِ ما يُصيبُ الإِنْسانَ في مالِهِ ، ثُمَّ الأَشَدَّ ما يُصيبُهُ في نَفْسِهِ ، فَهِيَ أَغْلى مِنَ المالِ ، وَأَعْظَمُ الابْتِلاءاتِ هِيَ فِتْنَةُ الإِنْسانِ في دينِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ المَوْتَ يَهونُ عَلَيْهِ ، وَتَهونُ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، وَلَكِنَّ دينَهُ لا يَهونُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ يَتَحَمَّلُ صُنوفَ الأَذى في سَبيلِ دينِهِ .

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِلْمُؤْمِنينَ ما يُعينُهُمْ عَلى التَّغَلُّبِ عَلى الابْتِلاءِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي : إِنْ تَصْبِروا عَلى ما سَيَحِلُّ بِكُمْ مِنَ البَلاءِ في أَموالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَعَلى ما تَسْمَعونَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وَالمُشْرِكينَ مِنَ الأَذى ، وَتَتَّقوا اللهَ فيما أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ ، فَإِنَّ صَبْرَكُمْ وَتَقواكُمْ مِنَ الأُمورِ الَّتي يَنْبَغي أَنْ يَعْزِمَ عَلَيْها كُلُّ أَحَدٍ .

عَنْ مُصْعَبِ بنِ سَعْدٍ ، عَنْ أَبيهِ قالَ : قُلْتُ : يا رَسولَ اللهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً ؟ قالَ : (الأَنْبِياءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ ، فَيُبْتَلى الرَّجُلُ عَلى حَسَبِ دينِهِ ، فَإِنْ كانَ دينُهُ صَلْباً اشْتَدَّ بَلاؤُهُ ، وَإِنْ كانَ في دينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلى حَسَبِ دينِهِ ، فَما يَبْرَحُ البَلاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشي عَلى الأَرْضِ ما عَلَيْهِ خَطيئَةٌ)[1] .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتُحَدِّثَنا عَنْ رَذيلَةٍ مِنْ رَذائِلِ أَهْلِ الكِتابِ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ أي : اذْكُروا حينَ أَخَذَ اللهُ العَهْدَ وَالميثاقَ عَلى الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ مِنَ اليَهودِ وَالنَّصارى بِلِسانِ أَنْبِيائِهِمْ ، لِيُبَيِّنَ ما في كِتابِهِمْ لِلنَّاسِ ، وَيُبَيِّنوا ما فيهِ مِنْ أَحْكامٍ وَأَخْبارٍ ،

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في باب ما جاء في الصبر ، حديث رقم ٢٣٩٨ .

وَبشاراتِ بِالنَّبيِّ ﷺ ، وَلَكِنَّ أَهْلَ الكِتابِ نَقَضوا هَذا العَهْدَ ، وَلَمْ يُبالوا بِهِ أَوْ يَهْتَمُّوا بشَأْنِهِ ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ لَقَدْ نَبَذوا ما عاهدَهُمُ اللهُ عَلَيْهِ ، وَاسْتَهانوا بِهِ ، وَأَخَذوا بَدَلاً مِنْهُ شَيْئاً حَقيراً مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا ، وَهُوَ ما كانَ يَسْتَفيدُهُ الرُّؤَساءُ مِنَ المَرْؤوسينَ مِنْ حُطامِ الدُّنيا لِيَتَمَتَّعوا بِمَلَذّاتِها وَشَهواتِها الفانِيَةِ ، وَكانوا يُؤَوِّلونَ الكِتابَ وَيُحَرِّفونَهُ لأَغْراضٍ دُنْيَوِيَّةٍ ، وَيَصْرِفونَ نُصوصَهُ إِلى مَعانٍ تُوافِقُ هَوى الحُكَّامِ لِيَأْمَنوا شَرَّهُمْ ، أَوْ لإِرْضاءِ العامَّةِ أَوْ الأَغْنياءِ بِموافَقَةِ أَهْوائِهِمْ ، لِلاسْتِفادَةِ مِنْ جاهِهِمْ وَمالِهِمْ .

وما أَقْبَحَ هَذا الثَّمَنَ القَليلَ الحَقيرَ الَّذي يَقْبِضونَهُ مُقابِلَ تَحْريفِهِمْ كِتابَهُمْ ، وَتَغْييرِ نُصوصِهِ وأَحْكامِهِ ، لَقَدْ جَعَلوا الثَّمَنَ الفانِيَ بَدَلاً مِنَ النَّعيمِ الدَّائِمِ .

إِنَّ عَلى العالِمِ أَنْ يُرْشِدَ غَيْرَهُ ، وَيُبَيِّنَ ما في كِتابِ اللهِ تَعالى ، وَسُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ ، لِيَنالوا جَميعاً رِضى اللهِ تَعالى ، وَلِتَكونَ الأُمَّةُ قَوِيَّةً مُتَماسِكَةً يَهابُ العَدُوُّ جانِبَها ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَوْلَهُ : « لَوْلا ما أَخَذَ اللهُ تَعالى عَلى أَهْلِ الكِتابِ ما حَدَّثْتُكُمْ » وَتَلا هَذِهِ الآيَةَ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ رَذيلَةٍ مِنَ الرَّذائِلِ الَّتي هِيَ عامَّةٌ بَيْنَ اليهودِ وَغَيْرِهِمْ ، وفي بَيانِها تَأْديبٌ لِلْمُسْلِمينَ قالَ تَعالى :

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ .

أي لا تَظُنَّنَّ يا مُحَمَّدُ أَنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ يَفْرَحونَ بِما فَعَلوهُ مِنْ بَيْعِهِمْ دينَهُمْ بِدُنْياهُمْ ، وَاسْتِبْدالِهِمُ الَّذي هُوَ أَدْنى بالَّذي هُوَ خَيْرٌ ، وما فَعَلوهُ مِنْ تَحْريفٍ وَتَأْويلٍ لِكِتابِهِمْ ، وَلا تَظُنَّ كَذَلِكَ أَنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدوا بِما لَمْ يَفْعَلوا ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يَحْمَدَهُمُ النَّاسُ وَيُثْنوا عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ حُفَّاظٌ لِكِتابِ اللهِ ، مُوفونَ بِعَهْدِ اللهِ تَعالى مُظْهِرونَ لِلْحَقِّ ، مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلوا شَيْئاً مِنْ هَذا ، بَلْ فَعَلوا نَقيضَهُ ، فَحَوَّلوا كِتابَهُمْ إِلى ما يُوافِقُ أَهْواءَ الحُكَّامِ وَأَهْواءَ العامَّةِ .

وَمَعَ كُلِّ ما يَفْعَلُهُ هَؤُلاءِ فَإِنَّهُمْ يَدَّعونَ أَنَّهُمْ أَنْصارُ دينِ اللهِ تَعالى ، وَعُلَماءُ كِتابِهِ ، وهُمْ في الحقيقَةِ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْ عَذابِ اللهِ وَأَقْرَبُهُمْ إِلى رُضوانِهِ ؛ وَلِذا فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى كَذِبَ هَؤُلاءِ ، وَبَيَّنَ عاقِبَتَهُمْ ، فَقالَ تَعالى : ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي : لا تَظُنَّهُمْ يا مُحَمَّدُ ناجينَ مِنَ العَذابِ في الدُّنيا ، وَهَذا العَذابُ قَدْ يَكونُ بِانْتِصارِ أَهْلِ الحَقِّ عَلَيْهِمْ وَتَقْتيلِهِمْ وَتَشْريدِهِمْ وَخُذْلانِهِمْ ، وَقَدْ يَكونُ سَخَطاً مِنَ اللهِ يَحِلُّ بِهِمْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ ، كَأَنْ يُسَلِّطَ اللهُ عَلَيْهِمُ الزَّلازِلَ والفَيَضاناتِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وَإِضافَةً إِلى ذَلِكَ العَذابِ في الدُّنْيا فَإِنَّ لَهُمْ عَذاباً أَليماً شَديداً موجِعاً في الآخِرَةِ بِسَبَبِ ما كانَ مِنْهُمْ .

وَهَذِهِ الآيَةُ ـ كَما قُلْنا ـ لَيْسَتْ خاصَّةً بِاليَهودِ ، وَلَكِنَّها عامَّةٌ في كُلِّ مَنْ يَفْرَحُ بِإِظْهارِ الباطِلِ

وَبِالمَعاصي وَيَتَباهى بِها ، وَكُلِّ مَنْ يُحِبُّ أَنْ يُحْمَدَ بِأَمْرٍ لَمْ يَفْعَلْهُ ، فَتَعُمُّ الآيَةُ اليَهودَ والنَّصارى وَالمُسْلِمينَ كَذلِكَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الابْتِلاءُ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى في الحَياةِ ، فَإِنَّ أَهْلَ الحَقِّ لاَ بُدَّ وأَنْ يَتعَرَّضوا لِلابْتِلاءِ ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يُوَطِّنوا أَنْفُسَهُمْ عَلى تَحمُّلِ ذَلِكَ .

٢ـ الصَّبْرُ نِصْفُ الإيمانِ ، وَهُوَ مِنْ عَزْمِ الأُمورِ ، فَعَلَى المُؤْمِنِ أَنْ يَتَسَلَّحَ بِهِ لِيَتَحَمَّلَ ما يُبْتَلى بِهِ .

٣ـ عَلى المُؤْمِنينَ أَنْ يَتْلوا كِتابَهُمْ وَيُبَيِّنوهُ لِلنَّاسِ ، وَلاَ يَكْتُموا ما فيهِ ، حَتَّى لاَ يَحِلَّ بِهِمْ ما حَلَّ باليَهودِ .

٤ـ الَّذينَ يَتَباهَوْنَ بِالمَعاصي وَيُحِبُّونَ أَنْ يَحْمَدَهُمُ النَّاسُ عَلى أُمورٍ لَمْ يَفْعَلوها ، فَإِنَّ لَهُمْ عَذاباً أَليماً في الدُنْيا والآخِرَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ عَمَّ تَحَدَّثَتِ الآيَةُ الأُولى (١٨٦) مِنْ آياتِ هَذا الدَّرْسِ ؟

٢ـ لِماذا أَخْبَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ عَنِ البَلاءِ الَّذي سَيَقَعُ في المُسْتَقْبَلِ ؟

٣ـ بِماذ يَبْتَلي اللهُ تَعالى الإنْسانَ في الدُّنْيا ؟

٤ـ لِماذا رُتِّبَتِ الابْتِلاءاتُ في الآيَةِ هَذا التَّرْتيبَ ؟

٥ـ ما الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يُعينَ الإنْسانَ عَلى التَّغَلُّبِ عَلى الابْتِلاءاتِ ؟

٦ـ ما العَهْدُ الَّذي أَخَذَهُ اللهُ عَلى أَهْلِ الكِتابِ ؟

٧ـ كَيْفَ قابَلَ أَهْلُ الكِتابِ العَهْدَ الَّذي أَخَذَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ ؟

٨ـ ما الواجِبُ عَلى العُلَماءِ تِجُاهَ الآخَرينَ ؟

٩ـ كَيْفَ يَفْرَحُ الإِنْسانُ بِما أَتى ؟ وَما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ ﴿ وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾ ؟

١٠ـ عَمَّنْ تَتَحَدَّثُ الآيَةُ الكَريمَةُ ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ ؟

١١ـ بِمَ يُعَذِّبُ اللهُ تَعالى هَؤُلاءِ المَذْكورينَ في الدُّنْيا ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما يَدُلُّ عَلى اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ .

٢ـ بَيِّنْ ما تَدُلُّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ أَبي هُرَيْرَةَ ، وَاكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرس الثالث والأربعون

سورة آل عمران ـ القسم الثالث والأربعون

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

اخْتِلافِ اللّيْلِ والنَّهار : تَعاقُبِهِما .

الأَلْباب : واحِدُها لُبٌّ وَهُوَ العَقْلُ .

باطِلاً : عَبَثاً لاَ فائِدَةَ فِيه .

سُبْحانَكَ : تَنْزِيهاً لَكَ عَما لا يَليقُ بِكَ .

أَخْزَيْتَهُ : أَهَنْتَهُ .

تَوَفَّنا : أَمِتْنا .

الأَبْرار : مُفْرَدُها بارٌّ ، وَهُوَ المُحْسِنُ في العَمَلِ .

المِيعادَ : الوَعْدَ .



﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾ .

تَحدَّثَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَنْ أُولَئِكَ الَّذينَ يَكْتُمونَ الحَقَّ ، ووَجَّهَتِ المُؤْمِنينَ إِلى بَيانِ الحَقِّ وَعَدَمِ كِتْمانِهِ ، وَجاءَتِ الآياتُ هُنا لِتُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ اللهَ تَعالى سَيَكْفيكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ ما أَهَمَّكُمْ وَيُغْنيكُمْ عَمّا نَهاكُمُ اللهُ تَعالى عَنْهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ للهِ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ ، فَهُوَ يُعْطي مَنْ يَشاءُ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ، لا يُعْجِزُهُ نَصْرُكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ عَلى مَنْ يُؤْذونَكُمْ بِأَيْديهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وَالمُشْرِكينَ ، وَلِذا عَلَيْكُمْ أَنْ تُطيعوا اللهَ تَعالى وَتَحْذَروا غَضَبَهُ .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ مَظاهِرِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى في خَلْقِ السَّماواتِ والأَرْضِ ، فَبَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ في نِظامِ السَّماواتِ والأَرْضِ وَبَديعِ تَقْديرِهِما ، وَعَجيبِ صُنْعِهِما ، وَفي اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ وَتَعاقُبِهِما بِنِظامٍ دَقيقٍ طَوالَ العامِ ، وَفي اخْتِلافِهِما طُولاً وَقِصَراً ، في كُلِّ ذَلِكَ أَماراتٌ وَأَدِلَّةٌ واضِحَةٌ لأَصْحابِ العُقولِ السَّليمَةِ ، تَدُلُّ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى ، وَكَمالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ قالَ : « بِتُّ عِنْدَ خالَتي مَيْمونَةَ ، فَتَحَدَّثَ رَسولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ ساعةً ثُمَّ رَقَدَ ، فَلَما كانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلى السَّماءِ فَقالَ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ثُمَّ قامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ ، ثُمَّ صَلَّى إِحْدى عَشْرَةَ رَكْعَةً ، ثُمَّ أَذَّنَ بِلالٌ فَصَلَّى ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ الصُّبْحَ »[(١)] .

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ .

وَقَدْ وَصَفَتِ الآياتُ أُولي الأَلْبابِ بِصِفاتٍ :

١ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ إِنَّ أُولي الأَلْبابِ هُمُ الَّذينَ يَنْظُرونَ وَيَهْتَدونَ ، وَيَسْتَحْضِرونَ عَظَمَةَ اللهِ تَعالى ، وَيَتَذاكَرونَ حِكْمَتَهُ وَفَضْلَهُ ، وَيُكْثِرونَ مِنْ تَسْبيحِهِ وَتَمْجيدِهِ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، وَيُداوِمونَ عَلى ذَلِكَ في جَميعِ أَحوالِهِمْ ، فَهُمْ يَذْكُرونَهُ قائِمينَ وَقاعِدينَ ، وَيَذْكُرونَهُ وَهُمْ عَلى جُنوبِهِمْ ، فَهُمْ لاَ يَغْفَلونَ عَنْهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى في عامَّةِ أَوْقاتِهِمْ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، آل عمران ، حديث رقم ٤٢٩٣ .

٢ـ ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يَتفكَّرونَ في هَذا الكَوْنِ وَما فيهِ مَنْ جَمالِ الصَّنْعَةِ ، وَبَديعِ الخَلْقِ ، فَيَتَفكَّرونَ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وما فيهِما مِنَ الأَسْرارِ الَّتي تَدُلُّ عَلى التَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ في خَلْقِ اللهِ تَعالى .

٣ـ يَتَوَجَّهونَ إِلى اللهِ تَعالى بِالدُّعاءِ ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ يَقولُ الذَّاكِرونَ وَالمُتَفَكِّرونَ : رَبَّنا ما خَلَقْتَ هَذا باطِلاً وَعَبَثاً ، سُبْحانَكَ رَبَّنا ، تَنَزَّهْتَ عَنِ الباطِلِ وَالعَبَثِ ، فَكُلُّ خَلْقِكَ قَدِ اشْتَمَلَ عَلى الحِكَمِ العَظيمَةِ ، ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ لَقَدْ سَأَلوا اللهَ أَنْ يَقيَهُمْ عَذابَ النَّارِ ، وَيُدْخِلَهُمُ الجَنَّةَ .

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾ .

٤ـ وَهُمْ في تَوَجُّهِهِمْ إِلى اللهِ تَعالى ، يَتَضَرَّعونَ إِلَيْهِ أَنْ يُبْعِدَهُمْ عَنْ عَذابِ النَّارِ ، لأَنَّ مَنْ يَكونُ مَصيرُهُ نارَ جَهَنَّمَ فَقَدْ أَخْزاهُ اللهُ تَعالى وَأَذَلَّهُ وَفَضَحَهُ عَلى رُؤوسِ الأَشْهادِ ، ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ وَالظَّالِمُ هُوَ الَّذي تَرَكَ الحَقَّ ، وَاتَّبَعَ الباطِلَ ، فَهُوَ قَدِ اسْتَحَقَّ نارَ جَهَنَّمَ لِظُلْمِهِ وَجَوْرِهِ ، وَلا يَجِدُ مَنْ يَنْصُرُهُ أَوْ يُبْعِدُ عَنْهُ هَذا العَذابَ .

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ .

٥ـ وَهُمْ يَتَوَجَّهونَ إِلى اللهِ تَعالى قائِلينَ : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ ﴾ إِنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ عَرَفوا رَبَّهُمْ حَقَّ المَعْرِفَةِ ، تَحَدَّثوا عَنْ رَسولِهِ ﷺ ، وَوُصولِ دَعْوَتِهِ إِلَيْهِمْ ، وَاسْتِجابَتِهِمْ لَها ، وَالمُنادي هُوَ الرَّسولُ ﷺ ، وَصَفَهُ بِالمُنادي لِيَدُلَّ عَلى كَمالِ اعْتِنائِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِدَعْوَتِهِ وَحِرْصِهِ عَلى تَبْليغِها لِلنَّاسِ جَميعاً ، وَقَدْ أَمَرَهُمُ الرَّسولُ بِالإيمانِ فاسْتَجابوا لَهُ سَريعاً وَآمَنوا بِرَبِّهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، ثُمَّ طَلَبوا مِنَ اللهِ تَعالى عِدَّةَ أَشْياءَ ، وَفيما يَلي بَيانُها :

١ـ مَغْفِرَةُ ذُنوبِهِمْ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَسْتُرَها وَيَعْفوَ عَنْها سُبْحانَهُ وَتَعالى .

٢ـ تَكْفيرُ سَيِّئاتِهِمْ ، بِحَيْثُ يُذْهِبُ أَثَرَ هَذِهِ السَّيِّئاتِ وَيَمْحوها .

٣ـ تَوَفّيهِمْ مَعَ الأَبْرارِ ، أَي يَموتوا عَلى حالَةِ البِرِّ والطَّاعَةِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ ، لِيَنالوا دَرَجَةَ الأَبْرارِ في الجَنَّةِ .

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ .

٤ـ ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ سَأَلوا رَبَّهُمْ ما وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ ثَوابٍ وَحُسْنِ جَزاءٍ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، جَزاءً عَلى تَصْديقِهِمْ رُسُلَهُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

٥ـ ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أي : لاَ تَفْضَحْنا يَوْمَ القيامَةِ بِإِدْخالِنا النَّارَ ، نَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ أَنْ لا تَفْضَحَنا بَيْنَ خَلْقِكَ ولاَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، اللَّهُمَّ لاَ تُخْزِنا في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ إِنَّكَ يَا رَبُّ لا تُخْلِفُ ما وَعَدْتَ بِهِ عِبادَكَ الصَّالِحينَ الذينَ يَذْكُرونَكَ قياماً وقُعوداً وَعلى جُنوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرونَ في خَلْقِكَ ، وَيُسَبِّحونَكَ وَيَتَّبِعونَ نَبِيَّكَ مُحَمَّداً ﷺ ، إِنَّكَ سَميعٌ قَريبٌ مُجيبُ الدُّعاءِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُؤْمِنُ الصَّادِقُ هُوَ الَّذي يَلْهَجُ لِسانُهُ دائِماً بِذِكْرِ اللهِ تَعالى ، وَيَذْكُرُهُ عَلى جَميعِ أَحْوالِهِ .

٢ـ التَّفَكُّرُ في خَلْقِ اللهِ تَعالى وَالتَّدَبُّرُ فيهِ مِنْ دَلالاتِ الإيمانِ الصَّادِقِ . وَتَفَكُّرُ ساعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قيامِ لَيْلَةٍ .

٣ـ اسْتِشعارُ عَظَمَةِ اللهِ تَعالى في خَلْقِهِ وَتَدْبيرِهِ ، وَتَنْزيهِهِ عَنْ كُلِّ ما لا يَليقُ بِهِ .

٤ـ التَّضَرُّعُ إلى اللهِ تَعالى ، ودُعاؤُهُ في إِصْلاحِ أُمورِ الدُّنْيا والآخِرَةِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ كَيْفَ سَيَكْفي اللهُ المُؤْمنينَ ما أَهَمَّهُمْ ؟

٢ـ اذْكُرْ بَعْضَ مَظاهِرِ قُدْرَةِ اللهِ في الكَوْنِ الَّتي تَدُلُّ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ ، مِما ذَكَرَتْهُ الآيَةُ .

٣ـ وَصَفَتِ الآياتُ أُولي الأَلْبابِ بِصِفاتٍ ، اذْكُرْها .

٤ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ؟

٥ـ ما مَوْقِفُ أُولي الأَلْبابِ مِنَ الرَّسولِ ﷺ ؟

٦ـ ما الَّذي طَلَبَهُ المُؤْمِنونَ مِنَ اللهِ تَعالى ؟

٧ـ بَيِّنْ مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ .

نشاط :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما يَدُلُّ عَلى اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ .

٢ـ اكْتُبْ حَديثاً شَريفاً يَدْعو إِلى التَّفْكُّرِ في مَخْلوقاتِ اللهِ .

٣ـ هاتِ آيَةً مِنْ كِتابِ اللهِ تَحدثَتْ عَنْ جَزاءِ الأَبْرارِ ، وَاكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

تَعَلَّمْ :

قَالَ عَطاءٌ : انْطَلَقْتُ أَنا وَابنَ عُمَرَ بنِ عُمَيْرٍ إلى عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها ، فَدَخَلْنا عَلَيْها وَبَيْنَنا وَبَيْنَها حِجابٌ ، فَقالَ لها ابنُ عُمَرَ : أَخْبِرينا بِأَعْجَبِ ما رَأيتِيهِ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ فَبَكَتْ وَقالَتْ : كانَ عَجَباً ، أَتاني في لَيْلَتي ، وَقالَ لي : يا عَائِشَةُ ذَريني أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، قالَتْ ، فَقُلْتُ : واللهِ إنّي لأُحِبُ قُرْبَكَ ، وَإِنّي أُحِبُّ أَنْ تَعْبُدَ رَبَّكَ ، فَقامَ إلى القِرْبَةِ فَتَوَضَّأَ وَلَمْ يُكْثِرْ صَبَّ الماءِ ، فَبَكى حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ ، ثُمَّ سَجَدَ فَبَكَى حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلى جَنْبِهِ فَبَكَى ، حَتَّى إذا أَتى بِلالٌ يُؤْذِنُهُ بِصَلاةِ الصُّبْحِ قالَ لَهُ : يا رَسولَ اللهِ ، ما يُبْكيكَ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ ؟ فَقالَ : وَيْحَكَ يا بِلالُ! وَما يَمْنَعُني أَنْ أَبْكي وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ في هَذِهِ اللَّيْلَةِ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. . .﴾ الخ الآياتِ ، ثُمَّ قالَ : وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَها وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فيها[1] .

* * *

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح برقم ٦٢٠ .

الدَّرسُ الرَّابعُ والأربَعونَ

سورةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الرَّابِعُ والأَرْبعونَ

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَغُرَّنَكَ : يَخْدَعَنَّكَ .

تَقَلُّبُ : تَصرُّفُهُمْ في التِّجاراتِ والمَكاسِبِ .

مأواهُمْ : مَصيرُهُمْ .

المِهادُ : الفِراشُ والمَضْجَعُ .

التَّفسيرُ :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ .

بَعْدَ تِلْكَ الدَّعواتِ الخاشِعَةِ الَّتي تَوَجَّهَ بِها المُؤْمِنونَ إِلى رَبِّهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، بَيَّنَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ أَنَّ اللهَ اسْتَجابَ لَهُمْ دُعاءَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ما زالوا يَقولونَ رَبَّنا حَتَّى اسْتَجابَ لَهُمْ ، لِصِدْقِهِمْ في

إيمانِهِمْ وَذِكْرِهِمْ وَتفكُّرِهِمْ وتَنْزيهِهِمْ لِرَبِّهِمْ وَتَصْديقِهِمْ لِلرُّسُلِ ، وَقَدْ جاءَتِ الفاءُ ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ لِلدَّلالَةِ عَلى سُرْعَةِ الإجابَةِ .

وَلَقَدْ بَشَّرَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى بِأَنَّهُ لا يُضيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى ، فَالذَّكَرُ وَالأُنْثى مُتَساوِيانِ عِنْدَ اللهِ في الجَزاءِ ، ما داما تَساوَيا في العَمَلِ ، وَعِلَّةُ ذَلِكَ ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۢ﴾ فَالذَّكَرُ مِنَ الأُنْثى ، وَالأُنْثى مِنَ الذَّكَرِ .

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قالَتْ : يا رَسولَ اللهِ ، لا أَسْمَعُ اللهَ تَعالى ذَكَرَ النِّساءَ في الهِجْرَةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالى ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾[(١)] . وَالمَقْصودُ بِأَنْزَلَ اللهُ ، أي تَلا عَلَيْها النَّبيُّ ﷺ الآيَةَ .

وَذَكَرَتِ الآياتُ سَبَبَ اسْتِحْقاقِ هَؤُلاءِ الثَّوابَ العَظيمَ مِنَ اللهِ تَعالى :

١ـ ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ أي هاجَروا مِنْ وَطَنِهِمْ إلى أَماكِنَ أُخْرى مِنْ أَجْلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى .

٢ـ ﴿ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ ﴾ فَقَدْ أَجْبَرَهُمُ الكافِرونَ عَلى الخُروجِ ، فَخَرَجوا في سَبيلِ اللهِ تَعالى فِراراً بِدينِهِمْ مِنْ ظُلْمِ الظَّالِمينَ ، وَاعْتِداءِ المُعْتَدينَ .

٣ـ ﴿ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى﴾ فَقَدْ تَحَمَّلوا الأَذى وَالاضْطِهادَ في سَبيلِ الحَقِّ الَّذي آمَنوا بِهِ .

٤ـ ﴿ وَقَٰتَلُواْ﴾ : أَعْداءَ اللهِ تَعالى .

٥ـ ﴿ وَقُتِلُواْ﴾ وَهُمْ يُجاهِدونَ في سَبيلِ إِعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى .

وَقَدْ فَعَلوا هَذا الَّذي فَعَلوا رَجاءَ المَثوبَةِ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَلِذَلِكَ وَعَدَهُمُ اللهُ تَعالى بِأُمورٍ ثَلاثَةٍ :

١ـ مَحْوِ السَّيِّئاتِ وَغُفْرانِ الذُّنوبِ ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ .

٢ـ إِعْطائِهِمُ الثَّوابَ العَظيمَ ﴿وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ .

٣ـ أَنْ يَكونَ هَذا الثَّوابُ مَقْروناً بِالتَّعْظيمِ وَالإِجْلالِ ﴿ثَوَاباً مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ فَهُوَ ثَوابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُخْتَصٌّ بِهِ سُبْحانَهُ ، لاَ يَسْتَطيعُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، وفي هَذا تَأْكيدٌ لِشَرَفِ ذَلِكَ الثَّوابِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ قادِرٌ عَلى كُلِّ شَيْءٍ .

وَبَعْدَ أَنْ وَعَدَتِ الآياتُ المُؤْمِنينَ بِالثَّوابِ العَظيمِ ، وَقَدْ كانوا في الدُّنْيا في فَقْرٍ وَشِدَّةٍ وَكانَ الكُفَّارُ في رَخاءٍ ، ذَكَرَ سُبْحانَهُ ما يُسَلِّي المُؤْمِنينَ وَيُصَبِّرُهُمْ عَلى تِلْكَ الشَّدائِدِ الَّتي هُمْ فيها ، فَقالَ تَعالى :

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، حديث رقم ٣٠٢٣ .

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ .

أي : لا يَخْدَعَكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ ما تَرَوْنَهُ مِنْ حالِ الكافِرينَ ، مِنْ تَقَلُّبِهِمْ في البلادِ ، وَتَصَرُّفِهِمْ فيها كَيْفَ شاءُوا ، مُسَيْطِرينَ عَلَيْها ، مُسْتَغِلّينَ لِثَرَواتِها وَخَيْراتِها ، فَإِنَّ هَذا لا يَبْقى إِلاَّ مُدَّةً قَليلَةً ثُمَّ يَنْتَقِلونَ إلى أَشَدِّ العَذابِ . وَالخِطابُ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ لِلرَّسولِ ﷺ وَلَكِنَّ المُرادَ أُمَّتُهُ .

إِنَّ هَذا التَّقَلُّبَ في البلادِ الَّذي يَتَمَتَّعونَ بِهِ مَتاعٌ قَليلٌ زائِلٌ ، ثُمَّ سَتَكونُ عاقِبَتُهُمْ هَذا المَكانَ الَّذي يَأْوونَ إِلَيْهِ وَيَسْتَقِرُّونَ فيهِ ، وَهُوَ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ هَذا المَكانُ الَّذي اسْتَحَقُّوهُ مَكاناً لَهُمْ يُقيمونَ فيهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إِنَّ الذَّكَرَ والأُنْثى مُتَساوِيانِ عِنْدَ اللهِ تَعالى في الجَزاءِ لِتَساويهِما في العَمَلِ وَالتَّكاليفِ .

٢ـ إِنَّ التَّشْريعَ القُرْآنِيَّ قَدْ رَفَعَ مَكانَةَ المَرْأَةِ وَأَثْبَتَ لَها الكَرامَةَ .

٣ـ ما يَتَعَرَّضُ إِلَيْهِ المُؤْمِنونَ مِنْ مَشاقَّ وَفِتَنٍ ، إِنَّما هِيَ لِتَحْميهُمْ ، وَتُخَلِّصَهُمْ مِمّا يشوبُ تَدَيُّنَهُمْ مِنْ شَوائِبِ المَعاصي .

٤ـ إِعْطاءُ اللهِ الكافِرينَ وَإِنْعامُهُ عَلَيْهِمْ ، لَيْسَ لِكَرامَتِهِمْ عِنْدَهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُمْهِلُهُمْ لِيَزْدادوا إِثْماً ، فَيَزيدُ عَذابَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لَقَدْ تَوَجَّهَ المُؤْمِنونَ إِلى اللهِ تَعالى بِالدُّعاءِ يَسْأَلونَ بَعْضَ الأُمورِ ، ما تِلْكَ الأُمورُ ؟

٢ـ هَلِ اسْتَجابَ لَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ؟ وَبِماذا بَشَّرَهُمْ ؟

٣ـ لِماذا اسْتَحَقَّ المُؤْمِنونَ الثَّوابَ العَظيمَ مِنَ اللهِ تَعالى ؟

٤ـ بِماذا وَعَدَهُمُ اللهُ تَعالى مُقابِلَ ما كانَ مِنْهُمْ ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ ؟

٦ـ ما مَعْنى ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ﴾ ؟

٧ـ كَيْفَ يَكونُ تَقَلُّبُ الَّذينَ كَفَروا في البِلادِ ؟ وما العِبْرَةُ الَّتي نَسْتَخْلِصُها مِنْ هَذا التَقَلُّبِ لِلكافِرينَ ؟

نشاطٌ :

ـ اكْتُبْ آيَةً مِنْ سورَةِ النَّحْلِ تُبَيِّنُ المَعْنى الواردَ في الآيةِ (١٩٥) .

* * *

الدَّرسُ الخامسُ والأربعونَ

سورةُ آلِ عِمْرانَ ـ القِسْمُ الخامِسُ وَالأَرْبَعونَ

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

نُزُلاً	: النُّزُلُ : ما يُهيَّأُ لِلضَّيْفِ .
خَاشِعينَ	: خاضِعينَ .
اصْبِروا	: احْبِسُوا نُفوسَكُمْ عَنِ الجَزَعِ مِمّا يَنالُها .
صابِروا	: اصْبِروا عَلى شَدائِدِ الحَرْبِ .
رابِطوا	: أقيموا عَلى الثُّغورِ الإسْلامِيَّةِ لِحِمايَتِها .
تُفْلِحونَ	: تَفوزونَ .

التَّفسيرُ :

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ .

تَحَدَّثَتِ الآيةُ السَّابِقَةُ عَنْ مَصيرِ الكافرينَ ، وَانتَقَلَتِ الآياتُ هُنا لِتَتَحَدَّثَ عَنْ مَصيرِ المُؤْمِنينَ المُتَّقينَ ، فَبَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ فَأْتَمَروا بِأَمْرِهِ ، وَتَرَكوا ما نَهاهُمْ عَنْهُ سُبْحانَهُ ، لَهُمْ

جَنَّاتُ النَّعيمِ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ، وَقَدْ هُيِّئَتْ هَذِهِ الجَنَّاتُ لِتكونَ مَنْزِلاً لَهُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى عَلى سَبيلِ الإِكْرامِ لَهُمْ وَالتَّشْريفِ لِمَنْزِلَتِهِمْ ، وَما عِنْدَ اللهِ تَعالى مِنَ الكَرامَةِ وَالفَضْلِ لِهَؤُلاءِ المُتَّقينَ ، خَيْرٌ لَهُمْ مِما يَتَقَلَّبُ فيهِ الكافِرونَ مِنَ المَتاعِ القَليلِ الفاني .

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ أَهْلِ الكِتابِ ، فَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ نَقَضوا العُهودَ وَآذَوْا الرَّسولَ ﷺ وَأَصْحابَهُ ، أَما هَذِهِ الآيَةُ فَجاءَتْ لِتُقيمَ ميزانَ الحَقِّ ، إِذْ إِنَّ أَهْلَ الكِتابِ لَيْسوا سَواءً ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ باللهِ إِيماناً صادِقاً ، وَيُؤْمِنُ بما أُنْزِلَ عَلى النَّبِيِّ ﷺ ، وَهُوَ القُرْآنُ الكَريمُ ، وَيُؤْمِنونَ كَذَلِكَ بما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنَ التَّوْراةِ وَالإِنْجيلِ ، فَقَدِ اهْتَدَوْا بِالقُرْآنِ ، وَكانوا مِنْ قَبْلِهِ مُهْتَدينَ بِما عِنْدَهُمْ مِنْ هَدْيِ الأَنْبياءِ .

لَقَدْ وَصَفَتِ الآياتُ أَهْلَ الكِتابِ بِعِدَّةِ صِفاتٍ :

الأُولى : الإِيمانُ باللهِ إِيماناً لاَ تَشوبُهُ نَزَعاتُ الشِّرْكِ .

الثَّانيةُ : الإِيمانُ بِما أُنْزِلَ إِلى المُسْلِمينَ ، وَهُوَ ما أَوْحاهُ اللهُ إِلى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

الثَّالِثَةُ : الإِيمانُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ وَهُوَ ما أَوْحاهُ اللهُ إِلى أَنْبيائِهِمْ .

الرَّابِعَةُ : الخُشوعُ ؛ وَهُوَ ثَمْرَةُ الإِيمانِ الصَّحيحِ ، لأَنَّ الخُشوعَ هُوَ أَثَرُ خَشْيَةِ اللهِ في القَلْبِ .

الخَامِسَةُ : لاَ يَسْتَبْدِلونَ مَتاعَ الدُّنْيا بآياتِ اللهِ تَعالى ، بَلْ يَحْفَظونَ آياتِ اللهِ وَيَعْمَلونَ بها .

إِنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ اتَّصَفوا بِهَذِهِ الصِّفاتِ العَظيمَةِ ، لَهُمْ ثَوابٌ عَظيمٌ عِنْدَ رَبِّهِمُ الَّذي رَبَّاهُمْ بِنِعَمِهِ ، وَهَداهُمْ إِلى الحَقِّ وَإِلى الصِّراطِ المُسْتَقيمِ .

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يُحاسِبُ النَّاسَ جَميعاً في وَقْتٍ قَصيرٍ عَلى ما كَسَبَتْهُ أَيْديهِمْ .

وَتُخْتَمُ سُورَةُ آلِ عِمْرانَ بِهَذِهِ الوَصِيَّةِ الجامِعَةِ لِلْمُؤْمِنينَ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾ .

أي : اصْبِروا عَلى شَدائِدِ الدُّنْيا وَآلامِها مِنْ مَرَضٍ وَفَقْرٍ وَخَوْفٍ ، ﴿وَصَابِرُوا﴾ أي تَحَمَّلوا المَكارِهَ الَّتي تُصيبُكُمْ مِنْ سِواكُمْ . وَالمَصابَرَةُ أَشَدُّ مِنَ الصَّبْرِ ، وَذُكِرَتْ بَعْدَ الصَّبْرِ على ما يَجِبُ الصَّبْرُ عَلَيْهِ ، تَخْصيصاً لِشِدَّتِهِ وَصُعوبَتِهِ ، فَالمُصابَرَةُ مُقابَلَةُ صَبْرِ أَعْدائِكُمْ بِصَبْرٍ أَشَدَّ مِنْهُ وَأَقْوى في كُلِّ مَوْطِنٍ يَسْتَلْزِمُ الصَّبْرَ .

﴿وَرَابِطُوا﴾ أَصْلُها مَنْ رَبَطَ الخَيْلَ في الثُّغورِ ، فَيَأْمُرُهُمْ سُبْحانَهُ بِدوام الاسْتِعدادِ لِحمايَةِ هَذا الدِّينِ ، وَالمَقْصودُ بِهذا الاسْتِعْدادُ لِمُحارَبَةِ العَدُوِّ وَقِتالِهِ دائِماً ، وَالحَذَرِ مِنَ العَدُوِّ حَتَّى لا يُفاجِئَكُمْ .

عَنْ سَهْلِ بنِ سَعَدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « رباطُ يَوْمٍ في سَبيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَما فيها »[1] . وَعَنْ سَلْمانَ الفارِسِيِّ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ : (رباطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيامِ شَهْرٍ وَقِيامِهِ ، وَإِنْ ماتَ جَرى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذي كانَ يَعْمَلُهُ ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَأَمِنَ الفَتَّانَ)[2] .

﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ فَلا تُخالِفوا أَمْرَهُ ، وَأَطيعوهُ في كُلِّ ما أَمَرَكُمْ بِهِ ، رَجاءَ أَنْ يَكْتُبَ اللهُ لَكُمُ الفَوْزَ بالنَّصْرِ في الدُّنْيا وَالثَّوابَ الحَسَنَ في الآخِرةِ .

لَقَدْ خُتِمَتْ سورَةُ آلِ عِمْرانَ بِهذِهِ الوَصِيَّةِ الجامِعَةِ ؛ الأَمْرِ بِالصَّبْرِ وَالمُصابَرَةِ وَالمُرابَطَةِ ، والتَّقوى ، وَهَذِهِ كُلُّها هِيَ وَسائِلُ الظَّفَرِ عَلى الأَعْداءِ في الدُّنْيا كَما أَنَّها مِنْ أَسْبابِ السَّعادَةِ في الآخِرَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لَقَدْ أَعَدَّ اللهُ تَعالى لِلْمُتَّقينَ جَنَّاتٍ عَظيمَةً تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ، وَهذا الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ لَهُمْ خَيْرٌ مِما يَتَنَعَّمُ فيهِ الكافِرونَ في الدُّنْيا .

٢ـ الخُشوعُ هُوَ الثَّمَرَةُ لِلإيمانِ الصَّحيحِ ، وَهُوَ أَثَرُ خَشْيَةِ اللهِ تَعالى في القَلْبِ .

٣ـ لِكَيْ يَنْتَصِرَ المُسْلِمونَ عَلى أَعْدائِهِم لاَ بُدَّ لَهُمْ مِنَ الصَّبْرِ وَالمُصابَرَةِ وَالمُرابَطَةِ وَتَقوى اللهِ تَعالى .

٤ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ لَمْ يُؤاخِذْها عَلى النِّسْيانِ وَالخَطَأ ، وَأَنَّهُ لَمْ يُحَمِّلْها ما حَمَّلَ الأُمَمَ غَيْرَها مِنَ الآصارِ والأَغلالِ .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٢٧٣٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٤٤١ ، حديث رقم ٢٣٨٧٦ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ لِلْمُؤْمِنينَ الَّذينَ ائتَمَروا بِأَمْرِهِ ؟

٢ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ لَيْسوا سَواءً ، بِماذا وَصَفَتْهُمْ هَذِهِ الآياتُ ؟

٣ـ بِماذا وَعَدَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ؟

٤ـ ما الصِّفاتُ الَّتي ذَكَرَتْها سورَةُ آلِ عِمْرانَ في خاتِمَتِها لِلْمُؤْمِنينَ ؟

٥ـ فَرِّقْ بَيْنَ الصَّبْرِ وَالمُصابَرَةِ .

٦ـ ما مَعْنى ﴿رَابِطُوا﴾ ؟

٧ـ ما حِكْمَةُ خَتْمِ سورَةِ آلِ عِمْرانَ بالصِّفاتِ الّتي تضمَّنَتْها الآيَةُ (٢٠٠) ؟

نَشاطٌ :

١ـ هاتِ آيَةً مِنْ كِتابِ اللهِ تَحُثُّ عَلى الاسْتِعْدادِ لِلْقِتالِ ، واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اشْرَحْ مَعنى : الفَتّانِ ، الوارِدَةِ في الحديثِ الشَّريفِ ، واكتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *


التفسير المنهجي
الْجُـــزْءُ الثّاني
ســورَةِ النِّســاءِ

قائمة المحتويات

قائمة المحتويات

الدَّرْسُ الأَوَّلُ

سورةُ النِّساءِ القِسْمُ الأَوَّلُ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾

تعريفٌ بالسُّورَةِ :

سورةُ النِّساءِ مَدَنيَّةٌ ، عَدَدُ آياتِها مائةٌ وَسَبْعونَ وستٌّ ، وسُميِّتْ بِهذا الاسْمِ لِكَثْرَةِ ما وَرَدَ فيها مِنْ أَحْكامٍ تَتعلَّقُ بالنِّساءِ ، وهِيَ تُسَمَّى سورَةَ النِّساءِ الكُبْرَى ، وهِيَ مِنَ السَّبْعِ الطِّوالِ . ومِنْ أَهَمِّ مَوْضوعاتِها :

١ـ الأَمْرُ بِتقوى اللهِ تَعالى في السِّرِ والعَلَنِ .

٢ـ تَذْكيرُ النَّاسِ بأنَّهم خُلِقوا مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ .

٣ـ بَيانُ أَحْكامِ المواريثِ .

٤ـ أَحْكامُ القِتالِ .

٥ـ الحَديثُ عَنْ أَهْلِ الكِتابِ والمُنافِقينَ .

٦ـ الحَديثُ عَنْ عيسى ابْنِ مَرْيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ .



تَساءَلونَ	: يَسْألونَ بَعْضَهُمْ بَعْضاً .
اليَتامى	: جمعُ يتيمٍ ، وهو مَن ماتَ أبوهُ ولمْ يبلغِ الحُلُمَ .
تَتبدَّلوا	: تَسْتَبْدِلوا .
الخَبيثَ	: الحرامَ .
بالطَّيِّبِ	: بالحلالِ .
حوباً كَبيراً	: إثْماً عَظيماً .
تُقْسِطوا	: تَعْدِلوا .
طابَ	: مالَ إليهِ القلبُ .
تَعولوا	: تجوروا وتَظْلِموا .
هَنيئاً	: لَذيذاً عِنْدَ أكْلِهِ .
مَريئاً	: ما تَحْسُنُ عاقبتُهُ .
السُفهاءَ	: الّذينَ تُصيبُهُمْ خِفَّةٌ في العَقْلِ واضْطرابٌ فيهِ .
قِياماً	: تَقومُ بها أُمورُ مَعايِشِكُمْ .
قَوْلاً مَعْروفاً	: ما تَطيبُ بِهِ النُّفوسُ وتَألَفُهُ .

التَّفسيرُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ .

ابْتَدَأَتِ السّورَةُ الكَريمَةُ بِهذا النِّداءِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وَهُوَ يَشْمَلُ جَميعَ المُكَلَّفينَ ، مُنْذُ نُزولِ القُرْآنِ الكَريمِ إلى أنْ يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ وما عَلَيْها ، ولَيْسَ صَحيحاً ما يُقالُ مِنْ أنَّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ يَخْتَصُّ بِأَهْلِ مَكَّةَ . والنَّفْسُ الواحِدَةُ هِيَ آدمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، و﴿ زَوْجَهَا ﴾ حَوّاءُ ، حَيْثُ خُلِقَتْ مِنْ نَفْسِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ . لَقَدْ جاءَ هذا النِّداءُ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ لِيُنَبِّهَ على أَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ :

الأَوّلُ : وِحْدَةُ الدِّينِ ، فَرَبُّهُم جميعاً واحِدٌ ، فَعَلَيْهِمْ أنْ يتَّقوهُ ولا يَعْبُدوا غَيْرَهُ .

الثّاني : إنَّ النّاسَ جَميعاً عَلى اخْتِلافِ أَلْوانِهِمْ وأَلْسِنَتِهِمْ وأَجْناسِهِمْ يَنْحَدِرونَ مِنْ أَصْلٍ واحِدٍ هُوَ آدمُ عَلَيْهِ السَّلامُ .

وَتَأْمُرُ الآيَةُ النّاسَ جَميعاً في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ أنْ يَتَّقوا اللهَ ربَّهُمْ ، وذَلِكَ بأنْ يُخْلِصوا لَهُ سُبْحانَهُ العِبادَةَ والطّاعَةَ ، وأَنْ لا يَعْصوهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، فَهُوَ الّذي أوْجَدَهُمْ مِنْ نَفْسٍ آدمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وخَلَقَ مِنْ هَذِهِ النَّفْسِ حَوّاءَ ، وتَناسَلَتِ البَشريَّةُ مِنْهُما ، وإنَّ خَلْقَ النّاسِ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ مِنْ أعْظَمِ الأَدِلَّةِ عَلى كَمالِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى وَهُوَ مِنَ الأُمورِ الّتي يَنْبَغي أنْ تَحْمِلَ النّاسَ عَلى تَقْوى اللهِ تَعالى ، وتَجْعَلَهُمْ مُتَعاطِفينَ مُتَراحِمينَ ومُتَعاوِنينَ فيما بَيْنَهُمْ .

وَقَدْ عَبَّرَتِ الآياتُ عَنِ التَّناسُلِ والتَّوالُدِ بالبَثِّ ، لِيُبَيِّنَ أنَّ هَؤلاءِ قَدْ تَكاثَروا وانْتَشَروا في أقْطارِ الأَرْضِ عَلى اخْتِلافِ أَلْوانِهِمْ ولُغاتِهِمْ ، وعَلَيْهِمْ أنْ يَعْلَموا أنَّهُمْ مَهْما تَباعَدَتْ ديارُهُمْ واخْتَلَفَتْ أجْناسُهُمْ وَأَلْوانُهُمْ ، فإنَّهُمْ يَرْجِعونَ إلى أَصْلٍ واحِدٍ .

وقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ ﴾ أيْ : اتَّقوا اللهَ الّذي يَسْأَلُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً بِهِ ، فَيَقولُ الواحِدُ للآخَرِ : (أسأَلُكَ باللهِ) ، واتَّقوا الأَرْحامَ أنْ تَقْطَعوها فلا تَصِلوها بالبِرِّ .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَولِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ أيْ : إنَّ اللهَ تَعالى حافِظٌ يُحْصي عَلَيْكُمْ كُلَّ شيءٍ ، وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلى جَميعِ أعْمالِكُمْ وأحْوالِكُمْ ، مُراقِبٌ لِحَرَكاتِكُمْ وسَكَناتِكُمْ ، لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ .

﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ ﴾ .

بَعْدَ الأَمْرِ بتَقْوى اللهِ تَعالى ، واسْتِشْعارِ عَظَمَتِهِ وهَيْمَنَتِهِ عَلى خَلْقِهِ ، بَدَأَتِ الآياتُ تَذْكُرُ بَعْضَ التَّكاليفِ الّتي أُنيطَتْ بالإنْسانِ ، فَتَحدَّثَتْ عَنْ إيتاءِ اليتامى أَمْوالَهُمْ ، وعَنْ حُكْمِ تَعَدُّدِ الزَّوْجاتِ ، وإيتاءِ النِّساءِ صَدقاتِهِنَّ ، وعَدَمِ السَّماحِ للسُّفَهاءِ بالتَّصرُّفِ بالأَمْوالِ .

وابْتَدَأَتْ بالأَمْرِ بإيتاءِ اليتامى أَمْوالَهُمْ ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ ﴾ والخِطابُ للأَوْلياءِ والأَوْصياءِ عَلى اليَتيمِ ، حَيْثُ يَأْمُرُهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بأنْ يَحْفَظوا مالَ هذا اليَتيمِ ، ولا يَتصرَّفوا فيهِ بسوءٍ ، واليَتيمُ هوَ مَنْ ماتَ أبوهُ ولَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ بَعْدُ ، فَهذا اليَتيمُ إنْ كانَ لهُ مالٌ يَجِبُ عَلى الوَصِيِّ عَلَيْهِ أنْ يُحافِظَ عَلى مالِهِ ، ولا يَخْلِطَهُ بغَيْرِهِ مِنَ الأَمْوالِ ، وعَلَيْهِ أنْ لا يُسَلِّمَ المالَ لِلْيَتيمِ إلاّ إذا آنَسَ مِنْهُ الرُّشْدَ ، أيْ : يَصيرُ قادِراً عَلى المحافَظَةِ عَلى مالِهِ .

وَيَقولُ سُبْحانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ ﴾ أيْ : لا تَسْتَبْدِلوا الحرامَ وَهُوَ مالُ اليَتامى

بِالحَلالِ وَهُوَ مالُكُمْ ، أوْ لا تَسْتَبْدِلوا الأَمْرَ الخَبيثَ وَهُوَ أخْذُ أَموالِ اليَتامى ، بالأَمْرِ الطَّيِّبِ وَهُوَ حِفْظُها والتَّورُّعُ عَنْها .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ وَهذا نَهْيٌ آخَرُ عَنِ الاعْتِداءِ عَلى أَموالِ اليَتامى ، والمَقْصودُ : لا تَضُمُّوا أَيُّها الأَوْصياءُ أَموالَ اليَتامى إلى أَموالِكُمْ فَتُصْبِحَ مُخْتَلِطَةً بِها ، فَتَأْكُلُوها مَعَ أَمْوالِكُمْ ، وذَلِكَ أَنَّ خَلْطَ الأَمْوالِ يُؤدِّي إلى ضَياعِها وعَدَمِ تَميُّزِها ، وَقَدْ يَموتُ الوَصِيُّ فَلا يُعْرَفُ مالُهُ مِنْ مالِ اليَتيمِ .

وَقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ أيْ : إنَّ أَكْلَ مالِ اليَتيمِ بأيِّ طَريقةٍ مِنَ الطُّرُقِ المُحرَّمَةِ كانَ إِثْماً وذَنْباً عَظيماً .

لَقَدْ جاءَتِ الآيَةُ لِتَذُمَّ الأَوْصياءَ عَلى جَشَعِهِمْ وضَعْفِ دينِهِمْ ، فَقَدْ رَزَقَهُمُ اللهُ حَلالاً ، فَكانَ يَنْبَغِي عَلَيْهِمْ أَنْ يَكْتَفوا بِمالِهِمُ الّذي أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ ، ولَكنَّهُمْ طَمِعوا في مالِ اليَتيمِ وخَلَطوا مالَهُمْ مَعَ مالِهِ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنْ يَتامى النِّساءِ .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ ﴾ .

عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزبيرِ أنَّه سَأَلَ السيِّدةَ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ، فَقالَتْ : يا ابنَ أُخْتي ، هِيَ اليَتيمةُ تكونُ في حِجْرِ وليِّها تُشْرُكُهُ في مالِهِ ويُعْجِبُهُ مالُها وجَمالُها ، فَيُريدُ وليُّها أنْ يَتزوَّجَها مِنْ غيرِ أنْ يُقْسِطَ في صَداقِها ، فَيُعطيها مثلَ ما يُعطيها غيرُهُ . فَنُهوا عَنْ أنْ يَنْكِحوهُنَّ إلاّ أنْ يُقْسِطوا لَهُنَّ وَيُبْلِغوا لهنَّ أعلى سُنَّتِهِنَّ في الصَّداقِ ، وأُمِروا أنْ يَنْكِحوا ما طابَ لَهُمْ مِنَ النِّساءِ سِواهُنَّ[1] .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى للأَوْلياءِ والأَوْصياءِ عَلى النِّساءِ اليَتامى ، إنْ عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ لَنْ تَعْدِلوا فيهِنَّ إذا تَزَوْجْتُموهنَّ ، ولَنْ تُعاشِروهنَّ بالمَعْروفِ ، ولَنْ تُعْطوهُنَّ مُهورَهُنَّ الّتي سَنَّها اللهُ لَهُنَّ ، فانْكِحوا غَيْرَهنَّ مِنَ النِّساءِ اللّواتي أَحَلَّهنَّ لَكُمُ اللهُ تَعالى . والأَمْرُ في قَوْلِهِ ﴿فَانكِحُوا﴾ للإباحَةِ ، أيْ : قَدْ أباحَ اللهُ تَعالى التزوُّجَ بواحِدَةٍ أوِ اثنتينِ أوْ ثلاثاً أو أَرْبعاً ، ولَكِنْ إنْ خِفْتُم أنْ لا تَعْدِلوا بَيْنَ الزَّوْجاتِ في القَسَمِ والنَّفقَةِ والحُقوقِ الزَّوْجيّةِ فَعَلَيْكُم أنْ تتزوَّجوا واحِدةً فقط ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ أيْ : اقْتَصِروا عَلى الإماءِ الّتي تَمْلِكونَها ، والّتي أباحَ لَكُمُ اللهُ أنْ تَسْتَمتِعوا بهنَّ .

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ إنَّ اخْتيارَ الواحدةِ أقْرَبُ إلى العَدْلِ وإلى عَدَمِ المَيْلِ إلى الظُّلْمِ . والعَدْلُ المَطْلوبُ هُوَ ما يَكونُ ضِمْنَ قُدْرَةِ الإنْسانِ ؛ وذلِكَ مِثْلُ المُساواةِ في المَسْكَنِ والمَلْبَسِ والمَأْكَلِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب : وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ـ رقم الحديث ٤٢٩٨ .

والمَشْرَب ، أمّا ما لا يَدْخُلُ في وُسْعِ الإنْسانِ مِنْ مَيْلِ القَلْبِ إلى واحِدَةٍ دونَ الأُخْرى ، فَهذا أَمْرٌ عفا اللهُ عَنْهُ إذا لَمْ يَتْبَعْهُ مَيْلٌ في المُعامَلَةِ والإنْفاقِ ، وقَدْ كانَ الرَّسولُ ﷺ يقولُ : (اللَّهُمَّ إنَّ هذا قَسَمي فيما أَمْلِكُ فَلا تَلُمْني فيما تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ)[1] ، يَقْصُدُ المَيْلَ القَلْبِيَّ .

﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ .

وَأَمرَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ الرِّجالَ أَنْ يُعْطوا النِّساءَ مُهورَهُنَّ عَطيّةً عَنْ طيبِ نَفْسٍ مِنْهُمْ ، فإنَّ هذِهِ المُهورَ قَدْ فَرَضَها اللهُ تَعالى لَهُنَّ ، ولا يَجوزُ لَكُمْ أيُّها الرِّجالُ أَنْ تَأْخُذوا مِنْ هذه المُهورِ شَيْئاً ، إلاَّ إذا تَنازَلَتِ النِّساءُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ هذا المَهْرِ عَنْ طيبِ خاطِرٍ ، ورِضا نَفْسٍ ، فَخُذُوهُ مِنْهُنَّ ولا إثْمَ عَلَيْكُمْ ولا ذَنْبَ في أَخْذِهِ، وكلُوهُ هَنيئاً مَريئاً ، فَهُوَ مالٌ حلالٌ طَيِّبٌ لا يُسبِّبُ لَكُمْ ضَرَراً ولا حَرَجاً .

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

وتَنْتَقِلُ الآياتُ لِمُخاطَبَةِ أَوْلِياءِ اليَتامى بأنْ لا يُعْطوا السُّفهاءَ ، وهُمُ اليَتامى الّذينَ لا يُحْسِنونَ التَّصرُّفَ في أَمْوالِهِمْ لِصِغَرِهِمْ أوْ لِضَعْفِ عُقولِهِمْ ، نَهتِ الآيةُ عَنْ إعْطائِهِمْ أموالَهُمْ ، ما داموا لا يُحْسِنونَ التَّصرُّفَ فيها . وقَدْ أضافتِ الآياتُ الأَمْوالَ إلى الأَوْلِياءِ مَعَ أنَّها لليَتامى ، فقالَ : ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾ ولَمْ يَقُلْ أموالَهُمْ ، لِيُنَبِّهَ سُبْحانَهُ إلى أَنَّهُ يَنْبَغي عَلى الأَوْلِياءِ حِفْظُ أموالِ اليتامى وصيانَتُها ، حتّى كأَنَّها أَموالُهُمْ . وَقَدْ جَعَلَ اللهُ هَذِهِ الأَمْوالَ قياماً ، أيْ : بها تَقومُ مَعايِشُهُمْ ومَصالِحُهُمْ ، والمَصالِحُ العامّةُ لا تَزالُ قائِمَةً ما دامتِ الأَمْوالُ في أَيْدي الرّاشدينَ المُقْتَصِدينَ الّذينَ يُحْسِنونَ تَثْميرَها وتَوْفيرَها .

وَقَدْ أَمَرَتِ الآياتُ الأَوْلياءَ بِثَلاثَةِ أُمورٍ :

الأوّلُ : ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ﴾ .

الثّاني : ﴿ وَٱكْسُوهُمْ﴾ .

الثّالِثُ : ﴿ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ .

أيْ : اجْعَلوا هذهِ الأَمْوالَ مَصْدَراً لِرِزْقِهِمْ وكِسْوَتِهِمْ ، وذَلِكَ بأنْ تَتَّجِروا فيها ، حتّى تَكونَ نَفَقاتُهُمْ مِنَ الأَرْباحِ لا مِنْ أَصْلِ المالِ ، وذَلِكَ لأنَّهُ إنْ أَنْفَقَ عَلَيْهِمْ مِنْ رأسِ المالِ ، فإنَّهُ سَيفْنى ولِذلِكَ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ مِنْها ، أيْ : اسْتَثْمِروا لَهُمْ أمْوالَهُمْ ، ولا تَتْرُكوها دونَ اسْتِثْمارٍ .

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب النكاح ، باب : في القسمة بين النساء ، حديث رقم ٢١٣٤ .

أمّا القَوْلُ المَعْروفُ فَهُوَ أنْ يُكلِّمَ اليَتامى كَلاماً ليِّناً تَطيبُ بِهِ نُفوسُهُمْ ، وأنْ يَعِظوهُمْ ، ويَنْصَحُوهُمْ لِيَصِلوا بِهِمْ إلى الرُّشْدِ ، ويَبعدوا بِهِم عَنِ السَّفهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وُجوبُ مُراقَبَةِ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى وخَشْيَتِهِ وإخْلاصِ العِبادَةِ لَهُ ، لأنَّهُ هُوَ الّذي أَوْجَدَ الخَلْقَ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ .

٢ـ وُجوبُ صِلَةِ الرَّحِمِ بَيْنَ الأقارِبِ .

٣ـ النَّهْيُ عَنْ خَلْطِ مالِ اليَتيمِ بمالِ الوَصِيِّ عَلَيْهِ .

٤ـ إباحَةُ التَّعدُّدِ في الزَّواجِ ، حَيْثُ أباحَ اللهُ تَعالى للرَّجُلِ أنْ يَتزوَّجَ أرْبَعَ نِساءٍ شَريطَةَ العَدْلِ بَيْنَهُنَّ .

٥ـ المَهْرُ حَقٌّ لِلْمَرْأةِ ومُلْكٌ لَها ، ومِنْ حَقِّها أنْ تَتَصرَّفَ فيهِ بما شاءَتْ ، وأنْ تُعْطِيَ لِزَوْجِها مِنْهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلَةِ التّاليَةِ :

١ـ لِماذا سُميَّتْ سورةُ النِّساءِ بِهذا الاسْمِ ؟

٢ـ اذْكُرْ مَوْضوعَيْنِ مِنْ مَوْضوعاتِ سورةِ النِّساءِ .

٣ـ ما مَعْنى المفرداتِ التّاليةِ :

الخَبيثَ ، تُقسِطوا ، نِحْلةً ، السُّفَهاءَ ، تَعولوا .

٤ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ هذا النِّداءِ ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ ؟

٥ـ كَيْفَ يَكونُ اتِّقاءُ الأَرْحامِ ؟

٦ـ ما مَعْنى : ﴿ولاتَتَبَدَّلُوا الخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ ؟

٧ـ كَيْفَ يَكونُ الاعْتِداءُ عَلى أَمْوالِ اليَتامى كما بَيَّنَتْهُ الآياتُ ؟

٨ـ فَسِّرْ قَوْلَهُ : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى﴾ .

٩ـ مَنِ السَّفيهُ ؟ وَما الحِكْمَةُ مِنْ عَدَمِ إعْطائِهِ مالَهُ ؟

١٠ـ لِماذا قالَ سُبْحانَهُ ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ ؟ ولَمْ يَقُلْ مِنها ؟

١١ـ بِمَ أَمَرَتِ الآياتُ الأَوْلِياءَ تِجاهَ السُّفَهاءِ ؟

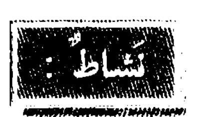
١٢ـ ضَعْ أمامَ كُلٍّ مِنَ العِباراتِ الآتيةِ كَلِمَةَ (حلالٌ أو حرامٌ) :

أ ـ (   ) أكلُ مالِ اليتيمِ .

ب ـ (   ) زَواجُ أربعةٍ مِنَ النِّساءِ .

ج ـ (   ) أخْذُ مالِ المرأةِ بِغيرِ رِضاها .

د ـ (   ) اسْتِثْمارُ أَمْوالِ الأَيْتامِ .



١ـ هاتِ حَديثاً للرَّسولِ ﷺ يَحُثُّ عَلى صِلَةِ الرَّحِمِ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ما مَعْنى قولِ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها : مِنْ غيرِ أنْ يُقْسِطَ في صَداقِها ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ لَقَدْ كانَ النَّبيُّ ﷺ يَميلُ إلى واحِدةٍ مِنْ زَوْجاتِهِ أكْثَرَ مِنْ غَيْرِها ، مَنْ هِيَ ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

٤ـ اكْتُبْ تَقْريراً في مَوْضوعِ التَّعدُّدِ ، تُبيِّنُ الحِكْمَةَ مِنْهُ ، وضَعْهُ في مَجلّةِ المَدْرَسةِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ الثّاني

وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

مَعاني المُفْرَدات

- ابتَلوا : امْتَحِنوا واخْتَبِروا .
- بَلَغوا النِّكاحَ : بَلَغوا الحُلُمَ ، وَهُوَ سِنُّ الرُّشْدِ .
- آنَسْتُمْ : تبيَّنْتُمْ وشاهَدْتُمْ .
- رُشْداً : حُسْنَ التَّصُّرفِ .
- إسْرافاً : مُجاوزَةً للحدِّ في التَّصرُّفِ في المالِ .
- بداراً : مُبادرَةً ومُسارَعَةً إلى الشّيءِ .
- يَسْتَعْفِفْ : يَتْرُكْ ما لا يَنْبَغي مِنَ الشَّهواتِ .
- حَسيباً : رقيباً .
- قَوْلاً سَديداً : قَوْلاً جَميلاً فيهِ جَبْرٌ لِخَواطِرِهِمْ .

﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾

ذَكَرَتِ الآياتُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ السَّفيهَ لا يُعْطى مالَهُ ، ولَكِنْ يُنْفَقُ عَلَيْهِ مِنَ الأرْباحِ النّاتِجَةِ مِنَ اسْتِثْمارِ مالِهِ ، وجاءَتِ الآياتُ هُنا لِتُوجِّهَ الأوْلِياءَ والأَوْصِياءَ إلى اخْتِبارِ اليَتامى ، وذَلِكَ بإعْطائِهِمْ شَيْئاً مِنَ المالِ يَتَصرَّفونَ فيهِ ، فإنْ أَحْسَنوا التَّصرُّفَ كانوا راشِدينَ ، فالرُّشْدُ هُوَ حُسْنُ التَّصرُّفِ ، وهُوَ ناتِجٌ عَنْ صِحَّةِ العَقْلِ وَجَوْدَةِ الرَّأْيِ .

إنَّ هَؤلاءِ الأَوْلياءَ مُؤتَمنونَ عَلى مالِ اليَتيمِ ، ولِذا عَلَيْهِمْ أنْ يَخْتَبِروهُ إذا وَصَلَ سِنَّ البُلوغِ ، فإنْ تَبيَّنوا أَنَّهُمْ قَدْ رَشَدوا وصاروا يُحْسِنونَ التَّصرُّفَ بَعْدَ البُلوغِ ، فَعَلَيْهِمْ أنْ يُعْطوهُمْ أَمْوالَهُمْ مِنْ غَيْرِ تَأْخيرٍ ولا مُماطَلةٍ ، أمّا إنْ وجَدوا أنَّهُمْ ما زالوا لا يُحْسِنونَ التَّصرُّفَ في تِلْكَ الأَموالِ ، فلا يَنْبَغي عَلَيْهِمْ أنْ يَدْفَعوا إلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ .

وعلى الأَوْلياءِ كَذلِكَ أنْ لا يَأْكُلوا أَموالَ اليَتامى مُسْرِفينَ في الإنْفاقِ مِنْها ، ولَوْ كانَ الإنْفاقُ عَلى اليَتيمِ نَفْسِهِ ، وأنْ لا يَتَصرَّفوا بالمالِ لِصالِحِهِمْ قَبْلَ أنْ يَكْبُرَ هؤلاءِ اليَتامى ، ويَدْفَعوا إلَيْهِمُ الأَموالَ ، فَنجِدُ بَعْضَ الأَوْصِياءِ يَسْتَغِلُّونَ صِغَرَ سِنِّ اليَتيمِ ، وَيقومونَ بِعَمَلِ مَشاريعَ لِصالِحِهِمْ مِنْ مالِهِ ، بِحَيْثُ لا يَنْتَفِعُ اليَتيمُ مِنْها .

ولكنْ هَلْ يجوزُ للوَلِيِّ أنْ يَأْخُذَ شَيْئاً مِنْ مالِ اليَتيمِ ، عِوَضاً عَنِ انْشِغالِهِ باسْتِثْمارِ هذا المالِ ؟ بيَّنتِ الآيَةُ الكَريمةُ هذا الحُكْمَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أيْ : مَنْ كانَ مِنَ الأَوْلِياءِ غَنِيّاً غَيْرَ مُحْتاجٍ إلى شَيْءٍ مِنَ المالِ ، فَعَلَيْهِ أنْ يُعِفَّ نَفْسَهُ بأنْ لا يَأْخُذَ مِنْ مالِ اليَتيمِ شَيْئاً ، أمّا إنْ كانَ الوليُّ فقيراً وهُوَ يُشْغِلُ وَقْتَهُ في تَثمير مالِ اليَتيمِ وحِفْظِهِ ، فَيُباحُ لَهُ أنْ يَأْخُذَ مِنْ مالِهِ بِالمَعروفِ أيْ : عَلى قَدْرِ حاجَتِهِ الضَّروريَّةِ ، وأُجْرةِ خِدْمَتِهِ وحِفظِهِ لمالِ اليَتيمِ .

وإذا أرادَ الأَوْلياءُ أنْ يُعْطوا اليَتامى أَمْوالَهُمْ بَعْدَ البُلوغِ والرُّشْدِ ، فَعَلَيْهِمْ أنْ يُشْهِدوا عِنْدَ دَفْعِ المالِ إلَيْهِمْ ليبرّئوا ذِمَّتَهُمْ ، لأنَّ الإشْهادَ يُبْعِدُ التُّهمةَ عَنِ الوَليِّ ، ولا يَتْرُكُ للنّزاعِ والخُصومَةِ بَيْنَ الوليِّ واليَتيمِ صاحِبِ المالِ أيَّ مَجالٍ . وقدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقولِهِ تَعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أيْ : كفى

بِهِ سُبْحانَهُ رَقيباً عَلَيْكُمْ يُحاسِبُكُمْ على أعْمالِكُمْ ، ويُجازيكُمْ عَلَيْها بِما تَسْتَحِقُّونَ .

انْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عنْ بَعْضِ أحْكامِ المَواريثِ ، وَبيَّنَتْ قاعِدةً عَظيمةً أساسيَّةً ، وهِيَ أنَّ المِيراثَ لا يَخْتَصُّ بالرِّجالِ وحْدهُمْ ، بلْ لِلنّساءِ نَصيبٌ مِنْهُ ، ولَيْسَ كَما كانَ الحالُ مَعَ الأُمَمِ السّابِقَةِ ، ومَعَ العَرَبِ في الجاهليَّة ، حيْثُ كانوا يَحْرِمونَ المَرْأَةَ مِنَ الميراثِ . قال تَعالى :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾

إنَّ المالَ الّذي يَتْرُكُهُ الوالِدانِ والأَقْرَبون بَعْدَ مَوْتِهِمْ ، يَصيرُ حقّاً للذُّكورِ والإناثِ ، فَهُمْ فيهِ شُرَكاءُ ، لا فَرْقَ بَيْنَ الرِّجالِ النِّساءِ ، ولا فرْقَ بَيْنَ كونِ المالِ كَثيراً أو قَليلاً ، فَحَقُّ النِّساءِ ثابتٌ فيما تَرَكَهُ المتوفّى مِنْ مالٍ ، سواءٌ أكان هذا المالُ قَليلاً أمْ كثيراً كَثُبوتِ حَقِّ الرِّجالِ ، وقَدْ أَكَّدَ اللهُ تَعالى هذا الحَقَّ بِقَوْلِهِ ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أيْ : أنَّ هذا النَّصيبَ قَدْ فَرَضَهُ اللهُ تَعالى ، فَلا سَبيلَ إلى التَّهاوِنِ فيهِ ، بَلْ لابُدَّ مِنْ إعْطائِهِ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ كامِلاً غيْرَ مَنْقوصٍ ، فَهُوَ تَشْريعُ اللهِ تَعالى ، ومَنْ خالَفَ شَرْعَهُ كانَ أهْلاً للعُقوبَةِ ، وكَلِمَةُ : (نصيباً) جاءَتْ مَنْصوبةً عَلى الاخْتِصاصِ . والمَعْنى : أعني نَصيباً مَفْروضاً مَقْطوعاً واجِباً لابُدَّ لَهُمْ أنْ يَحوزوهُ ولا يَستأْثِرُ بِهِ بَعْضُهمْ دونَ بَعْضٍ .

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

وإذا حَضَرَ قِسْمَةَ التَّركةِ ذوو القُرْبى ممَّنْ لا نَصيبَ لَهُمْ في الميراثِ ، واليَتامى الّذينَ فَقَدوا العائِلَ ، والمَساكينُ الّذينَ أعْوزَتْهُمُ الحاجَةُ ، فَأَعْطوهُمْ مِنَ الميراثِ ، وهُوَ رِزْقٌ أنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكُمْ دونَ كَدٍّ ولا تَعَبٍ ولا نَصَبٍ ، ولِذا يَنْبَغي أنْ لا تَبْخَلوا عَلى المُحْتاجينَ مِنْ ذَوي القُرْبى واليَتامى والمَساكينِ ، بَلْ عَلَيْكُمْ أنْ تُعطوهُمْ ما يُعينُهُمْ عَلى سَدِّ حاجَتِهِمْ وتَفريجِ كُروبِهِمْ ، وأنْ تَقولوا لَهُمْ قَوْلاً جَميلاً تَطيبُ بِهِ نُفوسُهُمْ عِنْدَما تُعطونَهُمْ مِن هذا المالِ .

والحِكْمَةُ مِنْ إعطائِهِمْ شَيْئاً مِنَ التَّرِكةِ ، هُوَ أنَّهُ رُبَّما تَحرَّكَ الحَسَدُ في نُفوسِهِمْ ، فَينبَغي التَّوَدُّدُ إليْهِمْ واسْتِمالَتُهُمْ بإعْطائِهِمْ قَدْراً مِنَ المالِ هِبَةً لَهُمْ .

والأَمْرُ هُنا بإعْطائِهِمْ مِنَ المالِ للنَّدْبِ والاسْتِحبابِ لا لِلوجوبِ .

إنَّ قضيةَ تَقْسيمِ التَّرِكَةِ قَدْ حَدَثَ فيها الكَثيرُ مِنَ المُغالَطاتِ والمُخالَفاتِ الشَّرْعيَّةِ ، ولِذا كانَ لابُدَّ أنْ تَحُثَّ الآياتُ عَلى تَقْوى اللهِ تَعالى وخشْيَتِهِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ .

تَحُثُّ الآيَةُ الأَوْلِياءَ والأَوْصِياءَ عَلى المُحافَظَةِ عَلى أَمْوالِ اليَتامى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُذَكِّرُهُمْ بِحالِهِمْ وحالِ ذُرِّيَّاتِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَقولُ لَهُمْ : افْعَلوا مَعَ اليَتامى الّذينَ هُمْ تَحْتَ وِصايَتِكُمْ ، كَما تُحِبُّونَ أَنْ يُفْعَلَ مَعَ ذُرِّيَّاتِكُمُ الضِّعافِ مِنْ بَعْدِكُمْ ، ولْتَتَّقوا اللهَ فيهِمْ بالمُحافَظَةِ عَلى أمْوالِهِمْ وإعْطائِهِمْ حُقوقَهُمْ كامِلَةً غَيْرَ مَنْقوصةٍ ، وقَدْ وَصَفَ اللهُ الذُّرِيَّةَ بالضَّعْفِ ، لِيَكونَ ذَلِكَ باعِثاً عَلى التَّراحُمِ وحاثّاً عَلى امْتِثالِ أوامِرِ اللهِ تَعالى . والقَوْلُ السَّديدُ أنْ يُكلِّموهُمْ كَما يُكلِّمونَ أولادَهُمْ بالأَدَبِ والحُسْنِ والتَّرْحيبِ .

وَقَدْ تَوَعَّدَتِ الآياتُ أُولئِكَ الّذينَ يَعْتَدونَ عَلى حُقوقِ اليَتامى ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ .

إنَّ هَؤلاءِ اليَتامى لِضَعْفِهِم وَعَجْزِهِمُ اسْتَحَقُّوا العِنايَةَ والكَرامَةَ مِنَ اللهِ تَعالى ، فَمَنْ تَعدَّى عَلى أموالِهِمْ ظُلْماً ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ وَقَدْ يَكونُ أكْلُهُمْ للنَّارِ عَلى الحَقيقةِ ، فَهُمْ لأَكْلِهِمْ مالَ اليَتيمِ ظُلْماً في الدُّنْيا ، سَيأْكُلونَ النّارَ يَوْمَ القيامةِ حَقيقةً ، وسَيَكونُ مَصيرُهُم نارَ جَهنَّمَ يُقاسونَ حرَّها ، ويَصْطَلونَ بِنارِها الشَّديدةِ المُسْتَعِرَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عَلى الأَوْصِياءِ أنْ يَخْتَبِروا اليَتامى ، حتَى يَتبيَّنوا مِقْدارَ ضَبْطِهِمْ للأَمْوالِ وحُسْنَ تَصرُّفِهِمْ فيها .

٢ـ عَلى الأَوْصِياءِ أنْ لا يُسلِّموا المالَ إلى اليَتامى إلاّ بَعْدَ بُلوغِهِمْ سِنَّ الرُّشْدِ ، والتَّثَبُّتِ مِنْ حُسْنِ التَّصرُّفِ .

٣ـ الرِّجالُ والنِّساءُ كُلٌّ مِنْهُمْ لَهُ حَقٌّ في الميراثِ .

٤ـ امْتِثالُ أوامِرِ اللهِ تَعالى بِإعْطاءِ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ مِنَ الأَمْوالِ المَتروكَةِ .

التَّقْويمُ

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التَّاليةِ

١ـ ما مَعْنى المُفْرداتِ التَّالية

ابتَلوا ، آنَسْتُمْ .

٢ـ ذَكَرَتِ الآياتُ الأَحْكام المُتعلِّقة بالوليِّ الَّذي يَتصرَّفُ بمالِ اليَتيمِ منْ حيْثُ أَخْذُهُ أَجْراً لانْشِغالِهِ باسْتِثْمارِ مالِ اليَتيم ، اذْكُرها

٣ـ قارنْ بينَ العَصْرِ الجاهليِّ والإسْلام منْ حيْثُ مِيراثُ المرأة .

٤ـ اشْرَحْ قولَهُ تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ .

٥ـ لِماذا وَصَفَ اللهُ الذُّريّة بالضَّعْف في قولِه : ﴿ذُرِّيَّةً ضعافاً﴾ ؟

٦ـ ما عُقوبَةُ أَكْلِ مالِ اليَتيم ؟ وما دليلُ ذلك ؟

٧ـ ما القَوْلُ السَّديدُ الَّذي أُمر به الأَوْلياءُ ؟

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثُ

سورةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يُوصيكُم — يَأْمُرُكُمْ .

حظّ — نَصيبِ .

فوْق اثنتيْنِ — أكْثَرَ مِنَ اثْنَتيْنِ .

التّفسيرُ :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾

هَذِهِ الآيَةُ والّتي تَليها تَتَحدَّثُ عَنْ أحْكامِ المَواريثِ ، وهُوَ ما يُسمّى بِعِلْمِ الفَرائِضِ ، وقَدْ حَثَّ النَّبيُّ ﷺ على تَعلُّمِ هذا العِلْمِ ، فَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : (تعلّموا

الفَرائِضَ وعَلِّمُوهُ النّاسَ ، فإنَّهُ نِصْفُ العِلْمِ ، وهُوَ أوَّلُ شَيْءٍ يُنسى)[1] .

سبب النزول

أخْرَجَ البُخارِيُّ عَنْ جابِرٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ : عادَني النَّبِيُّ ﷺ وأبو بَكرٍ في بَني سَلِمَةَ ماشِيَيْنِ فَوَجَدَنِي النَّبِيُّ ﷺ لا أعْقِلُ ، فَدعا بماءٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهُ ثُمَّ رَشَّ عليَّ فأفَقْتُ ، فَقُلْتُ : ما تأمُرُني أنْ أصْنَعَ في مالي يا رَسولَ اللهِ ؟ فَنَزَلَتْ : (يُوصيكُم اللهُ في أولادِكُم)[2] .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى مُخاطِباً المُؤْمِنينَ ويَأْمُرُهُمْ أمْراً مُؤَكَّداً ، وَيَفْرِضُ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الأَحْكامَ في شَأْنِ أوْلادِهِمْ ووالِدِيهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ ممّا تَرَكوهُ مِنْ أمْوالِهِمْ ، سَواءٌ أكانَ الأَوْلادُ ذُكوراً أمْ إناثاً ، وسَواءٌ كانوا صِغاراً أمْ كِباراً .

وَقَدْ بَدَأَتِ الآيَةُ الكَريمةُ بَيانَ حُقوقِ الأَوْلادِ مِنَ الميراثِ عَلى النَّحوِ الآتي :

أولاً : الأَوْلادُ إذا كانوا ذُكوراً وإناثاً :

بَدَأَتِ الآيَةُ بِبَيانِ ميراثِ الأَوْلادِ ، لأَنَّهُمْ أقْرَبُ النّاسِ إلى الإنْسانِ ، لأَنَّهُ يَتَعلَّقُ بأَوْلادِهِ أكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ ، ويَتْعَبُ ويَشْقَى في الدُّنيا لأَجْلِ تَوْفيرِ الحياةِ الكَريمةِ لَهُمْ . وقَدْ جَعَلَ سُبْحانَهُ وتَعالى نَصيبَ الذَّكَرِ ضِعْفَ نَصيبِ الأُنْثى .

وَقَدْ جاءَ التَّعبيرُ بالذَّكَرِ والأُنْثَى ، ولَمْ يَقُلْ سُبْحانَهُ للرِّجالِ والنِّساءِ لِيُبَيِّنَ أنَّ الصِّغارَ والكِبارَ مِنْ كِلا الجِنْسَيْنَ سَواءٌ في الميراثِ ، ولَعلَّ البِدْءَ بالأَوْلادِ لِيُلْغِيَ ما كانَ مَأْلوفاً مِنْ حِرمانِ البَناتِ مِنَ الميراثِ .

ثانياً : ميراثُ الأَوْلادِ إذا كانوا إناثاً فَقط :

قدْ يكونُ الأَبُ لَمْ يُنْجِبْ إلاّ إناثاً ، فَكَيْفَ يَكونُ ميراثُهُنَّ مِنْ أبيهِنَّ ؟ ، يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ أيْ : إنْ تَرَكَ ثَلاثَ بَناتٍ أوْ أرْبعَ أو أكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَلَهُنَّ ثُلُثا التَّرِكَةِ . ولَمْ تُبَيِّنِ الآيَةُ نَصيبَ الثِّنتينِ مِنَ البَناتِ ، وقَدْ ذَهَبَ جُمهورُ العُلَماءِ إلى أنَّ نَصيبَ الثِّنتينِ كَذلِكَ الثُّلُثانِ ، فَيكونُ نَصيبُ الثِّنْتينِ والثّلاثِ والأَرْبَعِ فما فَوْقَهنَّ الثُّلُثَيْنِ . أمّا إنْ تَرَكَ الميّتُ بِنْتاً واحِدَةً ، ولَيْسَ مَعَها أخٌ أو أُخْتٌ فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ .

ولابدَّ مِنْ أنْ نُبيِّنَ أنْ الأَوْلادَ يَأْخُذونَ أنْصِبَتَهُمْ ، بَعْدَ أنْ يَأْخُذَ أبوا المتوفَّى والزَّوْجُ أنْصِبَتَهُمْ ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، حديث ٢٧١٩ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، سورة النساء ـ حديث رقم ٤٣٠١ .

فإذا تَرَكَ المَيِّتُ أَباً أَوْ أُمّا لَهُ ، وزَوْجةً وأَوْلاداً ، يُعْطى كُلٌّ مِن الأَبِ والأُمِّ والزَوْجَةِ أولاً أَنْصِبَتَهُمْ ، ثُمَّ يُوزَّعُ الباقي عَلى الأَوْلادِ الذُّكورِ والإناثِ حَسْبَما جاء في الآيةِ الكريمة .

ثمَّ إنَّ الوَلَدَ يُطْلَقُ عَلى الابْنِ وابْنِهِ ، ولَكِنَّ أبناء الشَّخْصِ المُتوفَّى إنْ وُجدوا يُقَدَّمُونَ عَلى أبنائِهِمْ .

ثالثاً : ميراثُ الآباءِ

بَعْدَ أنْ بيَّنتِ الآيَةُ ميراثَ الأَوْلادِ ، بَيَّنَتْ ميراثَ الأَبوَيْنِ ، ولِلْوالِديْنِ ثلاثُ حالاتٍ :

إنْ كانَ للميِّتِ وَلَدٌ ، فإنَّ نصيبَ أبيهِ يَكونُ سُدُسَ التَّرِكَةِ ، وكذلِكَ أُمُّهُ تأْخُذُ سُدُسَ التَّرِكَةِ .

إذا لَمْ يَكُنْ للميِّتِ أولادٌ ، ووَرِثَهُ أَبواهُ ، فإنَّ نصيبَ الأُمِّ يَكونُ الثُّلُثَ ، ونَصيبُ الأَبِ يكونُ الثُّلُثَيْنِ ، فإنْ كانَ لِلْمَيِّتِ مَعَ الأَبوَيْنِ زَوْجٌ ، فيَأْخُذُ الزَّوْجُ نصيبَهُ أوّلاً ، ثُمَّ يوزَّعُ الباقي عَلى الأُمِّ والأَبِ ، فَيَكونُ للأُمِّ ثُلُثُ الباقي ، وللأبِ الثُّلثانِ .

إذا ماتَ شَخْصٌ وتَرَكَ أبويْهِ ومَعَهما إخْوةٌ لَهُ أوْ أَخواتٌ ، ففي هذهِ الحالةِ يَكونُ لأُمِّهِ سُدُسُ التَّرِكَةِ ، والبّاقي للأَبِ ، ولا ميراثَ للإِخْوَةِ لِوُجودِ الأبِ .

وَلَقَدْ بيَّنَتِ الآيَةُ أنَّ هذِهِ التَّرِكَةَ تُوزَّعُ عَلى مُسْتَحِقّيها بَعْدَ تنفيذِ وَصيَّةِ الميِّتِ إنْ كانَ قَدْ أَوْصى بشَيْءٍ ، وبَعْدَ قَضاءِ ديونِهِ مِنْ تركَتِهِ ، فَقِسْمَةُ الأَنْصِبَةِ المَذْكورةِ للأَبْناءِ والآباءِ إنَّما يَكونُ بَعْدَ تَنفيذِ الوَصيَّةِ وقَضاءِ الدُّيونِ الّتي كانَتْ عَلَيْهِ في حَياتِهِ .

وَبيَّنتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ تِلْكَ الحِكْمَةَ مِنْ إعْطاءِ الآباءِ والأَبْناءِ مِنَ التَّرِكَةِ ، حَسَبَ هذا التَّقْسيمِ ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ ﴾ لَقَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ هَذِهِ الفَرائِضَ ، فَعَلَيْكُمْ أيُّها المُؤْمِنونَ أنْ تَلْتَزِموا بِتَنْفيذِها ولا تَتَّبعوا أهْواءَكُمْ وما كانَ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ مِنْ إعْطائِها لِلأَقْوياءِ الّذينَ يُحاربونَ الأَعْداءَ ، وحِرْمانِ الصِّغارِ والنِّساءِ لأَنَّهُمْ مِنَ الضُّعَفاءِ ، إنَّكُمْ أيّها المُؤْمِنونَ لا تَدْرونَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ نَفْعاً لَكُمْ آباؤُكُمْ أوْ أبناؤُكُمْ ، فعَلَيْكُمْ أنْ لا تحرِموا أَحَداً مِنْ حقِّهِ ، ولَقَدْ تَكفَّلَ اللهُ تَعالى بِهذا التَّوْزيعِ العادِلِ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الحَرَجَ .

لَقَدْ أكَّدتِ الآياتُ ضَرورةَ الالْتِزام بِشَرعِهِ ، فقالَ أوْلاً : ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أيْ : فَرَضَ اللهُ هذا التَّقْسيمَ للميراثِ وأَوْجَبَهُ عَلَيْكُمْ ، فلا يجوزُ لَكُمْ أبَداً أنْ تُخالِفوهُ .

وأَكَّدَهُ سُبْحانَهُ ثانياً بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ إنَّهُ سُبْحانَهُ عليمٌ بِشُئونِكُمْ ، وما يَصْلُحُ لَكُمْ ، فَهُوَ لا يُشرِّعُ لَكُمْ إلاّ ما فيهِ المَنْفَعَةُ والمَصْلَحَةُ ، ولِذا عَلَيْكُمْ أنْ تَلْتَزِموا بما شَرَعَهُ اللهُ لَكُمْ .

دروس وعبر

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى خالِقُ البَشَرِيَّةِ والمُشَرِّعُ لَها ، وهُوَ لا يُشَرِّعُ إلاّ ما هُوَ أنْفَعُ وأصْلَحُ لها .

٢ـ لَمْ تَحْرِمِ الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ النِّساءَ سواءً كُنَّ صِغاراً أمْ كِباراً مِنْ حَقِّهِنَّ مِنَ الميراثِ .

٣ـ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ أنْ وَرَّثَ الفُروعَ وهُمُ الأَبْناءُ ، والأُصولَ وهُمُ الآباءُ ، وأعْطى كُلاًّ مِنْهُمْ حَقَّهُ ، ولَمْ يَحْرِمِ الآباءَ بِحُجَّةِ أنَّهُمْ كِبارٌ في السِّنِ .

٤ـ عَلى المُسْلِمينَ الالتزامُ بِشَرْعِ اللهِ تَعالى في تَقْسيمِ الميراثِ عَلى مُسْتَحقِّيهِ وعَدَمِ التَّهاوُنِ فيهِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما سَبَبُ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ ؟

٢ـ مِنْ خِلالِ دراسَتِكَ لِعِلْمِ الميراثِ ، صِلْ بَيْنَ الحالةِ وحُصَّتِها مِنَ الميراثِ :

الحالةُ	الحصةُ مِنَ الميراثِ
ـ بنتٌ واحدةٌ .	١ـ السُّدسُ .
ـ الأبُ والأمُّ مَعَ وُجودِ الولدِ .	٢ـ السُّدسُ .
ـ الأمُّ عندَ وجودِ إخوةٍ للميِّتِ .	٣ـ النِّصفُ .
ـ ثلاثُ بناتٍ .	٤ـ الثُّلُثُ .
ـ بنتانِ .	٥ـ الرُّبعُ .

٣ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ إعْطاءِ الآباءِ والأَبْناءِ مِنَ التَّركَةِ وِفْقَ هذا التَّقْسيمِ ؟

٤ـ ما حُكْمُ مَنْ كَتَبَ الميراثَ كُلَّهُ باسْمِ ولَدِهِ الأَكْبَرِ وحَرَمَ أبناءَهُ الباقينَ مِنْهُ ؟

نشاط

١ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ جَعْلِ نَصيبِ الذَّكَرِ ضِعْفَ نَصيبِ الأُنْثى ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً شَريفاً يحثُّ عَلى سَدادِ دَيْنِ الميِّتِ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ بَعْضَ المُمارساتِ غَيْرِ الصَّحيحةِ التي تَصْدُرُ عَنْ بعضِ النَّاسِ عِنْدَ تَقْسيمِ الميراثِ .

٤ـ اكْتُبْ تَقريراً عَنْ مَوْقفِ التَّشريعاتِ الّتي كانَتْ قَبْلَ الإِسْلامِ مِنْ ميراثِ المرأةِ .

* * *

الدَّرْسُ الرَّابِعُ

سورةُ النِّساءِ القِسْمُ الرّابِعُ

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

مَعاني المُفْرَدات :

كَلالةً — مَنْ لا ولدَ ولا والدَ لَهُ .

مُضارٍّ — يُسبِّبُ ضَرراً بالوَرثَةِ .

حُدودُ اللهِ — شَرائِعُهُ سُبْحانَهُ ، وَأَحْكامُ دينهِ .

التفسير :

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ .

بيّنَتِ الآياتُ السّابِقَةُ ميراثَ الآباءِ والأبْناءِ ، وجاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتُبيِّنَ نَصيبَ الأَزْواجِ عَلى النَّحْوِ الآتي :

أولاً : نَصيبُ الأَزْواجِ الرِّجالِ :

قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ .

فإنْ ماتَتِ المَرْأَةُ وكانَ لَها زَوْجٌ ، فإنَّ نَصيبَ هذا الزَّوْجِ يَكونُ وِفْقَ ما يلي :

١ـ إنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَرأَةِ أولادٌ ، سَواءٌ أكانوا ذُكوراً أمْ إناثاً ، وسواءٌ أكانوا أولاداً مِنْ زَوْجِها الّذي يَرِثُها ، أمْ أَوْلاداً لَها مِنْ زَوْجٍ غَيْرِهِ ، فإنَّ نَصيبَ الزَّوْجِ يَكونُ نِصْفَ ما تَرَكَتْ مِنْ مالٍ .

٢ـ إنْ كانَ لِلْمَرْأَةِ الّتي تُوفِّيَتْ أَوْلادٌ ، فإنّ نَصيبَ هذا الزَّوْجِ رُبْعُ التَّرِكَةِ .

ثانياً : نَصيبُ الزَّوْجاتِ :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ .

أمّا إذا ماتَ الرَّجُلُ وتَرَكَ زَوْجَتَه ، فإنَّ نَصيبَ هَذِهِ الزَّوْجَةِ يَكونُ وِفْقَ ما يلي :

١ـ إنْ لَمْ يَكُنْ للرَّجُلِ أَوْلادٌ مِنْ زَوْجَتِهِ هذِهِ أوْ مِنْ غَيْرِها ، فَلَها رُبْعُ ما تَرَكَ زَوْجُها .

٢ـ إنْ كانَ للزَّوْجِ أَوْلادٌ سواءٌ أَكانوا مِنْها أمْ مِنْ غَيْرِها ، فَلَها ثُمْنُ ما تَرَكَ الزَّوْجُ .

وهذا التَّقْسيمُ للتَّرِكَةِ حَسَبَ ما ذَكَرَتِ الآيةُ ، إنَّما يَكونُ بَعْدَ تَنْفيذِ وَصِيَّةِ الميِّتِ ، أوْ قَضاءِ دُيونِهِ ، فإنَّ هذِهِ حُقوقٌ تَتعلَّقُ بالتَّرِكَةِ ، ولا يَجوزُ تَقْسيمُها إلاّ بَعْدَ تَأْدِيَةِ هَذِهِ الحُقوقِ ، فإنْ أَوْصَى بِجُزْءٍ مِنْ مالِهِ لِشَخْصٍ ما ، يُعْطي هذا الشَّخْصَ حَقَّهُ ، ثُمَّ يُقَسَّمُ باقي التَّرِكَةِ عَلى المُسْتَحِقّينَ ، وإنْ كانَ عَلى الميِّتِ دَيْنٌ قُضِيَ عنهُ دَيْنُهُ مِنْ تَرِكَتِهِ ، ثُمَّ إنْ بَقِيَ مِنْها شَيْءٌ ، قُسِمَ عَلى الوَرَثَةِ حَسَبَ أَنْصِبَتِهِمْ .

ثالثاً : ميراثُ الكَلالَةِ :

يَقولُ سُبْحانَهُ ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ الكَلالَةُ لُغَةً : الإحاطَةُ ، وقَدْ سُمِّيَ أقارِبُ الإنْسانِ عَدا أَبَوَيْهِ وأوْلادِهِ بالكَلالَةِ ، لأنَّهُمْ يُحيطونَ بالإنْسانِ .

لَقَدْ جاءتِ الآيَةُ لِتُبيِّنَ تِلْكَ الحالَةَ ، الّتي يَموتُ فيها إنْسانٌ ولا يَتْرُكُ أَبْناءً ولا أَباً ولا أُمّاً أوْ أجْداداً وجَدّاتٍ أوْ أحْفاداً ، فإلى مَنْ تَؤولُ تَرِكَتُهُ ؟ إنَّ هذا المَيِّتَ قَدْ يَكونُ لَهُ إِخْوةٌ مِنْ أُمِّهِ ، أيْ : لَيْسوا إخْوةً لَهُ مِنْ أَبيهِ ، أوْ مِنْ أُمِّهِ وأَبيهِ مَعاً ، ففي هذهِ الحالةِ :

١ـ إنْ كانَ لَهُ أخٌ واحِدٌ أوْ أُخْتٌ واحِدَةٌ ، فالأَخُ أوِ الأُخْتُ يَرِثُ كُلٌّ مِنْهُما السُّدُسَ فَقط .

٢ـ إنْ كانَ لَهُ أكْثَرُ مِنْ أَخٍ واحِدٍ ، فإنْ كانوا مَثَلاً ثَلاثَةً ذُكوراً وإناثاً ، أوْ أكْثَرَ مِنْ ذلِكَ ، فإنَّهُمْ جَميعاً مُشْتَرِكونَ في الثُّلثِ ، ولا فَرْقَ هُنا بَيْنَ الذَّكَرِ والأُنْثى ، فَنَصيبُ الذَّكَرِ نَفْسُ نَصيبِ الأُنْثى ، فَهُمْ شُرَكاءُ في الثُّلُثِ .

وَقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ فَيَكونُ تَقْسيمُ التَّرِكَةِ عَلى المُسْتَحِقّينَ كَما قُلْنا مِنْ قَبْلُ ، بَعْدَ تَنْفيذِ الوَصيَّةِ ، أوْ قَضاءِ دُيونِ الميِّتِ صاحِبِ المالِ . ﴿ غَيْرَ مُضَآرٍّ ﴾ أيْ : بِحَيْثُ لا يُوقِعُ المُوَرِّثُ الضَّررَ عَلى الوَرَثَةِ بأكْثَرِ مالِهِ لِغَيْرِ الوَرَثَةِ . رُوِيَ عَنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عَنْهُ أنَّهُ قالَ : (لأنْ أُوصِيَ بالخُمُسِ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أُوصِيَ بالرُّبْعِ ، ولأنْ أُوصِيَ بالرُّبْعِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أوصِيَ بالثُّلُثِ) . ومِنْ صُوَرِ الإضْرارِ بالوَصِيَّةِ والدَّيْنِ .

١ـ أنْ يُوصِيَ المورِّثُ بأكْثَرَ مِنْ ثُلُثِ مالِهِ ولَهُ وَرَثَةٌ .

٢ـ أنْ يُوصِيَ بالثُّلُثِ أوْ أقَلَّ مِنْهُ ، مِنْ أجْلِ أنْ يُنْقِصَ حُقوقَ الوَرَثَةِ .

٣ـ أنْ يَذْكُرَ ويُقِرَّ بأنَّ عَلَيْهِ دَيْناً لِشَخْصٍ ما يَسْتَغْرِقُ جَميعَ مالِهِ ، ويَهْدِفُ مِنْ ذلِكَ حِرْمانَ الوَرَثَةِ مِنَ الميراثِ .

﴿ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يوصيكُمُ اللهُ بذلكَ وَصِيَّةً ، وقَدْ جاءتِ الكَلِمَةُ هكذا : ﴿وَصِيَّةً﴾ مُنَكَّرةً لِتَفْخيمِها والعنايةِ بِشأْنِها ، لِحَثِّ النّاسِ عَلى العَمَلِ بموجبها .

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ اللهُ سُبْحانَهُ عَليمٌ بما تُسِرُّونَ وما تُعْلِنونَ ، عَليمٌ بما يَنْفَعُكُم ، وعَليمٌ بنيّاتِكُمْ ، حَليمٌ بكُمْ فلا يعاجلُكُمْ بالعُقوبَةِ عَسَى أنْ تَتوبوا إلى اللهِ تَعالى تَوْبَةً نَصوحاً .

وَلَقَدْ أكَّدتِ الآياتُ وُجوبَ الانْقيادِ لأحْكامِ اللهِ تَعالى وشرائِعِه ، فقال سُبْحانَهُ :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ وحُدودُ اللهِ هِيَ شَرائِعُهُ الّتي أَمَرَ باتِّباعِها ونهى عَنْ تَرْكِها، فَمَنْ أطاعَ اللهَ

تَعالى وكانَ عَمَلُهُ ضِمْنَ ما شَرَعَهُ اللهُ ، وأَطاعَ رَسولَهُ ﷺ ، فاتَّبَعَ كُلَّ ما جاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ سُبْحانَهُ ، فإنَّ اللهَ تَعالى يُثيبُهُ بِأَنْ يُدْخِلَهُ جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ، خالِدينَ فيها لا يَموتونَ ولا يَفْنَوْنَ ولا يَخْرُجونَ مِنْها ، وذلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظيمُ الّذي لَيْسَ بَعْدَهُ فَوْزٌ .

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

أمّا مَنْ كانَ يَعْصي اللهَ تَعالى وَرَسولَهُ ﷺ فيما أمَرَ بِهِ سُبْحانَهُ ونهى عَنْهُ ، وَيَتعدَّى عَلى شَرائِعِ اللهِ تَعالى ، فإنَّ مَصيرَهُ أنْ يُدْخِلَهُ اللهُ ناراً يُعذَّبُ فيها ، ويَكونُ خالِداً مُخلَّداً في تِلْكَ النّارِ ، ولَهُ إضافَةً لِذلِكَ عَذابٌ مُهينٌ ، حَيْثُ سَيُذَلُّ ويَخزى يَوْمَ القِيامَةِ ، بِسَبَبِ اسْتِهانَتِهِ في الدُّنيا بِحُدودِ اللهِ تعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وُجوبُ الالْتِزامِ بِشَريعةِ اللهِ تَعالى والمُحافَظَةِ عَلَيْها .

٢ـ كُلٌّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ يَرِثُ أَحَدُهما الآخَرَ ، فَلا تُحْرَمُ المرأةُ مِنْ مالِ زَوْجِها كَما كانَتْ في التَّشريعاتِ السّابقةِ .

٣ـ المُحافَظَةُ عَلى تَنْفيذِ وَصيَّةِ المَيِّتِ ، وعَدَمُ إهْمالِها .

٤ـ عَلى المُسْلِمِ أنْ يَتجنَّبَ إيقاعَ الضَّرَرِ بِمَنْ سَيَرِثُهُ ، نِكايةً بِهِ ، أوْ بُغْضاً لَهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مِنْ خِلالِ دِراسَتِكَ لأَحْكامِ الميراثِ للزَّوْجَيْنِ ، بيِّنْ نَصيبَ كُلٍّ مِنَ الرَّجُلِ والأُنْثى .

٢ـ لِماذا تُقْسَمُ التَّرِكَةُ بَعْدَ سَدادِ دُيونِ الميِّتِ وتَنْفيذِ وَصِيَّتِهِ ؟

٣ـ عَرِّفِ الكَلالَةَ ، وبَيِّنْ نَصيبَ كُلٍّ مِنَ الأَخِ والأُخْتِ مِنْ ميراثِ الكَلالَةِ .

٤ـ ضعْ إشارةَ (✓) أمامَ العِبارةِ الصَّحيحةِ وإشارةَ (×) أمامَ العِبارةِ غيرِ الصَّحيحةِ فيما يلي :

أ ـ ماتَتِ امْرَأَةٌ ولَمْ يَكُنْ لَها أولادٌ فإنَّ نَصيبَ الزَّوْجِ ثُلُثُ ما تركَتْ .

ب ـ ماتَ شَخْصٌ ولَهُ إخْوةٌ مِنْ أمِّه فقط ، فإنْ كانوا أكْثَرَ مِنْ أخٍ فَلَهُمُ النِّصفُ .

ج ـ الزَّوْجَةُ الّتي لَيْسَ لِزَوْجِها أَوْلادٌ تَرِثُ مِنْ زَوْجِها الرُّبُعَ .

نَشاطٌ :

١ـ إنْ ماتَ رَجُلٌ وتَرَكَ زَوْجتَيْنِ وأَوْلاداً لَهُ ، فَكَمْ يَكونُ نَصيبُ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَتَيْنِ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ حَديثاً شَريفاً يُبيِّنُ فيهِ الرَّسولُ ﷺ خُطورَةَ الإضْرارِ بالوَصِيَّةِ .

٣ـ صَمِّمْ جَدْولاً لِلْوَرَثَهِ المَذْكورينَ في آيةِ الدَّرْسِ والّذي قَبْلَهُ ، واكْتُبْ أَمامَ كُلِّ وارثٍ نَصيبَهُ كَما جاءَ في القرآنِ الكَريمِ :

	الوارثُ	نَصيبُهُ مِنَ الميراثِ
١ـ	البِنْتُ الواحِدَةُ	لَها النِّصفُ .
٢ـ	البِنتانِ فَأَكْثَرَ	لَهنَّ الثُّلثانِ .
٣ـ	....	....
٤ـ	....	....
٥ـ	....	....

* * *

الدَّرْسُ الخامِسُ

سورةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الخامِسُ

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾

مَعاني المُفرداتِ :

الفاحِشَةَ	: الزِّنى .
تابا	: رَجَعا إلى اللهِ وأَقْلَعا عَنِ الذُّنوبِ .
السُّوءَ	: العَمَلَ القَبيحَ الّذي يَسوءُ فاعِلَهُ .
حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموتُ	: أَصْبَحَ في حالةِ نِزاعٍ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ جاءَتِ الشَّريعَةُ الإِسْلاميَّةُ لِتَبْنِيَ المُجْتَمَعَ النَّظيفَ ، الخالي مِنْ كُلِّ مُنْكَرٍ وفاحِشَةٍ ، ولِذا فإنَّنا نَجِدُ القُرْآنَ الكريمَ يُشَدِّدُ النَّكيرَ عَلى فِعْلِ الفَواحِشِ ، ويَضعُ عُقوباتٍ صارِمةً شَديدةً لِمَنْ يَرْتَكِبُ فاحِشَةً ما . ومِنْ أَعْظَمِ تلْكَ الفَواحِشِ وأَشَدِّها فاحِشَةُ الزِّنى ، حَيْثُ جَعَلَها الإِسْلامُ مِنَ المحرَّماتِ الّتي لا يَنْبَغي لأَحَدٍ أَنْ يُقْدِمَ عَلَيْها وجَعَلَ لها حَدّاً وعُقوبةً ثابِتةً ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾

يُخْبِرُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى المُؤْمِنينَ بأنَّ اللّاتي يَقَعْنَ في فاحِشَةِ الزِّنى مِنْ نِسائِكُمْ سَواءٌ كُنَّ مُتزوِّجاتٍ أمْ لا ، هَؤلاءِ إنِ اقْتَرَفْنَ هذهِ الفاحِشَةَ ، فاطْلُبوا أنْ يَشْهَدَ عَلَيْهِنَّ أربعةُ شُهداءِ مِنَ الرِّجالِ الأَحْرارِ . ولابُدَّ مِنْ أنْ يَكونَ الشُّهداءُ مِنَ الرِّجالِ ، فلا تُقْبَلُ شَهادةُ النِّساءِ في الحُدودِ .

وَقَدِ اشْتَرَطَ سُبْحانَهُ وتَعالى أرْبَعَةً مِنَ الشُّهودِ ، لأنَّ فاحِشَةَ الزِّنى مِنْ أَشَدِّ الأُمورِ الّتي يُرْمَى بها الإنْسانُ رَجُلاً كانَ أوِ امْرَأةً ؛ ولِذا فَقَدْ شَدَّدَ سُبْحانَهُ في إثْباتِ هذِهِ الفاحِشَةِ . وهَؤلاءِ الشُّهودُ لابُدَّ مِنْ أنْ يَكونوا قَدْ رأَوْا عَمليةَ الزِّنى وشاهَدوها بِأُمِّ أَعْيُنِهِمْ ولَمْ يَسْمَعوا عَنْها سَماعاً .

فإنْ شَهِدَ هَؤلاءِ الشُّهودُ الأَرْبَعَةُ عَلى امْرأةٍ ما بالزِّنى ، فَعَلَيْكُمْ أنْ تحبِسُوها في البَيْتِ ، ولا تُمكِّنوها مِنَ الخُروجِ مِنْهُ عُقوبةً لَها، ولِكُلِّ واحِدَةٍ اقْتَرَفَتْ هذهِ الفاحِشَةَ ، وصِيانةً لها حتّى لا تَتَمكَّنَ مِنَ الوُقوعِ في الفاحِشَةِ مَرَّةً أُخرى ، وحِفْظاً لأَعْراضِ المُسْلِمينَ وأَنْسابِهِمْ . ولابدَّ مِنْ أنْ تَبقى هَؤلاءِ النِّسْوَةُ في البُيوتِ حتّى يَتوفّاهُنَّ اللهُ بالموتِ ، ويَقْبِضَ اللهُ أرْواحَهُنَّ ، أوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبيلاً ومَخْرَجاً ، وذلِكَ بأنْ يُشرِّعَ لَهُنَّ حُكْماً آخَرَ ، وهذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ قَبْلَ نُزولِ سورةِ النَّورِ الّتي بيَّنَتْ حَدَّ الزِّنى .

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لهذِهِ النِّسوةِ مَخْرَجاً . عَنْ عُبادةَ بنِ الصّامِتِ قالَ : كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا نَزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ أثَّرَ عَلَيْهِ ، وكَرُبَ لذلِكَ وتَغيَّرَ وَجْهُهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ ذاتَ يوم ، فلَمّا سُرِّيَ عنْهُ قالَ : (خُذوا عَنِّي ، خُذوا عنِّي ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لهنَّ سَبيلاً ، الثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ ، والبِكْرُ بالبِكْرِ ، الثَّيِّبُ جَلْدُ مائةٍ ورَجْمٌ بالحِجارةِ ، والبِكْرُ مائةٌ ونَفْيُ سَنَةٍ)[1] .

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴾ .

وبَيَّنَتِ الآياتُ حُكْماً آخَرَ ، قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ ﴾ أيْ : اللّذانِ يَرْتَكِبانِ فاحِشَةَ الزِّنى مِنْ رِجالِكُمْ ونِسائِكُمْ فآذوهُما بالتَّوْبيخِ والتأْنيبِ والشَّتْمِ ، بَعْدَ أنْ تَثْبُتَ فاحِشَةُ الزِّنى بِشَهادَةِ أرْبَعَةِ شُهودٍ ، حتّى يَنْدَما على ما فَعَلا ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴾ .

أيْ : إنْ تابا عمّا فَعَلا مِنَ الفاحِشَةِ ، وَندِما عَلى ما فاتَ وأَصْلَحا عَمَلَهُما ، فإنَّهُ سُبْحانَهُ يَقْبَلُ تَوْبَتَهما ، فَهُوَ سُبْحانَهُ تَوّابٌ واسِعُ الرَّحْمَةِ بِعِبادِهِ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير / سورة النساء ـ حديث رقم ٤٣٠١ .

وقَدْ ذَكَرَ العُلَماءُ أنَّ هَذِهِ الآياتِ نُسِخَتْ بآياتِ سورةِ النُّور ، حَيْثُ بَيَّنَتْ سورةُ النُّور عُقوبَةَ الزَّاني والزَّانيَةِ ، قال تَعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ٢] وهذا بالنِّسْبةِ للزَّاني والزَّانيةِ البِكْرِ ، أيْ : مَنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ الزَّواجُ ، وأمَّا عُقوبَةُ الزُّناةِ المُحْصَنينَ فبيَّنَتها السُّنَّةُ النبويَّةُ .

مِن الذينَ تُقْبَلُ تَوبَتُهُمْ ؟

يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

أيْ : إنَّ اللهَ تعالى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبادِهِ الّذينَ يَعْمَلونَ السُّوءَ ويَقَعونَ في المعاصي بِجَهالَةٍ ؛ أيْ : يَفْعَلونَ هذهِ المَعاصي جاهِلينَ غَيْرَ مُصرِّينَ عَلى فِعْلِها ، ثُمَّ يَتوبونَ بَعْدَ الوُقوعِ فيها بِوَقْتٍ قَريبٍ ، ولا يَسْتَمِرُّونَ في تِلْكَ المعاصي .

ولا شَكَّ في أنَّ كُلَّ مَنْ عَصَى اللهَ تَعالى يَكونُ جاهِلاً ، سواءٌ عَصاهُ عَنْ عَمْدٍ أمْ خَطأٍ ، إذْ إنَّ العاصي عِنْدَما يَعْصِي اللهَ تَعالى يَكونُ جاهِلاً لِثَوابِ اللهِ وعِقابِهِ ، وجاهِلاً لاطِّلاعِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِ .

إنَّ اللهَ تَعالى يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ ما لَمْ يُغَرْغِرْ ، أيْ : ما لَمْ تَصِلْ روحُهُ إلى الحَلْقِ ، والإنْسانُ العاقِلُ هُوَ الّذي يُسارِعُ إلى التَّوْبَةِ ، لِتَوقُّعِهِ المَوْتَ في كُلِّ لَحْظَةٍ . إنَّ هَؤلاءِ هُمُ الّذينَ يَتوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ويَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ ، ويُطَهِّرُ نُفوسَهُمْ ، ويَهديهِمْ إلى الحَقِّ ، ويُوَفِّقُهُمْ لِفِعْلِ الطّاعاتِ .

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

أمّا الّذينَ لا يَقْبَلُ اللهُ تَوْبَتَهُمْ فَهُمُ الّذينَ يَعْمَلونُ السَّيئاتِ ويَقْتَرِفونَ المعاصي ، ويَسْتَمِرُّونَ عَلى مَعاصِيهِمْ ويُصِرُّونَ عَلَيْها حتّى يُداهِمَهُمُ المَوْتُ ، ويَعْرِفونَ أنَّ اللهَ حَقٌّ فَعِنْدَئِذٍ يَقولُ أَحَدُهُمْ : ﴿إنِّى تُبْتُ الآنَ﴾ فإنَّ هذا الوَقْتَ لا فائِدَةَ فيهِ مِنَ التَّوْبَةِ .

ومِمَّنْ لا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُمْ كَذلِكَ الّذينَ يَموتونَ وهُمْ كُفَّارٌ عَلى غَيْرِ دينِ الإسْلامِ .

بَيَّنَتِ الآيةُ أنَّ الّذينَ لا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُمْ فَريقانِ :

١ـ الّذين يَرْتَكِبونَ المعاصِيَ والسَّيئاتِ ، ويُصِرُّونَ عَلَيْها ويَسْتَمِرُّونَ حتّى يُداهِمَهُمُ المَوْتُ .

٢ـ الّذينَ يَموتونَ عَلى غَيْرِ دينِ الإسْلامِ .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أُولئكَ الّذين لَمْ يَقْبَلِ اللهُ تَوْبَتَهُمْ أَعَدَّ اللهُ تَعالى لَهُمْ يَوْمَ القِيامةِ عَذاباً أَليماً موجعاً ، جزاءً لما اكْتَسَبَتْهُ أيْديهِمْ مِنَ السَّيئاتِ في الدُّنْيا ، نَسْأَلُ اللهُ تَعالى أنْ يَجْعَلَنا ممَّنْ تُقْبَلُ تَوْبتُهُمْ ويُغْفرُ لهُمْ ، آمين .

دروس وعبر

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حَرِصَ الإسلامُ على بناءِ المُجْتمع النَّظيف الخالي مِنَ الفَواحِشِ .

٢ـ جَعَلَ الإسلامُ ثُبوت فاحشةِ الزِّنى بأَرْبَعَة شُهودٍ ، حِرْصاً مِنْهُ عَلى أعْراضِ النّاسِ .

٣ـ الإنْسانُ العاقِلُ هُو الّذي يُسارِعُ بالتَّوْبَةِ من السَّيْئاتِ والمَعاصي الّتي يَقْتَرِفُها ، لأنَّ خَيرَ الخطّائينَ التَّوابونَ .

٤ـ تُقْبَلُ تَوْبَةُ العَبْدِ ما لم يغرْغِرْ ، أمّا إذا وصلتِ الرُّوحُ إلى الحُلْقومِ فَذلِكَ حينَ لا يَنْفعُ نَفْساً إيمانُها لَمْ تكنْ آمنتْ مِنْ قَبْلُ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعانِيَ الكَلِماتِ التّالية :

الفاحِشَةَ ، تابا ، السّوء .

٢ـ ما شُروطُ التَّوْبَةِ ؟ ومَنْ هُمُ الذين لا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُمْ ؟

٣ـ لِماذا اشْتَرَطَ الإسلامُ أرْبَعَةَ شُهداء لِجريمَةِ الزِّنى ؟

٤ـ أـ ما عُقوبَةُ الزِّنى الّتي بيَّنَتْها آيةُ الدَّرْسِ ؟

ب ـ ما السَّبيلُ الّذي جَعَلَهُ اللهُ تَعالى لِمَنْ تَقعُ في الزِّنى ؟

ج ـ ما عُقوبَةُ الزِّنى الّتي بيَّنَتْها سورةُ النُّورِ ؟

٥ـ ما مَعنى ﴿وَالَّلذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ ؟ وكَيْفَ يَكونُ الإيذاءُ ؟

٦ـ ما مَعْنى كُلٍّ مِنْ :

أ ـ ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ .

ب ـ ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ .

ج ـ ﴿حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ .

٧ـ وَصَفَ اللهُ تَعالى عُقوبةَ العُصاةِ والكافِرينَ بأنَّها ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ ، وضِّحْ كَيْفَ يَكونُ العَذابُ أَليماً .

نَشاطٌ :

١ـ ما الجَرائِمُ الّتي يُعاقَبُ مُرْتَكِبُها بِحدٍّ مِنَ الحُدودِ في الشَّريعةِ الإسْلاميَّةِ ؟ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الجَريمةَ وعُقوبَتَها .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةَ سورةِ النُّورِ الّتي تُبيِّنُ حَدَّ الزِّنى .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ عُقوبَةَ الزَّاني المُحْصَنِ ، ودَليلَها مِنَ السُّنَّةِ .

٤ـ اكْتُبْ شروطَ التَّوْبةِ الصَّحيحةِ في دَفْتَرِكَ .

٥ـ وَرَدَ في سورةِ يُونسَ الحَديثُ عَنْ إيمانِ فِرْعَوْنَ وَقْتَ الغَرَقِ ، اكْتُبِ الآياتِ في دَفْتَرِكَ ، وهَلْ نَفَعَهُ إيمانُهُ ؟

* * *

الدرس السادس

سورة النساء القسم السادس

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا (٢١) ﴾

معاني المفردات :

تَعْضُلُوهنَّ	تُضيِّقوا وتُشدِّدوا عليْهنّ
مُبيِّنةٍ	ظاهِرةٍ فاضِحةٍ .
أَفْضى	وَصَلَ واسْتَمْتَع .
ميثاقاً غليظاً	عَهْداً مُؤكَّدا .

التفسير :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) ﴾

عَنِ ابنِ عبّاسٍ ـ رضِيَ اللهُ عنْهُما ـ قال : قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ قالَ : كانُوا إذا ماتَ الرَّجُلُ كانَ أَوْلياؤُهُ

أحقَّ بامرأتِهِ ، إنْ شاء بعضُهُمْ تزوَّجها وإنْ شاءُوا زوَّجوها ، وإنْ شاءوا لمْ يُزوِّجوها فهُمْ أَحَقُّ بها مِنْ أَهْلِها ، فنزَلَتْ هذه الآيةُ في ذلكَ[1] .

لَقَدْ جاءَتْ هذهِ الآياتُ والّتي قَبْلَها لِتُغيِّرَ تِلْك العاداتِ الّتي كانتْ معْروفةً في الجاهِليَّةِ مِنْ أَكْلِ أَمْوالِ اليَتامى ، وهَضْمِ لِحُقوقِ النِّساءِ ، وقَدْ كانَتِ المرأَةُ تُورَّثُ كما يُورَّثُ المَتاعُ .

جاءَتْ هذهِ الآيَةُ تُخاطِبُ المُؤْمِنينَ وتُناديهِمْ بهذهِ الصِّفةِ المُحبَّبَةِ إليْهِمْ ، الّتي تَحثُّهُمْ على الالْتِزام بما يَأْمُرُهُمْ بِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وتَقولُ لَهُمْ يا أيُّها الّذين آمنوا لا يحلُّ لَكُمْ أنْ تَجْعَلوا النِّساءَ كالأَمْوالِ تَتصرَّفونَ بهنَّ كَما شِئْتُمْ وهُنَّ كارهاتٌ لذلكَ ، ولا يحِلُّ لَكُمْ أنْ تُضيِّقوا عَلَيْهِنَّ وتُضارُّوهنَّ ، حتى تَضْطَرَّ المرأةُ ـ لِشِدَّةِ كَراهِيَتِها لَكُمْ ، ولِما تجدُهُ منْكُمْ مِنْ تَضييقٍ ـ افْتِداءَ نَفْسِها بالمالِ الّذي أَعْطَيْتُموها إيّاه مَهْراً لَها .

والتَّضييقُ عَلى المرأةِ لا يَجوزُ بأيِّ حالٍ إلاّ في الحالِ الّتي تَأْتي فيها المرأةُ بالفاحِشَةِ المُبيِّنَةِ وذَلِكَ لِسوءِ أَخْلاقِهِنَّ ، وذَلِكَ كَأَنْ تَخْرُجَ عَنْ طاعةِ زَوْجها ، أو تَرْتَكِب فاحِشَةَ الزِّنى أوْ غَيْرَ ذَلِكَ فللزّوجِ حِينئذٍ أنْ يَعْضُلَ المرأَةَ ، حتّى تَطْلُبَ بِنَفْسِها الطَّلاق مِنْ زوْجها مُقابِلَ أنْ تُعْطِيَهُ المَرْأةُ بَعْضَ ما أَعْطاها مِنْ مَهْرٍ ، وهذا الحُكْمُ كانَ بِسَبَبِ إتْيانِ المرأةِ تِلْك الفاحِشَةِ ، ولابُدَّ مِنْ أنْ نُبيِّنَ أنَّ تِلْكَ الفاحِشَةَ الّتي تَرْتَكِبُها المَرْأَةُ لابُدَّ وأنْ تكونَ مُبيِّنَةً ، أيْ : ظاهِرَةً وفاضِحَةً لِصاحِبها ، فالهَفَواتُ الصَّغيرةُ لا تُعْطي الحقَّ للزَّوْجِ بأنْ يَعْضُلَ المَرْأَةَ ، ومُجَرَّدُ الظُّنونِ السَّيئةِ بالمَرْأةِ مِنْ قِبَلِ زَوْجِها كَذلِكَ لا يُعطيهِ الحقَّ بِعَضْلِها .

وتَأْمُرُ الآياتُ الرِّجالَ وبخاصَّةٍ الأَزْواجُ بِحُسْنِ مُعاشَرَةِ النِّساءِ ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أيْ : عَلَيْكُمْ أنْ تُحْسِنوا مُعاشَرَةَ النِّساءِ ، ولا تُؤْذُوهنَّ بِقولٍ ، بَلْ خاطِبوهُنَّ بالكَلامِ الطَّيِّبِ ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وأنا خَيرُكُمْ لأَهْلي)[2]

وإنَّ مِنْ حُسْنِ مُعاشَرَةِ المرأةِ أنَّ الرَّجُلَ إذا رأَى مِنْها خُلُقاً يَكْرَهُهُ ، لا يَكْرَهُها لأَجْلِ هذا الخُلُقِ ، ويَسْتَمِرُّ في كُرْهِهِ لها ، ولكنْ عَلَيْهِ أنْ يَغُضَّ الطَّرْفَ عَنْ هذا الخُلُقِ ، فَلَعَلَّ فيها أَخْلاقاً أُخْرى يُحِبُّها الزَّوْجُ ؛ ولِذا قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ أيْ : إنْ كَرِهتُموهنَّ لِعَيْبٍ فيهنَّ ، فلا تَتَعجَّلوا مُفارَقَتَهُنَّ ، فَعَسى أنْ تَكْرَهوا شَيْئاً ولَكِنَّ اللهَ يَجْعلُ لَكُمْ فيهِ خَيْراً نَتيجةَ صَبْرِكُمْ عَلَيْهِنَّ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، سورة النساء ـ حديث رقم ٤٣٠٣

(٢) أخرجه الترمذي في السنن ، حديث رقم ٣٨٩٥ ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه حديث رقم ٤١٨٦ ، والحاكم في المستدرك برقم ٥٣٥٩

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : (لا يَفْرُكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً ، إنْ كَرِه مِنْها خُلقاً رَضِيَ مِنْها آخَرَ)[1] .

وانتُقلَتِ الآياتُ لِتُبيِّنَ حَقّاً آخرَ مِنْ حُقوقِ المَرْأَةِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ .

إذا رَغِبْتُمْ أيّها الأَزْواجُ اسْتِبدالَ امْرأةٍ مَكانَ أُخرى ، بأنْ كُنْتُمْ مُتزوِّجينَ مِنَ امرأةٍ وقَدْ كَرِهْتُموها وأرَدْتُمْ طَلاقَها دونَ أنْ تَأْتِيَ بأيّةِ فاحِشَةٍ ، لِتتزوَّجوا مِنَ امْرأةٍ أُخْرى ، وإذا كُنْتُمْ قَدْ أعْطَيتُمُ المَرْأَةَ الّتي تَرْغَبونَ في طَلاقِها مالاً كَثيراً مَهْراً لَها ، فلا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَأْخُذوا مِنْهُ شَيْئاً ، لأنَّ الفِراقَ كانَ مِنْ جانِبِكُمْ أنتُمْ .

وتُشدِّدُ الآيَةُ النَّكيرَ عَلى مَنْ يَأْخُذُ مِنَ المَرْأَةِ حَقَّها . والاسْتِفهامُ للإنْكارِ والتَّوْبيخ ، وقَدْ كانوا مِنْ قَبْلُ إذا أرادوا تَطْليقَ الزَّوْجَةِ رَمَوْها بِفاحِشَةٍ وتقوَّلوا عَلَيْها الأَقاويلَ ، فَتَضْطَرُّ لافْتِداءِ نَفْسِها بالمالِ ، وهذا هُوَ البُهتانُ ، أيْ : الكَذِبُ الّذي يُحيِّرُ لِفَظاعَتِهِ ، وهُوَ لاشَكَّ ذَنْبٌ عَظيمٌ يُبْعِدُ صاحِبَهُ عَنْ ربِّهِ سُبْحانَهُ وتَعالى .

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ .

وكَيْفَ تَسْتَحِلّونَ يا مَعْشَرَ الرِّجالِ أنْ تأخُذوا شَيْئاً مِنَ المَهْرِ الّذي أَعْطَيتُموهُ لِنِسائِكُمْ عِنْدَ مُفارَقَتِهِنَّ ، والحالُ أنَّكم قَدْ وَصَلَ بَعْضُكُمْ إلى بَعْضٍ واسْتَمْتَعَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ، وصارَ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُم لِباساً لِصاحِبِهِ ، وأَخَذْنَ مِنْكُمْ ميثاقاً غَليظاً لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَنقُضوهُ أو تُخالِفوهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ تَكريمُ المَرْأَةِ بإعْطائِها كامِلَ حُقوقِها ، وذلِكَ بَتَحْريمِ تَوْريثِها والتَّضييقِ عَلَيْها .

٢ـ المَهْرُ حَقٌّ لِلْمَرْأَةِ ، قَليلاً كانَ أمْ كَثيراً .

٣ـ إذا فارَقَ الرَّجلُ امْرأتَهُ فَلا يَجوزُ لَهُ أنْ يَأْخُذَ شَيْئاً مِنْ مَهْرِها .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الرضاع ، باب الوصية بالنساء ، حديث رقم ١٤٦٩ .



أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ سَبَبَ نُزولِ قَوْلِهِ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ .

٢ـ ما حِكْمَةُ مُخاطَبَةِ اللهِ المُؤْمنينَ بِقَوْلِهِ : ﴿ياأيُّها الّذين آمنوا﴾ ؟

٣ـ اذْكُرْ صورتَيْنِ مِنْ صُوَرِ حُسْنِ مُعاشَرَةِ المرأةِ .

٤ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾ .

٥ـ ما مَعْنى كلٍّ مِنْ :

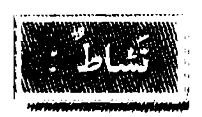
أ ـ ﴿مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾ .

ب ـ ﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ .

ج ـ ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً﴾ .

د ـ ﴿بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾ .

٦ـ قالَ تَعالى : ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيئاً وَيجْعَلَ اللهُ فِيهِ خيْراً كَثِيراً﴾ ؛ وضِّحْ هذِهِ الآيَةَ مُبيِّناً كَيْفَ يَكونُ الخَيْرُ فيما نَكْرَهُ .



ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الميثاقَ الغليظَ الّذي أَخَذَتْهُ النِّساءُ مِنْ أَزْواجِهِنَّ .

* * *

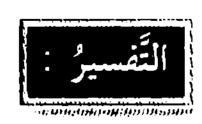
الدَّرْسُ السَّابِعُ

سورةُ النِّساءِ - القِسْمُ السّابِعُ

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ

سَلَفَ	: مَضَى .
فاحِشَةً	: شَديدَ القُبْحِ .
مَقْتاً	: مَبْغوضاً .
ساءَ سَبيلاً	: بِئْسَ هذا الطّريقُ الّذي سَلَكوهُ .
ورَبائِبُكُمُ اللّاتي في حُجورِكُمْ	: بَناتُ زَوْجاتِكُمُ اللّاتي رَبَّيْتُموهُنَّ .
جُناحَ	: إثْمَ .



﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾ .

أباحَ اللهُ تَعالى للرِّجالِ أنْ يَتزوَّجوا مَنْ شاؤوا مِنَ النِّساءِ ، إلاّ أنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الزَّواجَ بِبَعْضِ النِّساءِ ، ولَقَدْ تَكَفَّلَ اللهُ تَعالى بِبَيانِ هذِهِ الشَّريحَةِ مِنَ النِّساءِ اللّاتي يَحْرُمُ الزَّواجُ مِنْهُنَّ .

وَقَدْ بَدَأَتِ الآياتُ بِتَحْريمِ نِكاحِ امْرأةِ الأَبِ ، وأَفْرَدَتْ لها نَصّاً خاصّاً ،ولَمْ تَذْكُرْ مَعَها المُحرَّماتِ الأُخْرى ؛ مُبالغةً في الزَّجْرِ ، ولَقَدْ كانَ هذا الزَّواجُ مُتَفشِّياً في الجاهِلِيَّةِ ، فإذا تُوفِّيَ الرَّجلُ كانَ ابْنُهُ أحَقَّ بِها أنْ يَنْكِحَها إنْ شاءَ ، فَجاءَتِ الآيَةُ تُحرِّمُ عَلى الأَبْناءِ أنْ يَتزوَّجوا مِمَّنْ كانَ آباؤُهُمْ قَدْ تزوَّجوهُنَّ ، والمَقْصودُ بِقَوْلِهِ : ﴿آبَاؤُكُم﴾ كُلُّ الأُصولِ مِنَ الرِّجالِ ، فَتَشْمَلُ الآباءَ ، والأَجْدادَ سَواءً أَكانوا مِنْ جِهَةِ الأَبِ ، أمْ مِنْ جِهَةِ الأُمِّ .

﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ ﴾ يَسْتَثْني سُبْحانَهُ مِنَ التَّحْريمِ ما مَضَى قَبْلَ نُزولِ الآياتِ ، أيْ : مَنْ كانَ تَزوَّجَ قَبْلَ نُزولِ هَذِهِ الآياتِ بامْرأةِ أبيهِ فَلا مُؤاخَذَةَ عَلَيْهِ .

وَيَصِفُ سُبْحانَهُ الزوَّاجَ مِنَ امْرأةِ الأَبِ أوْ الجدِّ بأنَّهُ ﴿ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ فَهذا النَّوْعُ مِنَ الزَّواجِ قَبيحٌ شَديدُ القُبْحِ ، وهُوَ مَبْغوضٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى وعِنْدَ أصْحابِ العُقولِ السَّليمَةِ ، وبِئْسَ هذا النِّكاحُ الخَبيثُ طَريقاً .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِبَيانِ المُحرَّماتِ مِنَ النِّساءِ وِفْقَ تَرتيبٍ دَقيقٍ وبَيانٍ بَيِّنٍ واضِحٍ .

أولاً : المُحرَّماتُ مِنَ النِّساءِ بِسَبَبِ القَرابةِ :

١ـ الأُصولُ : وهُنَّ الأُمَّهاتُ ، فَقَدْ حرَّمَ اللهُ تَعالى نِكاحَ الأُمَّهاتِ ، ويَدْخُلُ فيهنَّ الجدَّاتُ ، سَواءٌ أَكُنَّ مِنْ جِهَةِ الأَبِ أمْ مِنْ جِهَةِ الأُمِّ . قالَ تَعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ .

٢ـ الفُروعُ : وتَشْمَلُ البَناتِ ، وبَناتِ الابْنِ وبَناتِ البِنْتِ ، وبَناتِ ابنِ الابْنِ ، وهَكذا .

٣ـ الحواشي : وهُنَّ فُروعُ الأَبَوَيْنِ ، وَهُوَ المَقْصودُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ أيْ : الشَّقيقاتُ ، أوْ الأَخواتُ لأَبٍ ، أو الأَخواتُ لأمٍّ .

٤ـ العَمّاتُ والخالاتُ : فَقَدْ حَرَّمَ سُبْحانَهُ نِكاحَ العَمّاتِ والخالاتِ ، ويَشْمَلُ ، عَمّاتِ الأَبِ والأُمِّ ، وخَالاتِ الأَبِ والأُمِّ كَذلِكَ .

٥ـ نِكاحُ الحَواشي البَعيدةِ مِنْ جِهةِ الإِخْوَةِ : قالَ تَعالى : ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ نِكاحَ بَناتِ أَخِ الرَّجُلِ ، إذْ يَكونُ عَمَّهنَّ ، ونِكاحَ بَناتِ أُختِهِ ، إذْ يكونُ خالَهنَّ ويَتْبَعُهُ تَحريمُ بَناتِ بناتِهِمْ .

ثانياً : المُحرَّماتُ مِنْ جِهَةِ الرَّضاعِ

قالَ اللهُ تَعالى : ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ وبَناتُهُنَّ وهكذا مَهْما نَزَلَ .

والرَّضاعةُ في مَنْزِلَةِ النَّسَبِ ، فالرَّجلُ لا يَجوزُ لَهُ أنْ يَتزوَّجَ أُمَّه التي أَرْضَعَتْهُ ، أوْ أُخْتَه مِنَ الرَّضاعِ ، وقَدْ رُوِيَ عَنْ عائِشَةَ أنَّ رَسولَ اللهِ قالَ : (إنَّ الرَّضاعةَ تُحَرِّمُ ما تُحَرِّمُ الوِلادَةُ)[1] .

ثالثاً : المُحرَّماتُ مِنْ جِهَةِ المُصاهَرَة

أيْ بِسَبَبِ الزوّاجِ ، والمُحرَّماتُ هُنَّ :

١ـ ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ فَيَحْرُمُ عَلَيْكُمْ نِكاحُ أُمَّهاتِ زَوْجاتِكُمْ ، وهذِهِ تَشْمَلُ كَذلِكَ جَدّاتِ الزَّوْجاتِ، فَهُنَّ أُمَّهاتٌ كَذلِك. والمَقْصودُ بالنِّساءِ هُنا المَعْقودُ عَلَيْهِنَّ سَواءٌ كُنَّ مَدْخولاً بِهنَّ أمْ لا .

٢ـ ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ والرَّبيبةُ بِنْتُ امْرأةِ الرَّجلِ مِنْ غَيْرِهِ ، وسُمِّيَتْ كذلِكَ لأنَّ الرَّجُلَ يَرُبُّها ، أيْ : يُرَبِّيها ويُؤدِّبُها . والظّاهِرُ مِنَ الآيَةَ أنّ بِنْتَ امْرأتِهِ تَحْرُمُ عَلَيْهِ إذا كانَتْ في حِجْرِهِ أوْ لم تَكُنْ في حِجْرِهِ ، أَيْ : تَعيشُ مَعَهُ في بَيْتِهِ أوْ لم تَكُنْ . وذَكَرَ هذا الأَمْرَ ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ لأنّ هذا هُوَ الغالِبُ أنَّ الابْنَةَ مَعَ أُمِّها ، والصَّحيحُ أنَّ كُلَّ بِنْتٍ أو بِنْتِ بِنْتٍ أو بِنْتٍ لامْرأةِ الرَّجُلِ تَحْرُمُ عليهْ ، شَرْطَ الدُّخولِ بها سَواءٌ عاشَتْ في كَنَفِهِ أمْ لا ؛ ولِذا يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيْ : إذا عَقَدَ الرَّجُلُ عَلى المَرْأةِ ولَمْ يَدْخُلْ بِها لا يَحْرُمُ عَلَيْهِ بناتُها ، فَلوَ عَقَدَ عَلى الأُمِّ مثلاً ولَمْ يَدْخُلْ بِها ، ثُمَّ ماتَتْ ، حَلَّ لَهُ أنْ يَتزوجَ ابْنَتَها .

والقاعِدةُ الشَّرْعِيَّةُ : العَقْدُ عَلى البَناتِ يُحَرِّمُ الأُمَّهاتِ ، والدُّخولُ بالأُمَّهاتِ يُحرِّمُ البَناتِ .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٢٥٠٣ .

٣ـ ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴾ والحلائِلُ : جَمْعُ حَليلةٍ وهيَ الزَّوْجَةُ ، وسُميّتْ كذلك لأنَّ الزَّوْجَيْنِ يَحِلاّنِ في مَكانٍ واحِدٍ ، ويَحِلُّ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، والمَقْصودُ أنَّ الرَّجلَ لا يَحِلُّ لَهُ أنْ يَتزوَّجَ زَوْجةَ ابْنِهِ ، أوْ زَوْجَةَ ابنِ ابنِهِ ، أوْ زَوْجَةَ ابنِ ابْنَتِهِ وهكذا ، وَيَدْخُلُ فيه زَوْجَةُ ابنهِ مِنَ الرَّضاعَةِ ، لأنَّهُ يَحْرُمُ مِنَ الرَّضاعِ ما يَحْرُمُ مِنَ النَّسبِ . وقَيَّدتِ الآيةُ كَوْنَ الابْنِ مِنْ صُلْبِ الرَّجلِ ، أي : مِنْ نَسْلِهِ ، لِيُخْرِجَ بهذا القَيْدِ ما كانَ شائِعاً في الجاهِليَّةِ مِنْ أمْرِ التَّبنّي .

رابعاً : المُحرَّماتُ بِسَبَبِ الجَمْعِ

يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ ﴾ .

أيْ : يَحْرُمُ عَلى الرَّجُلِ أنْ يَتزوَّجَ المَرْأةَ وأُخْتَها في آنٍ واحِدٍ ، أمّا إذا طَلَّقَ زَوْجَته ، أوْ ماتَتْ فَيَحِلُّ لَهُ عِنْدئِذٍ أنْ يَتزوَّجَ أُخْتَها . وتَخْتِمُ الآيَةُ الكَريمةُ بِبيانِ أنَّ اللهَ تَعالى عَفا عَمَّا سَلَفَ وَمَضَى ، فَمَنْ تَزوَّجَ أُخْتَيْنِ قَبْلَ نُزولِ هذِهِ الآياتِ ، فَقَدْ عَفا اللهُ عَنْهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى غَفورٌ رَحيمٌ .

وَقَدْ وَرَدَ أنَّه بَعْدَ نُزولِ هذهِ الآيةِ ، مَنْ كانَ عِنْدَه أُخْتانِ قَدْ تَزَوَّجَهُما ، خُيِّرَ في إحْداهُما ، فَأَمْسَكَ واحِدةً عِنْدَهُ وطَلَّقَ الأُخْرى .

وَيَلْحَقُ بِذلِكَ الجَمْعُ بَيْنَ المرأةِ وعَمَّتِها ، والمَرْأةُ وخالَتِها ، فَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال (لا تُنْكَحُ المَرْأَةُ على عَمَّتِها، ولا عَلى خالَتِها، ولا عَلى ابنةِ أَخيها، ولا عَلى إبنةِ أُخْتِها)[(١)] .

وَقَدْ خُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ وتعالى لا يُؤاخِذُهُمْ بِما كانَ مِنْهُمْ زمَنَ الجاهِلِيَّةِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَمحو آثارَ تِلْكَ الأَعْمالِ وقَدْ غَفَرَ لَهُمْ ذُنوبَهُمْ ، فالإسْلامُ يَهْدِمُ ما قَبْلَهُ ، ومِنْ رَحْمتِهِ أنَّهُ سُبْحانَهُ حَرَّمَ كَثيراً مِنَ الأَنْكِحَةِ الّتي كانَتْ تُمارَسُ في الجاهِليَّةِ صِيانةً للأُسْرَةِ مِنَ التَّمزُّقِ وحِمايةً لها مِنَ الضَّعْفِ ، ولِذا فَقَدْ شرَّعَ مِنَ الأَحْكامِ ما فيهِ المَصْلَحَةُ وتَوثيقُ الصِّلاتِ وحِفْظُ الأَنْسابِ والمُجْتَمَعِ مِنْ كُلِّ سوءٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ شَرَعَ القُرْآنُ مِنْ أَحْكامِ النِّكاحِ ما فيهِ المَصْلَحَةُ ، وتَوثيقُ الصِّلاتِ ، وما فيهِ حِفْظٌ للأُسْرَةِ مِنَ التَّمزُّقِ والضَّعْفِ .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح برقم ٤٨١٨ وأخرجه الإمام مسلم ، كتاب النكاح ، باب تحريم الجمع بين المرأة وأختها أو خالتها في النكاح برقم ١٤٠٨ .

٢ـ تَكفَّلَ اللهُ تَعالى بِبَيانِ ما يَحْرُمُ عَلى الرِّجالِ الزَّواجُ مِنْهُنَّ لِدَرْءِ المفاسِدِ ، وحِمايةِ الأَنْسابِ .

٣ـ جاءَ الإِسْلامُ لِيَهْدِمَ ما كانَ شائِعاً في الجاهِليَّةِ ، فالإسْلامُ يَهْدِمُ ما قَبْلَهُ .

التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ عَدِّدِ المُحَرَّماتِ مِنَ النِّساءِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنَ الجِهاتِ الآتيةِ :

أ ـ القَرابةِ والنَّسَبِ .

ب ـ المُصاهَرَةِ .

ج ـ الرَّضاعةِ .

د ـ الجَمْعِ .

٢ـ ما مَعْنى المُفْرَداتِ التّاليةِ :

سَلَفَ ، مَقْتاً ، ساءَ سَبيلاً .

٣ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ﴾. وَما حِكْمَةُ ذِكْرِ ﴿مِنْ أَصْلابِكُمْ﴾ ؟

٤ـ مَتى يَحِقُّ للرَّجُلِ أنْ يَتَزوَّجَ أُخْتَ زَوْجَتِهِ ؟ وما دَليلُ ذَلِكَ ؟

٥ـ لِمَ خُتِمَتِ الآياتُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ هَلْ كانَ الجاهِليُّ يَتزوَّجُ زَوْجَةَ أبيهِ بَعْدَ مَوْتِ أبيهِ أمْ لا ؟ اكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَتى تَكونُ الرَّضاعةُ مُحَرِّمَةً ؟

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ اسْمَ زَوْجةِ الرَّسولِ ﷺ الّتي تَزَوَّجَها لِيُبْطِلَ عادةَ التَّحْريمِ بالتَّبنّي .

٤ـ ما الحِكْمَةُ في رأيِكَ مِنْ عَدَمِ الجَمْعِ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ؟ اكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرس الثامن

سورةُ النساءِ ـ القسمُ الثامنُ

۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

المُحْصَناتُ : العَفيفاتُ المُتَزَوِّجاتُ .

مُسافِحينَ : مِنَ السِّفاحِ وهُوَ الزِّنى .

فَريضةً : مَحْدودةً ومُقَدَّرةً .

لا جُناحَ : لا حَرَجَ .

طَوْلاً : غِنىً وفَضْلاً .

المُحْصَناتِ المُؤْمِناتِ : الحَرائِرِ مِنَ النِّساءِ .

فَتياتِكُمْ : الإماءِ ، مِلْكِ اليَمينِ مِنَ النِّساءِ .

مُحصَناتٍ : عَفيفاتٍ .

متّخِذاتِ أخْدانٍ : يَتَّخِذْنَ أصْدِقاءَ لارْتِكابِ الزِّنى .

نِصْفُ ما عَلى المُحْصَناتِ : أيْ خَمْسونَ جَلْدَةً .

العَنَتَ : الجُهْدَ والمَشَقَّةَ .

التَّفسيرُ :

﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

ما زالَتِ الآياتُ تَتَحدَّثُ عَنِ المُحرَّماتِ مِنَ النِّساءِ ، فَتَذْكُرُ نَوْعاً سادِساً مِنَ المُحرَّماتِ وهُنَّ النِّساءُ المُتَزَوِّجاتُ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ كمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ نِكاحَ أُمَّهاتِكُمْ وبَناتِكُمْ ، فَقَدْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أيْضاً نِكاحَ النِّساءِ ذَواتِ الأَزْواجِ ، المُتَزَوِّجاتِ وهُنَّ يَعِشْنَ مَعَ أزْواجِهِنَّ وفي عِصْمَتِهِمْ .

﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ هذا اسْتِثْناءٌ مِنْ تحريمِ نِكاحِ ذَواتِ الأَزْواجِ ، والمُرادُ بِهِنَّ النِّساءُ اللَّواتِي حَصَلَ عَلَيْهِنَّ المُسْلِمونَ مِنْ حُروبِهِمْ مَعَ الكافِرينَ ، وهُنَّ السَّبايا ، وقَدْ رأى المُسْلِمونَ أنَّ المَصْلَحَةَ أنْ لا تُعادَ السَّبايا إلى أزْواجِهِنَّ الكُفَّارِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْحَلُّ عَقْدُ الزَّوْجِيَّةِ ، ويَحِلُّ للرَّجُلِ الّذي مَلَكَهُنَّ أنْ يَسْتَمْتِعَ بِهِنَّ .

عَنْ أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ جَيْشاً يَوْمَ حُنَيْنٍ إلى أوْطاسَ فَلَقوا العَدُوَّ فَقاتلوهُمْ وظَهَروا عَلَيْهِم وأَصابوا لَهُم سَبايا ، فَكان ناسٌ مِنْ أصْحابِ رَسولِ اللهِ قَدْ تَحرَّجوا مِنْ غِشْيانِهِنَّ مِنْ أجْلِ أزْواجِهِنَّ مِنَ المُشْرِكينَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ في ذَلِكَ ﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾[1] .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أيْ : كَتَبَ اللهُ عَلَيْكُمْ تَحريمَ هَذِهِ الأَنْواعِ كِتاباً مُؤَكَّداً وفَرَضَهُ فَرْضاً ثابِتاً ، لا يَجوزُ لَكُمْ أنْ تَتلاعَبوا فيهِ ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ أيْ : كُلُّ ما لَمْ يُحرَّمْ في كِتابِ اللهِ تَعالى أوْ عَلى لِسانِ نَبِيِّهِ فَهُوَ لَكُمْ حَلالٌ ، ولَقَدْ ذَكَرَ الرَّسولُ إضافَةً إلى ما مَرَّ ذِكْرُهُ مِنَ المُحرَّماتِ الجَمْعَ بَيْنَ المرأةِ وعَمَّتِها أو خالَتِها ، وَوَرَدَ في القُرْآنِ الكَريمِ في مَوْضِعٍ آخَرَ تَحريمُ الزَّواجِ مِنَ المُشْرِكَةِ ومَنْ لاعَنَتْ زَوْجَها ولاعَنها .

وقَدْ رَفَعَ الإِسْلامُ مِنْ شَأْنِ المَرْأَةِ ، فَبَيَّنَ أنَّ لَها مَهْراً يُدْفَعُ إذا أرادَ الرَّجُلُ أنْ يَتَزَوَّجَها ، ولَقَدْ أباحَ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الصحيح ، حديث رقم ١٤٥٦ .

الإسْلامُ وأحَلَّ لِلْمُسْلِمينَ التَّزوُّجَ مِمَّنْ شاؤُوا مِنْ غَيْرِ المُحرَّماتِ ، شَريطَةَ أَنْ يَدْفعوا لِلْمَرأَةِ مَهْراً ، وبالزَّواجِ الحلالِ تَكونونَ قَدْ أحْصَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ومَنَعتُموها مِنَ التَّمتعِ بالحَرامِ وهُوَ السِّفاحُ ، أيْ : الزِّنى ، والإحْصانُ هُنا بِمعنَى العِفَّةِ ، فَكُلٌّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ يَعِفُّ نَفْسَهُ عَنِ الحَرامِ ، ويَتَمتَّعُ بِما أَحَلَّهُ اللهُ تَعالى لَهُ .

﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أيْ : أيُّ امرأةٍ مِنَ النِّساءِ اللَّواتي أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ زَواجَها ، إذا تَزوَّجْتُموها فَأَعْطوها الأَجْرَ ، وهُوَ المَهْرُ الّذي تَفْرِضونَهُ لَها عِنْدَ عَقْدِ النِّكاحِ .

وَبيَّنَ سُبْحانَهُ أنَّه لا حَرَجَ في أنْ يَتَنازلَ أَحدُ الزَّوْجَيْنِ للآخَرِ عَنْ حَقِّهِ ، فإذا تَنازلتِ المَرْأَةُ عَنْ جُزْءٍ مِنَ مَهْرِها عَنْ رِضاً مِنْها فلا حَرَجَ عَلَيْها في ذَلِكَ .

وَقَدْ خُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فَقَدْ وَضَعَ اللهُ تَعالى للنّاسِ الشَّرائِعَ الّتي تُحقِّقُ مَصالِحَهُمْ ، فَشَرَعَ لَهُمْ عَقْدَ النِّكاحِ الّذي يَحْفَظُ لَهُم أَمْوالَهُمْ وأَنْسابَهُمْ ، وفَرَضَ لِلْمَرْأَةِ حَقَّها مِنَ المَهْرِ .

ولكنْ إذا لَمْ يَسْتَطِعِ الرَّجُلُ أنْ يَتَزوَّجَ المُحْصَناتِ المُؤْمِناتِ ؛ فما الّذي يَفْعَلُهُ ؟

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ ﴾ ، أيْ : مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ أنْ يَنْكِحَ المُحْصَناتِ اللَّواتي أُحِلَّ لَكُمْ نِكاحُهُنَّ بِأَمْوالِكُمْ ، والمَقْصودُ : بالمُحْصَنَةِ هُنا الحُرَّةُ ، فَعَلَيْهِ أنْ يَنْكِحَ أَمَةً مِنَ الإماءِ المُؤْمِناتِ ، ويَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ ﴾ فَقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّ الإيمانَ قَدْ رَفَعَ مِنْ شَأْنِ الفَتياتِ المُؤْمِناتِ ، وساوى بَيْنَهُنَّ وبَيْنَ الأَحْرارِ والحرائِرِ في الدِّينِ ، ورُبَّما تَكونُ أَمَةٌ مِنَ الإماءِ فانْكِحوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ، والأَهْلُ هُمُ الّذين يَمْلِكونَهُنَّ، وأَعْطوهُنَّ مُهورَهُنَّ الّتي تَفْرِضونَها لَهُنَّ دونَ أن تَبْخَسوا مِنْ أُجورِهِنَّ شَيْئاً ، فالمَهْرُ حَقٌّ للزَّوْجَةِ على الزَّوْجِ ، وعَلَيْكُمْ أنْ تُعطُوهنَّ هذا المَهْرَ لأنَّكُمْ تَزوجتُموهُنَّ ، فَهُنَّ زَوْجاتٌ عَفيفاتٌ مُحْصَناتٌ ، ولَسْنَ كاللَّواتي يُجاهِرنَ بالزِّنى والمَعْصِيَةِ ، أوْ يَتَّخِذْنَ الأَصْدقاءَ للزِّنى بِهِنَّ سِرّاً .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ عُقوبَةَ الإماءِ اللّاتي يَرْتَكِبْنَ فاحِشَةَ الزِّنى . يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ

﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ إنْ أُحْصِنَتْ هَذِهِ الأَمَةُ بالتَّزوُّج ، فَزَنَتْ بَعْدَ ذَلِكَ فَعلَيْها مِنَ العِقابِ نِصْفُ ما على المُحْصَناتِ أيْ : الحَرائرِ مِنَ العَذابِ في حالةِ زِناهنَّ . وعِقابُ الحُرَّةِ بَيَّنَهُ سُبْحانَهُ وتعالى في سورةِ النُّور ؛ قالَ تَعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور : ٢] فَيَكونُ عِقابُ الأَمَةِ خَمسينَ جَلْدَةً .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أيْ : ذلِكَ الّذي شَرَعَهُ اللهُ تَعالى لَكُمْ مِنْ إباحةِ الزَّواجِ مِنَ الإماءِ لِمَنْ خَشِيَ عَلى نَفْسِهِ الوُقوعَ في الحَرام ،ولكنَّ صَبْرَكُمْ عَنْ نِكاحِ الإماءِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ نِكاحِهنَّ ، لأنَّ في ذلكَ تَرْبيةً للإرادةِ ، وتغليباً لِلْعَقْلِ عَلى عاطِفَةِ الهَوى ، وَعَدمَ تَعْريضِ الوَلَدِ الّذي يَكونُ مِنْهُ ومِنَ الأَمَةِ للرِّقِ ، وخَوْفَ فَسادِ أخْلاقِهِ ، لأنَّ الأمَةَ تَشْعُرُ دائِماً بالمَهانةِ والذِّلَّةِ ، وقَدْ تُورِّثُ هذا الشُّعورَ لِزَوْجِها ولأَوْلادِها ، وقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّهُ قالَ : إذا نَكَحَ العَبْدُ الحُرَّةَ فَقَدْ أُعتِقَ نِصْفُهُ ، وإذا نَكَح الحُرُّ الأمةَ فقدْ أُرِقَّ نِصْفُهُ .

﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فَمَنْ كانتْ لَهُ ذُنوبٌ فإنَّ اللهَ يَغْفِرُها لَهُ ، ويَمْحو أثَرَها فَهُوَ غَفورٌ رَحيمٌ بِعبادِهِ ، وفي هذهِ الخاتِمَةِ تَنْفيرٌ مِنَ الزَّواجِ بالإماءِ ، ولكنَّهُ سُبْحانَهُ غَفورٌ واسِعُ الرَّحْمَةِ بعبادِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الالْتِزامُ بِما شَرَعَهُ اللهُ تعالى في النِّكاحِ ، وعَدَمُ تَعدِّي حُدودِ اللهِ تَعالى .

٢ـ المَهْرُ حَقٌّ لازِمٌ لِلْمَرْأَةِ ، ولا يَجوزُ للرَّجُلِ أنْ يَمْتَنِعَ عَنْ إعْطائِها إيّاهُ .

٣ـ يَحِقُّ للرَّجلِ أنْ يَأْخُذَ شَيْئاً مِنْ مَهْرِ المَرأةِ إذا تَنازَلَتْ عَنْ طيبِ خاطِرٍ .

٤ـ تَقويةُ الإرادةِ لَدى المُؤْمِنِ عَنْ طَريقِ خُلُقِ الصَّبْرِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنى المُفْرَداتِ التّاليةِ :

المُحْصَناتُ ، فَريضةً ، طَوْلاً ، فَتياتِكُمْ ، مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ ، العَنَتَ .

٢ـ ما حُكْمُ الزَّواجِ مِنَ السَّبايا ؟

٣ـ لِماذا فَرَضَ اللهُ تَعالى للنِّساءِ مَهْراً ؟

٤ـ ما الفَرْقُ في العِقابِ بَيْنَ الأَمَةِ الزَّانِيةِ والحُرَّةِ الزَّانِيةِ ؟

٥ـ ماذا تَسْتَفيدُ مِنْ هذِهِ الآياتِ ؟

٦ـ حَرَّمَ اللهُ تَعالى في هاتينِ الآيَتَيْنِ وأَباحَ ، اذْكُر ما حَرَّمَهُ اللهُ تَعالى وما أباحَهُ ، مَعَ ذِكْرِ الدَّليلِ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حُكْمَ المُطلَّقةِ ثَلاثاً ، ومَتى يَحِلُّ لِمَنْ طَلَّقَها الزَّواجُ مِنْها ؟

٢ـ اكْتُبْ عَلى لَوْحَةٍ كَرْتونيَّةٍ المحرَّماتِ مِنَ النِّساءِ بِتَرْتيبٍ واضِحٍ ، وعَلِّقْها في غُرْفَةِ الصَّفِ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ

سورةُ النِّساءِ - القِسْمُ التّاسِعُ

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الباطِلِ : أخْذِ المالِ مِنْ دونِ عِوضٍ حقيقيٍّ .

عُدواناً : مُجاوزةَ الحَدِّ المشْروع .

ظُلْماً : وَضْعُ الشَّيءِ في غيْرِ موْضعه

التَّفسيرُ :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

قَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ المُحرَّماتِ وبعْض أحْكام النِّكاحِ ، ومِنْ عادةِ القُرْآنِ أنْ يُبيِّنَ لنا بَعْضَ الأَسْبابِ والعِلَلِ الّتي شُرِّعَتِ الأَحْكامُ لأجْلِها ، حتّى تَطْمَئِنَّ قُلوبُنا ، ولِنَعْلَمَ عاقِبةَ الأَعْمالِ الّتي نُقْدِمُ عَلَيْها ، فَنُقْبِلُ على العَمَلِ بِشَرْعِ اللهِ تعالى ونَحْنُ مُوقِنونَ أنَّ هذا هُوَ الّذي يَصْلُحُ لنا ، عالمينَ أنَّ فيها سَعادَتَنا في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

إنَّ اللهَ يَعْلَمُ أنَّ هُناكَ أسْئِلَةً سَوْفَ تَخْطُرُ عَلى أذْهانِ البَشَرِ ، الّذينَ يقرءُونَ هذا التَّشريعَ ، فَقَدْ يَسْألونَ : ما الحِكْمَةُ مِنْ هذهِ الأحْكام ؟ وما فائِدَتُها ؟ وهَلْ كُلِّفتِ الأُمَمُ السّابقَةُ بِمثلِها ؟ فَيُبيِّنُ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى : أنَّهُ يُريدُ بِما شَرَعَهُ لَكُمْ مِنَ الأَحْكام أنْ يُبيِّنَ ما فيهِ مَصْلَحَتُكُمْ ومَنفعتُكُمْ وخَيرُكُمْ وسَعادتُكُمْ ، ويَهديَكُمْ مَناهِجَ مَنْ تَقدَّمَ مِنَ الأَنْبياءِ والصّالِحينَ ، حتّى تَسيروا عَلى سُنَّتِهِم وتَسْلُكوا سُبُلَهُمْ . والشَّرائِعُ وإنْ كانَتْ مُخْتَلِفَةً مِنْ رَسولٍ إلى رسولٍ ، ولَكِنَّها جَميعاً مُتَّفِقَةٌ في أنَّها تَخْتارُ الأَصْلَحَ لِلْعِبادِ . ويُريدُ اللهُ تَعالى أنْ يَجْعَلَكُمْ بِتِلْكَ الأَحْكامِ مِنَ التّائِبينَ العائِدينَ إلى اللهِ سُبْحانَهُ بِصِدْقِ العَمَلِ والإخْلاصِ .

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فَعِلْمُهُ سُبْحانَهُ شامِلٌ ، وقَدْ شَرَعَ لَكُمْ ما فيهِ مَنْفَعَتُكُمْ ومَصْلَحَتُكُمْ ، وهُوَ سُبْحانَهُ لَمْ يُكَلِّفْكُمْ ما لا تُطيقونَ ، أوْ ما فيهِ أذىً وضَرَرٌ .

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ .

إنَّ اللهَ تَعالى يُريدُ مِنكُمْ أيُّها البَشَرُ أنْ تَفْعَلوا ما يَجْعَلُكُمْ أهْلاً لِتَوْبَةِ اللهِ تَعالى ومَغْفِرَتِهِ ورِضْوانِهِ ، وذلِكَ بِتَطْهيرِكُمْ وتَزْكِيَةِ نُفوسِكُمْ ، أمَّا أُولئِكَ الّذينَ يَتَّبِعونَ الأَهْواءَ والشَّهَواتِ مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ والفُسوقِ والعِصْيانِ فَهُمْ يُريدونَ مِنْكُمْ أَنْ تَبْتَعِدوا عَنِ الحَقِّ وتَنْحَرِفوا عَنْهُ وتَسيروا في طَريقِ الباطِلِ الّذي يَسيرونَ فيهِ ، وأَهْلُ الباطِلِ مَوجودونَ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ فَلْيَحْذَرْ مِنْهُمُ الإنْسانُ .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

إنَّ اللهَ تَعالى يُريدُ بِما شَرَعَهُ لَكُمْ مِنْ أَحْكام ، وبِما كَلَّفَكُمْ مِنْ تَكاليفَ ، أَنْ يُخفِّفَ عَنْكُمْ ، ولِذا فَقَدْ شَرَعَ اللهُ لَكُمْ نِكاحَ الإماءِ إنْ لَمْ تَجدوا حُرَّةً تَخْفيفاً عَنْكُمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى يَعْلَمُ ضَعْفَكُمْ ، وعَدَمَ صَبْرِكُمْ عَلى المَشَقَّةِ فَقَدْ خُلِقَ الإنْسانُ ضَعيفاً .

وبَعْدَ أنْ بيَّنَتِ الآياتُ ما حَرَّمَهُ اللهُ مِنَ النِّساءِ عَلى الرِّجالِ وما أحلَّهُ لَهُمْ ، انْتَقَلَتْ لِتُبيِّنَ الكَيْفيَّةَ الّتي يَنْبَغي أنْ يَتعامَلَ فيها النّاسُ بالأَموالِ فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ أيْ : لا يَحِلُّ لَكُمْ أيُّها المُؤْمِنونَ أنْ يَأْخُذَ بَعْضُكُمْ مالَ غَيْرِهِ بالباطِلِ ، أيْ : بطَريقةٍ لا تُقرُّها الشَّريعةُ الإسْلاميَّةُ ، فكما أنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لا يُحِلُّ لَكُمْ أنْ تَتصرَّفوا في أَموالِكُمُ الّتي تَمْلِكونَها بِطَريقةٍ غَيْرِ مَشْروعةٍ ، كَذلِكَ لا يُحِلُّ لَكُمْ أنْ تَتصرَّفوا في أَموالِ غَيْرِكُمْ .

وَعَلَينا أنْ نُدرِكَ كيف يُربّي القُرآنُ الأُمَّةَ على التّكافُلِ ، ولِذلِك قال ﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم ﴾ ولَمْ يَقُلْ يَأْكُلُ بَعْضُكُمْ أَمْوالَ بَعْضٍ ، لأنَّ مالَ كُلِّ واحدٍ هُو مالٌ للأُمَّةِ جَميعِها ، فإذا اسْتباح أحدٌ أنْ يأْكُلَ مالَ أخيهِ بالباطِلِ ، كان كأنَّهُ أباح لغيْرِه أنْ يأْكُلَ مالَهُ بالحَرام كَذلك .

وإذا كانَ اللهُ تعالى نهى المُؤْمنين أنْ يتصرَّفوا في أمْوالِهِمْ بالباطِلِ ، فقدْ أباح لهُمْ أنْ يَتصرَّفوا فيها بالتِّجارَةِ ، الّتي لا تَكونُ إلاّ عنْ تراضٍ بيْن المُسْلمين ، وقَدْ رغَّب سُبْحانَهُ في التجارة لِشدَّة حاجةِ النّاسِ إليْها لِتَبادُلِ المَنافِعِ بيْنَهُمْ ، ولكِنْ ينْبغي أنْ لا يَدْخُلَها غِشٌّ وخِداعٌ .

وممّا نَفَّرَتْ مِنْهُ الآيَةُ الكَريمةُ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أيْ : لا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، وقدْ قالَ تَعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ لأنَّ قتْل غيْرِه يُؤدّي إلى قَتْلِ نَفْسِهِ قِصاصاً ، فكَأنَّهُ قتَل نَفْسَهُ ، وقَدْ وَرَدَ في الحديثِ (المُؤْمنون كالنَّفس الواحدة)[1]

وقَدْ يَكونُ المَقْصودُ النَّهْي عنْ قتْلِ الإنْسانِ نفْسهُ ، فعنْ أبي هُرَيْرَة أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال : (مَنْ تردَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسهُ فهُو في نار جهنَّم خالِداً مُخلَّداً فيها أبَداً ، ومنْ تحسَّى سُمّاً فَقتَل نَفْسَهُ فَسُمُّهُ في يَدِهِ يَتحسّاهُ في نار جهنَّم خالداً مُخلَّداً فيها أبَداً ، ومنْ قتَل نفْسهُ بِحديدةٍ فحديدتُهُ في يَدِه يُجَأُ بها في بَطْنِهِ في نار جهنَّم خالداً مخلَّداً فيها أبداً)[2]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ فهُو سُبْحانَهُ رحيمٌ بكُمْ إذْ نهاكُمْ عَنْ أكْلِ المالِ بالباطِلِ ، ونهاكُمْ عنْ قَتْلِ النَّفْسِ ، فَحَفِظَ أموالَكُمْ ودماءكُمْ قال ﷺ في خُطْبَةِ الوَداع : (إنَّ دماءكُمْ وأَمْوالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا في شهْرِكُمْ هذا في بلدِكُمْ هذا . . .)[3]

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ ﴾

وإنَّ مَنْ يَفْعَلُ ما حرَّمَهُ اللهُ تعالى وهُو يعْلمُ بأنَّهُ تجاوز حدَّ الله تعالى فإنَّ عقابَه عظيمٌ عِنْد اللهِ تَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ سيُصْليه نار جهنَّم يتقلَّبُ فيها ، وهذا التَّعذيبُ في النّار يسيرٌ على اللهِ لا يَمْنعُهُ أَحَدٌ ، ولا يَدْفعُ عَنْهُ العذاب أحدٌ

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروس وعبرٍ كثيرةٍ ، منها :

١ـ الحَثُّ عَلى التَّوْبَةِ الصّادِقةِ لله تعالى ، فإنَّ الله يَقْبَلُها مِنْ عِبادِهِ المُخْلِصين .

---

(١) ليس هو بهذا اللفظ واردا عن النبي ﷺ وقد أورد الإمام أحمد في المسند ٤/ ٢٧١ حديثا فيه (المؤمنون كرجل واحد)

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الطب/ باب شرب السم ، حديث رقم ٥٤٤٢ ، وأخرجه مسلم في الصحيح ، حديث رقم ١٠٩

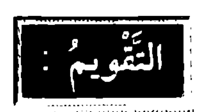
(٣) أخرجه البخاري ، كتاب العلم ، باب رب مبلغ أوعى من سامع ، حديث رقم ٦٧

٢ـ أَحْكامُ اللهِ تعالى وتشْريعاتُهُ تُحقِّقُ المصالح والمنافِع للنّاسِ ، ولا تُكلِّفُهُمْ فوْق ما يَسْتَطيعونَ .

٣ـ أَمْوالُ الفَرْدِ هِي أمْوالٌ للأُمَّةِ ، ولِذا يجبُ على صاحب المال الكثير أنْ يدْفع مِنْ مالِهِ لِتَحقيقِ مَصْلحةِ أُمَّتِه .

٤ـ التَّرْغيبُ في التِّجارةِ لِشِدَّةِ حاجَةِ النّاسِ إليْها ، والتَّرْهيبُ منْ أكْلِ أمْوالِ النّاسِ بالباطِلِ .

٥ـ حِفْظُ دِماءِ النّاس ، والتَّرْهيبُ مِن التَّعدِّي على النَّفْسِ البشريَّة



أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ للأَسْبابِ والعِلَلِ الّتي شُرِعت الأَحْكامُ لأَجْلِها ؟

٢ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ .

٣ـ لِماذا قالَ سُبْحانَهُ وتعالى ﴿لاتَأْكُلُوا أمْوالَكُمْ﴾ ولمْ يقُلْ : يأْكُلُ بعْضُكُمْ أمْوالَ بَعْضٍ ؟

٤ـ كَيْفَ يَقْتُلُ الإنْسانُ نَفْسَهُ في قَوْلِهِ تعالى : ﴿وَلاَ تقْتُلُواْ أنفُسكُمْ﴾ ؟

٥ـ فسِّرْ بِلُغَتِكَ كُلاًّ مِنَ الجُمَلِ القُرْآنيَّةِ الآتيةِ :

أـ ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ .

ب ـ ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عظِيمًا﴾

ج ـ ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ .

د ـ ﴿وَمَن يَفْعَل ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ هُناكَ آيةٌ قُرْآنيَّةٌ بَيَّنَتْ أنَّ اللهَ لا يُكَلِّفُ الإنْسان فوْق طاقتِه ، هاتِ هذِهِ الآيَةَ واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حديثاً شريفاً يُبيِّنُ حُرْمَةَ مالِ المُسْلم على المُسْلمِ مِنْ دونِ رِضاهُ .

* * *

الدَّرْسُ العاشِرُ

سورةُ النِّساءِ-القِسْمُ العاشِرُ

إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تجتَنِبوا : تترُكوا الكَبائِرَ جانِباً وتَبْتَعِدوا .

كبائِرَ : جَمْعُ كبيرةٍ ، وهِيَ المَعْصِيَةُ العَظيمَةُ .

نُكفِّرْ : نغفِرْ ونَمْحو .

مُدْخَلاً كريماً : الجنَّة .

مَوالِيَ : جَمعُ مولىً ، وهُوَ الّذي يَتولّى غَيْرَهُ .

عَقَدتْ أَيْمانُكُمْ : حالَفْتُموهُمْ .

التَّفسيرُ :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ .

إنَّ أكْلَ أَمْوالِ النّاسِ بالباطِلِ ، وقَتْلَ النَّفْسِ الّتي حَرَّمَ اللهُ مِنَ الكَبائِرِ ، وهُناكَ كَبائِرُ كَثيرةٌ نهانا عَنْها الإسْلامُ ، فَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : (اجْتَنِبوا السَّبْعَ الموبقاتِ ، قالوا :

وما هِيَ يا رَسولَ اللهِ ؟ قالَ : الشِّرْكُ باللهِ ، وقتْلُ النَّفْسِ الّتي حرّم اللهُ إلاّ بالحقِّ ، والسِّحْرُ ، وأَكْلُ مالِ اليَتيمِ ، وأَكْلُ الرِّبا ، والتَّولِّي يوْم الزَّحْف ، وقذْفُ المُحْصناتِ المُؤْمناتِ الغافِلاتِ)[١] .

وَقَدْ جاءَتِ الآياتُ تحُثُّ المُسْلِمينَ عَلى ترْكِ الكبائِرِ ، وتُرغِّبُهُمْ في عفْوِ الله تعالى وثوابِهِ ، فَمَنِ اجْتَنَبَ الكَبائِرَ الّتي نَهى عَنْها الشَّرْعُ ، فإنَّ الله تعالى : يُكفِّرُ عَنْهُ سيِّئاته ، أيْ : يمْحو عَنْهُ صَغائِرَ الذُّنوبِ ، وإضافةً إلى ذَلِكَ يُدْخِلُهُ في الآخرة مُدْخلاً كريماً ، وهُو الجنَّةُ الّتي وَعَدَ اللهَ عِبادَهُ الصَّالِحينَ .

والكَبيرةُ هِي : كُلُّ ذَنْبٍ رتَّب عَلَيْهِ الشَّارِعُ حدّاً أوْ صرّح فيه بوعيد شديد

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَنْهى عنِ التَّحاسُدِ بيْن النّاس .

لَقَدْ نَهاهُمُ اللهُ عَنِ التَّحاسُدِ ، وعَنْ تمنِّي ما فضّل اللهُ به بعْضهُمْ على بعْضٍ مِن الجاهِ والمالِ ، لأنَّ ذَلِكَ التَّفْضيلَ قِسْمَةٌ مِنَ اللهِ صادِرَةٌ عَنْ حِكْمَةٍ وتدبيرٍ وعِلْمٍ بأحْوالِ العِبادِ ، وعَنْ عِلْمٍ بما يَصْلُحُ لِمَنْ يَبْسُطُ اللهُ عَلَيْهِ الرِّزقَ ، أوْ يُضيِّقُ ، قالَ تَعالى : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى ٢٧] وعلى الإنسانِ أنْ يَرْضى بما قَسَمَهُ اللهُ لَهُ ، ولْيَعْلَمْ أنَّ ما قَسَمَهُ اللهُ لَهُ فيهِ مَصْلَحتُهُ ، وما عَداهُ سيَكونُ مَفْسدةً لَهُ ، وعلَيْهِ أنْ لا يَحْسُدَ أخاهُ عَلى ما أَعْطاهُ اللهُ .

واعْلَمْ ـ هَداكَ اللهُ ـ أنَّ الحَسَدَ المَنْهِيَّ عَنْهُ ، هُو تمنّي زوالِ النِّعْمَةِ عَنِ الآخرينَ ، أَمّا الغِبْطَةُ ، فَهِيَ لَيْسَتْ مِنَ التَّمنِّي المَنْهِيِّ عَنْهُ ، فالغِبْطَةُ أنْ يَتَمَنّى الإنْسانُ أنْ يَكون عِنْدَهُ ما عِنْدَ الآخرينَ دونَ أنْ تَزولَ النِّعْمَةُ عَنْهُمْ أوْ تَنْقُصَ . وَقَدْ جَعلَ اللهُ ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ لِكُلِّ فَريقٍ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ حَظٌّ ومَقْدِرَةٌ قدَّرَها اللهُ تَعالى مِمّا اكْتَسبوهُ مِنْ أعْمالٍ ، ولِكُلٍّ نَصيبٌ مُعيَّنٌ مِنَ الأَمْوالِ فَهُوَ سُبْحانَهُ الّذي قَدَّرَ الأَرْزاقَ ، وخَصَّ كُلَّ فَريقٍ بواجباتٍ وأعْمالٍ تَليقُ بِهِ ، ولِذا عَلى كلٍّ مِنْهُمْ أنْ يَسْأَلَ ربَّهُ أنْ يُعينَهُ ويُقوِّيَهُ عَلى ما أناطَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ ، وعَلَيْهِ أنْ يَعْتَمِدَ عَلى ما أَعْطاهُ اللهُ مِنْ مَواهِبَ وقُوىً لِتَحْقيقِ مَطالِبِهِ ، بالجُهْدِ والاجْتِهادِ ، راجياً فَضْلَ اللهِ تَعالى فيما لا يَسْتَطيعُ الوُصولَ إلَيْهِ ، لِجَهْلِهِ بِهِ أو عَجْزِهِ عَنْهُ . عَنِ ابنِ عباسٍ قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ :

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٢٦١٥

(سلوا اللهَ مِنْ فضلِهِ فإنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ يُسْأَلَ ، وإنَّ أحبَّ عِبادِ اللهِ إلى اللهِ الّذي يُحِبُّ الفَرَجَ)[1] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فهُوَ سُبْحانَهُ مُطَّلِعٌ على شُئونِ الكَوْنِ كُلِّهِ ، وبِمُقْتَضى عِلْمِهِ سُبْحانَهُ وزَّعَ الأَرْزاقَ والقُدُراتِ والمواهبَ عَلى عِبادِهِ ، ونَحْنُ نَرى تَفاوُتَ النَّاسِ في غِناهُمْ وفَقْرِهِمْ ، وقُوَّتِهِمْ وضَعْفِهِمْ ، وإبداعاتِهِمْ . نَسْأَلُ اللهَ تَعالى مِنْ فَضْلِهِ .

لَقَدْ خصَّ اللهُ تَعالى الإنْسانَ بأَعْمالٍ يُؤدِّيها لِيَحوزَ عَنْ طَريقِها المالَ والثَّرْوَةَ ، وهذهِ الثَّرْوَةُ وهذا المالُ قَدْ يَحوزُهُ الإنْسانُ بِغَيْرِ كَسْبِهِ ، بلْ ممّا يَرِثُهُ مِنْ قَريبِهِ الّذي ماتَ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾ .

والموالي هُنا الوَرَثَةُ ، والمَقْصودُ لِكُلِّ واحِدٍ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ جَعَلْنا وَرَثَةً ، يَرِثونَ الوالِدَيْنِ والأَقْرَبينَ ممّا تَرَكوهُ مِنْ أمْوالٍ بَعْدَ مَوْتِهِمْ ، فَلِكُلِّ واحِدٍ جعَلَ اللهُ وَرَثَةً فَلْيَنْتَفِعْ كُلٌّ واحِدٍ بما قَسَمَ اللهُ لَهُ مِنَ الميراثِ ولا يَتَمنّى مالَ غَيْرِهِ .

والمَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الحُلَفاءُ ، وهُمُ الموالي . عَنْ سَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عَنِ ابنِ عبّاسٍ رضِيَ اللهُ عَنْهُما : (ولكلٍّ جعَلْنا موالِيَ) قالَ : ورَثَةً ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ : كانَ المُهاجِرونَ لمّا قَدِموا المدينةَ يَرِثُ المُهاجِرُ الأَنْصارِيَّ دُونَ ذَوي رَحِمِهِ ، للأُخُوَّةِ الّتي آخَى النَّبيُّ ﷺ بَيْنَهُما ، فلمّا نَزَلَتْ ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾ نُسِخَتْ ، ثُمَّ قالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ : مِنَ النَّصْرِ والرِّفادَةِ والنَّصيحَةِ ، وقَدْ ذَهَبَ الميراثُ ، ويوصى لَهُ[2] .

وقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ أيْ : إنَّ اللهَ تَعالى رَقيبٌ شاهِدٌ عَلى تَصَرُّفاتِكُمْ في التَّرِكَةِ وغَيْرِها ، فلا يَنْبَغي لأَحَدٍ أنْ يَطْمَعَ في نَصيبِ غَيْرِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ اجْتِنابُ الكَبائِرِ والصَّغائِرِ ، لِنَنالَ رَحْمَةَ اللهِ تَعالى ، وجَنَّتَهُ ورضْوانَهُ .

٢ـ عَلى الإنْسانِ أنْ يَقْنَعَ بما أعْطاهُ اللهُ تَعالى إيّاهُ ، ولا يَطْمَعُ بما في يَدِ غَيْرِهِ .

٣ـ إعْطاءُ كُلِّ ذِي حَقٍّ نَصيبَهُ مِنَ الميراثِ ، وعَدَمُ الطَّمَعِ في حَقِّهِ .

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٨٨) .

(٢) آخرجه البخاري في كتاب التفسير ـ رقم الحديث (٤٣٠٤) .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ اذْكُرْ كَبيرَتينِ مِنَ الكَبائِرِ الّتي نَهى عَنْها الإسْلامُ .

٢ـ لِماذا حَرَّمَ اللهُ التَّحاسُدَ بَيْنَ النّاسِ ؟

٣ـ ما فائِدَةُ أنْ يَرْضَى الإنْسانُ بِما قَسَمَهُ اللهُ لَهُ ؟

٤ـ فَرِّقْ بَيْنَ الحَسَدِ والغِبْطَةِ .

٥ـ ماذا نَقْصُدُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ؟

٦ـ لِمَ خُتِمَتِ الآياتُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ ؟

٧ـ ما عَلاقَةُ الجُمْلَةِ القُرْآنيَّةِ الّتي خُتِمَتْ بِها الآياتُ في كُلٍّ مِنَ المَوْضِعيْنِ التّالِيينِ بِصَدرِ الآيةِ ؟

أ ـ ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ .

ب ـ ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ .

نَشاطٌ :

ـ مِنَ الكَبائِرِ : قَتْلُ النَّفْسِ الّتي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ ، مَتى يَكونُ قَتْلُ النَّفْسِ بالحقِّ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الحادي عَشَرَ

سورَة النِّساءِ - القِسْمُ الحادي عَشَرَ

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

قوّامونَ : قَيِّمُ المرأةِ ، إذا كانَ يَقومُ بِأَمْرِها ويَهْتَمُّ بِحِفْظِها .

قانِتاتٌ : مُطيعاتٌ للهِ ثُمَّ لأزْواجِهنَّ .

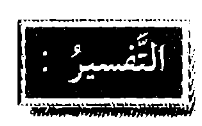
حافِظاتٌ للغَيْبِ : يَحْفَظْنَ ما يَغيبُ عَنِ النّاسِ .

تَخافونَ : تَظنُّونَ .

نُشوزَهُنَّ : عِصيانَهُنَّ للأَزْواجِ .

تَبْغوا : تظلِموا وتُجاوِزوا الحدَّ .

شِقاقَ : خِلافَ .



التَّفسيرُ :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ .

لَقَدْ نَهى اللهُ تَعالى الرِّجالَ والنِّساءَ أنْ يَتَمنَّى كُلٌّ مِنْهُمْ ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ . وقَدْ جاءَتْ هذِه الآياتُ لِتُبيِّنَ ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ الرِّجالَ عَلى النِّساءِ .

فَلَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعالى الرِّجالَ قوّامينَ عَلى النِّساءِ ، أيْ : يَقومونَ عَلى شُئونِهنَّ بالحِفْظِ والرِّعايَةِ والنَّفَقَةِ والتَّأْديبِ ، وقَدِ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ تَعالى أنْ تَكونَ القِوامَةُ للرَّجلِ ، بِسَبَبِ ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ الرِّجالَ عَلى النِّساءِ مِنْ قُوّةٍ في الجِسْمِ ، فَقَدْ أعْطاهُمُ اللهُ ما لَمْ يُعْطِ النِّساءَ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ ، وقُدْرَةِ تحمُّلِ أعْباءِ الحياةِ وتَكاليفِها ، والقُدْرةِ عَلى كَسْبِ المالِ والإنْفاقِ عَلى النِّساءِ .

إنَّ الرَّجُلَ الّذي يَقومُ بحمايةِ المَرْأةِ وكِفايَتِها وتَوْفيرِ ما تَحتاجُ إليهِ ، يُمكِّنُها مِنَ القِيامِ بوَظيفَتِها الفِطْريَّةِ وهيَ الحَمْلُ والوِلادةُ وتَرْبيةُ الأَوْلادِ . ومِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعالى أنْ بَيَّنَ هذا الأَمْرَ كَيْ تَسْتَقيمَ الحَياةُ الزَّوْجيَّةُ وتَسْتَمرَّ ، وهذا الأَمْرُ لا يُنْقِصُ مِنْ قَدرِ النِّساءِ .

وَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ أَحْوالَ النِّساءِ وقَسَمَتْها عَلى قِسْمَيْنِ :

الأولُ : الصّالِحاتُ ، وهُنَّ القانِتاتُ الحافِظاتُ لِلْغَيْبِ بما حَفِظَ اللهُ ، فالصّالِحاتُ هُنَّ المُطيعاتُ للهِ تَعالى ، والمُطيعاتُ لأَزْواجِهنَّ ، وهُنَّ الحافِظاتُ لِلْغَيْبِ ، أيْ : حافِظاتٌ لِما يَجْري بَيْنَهُنَّ وبَيْنَ أزْواجِهنَّ في الخَلْوَةِ ، والشُّئونِ الخاصَّةِ بها وبِزَوْجِها ، فَلا تُطْلِعُ أَحَداً عَلَيْهِ ولَوْ كانَ قَريباً لَها . عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ : (خَيرُ النِّساءِ امرأةٌ إنْ نَظَرْتَ إِلَيْها سَرَّتْك ، وإنْ أَمَرْتَها أطاعَتْكَ ، وإذا غِبْتَ عَنْها حَفِظَتْكَ في مالِها ونَفْسِها)[١] .

الثاني : النِّساءُ اللّاتي يُظَنُّ أنَّهُنَّ يَعصينَ أَزْواجَهُنَّ ويُسِئْنَ عِشْرَتَهُمْ ، ولا يَقُمْنَ بِحُقوقِ الزَّوْجيَّةِ ، هذا القِسْمُ مِنَ النِّساءِ شَرَعَ اللهُ للأَزْواجِ كَيفيَّةَ التَّعامُلِ مَعَهُنَّ . قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ .

---

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ١٦١ .

١ـ ﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾ أيْ : ابدأوا بوَعْظِهنَّ بالقَوْلِ الّذي يُؤثِّرُ في النَّفْسِ ، إذْ مِنَ النِّساءِ مَنْ يَكْفيها التَّذْكيرُ بِعِقابِ اللهِ وغَضَبِهِ وحَقِّ الزَّوْجِ عَلَيْها ، ومِنْهُنَّ مَنْ يُؤثِّرُ في أنْفُسِهنَّ التَّهْديدُ والتَّحْذيرُ مِنْ سوءِ العاقبةِ في الدُّنْيا ، ومِنْهُنَّ مَنْ يُؤثِّرُ فيهنَّ التَّرْغيبُ بالأَجْرِ والثَّوابِ عِنْدَ اللهِ لِمنَ أطاعَتْ زَوْجَها ، أمّا إنْ لَمْ يَنْفَعْ هذا كُلُّهُ مَعَها فعَلَيْهِ أنْ يُجرِّبِ الطَّريقةَ الثّانيةَ .

٢ـ ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ إذا لَم تَنْفَعِ المَوْعِظَةُ والنَّصيحةُ مَعَهُنَّ ، فَعَلَيْكُمْ أنْ لا تَقْرَبوهُنَّ في فِراشٍ ، فإنَّ هذا قَدْ يُؤثِّرُ فيها ويُسيئُها ، ويُعيدُها إلى صَوابِها .

٣ـ أمّا إنْ لَمْ يُجْدِ مَعَها هذانِ الأَمْرانِ ، فَعَلى الزَّوْجِ أنْ يتَّبِعَ أمراً ثالِثاً ، كَما قالَ تَعالى : ﴿ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ أي : اضْرِبوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبْرِحٍ ، أيْ : لا يَكونُ شَديداً ومُشَوِّهاً لَها . عَنْ جابِرٍ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ في حَجَّةِ الوَداعِ : (واتَّقوا اللهَ في النِّساءِ فإنَّهُنَّ عَوانٌ عِنْدَكُمْ ، ولَكُمْ عَلَيْهِنَّ أنْ لا يُوطِئنَ فُرُشَكُمْ أحَداً تَكْرَهونَهُ ، فإنْ فَعَلْنَ فاضْرِبوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبْرِحٍ)[1] .

ويُبيِّنُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ما الّذي يَجِبُ عَلى الرَّجُلِ أنْ يَفْعَلَهُ إذا أطاعَتْهُ زَوْجُهُ ، بَعْدَ أنْ يَلْجأَ إلى تَأْديبِها بإحْدى هَذِهِ الطُّرُقِ ، فإنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تُؤْذُوهنَّ بِأَلْسِنَتِكُمْ أوْ بِأَيْديكُمْ أوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ فَلا تَبْغوا أيُّها الرِّجالُ عَلى نِسائِكُمْ ، فإذا بَغَيْتُمْ عَلَيْهِنَّ وتَجاوَزْتُمْ حُدودَكُمْ فإنَّ سُلْطانَ اللهِ فَوْقَ سُلْطانِكُمْ عَلى نِسائِكُمْ وسَيُعاقِبُكُمْ عَلى ذلِكَ .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

وإذا اسْتَمرَّ الخِلافُ والشِّقاقُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ بِسَبَبِ نِزاعٍ بَيْنَهُما ، فَعلى الزَّوْجَيْنِ أوْ مَنِ اطَّلَعَ عَلى أَمْرِ النِّزاعِ مِنْ ذويهِما ، أنْ يَبْعَثَ بِطَلَبِ حَكَمَيْنِ ، والحَكَمُ هُوَ رَجُلٌ صالِحٌ عاقِلٌ يَكونُ أهْلاً للإصْلاحِ ، ومَنْعِ وُقوعِ الظُّلْمِ ، ولْيَكُنِ الحَكَمانِ حَكَماً مِنْ أهْلِ الزَّوْجِ وحَكَماً مِنْ أهْلِ الزَّوْجَةِ ، بِحيثُ يَسْمَعانِ مِنَ الطَّرَفَيْنِ : الزّوجِ والزَّوْجَةِ ، ويُحاوِلانِ الإصْلاحَ بَيْنَهُما .

وبِهذا يَظْهَرُ لَنا مِنَ الآياتِ شِدَّةَ عِنايةِ القُرْآنِ الكَريمِ بالأُسْرَةِ والمُحافَظَةِ عَلَيْها ، ولِذا فَقَدْ شَرَعَ سُبْحانَهُ مِنَ الأَحْكامِ ما يَضْمَنُ سَعادةَ الزَّوْجَيْنِ .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في باب حجة النبي ﷺ ، حديث رقم ١٢١٨ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ خَيْرُ النِّساءِ الصّالِحاتُ ، اللّواتي يُطِعْنَ أزْواجَهُنَّ .

٢ـ جَعَلَ اللهُ تَعالى القِوامَةَ في الأُسْرَةِ بيدِ الرِّجالِ بِسَبَبِ قيامِهِمْ عَلى شُئونِ النِّساءِ بالحِفْظِ والرِّعايةِ والإنْفاقِ .

٣ـ إذا نَشَزَتِ المرأةُ فعلَى الرَّجُلِ أنْ يتَّبِعَ في تَأْديبِها ما شَرَعَهُ اللهُ لَهُ : الوَعْظُ أولاً ، ثُمَّ الهَجْرُ ، ثُمَّ الضَّرْبُ غَيْرُ المُبْرِحِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنَى المُفْرَداتِ التّالِيةِ :

قَوَّامونَ ، قانِتاتٌ ، نُشوزَهُنَّ ، تَبْغوا ، شِقاقَ .

٢ـ أـ ما المَقْصودُ بالقِوامَةِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ ؟

ب ـ هَلْ تَعْني قِوامَةُ الرَّجُلِ عَلى المَرْأةِ أنَّهُ أفْضَلُ مِنها ؟ وضِّحْ ذَلِكَ .

٣ـ شَرَعَ الإسْلامُ للرِّجالِ طُرُقَ تَأْديبِ المَرْأةِ النّاشِزِ ؛ اذْكُرْ هَذِهِ الطُّرُقَ مُرَتَّبَةً كَما جاءَ في الآياتِ .

٤ـ أـ ما الفائِدةُ مِنْ جَعْلِ الحَكَمَيْنِ مِنْ أَهْلِ الزَّوْجِ والزَّوجة ؟

ب ـ مَتى يَلْجَأُ الزَّوْجانِ إلى التَّحكيمِ بَيْنَهُما ؟

* * *

الدَّرسُ الثّاني عَشَرَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثّاني عَشَرَ

۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الجارِ الجنُبِ : الجارِ الّذي لَيْسَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ قَرابةٌ .

الصّاحِبِ بالجنْبِ : الرَّفيقُ في السَّفَرِ .

ما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ : الإماءِ والعبيدِ .

مُختالاً : مُتَكَبِّراً .

فَخوراً : الّذي يَزْهو بِنَفْسِهِ عَلى النّاسِ .

رِئاءَ النّاسِ : طَلَباً في رُؤْيَتِهِمْ لِما تَعْمَلُهُ لِلْمَدْحِ والثَّناءِ .

قَريناً : صاحِباً وخَليلاً .



﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ .

يقولُ سُبْحانَهُ وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

فَهذِهِ هِيَ الغايَةُ مِنْ خَلْقِ العِبادِ ، عِبادةُ اللهِ تَعالى والإخْلاصُ لَهُ في الطّاعَةِ ، وهَذا ما جاءَتِ الآياتُ لِتُرَكِّزَ عَلَيْهِ . وعِبادةُ اللهِ تَعالى هِيَ الخُضوعُ لَهُ سُبْحانَهُ ، وتَعْظيمُهُ وخَشْيَتُهُ في السِّرِّ والجَهْرِ ، وعَلامةُ ذلِكَ مَحَبَّةُ اللهِ والامْتِثالُ بِما أَمَرَ اللهُ تَعالى بِهِ ، والانْتِهاءُ عَنْ كُلِّ ما نَهى اللهُ عَنْهُ . وهذا هُوَ حَقُّ اللهِ تَعالى عَلى العِبادِ ، أَنْ يَعْبُدوهُ ولا يُشْرِكوا بِهِ شَيْئاً . فَعَنْ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ قالَ : كُنْتُ رَديفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلى حِمارٍ يُقالُ لَهُ عَفيرَة ، فقالَ : (يا مُعاذُ ، أَلا تَدْري ما حَقُّ اللهِ عَلى عِبادِهِ ، وما حَقُّ العِبادِ عَلى اللهِ ؟ قُلْتُ : اللهُ ورسولُهُ أَعْلَمُ . قالَ : فإنَّ حَقَّ اللهِ عَلى العِبادِ أَنْ يَعْبُدوهُ ولا يُشْرِكوا بِهِ شَيْئاً ، وحَقُّ العِبادِ عَلى اللهِ أَنْ لا يُعذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً . فَقُلْتُ : يا رَسولَ اللهِ ، أَفَلا أُبَشِّرُ بِهِ النّاسَ ؟ قالَ : لا تبشّرْهُمْ فيتَّكِلوا)[1] .

والإشراكُ باللهِ يُنافي التَّوْحيدَ ، وذلِكَ مِثْلُ عِبادَةِ المُشْرِكينَ ، أَوْ عِبادَةِ النَّصارى الّذينَ يَقولونَ إنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثةٍ ، أَوْ إنَّ اللهَ هُوَ المَسيحُ ، أَوْ ما نَراهُ اليَوْمَ مِمَّنْ يَضْعونَ في رِقابِهِمُ الخَرَزَةَ الزَّرْقاءَ ، أَوَ العَيْنَ الزَّرْقاءَ لِتَرُدَّ عَنْهُمُ الحَسَدَ ، فَهذا كُلُّهُ يُفْضي إلى الإشْراكِ ، إذا اعْتَقَدَ الإنْسانُ أَنَّها هِيَ الّتي تَرُدُّ العَيْنَ أَوِ الحَسَدَ .

وبَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللهُ بِعبادَتِهِ ، أَمَرَ بأَنْ يَكونَ عَبْدُ اللهِ مُحْسِناً لِكُلِّ مَنْ يَتعامَلُ مَعُهُمْ أَوْ مَنْ لَهُ في حياتِهِ ارْتِباطٌ بِهِمْ ، فَأَمَرَهُ :

١ـ بالإحْسانِ إلى الوالِدَيْنِ ، وقَدْ ذَكَرَهُ بَعْدَ الأَمْرِ بِعبادةِ اللهِ تَعالى ، لأَنَّ اللهَ تَعالى هُوَ الّذي أَوْجَدَ الإنْسانَ وخَلَقَهُ ، والوالِدانِ هُما السَّبَبُ الظّاهِرُ في وُجودِهِ ، وهُما اللَّذانِ قاما بِتَرْبِيَتِهِ وتَعْليمِهِ وتَنْشِئَتِهِ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُقابِلَ الإحْسانَ بالإحْسانِ فَيُطيعُهُما ويَحْتَرِمُهُما .

وبِرُّ الوالِدَيْنِ يَكونُ في حَياتِهِما وبَعْدَ مَوْتِهِما ، فَقَدْ سَأَلَ رَجلٌ النَّبِيَّ ﷺ قائِلاً : يا رَسولَ اللهِ ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبويَّ شيءٌ أَبرُّهُما بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِما ؟ قالَ : نَعَمْ ، الصّلاةُ عَلَيْهِما ، والاسْتِغْفارُ لَهُما ،

---

(١) أخرجهُ البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٢٧٠١ .

وإنْفاذُ عَهْدِهِما مِنْ بَعْدِهِما ، وإكْرامُ صَديقِهِما ، وصِلَةُ الرَّحِمِ الّتي لا توصَلُ إلاّ بِهِما[1] .

٢ـ الإحْسانُ إلى ذَوي القُرْبَى : أيْ : أَحْسِنوا مُعامَلَةَ أَقْرَبِ النّاسِ إلَيْكُمْ بَعْدَ الوالِدَيْنِ ، فإذا كانَ كُلُّ إنْسانٍ يُؤَدِّي حُقوقَ ربِّهِ ، ويَبرُّ والدَيْهِ ، ويُحْسِنُ إلى أَقارِبِهِ ، كانَ المُجْتَمَعُ الإسْلامِيُّ مُجْتَمَعاً قَوِيّاً .

٣ـ الإحْسانُ إلى اليَتامى : واليَتيمُ كَما عَرَفْتَ مِنْ قَبْلُ هُوَ الّذي فَقَدَ الأَبَ ولَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ ، فَهُوَ قَدْ فَقَدَ النّاصِرَ والمُعينَ ، ولِذا عَلى المُسْلِمينَ أنْ يَمُدُّوا لَهُ يَدَ العَوْنِ لِتَرْبِيَتِهِ وتَعْليمِهِ وتَنْشِئَتِهِ .

٤ـ الإحْسانُ إلى المَساكينِ : وهُمْ في حاجَةٍ إلى العَوْنِ والمُساعَدَةِ لِفَقْرِهِمْ وشِدَّةِ عِوَزِهِمْ وحاجَتِهِمْ .

٥ـ الإحْسانُ إلى الجارِ ذي القُرْبى والجارِ الجُنُبِ : وهذا هُوَ حَقُّ الجِوارِ ، والجارُ هُوَ القَريبُ مِنْكَ بالمَكانِ والمَسْكَنِ ، والإنْسانُ قَدْ يَأْنَسُ بِجارِهِ أَكْثَرَ مِمّا يَأْنَسُ بِقَريبِهِ ، ولِذا عَلى الإنْسانِ أنْ يُحْسِنَ إلى الجارِ ، لِيَكونَ بَيْنَهُما تَوادٌّ ورَحْمَةٌ سَواءً أكانَ هذا الجارُ قَريباً لَهُ ، أمْ لَمْ يَكُنْ كَذلِكَ .

والأَحاديثُ الّتي توصي بالجارِ كَثيرَةٌ ، فَعَنْ ابنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ :(ما زالَ جِبْريلُ يوصيني بالجارِ حتّى ظَنَنْتُ أنَّهُ سيورِّثُهُ) . وقالَ ﷺ : (مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إلى جارِهِ وقالَ : واللهِ لا يُؤْمِنُ ، واللهِ لا يُؤْمِنُ ، واللهِ لا يُؤْمِنُ ، قيلَ مَنْ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : مَنْ لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ)[2] .

٦ـ الإحْسانُ إلى الصّاحِبِ بالجَنْبِ : وهُوَ الّذي صَحِبَكَ وكانَ بِجَنْبِكَ ، أيْ : قَريباً مِنْكَ ، إمّا أنْ يَكونَ رَفيقاً مَعَكَ في سَفَرٍ ، وإمّا جاراً مُلاصِقاً ، وإمّا شَريكاً في تَعلُّمِ عِلْمٍ أوْ حِرْفَةٍ ، وإمّا قاعِداً إلى جَنْبِكَ في مَجْلِسٍ أوْ مَسْجِدٍ ، فَعَلى الإنْسانِ أنْ يَرعى هذا الصّاحِبَ ولا يَنْساهُ .

٧ـ الإحْسانُ إلى ابنِ السَّبيلِ : وهُوَ المُسافِرُ الّذي انْقَطَعَ عَنْ بَلَدِهِ ، وَنفِدَ ما مَعَهُ مِنْ مالٍ ، فالإحْسانُ إليهِ : إعانَتُهُ بالمالِ والرِّعايَةِ حتّى يَعودَ إلى بَلَدِهِ .

٨ـ الإحْسانُ إلى ما مَلَكَتْ أيْمانُكُمْ : وهُمُ العَبيدُ الأَرِقّاءُ الّذين مَلَكْتُموهُمْ ، وهذا كانَ في عَهْدِ الرِّقِّ ، أمّا الآنَ فَلا يوجدُ رِقٌّ ، وقَدْ أَوْصَى بِهِمُ الرَّسولُ ﷺ ، ولَعَلَّ مِنَ المُفيدِ أنْ يَتَذكَّرَ المُسْلِمُ وُجوبَ الإحْسانِ إلى مَنْ يَخْدِمُهُ ، ويَخْدِمُ أَهْلَهُ ، وَنَحْنُ في زَمَنٍ قَدْ كَثُرَ فيهِ الخَدَمُ الّذين يَخْدِمونَ في البُيوتِ مُقابِلَ أجْرٍ ، فَعلى الإنسانِ أنْ يُعامِلَهُمْ مُعامَلَةً حَسَنَةً . ولَعَلَّ الإحْسانَ إلى هَؤلاءِ يُؤَدِّي إلى التَّواضُعِ وحُسْنِ الخُلُقِ ، وبِذلِكَ يَكونُ مَحبوباً عِنْدَ اللهِ ويُبْعِدُ عَنْ نَفْسِهِ ما يُسَبِّبُ بُغْضَ اللهِ تَعالى ،

---

(١) أخرجهُ أبو داود ، كتاب الأدب ، باب بر الوالدين ، حديث رقم ٥١٤٢ وابن حبان في الصحيح ، حديث رقم ٤١٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٥٦٧٠ .

قالَ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ فهُوَ سُبْحانَهُ لا يُحِبُّ المُتَكبِّرَ الّذي تَظْهَرُ آثارُ كِبْرِهِ في حَرَكاتِهِ وأعْمالِهِ ، أوْ في أقْوالِهِ ، فَتجدُهُ يُمَجِّدُ نَفْسَهُ ويَحْتَقِرُ غيْرَهُ ، والمُخْتالُ الفَخورُ لا يَعْبُدُ ربَّهُ حَقَّ عِبادَتِهِ ، لأنَّ العِبادَةَ لا تَكونُ إلاّ إذا خَشَعَ قَلْبُ الإنْسانِ ، وبالتّالي خَشَعَتْ جَوارِحُهُ كُلُّها للهِ ، ومَنْ لَمْ يَكُنْ كَذلِكَ ، فلَنْ يَقومَ بِحُقوقِ الوالِدَيْنِ أوْ ذَوي القُرْبى أو غَيْرِهِمْ .

ولكِنْ ، مَنِ المُختالُ الفَخورُ ؟ بيَّنَتِ الآياتُ أنَّهُمْ فَريقانِ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾

الفريق الأَوّلُ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ اللهُ تَعالى لا يُحِبُّ هَؤلاءِ الّذينَ يَبْخَلونَ بِأَمْوالِهِمْ ، ولا يَكْتفونَ بهذا بَلْ يَأْمُرونَ غيْرَهُمْ بأنْ يَكونوا بُخَلاءَ ولا يُنْفِقوا أَمْوالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وهُمْ كَذلِكَ يَبْخَلونَ بالإحْسانِ لِمَنْ أمَرَ اللهُ تَعالى بالإحْسانِ إلَيْهِمْ ، ويَأْمُرونَ غَيْرَهُمْ بِذلِكَ .

وَهُمْ لا يَكْتَفونَ بالبُخْلِ ، بَلْ يَكْتُمونَ ما آتاهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ نِعَمٍ ، فَيُخفونَها ولا يُظْهِرونَها ، فَهُمْ يَكْتُمونَ المالَ ويَكْتُمونَ العِلْمَ وغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ نِعَمِ اللهِ الّتي أنْعَمَ بِها عَلَيْهِمْ . هَؤلاءِ قَدْ هَيَّأَ اللهُ لَهُمْ بِسَبَبِ كِبْرِهِمْ وبُخْلِهِمْ عَذاباً مُهيناً ، يُهينُهُمْ ويُذِلُّهُمْ ، لأنَّهُمْ قَدْ أهانوا غَيْرَهُمْ في الدُّنْيا ، واسْتَهانوا بِآياتِ اللهِ تَعالى .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾

والفريقُ الثاني : وَصَفَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أيْ : هُمُ الّذينَ يُنْفِقونَ أمْوالَهُمْ رِئاءَ النّاسِ ؛ فَهُمْ يَبْذُلونَ المالَ لا شُكْراً للهِ تَعالى عَلى نِعَمِهِ ، ولا حُبّاً في اللهِ بَلْ يُنفِقُونَها لِيَراهُمُ النّاسُ ويَسْمَعوا بِهِمْ ، حَتّى يَقولوا عَنْهُمْ إنَّهُمْ مِنْ أهْلِ الخَيْرِ والكَرَمِ ، وقَدْ حَذَّرَ النَّبيُّ ﷺ مِنَ الرِّياءِ الّذي سَمّاهُ شِرْكاً حَيْثُ قالَ : (قالَ اللهُ تبارَكَ وتعالى : أنا أَغْنى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أشْرَكَ مَعِي فيهِ غَيْري تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ)[1] . إنَّ هؤلاءِ الّذينَ تَحدَّثَتْ عَنْهُمُ الآيَةُ قَدِ اتَّخذوا الشَّيْطانَ صاحِباً ، وأَطاعوه في كُلِّ ما يَأْمُرُهُمْ بِهِ ، وما أسْوأَ هذا الصّاحِبِ والقَرينِ ، الّذي يُودي بِصاحِبِهِ إلى نارِ جَهنَّمَ .

وَقَدْ وبَّخَ اللهُ تَعالى هَؤُلاءِ الّذينَ يُؤْثِرونَ رِضا النّاسِ عَلى رِضا اللهِ تَعالى فَيَقولُ :

---

(١) أخرجهُ الإمام مسلم في الصحيح ، حديث رقم ٢٩٨٥ .

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾

أيْ : أيُّ ضرَرٍ سيُصيبُهُمْ لوْ آمنوا باللهِ إيماناً صحيحاً وأخْلصوا أعْمالَهُم لَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وآمنوا باليَوْمِ الآخِرِ وما فيهِ مِنْ ثوابٍ وعِقابٍ ، وأيُّ ضرَرٍ سيُصيبُهم لَوْ أنَّهُم أنْفَقوا أمْوالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ؟ وهذا الاسْتِفْهامُ يُفيدُ التَّعجُّبَ والاسْتِنْكارَ مِنْ حالِ هؤلاءِ الكافِرينَ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ تَهْديداً لَهُمْ عَلى ما كانَ مِنهُمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَعْلَمُ بَواطِنَهُمْ وظَواهِرَهُمْ ، وسوْفَ يُجازيهِمْ عَلى ما أَسرُّوهُ وما أعْلَنوهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الغايَةُ مِنْ خَلْقِ اللهِ تعالى لنا عِبادتُهُ والخُضوعُ لَهُ سُبْحانَهُ خُضوعاً تامّاً .

٢ـ الإحْسانُ إلى الوالِدَيْنِ والبرُّ بِهِما واجبٌ عَلى كلِّ إنْسانٍ ، لأنَّهُما سَبَبٌ في وُجودِ الإنْسانِ .

٣ـ المُسْلِمُ يُحْسِنُ لِكُلِّ مَنْ أمَرَ اللهُ تعالى بالإحْسانِ إليْهِمْ ، طَلَباً لِرِضى اللهِ تَعالى .

٤ـ المُسْلِمُ يُخْلِصُ للهِ تعالى في كُلِّ عَمَلٍ يَقومُ بِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ اذْكُرِ الغايةَ مِنْ خَلْقِ الإنْسانِ ، وما دليلُ ذلكَ ؟

٢ـ كَيْفَ أشْرَكَ النَّصارى باللهِ ؟

٣ـ ما مَعْنى المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّالِيَةِ :

الجارِ الجنُبِ ، الصَّاحِبِ بالجَنْبِ ، ما مَلَكَتْ أيْمانُكُمْ ، ابنِ السَّبيلِ .

٤ـ لِمَ حَرَّمَ اللهُ الكِبْرَ ؟ وما خُطورتُهُ على الفَرْدِ والمُجْتَمَعِ ؟

٥ـ ما صِفاتُ الكافِرينَ الّذين أعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً مُهيناً ؟

٦ـ اذْكُرِ الفِئاتِ الّتي أمَرَ اللهُ بالإحْسانِ إليْهِمْ مرَتَّبينَ كما جاءَ في الآيةِ الكَريمةِ .

٧ـ كَيْفَ يُؤدِّي الإحْسانُ إلى الضُّعَفاءِ إلى البُعْدِ عَنْ الكِبْرِ والخُيَلاءِ ؟

٨ـ فَسِّرْ كُلاًّ مِنَ الآياتِ التّالِيَةِ :

أ ـ ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ .

ب ـ ﴿فَسَاءَ قَرِيناً﴾ .

ج ـ ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ أَمَنُواْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ﴾ .

نَشاطٌ :

١ ـ كَثُرَتِ الآياتُ في القُرْآنِ الّتي تَأْمُرُ ببِرِّ الوالِدَيْنِ . هاتِ آيتَيْنِ مِنْها واكْتُبْهُما في دَفْتَرِكَ .

٢ ـ ما مَعْنى هذِهِ العِبارةِ : مَنْ لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ ـ اكْتُبْ حَديثاً شَريفاً يَذمُّ فيهِ الرَّسولُ ﷺ الكِبْرَ والمُتَكبِّرينَ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثَ عَشَرَ

سورةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثّالِثَ عَشَرَ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

معاني المُفْرداتِ :

مِثْقالَ ذرةٍ	وَزْن ذرّةٍ .
الذَّرةُ	هِي أصغرُ شيءٍ في الكوْنِ .
مِنْ لَدُنْهُ	مِنْ عِنْدِه .
تُسوَّى بِهِمُ الأرضُ	يُدْفَنونَ في الأَرْضِ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ تَوعَّدَ اللهُ تَعالى المُخْتالِين الفَخورينَ بِأَسْوأ العَذابِ ، ولَكِنْ ، هَلْ في هذا ظُلْمٌ لِهؤلاءِ أنْ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ تَعالى ويورِدَهُمْ نارَ جَهنَّمَ على أعْمالٍ عَمِلوها ؟ وهَلْ يُمْكِنُ أنْ يَظْلِمَ اللهُ تَعالى أحَداً مِنْ خَلْقِهِ ؟ لَقَدْ أجابَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ إجابَةً حاسِمَةً صَريحةً عَنْ هذا :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

إنَّهُ سُبْحانَهُ لا يُنْقِصُ أحَداً مِنْ أَجْرِ أَعْمالِهِ الّتي عَمِلَها ، حتّى لَو كانَ هذا العَمَلُ ضَئيلاً حَقيراً ، وهُوَ ما سَمّاهُ اللهُ تَعالى بالذَّرَّةِ ، ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ أصْغَرَ شَيْءٍ في هذا الكَوْنِ هُوَ الذَّرَّةُ . قالَ تَعالى :

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة : ٧ـ٨] .

إنَّ الظُّلْمَ لا يُمْكِنُ أنْ يَقعَ مِنَ اللهِ تعالى ، لأنَّهُ حرَّمَهُ على نَفْسِهِ ، فهُو سُبْحانَهُ صاحِبُ الكَمالِ المُطْلَقِ ، والفَضْلِ العَظيم .

ومِنْ رَحمَةِ اللهِ تَعالى أنَّهُ يَزيدُ لِمَنْ أحْسَنَ في حَسناتِهِ ، فهُو سُبْحانَهُ يُضاعِفُ الحَسَناتِ ، أمَّا السَّيئاتُ فلا يُجزَى الإنْسانُ إلاّ مِثْلَها ، قال تَعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام ١٦٠] ، ومِنْ رحْمَةِ اللهِ أنَّ مَنْ همَّ بِسيِّئةٍ فلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، ومَنْ هَمَّ بِسَيئةٍ وعَمِلَها كُتبتْ لَهُ سَيِّئَةً ، ومنْ همَّ بحسنةٍ فعمِلها كُتِبَتْ لهُ عشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعمائةِ ضِعْفٍ .

﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ إنّ رَحْمَةَ اللهِ تعالى لا تقفُ عنْد جزاءِ المُحْسنِ فقط ، بَلْ إنَّه تَعالى يَزيدُهم مِنْ فَضْلِهِ ويُعطيهِمْ عَطاءً كَبيراً مِنْ عِنْدِهِ بلا مُقابلٍ .

إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذرَّةٍ ، وكَيْفَ يَكونُ ذَلِكَ وهُوَ سُبْحانَهُ يَجْمعُ الأُمَمَ كُلَّها يَوْمَ القِيامةِ ، ويأتي بالشُّهودِ مِنْ جَميعِ الأُمَمِ يَشْهَدونَ عَلى أُمَمِهِمْ .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾

إذا عَرَفْتَ أيُّها السَّامِعُ أنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذرَّةٍ وأنَّها إنْ تَكُ حَسنَةٌ يُضاعِفْها ، فكَيْفَ سَيَكونُ حالُ هؤلاءِ الكَفرةِ إذا جمَعَهُمُ اللهُ تَعالى ، وجاءَ عَلى كُلِّ أُمةٍ بشَهيدٍ يَشْهَدُ عَلَيْهِم بما كانوا يَعْملونَ في الدُّنيا ، وهذا الشَّهيدُ هُوَ نَبيُّهُمُ الّذي بَعَثَهُ اللهُ لَهُمْ ، وجِئْنا بِكَ يا مُحمَّدُ شَهيداً عَلى هَؤلاءِ الّذينَ بَعَثَكَ اللهُ تَعالى فيهِمْ ، وشَهيداً على جَميعِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ .

لَقَدْ أكْرَمَ اللهُ تَعالى هَذِهِ الأُمَّةَ بأنْ جَعَلَها شَهيدةً عَلى الأُمَمِ السّابِقَةِ ، وجَعَلَ نَبيَّها شَهيداً عَلَيْها . عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ قالَ : قالَ لي رَسولُ اللهِ ﷺ : (اقْرأْ عليَّ شَيْئاً مِنَ القُرْآنِ ، فَقُلْتُ : يا رسولَ اللهِ أأقرأُ عَلَيْكَ وعَلَيْكَ أُنْزِلَ ؟ قالَ : فإنّي أُحبُّ أنْ أسمَعَهُ مِنْ غَيْري ، فقَرأتُ عَلَيْهِ سورةَ النِّساءِ حتّى بَلَغْتُ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ فقالَ : أَمْسِكْ ، فإذا عَيْناهُ تَذْرِفانِ)[1] .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾

في ذَلِكَ اليَوْمِ يَشْهَدُ الرُّسُلُ عَلى أَقْوامِهِمْ ويَشْهَدُ الرّسولُ ﷺ على الجميعِ ، هُنالِكَ يَتَمنّى الّذينَ كَفَروا وعَصَوْا الرّسولَ ﷺ لَوْ تُسوّى بِهِمُ الأرْضُ ، إنَّهُمْ يَودُّونَ في ذَلِكَ الوَقْتِ ويَتمنَّوْنَ لَوْ تَنْشَقُّ الأَرْضُ وتَبْتلِعُهُمْ ، أوْ يَصيروا تُراباً تُسوَّى بِهِمُ الأَرْضُ ، وهَذا هُوَ قَوْلُهُ تَعالى :

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، حديث رقم ٤٣٠٦

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ : ٤٠] ، إنَّهُمْ مِنْ هَوْلِ هذا المَوْقِفِ ، ومِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِمْ وفَزَعِهِمْ مِنْ مَصيرِهِمُ الّذي عَرَفوا ، تَمنَّوْا هذا الّذي تمنَّوْهُ .

وهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ لا يَكْتمونَ اللهَ حَديثاً ، فَهُمْ سَيَقِفونَ بَيْنَ يَدي اللهِ تَعالى ، وسَيَعْتَرِفونَ بما كانَ مِنْهُمْ في الدُّنْيا مِنْ شِرْكٍ ، وبُعْدٍ عَنِ اللهِ تَعالى ، ومِنْ عَمَلٍ سَيِّءٍ وإفْسادٍ في الأَرْضِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ سَوْفَ يَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ ، فَتَنْطِقُ جَوارِحُهُمْ وتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أيديهِمْ وأرجلُهُمْ ، وعِنْدَ ذلكَ يَتمنَّوْنَ أنْ لَوْ تُسوَّى بِهِمُ الأَرْضُ .

إنَّ العاقِلَ هُوَ الّذي يَعْتَبِرُ بِحالِ هؤلاءِ المُشْرِكينَ ، فَيُخْلِصُ عِبادَتَهُ للهِ تَعالى ، ولا يَعْمَلُ إلاّ صالِحاً ، ويَجْتَنِبُ كُلَّ ما نَهى اللهُ تَعالى عَنْهُ ، حتّى لا يَقِفَ هذا المَوْقِفَ العَظيمَ بَيْنَ يَدي اللهِ ، فَيَفْضَحُهُ اللهُ بَيْنَ الخلائِقِ . اللَّهُمَّ لا تَفْضَحْنا بَيْنَ الخلائِقِ ولا بَيْنَ يَدَيْكَ ، اللَّهُمَّ آمين .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ اللهُ تَعالى مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقْصِ ، فَهُوَ لا يَظْلِمُ أَحَداً .

٢ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى بِعبادِهِ أَنَّهُ يُضاعِفُ الحَسَناتِ ، ولا يُجازي عَلى السَّيئةِ إلاّ بِمِثْلِها ، ويُعطي مِنْ فضلِهِ مَنْ شاءَ مِنْ عِبادِهِ .

٣ـ لَقَدْ جَعَلَ اللهُ أُمَّةَ محمَّدٍ أمةً وَسَطاً ، لِيَكونوا شُهَداءَ عَلى النّاسِ ، ويَكونَ الرَّسولُ عَلَيْهِمْ شَهيداً .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ قالَ اللهُ تَعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ عَلى ماذا يَدُلُّ هَذا ؟

٢ـ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يُضاعِفُ الحَسَناتِ للإنْسانِ ، أمّا السَّيِّئاتُ فَلا يَجزي عَلَيْها إلاّ بِمِثْلِها ، عَلى ماذا يَدُلُّ ذَلِكَ ؟

٣ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ .

٤ـ مَنِ الشّاهِدُ الّذي يَشْهَدُ عَلى ما كانَ يَعْمَلُ الإنْسانُ في الدُّنيا ؟

٥ـ لِماذا يتمنَّى الكافِرُ أنْ يَكونَ تُراباً يَوْمَ القِيامة ؟

٦ـ فسِّرْ كُلاًّ مِنَ الآياتِ التّاليةِ :

أ ـ ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاَءِ شَهِيداً﴾ .

ب ـ ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً قُدُسيّاً يُبيِّنُ أنَّ اللهَ حرَّمَ الظُّلْم على نفْسه

٢ـ ما الّذي تَسْتَوْحيهِ مِنْ بُكاءِ الرَّسولِ ﷺ عِنْدَ قِراءة هذه الآيةِ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ ؟ اكْتُبْ ذلِكَ في دفْترِك .

* * *

الدَّرسُ الرّابعَ عشَرَ

سورةُ النّساءِ ـ القِسْمُ الرّابِعَ عشَرَ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

عَابِري سَبيلٍ : مُسافِرينَ .

الغائِطِ : المكانِ الّذي يَقْضي فيهِ الإنْسانُ حاجتَهُ .

لامَسْتُمُ النّساءَ : جامَعْتُموهُنَّ .

صَعيداً : وَجْهَ الأَرْضِ .

طيّباً : لا نَجاسةَ فيهِ ، أيْ : طاهِراً .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى بِعبادَتِهِ وعَدَمِ الإشْراكِ بِهِ ، والإخْلاصِ لَهُ ، وشَرَعَ مِنَ العِباداتِ ما تُقَرِّبُ العَبْدَ إلى ربِّهِ ، فَيَكونُ طاهِرَ الرُّوحِ والجِسْمِ ، ومِنْ ذلِكَ الصَّلاةُ والوُضوءُ .

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ .

نَهَتِ الآياتُ المُسْلِمَ أنْ يُصلِّيَ وهُوَ في حالةِ سُكْرٍ ، وذَلِكَ لأنَّ مَنْ يَكونُ سَكراناً لا يُمْكِنُهُ أنْ يَخْشَعَ في صَلاتِهِ ، ويُناجي رَبَّهُ ، فَهُوَ يَخْلِطُ في كَلامِهِ كَثيراً ، وقَدْ يَتفوَّهُ بِما يُؤدّي بِهِ إلى الكُفْرِ وهُوَ لا يَشْعُرُ .

وَلَكِنْ هَلْ مَعَنى هذا أنَّ المُسْلِمَ يَجوزُ لَهُ أنْ يَسْكَرَ خارِجَ الصَّلاةِ ؟ إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ تَحْريمِ الخَمْرِ نهائِيّاً ، ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ القُرْآنَ عِنْدَما نَزَلَ أوّلَ مَرّةٍ كانَ شُرْبُ الخَمْرِ شائِعاً بَيْنَ النّاسِ ، وأنَّ القُرْآنَ في العَهْدِ المَكيِّ كانَ يُعْنى بإرْساءِ العَقيدةِ في نُفوسِ المُسْلِمينَ ، حَتّى يَسْتَعِدُّوا لِقَبولِ أيِّ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ فيما بَعْدُ ، وقَدْ تَدَرَّجَ القُرْآنُ في تَحْريمِ الخَمْرِ ، فَقَدْ أُنْزِلَ في سورةِ البَقَرةِ ﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ ﴾ [البقرة : ٢١٩] فَقَدْ بَيَّنَ للنّاسِ أنَّ في الخَمْرِ آثاماً كَثيرةً ، ولكنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْها ، ثُمَّ أنزلَ سُبْحانَهُ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾ فَصاروا لا يَشْرَبونَ الخَمْرَ في أَوْقاتِ الصَّلاةِ ، ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ الصَّلواتِ الخَمْسَ مِنْها ثَلاثةٌ لا يُمْكِنُ شُرْبُ الخَمْرِ بَعْدَها حَتّى لا يُصلّي وهو سَكْرانُ ، وهي الظّهْرُ فالعَصْرُ فالمَغْرِبُ ، وكُلُّها مَتَقارِبةٌ فَكانوا في هَذِهِ الأَوْقاتِ لا يَشْرَبونَ الخَمْرَ حتَّى لا يَسْكَروا . ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ تَعالى تَحْريماً نِهائِياً لِلْخَمْرِ في سورةِ المائِدَةِ ، قالَ تَعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠] وقَدْ الْتَزَمَ المُسْلِمونَ بذلِكَ الأَمْرِ .

التَّيَمُّمُ : ومِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى بِعِبادِهِ أنْ شَرَعَ لَهُمُ التَّيَمُّمَ عِوَضاً عَنِ الوُضوءِ والاغْتِسالِ في حالةِ عَدَمِ وُجودِ الماءِ ، أوْ عَدَمِ القُدْرَةِ على اسْتِعْمالِهِ . والتَّيَمُّمُ لُغَةً : القَصْدُ ، وشَرْعاً : القَصْدُ إلى التُّرابِ لِمَسْحِ الوَجْهِ واليَدَيْنِ بِهِ . وقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الّذينَ يُباحُ لَهُمُ التَّيَمُّمُ :

١ـ ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ ﴾ ويُقْصَدُ بِهِ : المريضُ مَرَضاً يُخافُ زِيادتُه باسْتِعْمالِ الماءِ .

٢ـ ﴿ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ أيْ : إذا كانَ الإنْسانُ مُسافِراً ولَيْسَ مَعَهُ ماءٌ يَكْفي للشُّرْبِ والوُضوءِ ، أوْ كانَ هُناكَ مانِعٌ يَمْنَعُهُ مِنَ الوُصولِ إلى الماءِ .

٣ـ ﴿ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ ﴾ والغائِطُ : المكانُ الّذي يَقْضي فيهِ الإنْسانُ حاجَتَهُ ، والمَقْصودُ به الحَدَثُ الأَصْغرُ بِخروجِ شَيْءٍ مِنْ أحَدِ السَبيلَيْنِ ، كالبَوْلِ والبرازِ .

٤ـ ﴿ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ ويُقْصَدُ بِهِ : الجماعُ .

وَقَدْ قُيِّدتْ هَذِهِ كُلُّها بِعَدَمِ وُجودِ الماءِ ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ ﴾ أيْ : إذا كُنْتُمْ عَلى أيِّ حالةٍ ممّا ذُكِرَ ، فوَجَبَ عَلَيْكُمْ أنْ تَتيمَّموا صَعيداً طَيِّباً .

والتَّيمُّمَ يَكونُ بأنْ يَضْرِبَ المُسْلِمُ يَدَيْهِ عَلى التُّرابِ ويَمْسَحَ بِهما وَجْهَهُ ، ثُمَّ يضربَ ثانيةً يَمْسَحُ بهما يَدَيْهِ . وقَدْ خُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يخْتارُ لِعبادِهِ إلاّ ما يَتلاءَمُ ويَتناسَبُ مَعَهُمْ ، ولا يُكلِّفُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها ، وهُوَ غَفورٌ يَغْفِرُ لِمنْ قصَّرَ وأَذْنَبَ متَى تابَ ورَجَعَ عَنْ ذَنْبِهِ .

إنَّ هَذِهِ الأَحْكامَ قَدْ شَرَعَها اللهُ تَعالى لأُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ ، فعَلَيْهِمْ أنْ يَلْتَزِموا بها ، ولا يَكونوا مِثْلَ غَيْرِهِم مِنَ الأُمَمِ لِتُبيِّنَ لَنا حالَ أَهْلِ الكِتابِ الّذين كانَ مِنْهُمْ تَرْكٌ لِكتابِ اللهِ ، ونَبْذٌ لَهُ وراءَ ظُهورِهِمْ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾

والهَمْزَةُ هُنا اسْتِفْهامٌ جاءَتْ للتَّعجُّبِ مِنْ حالِ أولئكَ ، أيْ : أَلمْ يَنْتَهِ عِلْمُكَ إلى ما كانَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ، الّذين أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ التَّوراةَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ حَرَمَهُمُ اللهُ تَعالى الهِدايةَ ؛ لأَنَّهُمُ اخْتاروا الضَّلالَةَ لأَنْفُسِهِمْ ، وقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ التَّوراةَ كلَّها وعَلَّمَهُمْ إيّاها ، ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ نَسوا حَظّاً كَبيراً ممّا ذَكَّرَهُمُ اللهُ بِهِ في التَّوْراةِ ، ولَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِ الكتابِ إلاّ القَليلُ ، ومَعَ ذَلِكَ فإنَّهُمْ قَدْ حرَّفوا هذا القَليلَ وبَدَّلوهُ وأَخْضَعوهُ لأَهْوائِهِمْ وشَهَواتِهِمْ .

إنَّهُمْ قَدِ اخْتاروا الضَّلالَةَ عَلى الهِدايةِ الّتي جاءَ بِها مُحمَّدٌ ﷺ ، وهُمْ لَمْ يَكْتَفوا بِذلِكَ ، بَلْ يُريدونَ لِلْمُسْلِمينَ أنْ يَتركوا دينَهُمُ الحَقَّ ، ويَتَّبِعوهُمْ في ضَلالِهِمْ وكُفْرِهِمْ .

وَقَدْ جاءَتِ الآياتُ تُحذِّرُ المُسْلِمينَ مِنْهُم ، فَقالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ :

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾

أيْ : هُوَ أعْلَمُ مِنْكُمْ بِأَعْدائِكُمْ وما يُبيِّتونَ لَكُمْ مِنْ شُرورٍ ، فَعَلَيْكُمْ أنْ تَحْذَروهُمْ ولا تَلْتَفِتوا إلى أَقْوالِهِمْ ، إنَّهُمْ يَكيدونَ لَكُمْ في الخَفاءِ ، ويَغشُّونَكُمْ في الجَهْرِ ، حَيْثُ يُظْهِرونَ لَكُمُ الوَلاءَ والنُّصْرَةَ ، واللهُ أَعْلَمُ بِما في قُلوبِهِمْ مِنَ العَداوَةِ والبَغْضاءِ . وكَفى باللهِ وليّاً يَتولّى أُمورَكُمْ ويُصْلِحُ بالَكُمْ ، وكَفى بِهِ نَصيراً يَدْفَعُ عَنْكُمْ كُلَّ مَكْروهٍ وشَرٍّ . ولِذا عَلَيْكُمْ باتِّباعِ السُّنَنِ الّتي وَضَعَها لَكُمْ ربُّكُمْ ، والّتي مِنْها عَدَمُ الاسْتِعانَةِ بالعَدوِّ ، فَهَمْ لا يَعْمَلونَ إلاّ لِمصالِحِهِمُ الخاصَّةِ . وها هُمْ أَهْلُ الكُفْرِ في زَمانِنا هذا يَسْعَوْنَ لِمصالِحِهِمْ ، ومَعَ ذَلِكَ فَنَحْنُ نَثِقُ بِهِمْ ، ونَسْتَعينُ بِهِمْ في كُلِّ أُمورِنا ، ولا نَسْتَطيعُ أنْ نَخْطوَ خُطوةً دونَ عِلْمٍ مِنْهُمْ ، أوْ أَمْرٍ ، فَكَيْفَ يَسْتَقيمُ حالُنا هذا مَعَ أمْرِ اللهِ وتَوْجيهِهِ ، فالأَصْلُ أنْ نَتولَّى اللهَ تَعالى ، وكَفى بِهِ وليّاً وكَفى بِهِ نَصيراً .

دروس وعبر :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حَثُّ الإسلامِ المُسْلِمينَ عَلى إقامةِ الصَّلاةِ في حالةِ الحُضورِ العَقْليّ، وخُشوعِ القَلْبِ والجَوارحِ.

٢ـ لا تَصِحُّ الصَّلاةُ إلاّ بالطُّهورِ .

٣ـ في حالة فَقْدِ الماءِ ، أوْ عَدَمِ القُدْرَةِ عَلى اسْتِعْمالِهِ ، يُباحُ للإنْسانِ التَّيمُّمُ .

٤ـ وُجوبُ الْتِزامِ المُسْلِمِ بِما في كِتابِ اللهِ ، وعَدَمُ مُوالاةِ الكافِرينَ واتِّباعِهِمْ .

التقويم :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيَّنتْ آياتُ القُرْآنِ كَيْفَ تَمَّ تَحريمُ الخَمْرِ :

أـ وضِّحْ ذَلِكَ مؤيِّداً إجابَتَكَ بِدَليلٍ .

ب ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ هذا التَّدرُّجِ في تَحريمِ الخَمْرِ ؟

٢ـ أـ عرِّفِ التَّيمُّمَ .

ب ـ اذْكُرْ أرْبَعةً مِمَّنْ يُباحُ لَهُمُ التَّيمُّمُ .

ج ـ بَيِّنْ كَيفيَّةَ التَّيمُّمِ .

٣ـ ذَكَرَتِ الآياتُ الكَريمةُ وَصْفاً قَبيحاً لأَهْلِ الكِتابِ ، اذْكُرْ هذا الوَصْفَ .

٤ـ حَذَّرتِ الآياتُ الكَريمةُ مِنْ مُوالاةِ الكافِرينَ ، اذْكُرْ دَليلَ ذَلِكَ .

٥ـ فَسِّرْ مَعْنى كُلٍّ مِنَ الآياتِ التّاليةِ :

أـ ﴿جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ .

ب ـ ﴿لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ .

ج ـ ﴿فتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً﴾ .

د ـ ﴿الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ﴾ .

هـ ـ ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ وَلِيّاً وَكَفَىٰ بِاللهِ نَصِيراً﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ وَصْفاً لِسُرْعَةِ اسْتِجابةِ المُؤْمِنينَ للهِ تَعالى عِنْدَ تَحريمِ الخَمْرِ في المَدينةِ

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيْفيَّةَ الغُسْلِ مِنَ الجَنابَةِ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيفيَّةَ التَّيمُّمِ ، مُؤيِّداً ذَلِكَ بِحَديثٍ شَريفٍ .

الدَّرسُ الخامِسَ عَشَرَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الخامِسَ عَشَرَ

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الّذين هادوا	: اليهودِ .
راعِنا	: ارقبْنا وانظُرْنا .
ليّاً بأَلْسِنَتِهِمْ	: فَتْلاً بِها وتَحْريفاً .
طَعْناً	: قَدْحاً فيهِ .
أقوَمُ	: أعْدَلُ .
نَطْمِسَ	: نُزيلَ أثَرَهُ .

التَّفسيرُ :

بَدأَتِ الآياتُ في الدَّرْسِ السَّابِقِ الحَديثَ عَنْ أهْلِ الكِتابِ مِنَ اليَهودِ ، وجاءَتِ الآياتُ هُنا لِتَذْكُرَ بَعْضَ أقْوالِهِمْ وأعْمالِهِمُ القَبيحَةِ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ .

أيْ : مِنْ هَؤلاءِ اليَهودِ فَريقٌ يُحرِّفون كَلامَ اللهِ تَعالى ، وذَلِكَ بأنْ يُؤَوِّلوهُ بِغَيْرِ مَعْناهُ ويقولوا خِلافَ ما أَمَرَهُمْ بِهِ اللهُ ، ومِنْ ذَلِكَ :

١ـ أنَّهُمْ كانوا يُبدِّلون لَفْظاً بلَفْظٍ آخَرَ .

٢ـ أنَّهُمْ كانوا يُلْقونَ الشُّبَهَ الباطِلَةَ ، ويَصْرِفونَ اللَّفظَ عَنْ مَعناهُ الحقِّ إلى مَعْنى باطِلٍ .

٣ـ أنَّهُم خَلَطوا في كُتُبِهِمْ ما أُثِرَ عَنْ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ بِما كُتِبَ بَعْدَه بزَمَنٍ طَويلٍ .

ومِنْ هذا التَّأويلِ والتَّحْريفِ ما كانَ مِنْهُمْ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ أيْ : يَقولونَ للنَّبيِّ ﷺ سَمِعْنا قَوْلَكَ وعَصَيْنا أمْرَكَ ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أيْ : يَقولونَ للنَّبيِّ ﷺ وَهُوَ يُخاطِبُهُمْ ويَتَحدَّثُ مَعَهُمْ لا سَمِعْتَ مَكْروهاً ، وهذا لا شَكَّ كَلامٌ طيِّبٌ ولكنَّهُمْ يَقْصُدونَ مَعْنىً آخَرَ مِنَ الكَلِمَةِ ، وهُوَ الدُّعاءُ عَلى النَّبيِّ ﷺ ، أيْ : لا أسْمَعَكَ اللهُ تَعالى أبداً ، أوْ لا أسْمَعَكَ كَلاماً طيِّباً تَرْضاهُ . ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ ﴿ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ وكَلِمَةُ : راعِنا ، تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ :

الأوّلُ : وهُوَ مَعْنىً خَيِّرٌ ، وهوَ : انْظُرْنا وأَمْهِلْنا .

والثاني : مَعنى فيهِ الحِقْدُ والشَّرُ للنَّبيِّ ﷺ ، وهُوَ مَأْخوذٌ مِنَ الرُّعونةِ بِمَعْنى : الحُمْقِ ، فَفيها مَسَبَّةٌ للنَّبيِّ ﷺ .

وهُمْ لاشَكَّ لا يَقْصُدونَ المَعْنَى الأَوَّلَ ، بَلْ يَقْصُدونَ المَعْنى الثّاني . لَقَدْ كانوا يَسْمَعونَ الصَّحابَةَ يَقولونَ للنَّبيِّ ﷺ : راعِنا بِمَعْنى : انْظُرْنا وأمْهِلْنا ، فَصاروا يَنْطِقونَ الكَلِمَةَ نُطْقاً مُنْحَرِفاً لِيَصْرِفوها عَنْ مَعناها وهُمْ يُريدونَ القَدْحَ في دينِ اللهِ والاسْتِهزاءَ بِرَسولِهِ ﷺ ، ولِذَلِكَ فَقَدْ نَهى اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ أنْ يَقولوا راعِنا ، وأَمَرَهُمْ أنْ يَقولوا بَدَلاً مِنْها : انْظُرْنا .

ومِنَ ذَلِكَ ما ثَبَتَ في الحَديثِ الصَّحيحِ أَنَّهُمْ كانوا يَقولونَ للنَّبيِّ ﷺ السّامُ عَلَيْكُمْ ، بَدَلاً مِنَ السَّلامُ عَلَيْكُمْ ، ومَعَنى السّامِ : الموتُ ، قاتَلَهُمُ اللهُ .

إنَّ هَؤلاءِ اليَهودَ لَوْ كانوا يَعْقِلونَ لَقالوا كَلاماً طَيِّباً للرَّسولِ ﷺ فَلَوْ أَنَّهُمْ قالوا للنَّبيِّ ﷺ سَمِعْنا قَوْلَكَ وأَطْعناهُ ، وقالوا لَهُ : اسْمَعْ إجابَتَنا ، واسْمَعْ ما نَقولُهُ لَكَ ، وقالوا انْظُرْنا أيْ : أمْهِلْنا وانتظِرْنا ولا تَعْجَلْ عَلَيْنا حتّى نَتَفهَّمَ ما تَقولُ ، لَكانَ خَيْراً لَهُمْ ، لِما في ذَلِكَ مِنَ الأَدَبِ والفائِدَةِ وحُسْنِ العاقِبَةِ ، ولَكنَّهُمْ لَمْ يَكونوا كَذلِكَ ، ولِذلِكَ لَعَنَهُمُ اللهُ تَعالى وطَرَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ، فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ إلاّ إيْماناً قَليلاً لا يُعْتدُّ بِهِ ، ولا يُغْني عَنْهُمْ مِنْ عَذابِ اللهِ شَيْئاً .

وانتَقَلَتِ الآياتُ لِمُناداةِ أَهْلِ الكِتابِ وإلْزامِهِمْ بالإيمانِ بما جاءَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

يا أيُّها اليَهودُ والنّصارى آمِنوا بالكِتابِ الّذي نَزَّلْناهُ مِنْ عِنْدِنا ، والذي جاءَ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ مِنْ تَقْريرِ عَقيدةِ التَّوْحيدِ وتَحريمِ الشِّرْكِ ، ومِنْ نَهْيٍ عَنِ الفَواحِشِ ما ظَهَرَ مِنْها وما بَطَنَ ، فَقَدْ جاءَ القُرْآنُ يَدعو لِما كانَتِ التَّوْراةُ والإنْجيلُ تَدعُوانِ إليهِ مِنْ أُصولِ الدينِ ، وعَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنوا بِهِ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبي ، وينزلَ عَلَيْكُمْ عِقابي ، والطَّمْسُ هُنا مَعنَويٌّ ، أيْ : مِنْ قَبْلِ أَنْ نُعمِيَّ عَلَيْكُمْ سَبيلَ الحَقِّ ، فلا تُبْصِرونَهُ ونُبصِّرَ المُؤْمِنينَ بِشُؤونِكُمْ فَيَنْتَصِرونَ عَلَيْكُمْ . أيْ : نُعْميكُمْ عَنِ الحَقِّ ونُرْجِعُكُمْ كُفّاراً ، وقَدْ نَصَرَ اللهُ المُؤْمِنينَ عَلى اليَهودِ ، وقَدْ ردَّ بَني قَيْنُقاعَ وبَني النَّضيرِ عَلى أَدْبارِهِمْ فَأَجْلاهُمْ إلى فِلَسْطينَ والشّامِ ، وأَخْرَجَهُمْ مِنْ جَزيرةِ العَرَبِ . أو يَكونُ الطَّمْسُ عَلى الحقيقةِ .

وبَيَّنَ سُبْحانَهُ عُقوبةً أُخرى يُمْكِنُ أَنْ تَحِلَّ بِهِمْ إذا لَمْ يُؤْمِنوا ، أيْ : آمِنوا قَبْلَ أَنْ نَلْعَنَكُمْ بالطَّرْدِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى ، كَما لَعَنّا مَنْ كانَ قبلَكُمْ مِنَ اليَهودِ وَهُمْ أَصْحابُ السَّبْتِ .

وَقَدْ هَدَّدَهُمُ اللهُ تعالى وتَوعَّدَهُم بِقَوْلِهِ : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ إنَّهُ سُبْحانَهُ لا رادَّ لِحُكْمِهِ ، ولا مُعقِّبَ لأَمْرِهِ ، فَما أرادَهُ اللهُ تَعالى وما أَمَرَ بِهِ كانَ نافِذاً لا مَحالةَ ، وأَنْتُمْ تَعْلَمونَ أَنَّ اللهَ تَعالى تَوعَّدَ الأُمَمَ السّابِقَةَ وَوَقَعَ ما توعَّدَهُمْ بِهِ مِنْ عَذابٍ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَحذَروا وعيدَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى .

إنَّ مِنْ أعْظَمِ ما يَرْتَكِبُهُ أَهْلُ الكِتابِ مِنْ ذَنْبٍ هُوَ إشْراكُهُمْ مَعَ اللهِ تَعالى ، ولِذا بَيَّنَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يَغْفِرُ لأيِّ كافِرٍ ماتَ عَلى كُفْرِهِ ، ولكنَّهُ يَغْفِرُ ما دونُ الكُفْرِ مِنَ الذُّنوبِ والمَعاصي لِمنْ شاءَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ . لَقَدْ حَدَّثَنا القُرْآنُ عَنْهُمْ بأَنَّهُمْ اتَّخَذوا أَحْبارَهُمْ ورُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دونِ اللهِ ، وأَنَّهُمْ قالوا : إنَّ اللهَ هُوَ المَسيحُ ابنُ مريمَ ، وأَنَّهُمْ قالوا : إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ ، وأَنَّهُمْ قالوا : عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ ، وأَنَّهُمْ وَصَفوا اللهَ تَعالى بِصِفاتِ البَشَرِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يتألَّمُ ويَتَوَجَّعُ ويُصارِعُ ، تَعالى اللهُ عَنْ ذلِكَ عُلُوّاً كَبيراً ، وهذا كُلُّهُ كُفْرٌ وشِرْكٌ باللهِ تَعالى لا يَغْفِرُهُ اللهُ تَعالى لَهُمْ .

إنَّ مَنْ كَفَرَ باللهِ تَعالى وأَشْرَكَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، فَقَدِ ارْتَكَبَ آثاماً لا يُمْكِنُ أَنْ تُغْفَرَ لَهُ ، لأَنَّهُ بِهذا الإشْراكِ قَدِ افترى الكَذِبَ العَظيمَ عَلى اللهِ تَعالى .

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حُسْنُ الأَدَبِ مَعَ اللهِ تَعالى ، ومَعَ رَسولِهِ ﷺ ، والحِرْصُ عَلى أنْ لا يَخْرُجَ مِنَ اللِّسانِ إلاّ الكَلامُ الطَّيِّبُ .

٢ـ الالْتِزامُ بِأَوامِرِ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، والانْتِهاءُ عَنْ نَواهيهِ حتّى لا يَعُمَّنا اللهُ تَعالى بِعِقابٍ شَديدٍ مِنْ عِنْدِهِ .

٣ـ إنَّ ما نَراهُ مِنْ حالِ المُسْلِمينَ اليَوْمَ مِنْ ضَعْفِهِمْ وخَوَرِهِمْ وشُعورِهِمْ بالهَزيمَةِ والخِذلانِ ، ما هُوَ إلاّ أثَرٌ مِنْ آثارِ عِقابِ اللهِ تَعالى ، بِسَبَبِ ابْتِعادِهِمْ عَنْ دينِ اللهِ .

٤ـ الابْتِعادُ عَنْ كُلِّ ما يُؤدِّي إلى الشِّرْكِ ، والمُسارَعَةُ إلى التَّوْبَةِ مِنَ الذُّنوبِ الّتي يُذْنِبُها العَبْدُ لِيَغْفِرَها لَهُ سُبْحانَهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعنى المُفْرَداتِ التّالِيَةِ :

الّذينَ هادوا ، راعِنا ، أَقْومَ ، نَطْمِسَ ، واسْمَعْ غَيْرَ مُسمَعٍ .

٢ـ قالَ تَعالى : ﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ تَحْتَمِلُ كَلِمَةُ راعِنا معنَيينِ ، اذْكُرْهُما .

٣ـ كَيْفَ كانَ يُسَلِّمُ اليَهودُ عَلى الرَّسولِ ﷺ ؟

٤ـ لِمَ طَرَدَ اللهُ اليَهودَ مِنْ رَحْمتِهِ ولَعَنَهُمْ ؟

٥ـ عَدِّدْ ثلاثةً مِنْ أعْمالِ اليَهودِ لِتَحْريفِ كتابِهِمْ .

٦ـ فَسِّرْ كُلاًّ مِنَ الآياتِ التّالِيَةِ :

أـ ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ .

ب ـ ﴿نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلَىٰ أَدْبَارِها﴾ .

ج ـ ﴿أَصْحابَ السَّبْتِ﴾ .

د ـ ﴿افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ هاتِ الآيَةَ الّتي تَنْهى المُؤْمِنينَ عَنْ قَوْلِ كَلِمَةِ (راعِنا) واسْتَبْدالِها بـ (انظُرْنا) واكْتُبْها في دفَتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةَ سورةِ البَقَرَةِ الّتي تُبيِّنُ ما أُمِرَ بِهِ اليَهودُ عِنْدَ دُخولِ القَرْيَةِ ، وماذا قالوا ؟

٣ـ مَنْ هُمْ أصْحابُ السَّبْتِ ؟ وماذا فَعَلوا حتّى اسْتَحقُّوا لَعْنَةَ اللهِ ؟ اكْتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

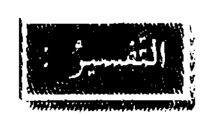
الدَّرسُ السَّادِسَ عَشَرَ

سورةُ النِّساءِ - القِسْمُ السّادِسَ عَشَرَ

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ

يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ	يَمْدَحُونَها ويَصِفونَها بالتَّقْوى والصَّلاحِ .
يُظْلَمونَ	الظُّلْمُ : تَجاوزُ الحُدودِ بِنَقْصٍ أوْ زِيادةٍ .
فَتيلاً	الفَتيلُ : ما يَكونُ في شِقِّ التَّمْرِ كالخَيْطِ ، ويُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ في الشَّيْءِ الحَقيرِ .
لا يُظْلَمونَ فَتيلاً	لا يُنْقَصُ مِنْ أعْمالِهِمْ مِقْدارُ خَيْطِ نَواةِ التَّمْرِ .
الجِبْتِ	الخُرافاتِ والدَّجَلِ والسِّحْرِ وكُلِّ باطِلٍ .
الطّاغوتِ	ما تَكونُ عِبادَتُهُ سَبَباً للطُّغيانِ وهُوَ الشَّيْطانُ ، وكُلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللهِ .
نَقيراً	نُقْطَةً صَغيرةً تَكونُ عَلى نَواةِ حَبَّةِ التَّمْرِ .
يَحْسُدونَ	يَتمَنَّوْنَ زَوالَ النِعْمَةِ عَنِ الآخَرينَ .



ما زالتِ الآياتُ تَتحدَّثُ عَنْ قَبائحِ أَهْلِ الكِتابِ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

والهَمْزَةُ هُنا للاسْتِفْهامِ الّذي يُفيدُ التَّعَجُّبَ مِنْ حالِ أُولئِكَ . يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى : انظُرْ وتَعَجَّبْ مِنْ حالِ أُولئِكَ الّذينَ يَزْعُمونَ أَنَّهُمْ مُطهَّرونَ بَرَرَةٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى ، مَعَ ما هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ العَظيمِ ، فها هُمْ يَقولونَ : ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة : ٨٠] ويَقولونَ : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة : ١٨] ويَقولونَ : ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة : ١١١] فَهُمْ يَمْدَحونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَحِقُّونَ إلاّ الذَّمَ بِسَبَبِ سوءِ أَقْوالِهِمْ وأَفْعالِهِمْ ، ولِذلِكَ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ حَيْثُ أَبْطَلَ ما يَقولونَ ، فالتَّزْكِيَةُ إنَّما هِيَ شَهادةٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُزَكّي مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ مَنْ أيِّ جِنْسٍ وَلَوْنٍ ، ومِنْ أيِّ قَبيلةٍ كانَ ، وهُوَ سُبْحانَهُ لا يَظْلِمُ أَحداً مِنْ خَلْقِهِ شَيْئاً ، ولَوَ كانَ قَليلاً بِمِقدارِ خَيْطِ نَواةِ التَّمْرِ ، فَهؤلاءِ الّذينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ سَيُعاقِبُهُمُ اللهُ العِقابَ الّذي يَسْتَحِقّونَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

وَقَدْ أَكَّدَ اللهُ سُبْحانَهُ تَعالى التَّعجُّبَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ فَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ .

أيْ : انظُرْ أيُّها العاقِلُ كَيْفَ يَفْتَرونَ الكَذِبَ عَلى اللهِ تَعالى في تَزْكِيَتِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ مَعَ كُفْرِهِمْ ، وكَفَى بهذِهِ التَّزْكِيَةِ إثْماً مُبيناً ظاهِراً ، يَسْتَحِقُّونَ بِسَبَبِهِ أَشَدَّ العُقوباتِ .

ويَذْكُرُ سُبْحانَهُ لَوْناً آخرَ مِنْ قَبائِحِهِمْ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ .

يُبيِّنُ اللهُ تَعالى حالَ هَؤلاءِ الّذي يَدْعو إلى العَجَبِ ، فَقَدْ أَعْطاهُمُ اللهُ تَعالى حَظّاً مِنْ عِلْمِ الكِتابِ ـ أيْ : التَّوراةِ ـ فَعرَفوا أنّه لا يَجوزُ عِبادةُ أيٍّ مِنَ المَخْلوقاتِ ، ولَكنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ حُرِموا مِنْ هِدايَةِ الكِتابِ ، وهِدايَةِ الفِطْرَةِ والعَقْلِ ، وآمَنوا بالخُرافاتِ والسِّحْرِ والدَّجَلِ وكُلِّ باطِلٍ ، وصَدَّقوا بالأَصْنامِ والأَوْثانِ الّتي عُبِدَتْ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى ، فَهاهُمْ يَقولونَ لِلّذينَ كَفَروا مِنْ عَبَدَةِ الأَصْنامِ الذينَ بُعِثَ إليْهِمُ النَّبيُّ ﷺ إرْضاءً لَهُمْ ، بأَنَّهُمْ أَرْشَدُ وأَحْسَنُ مِمّا جاءَ بِهِ محمَّدٌ . ورُوِيَ أَنَّهُمْ قالوا لِلْمُشْرِكينَ : أَنْتُمْ خَيْرٌ وأَهْدى .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾

إنَّ أولئكَ الّذين استَحوذ عليْهمُ الشَّيْطانُ ، وجعلهُمْ يقولون للْمُشْركين إنّهُمْ خيْرٌ من المُؤْمنين ، لَعَنَهُمْ اللهُ تعالى ؛ أيْ : طردهُمْ وأبْعدهُمْ منْ رحْمته ، ومنْ يُبْعدُهُ اللهُ تعالى منْ رحْمته فلنْ ينْصُرهُ أحَدٌ مِنْ دونِ الله .

ومِنْ قبائِحِهِمْ كذلك بُخْلُهُمْ الشّديدُ ، قال تعالى

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾

وأمْ هَذِهِ تُسمَّى المُنْقطِعة وتكونُ بمعنى بل . لقدِ انْتقل القُرْآنُ منْ توْبيخِهِمْ على الإيمانِ بالجِبْتِ والطّاغوتِ ، وتَفْضيلِهِمُ المُشْركين على المُؤْمنين ، إلى توْبيخِهِمْ على بُخْلِهِمْ ، فيَقولُ سُبْحانَهُ عَنْهُمْ : إنّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ نصيبٌ من المُلْك أبدا فهُمْ لا يسْتحِقُّونهُ ، لأنّهُم فقدوهُ بظُلْمِهِمْ وطُغْيانِهِمْ ، وإيمانِهِمْ بالجِبْتِ والطّاغوتِ ، ولوْ أعْطاهُمُ اللهُ نصيباً مِن المُلْكِ ، فهُمْ لشدَّة حرْصِهِمْ وبُخْلِهِمْ لا يُعطونَ أحَداً مِنْهُ شيْئاً ولوْ كان قليلاً كمساحةِ النُّقْطةِ التي تكونُ على نواة التَّمْرِ . إنَّ اليَهود يَتّصِفونَ بالبُخْلِ الشَّديدِ ، وهُمْ إنْ صار لهُمْ مُلْكُ الدُّنيا كُلِّها نَجدْهُمْ حريصين على منْع النّاس أقَلَّ النَّفْع وأحْقَرَهُ .

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۞ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾

ثُمَّ انتَقلَتِ الآياتُ لِتوْبيخِ اليهودِ على صفةٍ سيّئةٍ مِنْ صفاتِهِمْ وهِي الحسدُ ، هذه الصِّفةُ الّتي أضَلّتهُمْ ، وجَعلَتْهُمْ لا يُحبُّون الخيْر لغيْرهِمْ ويتمنَّوْن زوال كُلِّ نعيم عنْهُمْ ، فيَقولُ سُبْحانه : إنَّ هؤلاءِ اليَهودَ لَيْسوا بُخلاء فقطْ ، بلْ إنَّ منْ أقْبحِ صفاتِهِمْ حسدَهُمُ النَّبيَّ ﷺ ، فهُمْ لا يُحبُّون أنْ يَكونَ لَهُمْ فضْلٌ عَلى أحدٍ . وقدْ رأَوْا أنَّ الله قدْ جعل لهُمْ دوْلَةً وقُوَّة ، وقدْ صار لهُمْ أعْوانٌ وأنْصارٌ .

إنَّ هَؤلاءِ اليَهود لا يَعْقلون ، وذلك أنّهُمْ يعْلمون عِلْم اليَقينِ أنَّ الله تعالى قدْ آتى آل إبْراهيم ومِنْهُمْ : إسحاقُ وإسماعيلُ وغيْرُهُمْ عليْهِمُ الصّلاةُ والسّلامُ ؛ آتاهُمُ الكِتاب والعِلْم النّافع ، وآتاهُمْ سُلْطاناً عَظيماً ، ومَع ذلك فهُمْ لمْ يحْسُدوهُمْ ، ولمْ يعْجبوا ممّا آتاهُمُ اللهُ ، فمنْهُمْ منْ آمن بما آتاهُ اللهُ لآلِ إبْراهيمَ ، ومِنْهُم منْ كفر به وأعْرض عنْهُ . وفي هذا تسْليةٌ للنَّبيِّ ﷺ ، فهُمْ قد اخْتلفوا في أَنْبيائِهِمْ فآمَنَ بَعْضُهُمْ وكفر آخرون . فكيْف تنْتظرُ منْهُمْ يا مُحمَّدُ أنْ يُؤْمنوا بك ويَتّبعوكَ ؟ إنَّ مَصيرَ هَؤلاءِ يا مُحمَّدُ نارُ جهنّم يحْرقون بسعيرها ولهيبها ، فما عليْك إلاّ أنْ تتحلّى بالصّبْر لما تُلاقيه مِنْهُمْ مِنْ أذىً وجُحودٍ

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبرٍ كثيرة ، منها

١ـ إنَّ الله تعالى يَجْزي كُلَّ عامِلٍ للخيْرِ حسَب عمله

٢ـ عَلى المُسْلِمين أنْ يَحْذَروا مِن الغُرور ، والحَسدِ ،ولا يكونوا مثْل أهْلِ الكِتابِ .

٣ـ التَّحْذيرُ من البُخْلِ والشُّحِ والأَنانيّةِ ، تِلْكَ الصِّفات الَتي يَتَّصفُ بها أَهْلُ الكِتابِ .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عنِ الأسئلة التّاليةِ :

١ـ قال تعالى : ﴿أَلَمْ ترَ إلى الّذين يُزكُّون أنفُسهُم﴾، ما معنى قوْلِ الله سُبْحانَهُ يُزكّون أنفُسَهُمْ ؟ ولِمَ نسَبَ التَّزْكيةَ إليْهِ وحْدَهُ ؟

٢ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ .

٣ـ عَدِّدْ ثَلاثاً مِنَ القَبائِحِ التي وَصفَ اللهُ تعالى بها اليَهود

٤ـ فسِّرْ مَعْاني المُفْرَداتِ الآتيةِ :

الجِبْتِ ، الطَّاغوتِ ، فتيلاً ، نقيراً ، صدَّ .

٥ـ ماذا قالَ اليَهودُ لأَهْلِ مَكَّةَ عِنْدَما سأَلوهُمْ عنِ الدِّينِ الحقِّ ؟ وعلى ماذا يَدُلُّ ذَلِكَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ إذا كانَ الإنْسانُ مَنْهياً عَنْ مَدْحِ نَفْسِهِ وتَزْكيتِها ، فهلْ يجوزُ لهُ أنْ يُزكِّيَ غيْرَهُ ؟ اكْتُبْ حَديثاً شَريفاً يَدُلُّ على ذَلِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حادِثَةً تَدُلُّ على حَسَدِ اليَهودِ للنَّبيِّ ﷺ .

٣ـ اجْمَعْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ الّتي تُبيِّنُ ظُلْمَ اليَهودِ وتطاولَهُمْ على :

أـ اللهِ تَعالى . ب ـ رسولِ الله ﷺ .

ج ـ دينِ اللهِ تعالى . د ـ المُسْلمين .

الدَّرسُ السَّابعَ عَشَرَ

سورةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ السّابِعَ عَشَرَ

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

نُصْليهِمْ : نَشْويهِمْ بالنّارِ .

عَزيزاً : قادِراً غالباً لا يَغْلِبُهُ أحدٌ .

الأماناتِ : الأشياءَ الّتي تُحفَظُ لتُؤَدّى إلى أَصْحابِها .

العَدْلِ : إيصالِ الحَقِّ إلى صاحِبِهِ .

فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسولِ : اطْلُبوا حُكْمَهُ مِنْ كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ .

التَّفسيرُ :

ذَكَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ مَنْ آمَنَ بِما أُوتِيَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ وذُرِّيَّتُهُ ، ومِنْهُمْ مَنْ كَذَّبَهُ ، فما مَصيرُ كُلِّ فَريقٍ مِنْهُمْ ؟ قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

إنّ هَؤلاءِ الكافِرينَ الّذين جَحَدوا بآياتِ اللهِ تَعالى قَدْ أعدَّ اللهُ لَهُمْ ناراً مُسْتَعِرةً تَشْويهِمْ وتَحْرِقُ أجْسامَهُمْ ، وقَدْ جاءَتْ كَلِمَةُ (سَوْفَ) للتَّهديدِ وتَأْكيدِ العَذاب .

وَقَوْلُهُ تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ أيْ : كُلَّما احْتَرَقَتْ جُلودُهُمْ وتَلاشَتْ بدَّلْنا الجُلودَ المَحْتَرِقَةَ جُلوداً أُخْرى جَديدةً ، لِتَحْتَرِقَ مَرّةً أُخْرى ، وهذا كِنايةٌ عَنْ دَوامِ العَذابِ لهُمْ .

وقَدْ ذَكَرَ العُلَماءُ أنَّ في هذهِ الآيةِ إعْجازاً عِلْمِياً ، إذْ إنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ذَكَرَ الجُلودَ عِنْدَ ذِكْرِ العَذابِ لأنَّ اللهَ جَعَلَ فيها مَواضِعَ الإحْساسِ ، ولِذا نَجدُ الأَطِبّاءَ عِنْدَ إجْراءِ عَمَليّةٍ جراحيّةٍ لإنْسانٍ ما ، يُعْطونَهُ حُقْنَةً مُخَدِّرَةً تَحْتَ الجِلْدِ ، فلا يَحُسُّ الإنْسانُ بالألَمِ عِنْدَ شَرْطِ جِلْدِهِ . فالأعْصابُ الّتي فيها الإحْساسُ بالأَلَمِ إنَّما هِيَ في جِلْدِ الإنْسانِ ، ولِذا فإنَّهُ سُبْحانَهُ يُعذِّبُ الكافِرينَ بِحَرْقِ جُلودِهِمْ ، وكُلَّما احْتَرَقَتْ أعْطاهُمْ جُلوداً صَحيحَةً ، لِتَحْتَرِقَ مَرّةً أُخْرى ، وهكَذا لِيَذوقوا العَذابَ ، ولِيَسْتَمِرَّ تَعذيبُهُمُ الّذي يَسْتَحِقُّونَ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ عَزيزٌ قادِرٌ لا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمّا تَوَعَّدَ بِهِ سُبْحانَهُ ، حَكيمٌ لا يُعذِّبُ أحَداً إلاّ بما يَسْتَحِقُّ .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبيِّنَ مَصيرَ الّذين آمَنوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ وصَدَّقوا بِرَسولِهِ ﷺ ، فَهؤلاءِ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ تَعالى جَنّاتٍ يَتَمتَّعونَ بِنَعيمِها العَظيمِ ، ولَهُمْ فيها أزْواجٌ مُطَهَّراتٌ مِنَ العُيوبِ ، وسَيَجْعَلُهُمُ اللهُ تَعالى في مَكانٍ لا حَرَّ فيهِ ولا بَرْدَ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِبيانِ بَعْضِ الأعْمالِ الصّالِحَةِ الّتي كانَتْ مِنْ هَؤلاءِ المُؤْمِنينَ :

أولاً أداءُ الأَمانةِ: الأَمانةُ هِيَ كُلُّ ما يَأْتَمِنُكَ عَلَيْهِ غَيْرُكَ مِنَ الأُمورِ الماديَّةِ أوِ المَعْنَويَّةِ ، وقَدْ تَكونُ تِلْكَ الأَمانةُ أوْ ذَلِكَ العَهْدُ مَعَ اللهِ تَعالى ، وأَداؤُها يَكونُ بالعَمَلِ بِما أَمَرَ اللهُ تَعالى بِهِ ، والانْتِهاءِ عَمّا نهى عَنْهُ سُبْحانَهُ .

وَقَدْ تكونُ الأَمانةُ مَعَ النّاسِ ، وذلِكَ مِثْلُ الوَدائِعِ والأَسْرارِ ، وأَداؤُها يَكونُ بِرَدِّ الوَدائِعِ لَهُمْ ، وعَدَمِ الغِشِّ والخِيانَةِ لَهُمْ . وقَدْ جاءتِ الآيَةُ لِتَحُثَّ المُؤْمِنينَ عَلى أداءِ ما اُئتُمِنوا عَلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ وودائِعَ وأَسْرارٍ .

ثانياً : الحُكْمُ بالعَدْلِ : ويَأْمُرُ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ أَنْ يَجْعَلوا أَحْكامَهُمْ قائِمَةً على العَدْلِ والحَقِّ ، ودَفْعِ الظُّلْمِ . وقَدْ أَقامَ اللهُ تَعالى مُلْكَهُ عَلى هَذيْنِ الأَمْرَيْنِ : الحَقِّ والعَدْلِ ، وذَلِكَ لأنَّ الأَحْكامَ إذا صاحَبَها الجورُ والظُّلْمُ أَدَّتْ إلى شَقاءِ الأَفْرادِ والجَماعاتِ ، وإلى ضَياعِ الحُقوقِ وفَسادِ النّاسِ .

وَيَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ فَقَدْ أَمَرَكُمْ بِأَداءِ الأمانَةِ وبالحُكْمِ بالعَدْلِ ، ومَدَحَ ما أَمَرَكُمْ بِهِ ، فَنِعْمَ الشَّيْءُ الّذي يَعِظُكُمْ بِهِ سُبْحانَهُ ، فَهُوَ لا يَعِظُكُمْ إلاّ بما فيهِ صَلاحُكُمْ وسَعادَتُكُمْ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، ولِذا عَلَيْكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَنْ تَعْمَلوا بِأَمْرِ اللهِ تَعالى وَوَعْظِهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ سَميعٌ لِما يَصْدُرُ مِنْكُمْ مِنْ حُكْمٍ سَواءٌ أكانَ فيهِ عَدْلٌ أَمْ ظُلْمٌ للآخَرينَ ، وهُوَ بَصيرٌ بِمَنْ يُؤَدِّي الأَماناتِ إلى أَصْحابِها ، أَوْ يَكْتُمُها ويَخونُها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ .

وتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَأْمُرَ المُؤْمِنينَ بطاعَةِ اللهِ تَعالى وطاعَةِ رَسولِهِ ﷺ وهُما مُتَلازِمَتانِ ، ومَعنى طاعَتِهِما : الالْتِزامُ بِأَوامِرِها واجْتِنابُ نَواهيهِما .

وتَأْمُرُهُمْ بِطاعَةِ أُولي الأَمْرِ ، وهُمُ الأُمَراءُ والحُكّامُ ورُؤَساءُ الجُنْدِ ، فَهؤلاءِ يَجِبُ عَلى المُؤْمِنينَ طاعَتُهُمْ ، ولَكِنْ في غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللهِ تَعالى ، فإذا أُمِروا بِما يَتنافى مَعَ شَرْعِ اللهِ تَعالى ، فلا يَجوزُ لأَحَدٍ طاعَتُهُمْ .

وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ لِيُبَيِّنَ أَنَّ طاعَةَ الرَّسولِ ﷺ مُسْتَقِلَّةٌ أَيْ : يَجِبُ طاعَتُهُ ، حتّى في الأُمورِ الّتي لَمْ تَرِدْ في كتابِ اللهِ تَعالى ، ولكِنَّها وَرَدَتْ في سُنَّتِهِ ﷺ ، أَمَّا أُولو الأَمْرِ فَطاعَتُهُمْ مُنْدَرِجَةٌ في طاعَةِ الرَّسولِ ﷺ ، قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ وبَيَّنَ سُبْحانَهُ ما الّذي يَجِبُ عَلى المُؤْمِنينَ إذا حَدَثَ فيما بَيْنَهُمْ نِزاعٌ واخْتِلافٌ ، وأَنَّ الواجِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْجِعوا إلى كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ ، وَقَدْ قالَ ﷺ : (ما نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فاجْتَنِبوهُ ، وما أَمَرْتُكُمْ بِهِ فافْعَلوا مِنْهُ ما اسْتَطَعْتُمْ ، فإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ مَسائِلِهِمْ واخْتِلافُهُمْ عَلى أَنْبِيائِهِمْ)[١] .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه ، حديث رقم ١٣٣٧

إنَكُمْ أيُّها النّاسُ إنْ كُنتُمْ تُؤْمِنونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ، فارْجِعوا في أُمورِكُمْ جَميعِها إلى كِتابِ اللهِ تَعالى وسُنَّةِ نبيِّهِ ﷺ . لأنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وأحْسَنُ تَأْويلاً وتَفْسيراً مِنْ تَأْويلاتِكُمُ البَعيدةِ عَنْ شَرْعِ اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لَقَدْ أعَدَّ اللهُ تَعالى عِقاباً عَظيماً لِلْكافِرينَ ، وفي المُقابِلِ أعَدَّ نَعيماً عَظيماً لِلْمُؤْمِنينَ بِهِ .

٢ـ الحَثُّ عَلى أداءِ الأَمانةِ ، والحُكْمُ بَيْنَ النّاسِ بالعَدْلِ والحَقِّ .

٣ـ الحَثُّ عَلى طاعَةِ اللهِ تَعالى وطاعَةِ الرَّسولِ ﷺ في كُلِّ أمْرٍ ونَهْيٍ .

٤ـ إطاعةُ أُولي الأَمْرِ واجِبَةٌ ، ما دامتْ طاعتُهُما لَيْسَتْ في مَعْصيةٍ .

٥ـ الواجِبُ عَلى المُسْلِمينَ إذا تَنازَعوا في أيِّ أَمْرٍ واخْتَلَفوا فيهِ أنْ يَرْجِعوا إلى كِتابِ اللهِ تَعالى وسُنَّةِ نَبيِّهِ ﷺ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ماذا تُفيدُ كَلِمَةُ (سَوْفَ) في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً﴾ ؟

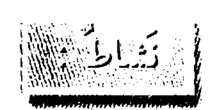
٢ـ ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ في هذهِ الآيةِ إعْجازٌ عِلْميٌّ اذْكُرْهُ مَعَ الشَّرْحِ .

٣ـ اذْكُرْ عَمَلَيْنِ مِنَ الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ الّتي لِلْمُؤْمِنِ .

٤ـ لِمَ أمَرَ اللهُ بالعَدْلِ بَيْنَ النّاسِ ؟ وما فائِدَةُ ذَلِكَ ؟

٥ـ ماذا تَسْتَفيدُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ ؟

٦ـ يُبيِّنُ اللهُ تَعالى المَصْدَرَ الّذي نتحاكَمُ إليهِ عِنْدَ الاختِلافِ . ما هذا المَصْدَرُ ؟ وما دَليلُ ذلِكَ ؟



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيْفَ يَكونُ عَذابُ أَهْلِ النّارِ بِما يَشْرَبونَهُ مِنْ حَميمٍ وغَسّاقٍ مَعَ ذِكْرِ الدَّليلِ .

٢ـ الأحاديثُ في أداءِ الأمانةِ كَثيرةٌ ، هاتِ حَديثاً ممّا رُوِيَ عَنْ النَّبيِّ ﷺ واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً شَريفاً يُحدِّدُ مَتى تَكونُ طاعةُ المَخْلوقِ واجِبةً .

فكّرْ :

١ـ أمَرَنا اللهُ بِطاعَتِهِ وأَمَرَنا بطاعةِ رَسولِهِ ﷺ ثُمَّ قالَ ﴿وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ماذا تَفْهَمُ مِنْ هذا ؟

٢ـ أمَرَنا اللهُ تَعالى عِنْدَ الاخْتِلافِ أنْ نَرْجِعَ إلى كِتابِ اللهِ تَعالى وسُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ ، ولَمْ يَقُلْ لَنا ارْجِعوا إلى أُولي الأَمْرِ مِنْكُمْ . لِماذا ؟

* * *

الدَّرسُ الثَّامنَ عَشَرَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثّامِنَ عَشَرَ

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- يَزْعُمونَ : يَقولونَ حَقّاً كانَ أوْ باطِلاً ، وكَثُرَ اسْتِعْمالُهُ في الباطِلِ .
- الطّاغوتِ : مِنَ الطُّغيانِ وهُوَ البُعْدُ عَنِ الحَقِّ .
- صُدوداً : إعْراضاً عَنِ الحَقِّ .
- أعرِضْ عَنْهُمْ : اصْرِفْ وَجْهَكَ عَنْهُمْ .
- عِظْهُمْ : ذكِّرْهُمْ بالخَيْرِ .
- قَوْلاً بَليغاً : قَوْلاً يَكونُ لَهُ أثَرُهُ في نُفوسِهِمْ .

التَّفسيرُ :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ .

لَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ تَعالى طاعَتَهُ عَلى الّذين آمَنوا وأَمَرَهُمْ بالتَّحاكُمِ إلى شَرْعِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى إلاّ أنَّ

هُناكَ فَرِيقاً يَعيشُ بَيْنَ المُؤْمِنينَ لا يُطيعونَ الرَّسولَ ولا يَرْضَوْنَ بِحُكْمِهِ ، بَلْ يُريدونَ حُكْمَ غَيْرِهِ ، وهُمْ فَريقُ المُنافِقينَ .

لَقَدْ جاءَتِ الآياتُ تَعْجَبُ مِنْ حالِ أولئِكَ المُنافِقينَ الّذينَ يَزْعُمونَ أنَّهُمْ آمَنوا بِما أَنْزَلَ اللهُ تَعالى وَوَصَلَ إلى نَبيِّهِ مُحمَّدٍ مِمّا أَوْحاهُ اللهُ تَعالى إليهِ ، ويَزْعُمونَ أنَّهُمْ يُؤْمِنونَ كَذلِكَ بِما أُنْزِلَ عَلى الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ قَبْلُ ، ومَعَ ذَلِكَ فَهُمْ يَفْعَلونَ ما يَتناقَضُ مَعَ هذا الإيمانِ الّذي يَدَّعونَهُ ، وذَلِكَ أنَّ الإيمانَ يَعْني الإِذْعانَ الكامِلَ للهِ تَعالى ورَسولِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ولكنَّ هَؤلاءِ المُنافِقينَ لا يُريدونَ أنْ يُذعِنوا للهِ ورَسولِهِ ، بَلْ يُريدونَ التَّحاكُمَ إلى الطّاغوتِ ، أيْ : مَصْدرِ الطُّغيانِ والضَّلالِ ، والمَقْصودُ بالطّاغوتِ الّذي يُريدونَ التَّحاكُمَ إلَيْهِ هُوَ : كَعْبُ بنُ الأَشْرفِ ، وهُوَ مِنْ أَحْبارِ اليَهودِ كَما قالَ ابنُ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ .

إنَّ هَؤلاءِ المُنافِقينَ يُريدونَ التَّحاكُمَ إلى الطّاغوتِ . والحالُ أنَّ اللهَ تَعالى أمَرَهُمْ بالكُفْرِ بِهِ ، وأَمَرَهُمْ بالانْقيادِ إلى أَحْكامِهِ وشَرائِعِهِ ، ولَكنَّ الشَّيْطانَ يُريدُ أنْ يُضِلَّهُمْ ويُبعِدَهُمْ عَنِ الحَقِّ ، وهذا أَمْرٌ عَجيبٌ مِنْهُمْ ، فَهُمْ يَتَّبِعونَ مَنْ يُريدُ إضْلالَهُمْ وإبْعادَهُمْ عَنِ الحَقِّ ! ! ويَرْفُضونَ دَعْوَةَ مَنْ يدعُوهُمْ إلى الحَقِّ والهُدى .

لَقَدْ جاءَتِ الآيَةُ لِتُنْكِرَ عَلى مَنْ يَدّعي الإيمانَ بِما أَنْزَلَ اللهُ عَلى رَسولِهِ وعَلى الأَنْبياءِ السَّابِقينَ ، ومَعَ ذَلِكَ يَدَّعي التَّحاكُمَ في فَصْلِ خُصوماتِهِ إلى غَيْرِ كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ .

إنَّ هَؤلاءِ مُعْرِضونَ عَنِ الحَقِّ ، فَهُمْ إذا قيلَ لَهُمْ تَعالوا لِنَعْمَلَ بِما أَنْزَلَ اللهُ تَعالى في كِتابِهِ ، ونَحْتَكِمَ إليهِ ، وإلى الرَّسولِ ﷺ لِيَحْكُمَ بَيْنَنا بِما عَلَّمَهُ اللهُ تَعالى ، رَأَيْتَهُمْ يُعْرِضونَ عَنْكَ إعْراضاً شَديداً ، ولا يَمْتَثِلونَ لأَمْرِكَ .

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾ .

وإذا كانَ هَؤلاءِ المُنافِقونَ لا يَقبَلونَ التَّحاكُمَ إلى اللهِ ورَسولِهِ ﷺ ، فَكَيْفَ يَكونُ حالُهُمْ إذا أصابَتْهُمْ مُصيبةٌ بِسَبَبِ تَرْكِهِمْ حُكْمَ اللهِ تعالى . ولَقَدْ أَطْلَعَ اللهُ تَعالى رَسولَهُ ﷺ عَلى ما كانَ مِنْ إعْراضِهِمْ عَنِ الحَقِّ وعَنِ التَّحاكُمِ إليْهِ ، وبَيَّنَ لَهُ أنَّهُمُ اضْطَروا بِسَبَبِ ما أصابَهُمْ أنْ يَرْجِعوا إلَيْكَ يا مُحَمَّدُ يَعْتَذِرونَ إلَيْكَ ويَحْلِفونَ لَكَ ، إنَّنا ما أرَدْنا بالتَّحاكُمِ إلى غَيْرِكَ يا مُحَمَّدُ إلاّ إحْساناً إلى المُتخاصِمينَ ، وتَوْفيقاً بَيْنَهُمْ حتَّى لا يَتَّسِعَ الخِلافُ بَيْنَهُمْ ، إنَّهُم يَحْلِفونَ باللهِ كاذِبينَ مُخادِعينَ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ .

ولكنَّهُ سُبْحانَهُ لَيْسَ غافِلاً عَنْ أعمالِهِمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَعْلَمُ ما في قُلوبِهِمْ مِنَ الكُفْرِ والحِقْدِ ، والكَيْدِ وتَرَبُّصِ الدَّوائِرِ بالمُؤْمِنينَ ، ولِذا عَلَيْكَ يا مُحمَّدُ أنْ تُعامِلَهُمْ بأُمورٍ ثلاثةٍ :

١ـ الإعراضُ عَنْهُمْ ، وعَدَمُ الإقْبالِ عَلَيْهِمْ ، وهذا يُشْعِرُهُمْ بالخَوْفِ والرَّهْبَةِ مِنْ سوءِ عاقِبَتِهِمْ .

٢ـ النُّصْحُ والتَّذْكيرُ بالخَيْرِ بأُسلوبٍ يُرَقِّقُ قُلوبَهُمْ ويَدْفعُهُمْ إلى التَّأَمُّلِ فيما يَعِظُهُمْ بهِ ، وهذا يَكونُ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ .

٣ـ القَوْلُ البَليغُ المؤثِّرُ في نُفوسِهِمْ ، بِحَيْثُ يَسْتَشْعِرونَ مِنْهُ الخَوْفَ ، وذَلِكَ بأنْ يَتوعَّدَهُمْ بالقَتْلِ والاسْتِئْصالِ إنِ اسْتَمرّوا عَلى نِفاقِهِمْ ، إذْ لا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الكافِرينَ في العَقيدةِ ، وأنْ يُخْبِرَهُمْ أنَّ ما في قُلوبِهِمْ مِنَ النِّفاقِ مَعْلومٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى ، ولِذا عَلَيْكُمْ أنْ تُصْلِحوا أنْفُسَكُمْ وتُطَهِّروا قُلوبَكُمْ وتُداووها مِنْ مَرَضِ النِّفاقِ وإلاّ حَلَّ بِكُمْ غَضَبُ اللهِ وعِقابُهُ .

وهَذهِ الطُّرقُ الّتي أرْشَدَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ إلى اسْتِخْدامِها هِيَ مِنَ أفْضَلِ الأَساليبِ الّتي يَسْتَخدِمُها الدُّعاةُ في دَعْوَتِهِمْ ، كَيْفَ لا وهِيَ تَوْجيهاتٌ إلهيَّةٌ مِنْ عَليمٍ حكيمٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حَثُّ المُسْلِمِ عَلى الاحْتِكامِ إلى اللهِ تَعالى وإلى رَسولِهِ ﷺ .

٢ـ مَنْ أعْرَضَ عَنْ حُكْمِ اللهِ مُتَعَمِّداً وهُوَ يدَّعي الإيمانَ كانَ مُنافِقاً خالِصاً .

٣ـ مِنْ أساليبِ الدَّعْوَةِ الإعْراضُ عَنِ العُصاةِ وعَدمُ الانْتباهِ لَهُمْ ، والنُّصْحُ والتَّذْكيرُ لَهُمْ ، والقَوْلُ البَليغُ المُؤثِّرُ في نُفوسِهِمْ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ ما كانَ يَزْعُمُهُ المُنافِقونَ تجاهَ مُحمَّدٍ ﷺ والقُرآنِ .

٢ـ هَلْ كانَ اليَهودُ مُؤْمِنينَ حَقّاً ؟ وما الإيمانُ الصَّحيحُ ؟

٣ـ إلى مَنْ يَتحاكَمُ اليَهودُ لِحَلِّ نِزاعاتِهِمْ ؟

٤ـ ما مَوْقِفُ المُنافِقينَ مِمَّنْ يَقولُ لَهُمْ تَعالوا لِنَتحاكَمَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ؟

٥ـ كَيْفَ كانَ حالُ المُنافِقينَ عِنْدَما تُصيبُهُمْ مُصيبَةٌ ما ؟

٦ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أَنَّهُ يَنْبَغي عَلى الرَّسولِ أَنْ يُعامِلَ المُنافِقينَ بِأُمورٍ ثَلاثَةٍ ، ما تِلْكَ الأُمورُ ؟ اذْكُرْها مُرَتَّبَةً كَما جاءَ في الآيَةِ الكَريمَةِ .

٧ـ ما المَقْصودُ بالقَوْلِ البَليغِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في حُدودِ الصَّفْحَةِ مَوْضوعاً يُبَيِّنُ مَنْهَجَ الرَّسولِ ﷺ في وَعْظِ العُصاةِ والمُذْنِبينَ ، واقْرأْهُ عَلى طَلَبَةِ مَدْرَسَتِكَ في طابورِ الصَّباحِ .

* * *

الدَّرسُ التَّاسِعَ عَشَرَ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ التّاسِعَ عَشَرَ

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يُحَكِّموكَ : يُفوِّضوا الأَمْرَ إليكَ ، ويَطْلُبوا الحُكْمَ في خُصوماتِهِمْ مِنْ سُنَّتِكَ .

شَجَرَ بينَهُم : حَصَلَ بيْنَهُمْ مِنْ أُمورِ الخِلافاتِ ، وتَنازُعِهِمْ فِيها .

قَضَيْتَ : حَكَمْتَ .

تَسليماً : انْقِياداً وإِذْعاناً .

التَّفسيرُ :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ .

إنَّ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعالى ورَحْمَتِهِ أنْ أَرْسَلَ لِخَلْقِهِ الرُّسُلَ الّذينَ يَهْدونَهُمْ إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ ، وهُوَ سُبْحانَهُ ما أَرْسَلَ الرُّسُلَ إلاّ لِيُطاعوا بإذْنِ اللهِ تَعالى فيما أَمَروا بِهِ ونَهوا عَنْهُ ، فَمَنْ خَرَجَ عَنْ

طاعَتِهِمْ أوْ رَغِبَ عَنْ حُكْمِهِمْ ، خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللهِ تَعالى وسُنَّتِهِ ، وارْتَكَبَ أَعْظَمَ الآثام .

وَلَوْ أَنَّ أُولئِكَ القَوْمَ حينَ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ بِسَبَبِ تَحاكُمِهِمْ إلى الطّاغوتِ وعَدَم تَحاكُمِهِمْ إلى اللهِ تَعالى ورَسولِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، لَوْ أَنَّهُمْ جاءُوكَ يا مُحمَّدُ فاسْتَغْفَروا اللهَ تَعالى مِنْ هذا الذَّنْبِ العَظيمِ الّذي ارْتَكَبوهُ ، ونَدِموا على ما فَرَّطوا ، وتابوا تَوْبَةً نَصوحاً ، واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسولُ وسَأَلَ اللهَ تَعالى أنْ يَمْحُوَ عَنْهُمْ ذُنوبَهُمْ ويَغْفِرَ لَهُمْ ، لَتَقبَّلَ اللهُ تَوْبَتَهُمْ ولَوَجَدوهُ مُتَفَضِّلاً عَلَيْهِمْ بالرَّحْمَةِ . إنَّ الذَّنْبَ الّذي ارْتَكَبوهُ لَمْ يَكُنْ ظُلْماً لأَنْفُسِهِمْ فَحَسْبُ ، ولَكنَّهُ إيذاءٌ للرَّسولِ ﷺ ، إذْ لَمْ يَتقبَّلوا حُكْمَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، فَكانَ لابُدَّ مِنَ اسْتِغْفارِهِمُ اللهَ تَعالى واسْتِغفارِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كَذلِكَ .

إنَّ كُلَّ مَنْ يَدَّعي الإيمانَ ، لَنْ يَكونَ إيمانُهُ صَحيحاً صادِقاً ، إلاّ إذا قَبِلَ حُكْمَ الرَّسولِ ﷺ ولِذلِكَ أَقْسَمَ اللهُ تَعالى بِرُبوبيَّتِهِ لِرَسولِهِ ﷺ ، بأنَّ أُولئِكَ الّذينَ رَغِبوا عَنِ التَّحاكُمِ إلَيْكَ إنَّما هُمْ مِنَ المُنافِقينَ .

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ .

يُقْسِمُ اللهُ تَعالى أنَّ الإيمانَ الصّادِقَ لا يَتحقَّقُ إلاّ بهذِهِ الأُمورِ الثَّلاثةِ :

١ـ أنْ يُحكِّموا الرَّسولَ ﷺ في أُمورِهِمْ وقَضاياهُمُ الّتي يَخْتَصِمونَ فيها .

٢ـ أنْ لا يَجِدوا في أَنْفُسِهِمْ ضيقاً وحَرَجاً ممّا حَكَمَ بِهِ الرَّسولُ ، فالمُؤْمِنُ صادِقُ الإيمانِ هُوَ الّذي يَتَقبَّلُ حُكْمَ رَسولِ اللهِ ﷺ مُنْشَرِحاً بِهِ صَدْرُهُ .

٣ـ الانْقيادُ والتَّسليمُ لِذلِكَ الحُكْمِ .

وَقَدْ رُوِيَ في سَبَبِ نُزولِ الآيةِ عَنْ عُروةَ قالَ : خاصمَ الزُّبيرُ رَجُلاً مِنَ الأَنْصارِ في شُريجِ مِنَ الحرَّةِ ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ : اسْقِ يا زبيرُ ، ثُمَّ أَرْسِلِ الماءَ إلى جارِكَ ، فقالَ الأنصاريُّ : يا رسولَ اللهِ : أنْ كانَ ابنَ عَمَّتِكَ ، فتلوَّنَ وجْهُهُ ثُمَّ قالَ : اسْقِ يا زبيرُ ثُمَّ احْبِسِ الماءَ حتّى يَرْجِعَ إلى الجَدْرِ ، ثُمَّ أَرْسِلِ الماءَ إلى جارِكَ . واسْتَرعَى النَّبيُّ ﷺ للزُّبيْرِ حَقَّهُ في صَريحِ الحُكْمِ ، حينَ أَحْفَظَهُ الأَنْصاريُّ ، كانَ أشارَ عَلَيْهِما بأَمْرٍ لَهُما فيهِ سَعَةٌ ، قالَ الزُّبيرُ : فَما أَحْسَبُ هذهِ الآياتِ إلاّ نَزَلَتْ في ذَلِكَ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[1] .

إنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ إلاّ بِتَحْكيمِ الرَّسولِ ﷺ فيما شَجَرَ بَيْنَ المُتَخاصِمينَ مِنْ خِلافٍ ، ولَكِنَّ كَثيراً مِنَ النّاسِ لِضَعْفِ إيمانِهِمْ يُقصِّرونَ في هذا الأَمْرِ ، ولِذا قالَ سُبْحانَهُ :

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في كتاب التفسير ، سورة النساء ، حديث رقم (٤٣٠٩) .

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾ .

لَوْ أَنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى فَرَضَ عَلى النّاسِ جَميعاً أنْ يَقْتلوا أنْفُسَهُمْ ، ويُعَرِّضوها لِلْهَلاكِ ، أوْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ أنْ يَخْرُجوا مِنْ ديارِهِمْ فَيُهاجِروا مِنْها ، ما فَعَلَهُ إلاّ قليلٌ مِنْهُمْ . وهذا الدِّينُ لَمْ يُنْزِلْهُ اللهُ تَعالى لِهذا القَليلِ فقط ، وإنَّما جاءَ لِلنَّاسِ جَميعاً ولِذلِكَ فإنَّهُ سُبْحانَهُ لَمْ يَكْتُبْ عَلَيْكُمْ أيُّها النّاسُ هذهِ التَّكاليفَ الشّاقَّةَ ، بَلْ إنَّهُ سُبْحانَهُ رَحْمةً بِعبادِهِ ، اكْتَفَى بِتَكْليفِهِمْ ما يَسْتطيعُونَهَ ولا يُكلِّفُهُمْ إلاّ وُسْعَهُمْ .

﴿ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾ .

وَلَوْ ثَبَتَ أَنَّهُمْ فَعلوا ما أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ اتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ ، والانْقيادِ لِحُكْمِهِ ، لَكانَ هذا الّذي فَعَلوهُ خَيْراً لَهُمْ في دُنْياهُمْ وآخِرَتِهِمْ ، ولَكانَ أشَدَّ تَثْبيتاً لَهُمْ عَلى الحَقِّ والصَّوابِ ، ولأَعْطاهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ عِنْدِهِ ثَواباً عَظيماً لا يَعْرِفُ مِقْدارَهُ إلاّ اللهُ تَعالى ، ولَهَداهُمُ اللهُ تَعالى إلى سُلوكِ الطَّريقِ المُسْتَقيمِ ؛ طَريقِ الإسْلامِ .

هذا وَعْدٌ مِنَ اللهِ تَعالى لِكُلِّ مَنْ يُطيعُهُ ويُطيعُ رَسولَهُ ﷺ ، وَوَعْدُ اللهِ تَعالى لا يَتَخلَّفُ ، ولَقَدْ فَخَّمَ اللهُ سُبْحانَهُ هذا العَطاءَ في قَوْلِهِ حيثُ أَسْنَدَهُ إلى (نا) العَظمةِ ، فالمُعْطي كَريمٌ والعَطِيَّةُ عَظيمةٌ لِهذا الإنْسانِ ، نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أنْ نَكونَ مِمَّنْ يُطيعونَ اللهَ ورَسولَهُ ﷺ في كُلِّ أَمْرٍ ونَهْيٍ ، لِيَنالوا الأَجْرَ العَظيمَ ، ويَهديَهُمُ اللهُ الصِّراطَ المُسْتَقيمَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إرْسالُ الرُّسُلِ نِعْمَةٌ عَظيمةٌ أنْعَمَها اللهُ تَعالى عَلى البَشَرِ ، فَعَلَيْهِمْ أنْ يُطيعُوهُمْ ويَلْتَزِموا بِما جاءوا بِهِ .

٢ـ الإيمانُ الصّادِقُ هُوَ الّذي يَدْفَعُ صاحِبَهُ إلى الإذْعانِ لِحُكْمِ اللهِ تَعالى وحُكْمِ رَسولِهِ ﷺ .

٣ـ المُسارَعَةُ إلى اسْتِغفارِ اللهِ تَعالى مِنَ الصَّغائِرِ والكَبائِرِ الّتي يَقْتَرِفُها الإنْسانُ .

٤ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى بِعِبادِهِ أنَّهُ لَمْ يُكلِّفْهُمْ إلاّ ما في وُسْعِهِمْ ، فَعَلَيْهِمْ أنْ يَلْتَزِموا بِما أمرَهُمُ اللهُ بِهِ .



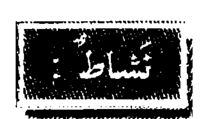
أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ إرْسالِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ للنّاسِ ؟

٢ـ لِمَ طَلَبَ اللهُ مِنَ القَوْمِ الّذينَ تحاكَموا إلى الطّاغوتِ أنْ يَسْتَغْفِروا اللهَ ويَطْلبوا مَغْفِرَةَ الرَّسولِ ﷺ ؟

٣ـ الإيمانُ الصّادِقُ لا يَتِمُّ إلاّ بِأُمورٍ ثَلاثةٍ ، اذْكُرْها .

٤ـ ما سَبَبُ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ ؟



ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ آخِرَ آيةٍ مِنْ سورةِ البَقَرةِ .

* * *

الدَّرْسُ العِشرونَ

سورةُ النِّساءِ - القِسْمُ العِشْرونَ

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

خُذوا حِذْرَكُمْ : كونوا عَلى حَذَرٍ مِنْ عَدوِّكُم .

انْفِروا : اخْرُجوا للجِهادِ .

ثُباتٍ : جَمْعُ ثُبَةٍ ، وهِيَ الجماعةُ تَخْرُجُ إثْرَ جماعةٍ .

لَيُبطِّئَنَّ : لَيتثاقَلَنَّ ويَتأخَّرَنَّ عَنِ الجِهادِ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ رَغَّبَتِ الآياتُ السّابِقَةُ في طاعةِ اللهِ تَعالى وطاعةِ رَسولِهِ ﷺ ، وبَيَّنَتْ أنَّ في هذا خَيْراً وهِدايةً . وجاءتِ الآياتُ هُنا لِتُبيِّنَ حُسْنَ عاقِبةِ مَنْ أطاعَ اللهَ ورَسولَهُ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾ .

إنَّ مَنْ يُطيعُ اللهَ ورَسولَهُ ، فَيَفْعَلُ كُلَّ ما أمَرَ اللهُ ورَسولُهُ بِهِ ، ويَتْرُكُ كُلَّ ما أمَرَ باجْتِنابِهِ ، يَكونُ

يَوْمَ القِيامةِ في صُحْبَةِ صَفْوةِ اللهِ مِنْ عِبادِهِ ، وهُمْ :

١ـ النَّبيّونَ : وبَدَأَ بِهِمْ سُبْحانَهُ لِعُلوِّ دَرَجَتِهِمْ ، وهُمْ أنبياءُ اللهِ وصَفْوتُهُ مِنْ خَلْقِهِ .

٢ـ الصِّدِّيقونَ : وهُمُ الّذينَ صَدَّقوا بِكُلِّ ما جاءَ بِهِ الأَنْبياءُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وصَدَقوا في دِفاعِهِمْ عَنْ عَقيدَتِهِم .

٣ـ الشُّهداءُ : وهُمُ الّذينَ اسْتُشْهِدوا في سبيلِ اللهِ تَعالى ، وبَذلوا أرْواحَهُمْ في سَبيلِهِ .

٤ـ الصَّالِحونَ : وهُمُ الّذينَ أصْلَحوا نُفوسَهُمْ ، واسْتَقاموا وأدّوا ما يَجِبُ عَلَيْهِمْ نَحْوَ ربِّهِمْ سُبْحانَهُ وتَعالى .

وما أحْسَنَ مُرافَقَةِ هؤلاءِ الّذينَ يُرافِقُهُمْ المُؤْمِنُ الطّائِعُ لِربِّهُ يَوْمَ القيامَةِ ، وقَدْ رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبيِّ ﷺ : المرءُ مَعَ مَنْ أحبَّ[١] . (وعَنْ ربيعةَ بنِ كَعْبٍ الأَسْلَميِّ قالَ : كُنْتُ أَبيتُ مَعَ رَسولِ اللهِ فَأَتيتُهُ بِوَضوئِهِ وحاجَتِهِ فَقالَ لي : سَلْ ، فَقلتُ : أَسْأَلُكَ مُرافقَتَكَ الجنَّةَ ، فقالَ : أوَ غَيْرَ ذلِكَ ، قلتُ هُوَ ذاكَ ، قالَ فأعنِّي على نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجودِ)[٢] .

وَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾

أيْ : ذلكَ الفَضْلُ العَظيمُ الّذي تَفَضَّلَ بِهِ سُبْحانَهُ عَلى عِبادِهِ المُؤْمِنينَ هُوَ مِنَ اللهِ تَعالى لا مِنْ غَيْرِهِ سُبْحانَهُ ، وكَفَى بِهِ سُبْحانَهُ عَليماً بالعُصاةِ والمُطيعينَ ومَنْ يَستَحِقُّ فَضْلَهُ سُبْحانَهُ وعَطاءَهُ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَحُثَّ المُؤْمِنينَ عَلى الاسْتِعْدادِ للجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، لِيَكونوا مِمَّنْ يَسْتَحِقُّونَ مُرافَقَةَ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصّالِحينَ ، وقَدْ ناداهُمْ سُبْحانَهُ بهذا النِّداءِ المُحبَّبِ إلى قُلوبِهِمْ واصِفاً إيّاهُمْ بَصِفَةِ الإيمانِ ، لِيَحُثَّهُمْ عَلى الالتزام بما يَأْمُرُهُمْ ، يَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى : احْتَرِسوا واسْتَعِدُّوا لاتِّقاءِ شَرِّ العَدوِّ وذلِكَ بأنْ تَعْرِفوا حالَ العَدوِّ ، وَمَدى اسْتِعدادِهِ وقُوَّتِهِ ، وتَعْرِفوا أرْضَهُ وبِلادَهُ وأَسْلِحَتَهُ . وكُلُّ هذا يَدْخُلُ تَحْتَ الأَمْرِ بالحَذَرِ .

وقَدْ كانَ الرّسولُ ﷺ والصَّحابَةُ عَلى عِلْمٍ بِأَرْضِ العَدْوِ ، وقَدْ كانَ لَهُمْ عيونٌ يَأتونَهُمْ بأَخبارِ العدوِّ ، فَقَدْ أَخْبَروهُ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ بأنَّ قُرَيْشاً قَدْ نَقَضَتِ العَهْدَ الّذي وَضَعَهُ النَّبيُّ ﷺ عامَ الحُدَيْبيَةِ .

وَقَدْ أَمَرَهُمْ سُبْحانَهُ بَعْدَ أَخْذِ الحَذَرِ ، وبَعْدَ أنْ يَعْرِفوا عَدوَّهُمْ أنْ يَخْرُجوا إلى قِتالِهِ جَماعَةً في إثْرِ

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، باب علامة حب الله ، حديث رقم ٥٨١٦ .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الصلاة ، باب فضل السجود والحث عليه ، حديث رقم ٤٨٨ .

جَماعةٍ ، بأنْ يَكونوا فَصائلَ وجَماعاتٍ مُتَتابِعَةً إذا كانَ الجَيْشُ كَبيراً ، أوْ يَخْرُجوا كُلُّهُمْ مَرَّةً واحِدَةً ، أيْ : مُجْتَمِعينَ في جَيْشٍ واحِدٍ . فَهُوَ ـ إذَنْ ـ يَأْمُرُهُمْ أنْ يَخْرُجوا مُتَفرِّقينَ حَسَبَ ما تَقْتَضيهِ المَعْرَكَةُ ، وهذا يَقْتَضي أنْ تَكونَ الأُمَّةُ كُلُّها مُسْتَعِدَّةً لِلْقِتالِ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَوْبيخِ ضِعافِ الإيمانِ الّذينَ يَتثاقَلونَ عَنِ القِتالِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾ .

مِنْكُمْ أيُّها المُؤْمِنونَ مَنْ يَعيشُ بَيْنَكُمْ ، ولكنَّهُمْ يُظْهِرونَ الإيمانَ ويُبْطِنونَ الكُفْرَ ، أو مِمَّنْ هُمْ ضِعافُ الإيمانِ . إنَّ هَؤلاءِ يَتثاقَلونَ ويَتأخَّرونَ عَنِ الجِهادِ ، وقَدْ جاءَتْ كَلِمَةُ (لَيُبَطِّئَنَّ) تُصوِّرُ الحَرَكَةَ النَّفْسِيَّةَ للمُنافِقينَ وضِعافِ الإيمانِ ، فَهُمْ يَشدُّونَ أنْفُسَهُمْ شَدّاً ، يُقدِّمونَ رِجْلاً ويُؤَخِّرونَ أُخرى عِنْدَما يَدْعوهُمْ داعي الجِهادِ إلى الخُروجِ مِنْ أَجْلِ إعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى . إنَّ المُنافِقينَ لا يُحبُّونَ أنْ يَبْقى الإسْلامُ وأهْلُهُ ، ولِذلِكَ تَجِدُهُمْ يُبَطِّئونَ بِأَنْفُسِهِمْ ويُبَطِّئونَ غَيْرَهُمْ عَنِ القِتالِ ، وضِعافُ الإيمانِ يُبَطِّئونَ بِأَنْفُسِهِمْ خَوْفاً مِنَ المَوْتِ وحُبّاً في الحياةِ .

وقَدْ فَصَّلتِ الآياتُ أَحْوالَ هَؤلاءِ المُنافِقينَ ، قالَ تَعالى : ﴿ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ إنْ أَصابَتْكُمْ أيُّ مُصيبةٍ كالهَزيمةِ في المَعْرَكَةِ ، أوِ القَتْلِ ، قالَ هذا المُنافِقُ فَرِحاً مُخْتالاً : لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عليَّ بأنْ قَعَدْتُ ولَمْ أَخْرُجْ لِلْقِتالِ ، إذْ لَوْ كُنْتُ حاضِراً مَعَهُمْ في المَعْرَكَةِ لأَصابَني ما أصابَهُمْ مِنْ قَتْلٍ وجِراحٍ وآلامٍ .

﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ .

أمّا إذا كانَ النَّصْرُ والظَّفَرُ لِلْمُسْلِمينَ ، وغَنِموا في المَعْرَكَةِ فإنَّ هذا المُنافِقَ يَقولُ نادِماً مُتَحسِّراً ـ وكَأنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ ولَمْ تَجْمَعْهُ بِكُمْ مَودَّةٌ : لَيْتَني كُنْتُ مَعَهُمْ في المَعْرَكَةِ وقاتَلْتُ مَعَهُمْ ، لأَفوزَ بِما فازوا بِهِ مِنَ الغَنائِمِ والسَّبايا . ولَكنَّ ضَعْفَ إيمانِهِ وجُبْنَهُ مَنَعَهُ مِنْ أنْ يَكونَ في المَعْرَكَةِ وفَوَّتَ عَلَيْهِ الفَوْزَ بالغَنائِمِ .

لَقَدْ جاءَتِ الآياتُ لِتَسْخَرَ مِنْ حالِ المُنافِقينَ وتَفْضَحَ نَواياهُم ، لَقَدْ كانَ في إمْكانِهِمْ أنْ يَخْرُجوا لِلْقتالِ وأنْ يَنالوا نَصيبَهُمْ مِنَ الغَنائِمِ ، ولَكنَّهُمْ لِجُبْنِهِمْ لَمْ يَفْعَلوا ، فَتحسَّروا ونَدِموا وتَمَنَّوْا أنْ لَوْ كانوا مَعَ المُجاهِدينَ المُؤْمِنينَ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مَنْ أطاعَ اللهَ ورَسولَهُ أكْرَمَهُ اللهُ بالمَنْزِلَةِ الرَّفيعةِ وأكْرَمَهُ بِصُحْبَةِ عِبادِهِ وهُمُ النبيُّونَ والصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ والصّالِحونَ .

٢ـ عَلى الأُمَّةِ المُسْلِمةِ أَخْذُ الحَيْطةِ والحَذَرِ دائِماً ، وذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ عُدَوِّها وعُدَدِهِ وسِلاحِهِ .

٣ـ الأُمةُ المُسْلِمَةُ كُلُّها مُطالَبةٌ بالتَّدرُّبِ عَلى فُنونِ القِتالِ ، حَتّى تَخوضَ المَعْرَكَةَ مَعَ العدوِّ مَتى اضْطرّتْ لِذلِكَ .

٤ـ إذا دعا داعي الجِهادِ فَعلى المُؤْمِنينَ تَلبيةُ الدُّعاءِ ، والخُروجُ عَلى الفَوْرِ دونَ تَسْويفٍ أو تَكاسُلٍ حتّى لا يَكونوا مِنَ المُنافِقينَ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أنَّ الّذي يُطيعُ اللهَ وَرَسولَهُ سَوْفَ يُحْشَرُ يَوْمَ القِيامةِ مَعَ صَفْوةٍ مِنْ عِبادِهِ ، اذْكُرْهُمْ مُرَتَّبينَ كَما جاءَ في الآيَةِ .

٢ـ لِمَ خُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ﴾ ؟

٣ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ حالَ المُنافِقينَ ، بيِّنْ حالَهُمْ في كُلٍّ مِنَ الحالاتِ الآتيةِ :

أـ عِنْدَ النفيرِ والإعدادِ لِلْجهادِ .

ب ـ عِنْدَما يَلْحَقُ بالمُؤْمِنينَ شَرٌّ .

ج ـ عِنْدَما يُحقِّقُ المُسْلِمونَ نَصْراً ويَكْسِبونَ غَنائِمَ مِنَ المَعْرَكَةِ .

٤ـ فَسِّرْ كُلاً ممّا يَلي :

أـ ﴿وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾ .

ب ـ ﴿فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً﴾ .

ج ـ ﴿كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ في أيِّ سَنَةٍ كانَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ ؟ وفي أيِّ سَنَةٍ كانَ فَتْحُ مَكَّةَ ؟ اكْتُبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبِ الآيةَ الّتي تُبيِّنُ حالَ المُنافِقينَ عِنْدَ الصَّلاةِ ، وذِكْرِ اللهِ تَعالى .

* * *

الدَّرسُ الحادي والعشرون

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الحادي والعِشْرونَ

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

سَبيلِ اللهِ : إعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ونَشْرِ دينِهِ .

يَشْرونَ : يَبيعونَ .

أَوْلياءَ الشَّيْطانِ : أَتْباعَهُ وأعْوانَهُ .

كيدَ : سَعْياً في الفَسادِ ، وتخطيطاً لإلحاقِ الضَّرَرِ بالغَيْرِ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ فَرَضَ اللهُ تَعالى الجِهادَ عَلى المُسْلِمينَ لِنَشْرِ دَعْوَةِ الإسْلامِ ، وتَأْمينِ وُصولِها إلى البَشَرِيَّةِ جَمعاءَ ، فَهُوَ الوَسيلةُ الوَحيدةُ لِتَخْليصِ الشُّعوبِ والأُمَمِ مِنَ القَهْرِ والظُّلْمِ والاسْتِبْدادِ ، ولإعْطائِها الحَقَّ في اخْتِيارِ العَقيدةِ الّتي تُريدُها وتَرْضَى بها ، وفَرَضَهُ اللهُ تَعالى مِنْ أَجْلِ رَدِّ عُدوانِ الكُفّارِ عَلى المُسْلِمينَ والدِّفاعِ عَنِ الوَطَنِ والأَرْضِ . وَدَفْعُ المُعْتَدينَ والطّامِعينَ حَقٌّ لكلِّ مُسْلِمٍ وَواجِبٌ عَلَيْهِ .

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وَقَدْ جاءَتِ الآياتُ تَأْمُرُ المُؤْمِنينَ بالقِتالِ ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أيْ : إنْ كانَ المُنافِقونَ قَدْ أبطأوا وتَأَخَّروا عَنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ ، فَلْيُقاتِلِ المُؤْمِنونَ صادِقو الإيمانِ ، الَّذينَ يَبيعونَ الحياةَ الدُّنْيا وما فيها مِنْ مُتَعٍ وشَهَواتٍ ، مِنْ أَجْلِ الحُصولِ عَلى رِضْوانِ اللهِ تَعالى وجَزيلِ عَطاياهُ وعَظيمِ ثَوابِهِ يَوْمَ القِيامَةِ ، ولَقَدْ أَكْرَمَ اللهُ المُؤْمِنينَ فَبيَّنَ لَهُمْ أجْرَهُمْ ، قالَ تَعالى : ﴿ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ومَنْ يُقاتِلْ مِنْ أجْلِ إعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، فَسَوْفَ يُؤْتيهِ اللهُ أجْراً عَظيماً مِنْ عِنْدِهِ ، لا يَعْلَمُ مِقْدارَهُ إلاّ اللهُ تَعالى ، مَهْما كانَتْ نَتيجَةُ القِتالِ ، أيْ : سَواءٌ اسْتُشْهِدَ وظَفَرَ بِهِ عدوُّهُ وتَغَلَّبَ عَلَيْهِ ، أم انْتَصَرَ وظَفَرَ هُوَ بِعَدوِّهِ وتَغَلَّبَ عَلَيْهِ . إنَّ المُؤْمِنَ إذا دَخَلَ المَعْرَكَةَ لابُدَّ وأنْ يُوطِّنَ نَفْسَهُ عَلى أَحَدِ هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ : إمّا أنْ يَقْتُلَهُ عَدوُّهُ ويُكْرِمَهُ اللهُ بالشَّهادَةِ ، وإمّا النَّصْرُ عَلى عَدوِّهِ ، وفي كُلٍّ مِنَ الأَمْرَيْنِ فَهُوَ الفائِزُ بِرِضْوانِ اللهِ .

ثُمَّ رَغَّبَ سُبْحانَهُ في الجِهادِ وحَثَّ عَلَيْهِ فَقالَ تَعالى :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ .

وما : اسمُ اسْتِفهامٍ يُقْصَدُ مِنْهُ تَحْريضُهُمْ عَلى الجِهادِ والإنْكارُ عَلَيْهِمْ في تَرْكِهِ ، والمَعْنى هُنا : أيُّ شيءٍ جَعَلَكُمْ لا تُقاتِلونَ ؟ إنَّ عَدَمَ قِتالِكُمْ لأَعْدائِكُمْ يَتناقَضُ مَعَ ادِّعائِكُمُ الإيمانَ ، فالواجِبُ عَلَيْكُمْ أنْ تُقاتِلوا أعْداءَ اللهِ لِتَجْعَلوا دينَ اللهِ تَعالى يَسودُ هَذِهِ الأَرْضَ ، ولِيَحُلَّ الخَيْرُ والعَدْلُ مَحلَّ الشَّرِّ ، ومِنْ أَجْلِ إخْوانِكُمُ المُسْتَضْعَفينَ في الدِّينِ ، الَّذينَ بَقوا في مَكَّةَ المُكرَّمَةِ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبيِّ ﷺ إلى المدينةِ المُنورَّةِ ، فَأَذَلَّهُمُ المُشْرِكونَ وآذَوْهُمْ وحاوَلوا أنْ يَفْتِنوهُمْ عَنْ دينِهِمْ . إنَّ هَؤلاءِ المُسْتَضعَفينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلدانِ لا يَمْلِكونَ حَوْلاً ولا قُوَّةً إلاّ التوجُّهَ إلى اللهِ تَعالى بالدُّعاءِ ، قائِلينَ ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ لَقَدْ دَعَوْا اللهَ تَعالى لِيُفرِّجَ عَنْهُمُ الكَرْبَ ويُخْرِجَهُمْ مِنْ مَكةَ المُكَرَّمَةِ بِسَبَبِ ظُلْمِ أهْلِها وهُمُ المُشْرِكونَ ، وأنْ يُسخِّرَ لَهُمْ سُبْحانَهُ مَنْ يَتولَّى أمْرَهُمْ ويَنْصرَهُمْ عَلى مَنْ ظَلَمَهُمْ ، ولَقَدِ اسْتَجابَ اللهُ تَعالى لَهُمْ دُعاءَهُمْ ، حَيْثُ اسْتَطاعَ بَعْضُهُمُ اللَّحاقَ بالرَّسولِ ﷺ في المدينةِ ، ورزَقَهُمُ اللهُ تَعالى فَتْحاً قَريباً ، وهُوَ فَتْحُ مَكَّةَ المُكرَّمَةِ .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ .

إنَّ مَنْهَجَ الإسْلامِ واضِحٌ ، وهَدَفُهُ مُحَدَّدٌ ، ويَخْتَلِفُ تَماماً عَنْ مَنْهَجِ الكُفْرِ وهَدَفِهِ ، وتَبَعاً لِذلِكَ

فَمَنْهَجُ المُؤْمِنينَ يَخْتَلِفُ عَنْ مَنْهَجِ الكافِرينَ ، ذَلِكَ أَنَّ الّذينَ آمنوا يُقاتِلونَ لأَجْلِ إعْلاءِ كَلِمةِ اللهِ تَعالى ، ونُصْرَةِ الحَقِّ الّذي جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ ، أمّا الّذينَ كَفَروا فإنَّهُمْ يُقاتِلونَ اتّباعاً لِما يُوَسْوِسُهُ الشَّيْطانُ في قُلوبِهِمْ ، فَهُوَ يأْمُرُ بالبَغْي والطُّغيانِ والكُفْرِ ، فَعَلَيْكُمْ أيُّها المُؤْمِنونَ أنْ تُقاتِلوا أَوْلياءَ الشَّيْطانِ ، الّذينَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ بِوَسْوَسَتِهِ وخِداعِهِ .

وفي هذا حَثٌّ للمُؤْمِنينَ وتَرْغيبٌ لَهُمْ في الجِهادِ ، وبَيانٌ لَهُمْ بأَنَّهُمْ إنْ تَرَكوا القِتالَ تَغلَّبَ الطُّغْيانُ وعَمَّ الفَسادُ في الكَوْنِ .

لَقَدْ قَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعالى أنْ يَنْصُرَ اللهُ الحَقَّ ، ويَجْعَلَهُ يَعْلو على الباطِلِ ، ولِذلِكَ كانَ كَيْدُ الشَّيْطانِ أيْ : تَدْبيرُهُ وَوَسْوَسَتُهُ لأَتباعِهِ للاعْتِداءِ على المُؤْمِنينَ شَديدَ الضَّعْفِ ، ولا يَليقُ بالمُؤْمِنينَ أَوْلياءِ اللهِ وأَهْلِ طاعَتِهِ أنْ يَجْبُنوا أَمامَ الشَّيْطانِ وأَعْوانِهِ .

إنْ تَرْكَ المُسْلِمينَ لِلْقِتالِ يَعني أنْ يَعُمَّ الطُّغيانُ والفَسادُ ، وما نُشاهِدُهُ اليَوْمَ ونَعيشُهُ مِنْ فَسادٍ وابْتِعادٍ عَنِ الحَقِّ وطُغيانٍ ، وخِذلانٍ وذُلٍّ ، ومِنْ تَحكُّمِ عَدوِّنا فِينا إلاّ نَتيجةً حَتميَّةً لِتَرْكِ هذهِ الفَريضةِ العَظيمةِ الّتي افْتَرَضَها اللهُ عَلَيْنا .

دروس وعبر

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ بَيانُ شَرَفِ الجِهادِ وعَظَمَتِهِ ، فَهُوَ نَشْرٌ للحقِّ والعَدْلِ والخَيْرِ ، ودفاعٌ عَنِ المُسْلِمينَ .

٢ـ مَنْ يُقاتِلْ في سَبيلِ اللهِ فإنَّ اللهَ يَكرِمُهُ بإحْدى الحُسْنَيَيْنِ ؛ إمّا النَّصْرُ وإمّا الشَّهادةُ .

٣ـ لَقَدْ شَرَعَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى القِتالَ لِرَفْعِ الظُّلْمِ ولِضَمانِ حُرِيَّةِ الدِّينِ .

٤ـ الحَقُّ والباطِلُ في صِراعٍ دائِمٍ ، ولَكِنْ قَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعالى أنْ يَنْتَصِرَ الحَقُّ ويَزْهَقَ الباطِلُ .



أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لِماذا فَرَضَ اللهُ الجِهادَ عَلى المُؤْمِنينَ ؟

٢ـ لِماذا يَبيعُ المُؤْمِنُ دُنياهُ ؟ قارِنْ بَيْنَهُ وبَيْنَ الكافِرِ .

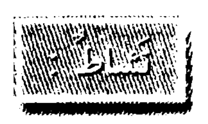
٣ـ ما مَعْنى (ما) في قولِهِ تَعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ﴾ ؟ وما الّذي تُفيدُهُ ؟

٤ـ لِماذا طَلَبَ المُؤْمِنونَ مِنَ اللهِ أنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ مَكَّةَ المُكرَّمَةِ ؟

٥ـ هَلِ اسْتَجابَ اللهُ تَعالى دُعاءَهُمْ ؟ وضِّحْ ذلكَ .

٦ـ قارنْ بَيْنَ مَنْهَجِ المُؤْمِنينَ ومَنْهَجِ الكافِرينَ في القِتالِ .

٧ـ ما الّذي يَترَتَّبُ عَلى تَرْكِ القِتالِ في سَبيلِ اللهِ ؟



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً شَريفاً يُبيِّنُ فَضْلَ الجِهادِ أوْ حَثَّ الرَّسولِ ﷺ عَلَيْهِ .

٢ـ هَلْ هَذهِ الآيَةُ خاصَّةٌ بأَهْلِ مكَّةَ الَّذينَ بَقَوا فيها بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسولِ ، أمْ هِيَ عامَّةٌ لِكلِّ مَنْ هُمْ عَلى شاكِلَتِهِمْ ؟ وضِّحْ ذَلِكَ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ إذا لَمْ يَكُنِ القِتالُ في سَبيلِ اللهِ ، فَفي سَبيلِ مَنْ يَكونُ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الثَّاني والعِشرونَ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ الثّاني والعِشْرونَ

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

كُتِبَ عَلَيهِمْ : فُرِضَ عَلَيْهِمْ .
بُروجٍ مُشيَّدةٍ : قُصورٍ عاليةٍ وحُصونٍ وقِلاعٍ حَصينةٍ .
يَفْقَهونَ : يَفْهَمونَ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى المُسْلِمينَ في مَواطنَ كَثيرةٍ مِنْ كِتابِهِ بالاسْتِعدادِ لِلْقِتالِ وإِعْدادِ العُدَّةِ لِلْجِهادِ في سَبيلِ الله ولِمُقاتَلَةِ أعدائِهِ .

وَجاءَتْ هذِهِ الآياتُ لِتَتحدَّثَ عَنِ المُسْلِمينَ ومِنْهُمُ المُنافِقونَ وضُعَفاءُ الإيمانِ ، فَتَقولَ لِلنَّبيِّ ﷺ :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ .

والهَمْزَةُ للاسْتِفهام ، جاءَ لِيَعْجَبَ مِنْ حالِ أُولئِكَ الّذينَ كانوا يَتَشوَّقونَ لِلْقِتالِ ، ولَكنَّهُمْ لَمَّا فُرِضَ عَلَيْهِم جَبُنوا وخافوا ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى : ألَمْ يَنْتَهِ إلى عِلْمِكَ يا مُحمَّدُ ﷺ ، ويا مَنْ تَقرأُ كِتابَ اللهِ تَعالى حالُ أُولئِكَ الّذينَ كانوا يُظهرونَ الحَماسَةَ لِلْقِتالِ ، لَكنَّ اللهَ أَمَرَهُمْ أنْ يَكفُّوا أيْدِيَهُمْ عَنِ القِتالِ ، إذْ إنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَروا بِهِ بَعْدُ ، ولَمْ يَكونوا أهْلاً لَهُ ، ولا قادِرينَ عَلَيْهِ ، وأمَرَهُمْ أنْ يُقيموا الصَّلاةَ ، بِأَنْ يُؤدُّوها كامِلةً بِأَرْكانِها وسُنَنِها ، والخُشوعِ فيها . وإقامةُ الصَّلاةِ تَعني كَذلِكَ أنْ تُؤْتِيَ هذِهِ الصَّلاةُ ثِمارَها ، وهِيَ النَّهْيُ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ . وأمَرَهُمْ كَذلِكَ أنْ يُؤْتُوا الزَّكاةَ ، فَهِيَ تُطهِّرُ القُلوبَ مِنَ الأَحْقادِ ، وتَشُدُّ أواصِرَ التَّراحُمِ والتَّعاوُنِ بَيْنَ النّاسِ .

هؤلاءِ كانوا يتَمنَّوْنَ أنْ يَكْتُبَ اللهُ عَلَيْهِمُ القِتالَ ، ولَكنَّهُمْ حينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتالُ كَرِهوهُ ، وخافَ مِنْهُ الضُّعفاءُ وارْتابَتْ قُلوبُهُمْ ؛ وذلِكَ لأنَّهُمْ يَخافونَ أنْ يَقتلَهُمُ الكُفَّارُ ، كَما يَخافونَ مِنَ اللهِ أنْ يُنْزِلَ بِهِمْ بَأْسَهُ وعِقابَهَ . إنَّ خَشْيَتَهُمْ مِنَ الكافِرينَ وهُمْ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ كَخشيتِهِمْ للهِ تَعالى ، بَلْ إنَّها أَشَدُّ مِنْ خَشْيَتِهِمُ اللهَ تَعالى . وهذا لا شَكَّ يَدُلُّ على ضَعْفِ إيمانِهِمْ وفَسادِ عُقولِهِمْ ؛ إذ إنَّ الأَصْلَ أنْ تَكونَ خَشْيَتُهُمْ للهِ تَعالى أشَدَّ مِنْ خَشْيَتِهِمْ لأيِّ أحَدٍ ، فإنَّهُ سُبْحانَهُ هُوَ الضَّارُ والنّافِعُ ، وقَدْ قالَ الرَّسولُ ﷺ لابنِ عَباسٍ رضِيَ اللهُ عَنْهُما : (واعْلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعوا على أنْ يَنْفعوكَ بِشَيْءٍ لَنْ يَنفَعوكَ إلاّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وإنِ اجْتَمَعوا على أن يَضرُّوكَ لَنْ يَضرُّوكَ إلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ)[1] .

وَمِنْ شِدَّةِ خَوْفِ هَؤلاءِ مِنَ القِتالِ خاطَبوا اللهَ تَعالى قائِلينَ : ﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ﴾ لِماذا فَرَضْتَ عَلَيْنا القِتالَ في هذا الوَقْتِ يا رَبُّ ، هَلاَّ أخَّرْتَنا يا ربُّ وتَرَكْتَنا ، حتَّى نَموتَ مَوْتاً طَبيعيّاً دونَ قِتالٍ عِنْدَما تَحينُ آجالُنا .

إنَّهُمْ بَعْدَ أنْ تَمَنّوْا أنْ يُفْرَضَ عَلَيْهِمُ القِتالُ صاروا يَتهرَّبونَ مِنْهُ لِفَزَعِهِمْ وهَلَعِهِمْ .

وقَدْ أمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ مُحمَّداً ﷺ أنْ يَرُدَّ عَلَيْهِم بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ قُلْ : يا مُحمَّدُ لِهؤلاءِ الّذينَ يَفِرُّونَ مِنَ القِتالِ حِرْصاً على مَلَذّاتِ الدُّنْيا ومَتاعِها وَشَهَواتِها ، قُلْ لَهُمْ : إنَّ مَتاعَ الدُّنْيا وما تَحرِصونَ عَلَيْهِ قَليلٌ فانٍ ، أمّا الآخِرَةُ فَقَدْ أعدَّ اللهُ ما فيها مِنْ نَعيمٍ دائِمٍ لا يَنْفدُ لِعبادِهِ المُتَّقينَ الّذينَ يَأْتَمِرونَ بِأَمْرِ اللهِ ، ويَجْتَنِبونَ نَواهِيَهُ سُبْحانَهُ ، والَّذينَ

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، باب : ولكن يا حنظلة ساعة بـ ساعة .

يَحْرِصونَ على القِتالِ في سَبيلِ اللهِ لإعْلاءِ كَلِمَتِهِ ، ولِذلِكَ عَلَيْكُم أَنْ تَجْعلوا خَشْيَتَكُمْ مِنَ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وأَنْ تُبادِروا إلى إعْلاءِ كَلِمَتِهِ ، وحَتّى تنالوا ثَوابَ اللهِ تَعالى العَظيمَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يُنْقِصُكُمْ مِنْ ثَوابِكُمْ شَيْئاً مَهْما كانَ قَليلاً . والفَتيلُ كَما عَرَفْنا ما يَكونُ في شِقِّ نَواةِ التَّمْرِ مِثْلَ الخَيْطِ ، يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ في القِلّةِ والحَقارَةِ .

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾

وتُبَيِّنُ الآياتُ لَهُمْ أَنَّ المَوْتَ الّذي يَخافونَ مِنْهُ ، ويَفِرّونَ مِنْهُ لابُدَّ مِنْ أَنْ يُدْرِكَهُمْ ، فالمَوْتُ لا مَهْرَبَ مِنْهُ ، حتّى لَوْ تَحَصَّنْتُمْ بالحُصونِ المَنيعةِ ، والقُصورِ والقِلاعِ الشّاهِقَةِ العَظيمةِ ، فإنَ آجالَكُمْ إذا حانَتْ ، فإنَّ المَوْتَ آتيكُمْ لا مَحالَةَ ، ولِذا فإنَّ قُعودَكُمْ عَنِ الجِهادِ لَنْ يُنْجِيَكُمْ مِنْهُ ، ولَنْ يُطيلَ في أَعْمارِكُمْ ، فَلِماذا لا تُدافِعونَ عَنِ الحَقِّ ، لِتنالوا رِضا اللهِ تَعالى ؟!

إنَّ هَؤلاءِ لا يَفْقَهونَ ولا يَفْهَمونَ ، فإنَّكَ تَجِدُهُمْ عِنْدَما يُصيبُهُمْ رَخاءٌ ونِعْمَةٌ أو غَنيمةٌ ، قالوا إنَّ اللهَ تَعالى قَدْ أَكْرَمَهُمْ بِهذِهِ النِّعْمَةِ حُبّاً فيهِمْ وعِنايةً بِهِمْ ، أَمّا إذا أصابَهُمْ شِدَّةٌ مِنْ جَدْبٍ أو مُصيبةٍ أو هَزيمةٍ ، قالوا للنَّبِيِّ ﷺ هذهِ الحالُ مِنْ عِنْدِكَ أَنْتَ بِسَبَبِ شُؤْمِكَ وسوءِ قِيادَتِكَ ، وهذا زَعْمٌ باطِلٌ في عُقولِهِمْ ، إنَّهُمْ لا يَعْقِلونَ حَقيقةَ ما يَقولونَ ، ولَوْ كانوا يُمَحِّصونَ كُلَّ ما يَتَلَفَّظونَ بِهِ ، ويَفْقَهونَ ما يَقولونَ ، لما تَفَوَّهوا بِمِثْلِ هذا القَوْلِ .

﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

ويُخاطِبُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى نَبِيَّهُ ﷺ ، ويُبيِّنُ أَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ تُصيبُكَ أيُّها المُؤْمِنُ فإنَّما هِيَ مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى وجودِهِ وكَرَمِهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ الّذي أَرْشَدَكَ إلى الوَسيلةِ الّتي توصِلُكَ إلى هذا الخَيْرِ ، وإنَّ كُلَّ مُصيبةٍ تُصيبُكَ فإنَّها مِنْ نَفْسِكَ ، وذَلِكَ لِسوءِ اخْتيارِكَ وَوقوعِكَ فيما نَهاكَ اللهُ تَعالى عَنْهُ .

إنَّ الحَسَنَةَ الّتي تُصيبُ الإنْسانَ إنَّما هِيَ مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى ، والسَّيِّئَةَ الّتي تُصيبُهُ إنَّما هِيَ مِنْ نَفْسِهِ ، ولِذا يَنْبَغِي على الإنْسانِ حينَما تُصيبُهُ سَيِّئَةٌ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ سَبَبِها ويُحاسِبَ نَفْسَهُ ، لأنَّ عِصْيانَ اللهِ تَعالى سَبَبٌ مِنْ أَسبابِ نِقْمَتِهِ عَلى الإنْسانِ .

وتَخْتِمُ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ إنَّ مُحَمَّداً ﷺ رَسولٌ مُرْسَلٌ مِنَ عِنْدِ رَبِّهِ للنّاسِ ، فَلَيْسَ لَهُ إلاّ البَلاغُ ، أمّا ما يُصيبُ النّاسَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، ومِنْ نِعْمَةٍ أَوْ نِقْمَةٍ فَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أيُّ دَخْلٍ فيهِ ، وهذا ما يَشْهَدُ بِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى خالِقُ محمَّدٍ ﷺ ، وكَفَى باللهِ شَهيداً بأنَّهُ أَرْسَلَهُ للنّاسِ كافَّةً ، فَهُوَ خاتِمُ النَّبِيّينَ ، ورَسولٌ إلى النّاسِ أَجْمَعينَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ اتِّباعُ أَمْرِ اللهِ تَعالى واجْتِنابُ نَواهيهِ ، لِيَنالَ الإنْسانُ جَزيلَ ثَوابِ اللهِ تَعالى وعَظيمَ أَجْرِهِ .

٢ـ العاقِلُ هُوَ الّذي يَعْلَمُ أنَّ اللهَ تَعالى مُدَبِّرُ الكَوْنِ ، وأنَّ الخَيْرَ والشَّرَّ بِيَدِهِ تَعالى ، فَلا يَخْشَى إلاّ اللهَ ، ولا يَخْشَى أَحداً مَعَهُ سُبْحانَهُ .

٣ـ عَلى الإنْسانِ أنْ يَتَدبَّرَ في ما يَنْطِقُهُ ، حتّى لا يَتفوَّهَ بِما يَكونُ سَبباً للنِّقْمَةِ عَلَيْهِ ، وذَلِكَ أنَّ الإنْسانَ قَدْ يَتكلَّمُ بالكَلِمَةِ لا يُلقي لَها بالاً ، يُلقى بِسَبَبِها سبعينَ خَريفاً في جَهَنَّمَ .

٤ـ ما يُصيبُ الإنْسانَ مِنْ سوءٍ ، فإنَّما هُوَ بِسَبَبِ ما اقْتَرَفَتْهُ يَداهُ مِنَ الشَّرِّ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لِماذا يَخْشَى فَريقٌ مِنَ النّاسِ القِتالَ ؟

٢ـ كَيْفَ رَدَّ الرَّسولُ ﷺ على مَنْ يَخْشَى القِتالَ ؟

٣ـ صَوَّرتِ الآياتُ الكَريمَةُ مَوْقِفَ المُسْلِمينَ مِنَ القِتالِ قَبْلَ أنْ يُفْرَضَ عَلَيْهِمْ وبَعْدَهُ . وضِّحْ ذلِكَ مَعَ الدَّليلِ .

٤ـ أ ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ .

ب ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ إيرادِ هَذِهِ الحَقيقةِ القُرْآنيَّةِ بَعْدَ ذِكْرِ فَريضةِ القِتالِ ؟

٥ـ لِماذا نَسَبَ اللهُ تَعالى السَّيئةَ إلى نَفْسِ المُؤْمِنِ ، والحَسَنَةَ إلى اللهِ ؟



ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما قالَهُ خالدُ بنُ الوليدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَ مَوْتِهِ .

* * *

الدرس الثالث والعشرون

سورةُ النِّساءِ - القِسْمُ الثّالِثُ والعِشْرونَ

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

معاني المُفْردات :

يَقولونَ طاعةٌ : يَقولونَ نَحْنُ طائِفةٌ لا نَعْصي اللهَ أبداً .

بَرزوا : خَرَجوا .

بَيَّتَ : دبَّرَ وخطَّطَ .

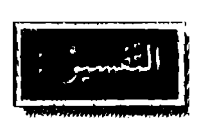
يَتدبَّرونَ : يَتأمَّلونَ النَّظَرَ في القُرْآنِ ومَعانيهِ .

أمْرٌ : خَبَرٌ .

أذاعوا : نَشَروا وأشاعوا بَيْنَ النَّاسِ .

رَدُّوهُ : أرْجَعوهُ وطلَبوا حُكْمَهُ .

يَسْتَنبِطونَهُ : يَسْتَخْرِجونَ ما كانَ مُسْتَتِراً عَنِ الأبْصارِ .



التفسير :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝ ﴾ .

لَقَدْ تحدَّثَتِ الآياتُ القُرْآنيَّةُ عَنْ طاعَةِ اللهِ تَعالى وطاعَةِ رَسولِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وأَمَرَتْ بذلِكَ في كَثيرٍ مِنَ الآياتِ ، وَقَدْ أُمِرَ المُسْلِمونَ في هَذِهِ السّورةِ بِأَنْ يُطيعوا اللهَ تَعالى ويُطيعوا رَسولَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فقَدْ مَرَّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ .

وَجاءَتْ هذهِ الآياتُ لِتُؤَكِّدَ عَلى طاعَةِ الرَّسولِ ﷺ الّذي أرْسَلَهُ اللهُ تَعالى رَسولاً للنّاسِ جَميعاً ، وتُبيِّنَ أنَّ طاعتَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ طاعةٌ للهِ تَعالى ، فَهُوَ لا يُبَلِّغُ للنّاسِ إلاّ ما أَمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بِهِ ، وكَذلِكَ يَكونُ عِصيانُ الرَّسولِ ﷺ عِصْياناً للهِ تَعالى ، ومَنْ أَعْرَضَ عَنْ طاعتِكَ الّتي هِيَ طاعةٌ للهِ تَعالى فَلَيْسَ لَكَ يا مُحمَّدُ أن تُجبِرَهُ عَلى ذَلِكَ ، فإنَّكَ لَمْ تُرْسَلْ للنَّاسِ رَقيباً وحافِظاً لأَعْمالِهِمْ ، وإنَّما أُرْسِلْتَ مُبَشِّراً ونَذيراً .

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝ ﴾ .

وتَتَحدَّثُ الآياتُ عَنِ المُنافِقينَ ، وما يَقولونَهُ لِلرَّسولِ مِمّا يَتعلَّقُ بطاعَتِهِ ، فَهُمْ ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ أيْ : إنَّ هؤلاءِ المُنافِقينَ الَّذينَ يَخْشَوْنَ النّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أوْ أشَدَّ خَشْيةً إذا أمَرَهُمُ الرَّسولُ ﷺ بِأَمْرٍ ، يَقولونَ لَهُ أمْرُكَ طاعَةٌ ، أيْ : أَمْرُكَ مُطاعٌ ، يُظهِرونَ خُضوعَهُمْ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، ولكنَّهُمْ إذا خَرَجوا مِنْ ذَلِكَ المَكانِ الّذي كانوا فيهِ مَعَ الرَّسولِ ﷺ لَيْلاً وعادوا إلى بُيوتِهِم ، دَبَّرَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الّذي قالَتْهُ لَكَ في النَّهارِ ، فَهُمْ يُطيعونَكَ في النَّهارِ ويُدبِّرونَ لَكَ في اللَّيْلِ ، ولَكِنَّ اللهَ تَعالى لَهُمْ بالمِرْصادِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَكْتُبُ ما يُبيِّتُ ويُدبِّرُ هَؤلاءِ ، وذَلِكَ بِأَنْ يُنزِّلَهُ في كِتابِهِ ، ويُطْلِعَ عَلَيْهِ نَبيَّهُ ﷺ ، ويَفْضَحَهُمْ بِمِثْلِ هذِهِ الآياتِ . وفي هذا تَهديدٌ لِلْمُنافِقينَ .

ويَأْمُرُ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ بِأَنْ يُعْرِضَ عَنْ هؤلاءِ المُنافِقينَ ، ولا يَهْتَمَّ بِما يُبَيِّتونَهُ ، وأنْ يُفَوِّضَ أَمْرَهُ إلى اللهِ تَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ سَيَكْفيهِ شَرَّهُمْ ويَنْتَقِمُ مِنْهُمْ . وكَفى باللهِ وكَيلاً وكَفيلاً لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، واتَّبَعَ أَمْرَهُ ونَهْيَهُ .

وأَنْكَرتِ الآياتُ عَلى هؤلاءِ المُنافِقينَ عَدَمَ تَدبُّرِهِمُ القُرْآنَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ۝ ﴾ .

والهَمْزَةُ للاسْتِفْهامِ الاسْتِنْكارِيِّ ، أيْ : أَجَهِلَ هَؤلاءِ القَوْمُ حَقيقةَ رِسالةِ النَّبيِّ ﷺ فلا يَتَدَبَّرونَ

القُرْآنَ الكريمَ الّذي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالى والّذي اشْتَمَلَ عَلى الهِدايَةِ والأَخْبارِ الصّادِقَةِ ، والأَحْكامِ الّتي تُراعي مَصالِحَهُمْ ، إنَّهُم لَوْ تَدبَّروا القُرْآنَ الكَريمَ لَعَرفوا أنَّهُ الحَقُّ مِنْ ربِّهِمْ سُبْحانَهُ وتَعالى ، فَقَدْ أَخْبَرَ عَمَّا يُخفُونَ في صُدورِهِمْ ، وعَمّا يُدبِّرونَهُ لِرَسولِ اللهِ ﷺ ، فَلَوْ كانَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ فَهْمٍ لَعَرفوا أنَّ ما أَعَدَّهُ اللهُ لِلْكافِرينَ حَقٌّ كَذلِكَ ، ولَعَرَفوا أنَّ هذا القُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِكَ يا مُحَمَّدُ ، ولَيْسَ مِنْ عِنْدِ آخَرينَ غَيْرِكَ ؛ إذْ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِكَ لَوَجدوا فيهِ اخْتِلافاً كَثيراً ، أيْ : لَوَجَدوا الاخْتِلافَ في نَظْمِ القُرْآنِ وبَلاغَتِهِ والتَّناقُضَ في الحَقائِقِ الّتي يَذْكُرُها ، والتَّعارُضَ في الأَخْبارِ الّتي تَرِدُ فيهِ ، وذَلِكَ ، أيْ : المَخْلوقُ لا يَسْتَطيعُ أنْ يُصَوِّرَ الحَقائِقَ كَما صَوَّرَها القُرْآنُ الكَريمُ ، ولا يَسْتَطيعُ أنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِ ما ذُكِرَ في القُرْآنِ مِنْ أُصولِ العَقائِدِ وقَواعِدِ التَّشْريعِ والأَخْبارِ الغَيبيَّةِ الماضِيَةِ ، أوْ غَيرِ ذَلِكَ ، وصَدَقَ اللهُ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ .

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

وتَتَحدَّثُ الآياتُ عَنْ مَسْلَكٍ آخَرَ مِنْ مَسالِكِ المُنافِقينَ أوْ ضِعافِ الإيمانِ ، فإنَّهُمْ كانوا إذا سَمِعوا أَمْراً سَواءً أَكانَ فيهِ أمنٌ أَمْ خَوْفٌ يتَعلَّقُ بالمُؤْمِنينَ أَشَاعوهُ ونَشَروهُ دونَ تَحقُّقٍ مِنْهُ أوْ تَثبُّتٍ ، وقَدْ يَكونُ هذا الأَمْرُ مُتَعلِّقاً بالجَيْشِ المُسْلِمِ الّذي يُقاتِلُ العَدوَّ ، وذَلِكَ أن أَمْرَ المُسْلِمينَ وجَيْشَهُمْ يَنْبَغي أنْ يَظَلَّ سِرّاً ، فلا يُذاعُ أَمامَ الجَميعِ حتّى لا يَصِلَ إلى العَدوِّ . والذي يَنْبَغي أنْ يَكونَ في مِثْلِ هذهِ الحالِ أنْ يُرَدَّ الأَمْرُ إلى الرَّسولِ ﷺ أَوْ أُولي الأَمْرِ مِنَ الصَّحابةِ ، فَلَوْ أنَّهُمْ فَعَلوا هذا ورَدّوا هذا الخَبَرَ إلى الرَّسولِ ﷺ والّذي هُوَ قائِدُ الأُمّةِ أوْ إلى كِبارِ الصَّحابةِ ، ويَعني بِذلِكَ أَهْلَ الحَلِّ والعَقْدِ ورِجالَ الشُّورَى لَوَجدوا عِلْمَ ذَلِكَ الأمرِ وحَقيقةَ تِلْكَ الأَخْبارِ عِنْدَهُمْ ، ولَما اسْتَمرُّوا في تَرْديدِ الأَكاذيبِ والشّائِعاتِ غَيْرِ الصَّحيحةِ .

إنَّ فَضْلَ اللهِ تَعالى عَظيمٌ على الخَلْقِ ، فَلولا فَضْلُهُ ورَحْمَتُهُ إذ هَداكُمْ لِطاعتِهِ سُبْحانَهُ وطاعةِ رَسولِهِ ﷺ لاتَّبعتُمُ الشَّيْطانَ ، كَما اتَّبَعَهُ أُولئِكَ المُنافِقونَ ، أَمّا مَنِ اسْتَنارَتْ عُقولُهُمْ بِنورِ الإيمانِ وعَرَفوا أَحْكامَ اللهِ تَعالى فلا يَتَّبِعونَ إلاّ الحَقَّ .



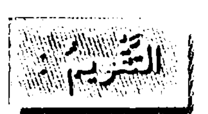
تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ ـ طاعةُ الرَّسولِ ﷺ طاعةٌ للهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، فَهُوَ لا يَتكلَّمُ إلاّ عَنْ طَريقِ الوَحْي .

٢ـ تَدبُّرُ القُرْآنِ الكَريمِ هُوَ طَريقُ الهِدايةِ ، فَهُوَ يُرْشِدُ إلى كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وإلى وُجوبِ الاهْتداءِ بِهِ .

٣ـ لَوْ تَدبَّرَ المُسْلِمونَ القُرْآنَ واهْتَدَوْا بِهِ ما فَسَدَتْ أَخْلاقُهُمْ ، ولما اسْتَبَدَّ بِهِمْ حُكّامُهُمْ ولما زالَ مُلْكُهُمْ .

٤ـ عِنْدَ سَماعِ أيِّ خَبَرٍ يَمَسُّ المُسْلِمينَ يَنْبَغِي عَدَمُ نَشْرِهِ قَبْلَ التَّوَثُّقِ مِنْهُ والرُّجوعِ فيه إلى أَصْحابِ الشَّأْنِ للتحقُّقِ مِنْ صِحَّتِهِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

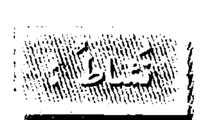
١ـ جَعَلَ اللهُ تَعالى طاعةَ الرَّسولِ ﷺ طاعةً للهِ ، وضِّحْ ذَلِكَ بِمثالٍ .

٢ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ .

٣ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ صِفَةً مِنْ صِفاتِ المُنافِقينَ ، اذْكُرْها مَعَ الدَّليلِ .

٤ـ ما الواجِبُ عَلى المُسْلِمينَ حِيالَ الأَخْبارِ والشّائِعاتِ ؟ أيِّدْ إجابَتَكَ بالدَّليلِ .

٥ـ ما معْنى المُفْرَداتِ التّاليةِ : بَرَزوا ، يَتَدبَّرونَ ، أذاعوا ، يَسْتَنْبِطونَهُ ؟



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةً مِنْ سورةِ (المُنافِقونَ) تَفْضَحُ وتُبيِّنُ ما قالوهُ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةَ سورةِ الأَنْفالِ الّتي بيَّنَتْ مَكْرَ الكافِرينَ بِرَسولِ اللهِ ﷺ .

٣ـ اذْكُرْ بَعْضَ القَضايا الّتي وَرَدَتْ في القُرْآنِ الكَريمِ في غيرِ الآيةِ (٨٢) ولا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ مِنَ البَشَرِ الإتْيانَ بِمِثْلِها ، واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرس الرابع والعشرون

سورة النساء - القسم الرابع والعشرون

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾

معاني المفردات :

حرِّضْ : حُثَّ على الشيءِ وشجِّعْ عَلَيْهِ .

تَنْكيلاً : مُعاقبةٌ للمُجْرِمِ بما يكونُ فيهِ عبرةٌ لِغَيْرِهِ .

يَشْفَعْ : يَتوسَّطْ بَيْنَ صاحِبِ الحاجةِ ومَنْ عِنْدَهُ الحاجَةُ .

كِفْلٌ : نَصيبٌ وحَظٌّ .

مُقيتاً : مُهَيْمِناً .

التَّفسير :

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ .

لَقَدْ رَغَّبتِ الآياتُ السَّابِقَةُ المُؤْمنينَ في الجِهادِ ، وذَكَرَتْ مَوْقفَ المُنافِقينَ وضِعافِ الإيمانِ

مِنْهُ . وجاءَتْ هذِهِ الآياتُ لِتَأْمُرَ الرَّسولَ ﷺ وأُمَّتَهُ بالقِتَالِ ، فَبيَّنَ لَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بأنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، هُوَ أوْ أيُّ قائِدٍ وجُنْديٍّ مِنْ أُمَّتِهِ إذا أرادَ الفَوْزَ والانْتِصارَ على العَدوِّ ، فَعَلَيْهِ أنْ يُقاتِلَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى امْتِثالاً لأَمْرِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وأنْتَ يا مُحَمَّدُ لا تُكلَّفُ إلاّ فِعْلَ نَفْسِكَ ، فلا تَلْتَفِتْ إلى أقْوالِ وأفْعالِ المُنافِقينَ الّذينَ يَقولونَ لَكَ : طاعةٌ ، ويُبيِّتونَ غَيْرَ الّذي يَقولونَ ؛ ولِذا عَلَيْكَ أنْ تَتقدَّمَ لِلْجِهادِ والقِتالِ ، وعَلَيْكَ أنْ تَحُثَّ غَيْرَكَ مِنَ المُؤْمِنينَ على القِتالِ ، وتُرَغِّبَهُمْ فيهِ ، حَتّى يَنْفِروا مَعَكَ مِنْ أَجْلِ نُصْرَةِ الحَقِّ والدِّفاعِ عَنِ المَظْلومينَ .

وقَدِ امْتَثَلَ الرَّسولُ ﷺ وامْتَثَلَ صَحابَتُهُ لأَمْرِ اللهِ تَعالى ، وخَرَجوا لِقِتالِ أَعْداءِ اللهِ تَعالى .

إنَّ تَحْريضَ المُؤْمِنينَ على القِتالِ وحَثَّهُمْ عَلَيْهِ ، هُوَ الّذي يَحْمِلُهُمْ على الاسْتِعدادِ لَهُ وتَوْطيدِ النَّفْسِ عَلَيْهِ ، وهُوَ كَذلِكَ يَجْعَلُ الكافِرينَ يَتَخلَّوْنَ عَنِ الاعْتِداءِ على المُؤْمِنينَ ، ويَكفُّونَ بَأْسَهُمْ عَنْهُمْ ، فَلَيْسَ هُناكَ شَيْءٌ يُخيفُ الكافِرينَ أعْظَمَ مِنْ رُؤْيَتِهِمْ لِقُوّةِ جَيْشِ المُسْلِمينَ ، وقُوَّةِ عَدَدِهِمْ وعَتادِهِمْ ، وعَدمِ رَهْبَتِهِمْ مِنَ المَوْتِ .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ وفيهِ حَثُّ المُؤْمِنينَ على عَدَمِ الخَوْفِ مِنَ الكافِرينَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ أشدُّ بَأْساً ، وأَعْظَمُ سُلطاناً ، وأَشَدُّ عُقوبَةً وتَعْذيباً لِهؤلاءِ الكافِرينَ ، وفي هذا ما فيهِ مِنَ التَّهديدِ للكافِرينَ ، لِيَكفُّوا بَأْسَهُمْ عَنِ المُؤْمِنينَ .

وَيَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ .

مَنْ يَتوسَّطْ في أَمْرٍ يَترتَّبُ عَلَيْهِ الخَيْرُ ، يَكُنْ لَهُ ثَوابٌ مِنْ هَذِهِ الشَّفاعةِ الحَسَنَةِ ، ومَنْ يَتوسَّطْ في أَمْرٍ يَكونُ في غَيْرِ طَريقِ الخَيْرِ ويَترتَّبُ عَلَيْهِ الشَّرُّ يَكُنْ لَهُ نَصيبٌ مِنْ وِزْرِها وإثْمِها ، وذَلِكَ لأنَّهُ سَعَى في الفَسادِ ولَمْ يَسْعَ في الخَيْرِ .

والآيَةُ تَحدَّثَتْ عَنْ حَثِّ الرَّسولِ ﷺ والمُسْلِمينَ على القِتالِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، فَهُمْ يَدْعونَ إلى الشَّرِّ ؛ ولِذا فإنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى سَيُجازي كُلاً على عَمَلِهِ ، إنْ كانَ خَيْراً فَخَيْرٌ ، وإنْ كانَ شَرّاً فشَرٌّ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى مُقْتَدِرٌ على كُلِّ شَيْءٍ لا يُعْجِزُهُ أنْ يُعْطِيَ الشّافِعَ نَصيباً مِنْ شَفاعَتِهِ .

إنَّ الشَّفاعةَ الحَسَنَةَ والدَّعْوَةَ إلى الخَيْرِ تُؤدِّي إلى التَّواصُلِ بَيْنَ النّاسِ ، وحُسْنِ العَلاقاتِ بَيْنَهُمْ ، وتَطهِّرُ نُفوسَهُمْ مِنَ الحِقْدِ والحَسَدِ ، ومِمّا يُعينُ على ذَلِكَ أَيْضاً أنْ يُحيِّيَ المُسْلِمونَ بَعْضَهُمْ بَعْضاً عِنْدَ اللِّقاءِ ؛ ولِذا قالَ :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾ .

أيْ : إذا سَلَّمَ عَلَيْكُمُ المُسْلِمونَ فَرُدّوا عَلَيْهِم بِأَفْضَلَ مِمّا سَلَّموا ، أو رُدُّوا عَلَيْهِم بِمِثْلِ ما سَلَّموا عَلَيْكُم .

إنَّ إفْشاءَ السَّلام بَيْنَ النّاسِ يُؤدِّي إلى تَوْثيقِ العَلاقاتِ بَيْنَهُمْ . وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبيِّ قَوْلُهُ : (لا تَدْخُلوا الجَنَّةَ حتّى تُؤْمِنوا ، ولا تُؤْمِنوا حتَى تحابّوا ، أَلا أدلُّكُمْ على أَمْرٍ إذا فَعَلْتُموهُ تَحابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ)[1] ، وعَلَيْهِ فإنَّ ردَّ التَّحيةِ لَهُ مَرْتَبَتانِ : أدناهُما : رَدُّ التَّحيَّةِ كما هِيَ ، فَمَنْ قالَ لَكَ : (السَّلامُ عَلَيْكُم) تَقولُ لَهُ : « وعَلَيْكُم السَّلامُ » وأعْلاهُما : الزِّيادَةُ على تَحيَّتِهِ ، فتَقولُ مَثَلاً لِمَنْ قالَ لكَ « السَّلامُ عَلَيْكُم » ، « وعَلَيْكُم السَّلامُ ورَحْمَةُ اللهِ » . وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾ أيْ : إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى رَقيبٌ عَلَيْكُم يَعْلَمُ كَيْفَ تَتعامَلونَ فيما بَيْنَكُمْ ، وسَيُجازيكُمْ بما تَستحقُّونَ .

وَبَعْدَ أنْ حَثَّتِ الآياتُ على الجِهادِ وأَمَرَتِ المُسْلِمينَ بإظْهارِ المَودَّةِ فيما بَيْنَهُمْ ، بَيَّنَتْ أنَّ المُسْلِمينَ جَميعاً مَجْزِيُّونَ على أعْمالِهِمْ ، وذَلِكَ يَوْمَ القِيامةِ ، فقالَ :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾

لَقَدْ ذَكَرَتِ الآيةُ رُكْنَيْنِ أساسِيَّيْنِ للدِّين :

١ـ تَوْحيدُ اللهِ تَعالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ المَعْبودُ بِحَقٍّ ، ولا مَعْبودَ بحقٍ سِواهُ ، فَلا تُقَصِّروا في عِبادَتِهِ سُبْحانَهُ والخُضوعِ لأَمْرِهِ ونَهْيِهِ ، لأنَّ في ذَلِكَ سَعادةَ البَشَريَّةِ .

٢ـ الإيمانُ باليَوْمِ الآخِرِ وما فيهِ مِنْ بَعْثٍ لِلْخَلْقِ ، وجَزاءٍ .

إنَّ هذيْنِ الرُّكْنَينِ هُما اللّذانِ يَحُثَّانِ الإنْسانَ ويَدْفعانِهِ إلى العَمَلِ ، وبِخاصّةٍ القِتالُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى والدِّفاعُ عَنِ الدِّينِ .

وخُتِمتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ والاسْتِفْهامُ للإنْكارِ والنَّفْي ، أيْ : لا أَحَدَ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ تعالى في هذا الوُجودِ في أَخْبارِهِ سُبْحانَهُ وَوَعْدِهِ وَوَعيدِهِ ، وذَلِكَ أنَّ الكَذِبَ مُحالٌ على اللهِ تَعالى ، أمّا غَيْرُهُ فإنَّ كَلامَهُ يَحْتَمِلُ الصِّدْقَ والكَذِبَ ، وفي هذا دَعْوةٌ إلى التَّخَلُّقِ بِخُلُقِ الصِّدْقِ ، والاسْتِجابةِ للهِ تَعالى ، الّذي لا يُخْبِرُ إلاّ بما هُوَ صِدْقٌ سُبْحانَهُ وتَعالى ، ومَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قيلا .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الصحيح ، حديث رقم ٥٤ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ العاقِبَةُ سَتَكونُ دائِماً للمُتَّقينَ إذا اسْتَمْسَكوا بِأَوامِرِ اللهِ تَعالى ، وتَرَكوا نَواهيَهُ ، وأَعدُّوا العُدَّةَ مَعَ الصَّبْرِ والثَّباتِ .

٢ـ الشَّفاعةُ تُعَدُّ سَبَباً مِنْ أَسْبابِ التَّواصُلِ بَيْنَ النَّاسِ ، فَعلى المُسْلِمِ أنْ لا يَشْفَعَ إلاّ بِما هُوَ خَيْرٌ .

٣ـ إفْشاءُ السَّلام بَيْنَ المُسْلِمينَ ، يُؤدِّي إلى تَوْثيقِ العَلاقاتِ بَيْنَهُمْ .

٤ـ ممّا يَدْفَعُ الإنْسانَ إلى العَمَلِ الصالحِ إيمانُهُ باللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وإيمانُهُ باليَوْمِ الآخِرِ .



التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ قارِنْ بَيْنَ مَنْ يُقاتِلُ في سَبيلِ اللهِ وبَيْنَ مَنْ يُقاتِلُ مِنْ أجْلِ السُّمْعَةِ .

٢ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ تَحْريضِ المُؤْمِنينَ عَلى القِتالِ ؟

٣ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ ؟ وماذا تُفيدُ هَذِهِ العِبارةُ ؟

٤ـ بيِّنِ الفائِدةَ المَرْجُوَّةَ مِنْ إفْشاءِ السَّلامِ بَيْنَ النّاسِ .

٥ـ ردُّ التَّحيَّةِ لَهُ مَرْتَبتانِ ، اذْكُرْهُما .

٦ـ ما مَعْنى قولِهِ تَعالى : ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَىٰ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ ؟

٧ـ ذَكَرَتِ الآياتُ رُكْنَيْنِ أساسيَيْنِ للدِّينِ . ما هُما ؟

٨ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً﴾ ؟ وما المُسْتَفادُ مِنْها ؟

٩ـ هاتِ مِثالاً عَلى ما يلي :

أـ الشَّفاعةِ الحَسنةِ .

ب ـ الشَّفاعةِ السَّيئةِ .

ج ـ رَدِّ التحيَّةِ بِمِثْلِها .

د ـ ردِّ التحيَّةِ بِأَحْسَنَ مِنْها .

نَشاطٌ :

١ـ هاتِ مِثالاً مِنْ سيرةِ الرَّسولِ يَدُلُّ على امْتِثالِهِ هُوَ وأُمَّتُهُ بِأَمْرِ اللهِ تَعالى ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ما الأَمْرُ الّذي نَهى رَسولُ اللهِ عَنِ الشَّفاعةِ فيهِ ، اكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيْفَ يُؤدِّي الإيمانُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ إلى حُبِّ الجِهادِ .

٤ـ وَرَدَتْ أحاديثُ كَثيرةٌ تَحُثُّ المُسْلِمينَ على إفْشاءِ السَّلامِ فيما بَيْنَهُمْ ، اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثَيْنِ مِنْهُما .

٥ـ اكْتُبْ مَوْضوعاً في حُدودِ الصَّفْحَةِ والنِّصْفِ عَنِ التَّحيةِ في الإسْلامِ ، واقْرَأْهُ على طَلَبةِ مَدْرَسَتِكَ في طابورِ الصَّباحِ .

* * *

الدَّرْسُ الخامِسُ والعِشْرونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الخامِسُ والعِشْرونَ

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

فِئَتَيْنِ : جَماعَتَيْنِ .

أَرْكَسَهُمْ : أَرْجَعَهُمْ مَنْكوسينَ ، وَالمَقْصودُ هُنا إلى الغَدْرِ والخِيانَةِ .

أَوْلِياءَ : نُصَراءَ وَمُعينينَ .

ميثاقٌ : عَهْدٌ .

حَصِرتْ : ضاقَتْ .

السَّلَمَ : الاسْتِسْلامَ والانْقيادَ .

الفِتْنَةِ : الشِّرْكِ .

ثَقِفْتُموهُمْ : وَجَدْتُّموهُمْ .

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) ﴾

يَقولُ سُبْحانَهُ ما لَكُمُ انْقَسَمْتُمْ في أَمْرِ المُنافِقينَ إلى فَريقَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ . وَالاسْتِفْهامُ اسْتِنْكارِيٌّ ، أَيْ : إِنْكارُ خِلافِ المُؤْمِنينَ في المُنافِقينَ ، وَالأَصْلُ أَنْ يَكونوا عَلى رَأْيٍ وَاحِدٍ .

والمَعْنَى : لَقَدْ بَيَّنْتُ لكُمْ مِنْ قَبْلُ أَيُّها المُؤْمِنونَ مِنْ أَحْوالِ المُنافِقينَ ، ما يَكْشِفُ عَنْ خُبْثِهِمْ وَبَيَّنْتُ لَكُمْ صِفاتِهِمُ الّتي يَنْبَغي أَنْ تَحْمِلَكُمْ عَلى الحَذَرِ مِنْهُمْ ، وإذا كانَ هذا حالُهُمْ ما الّذي جَعَلَكُمْ تَخْتَلِفونَ في شأْنِهِمْ وتَنْقَسِمونَ إلى فِئَتَيْنِ ؛ فِئَةٍ تُحْسِنُ الظَّنَّ بِهِمْ وَتُدافِعُ عَنْهُمْ ، وفِئَةٍ أُخْرى كانَتْ صادِقَةً سَليمَةً في أَحْكامِها فَحَذَّرَتْ مِنْهُمْ .

كَيْفَ تَخْتَلِفونَ أَيُّها المُؤْمِنونَ في شأْنِهِمْ وَلَقَدْ صَرَفَهُمُ اللهُ عَنِ الحَقِّ الّذي صِرْتُمْ أَنْتُمْ عَلَيْهِ، بِسَبَبِ ما اكْتَسَبوهُ مِنْ أَعْمالِ الشِّرْكِ ، وَهُمْ يَتَرَبَّصونَ بِكُمُ الدَّوائِرَ ، وَقَدْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَعالى يَنْتَكِسونَ عَلى رُؤوسِهِمْ ، فَقَدْ فَسَدَتْ فِطْرَتُهُمْ وبَعُدوا عَنِ الحَقِّ ، وَتَوَغَّلوا في الباطِلِ ، وبَعْدَ كُلِّ هذا أَتُريدُونَ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَنْ تُغَيِّروا مِنْ نَفْسِيّاتِ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ وتَعُدّوهُمْ مِنَ المُهْتَدينَ ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدِ اسْتَحَبُّوا العمَى عَلى الهُدَى ، وَمَنْ كَتَبَ اللهُ تَعالى لَهُ أَنْ يَكونَ ضالاً عَنْ طَريقِ الحَقِّ ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبيلاً إلى الحَقِّ ، وَذَلِكَ لأَنَّ مَنْ سَلَكَ طَريقَ الضَّلالَةِ بَعُدَ عَنْ طَريقِ الحَقِّ. وَقَدْ قالَ تَعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

إنَّ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ قَدْ تَمادَوْا في الكُفْرِ ، وَدَليلُ ذَلِكَ ما ذَكَرَهُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) ﴾

وَتَجِدُ المُنافِقينَ لا يَكْتَفونَ بِكُفْرِهِمْ ، بَلْ هُمْ يَتَمنَّوْنَ كُفْرَكُمْ كَذَلِكَ ، فَتَكونونَ أَنْتُمْ وَهُمْ مُتساوينَ في الكُفْرِ والنِّفاقِ ، وَإذا كانَ هذا هُوَ حالُهُمْ فَكَيْفَ تَطْمَعونَ في إيمانِهِمْ ؟ وَكَيْفَ تُحْسِنونَ الظَّنَّ بِهِمْ ؟ وإذا كانوا هُمْ كَذَلِكَ فَلا تَتَّخِذوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ أَوْ نُصَراءَ أَوْ أَصْدِقاءَ حَتّى تَتَحَقَّقوا مِنْ إِسْلامِهِمْ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُهاجِروا مِنْ دارِ الكُفْرِ الّتي يُقيمونَ فيها وَيُناصِرونَ أَهْلَها إلى دارِ الإيمانِ الّتي تُقيمونَ فيها ، وَيَنْضَمُّونَ إِلَيْكُمْ لِنُصْرَةِ الحَقِّ ، وإعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، إنَّ الصّادِقينَ في إيمانِهِمْ لا يَدَعونَ النَّبِيَّ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ عُرْضَةً لِلْخَطَرِ ، ولا يَتْرُكونَ الهِجْرَةَ إلاّ إذا عَجزوا عَنْها .

أَما إنْ أَعْرَضوا عَنِ الهِجْرَةِ في سَبيلِ اللهِ ، وَلَزِموا أَماكِنَهُمْ فَخُذوهُمْ إذا قَدِرْتُمْ عَلى أَسْرِهِمْ ،

واقْتُلوهُمْ أَيْنما وَجَدْتُموهُمْ سَواءٌ أَكانوا في الحِلِّ أَمْ في الحَرَمِ ، ولا تَتَّخِذوا مِنْهُمْ وَليّاً تُوالونَهُ وَتُصادِقونَهُ ، ولا نَصيراً تَنْتَصِرونَ بِهِ عَلى عَدُوِّكُمْ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾ .

واسْتَثْنَتِ الآياتُ مِنْ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ الّذين يَنْبَغي أَنْ يُقْتَلوا الفِئاتِ التّالِيَةَ :

١ـ الّذين يَلْتَجِئونَ وَيَدْخُلونَ في عَهْدِ قَوْمٍ مِنَ المُشْرِكينَ كانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَهْدُ أَمانٍ ، وَهَؤُلاءِ لا يَجوزُ لَكُمْ قَتْلُهُمْ ، حِفاظاً عَلى العَهْدِ الّذي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ حُلفائِهِمُ المُشْرِكينَ .

٢ـ الّذين جاءُوا إِلَيْكُمْ وَقَدْ ضاقَتْ نُفوسُهُمْ ، وَانْقَبَضَتْ صُدورُهُمْ عَنْ قِتالِكُمْ وَعَنْ قِتالِ قَوْمِهِمْ لأَنَّهُمْ مِنْهُمْ ، وَقَدْ يَخْشَوْنَ قِتالَكُمْ خَوْفاً عَلى أَمْوالِهِمْ أَوْ عَلى ذُرِّيّاتِهِمْ .

إِنَّ اللهَ تعالى قَدْ رَحِمَكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ ، وذَلِكَ بِأَنَّهُ كَفَّ بَأْسَ هَذَيْنِ الفَريقَيْنِ عَنْكُمْ ، وَصَرَفَهُمْ عَنْ قِتالِكُمْ وَلَو شاءَ اللهُ تعالى لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُقَوِّيَ قُلوبَهُمْ وَيُجَرِّءَهُمْ عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنَّهُ سُبْحانَهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَجَعَلَ مِنْهُمْ مَنْ يُسالِمُكُمْ .

وَتَسْليطُ اللهِ تَعالى الكافِرينَ عَلى المُؤْمِنينَ قَدْ يَكونُ عُقوبَةً لِلْمُؤْمِنينَ ، وذَلِكَ حِينَ يَنْتَشِرُ بَيْنَهُمُ المُنْكَرُ ، وَتَظْهَرُ المَعاصي ، وَهذا هُوَ حالُ أُمَّتِنا اليَوْمَ ، وقَدْ يَكونُ ابْتِلاءً واخْتِباراً ، كَما قالَ تَعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] .

وقَدْ خَتَمَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الآيَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ أيْ : إِنْ كَفَّتْ إِحْدى الفِئَتَيْنِ عَنْ قِتالِكُمْ ، وانْقادوا للصُّلْحِ والأمانِ ، واسْتَسْلَموا لأمْرِكُمْ وَرَضوا بِهِ ، فما أَذِنَ اللهُ لَكُمْ في أَخْذِهِمْ وقَتْلِهِمْ والاعْتِداءِ عَلَيْهِمْ ، فالاعْتِداءُ مِنْكُمْ لا يَكونُ إلاّ عَلى مَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ .

وبَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى حالَ جَماعةٍ أُخْرى مِنَ المُنافِقينَ المُخادِعينَ وهُمْ غَيْرُ المُسالِمينَ ، الّذين لا يُضْمِرونَ لِلْمُؤْمِنينَ إلاّ الشَّرَّ .

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾ .

إِنَّهُمْ فِئَةٌ لَمْ تَهْتَدِ وتَدْخُلْ في الإِسْلامِ ، ولَكِنَّهُمْ يُظْهِرونَ الإِسْلامَ أَمامَكُمْ يُريدونَ أَنْ يَأْمَنوكُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ حَتّى لا تَقْتُلوهُمْ ، وهُمْ كَذَلِكَ يُظْهِرونَ الكُفْرَ أَمامَ قَوْمِهِمْ ولا يَتَصدَّوْنَ لِقِتالِهِمْ لِيَأْمَنوهُمْ

عَلى أنفُسِهِمْ وأَمْوالِهِمْ ، إنَّهُمْ أُناسٌ يَأْتونَ إلى النَّبِيِّ ﷺ رياءً ثُمَّ يَرْجِعونَ إلى قُرَيْشٍ فَيَرتَكِسونَ في الأَوْثانِ ، يَبْتَغونَ بِذلِكَ أَنْ يَأْمَنوها ، فَأَمَرَ بِقتالِهِمْ إِنْ لَمْ يَعْتَزِلوا ويُصْلِحوا .

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ إِنْ لَمْ يَعْتَزِلوكُمْ ويَتْرُكوكُمْ وشَأْنَكُمْ ، ويَنْقادوا إِلَيْكُمْ بالصُّلحِ ، والاسْتِسْلام لأَمْرِكُمْ ، ويَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ عَنِ القِتالِ مَعَ المُشْرِكينَ ، إِنْ لَمْ يَفْعَلوا هذا فَخُذوهُمْ واقتُلوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُموهُمْ ، فَهُمْ لا عِلاجَ لَهُمْ غَيْرُ هذا ، وقَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ حُجَّةً بَيِّنَةً واضِحَةً في أَخْذِهِمْ وقَتْلِهِمْ ، وجَعَلَ لَكُمُ السُّلْطانَ والغَلَبَةَ عَلَيْهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الحَذَرُ مِنَ المُنافِقينَ ، الّذينَ يُظهِرونَ غَيْرَ ما يُبْطِنونَ ، والَّذينَ يَكونونَ مَعَ المُسْلِمينَ بِوَجهٍ ، ومَعَ غَيْرِهِمْ بِوَجهٍ آخَرَ .

٢ـ النَّهْيُ عَنْ مُوالاةِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ ، وَمَنْ أرادَ أَنْ يَتَّخِذَ وَلِيّاً وصَديقاً ونَصيراً ، فَلْيَكُنْ مِنَ المُؤْمِنينَ ، ولا يَكُنْ مِنَ المُنافِقينَ أَوِ الكافِرينَ .

٣ـ سُنَّةُ اللهِ في الأَرْضِ قَضَتْ بأَنْ يُسلِّطَ الكافِرينَ عَلى المُؤْمِنينَ ، إذا انْتَشَرَ المُنْكَرُ بَيْنَهُمْ ، وظَهَرَتِ المعاصي .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لِماذا تُعَدُّ هِدايَةُ المُنافِقينَ صَعْبَةً بَلْ مُسْتَحيلَةً ؟

٢ـ اسْتَثْنَتِ الآياتُ مِنَ المُنافِقينَ الّذينَ يَجِبُ أَنْ يُقْتَلوا فِئَتَيْنِ ، مَنْ هُما ؟

٣ـ أـ ما سَبَبُ اخْتِلافِ المُسْلِمينَ في شَأْنِ المُنافِقينَ ؟

ب ـ إِلى أَيِّ أَمْرٍ وَجَّهَ القُرْآنُ المُسْلِمينَ بِخُصوصِ المُنافِقينَ ؟

٤ـ فَسِّرْ كُلاًّ مِنَ الآياتِ التّالِيَةِ :

أـ ﴿وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ .

ب ـ ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ .

ج ـ ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ .

الدَّرْسُ السَّادِسُ والعِشرونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ السادِسُ والعِشْرونَ

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تَحْريرُ رَقَبَةٍ : إعْتاقُ إنسانٍ مَمْلوكٍ .

مُسَلَّمَةٌ : مُؤدَّاةٌ .

يَصَّدَّقوا : يَعْفوا .

التَّفْسيرُ :

لَقَدْ جاءَ هذا الدِّينُ العَظيمُ لِيُحافِظَ عَلى الإِنْسانِ ؛ نَفْسِهِ وعَقْلِهِ وَدينِهِ وعِرْضِهِ وَمالِهِ ، وشَرَعَ مِنَ الأَحْكامِ ما يَحْفَظُها وَيُحافِظُ عَلَيْها .

وَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَمّا فيهِ تَعَرضٌ لِنَفْسِ الإِنْسانِ وَدَمِهِ ، فَتَناوَلَتْ حُكْمَ القَتْلِ الخَطَأ . والقَتْلُ يَنْقَسِمُ إلى أَنْواعٍ ثَلاثَةٍ :

١ـ القَتْلُ العَمْدُ .

٢ـ القَتْلُ شِبْهُ العَمْدِ .

٣ـ القَتْلُ الخطأ .

قالَ تَعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾ .

إنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ المُؤْمِنِ وَلا مِنْ خُلُقِهِ أَنْ يَقْتُلَ أَحداً مِنَ المُؤْمِنينَ ، وذَلِكَ أَنَّ المُؤْمِنَ لا يَكْمُلُ إيمانُهُ إلاَّ إذا التَزَمَ بما عَلَيْهِ مِنْ حُقوقٍ تِجاهَ رَبِّهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وتِجاهَ النّاسِ ، وَمِنْ حَقِّ النّاسِ حَقْنُ دمائِهِمْ إنْ كانوا مُسْلِمينَ ، وَإِنْ حَصَلَ وقَتَلَ أحدٌ مُسْلِماً ، فَعَلَيْهِ القِصاصُ ، وهِيَ عُقوبَةٌ قَدَّرَها اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِحَقْنِ دِماءِ المسلمينَ .

وَالقَتْلُ الخَطَأُ أَنْ يَقْتُلَ إِنْسانٌ آخَرَ ، وَلَكِنْ دونَ قَصْدٍ مِنْهُ ، كَمَنْ يُريدُ أَنْ يَصيدَ حَيَواناً فَيَقْتُلُ إِنْساناً ، أَوْ مَنْ يَسيرُ في سَيّارَتِهِ فَيَدْهَسُ إِنْساناً فَيَموتُ .

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ حُكْمَ القَتْلِ الخَطَأ ، فَقالَ تَعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ ، أيْ : مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطأً فَعَلَيْهِ تَحْريرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، أَيْ : عِتْقُها مِنَ الرِّقِّ ، وَيُشْتَرَطُ أَنْ تَكونَ هَذِهِ الرَّقَبَةُ الّتي يُعْتِقُها مُؤْمِنَةً ، وذَلِكَ لأَنَهُ قَتَلَ نَفْساً مُؤْمِنَةً ، وعَلَيْهِ كَذَلِكَ أَنْ يَدْفَعَ لأَهْلِ المَقْتولِ الدِّيَةَ ، وَهِيَ المالُ الواجِبُ بِالجِنايَةِ عَلى الحُرِّ في النَّفْسِ ، وَهِيَ تُعْطَى إلى وَرَثَةِ المَقْتولِ تَطْييباً لِنُفوسِهِمْ بَعْدَ مَوْتِ أَحدِهِمْ ، وَقَدْ حَدَّدَتِ السُّنَّةُ النبويَّةُ هَذِهِ الدِّيَةَ وَهِيَ مائَةٌ مِنَ الإِبِلِ مُخْتَلِفَةٌ في أَعْمارِها ، أَوْ قيمَتِها مالاً ، وَالدِّيَةُ في القَتْلِ الخَطَأ تَكونُ عَلى العاقِلَةِ ، أَيْ : عَشيرَةِ القاتِلِ ، وَهِيَ مُؤَجَّلَةٌ لِمُدَّةِ ثَلاثِ سَنَواتٍ .

وَمَعْنى قَوْلِهِ : ﴿ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ أَيْ : إِلاَّ إذا تَبَرَّعَ أَهْلُ المَقْتولِ فَعَفوا وَصَفَحوا عَنِ القاتِلِ ، وذَلِكَ لأَنَّ الدِّيَةَ إنَّما شُرِعَتْ تَطْييباً لِقُلوبِ أَهْلِ المَقْتولِ ، حَتَّى لا تَقَعَ بَيْنَ أَهْلِ القاتِلِ وَالمَقْتولِ عَداوَةٌ وَبَغْضاءُ ، فَإذا عَفوا وَتَنازَلوا عَنِ الدِّيَةِ فَقَدْ طابَتْ نُفوسُهُمْ ، هذا إذا كانَ المَقْتولُ مِنَ المُؤْمِنينَ .

وَأَمّا إنْ كانَ هذا المَقْتولُ خَطَأً مِنْ أَعْدائِكُمْ ، فَفي ذَلِكَ تَفْصيلٌ : إذا كانَ المَقْتولُ مُؤْمِناً لَكِنَّهُ

يَعيشُ مَعَ الكافِرينَ ، والمُسْلِمونَ لا يَعْلَمونَ إيمانَهُ ، وذَلِكَ مِثْلُ الحارِثِ بنِ يَزيدَ الّذي كانَ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُمْ أَعْداءُ النَّبيِّ ﷺ وَالمُؤْمِنونَ في حَرْبٍ مَعَهُمْ ، وَلَمْ يَعْلَمِ المُسْلِمونَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ لأَنَّهُ لَمْ يُهاجِرْ ، وَقَدْ قَتَلَهُ عَيّاشُ بنُ أَبي رَبيعَةَ وَهُوَ لا يَعْلَمُ بإيمانِهِ ، فَالواجِبُ عَلى قاتِلِهِ عِتْقُ رَقَبَةٍ مِنْ أَهْلِ الإيمانِ فَقَطْ ، وَلا يَجِبُ عَلَيْهِ دَفْعُ الدِّيَةِ لأَهْلِهِ ، لأَنَّهُمْ مُحارِبونَ للإِسْلامِ والمُسْلِمينَ .

وَقَدْ يَكونُ هذا المَقْتولُ مِنْ قوم بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ وَهُدْنَةٌ ؛ أَيْ : عاهَدُوكُمْ عَلى السِّلْمِ فَلا يُقاتِلونَكُمْ ، فَالواجِبُ عَلَيْكُمْ في قَتْلِ المُعاهَدِ خَطَأً ، كَالواجِبِ عَلَيْكُمْ في قَتْلِ المُؤْمِنِ وَهُوَ دِيَةٌ تَدْفَعونَها إِلى أَهْلِ المَقْتولِ ، تَعْويضاً لَهُمْ عَنْ حَقِّهِمْ ، وَعِتْقُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ . وَدِيَةُ الكافِرِ هِيَ نِصْفُ دِيَةِ المُسْلِمِ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى الحُكْمَ فيمَنْ لَمْ يَجِدِ الرَّقَبَةَ ، إِمّا لأَنَّهُ لا يَمْلِكُ المالَ لِيَشْتَرِيَها ، أَوْ لِعَدَمِ وُجودِها بِسَبَبِ انْتِهاءِ عَهْدِ الرِّقِّ ، كَما هُوَ الحالُ في أَيّامِنا ، فَعَلَيْهِ صِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ ، لا يُفْطِرُ بَيْنَهُما أَبَداً إِلاّ بِعُذْرٍ شَرْعِيٍّ ، وَقَدْ شَرَعَ اللهُ تَعالى هَذِهِ الكَفّارَةَ لِيَتوبَ اللهُ عَلَيْكُمْ أَيُّها النّاسُ وَيُطَهِّرَ نُفوسَكُمْ مِنَ التَّهاوُنِ في أَرْواحِ النّاسِ وَدِمائِهِمْ .

وَقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِه تَعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ، أَيْ : كانَ سُبْحانَهُ وتَعالى وَما زالَ عَليماً بِالنفوسِ وما فيها ، حَكيماً في كُلِّ ما شَرَعَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى وَقَضاهُ .

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ .

وَبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنِ القَتْلِ الخَطَأِ ، انْتَقَلَتْ إِلى الحديثِ عَنِ القَتْلِ العَمْدِ ، فَبَيَّنَتْ أَنَّ جَزاءَ مَنْ يَقْتُلُ مُتَعَمِّداً جَهَنَّمُ خالِداً فيها ، أَيْ : ماكِثاً فيها مُدَّةً طَويلَةً لا يَعْلَمُ مِقْدارَها إِلاّ اللهُ ، وَغَضَبُ اللهِ عَلَيْهِ بِسَبَبِ ما ارْتَكَبَهُ وَأَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَهَيَّأَ لَهُ عَذاباً عَظيماً . فالعَذابُ كما رَأَيْنا مادِيٌّ وَهُوَ جَهَنَّمُ خالِداً فيها ، وَمَعْنَوِيٌّ وَهُوَ غَضَبُ اللهِ عَلَيْهِ وَطَرْدُهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وفي هذا تَهْديدٌ وَوَعيدٌ شَديدٌ لِمَنْ تَعَرَّضَ لِلنَّفْسِ الإِنْسانِيَّةِ عامِداً مُتَعَمِّداً .

دُروسٌ وَعِبَرٌ

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ النَّفْسُ الإِنْسانِيَّةُ مِنَ المُحَرَّماتِ الّتي لا يَجوزُ التَّعَرُّضُ لَها أَبَداً .

٢ـ قَتْلُ المُؤْمِنِ خَطَأً ، يوجِبُ عَلى الإِنْسانِ كَفّارَةً لِما ارْتَكَبَهُ ، وَدِيَةً يَدْفَعُها لأَهْلِ المَقْتولِ تَطْييباً لِنُفوسِهِمْ .

٣ـ التَّكافُلُ بَيْنَ المُسْلِمينَ ، والتَّعاونُ ، حَيْثُ أَوْجَبَ سُبْحانَهُ دِيَةَ القَتْلِ الخَطأ عَلى عاقِلَةِ القاتِلِ .

٤ـ القَتْلُ العَمْدُ ذَنْبٌ عَظيمٌ يَرْتَكِبُهُ الإِنْسانُ ، فَيوجِبُ جَزاءً عَظيماً مِنَ اللهِ تَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ عَدِّدِ الضَّروراتِ الخَمْسَ .

٢ـ يَنْقَسِمُ القَتْلُ إِلى ثَلاثَةِ أَقْسامٍ ، اذْكُرْها .

٣ـ عَرِّفِ القَتْلَ الخَطَأَ ، وهاتِ مِثالاً عَلَيْهِ .

٤ـ ما جَزاءُ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً ؟ وَما الحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ ؟ أَيِّدْ إِجابَتَكَ بِالدَّليلِ .

٥ـ ماذا يَتَرَتَّبُ عَلى مَنْ قَتَلَ خَطَأً كُلاًّ مِمَّنْ يَلي :

أـ المُؤْمِنُ الّذي يَعيشُ في بِلادِ المُسْلِمينَ .

ب ـ المُؤْمِنُ الّذي يَعيشُ في بِلادِ الكُفْرِ ولا يُعْرَفُ إِسْلامُهُ .

ج ـ الشَّخصُ الّذي يَعيشُ في بِلادٍ بَيْنَ أَهْلِها وَبَيْنَ المُسْلِمينَ عَهْدٌ وَصُلْحٌ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الضَّروراتِ الخَمْسَ الّتي شَرَعَ اللهُ حِفْظَها للإِنْسانِ .

٢ـ فَرِّقْ بَيْنَ هَذِهِ الأَنْواعِ مِنْ حَيْثُ المَعْنى ، واكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ عُقوبَةَ القَتْلِ العَمْدِ كَما جاءَ في سورَةِ البَقَرَةِ .

٤ـ اعْقِدْ مُقارَنَةً بَيْنَ القَتْلِ الخَطأ والقَتْلِ العَمْدِ مِنْ حَيْثُ العُقوبَةُ والدِّيَةُ .

* * *

الدَّرسُ السَّابعُ والعِشرونَ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ السّابِعُ والعِشْرونَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

ضَرَبْتُمْ في سَبيلِ اللهِ : سِرْتُمْ لِلسَّفرِ أَوْ لِلجِهادِ .

تَبيَّنوا : تَثَبَّتوا .

أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ : انْقادَ واسْتَسْلَمَ لَكُمْ .

مَغانِمُ كَثيرَةٌ : رِزْقٌ وَفَضْلٌ كَثيرٌ .

الضَّرَرِ : المَرَضِ .

الحُسْنَى : الجَنَّةَ .



التَّفسيرُ :

عَنِ ابنْ عَبّاسٍ قالَ : مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنى سُلَيْمٍ بِنَفَرٍ مِنْ أَصْحابِ النَّبيِّ ﷺ وَهُوَ يَسوقُ غَنَماً لَهُ ،

فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، فقالوا : ما سَلَّمَ عَلَيْنا إلاَّ لِيَتَعَوَّذَ مِنّا ، فَعَمَدوا إِلَيْهِ فَقَتَلوهُ وأَتَوْا بِغَنَمِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَنَزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ[1] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

يُخاطِبُ اللهُ سُبْحانَهُ المُؤْمنينَ ، مُنادِياً لَهُمْ بِهذا النِّداءِ المُحَبَّبِ إلى نُفوسِهِمْ لإلْهابِ مَشاعِرِهِمْ وَحَثِّهِمْ عَلى الالتِزام بِما أُمِروا بِهِ ، وَيَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ ، إذا سِرْتُمْ في الأَرْضِ لِلغَزْوِ وَجِهادِ الأَعْداءِ وَإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أَيْ : تَأَنَّوا في قَتْلِ مَنْ اشْتُبِهَ عَلَيْكُمْ أَمْرُهُ أَهُوَ مُسْلِمٌ أَمْ كافِرٌ ، وَتَثَبَّتوا مِنْ خَبَرِهِ ولا تُعَجِّلوا في قَتْلِهِ ، وَلا تَقولوا لِمَنِ انْقادَ لَكُمْ واسْتَسْلَمَ ، وَلَمْ يُقاتِلْكُمْ وَأَظْهَرَ إسلامَهُ ، ونَطَقَ بِالشَّهادَتَيْنِ ، لا تَقولوا لَهُ لَسْتَ مُؤْمِناً ، وَلَكِنَّكَ نَطَقْتَ بِالشَّهادَتَيْنِ خَوْفاً مِنَ القَتْلِ ، وذَلِكَ لأَنَّ عِلْمَ السَّرائِرِ للهِ تَعالى وَحْدَهُ . إِنَّهُ لا يَنْبَغي لَكُمْ أَنْ تَقْتُلوهُ طَمَعاً في مَتاعِ الدُّنْيا وَحُطامِها ، وذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعالى عِندَهُ الرِّزْقُ العَظيمُ ، وَالنِّعَمُ الّتي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قالَ للقاتل : « فَهَلاَّ شَقَقْتَ عَنْ بَطْنِهِ فَعَلِمْتَ ما في قَلْبِهِ »[2] .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ لِلْمُؤْمنينَ : ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : إِنَّكُمْ أَوَّلَ ما دَخَلْتُمْ الإِسْلامَ وَنَطَقْتُمْ بِالشَّهادَتَيْنِ حُقِنَتْ دِماؤُكُمْ ، وَلَمْ يَبْحَثْ أَحَدٌ أَوْ يَسْأَلْ عَمّا في قُلوبِكُمْ ، أَكانَ مُوافِقاً لِما نَطَقْتُمْ بِأَلْسِنَتِكُمْ أَمْ لا ؟

لَقَدْ مَنَّ اللهُ تَعالى عَلَيْكُم بِأَنْ عَصَمَ دِماءَكُمْ وَلَمْ يَأْمُرْ بِتَفَحُّصِ سَرائِرِكُمْ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَتَصَرَّفوا مَعَ الدّاخِلينَ في الإِسْلامِ كَما فُعِلَ بِكُمْ ، وَأَنْ تَكْتَفوا بِالظّاهِرِ .

وَقَدْ أَمَرَهُمُ اللهُ تَعالى بِالتَّبَيُّنِ مَرَّةً ثانِيَةً ، وَفي هذا ما فيهِ مِنَ المُبالَغَةِ والتَّحْذيرِ لِلْمُؤْمِنينَ ، وَالمَعْنى : إذا كانَ الأَمْرُ كَذلِكَ فَتَبَيَّنوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وداوِموا على شُكْرِها ، وَقيسوا أَحْوالَهُمْ عَلَيْكُمْ ، وَاقْبَلوا ما تَرَوْنَهُ وَتَسْمَعونَهُ مِنْ ظاهِرِ هَؤُلاءِ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ إِنَّهُ تَعالى خَبيرٌ بِأَعْمالِكُمْ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمّا في نُفوسِكُمْ ، فَيُحاسِبُكُمْ عَلَيْهِ ، إِنْ كانَ خَيْراً فَخَيْرٌ ، وَإِنْ كانَ شَرّاً فَشَرٌّ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٢٢٩ حديث رقم ٢٠٢٣ وذكره الحافظ في الفتح ٨/ ٢٥٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن برقم ٣٩٣٠ .

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ .

إنَّ القِتالَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى مِنْ أَعْظَمِ الأَعْمالِ الّتي يُتَقَرَّبُ بها إلى اللهِ تعالى ، وَلِذا لا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَوِيَ عِنْدَ اللهِ تَعالى القاعِدونَ عَنِ الجِهادِ في سَبيلِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى بِأَمْوالِهِمْ بُخْلاً وحِرْصاً عَلَيْها ، وبِأَنْفُسِهِمْ جُبْناً وَخَوْفاً ، مَعَ المُجاهِدينَ الّذينَ بَذَلوا أَمْوالَهُمْ وأَنْفُسَهُمْ في سَبيلِ اللهِ تَعالى . إن القاعِدينَ عَنِ الجِهادِ لا يُمْكِنُ أَنْ يَكونوا مُتَساوِينَ مَعَ المُجاهِدينَ ، إلاّ أُولَئِكَ الّذينَ قَعَدوا عَنِ الجِهادِ بِسَبَبِ عِلَّةٍ أَصابَتْهُمْ ، فَأَقْعَدَتْهُمْ عَنِ القِتالِ مِنْ عَرَجٍ أَوْ عَمىً أَوْ ضَعْفٍ .

لَقَدْ فَضَّلَ اللهُ تَعالى المُجاهِدينَ بِأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ عَلى القاعِدينَ عَنِ الجِهادِ بِسَبَبِ الضَّرَرِ دَرجَةً لا يَعْلَمُ قَدْرَها إلاّ اللهُ تَعالى ، فَقَدْ بَذَلوا أَنْفُسَهُمْ وَأَرْواحَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَلِذا فَقَدْ أَكْرَمَهُمُ اللهُ تَعالى بِالثَّوابِ العاجِلِ في الدُّنْيا مِنَ الغَنيمَةِ والظَّفَرِ والذِّكْرِ وَدَفْعِ شَرِّ الأَعْداءِ .

﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : وَعَدَ اللهُ تَعالى كُلاًّ مِمَّنْ جاهَدَ في سَبيلِهِ تَعالى وَقَعَدَ عَنْ الجِهادِ بِسَبَبِ العَجْزِ ، وَهُوَ يَتَمَنّى أَنْ لَوْ كانَ قادِراً لِيُشارِكَ بِالجِهادِ ، لَقَدْ وَعَدَهُمُ المَثوبَةَ الحُسْنى ، وَهِيَ الجَنَّةُ لِحُسْنِ عَقيدَتِهِمْ وَصِدْقِ نِيَّتِهِمْ .

﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ إنَّ اللهَ تَعالى فَضَّلَ المُجاهِدينَ عَلى الّذينَ قَعَدوا عَنِ الجِهادِ بِغَيْرِ عُذْرٍ أَوْ بِدونِ سَبَبٍ بِالأَجْرِ العَظيمِ وَالثَّوابِ الجَزيلِ ، وَالمَنْزِلَةِ الرَّفيعَةِ . وَهذا الأَجْرُ هُوَ دَرجاتٌ عَظيمَةٌ ، أَيْ : مَنازِلُ رَفيعَةٌ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وَالمَغْفِرَةُ مِنَ اللهِ تَعالى لِما كانَ مِنْهُمْ مِنْ ذُنوبٍ ، والرَّحْمَةُ ، وَهِيَ ما يَخُصُّهُمُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وإِحْسانِهِ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ وَهُوَ يَسيرُ إلى تَبوكٍ « إنَّ بِالمَدينَةِ أَقْواماً ما سِرْتُمْ مِنْ سَيْرٍ ، ولا قَطَعْتُمْ مِنْ وادٍ إلاّ وَهُمْ مَعَكُمْ فيهِ ، قالوا يا رَسولَ اللهِ ، وَهُمْ بِالمَدينَةِ ؟ قالَ : حَبَسَهُمُ العُذْرُ »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٤١٦١ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حُرْمَةُ دِماءِ المُسْلِمينَ ، فَمَنْ نَطَقَ بالشَّهادَتَيْنِ فَقَدْ عَصَمَ دَمَهُ ومالَهُ وعِرْضَهُ .

٢ـ عَدَمُ قَبولِ الأُمورِ والأَخْبارِ دونَ تَثَبُّتٍ وَتَيَقُّنٍ .

٣ـ المُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى لَهُمْ أَجْرٌ عَظيمٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى ، وَقَدْ فَضَّلَهُمْ اللهُ تَعالى عَلى القاعِدينَ عَنِ الجِهادِ .

٤ـ القاعِدونَ عَنِ الجِهادِ بِسَبَبِ ضَرَرٍ ، لَهُمْ أَجْرٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ قالَ تَعالى : ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ ما سَبَبُ نُزولِ هَذِهِ الآيَةِ ؟

٢ـ لِماذا خاطَبَ اللهُ المُؤْمِنينَ بهذا النِّداءِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أَمَنُوا﴾ ؟

٣ـ بِماذا مَنَّ اللهُ عَلى المُؤْمِنينَ بِقَوْلِهِ : ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ ؟

٤ـ لِماذا كانَ القِتالُ مِنْ أَعْظَمِ الأَعْمالِ الّتي يَتَقَرَّبُ بِها المُؤْمِنُ إلى اللهِ تَعالى ؟

٥ـ ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ﴾ ما المَقْصودُ هُنا بالحُسْنَى ؟

٦ـ فَضَّلَ اللهُ المُجاهِدينَ عَلى القاعِدينَ ، بَيِّنْ هذا التَّفْضيلَ عَلى كُلٍّ مِنْ :

أ ـ أَهْلِ الضَّرَرِ وَأَصْحابِ الأَعْذارِ الّذينَ قَعَدوا .

ب ـ القاعِدينَ بِغَيْرِ عُذْرٍ أَوْ ضَرَرٍ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً يُبَيِّنُ كَيْفَ يَعْصِمُ الإِسْلامُ دَمَ مَنْ يَدْخُلُ فيهِ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً يَدُلُّ عَلى حَثِّ الرَسولِ ﷺ عَلى الجِهادِ وَحَثِّ النَّفْسِ عَلَيْهِ .

* * *

الدَّرسُ الثَّامنُ والعِشرونَ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ الثّامِنُ والعِشْرونَ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تَوَفَّاهُم	: تَأْخُذُهُمْ أَخْذاً وافِياً كامِلاً لا نَقْصَ فيهِ، ويُقْصَدُ بِهِ هُنا الوَفاةُ عِنْدَ المَوْتِ .
مُسْتَضْعَفينَ في الأَرْضِ	: لا نَقْوَى عَلى إقامَةِ شَعائِرِ دينِنا .
مَأْواهُمْ	: مَسْكَنُهُمْ .
حِيلَةً	: طَريقاً لِلخَلاصِ مِنْ تَسَلُّطِ الكافِرينَ .
مُراغَماً	: مَكاناً لِلْهِجْرَةِ وَمَأْوَىً يُصيبُ فيهِ الخَيْرَ .

التَّفسيرُ :

تَحَدّثَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَنِ المُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ ، وَالقاعِدينَ عَنِ الجِهادِ ، وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدّثَ عَنْ أُولَئِكَ الَّذينَ يَقْطُنونَ في دارِ الكُفْرِ ، وَهُمْ مُسْلِمونَ ، وقَدْ أَذَلَّهُمُ الكُفَّارُ ، وَاسْتَضْعَفوهُمْ وَمَنَعوهُمْ مِنْ إقامَةِ شَعائِرِ دينِهِمْ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُهاجِروا إِلى دارِ الإِسْلامِ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ .

إنَّ هؤلاءِ الّذين توفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ ، وَقَبَضَتْ أَرْواحَهُمْ حينَ انْتُهَتْ آجالُهُمْ ، حالَةَ كَوْنِهِمْ قَدْ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ بِسَبَبِ رِضاهُمْ بِالذُّلِّ وَالهَوانِ ، وَبِسَبَبِ إِقامَتِهِمْ في أَرْضٍ لا يَسْتَطيعونَ فيها مُباشَرَةَ تَعاليمِ دينِهِمْ وَنُصْرَتَهُ وَإِظْهارَ شَعائِرِهِ ، إنَّ هَؤُلاءِ تَسْأَلُهُمُ المَلائِكَةُ سُؤَالَ تَوْبيخٍ وَتَقْريعٍ في أَيِّ شَيْءٍ كُنْتُمْ مِنْ أَمْرِ دينِكُمْ ؟ أَكُنْتُمْ في عِزَّةٍ أَمْ ذِلَّةٍ ؟ وَكَيْفَ رَضِيتُمْ أَنْ تَظَلُّوا في دارِ الكُفْرِ مَعَ الذينَ أَذَلُّوكُمْ وَأَهانوكُمْ ؟ وَسَخِروا مِنْ دينِكُمْ ؟

وَلَكِنْ بِماذا أَجابوا المَلائِكَةَ ؟ قالوا : كُنّا مُسْتَضْعَفينَ في الأَرْضِ ، لَقَدِ اعْتَذَروا بِهذا العُذْرِ الواهي عَنْ تَقْصيرِهِمْ ، فَقالوا : لَقَدْ كُنّا في الدُّنْيا مُسْتَضْعَفينَ ، اسْتَضْعَفَنا أَهْلُ الشِّرْكِ في أَرْضِنا وَبِلادِنا ، وَأَذَلُّونا حَتّى عَجِزْنا عَنِ القِيامِ بِواجِباتِ الدِّينِ . إنَّ هذا الاعْتِذارَ قَبيحٌ يَدُلُّ عَلى هَوانِهِمْ وَضَعْفِ نُفوسِهِمْ .

وَهَلْ قَبِلَتِ المَلائِكَةُ هذا العُذْرَ ؟ بِالطَّبْعِ إِنَّها لَمْ تَقْبَلْ ؟ فَبِماذا رَدَّتْ عَلى هَؤُلاءِ المُسْتَضْعَفينَ ؟ لَقَدْ قالَتْ لَهُمْ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ والاسْتِفْهامُ إِنْكارِيٌّ تَوْبيخِيٌّ ، وَذَلِكَ أَنَّ الأَرْضَ الّتي خَلَقَها اللهُ تَعالى واسِعَةٌ ، فَكانَ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَرْحَلوا إِلى قُطْرٍ آخَرَ مِنَ الأَرْضِ ، يَقْدِرونَ فيهِ عَلى إِقامَةِ دينِهِمْ وَتَحْريرِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الانْجِرافِ خَلْفَ الكافِرينَ .

إنَّ أُولئِكَ الّذينَ اسْتُضْعِفوا مِنْ قِبَلِ المُشْرِكينَ ، وَقَبِلوا بِالذُّلِّ وَظَلَموا أَنْفُسَهُمْ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَتْ مَصيراً لَهُمْ . إنَّ الإِنْسانَ الّذي لا يَتَمَكَّنُ مِنْ إِقامَةِ دينِهِ كَما يَجِبُ وَكَما يَنْبَغي في بَلَدِهِ وَجَبَتْ عَلَيْهِ الهِجْرَةُ إِلى بَلَدٍ آخَرَ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ ذَلِكَ .

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

وَقَدِ اسْتَثْنى سُبْحانَهُ وتعالى مِنْ هذا المَصيرِ السَّيِّءِ أَصْنافاً ثَلاثَةً : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ إِنَّهُمْ الرِّجالُ الّذينَ عَجزوا عَنِ الهِجْرَةِ لِضَعْفِهِمْ أَوْ مَرَضِهِمْ أَوْ شَيْخوخَتِهِمْ ، وَالنِّساءُ اللّاتي لا يَسْتَطِعْنَ الخُروجَ ، وَالوِلْدانُ الّذينَ لَمْ يَبْلُغوا الحُلُمَ ، ولا يَسْتَطيعونَ الهِجْرَةَ بِمُفْرَدِهِمْ .

وَقَدْ قالَ عَنْهُمْ سُبْحانَهُ فَقَدْ ضاقَتْ بِهِمُ الحِيَلُ ، فَلَمْ يَسْتَطيعوا الهِجْرَةَ إِمّا لِلْعَجْزِ كَمَرَضٍ ، وَإِمّا لِلفَقْرِ ، وَإِمّا لِلْجَهْلِ بِمَسالِكِ الأَرْضِ ، فَلَوْ خَرَجوا لَهَلَكوا ، أُولَئِكَ عَسى أَنْ يَعْفُوَ اللهُ عَنْهُمْ وَيَتَجاوَزَ عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَلا يُؤاخِذُهُمْ عَلى إِقامَتِهِمْ في دارِ الكُفْرِ . وَفي هذا بَيانٌ مِنَ اللهِ تَعالى بِأَنَّ تَرْكَ الهِجْرَةِ مِنْ دارِ الكُفْرِ أَمْرٌ خَطيرٌ ، فَلابُدَّ أَنْ يُهاجِرَ المُسْلِمُ وَلَوْ بِاسْتِعْمالِ الحِيَلِ ،

وعليهِ أَنْ يُحدِّثَ نَفْسَهُ دائِماً بِالهِجْرَةِ ، وَيَتَرَصَّدَ كُلَّ فُرْصَةٍ لها وبِخاصَّةٍ إذا مُنِعَ مِنْ إقامَةِ دينِهِ .

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

إنَّ الهِجْرَةَ مِنْ دارِ الكُفْرِ فيها إعْلاءٌ لِكَلِمَةِ اللهِ تَعالى : ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ ﴾ مَنْ يُهاجِرْ بِقَصْدِ إرْضاءِ اللهِ تَعالى ، وَإقامَةِ دينِهِ كَما يَجِبُ وَكَما يُحِبُّ يَجِدْ مُراغَماً كَثيراً ، وَالمُراغَمُ : المَتَحَوَّلُ وَالمُتَزَحْزَحُ ، فَهُوَ اسْمُ المَوْضِعِ الّذي يُراغَمُ فيهِ ، وَقَدْ اشْتُقَّ مِنَ الرُّغام ؛ التُّرابِ ؛ ويُقالُ رَغِمَ أَنْفُ فُلانٍ ، أَيْ : لَصِقَ بِالتُّرابِ ، وَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ لِتُبَيِّنَ أَنَّ هذا الّذي أَرْغَمَتْ قُرَيْشٌ أَنْفَهُ فَأَذَلَّتْهُ وَاسْتَضْعَفَتْهُ ، لَوْ هاجَرَ فَإنَّهُ سَيُرْغِمُ أُنوفَ قُرَيْشٍ لأَنَّهُ سَيَصيرُ في مَنَعَةٍ مِنْهُمْ .

إنَّ مَنْ يُهاجِرْ تارِكاً دارَ الكُفْرِ مِنْ أَجْلِ إعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وإعْزازِ دينِهِ ، يَجِدْ في الأَرْضِ أَماكِنَ كَثيرَةً يَأْمَنُ فيها مَكْرَ أَعْداءِ اللهِ تَعالى وَظُلْمَهُمْ ، ويَجِدْ فيها كَذلِكَ كَثيراً مِنَ الخَيْرِ والنِّعْمَةِ والسِّعَةِ في الرِزْقِ ما يَكونُ سَبيلاً يُرْغِمُ بِهِ أُنوفَ مَنْ كانوا يَسْتَضْعِفونَهُ .

وَبَعْدَ أَنْ وَعَدَ اللهُ سُبْحانَهُ مَنْ يَخْرُجُ في سَبيلِهِ مُهاجِراً بِالعِزَّةِ وَالخَيْرِ الوَفيرِ ، تَحَدَّثَ عَمَّنْ يَخْرُجُ مُهاجِراً في سَبيلِهِ سُبْحانَهُ ، وَلَكِنَّهُ يَموتُ في الطَّريقِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إلى المَكانِ الّذي يَأْمَنُ فيهِ عَلى دينِهِ ، وأَنَّ هَذا قَدْ وَجَبَ أَجْرُهُ عَلى اللهِ تَعالى ، وَلَمْ يَذْكُرْ سُبْحانَهُ ماهِيَّةَ هَذا الأَجْرِ بَلْ تَرَكَهُ مُبْهَماً (أَجْرُهُ) لِيَدُلَّ عَلى عَظَمَتِهِ وَيُؤَكِّدَ ثُبوتَهُ ، ولِلهِ تَعالى أَنْ يوجِبَ عَلى نَفْسِهِ ما يَشاءُ وَهذا تَفَضُّلٌ وكَرَمٌ مِنْهُ تَعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فَيَغْفِرُ لأَمْثالِ هَؤُلاءِ المُهاجِرينَ وَيَرْحَمُهُمْ رَحْمَةً واسِعَةً مِنْهُ سُبْحانَهُ ، نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أَنْ يَرْحَمَنا جَميعاً رَحْمَةً تُغْنينا عَنْ رَحْمَةِ مَنْ سِواهُ .

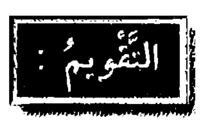
دُروسٌ وعِبَرٌ

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وجوبُ الهِجْرَةِ مِنَ البَلَدِ الّتي لا يَسْتَطيعُ المُسْلِمُ أَنْ يُقيمَ شَعائِرَ دينِهِ فيها .

٢ـ مَنْ خَرَجَ لِلهِجْرَةِ في سَبيلِ اللهِ وَماتَ في الطَّريقِ أَعْطاهُ اللهُ تَعالى أَجْراً عَظيماً .

٣ـ يَجِبُ عَلى جَماعَةِ المُسْلِمينَ أنْ تَكونَ لَهُمْ دَوْلَةٌ قَوِيَّةٌ تَنْشُرُ دَعْوَةَ الإسْلامِ وَتُقيمُ أَحْكامَهُ وَحُدودَهُ وَتَحْمي دُعاتَهُ وَأَهْلَهُ .



التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مِنْ خِلالِ هَذِهِ الآياتِ وَرَدَ حِوارٌ بَيْنَ المَلائِكَةِ ومَنْ يَتوفَّوْنَهُمْ ، اذْكُرْ هذا الحِوارَ ، وماذا نَسْتَفيدُ مِنْهُ ؟

٢ـ ما حُكْمُ مَنْ أَقامَ بِدارِ الكُفْرِ وَعَجزَ عَنِ القيامِ بِأُمورِ دينِهِ ؟

٣ـ اسْتَثْنَتِ الآياتُ مِنَ الّذين هاجَروا وَتَركوا ديارَهُمْ وَلَمْ يَرْجِعوا إِلى دارِ الإِيمانِ ثَلاثَةً عَفا اللهُ عَنْهُمْ وَتَجاوَزَ عَنْهُمْ ، اذْكُرْهُمْ .

٤ـ قالَ تَعالى : ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ اشْرَحْ هَذِهِ الآيَةَ الكَريمَةَ .

٥ـ ماذا نَسْتَفيدُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ صورَتَيْنِ لِما يُجْبَرُ عَلَيْهِ المُسْلِمونَ في بِلادِ الكُفْرِ اليَوْمَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً يَدُلُّ عَلى أَنَّ الإِنْسانَ يُحاسَبُ عَلى نِيَّتِهِ .

فَكِّرْ :

ـ اذْكُرِ الفَرْقَ بَيْنَ مَنْ يُضطَرُّ لأَكْلِ الحَرامِ فَيَأْكُلُهُ مُضطَرّاً ، ومَنْ يَعْصي اللهَ ، ويُعَطِّلُ أَحْكامَ دينِهِ لِيُرْضِيَ الكُفّارَ الّذينَ يَعيشُ مَعَهُمْ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ والعِشْرونَ

سورةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ التّاسِعُ والعِشرونَ

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾



ضَرَبْتُمْ في الأَرْضِ : سافَرْتُمْ فيها .

جُناحٌ : تَضْييقٌ وَإِثْمٌ .

يَفْتِنَكُمْ : يُؤْذوكُمْ بِالقَتْلِ وَبِغَيْرِهِ .



﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ .

شَرَعَ اللهُ تَعالى مِنَ الأَحْكامِ ما فيهِ تَيْسيرٌ عَلى المُسْلِمينَ ، وَرَفْعَ الحَرَجَ وَالمَشَقَّةَ عَنْهُمْ . لَقَدْ جاءَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ أَحْكامِ مَنْ سافَرَ لِلْجِهادِ ، أَوْ هاجَرَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَأَرادَ أَنْ يُصَلِّيَ

وَلَكِنَّهُ خاف أَنْ يُفْتَنَ فيها ، فَأَباحَ لَهُمْ سُبْحانَهُ قَصْرَ الصَّلاةِ ، وَبَيَّنَ لَهُمْ كَيْفَ يُؤَدُّونَها في حالِ الجِهادِ وَالخَوْفِ مِنْ مُباغَتَةِ العَدُوِّ .

يَقولُ سُبْحانَهُ لِلْمُؤْمِنينَ : إذا سافَرْتُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ حَرَجٌ أَوْ إِثْمٌ في أَنْ تَقْصُروا الصَّلاةَ ، أَيْ : أَنْ تُنْقِصوا مِنْها تَخْفيفاً مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةً .

إِنْ خِفْتُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَكُمُ العَدُوُّ بِما تَكْرَهونَهُ حينَ تُسافِرونَ ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ حَرَجٌ أَنْ تَقْصُروا مِنَ الصَّلاةِ ، وَذَلِكَ لأَنَّ الكافِرينَ كانوا وَما يَزالونَ أَعْداءً لَكُمْ ، يُظْهِرونَ العَداوَةَ ، وَما يُخْفونَهُ لَكُمْ في صُدورِهِمْ مِنْ حَسَدٍ وَحِقْدٍ وَكَراهِيَةٍ أَكْبَرُ وَأَشَدُّ مِمَّا يُظْهِرونَهُ لَكُمْ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَحْذَروهُمْ .

إِنَّ القَصْرَ في الصَّلاةِ لِلْمُسافِرِ رُخْصَةٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَهُوَ سُبْحانَهُ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصُهُ كَما يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزائِمُهُ ، وَالمَسافَةُ الَّتي تُبيحُ القَصْرَ لِلْمُسافِرِ قَدَّرَها العُلَماءُ بِـ (٨١ كم) ، فَإِذا سافَرَ الإِنْسانُ سَفَراً يَقْطَعُ فيهِ هَذِهِ المَسافَةَ ، فَيُباحُ لَهُ القَصْرُ في الصَّلاةِ .

لَقَدْ أَباحَ اللهُ تَعالى قَصْرَ الصَّلاةِ لِلْمُسافِرِ سَواءٌ أَكانَ في حالَةِ أَمْنٍ أَمْ حالَةِ خَوْفٍ ، وَلَكِنَّهُ سُبْحانَهُ قَيَّدَ هُنا القَصْرَ بِقَوْلِهِ ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ لأَنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ الغالِبِ ، فَقَدْ كانَ المُؤْمِنونَ لا يَأْمَنونَ في أَسْفارِهِمْ ، بَلْ إِنَّهُمْ كانوا لا يُسافِرونَ إِلاَّ لِغَزْوٍ أَوْ جِهادٍ ، وَقَدْ وَرَدَتِ الأَحاديثُ الكَثيرَةُ الَّتي تَدُلُّ عَلى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يَقْصُرُ وَهُوَ آمِنٌ .

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ كَيْفِيَّةَ صَلاةِ الخَوْفِ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ إِذا كُنْتَ في جَماعَتِكَ مِنَ المُؤْمِنينَ ، وَأَرَدْتَ أَنْ تُقيمَ الصَّلاةَ فيهِمْ ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَقْسِمَ جَماعَتَكَ إِلى قِسْمَيْنِ :

القِسْمُ الأَوَّلُ : يَقِفونَ لِيُصَلُّوا مَعَكَ ، وَهَؤُلاءِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْمِلوا أَسْلِحَتَهُمْ مَعَهُمْ وَهُمْ يُصَلّونَ ، حَتَّى لا يُباغِتَهُمُ العَدُوُّ وَلَيْسَ مَعَهُمْ أَسْلِحَةٌ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَكونوا عَلى اسْتِعْدادٍ لِلْقِتالِ .

القِسْمُ الثَّاني : يَقِفونَ في مُواجَهَةِ العَدُوِّ وَراءَ الطَّائِفَةِ الَّتي تُصَلّي ، مِنْ أَجْلِ حِراسَتِهِمْ خَوْفاً مِنَ الاعْتِداءِ عَلَيْهِمْ .

﴿ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ ﴾ أَيْ إِذا سَجَدَ الَّذينَ يُصَلُّونَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلْيَكُنِ الَّذينَ

يَحْرُسونَهُمْ خَلْفَهُمْ ، إِذْ أَحْوَجُ ما يَكونُ المُصَلُّونَ لِلْحِراسَةِ حينَ السُّجودِ ، فَإِذا أَنْهى النَّبيُّ ﷺ الرَّكْعَةَ الأُولى بَقِيَ جالِساً ، وَيَقومُ المُصَلُّونَ لِيُتِمُّوا الرَّكْعَةَ الثَّانِيَةَ وَيُسَلِّموا ، ثُمَّ تَأْتِي الطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ الَّذينَ لَمْ يُصَلُّوا وَيَقِفونَ خَلْفَ النَّبيِّ ﷺ ثُمَّ يَقومُ لِيُصَلِّيَ بِهِمْ رَكْعَةً ، وَيَبْقى جالِساً ، حَتَّى يَقوموا هُمْ وَيُتِمُّوا لأَنْفُسِهِمُ الرَّكْعَةَ الثَّانِيَةَ ، وَيُسَلِّموا مَعَ النَّبيِّ ﷺ ، وَعَلى هَذِهِ الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ أَنْ تُصَلِّيَ كَذَلِكَ ، وَهُمْ يَحْمِلونَ أَسْلِحَتَهُمْ ، وَالطَّائِفَةُ الَّتي صَلَّتْ تَحْرُسُهُمْ .

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى الطَّائِفَةَ الثَّانِيَةَ بِالحَذَرِ وَلَمْ يَأْمُرِ الطَّائِفَةَ الأُولى ، وَالحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ العَدُوَّ لا يَتَنَبَّهُ في أَوَّلِ الصَّلاةِ لِبَدْءِ المُسْلِمينَ فيها ، فَهُوَ عِنْدما يَرى المُسْلِمينَ قَدْ اصْطَفُّوا يَظُنُّهُمْ قَدْ اصْطَفُّوا لِلْقِتالِ ، فَإِذا رَآهُمْ سَجَدوا عَلِمَ أَنَّهُمْ يُصَلُّونَ ، وَلِذا يُخْشى أَنْ يَأْتِيَ وَيَهْجُمَ عَلى الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ عِنْدَ قِيامِها لِلصَّلاةِ ؛ وَلِذا أَمَرَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى بِالحَذَرِ .

وقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ عِلَّةَ أَخْذِ الحَذَرِ وَالسِّلاحِ ، فَقالَ : ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ إِنَّ عَدُوَّكُمْ يَتَمَنَّى أَنْ تَغْفَلوا وَلاَ تَتَنَبَّهوا لأَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمُ الَّتي لا تَسْتَغْنونَ عَنْها كَالمَلابِسِ وَالأَطْعِمَةِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْمِلونَ عَلَيْكُمْ حَمْلَةً واحِدَةً قَوِيَّةً شَديدَةً لِيَقْتُلوا مِنْكُمْ مَنْ يَسْتَطيعونَ قَتْلَهُ ، وَلِذا عَلَيْكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَنْ تَكونوا في أَقْصى دَرَجاتِ الحَذَرِ والتَيَقُّظِ .

وَقَدْ رَخَّصَ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِبَعْضِ المُقاتِلينَ أَنْ يَضَعوا السِّلاحَ وَلاَ يَحْمِلوهُ فَقالَ تَعالى :

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾

أَيْ لاَ حَرَجَ عَلَيْكُمْ وَلاَ إِثْمَ أَنْ تَضَعوا أَسْلِحَتَكُمْ وَلاَ تَحْمِلوها ، إِذا كانَ حَمْلُها يَشُقُّ عَلَيْكُمْ ، وذَلِكَ في حالِ المَطَرِ حيثُ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ حَمْلُهُ مَعَ ثِقَلٍ في ثِيابِهِمْ ، أو خوفاً على السِّلاحِ أَنْ يَصْدأَ مِنَ الماءِ ، وكذلِكَ إِذا كُنتُمْ مرضى بِسَبَبِ جراحٍ أصابَتْكُمْ أو غيرِ ذَلِكَ ، فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ لاَ تَحْمِلوا السِّلاحَ ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْخُذوا حِذْرَكُمْ ، وَأَنْ لا تَغْفَلوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ وَأَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ لَقَدْ أَعَدَّ لَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَذاباً يُذِلُّهُمْ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، أَمَّا في الدُّنْيا فَيَكونُ بِنَصْرِ المُؤْمِنينَ عَلَيْهِمْ ، وَإِذْهابِ قُوَّتِهِمْ ، وَأَمَّا في الآخِرَةِ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً عَظيماً في نارِ جَهَنَّمَ يُذِلُّهُمْ وَيُهينُهُمْ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ واقِعِيَّةُ هَذا الدِّينِ في أَحْكامِهِ ، حَيْثُ أَباحَ قَصْرَ الصَّلاةِ لِلْمُسافِرِ تَخفيفاً عَنْهُ وَرَحْمَةً بِهِ .

٢ـ مَشْروعِيَّةُ صَلاةِ الخَوْفِ عِنْدَ خَوْضِ المُسْلِمينَ لِلمَعْرَكَةِ مَعَ العَدُوِّ .

٣ـ تَنْبيهُ المُسْلِمينَ عَلى أَخْذِ الحيطَةِ والحَذَرِ في كُلِّ أُمورِهِمْ وَفي كُلِّ أَزْمانِهِمْ حَتَّى لا يُفاجِئَهُمُ العَدُوُّ وَيُباغِتَهُمْ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيةِ :

١ـ بَيِّنْ كَيْفَ تَتِمُّ صلاةُ الخَوْفِ .

٢ـ ما مَسافَةُ السَّفرِ الَّتي تُحِلُّ لِلْمُسْلِمِ قَصْرَ الصَّلاةِ ؟

٣ـ ما رَأْيُكَ فيمَنْ يُصَلِّي الصَّلاةَ الرُّباعِيَّةَ أَرْبَعاً وَهُوَ مُسافِرٌ ؟

٤ـ لِماذا أَمَرَ اللهُ عِبادَهُ المُصَلِّينَ بِالحَذَرِ عِنْدَ صَلاتِهِمْ في أَثْناءِ القِتالِ ؟

٥ـ مَاذا أَعَدَّ اللهُ لِلكافِرينَ ؟

٦ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ كَيْفِيَّةَ صَلاةِ الخَوْفِ ، اذْكُرْها مُؤَيِّداً قَوْلَكَ بِالدَّليلِ .

٧ـ مَتى أَباحَ اللهُ لِلمُقاتِلينَ وَضْعَ السِّلاحِ وَالأَمْتِعَةِ ؟



١ـ كَيفَ تُقْصَرُ الصَّلاةُ إذا كانَتْ رُباعِيَّةً كَالعَصْرِ ، أَوْ ثُلاثِيَّةً كَالمَغْرِبِ ؟ اكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أَمْراً آخَرَ يَسَّرَ اللهُ فيهِ عَلى المُسْلِمينَ في السَّفَرِ .

٣ـ ارْجِعْ إلى أَحَدِ كُتُبِ الفِقْهِ المَوْجودَةِ في مَكْتَبَةِ المَدْرَسَةِ ، واكْتُبْ مَوْضوعاً عَنْ صَلاةِ الخَوْفِ : حُكْمُها ، حِكْمَةُ مَشْروعِيَّتِها ، كَيْفِيَّتُها ، وَضَعِ المَوضوعَ في مَجَلَّةِ المَدْرَسَةِ .



عَنْ يَعْلَى بن أُمَيَّةَ قالَ : قُلْتُ لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ : إِنَّ اللهَ يَقولُ ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ وَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ ، فَقالَ : عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ فَسأَلْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقالَ : « صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِها عَلَيْكُمْ ، فَاقْبَلوا صَدَقَتَهُ »[١] .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الصحيح ، حديث رقم ٦٨٦ .

الدرس الثالثة

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثَّلاثونَ

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾

معاني المفردات :

كِتاباً مَوْقوتاً : فَرْضاً مُؤَقَّتاً بِأَوْقاتٍ مُحَدَّدَةٍ .

تَهِنوا : تَضْعُفوا .

ابْتِغاءَ : طَلَب .



التفسير :

لَقَدْ بَيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ كَيْفَ تَكونُ صَلاةُ الخَوْفِ ، وَجاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتُبَيِّنَ ماذا عَلى المُسْلِمينَ أَنْ يَفْعَلوهُ بَعْدَ أدائِهِمْ لِلصَّلاةِ ، قَالَ تَعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

أَيْ : إذا فَرَغْتُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ مِنْ أَداءِ صَلاةِ الخَوْفِ كَما أَمَرْتُكُمْ فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَذْكُروا اللهَ تعالى

وَتُداوِموا عَلى ذَلِكَ ، وَذَلِكَ بِأَنْ تَتَذَكَّروا وَعْدَهُ سُبْحانَهُ بِالنَّصْرِ في الدُّنْيا ، وَنَيْلَ ثَوابِهِ في الآخِرَةِ ، وَأَنْ تَذْكُروهُ سُبْحانَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ بِالحَمْدِ وَالتَّهليلِ وَالتَّسْبيحِ والتَّكْبيرِ وَالدُّعاءِ في جَميعِ أَحوالِكُمْ ، سواءٌ أَكُنْتُمْ قائِمينَ أَمْ قاعِدينَ أَمْ مُضْطَجِعينَ عَلى جُنوبِكُمْ ، وَذَلِكَ لأَنَّ ذِكْرَ اللهِ تَعالى يُقَوِّي القُلوبَ وَيُثَبِّتُها وَيَجْعَلُها تَطْمَئِنُّ ، وَقَدْ قالَ تَعالى : ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد : ٢٨] .

لَقَدْ أُمِرَ المُسْلِمونَ بِذِكْرِ اللهِ تَعالى في كُلِّ حالٍ في السِّلْمِ والحَرْبِ وَالخَوْفِ وَالأَمْنِ ، وَيَكونُ المُسْلِمُ في حالَةِ الخَوْفِ وَمُلاقاةِ العَدُوِّ أَحْوَجَ ما يَكونُ إِلى عَوْنِ اللهِ تَعالى وَتَأْييدِهِ وَنَصْرِهِ ، فَلاَ بُدَّ مِنَ الدُّعاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلى اللهِ تَعالى بِأَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلى عَدُوِّهِمْ .

وَإِذا وَضَعَتِ الحَرْبُ أَوْزارَها وَاطْمَأْنَنْتُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ ، وَسَكَنَتْ قُلوبُكُمْ وَذَهَبَ عَنْكُمُ الخَوْفُ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الصَّلاةَ كامِلَةً غَيْرَ مَنْقوصَةٍ ، بِأَرْكانِها وَشُروطِها وَخُشوعِها ، وَذَلِكَ لأَنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلى المُؤْمنينَ فَرْضاً مُحَدَّداً بِأَوْقاتٍ لا يَجوزُ مُجاوَزَتُها ، بَلْ لا بُدَّ مِنْ أَدائِها في أَوْقاتِها .

وَما زالَتِ الآياتُ في سِياقِ قِتالِ المُسْلِمينَ لِلمُشْرِكينَ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

لا تَضْعُفوا في طَلَبِ القَوْمِ الَّذينَ قاتَلوكُمْ وَناصَبوكُمُ العَداءَ ، وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَعِدُّوا لِقِتالِهِمْ ، وَذَلِكَ لأَنَّ ما يُصيبُكُمْ مِنْ آلامٍ وَجِراحٍ قَدْ أَصابَ أَعْداءَكُمْ ، وَهُمْ مَعَ هَذا يَصْبِرونَ ، فَمالَكُمْ لا تَصْبِرونَ ، وَأَنْتُمْ أَوْلى مِنْهُمْ بِالصَّبْرِ ، لأَنَّكُمْ تَرْجونَ بِقِتالِكُمْ وَصَبْرِكُمْ رِضا اللهِ تَعالى وَإِعْلاءَ كَلِمَتِهِ وَحُسْنَ مَثوبَتِهِ ، وَتَرْجونَ كَذَلِكَ نَصْرَ اللهِ تَعالى أَوْ الشَّهادَةَ في سَبيلِهِ سُبْحانَهُ ، وَهذا ما لا يَرْجونَهُ هُمْ ، فَإِنَّهُمْ يُقاتِلونَ وَلا رَجاءَ لَهُمْ في شَيْءٍ إِلاَّ إِرْضاءَ الشَّيْطانِ وَنُصْرَةَ باطِلِهِمْ ، وَالحُصولَ عَلى عَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ زائِلٍ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَيْ كانَ وما زالَ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَليماً بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَعْمالِكُمْ ، حَكيماً في كُلِ ما يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهى عَنْهُ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَأْمُرَ المُسْلِمينَ بِالتزامِ الحَقِّ في كُلِّ شُؤُونِهِمْ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ .

إِنَّا قَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ القُرآنَ يا مُحَمَّدُ إِنْزالَ حَقٍّ وَصِدْقٍ لِكَيْ تحكُمَ بَيْنَ النَّاسِ في قَضاياهُمْ بما عَلَّمَكَ اللهُ تَعالى مِنَ الأَحْكامِ ، وَلاَ تَكُنْ خَصيماً لِلْخائِنِ تُدافِعُ عَنْهُ وَتَنْحازُ إِلَيْهِ . إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ

يا مُحَمَّدُ أَنْ لا تَتَهاوَنَ في تَحَرِّي الحَقِّ ، وأَلاَّ تَغْتَرَّ بِحُجَّةِ الخائِنينَ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ سَمِعَ خُصومةً بِبابِ حُجْرَتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقالَ : « أَلا إِنَّما أَنا بَشَرٌ ، وَإِنَّما أَقْضي بِنَحوِ مِمّا أَسْمَعُ ، وَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّما هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النّارِ فَلْيَحْمِلْها أَوْ لِيَذَرْها »(١) .

﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

اسْتَغْفِرِ اللهَ تَعالى يا مُحَمَّدُ مِمَّا يُعْرَضُ لَكَ مِنْ شُؤونِ البَشَرِ ، وَذَلِكَ بِالمَيْلِ إِلى مَنْ يَكونُ عِنْدَهُ قُوَّةٌ في الجَدَلِ ، أَوْ المَيْلِ إِلى مُسْلِمٍ لأَجْلِ إِسْلامِهِ ، وَفي هَذا زِيادَةُ حِرْصٍ عَلى إِحْقاقِ الحَقِّ ، وَالتَّشَدُّدِ فيهِ ، إِنَّ اللهَ كانَ غَفوراً رَحيماً .

وَيَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء : ١٠٧] لا تُخاصِمْ وَتُدافِعْ عَنْ هَؤُلاءِ الَّذينَ يَخونونَ أَنْفُسَهُمْ ، أَيْ : يَخونونَ غَيْرَهُمْ ، وَقَدْ جُعِلَتْ خِيانَةُ غَيْرِهِمْ خِيانَةً لأَنْفُسِهِمْ ، لأَنَّ ضَرَرَ الخِيانَةِ عائِدٌ إِلَيْهِمْ ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء : ١٠٧] أَيْ أَنَّهُ سُبْحانَهُ يَبْغُضُ مَنِ اعْتادَ الخِيانَةَ وَأَلِفَتْ نَفْسُهُ اقْتِرافَ السَّيِّئاتِ ، وَقَدْ قيلَ : (إِذا عَثَرْتَ مِنْ رَجُلٍ عَلى سَيِّئَةٍ فَاعْلَمْ أَنَّ لَها أَخَواتٍ) . إِنَّ مَنْ خانَ مَرَّةً هانَتْ عَلَيْهِ الخِيانَةُ في كُلِّ مَرَّةٍ ، إِنَّ اللهَ تَعالى لا يُحِبُّ هَذا الخَوَّانَ الأَثيمَ ، وَإِنَّما يُحِبُّ أَهْلَ الأَمانَةِ وَالاسْتِقامَةِ .



تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُداوَمَةُ عَلى ذِكْرِ اللهِ تَعالى ، فَإِنَّهُ يَجْلو الصَّدأَ عَنْ قَلْبِ الإِنْسانِ .

٢ـ الحِرْصُ عَلى أَداءِ الصَّلاةِ كامِلَةً غَيْرَ مَنْقوصةٍ بِأَرْكانِها وَشُروطِها وَآدابِها وَخُشوعِها ، والحِرْصُ عَلى أَنْ تُؤْتِيَ تِلْكَ الصَّلاةُ ثِمارَها فَتَنْهى المُصَلِّيَ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ وَالبَغْيِ .

٣ـ الحَثُّ عَلى الصَّبْرِ عِنْدَ مُلاقاةِ العَدُوِّ وَقِتالِهِ ، لأَنَّ المُؤْمِنينَ عَلى حَقٍ وَيُدافِعونَ عَنِ الحَقِّ ، أَمَّا عَدُوُّهُمْ فَهُوَ عَلى باطِلٍ .

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب المظالم ، باب من خاصم في باطل وهو يعلمه ، حديث رقم ٢٣٢٦ .

التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ بِمَ أَمَرَتِ الآياتُ المُؤْمِنينَ بَعْدَ قَضائِهِمُ الصَّلاةَ ؟

٢ـ مَتى يَكونُ ذِكْرُ الله تَعالى ؟ وَكَيْفَ يَكونُ ؟

٣ـ لِماذا أَمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ بِذِكْرِهِ ؟

٤ـ مَا المَقصودُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَلاَ تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ ؟

٥ـ لِماذا أَمَرَهُمْ اللهُ تَعالى بِعَدَمِ الضَّعْفِ عِنْدَ قِتالِ المُشْرِكينَ ؟

٦ـ بِمَ أَمَرَتِ الآياتُ المُؤْمِنينَ في كُلِّ شُؤونِهِمْ ؟

٧ـ مَا المَقْصودُ بـ ﴿الْخَائِنِينَ﴾ ؟ وَبِمَ أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ تُجاهَهُمْ ؟

٨ـ قيلَ : (إذا عَثَرْتَ مِنْ رَجُلٍ عَلى سَيِّئَةٍ فَاعْلَمْ أَنْ لَها أَخَواتٍ) ما المَقْصودُ بِهَذا القَوْلِ ؟ وَعَلامَ يَدُلُّ ؟

٩ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ أَنَّ المُسْلِمينَ وَالكافِرينَ في قِتالِهِمْ يَشْتَرِكونَ في شَيْءٍ ، وَيَخْتَلِفونَ في شَيْءٍ ، وَضِّحْ ذَلِكَ بالتَّفْصيلِ .



ـ وَضِّحْ مَعْنى الحدَيثِ الشَّريفِ الواردِ في تَفْسيرِ الآيَةِ (١٠٥) ، وَاكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما تَسْتَفيدُهُ مِنْهُ .

* * *

الدرس الحادي والثلاثون

سورةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الحادي والثَّلاثونَ

وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾

معاني المفردات

يَكْسِبْ : ما يَجُرُّ مَنْفَعَةً أَوْ يَدْفَعُ مَضَرَّةً .

إِثْماً : ذَنْباً .

خَطيئَةً : ذَنْباً غَيْرَ مَتَعَمَّدٍ .

يَرْمِ بِهِ بَريئاً : يَتَّهِمْ بَريئاً أَوْ يَنْسِبِ الذَّنْبَ إِلَيْهِ .

احْتَمَلَ : كَلَّفَ نَفْسَهُ أَنْ تَحْتَمِلَ .

بُهتاناً : كَذِباً عَلى الغَيْرِ بِما لَيْسَ فيهِ .



﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ أَنْ لا يُخاصِمَ وَيُدافِعَ عَنِ الَّذينَ يَخونونَ غَيْرَهُمْ ، وَبَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّهُ

يَبْغُضُ الخَوَّانَ الأَثيمَ ، وَيُحِبُّ الأَمينَ المُسْتَقيمَ ، وَقَدْ جاءَتِ الآياتُ هُنا لِتُبَيِّنَ أَحْوالَ الخائِنينَ .

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) ﴾ .

إِنَّ هَؤُلاءِ الخائِنينَ يَسْتَتِرونَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ حينَ يَقْتَرِفونَ المَعاصِيَ وَالآثامَ حَياءً مِنْهُمْ وَخَوْفاً مِنْ ضَرَرِهِمْ ، وَلا يَسْتَتِرونَ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَلا يَسْتَحيونَ مِنْهُ ، وَذَلِكَ لِضَعْفِ إيمانِهِمْ ، إِذ لَوْ كانَ عِنْدَهُمْ إيمانٌ لَشَعروا بِرَقابَةِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِمْ ، وَلاسْتَحْيَوْا مِنْهُ سُبْحانَهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى تَكْرارِ الذَّنْبِ ، إِنَّهُمْ يَرْتَكِبونَ الذُّنوبَ ، وَهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّ اللهَ تَعالى مَعَهُمْ في كُلِّ حَرَكاتِهِمْ وَسَكَناتِهِمْ ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ فيمَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنْ أَقْوالٍ وَأَعْمالٍ ، لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيءٌ مِنْ أَعْمالِهِمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ قَدْ اطَّلَعَ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ يُضْمِرونَ وَيُدَبِّرونَ لَيْلاً مَا لا يَرْضاهُ اللهُ مِنَ القَوْلِ ، تَبْرِئَةً لأَنْفُسِهِمْ ، وَرَمْيِ غَيْرِهِمْ بِجَريمَتِهِمْ . وَقَدْ تَوَعَّدَهُمُ اللهُ تَعالى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ أَيْ حافِظاً لأَعْمالِهِمْ ، مُحيطاً بِها إِحاطَةً تامَّةً لاَ يَغيبُ عَنْ عِلْمِهِ شيءٌ مِنْ تَصَرُّفاتِهِمْ وَسَيُحاسِبُهُمْ عَلى أَعْمالِهِمْ .

وَقَدْ حَذَّرَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى مِنْ مُساعَدَةِ الخائِنينَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) ﴾

هاأَنْتُمْ أَيُّها المُدافِعونَ عَنِ الخائِنينَ قَدْ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ في الدُّنْيا وأَرَدْتُمْ تَبْرِئَتَهُمْ ، فَمَنْ ذا الَّذي يَسْتَطيعُ مِنْكُمْ أَنْ يُدافِعَ عَنْهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ أَمامَ اللهِ تَعالى ، بَلْ مَنْ يَكونُ عَلَيْهِمْ وَكيلاً يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ ، يَقومُ عَلى تَدْبيرِ أُمورِهِمْ وَالدِّفاعِ عَنْهُمْ ، لا شَكَّ أَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ لأَحَدٍ مِنْكُمْ أَنْ يُجادِلَ عَنْهُمْ يَوْمَئِذٍ ، وَلا أَنْ يَكونَ وَكيلاً بِالخُصومَةِ لَهُمْ .

وَها : حَرْفُ تَنبيهٍ ، جاءَ لِتَنْبيهِ المُخاطَبينَ عَلى خَطَئِهِمْ : المُجادَلَةِ . وَالاسْتِفهامُ في قَوْلِهِ : ﴿ فَمَن يُجَٰدِلُ ﴾ إِنْكارِيٌّ يُفيدُ النَّفْيَ ، أَيْ لا أَحَدَ يُجادِلُ عَنْهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ .

وَقَدْ رَغَّبَ سُبْحانَهُ وَتَعالى الخائِنينَ في التَّوْبَةِ مِنْ ذُنوبِهِمْ فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) ﴾ .

مَنْ يَعْمَلْ عَمَلاً سَيِّئاً يُؤْذي بِهِ غَيْرَهُ ، أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ بِارْتِكابِ المَعاصي ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَسْتَغْفِرِ اللهَ تَعالى بِأَنْ يَتوبَ إِلَيْهِ تَوْبَةً صادِقَةً ، يَجِدِ اللهَ تَعالى غَفَّاراً لِذُنوبِهِ ، رَحيماً مُتَفَضِّلاً عَلَيْهِ بِالعَفْوِ وَالمَغْفِرَةِ ، وَفي هَذا بَعْثٌ لِلخائِنِ عَلى الاسْتِغْفارِ وَالتَّوْبَةِ .

وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ يَجِدِ اللَّهَ ﴾ لأَنَّ التَّائِبَ المُسْتَغْفِرَ يَجِدُ أَثَرَ المَغْفِرَةِ في نَفْسِهِ بِكَراهَةِ الذَّنْبِ ، وَيَجِدُ أَثَرَ الرَّحْمَةِ بِالرَّغْبَةِ في الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ الَّتي تُطَهِّرُ النَّفْسَ .

إنَّ الأَفْعالَ السيِّئَةَ يعودُ ضَرَرُها على فاعِلِها وَحْدَهُ ، وَهذا ما جاءَتِ الآياتُ لِتُؤَكِّدَهُ :

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

مَنِ ارتَكَبَ إِثْماً مِنَ الآثامِ الَّتي نَهى اللهُ تَعالى عَنِ ارْتِكابِها ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ كَسِبَهُ وَانْتَفَعَ بِهِ ، فَإِنَّ كَسْبَهُ وَفِعْلَهُ هَذا وَبالٌ عَلى نَفْسِهِ وَضَررٌ لاَ نَفْعَ فيهِ ، إِنَّ هَذا الآثِمَ سَتُصيبُهُ عاقِبَةُ إِثْمِهِ في الدُّنْيا مِنْ فَضيحَةٍ ومَهانَةٍ لَهُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمِنْ خِزْيٍ في الآخِرَةِ . وَقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ بِعِلْمِهِ قَدْ وَضَعَ لِلنَّاسِ أَحْكاماً وَحَدَّدَها لَهُمْ ، فَلا يَجوزُ لَهُمْ تَجاوُزُها ، وَبِحِكْمَتِهِ رَتَّبَ عِقاباً بِحَقِّ المُتَجاوِزينَ .

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ .

وَمَنْ يَكْتَسِبْ مِنْكُمْ ذَنْباً خَطَأً أَوْ عَمْداً ، صَغيراً أَوْ كَبيراً وَيَنْسِبُهُ إِلى بَريءٍ لَمْ يَرْتَكِبْهُ ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ هُوَ الَّذي اكْتَسَبَهُ ، فَقَدْ كَلَّفَ نَفْسَهُ وَتَحَمَّلَ بِسَبَبِ فِعْلِهِ هَذا ﴿بُهْتَانًا﴾ أَيْ كَذِباً يَجْعَلُ مَنْ رُمِيَ بِهِ في حَيْرَةٍ وَدَهْشَةٍ ، وَتَحَمَّلَ كَذَلِكَ ذَنْباً واضِحاً لا خَفاءَ فيهِ يُؤَدِّي إِلى غَضَبِ اللهِ تَعالى .

والسُّؤالُ هُنا : مَا الفَرْقُ بَيْنَ الخَطيئَةِ وَالإِثْمِ ؟ إِنَّ الخَطيئَةَ ـ كَما يَرى بَعْضُ العُلَماءِ ـ هِيَ الذُنوبُ الَّتي يَرْتَكِبُها صاحِبُها عَنِ اسْتِهانَةٍ وَعَدَمِ اكْتِراثٍ ، فَهُوَ لِكَثْرَةِ ذُنوبِهِ ، صارَ يَفْعَلُها بِلا مُبالاةٍ بِها ، أَمَّا الإِثْمُ فَهُوَ الذَّنْبُ الَّذي يَرْتَكِبُهُ الإِنْسانُ عَنْ تَعَمُّدٍ وَإِصْرارٍ ، فيُؤَدِّي بِهِ إِلى الإِبْطاءِ في التَّوَجُّهِ إِلى اللهِ تَعالى بِالاسْتِغْفارِ وَالتَّوْبَةِ .

دروس وعبر

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الشُّعورُ بِمُراقَبَةِ اللهِ تَعالى دائِماً ، حَتَّى يَحْسِبَ الإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ حَرَكاتِهِ وَسَكَناتِهِ وَأَعْمالَهُ وَأَقْوالَهُ .

٢ـ الإِيمانُ الصَّادِقُ يَمْنَعُ صاحِبَهُ مِنَ الوُقوعِ في الذَّنْبِ وَالإِصْرارِ عَلَيْهِ .

٣ـ إِذا حَكَمَ الحاكِمُ لأَحَدٍ بِشَيْءٍ ، فَلا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيسَ لَهُ حَقٌّ فيهِ ، وأَنَّ هَذا الحَقَّ لِغَيْرِهِ .

٤ـ الحَثُّ عَلى اسْتِغْفارِ اللهِ تَعالى ، والتَّوْبَةُ النَّصوحُ للهِ تَعالى .

التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ تَحَدَّثَتِ الآيةُ الكَريمَةُ عَنْ صِفَةٍ مِنْ صِفاتِ الخائِنينَ . اذْكُرْها .

٢ـ مَا الدَّليلُ عَلى أَنَّ المُنافِقينَ لاَ يَسْتَحيونَ مِنَ اللهِ تَعالى ؟

٣ـ بِمَ حَذَّرَ اللهُ المُؤْمِنينَ الَّذينَ يُدافِعونَ عَنِ الخائِنينَ ؟

٤ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أَنَّهُ يَفْتَحُ بابَ التَّوْبَةِ أَمامَ الجَميعِ ، بِمَ رَغَّبَ اللهُ أُولَئِكَ الخائِنينَ ؟

٥ـ ما سِرُّ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ ؟

٦ـ بَيَّنَتِ الآياتُ أَنَّ الأَفْعالَ السَّيِّئَةَ يَعودُ ضَرَرُها عَلى فاعِلِها ، وَضِّحْ ذَلِكَ .

٧ـ ما الفَرْقُ بَيْنَ الخَطيئَةِ وَالإِثْمِ ؟

٨ـ فَسِّرْ كُلاًّ مِمَّا يَلي :

أـ ﴿يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ .

ب ـ ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ .

ج ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ .

د ـ ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ﴾ .

هـ ـ ﴿بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾ .

نَشاطٌ :

ـ ارْجِعْ إِلى كِتابِ رِياضِ الصَّالِحينَ وَاسْتَخْرِجْ مِنْهُ حَديثاً شَريفاً يُبَيِّنُ فيهِ الرّسولُ ﷺ الفَرْقَ بَيْنَ الغيبَةِ وَالبُهْتانِ . اكْتُبْ هَذا الحَديثَ عَلى لَوْحَةٍ كَرْتونِيَّةٍ ، وَضَعْها عَلى لَوْحَةِ الإِعْلاناتِ في غُرْفَةِ الصَّفِّ .

* * *

الدرس الثاني والثلاثون

سورة النساء - القسم الثاني والثلاثون

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

نَجْواهُمْ : النَّجْوى : حديثُ السرِّ .

مَعْروفٍ : ما تَعْرِفُهُ النُّفوسُ وَتَتَلَقَّاهُ بِالقَبولِ .

ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ : طَلَباً لِمَرْضاةِ اللهِ .

يُشاقِقْ : يُعادي ويُخالِفْ .

التَّفْسيرُ :

إِنَّ فَضْلَ اللهِ وَرَحْمَتَهُ عَظيمَةٌ على رَسولِهِ ﷺ وَعَلى أُمَّتِهِ ، فَقَدْ صَرَفَ عَنْهُ وَعَنْ أَتْباعِهِ أُولَئِكَ الَّذينَ يَطْمَعونَ في إِضْلالِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

لَقَدْ كانَ فَضْلُ اللهِ عَظيماً على سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ أَنْ صَرَفَ عَنْهُ كَيْدَ هَؤُلاءِ الأَشْرارِ سَريعاً ، فَقَدْ جاءَهُ الوَحْيُ بِبَيانِ الحَقِّ ، وَإِقامَةِ العَدْلِ بَيْنَ الخَلْقِ جَميعاً ، فَقَدْ حاوَلَ أُولَئِكَ الكاذِبونَ لإِبْعادِ التُّهْمَةِ عَنْهُمْ أَنْ يُضِلّوا رَسولَ اللهِ ﷺ عَنِ الحَقِّ ، وَلَكِنَّ اللهَ أَطْلَعَهُ على حَقيقَةِ ما يُضْمِرونَ وَعَصَمَهُ مِن اتِّباعِهِمْ .

فَهَؤُلاءِ الخائِنونَ لا يُضِلُّونَ بِانْحِرافِهِمْ عَنِ الطَّريقِ السَّوِيِّ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ ، وَهُمْ لَنْ يَضُرُّوا النَّبِيَّ ﷺ ، لأَنَّ اللهَ تَعالى قَدْ عَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ ، وَمِنَ اتِّباعِ الهَوى .

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ القُرْآنَ الكَريمَ ، وَعَلَّمَهُ الحِكْمَةَ ، حَيْثُ عَلَّمَهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى مِنَ الكِتابِ والشَّريعَةِ ما لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ .

وَتُخْتَمُ الآيَةُ ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ فَقَدْ أَرْسَلَهُ سُبْحانَهُ لِلنَّاسِ كافَّةً وَجَعَلَهُ خاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَاخْتَصَّهُ بِنِعَمٍ كَثيرةٍ ، وَهَذا كُلُّهُ مِن فَضْلِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِ .

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

كانَتِ الآياتُ وَلا تَزالُ تَتَحَدَّثُ عَنِ الخائِنينَ ، فَبَيَّنَ سُبْحانَهُ وَتَعالى ما جُبِلَ عَلَيْهِ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنْ إِخْفاءِ الأَمْوالِ وَالأَعْمالِ الَّتي فيها شَرٌّ وَمَضَرَّةٌ ، وَالتَّناجي بِها ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ لا خَيْرَ في كَثيرٍ مِمَّا يَتَناجى بِهِ أُولَئِكَ الَّذينَ يُسِرُّونَ الحَديثَ وَهُمُ الخائِنونَ ، وَذَلِكَ لأَنَّهُمْ يَتَناجَوْنَ فيما هُوَ شَرٌّ وَباطِلٌ . ثُمَّ تُبَيِّنُ الآيَةُ الكَريمَةُ أَنَّ الخَيْرَ في التَّناجي بالأَمْرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عَنِ المُنْكَرِ ، وَذَلِكَ مِثْلُ مَنْ يَأْمُرُ غَيْرَهُ بِصَدَقَةٍ يُخْرِجُها مِنْ مالِهِ لأَحَدِ النَّاسِ المُحْتاجينَ ، إِنَّ الصَّدَقَةَ الَّتي يُخْرِجُها الإِنْسانُ تَكونُ سَبَباً في تَزْكِيَةِ مالِهِ ، وَحُسْنِ ثَوابِهِ وَنَشْرِ المَحَبَّةِ وَالمَوَدَّةِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَهَذِهِ الصَّدَقَةُ مِنَ الخَيْرِ أَنْ تَكونَ سِرّاً ، وَذَلِكَ لأَنَّ إِظْهارَها قَدْ يُؤْذي المُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ . قالَ تَعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

وَمَنْ أَمَرَ غَيْرَهُ بِالمَعْروفِ وَهُوَ لَفْظٌ عامٌّ يَعُمُّ كُلَّ أَعْمالِ البِرِّ ، فَمِنَ المَعْروفِ أَنْ تَلْقى أَخاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ ، وَمِنَ المَعْروفِ أَنْ تُعْطِيَ كُلَّ صاحِبِ حَقٍّ حَقَّهُ ، وَلَكِنْ يُشْتَرَطُ في المَعروفِ تَرْكُ الامْتِنانِ بِهِ ، وَتَرْكُ الإِعْجابِ بِفِعْلِهِ لأَنَّهُما يُحْبِطانِ الأَجْرَ ، وَالأَمْرُ بِالمَعروفِ كَذَلِكَ لا بُدَّ فيهِ مِنَ المُسارَّةِ ، لأَنَّ ذَلِكَ أَبْعَدُ عَنِ الإِيذاءِ .

وَمَنْ يَأْمُرْ غَيْرَهُ بِالإِصْلاحِ بَيْنَ النَّاسِ وَهِيَ فَرِيضَةٌ اجْتِماعِيَّةٌ ، إِذْ لا بُدَّ مِنَ الإِصْلاحِ بَيْنَ المُتَنازِعينَ في المُجْتَمَعِ المُسْلِمِ ، وَذَلِكَ لأَنَّ التَّنازُعَ يُؤَدِّي إِلى انْتِشارِ العَداوَةِ وَالمَفاسِدِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَقَدْ قالَ تَعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات : ١٠] وَالإِصْلاحُ يَتَطَلَّبُ كَذَلِكَ النَّجوى ، لأَنَّ في إِظْهارِهِ وَالتَّحَدُّثِ بِهِ كَثيراً مِنَ الشَّرِّ الَّذي يُؤْذي المُتَنازِعينَ .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

أَيْ مَنْ يَفْعَلُ هَذِهِ الأَفْعالَ مِنَ الطَّاعاتِ وَالتَّناجي بِها قاصِداً رِضا اللهِ تَعالى وَحُسْنَ ثَوابِهِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى سَوْفَ يُؤْتيهِ الثَّوابَ العَظيمَ وَالأَجْرَ الجَزيلَ .

وَهذا ما أَعَدَّهُ اللهُ تَعالى لِمَنْ يَتَناجَى بِالخَيْرِ ، أَمَّا الَّذينَ يَتَناجَوْنَ بِالشَّرِّ فَقَدْ تَوَعَّدَهُمُ اللهُ تَعالى فَقال :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾

وَالمُشاقَّةُ : المُعاداةُ ، وَسُمِّيَتْ كَذَلِكَ ، لأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ المُتَعادينَ يَكونُ بَعيداً عَنِ الآخَرِ ، فَكَأَنَّ كُلَّ واحِدٍ يَكونُ في شِقٍّ غَيْرِ شِقِّ الآخَرِ ، فَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسولَ وَيُظْهِرِ العَداوَةَ لَهُ مِنْ بَعْدِ مَا ظَهَرَتْ لَهُ الهِدايَةُ عَلى لِسانِ النَّبِيِّ ﷺ وَقامَتِ الحُجَجُ عَلى صِدْقِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَتَّبِعُ سَبيلَ الضَّلالِ وَالكُفْرِ ، وَلاَ يَتَّبِعُ سَبيلَ المُؤْمِنينَ ، فَإِنَّ اللهَ يَتْرُكُهُ وَما اخْتارَ لِنَفْسِهِ مِنْ ضَلالٍ ، وَيَكِلُهُ إِلى مَا تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، وَفي قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ بَيانٌ لِسُنَّةِ اللهِ في عَمَلِ الإِنْسانِ ، فَقَدْ أَعْطاهُ اللهُ الإِرادَةَ المُسْتَقِلَّةَ ، وَالعَمَلَ بِاخْتِيارِهِ ، فَالوِجْهَةُ الَّتي يَتَوَلاَّها هَذا الإِنْسانُ وَيَخْتارُها يُوَلّيهِ اللهُ إِيَّاها ، وَيَجْعَلُهُ يَسيرُ في الطَّريقِ الَّتي اخْتارَها ، وَلاَ يَجِدُ في نَفْسِهِ ما يُجْبِرُهُ عَلى تَرْكِ مَا اخْتارَهُ لِنَفْسِهِ ، فَمَنِ اخْتارَ لِنَفْسِهِ طَريقَ الضَّلالِ يَسَّرَهُ اللهُ لَهُ ، وَجَعَلَهُ يَسيرُ في هَذا الطَّريقِ الَّذي اخْتارَهُ ، وَمَنِ اخْتارَ طَريقَ الهِدايَةِ يَسَّرَهُ اللهُ تَعالى لَهُ كَذَلِكَ ، وَهَيَّأَ لَهُ مِنَ الأَسْبابِ الَّتي تُيَسِّرُ لَهُ هَذا الطَّريقَ .

إِنَّ مَنِ اخْتارَ طَريقَ الضَّلالِ ، قَدْ أَعَدَّ اللهُ تَعالى لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ نارَ جَهَنَّمَ يُصْلى فيها ، وَيُشْوى كَما تُشْوى الشَّاةُ ، وَسَاءَتْ جَهَنَّمُ مَكاناً لِمَنْ صارَ إِلَيْها .

دُرُوسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الحَثُّ عَلى التَّناجي بِفِعْلِ الخَيْراتِ مِنْ صَدَقَةٍ وَمَعْروفٍ وَإِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ .

٢ـ ابْتِغاءُ مَرْضاةِ اللهِ تَعالى إنَّما يَكونُ بالإخْلاصِ وَعَدَمِ الرِّياءِ .

٣ـ خَلَقَ اللهُ تَعالى الإنْسانَ وَجَعَلَ لَهُ إرادَةً واسْتِقْلالاً ، فَالعاقِلُ الَّذي يَخْتارُ طَريقَ الحَقِّ ، وَيَبْتَعِدُ عَنْ طَريقِ الضَّلالِ .

٤ـ مَنْ عادى الرَّسولَ ﷺ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ فَقَدْ أَعَدَّ اللهُ لهُ عَذاباً شَديداً .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لَقَدْ كانَ فَضْلُ اللهِ عَظيماً عَلى نَبيِّهِ ﷺ ، وَضِّحْ ذَلِكَ .

٢ـ لِماذا أَنْكَرَ اللهُ تَعالى عَلى الخائِنينَ في نَجواهُمْ ؟

٣ـ ما النَّجْوى الَّتي جَعَلَ اللهُ فيها الخَيْرَ كُلَّهُ ؟

٤ـ لِماذا كانَتِ الصَّدَقَةُ سِرّاً خَيْراً مِنَ الصَّدَقَةِ جَهْراً ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بِالمَعروفِ وَالإِصْلاحِ بَيْنَ النَّاسِ ؟

٦ـ كَيْفَ يَكونُ الخَيْرُ في النَّجوى في المَعروفِ وَالإِصْلاحِ بَيْنَ النَّاسِ ؟

٧ـ بِمَ تَوَعَّدَ اللهُ تَعالى الّذينَ يَتَناجَوْنَ بِالشَّرِّ ؟

٨ـ ما المَقْصودُ بالمُشاقَّةِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اخْتَصَّ اللهُ تَعالى النَّبِيَّ ﷺ بِأُمورٍ لَمْ يَخْتَصَّ بِها أَحَداً مِنَ الأَنْبياءِ . اذْكُرْ ثَلاثَةً مِنْها واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ مَنِ الَّذي يَقومُ بِالإِصْلاحِ بَيْنَ النَّاسِ في ظَنِّكَ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ هَلْ يَتَعارَضُ الإيمانُ بِالقَدَرِ مَعَ كَوْنِ الإنْسانِ مُخَيَّراً ؟ وَضِّحْ ذَلِكَ ، وَاكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

تَعَلَّمْ :

رُوِيَ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصارِ سَرَقَ دِرْعاً مِنْ جارِهِ في جرابٍ فيه دَقيقٍ ، فَجَعَلَ الدَّقيقَ يَنْتَثِرُ مِنْ خَرْقٍ فيهِ فَخَبَّأَها عِنْدَ يهودِيٍّ ، فَالتُمِسَتِ الدِّرْعُ عِنْدَ السَّارِقِ فَلَمْ تُوجَدْ ، وَحَلَفَ ما أَخَذَها وَما لَهُ بها مِنْ عِلْمٍ ، فتَرَكوهُ وَاتَّبَعوا أَثَرَ الدَّقيقِ حَتَّى انتَهَوا إِلى مَنْزِلِ اليَهودِيِّ فَأَخَذوها ، فَقالَ اليَهوديُّ : دَفَعَها إِلَيَّ فُلانٌ ـ السَّارِقُ ـ وَشَهِدَ لَهُ ناسٌ مِنَ اليَهودِ ، فَقالَتْ عَشيرَةُ السَّارِقِ : انْطَلِقوا بِنا إِلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، فَسَأَلوهُ أَنْ يُجادِلَ عَنْ صاحِبِهِمْ وَشَهِدوا بِبَراءَتِهِ ، وَسَرِقَةِ اليَهودِيِّ لِلدِّرْعِ . فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ أَنْ يَفْعَلَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ الآياتِ تُبَيِّنُ الحَقَّ . وَحَمَى اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ مِنَ الدِّفاعِ عَنِ الخائِنِ ، وَاتِّهامِ البَريءِ .

* * *

الدَّرسُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ

سورةُ النّساءِ - القِسمُ الثّالِثُ والثّلاثونَ

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

مَعاني المُفرَداتِ

يَدْعونَ	: يَتوَجَّهونَ بِالعِبادَةِ وَالدُعاءِ .
شَيْطاناً مَريداً	: شَيْطاناً عاتِياً مُتَمَرِّداً على الحَقِّ .
لَعَنَهُ	: طَرَدَهُ وأَبْعَدَهُ .
وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ	: أَجْعَلَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ الشَّيءَ .
فَلَيُبَتِّكُنَّ	: فَلَيُقَطِّعُنَّ .
غُروراً	: باطِلاً .
مَحيصاً	: مَهْرباً .



﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾ .

تَحدَّثَتِ الآيَةُ السَّابِقَةُ عَمَّنْ يُعادي الرَّسولَ ﷺ ، وَلا شَكَّ أَنَّ مُعاداةَ الرَّسولِ كُفْرٌ مَحْضٌ ، وَذَنْبٌ عَظيمٌ ، وَبَيَّنَتْ هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ اللهَ تَعالى يغْفِرُ كُلَّ ذَنْبٍ لِلإِنْسانِ إِلاَّ هَذا الذَّنْبَ العَظيمَ الَّذي هُوَ الشِّرْكُ والكُفْرُ ، فَإِنَّهُ تعالى لاَ يَغْفِرُهُ أَبَداً لِمَنْ ماتَ عَلَيْهِ ، وَلِذا فَإِنَّ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ تَعالى فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعيداً ، وَذَلِكَ أَنَّ الشِّرْكَ فيهِ فَسادٌ لِلأَرْواحِ وَضَلالٌ لِلْعُقولِ ، قَالَ اللهُ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ .

وَقَدْ مَرَّتْ هَذِهِ الآيَةُ مِنْ قَبْلُ في دَرْسٍ سابِقٍ ، فَقَدْ جاءَتْ في أَثْناءِ الحَديثِ عَنْ أَهْلِ الكِتابِ ، فَبيَّنَتْ أَنَّهُمْ مُشْرِكونَ ، حَيْثُ يَدَّعي اليَهودُ أَنَّ عُزيراً ابنُ اللهِ تَعالى ، وَهُمْ يَصِفونَ اللهَ تَعالى بِصِفاتِ البَشَرِ كَذَلِكَ ، وَلاَ يُؤْمِنونَ بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَهَذا كُلُّهُ كُفْرٌ ، وَشِرْكٌ مَعَ اللهِ تَعالى . أَمّا النَّصارى فَهُمْ يَقولونَ إِنَّ المَسيحَ ابنُ اللهِ تَعالى ، وَيَدَّعونَ أَنَّ اللهَ تَعالى هُوَ المَسيحُ ابنُ مَرْيَمَ ، أَوْ أَنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ . . . فَهَؤُلاءِ إِنْ ماتوا عَلى الشِّرْكِ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ أَبَداً .

أَمَّا هذِهِ الآيَةُ فَقَدْ جاءَتْ تَتَحدَّثُ عَنِ الكافِرينَ الوَثَنِيينَ ، الَّذينَ يَعْبُدونَ الأَصْنامَ لِتُقَرِّبَهُمْ إِلى اللهِ تَعالى ، وَهَؤُلاءِ كَذلِكَ إِنْ ماتوا عَلى الشِّرْكِ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ .

وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أَنْ يَغْفِرَ جَميعَ الذُّنوبِ دونَ الشِّرْكِ ، فَمَنْ لَمْ يُشْرِكْ باللهِ وَتابَ وَأَنابَ فَإِنَّ اللهَ يَغفِرُ لَهُ ذُنوبَهُ ، وَيَمْحوها ، وَالمُشْرِكُ الَّذي لاَ يَغْفِرُ اللهُ لَهُ شِرْكَهُ قَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعيداً ، وَبَعُدَ عَنْ طَريقِ الحَقِّ بُعْداً كَثيراً ، وَلَكِنْ لِماذا كانَ المُشْرِكونَ عَلى ضَلالٍ ؟ جاءَتِ الآيَةُ لِتُجيبَ عَنْ هَذا التَّساؤُلِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ .

وَإِنْ النَّافِيَةِ بِمَعْنى ما ، أَيْ : ما يَدْعونَ إِلاَّ أَصْناماً مِنْ دونِ اللهِ تَعالى ، أَيْ : يَتَوجَّهونَ إِلَيْها لِقَضاءِ حَوائِجِهِمْ ، وَهَذِهِ ما هِيَ إِلاَّ أَوْثانٌ لا تَمْلِكُ لِنَفْسِها ضَرّاً وَلا نَفْعاً ، وَقَدْ عَبَّرَ سُبْحانَهُ عَنِ الأَصْنامِ بِالإِناثِ ، وَذَلِكَ لأَنَّ المُشْرِكينَ سَمّوا أَصْنامَهُمْ بِأَسْماءِ الإِناثِ .

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكونَ المَقْصودُ بِالإِناثِ المَلائِكَةُ ، وَذَلِكَ لأَنَّ المُشْرِكينَ كانوا يَدَّعونَ أَنَّ المَلائِكَةَ بَناتُ اللهِ تَعالى ، وَكانوا يَعْبُدونَها ، فَقَدْ قالَ تَعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف : ١٩] .

إنَّ هَؤُلاءِ المُشْرِكينَ الَّذينَ يَعْبُدونَ الأَصْنامَ في ضَلالٍ ، فَهُمْ يَعْبُدونَ ما لا يضُرُّ وَلا يَنْفَعُ ، بَلْ لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ شَيْئاً ، وَإِنَّ مِنْ ضَلالِهِمْ أَنَّهُمْ يَصْنَعونَ الأَصْنامَ وَيَقومونَ بِعِبادَتِها ، مَعَ أَنَّ الصَّانِعَ أَكْرَمُ وَأَفْضَلُ مِنَ المَصْنوعِ .

إنَّهُمْ يُطيعونَ شَيْطاناً عاتِياً مُتَجَرِّداً مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ، فَهَذا الشَّيْطانُ مَلْعونٌ مَطْرودٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعالى في هَذِهِ الآياتِ خَطَرَ هَذا الشَّيْطانِ لِيُحَذِّرَ النَّاسَ مِنْهُ ، قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ .

١ـ لَقَدْ أَقْسَمَ هَذا الشَّيْطانُ المَلْعونُ مُؤَكِّداً قَسَمَهُ مُتَوَعِّداً بَني آدَمَ : ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ وَالنَّصيبُ المَفْروضُ هُوَ ما لِلشَّيْطانِ في نَفْسِ كُلِّ إِنْسانٍ مِنَ الاسْتِعْدادِ لِلشَّرِّ . وَكُلُّ إِنْسانٍ مِنْ بَني آدَمَ يَشْعُرُ مِنْ نَفْسِهِ بِوَسْوَسَةِ الشَّيْطانِ ، فَهُوَ يَأْمُرُ بِالشِّرْكِ ، وَيَأْمُرُ بِالمَعْصِيَةِ وَالرِّياءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

٢ـ وَتَوَعَّدَ الشَّيْطانُ كَذَلِكَ بَني آدَمَ بِما ذَكَرَهُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ .

أَيْ : لأُضِلَّنَّهُمْ عَنْ طَريقِ الحَقِّ ، فَأَجْعَلَهُمْ يَسيرونَ في طَريقِ الباطِلِ ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ أَيْ أَجْعَلُهُمْ يَلْهَثونَ خَلْفَ الأَمانِيِّ الفارِغَةِ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَجْعَلَهُمْ يَجْرونَ وَراءَ اللَّذّاتِ العاجِلَةِ الفانِيَةِ ، وَيَجْعَلَهُمْ يُسَوِّفونَ بِالتَّوْبَةِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ .

٣ـ وَتَوَعَّدَ الشَّيْطانُ بَني آدَمَ كَذَلِكَ ما يُبَيِّنُهُ اللهُ تَعالى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ إِنَّهُ يَأْمُرُهُمْ بِما فيهِ ضَلالُهُمْ ، وَهُوَ تَقْطيعُ آذانِ الأَنْعامِ ، وَقَدْ كانوا يَفْعَلونَ ذَلِكَ لِلأَصْنامِ ، حَيْثُ حَرَّموا عَلى أَنْفُسِهِمُ الانْتِفاعَ بِبَعْضِ الأَنْعامِ ، فَكانَتِ النَّاقَةُ إِذا وَلَدَتْ خَمْسَةً وَكانَ الخامِسُ ذَكَراً قَطَعوا أُذُنَها وَشَقُّوها شَقّاً واسِعاً عَلامَةً عَلى أَنَّهُمْ حَرَّموا عَلى أَنْفُسِهِمُ الانْتِفاعَ بِها ، وَجَعَلوها لِلأَصْنامِ ، وَسَمُّوها بَحيرَةً .

٤ـ وتَوَعَّدَ الشَّيْطانُ بَني آدمَ بِما يُبَيِّنُهُ اللهُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ وَتَغْييرُ خَلْقِ اللهِ تَبْديلُهُ ، وَقَدْ يَكونُ التَّغْييرُ مادِيّاً . ذَكَرَ العُلَماءُ أَنَّهُ يَدْخُلُ فيهِ الوَشْمُ ، وَنَقولُ يَدْخُلُ فيهِ كَذَلِكَ تَغْييرُ الشَّعَرِ والبَشَرَةِ ، وَيَدْخُلُ فيهِ كَذَلِكَ التَّلاعُبُ بِالجيناتِ البَشَرِيَّةِ .

وَقَدْ يَكونُ التَّغْييرُ مَعْنَوِيّاً وَيُقْصَدُ بِهِ تَبْديلُ الفِطْرَةِ الَّتي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عَلَيْها . وَقَدْ أَخْرَجَ الإِمامُ مُسْلِمٌ عَنْ عَيَّاضٍ أَنَّهُ قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ فيما قالَهُ رَبُّهُ : « وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبادي حُنَفاءَ فاجْتالَتْهُمُ الشَّياطينُ عَنْ دينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ . وَقالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « كُلُّ مَوْلودٍ

يُولَدُ عَلى الفِطْرَةِ فَأَبواهُ يُهَوِّدانِهِ أَوْ يُنَصِّرانِهِ أَوْ يُمَجِّسانِهِ »[1] .

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ .

إِنَّ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّيْطانَ وَوَسْوَسَتَهُ وَإِغواءَهُ ، وَيَتْرُكُ طَريقَ الحَقِّ وَالهُدى ، فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً عَظيماً في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، فَهُوَ يَتَخَبَّطُ في عَمَلِهِ عَلى غَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ ، وَهذا الشَّيْطانُ الَّذي اتَّبَعَهُ في الدُّنْيا سَيَتَبَرَّأُ مِنْهُ في الآخِرَةِ ، وَيَقولُ لَهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

إِنَّ هَذا الشَّيْطانَ يَعِدُ أَوْلياءَهُ الوُعودَ الباطِلَةَ ، وَيُمَنِّيهِمُ الأَمانِيَّ الكاذِبَةَ ؛ يَعِدُهُمُ الغِنى وَالثَّرْوَةَ بِإِغْرائِهِمْ بِلَعِبِ القِمارِ وَالسَّرِقَةِ وَالغَصْبِ ، وَيَعِدُهُمْ بِنِسْيانِ الهُمومِ مَعَ المُتْعَةِ بِإِغْرائِهِمْ بِشُرْبِ الخَمْرِ ، فَهُوَ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ الضَّلالَ وَالمَعاصي وَما يَعِدُهُمْ هَذا الشَّيْطانُ إِلاَّ باطِلاً يَغْتَرُّونَ بِهِ ، فَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ في الزِّنى وَالقِمارِ وَشُرْبِ الخَمْرِ ، لَذَّةً وَمُتْعَةً ، وَلَكِنَّها في الحَقيقَةِ مُتْعَةٌ زائِلَةٌ لاَ تَدومُ ، ثُمَّ يَكونُ بَعْدَها الآلامُ الطَّويلَةُ ، الَّتي تَكونُ عواقِبُها وَخيمَةً في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

إِنَّ أَتْباعَ الشَّيْطانِ الَّذينَ اسْتَجابوا لِوَسْوَسَتِهِ وَإِغْوائِهِ سَيَكونُ مأْواهُمْ جَهَنَّمُ ، الَّتي لا يَسْتَطيعونَ الهَرَبَ مِنْها أَبَداً ، فَهُمْ مُنْغَمِسونَ فيها أَبَداً تُحيطُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جانِبٍ .

لَقَدْ حَذَّرَتِ الآياتُ الكَريمَةُ مِنَ الشَّيْطانِ ، سَواءً كانَ شَيْطانَ الجِنِّ أَمْ شَيْطانَ الإِنْسِ ، فَهُوَ لا يُحِبُّ الخَيْرَ لِلإِنْسانِ أَبَداً ، فالعاقِلُ العاقِلُ الَّذي لاَ تَخْدَعُهُ وعودُ الشَّيْطانِ وَأَمانيهِ ، وَلا يَنْساقُ خَلْفَ وَساوِسِهِ وَضَلالِهِ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إِلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كَثيرَةٍ ، مِنْها :

١ـ إِنَّ اللهَ تَعالى يَغْفِرُ لِلإِنْسانِ الذُّنوبَ الَّتي يُذْنِبُها إِذا تابَ مِنْها ، إِلاّ الشِّرْكُ فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ لا يُمْكِنُ أَنْ يَغْفِرَهُ لِلإِنْسانِ إِذا ماتَ عَلَيْهِ .

٢ـ الشَّيْطانُ عَدوٌّ مُبينٌ لِلإِنْسانِ ، وأَقْسَمَ أَنْ يَقْعُدَ لَهُ بِالمِرْصادِ لِيُضِلَّهُ وَيُغْوِيَهُ عَنْ طَريقِ الحَقِّ .

٣ـ عِبادُ اللهِ المُخْلِصونَ هُمْ وَحْدَهُمُ الَّذينَ لَنْ يَكونَ لِلشَّيْطانِ سُلْطانٌ عَلَيْهِمْ .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ١٢٩٢ .

٤ـ الشَّيْطانُ يُزَيِّنُ لأَتْباعِهِ الباطِلَ وَيُغْريهِمْ بِهِ ، وَلَكِنْ كُلُّ مَا يُغْريهِمْ بِهِ ذو مُتْعَةٍ عاجِلَةٍ فانِيَةٍ يَعْقُبها آلامٌ وَعواقِبُ وَخيمَةٌ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَميعاً إلاَّ ذَنْباً واحِداً ، ما هُوَ ؟ وَما دَليلُ ذَلِكَ ؟

٢ـ لِمَ ذَكَرَ اللهُ هَذا النَّصَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ في مَوْضِعَيْنِ مِنَ السُّورَةِ ؟

٣ـ لِماذا كانَ المُشْرِكونَ عَلى ضَلالٍ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِكَلِمَةِ : ﴿إِناثاً﴾ ؟

٥ـ لَقَدْ تَوَعَّدَ الشَّيْطانُ بَني آدَمَ بِأُمورٍ ، اذْكُرْ هَذِهِ الأُمورَ مُرَتَّبَةً كَما جاءَتْ في الآيَةِ الكَريمَةِ .

٦ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَلأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ أَذانَ الأَنْعامِ﴾ ؟

٧ـ ما نَتيجَةُ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّيْطانَ وَوَسْوَسَتَهُ ؟

٨ـ كَيْفَ يُمَنِّي الشَّيْطانُ النَّاسَ بِالأَمانِيِّ الباطِلَةِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اذْكُرْ أَسْماءَ ثَلاثَةٍ مِنَ الأَصْنامِ الَّتي كَانَتْ في الجَاهِلِيَّةِ ، وَاكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةَ سورَةِ المائِدَةِ الَّتي تُبَيِّنُ ما حَرَّمَهُ المُشْرِكونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الحَيواناتِ .

* * *

الدَّرسُ الرَّابِعُ والثّلاثونَ

سورةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الرّابِعُ والثّلاثونَ

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

معاني المفردات :

وَعْدَ اللهِ حَقّاً : ثابتاً واقِعاً لا مَحالَةَ .

قيلاً : قَوْلاً .

سُوءاً : قَبيحاً .

التَّفسير :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

إنَّ الَّذينَ يَتَّبعونَ الشَّيْطانَ وَوَساوِسَهُ وَباطِلَهُ ، لَهُمْ جَهَنَّمُ لا يَسْتَطيعونَ مِنْها مَهْرَباً ، أَمَّا الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ وَلَمْ يَتَّبِعوا وَساوِسَ الشَّيْطانِ ، وَأَخْلَصوا أَعْمالَهُمْ للهِ تَعالى ، سَيُدْخِلُهُمْ اللهُ

تَعالى جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ، ماكِثينَ فيها أَبَداً ، إِنَّ هَذا الوَعْدَ الَّذي وَعَدَكُمْ اللهُ بِهِ أَيُّها المُؤْمِنونَ هُوَ الوَعْدُ الحَقُّ الَّذي لاَ رَيْبَ فيهِ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ يعطيكُمْ بَفَضْلِهِ وَجودِهِ وَواسِعِ كَرَمِهِ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قَوْلاً وَوَعْداً . وَالاسْتِفهامُ في الآيَةِ يُفيدُ النَّفْيَ ، أَيْ : لا أَحَدَ أَصْدَقُ قَوْلاً مِنَ اللهِ .

وَبَعْدَ أَنْ بيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّ الشَّيْطانَ يَعِدُ أَوْلِياءَهُ وَيُمَنِّيهِمْ ، ذَكَرَتِ الآياتُ ما كانَ الشَّيْطانُ يُمَنِّيهِ لأَهْلِ الكِتابِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

والصَّحيحُ أَنَّ الآيَةَ عامَّةٌ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى : لَيْسَ فَضْلُ الدِّينِ وَشَرَفُ أَهْلِهِ أَنْ يَقولَ القائِلُ : إِنَّ ديني أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ ، بَلْ عَلَيهِ أَنْ يَعْمَلَ بما يَهْديهِ إِلَيْهِ دينُهُ ، لأَنَّ الجَزاءَ إِنَّما يَكونُ عَلى العَمَلِ ، فَلَيْسَ الدِّينُ بالتَّحَلِّي وَلا بِالتَّمَنِّي وَلَكِنْ مَا وَقَرَ في القَلْبِ وَصَدَّقَتْهُ الأَعْمالُ ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنِ ادَّعى شَيئاً حَصَلَ لَهُ بِمُجَرَّدِ دَعْواهُ ، وَلا كُلُّ مَنْ قالَ إِنَّهُ عَلى الحَقِّ سُمِعَ قَوْلُهُ لِمُجَرَّدِ ذَلِكَ حَتَّى يَكونَ لَهُ بُرْهانٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَقَدْ أَكَّدَ سُبْحانَهُ هَذا الأَمْرَ بِقَوْلِهِ ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ لأَنَّ الجَزاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ ، وَهَذا الجَزاءُ يَكونُ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ .

وَيُرْوى أَنَّ الآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ ذَلِكَ عَلى المُسْلِمينَ فَجاءوا إِلى النَّبيِّ ﷺ يَشْكونَ ، فَقالَ لَهُمْ رَسولُ اللهِ ﷺ : « سَدِّدوا وَقارِبوا فَإِنَّ كُلَّ ما أَصابَ المُسْلِمَ كَفَّارَةٌ لَهُ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشاكُها والنَّكْبَةِ يُنْكَبُها »[1] .

إِنَّ كُلَّ مَا يُصيبُ الإِنْسانَ مِنْ مَصائِبَ في الدُّنْيا مِنْ أَمْراضٍ وَأَسْقامٍ وَفَقْرٍ وَهَمٍّ يُكَفِّرُ اللهُ بِها الخَطايا وَيَرْفَعُ بِها مِنْ دَرَجاتِ المُسْلِمِ . إِنَّ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً ، يَسْتَحِقُّ العِقابَ عَلَيْهِ وَلا يَجِدُ لَهُ مِنْ دونِ اللهِ وَلِيّاً يَتَوَلَّى أَمْرَهُ وَيَدْفَعُ العِقابَ عَنْهُ ، وَلاَ نَصيراً يَنْصُرُهُ ، لا مِنَ الأَنْبياءِ وَلا مِنْ غَيْرِهِمْ .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ .

وَمَنْ يَعْمَلِ الأَعْمالَ الصَّالِحَةَ الَّتي تُصْلِحُ نَفْسَهُ وَأَخْلاقَهُ ، سَواءٌ كانَ العامِلُ ذَكَراً أَمْ أُنْثى ما دامَ

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء : رواه الطبراني عن عائشة ، وأصله عند مسلم بلفظ : ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب له درجة ومحيت عنه خطيئة ، انظر : كشف الخفاء والإلباس عما دار من الحديث على ألسنة الناس ٢/ ٤٠٢ .

مُؤْمِناً ، فَأُولَئِكَ المُؤْمِنونَ العامِلونَ الصَّالِحاتِ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ ، وَلَنْ يَظْلِمَهُمُ اللهُ تعالى شَيْئاً مِنْ أَجْرِهِمْ حَتَّى لَوْ كانَ قَليلاً حَقيراً يَبْلُغُ في صِغَرِهِ النُّقْطَةَ الَّتي تَكونُ عَلى نَواةِ التَّمْرِ .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾

وَيُبَيِّنُ اللهُ تَعالى أَنَّهُ لا أَحَدَ أَحْسَنُ مِمَّنْ جَعَلَ قَلْبَهُ خالِصاً للهِ تَعالى ، فَلَمْ يَتَوَجَّهْ بِالدُّعاءِ إِلاَّ إِلى اللهِ تَعالى ، وَلَمْ يَجْعَلْ وَسيطاً بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيْ وَهُوَ مُؤَدٍّ مَا عَلَيْهِ مِمَّا أَمَرَهُ اللهُ تَعالى بِهِ ، وَمُجْتَنِبٌ كُلَّ مَا نَهاهُ اللهُ عَنْهُ ، وَمُتَحَلٍّ بِالأَخْلاقِ الحَميدَةِ ، فالدينُ الحَقُّ لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ أَمْرَيْنِ :

١ـ إِخْلاصُ النِّيَّةِ للهِ تَعالى .

٢ـ العَمَلُ الصَّالِحُ وَالمُتْقَنُ .

وَلاَ أَحَدَ أَحْسَنُ مِمَّنِ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، الَّذي كانَ حَنيفاً مائِلاً عَنِ الباطِلِ إِلى الحَقِّ ، وَقَدِ اصْطَفاهُ اللهُ تَعالى لإِقامَةِ دينِهِ ، وَقَدِ اتَّخَذَهُ اللهُ صَفِيّاً خَليلاً مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ . وَقَدْ كانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ خالِصَ المَحَبَّةِ لَخالِقِهِ ، مُبْغِضاً لِكُلِّ ما يُبْغِضُهُ اللهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالأَعْمالِ السَّيِّئَةِ .



تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ بِالجَزاءِ العَظيمِ وَالثَّوابِ الجَزيلِ ، وَوَعْدُ اللهِ حَقٌّ لا يَتَخَلَّفُ .

٢ـ كُلُّ مَا يُصيبُ الإِنْسانَ مِنْ آلامٍ في الدُّنْيا ، فَإِنَّهُ تَكْفيرٌ لِخَطاياهُ وَرَفْعٌ لِدَرَجاتِهِ عِنْدَ اللهِ تَعالى .

٣ـ لَيْسَ الدِّينُ بِالتَّحَلِّي ولا بِالتَّمَنِّي ، وَلَكِنَّ الدِّينَ ما وَقَرَ في القَلْبِ وَصَدَّقَهُ العَمَلُ .

٤ـ إِنَّ النَّجاةَ وَالسَّعادَةَ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ لاَ يَتَحَقَّقانِ إِلاَّ بِالإِيمانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما جَزاءُ المُؤْمِنينَ الّذينَ لَمْ يَتَّبعوا سُبُلَ الشَّيْطانِ ؟

٢ـ ما المَقصودُ بِقولِهِ تَعالى : ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ؟

٣ـ لِماذا شَقَّ الأَمْرُ على المُؤْمِنينَ عِنْدَ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ ؟

٤ـ لِمَ حَصَرَتِ الآيَةُ الحُسْنَ في الدِّينِ ؟

٥ـ الدِّينُ الحَقُّ لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ أَمْرَيْنِ ، ما هُما ؟

* * *

الدَّرسُ الخامِسُ والثَّلاثونَ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ الخامِسُ والثَّلاثُونَ

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَسْتَفْتونَكَ : يَطْلُبونَ مِنْكَ الفُتْيا .

كُتِبَ لَهُنَّ : فُرِضَ لَهُنَّ .

أَنْ تَقوموا : أَنْ تَعْدِلوا .

بِالقِسْطِ : بِالعَدْلِ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَمَّنْ يَجْعَلُ مَعَ اللهِ شَريكاً ، وَبَيَّنَتْ أَنَّ هَؤُلاءِ إِنَّما يَتَّبِعونَ الشَّيْطانَ ، وبَيَّنَتْ أَنَّ الدِّينَ الحَقَّ هُوَ الَّذي يَتَضَمَّنُ النيَّةَ الصَّادِقَةَ الخالِصَةَ للهِ تَعالى ، وَالعَمَلَ الصَّالِحَ . وَقَدْ خَتَمَ سُبْحانَهُ وَتَعالى الحَديثَ عَنْ هَذِهِ الأُمورِ بِقَوْلِهِ :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾ .

فَكُلُّ ما في السَّماواتِ وَالأَرْضِ مُلْكٌ للهِ تَعالى وَحْدَهُ ، فَهُوَ خالِقُها ، وَلا يَخْرُجُ مِنْ مَلَكوتِهِ شَيءٌ مِنْها ، وَهُوَ سُبْحانَهُ مُحيطٌ بِما خَلَقَهُ لا تَخْفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ ، وَسَيُجازي سُبْحانَهُ الَّذينَ أَساءوا بِما

عَملوا وَسَيُجازي الَّذينَ أَحْسَنوا الحُسْنى ، وما دامَ هُوَ سُبْحانَهُ المالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ إِذاً وَحْدَهُ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبادَةِ وَالخُضوعِ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنِ جُمْلَةٍ مِنَ الأَحْكامِ الَّتي تَتَعَلَّقُ بِالنِّساءِ . كانَ الصَّحابَةُ يَسْأَلونَ الرسولَ كَثيراً عَنِ الأَحْكامِ الَّتي تَتَعَلَّقُ بِهِنَّ ، حَتَّى يُنَفِّذوا ما يَطْلُبُهُ مِنْهُمُ الشَّرْعُ مِنْ حَيْثُ مُعاشَرَتُهُنَّ وَوِلايَتُهُنَّ وَميراثُهُنَّ وَغَيْرُ ذَلِكَ .

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ ﴾ أَيْ : يَطْلُبُ مِنْكَ أَصْحابُكَ يا مُحَمَّدُ الفُتْيا في شَأْنِ النِّساءِ ، أَيْ : بَيانَ ما أُشْكِلَ وَغَمُضَ مِنْ أَحْكامِهِنَّ ، فَقُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ : إِنَّ اللهَ تَعالى يُبَيِّنُ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ عَنْهُ في شَأْنِهِنَّ بِما يوحيهِ اللهُ تَعالى في القُرْآنِ ، وَيُفْتيكُمْ سُبْحانَهُ في شَأْنِهِنَّ بِما يُتْلى عَلَيْكُمْ في الكِتابِ مِمَّا نَزَّلَ عَلَيْكُمْ قَبْلُ في أَحْكامِ مُعامَلَةِ يَتامى النِّساءِ .

لَقَدْ كانَتْ عادَةُ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ ، إِذا كانَتْ اليَتيمَةُ تَحْتَ وِلايَتِهِمْ ، أَنَّهُمْ لا يُعْطونَها ما كُتِبَ لَها مِنَ الإِرْثِ ، وَكانوا يَرْغَبونَ في نِكاحِها لِجَمالِها والتَّمَتُّعِ بِأَمْوالِها ، وَكانَ بَعْضُهُمْ يَمْتَنِعُ عَنْ نِكاحِ بَعْضِ هَؤُلاءِ اليَتامى مِنَ النِّساءِ لِكَوْنِهِنَّ قَبيحاتٍ ، وَلا يُنْكِحوهُنَّ كَذَلِكَ لأَحَدٍ لِيَسْتَأْثِروا بِأَمْوالِهِنَّ ، وَهَكَذا إِنْ كانَتِ اليَتيمَةُ جَميلَةً تَزَوَّجَها وَأَكَلَ مالَها ، وَإِنْ كانَتْ قَبيحَةً مَنَعَها مِنَ الزَّواجِ حَتَّى تَموتَ فَيَرِثُها وَيَأْخُذُ أَمْوالَها .

وَيُفْتيكُمْ سُبْحانَهُ فيما يُتْلى عَلَيْكُمْ كَذَلِكَ في شَأْنِ المُسْتَضْعَفينَ مِنَ الوِلْدانِ الَّذينَ كُنْتُمْ لا تُعْطونَهُمْ نَصيبَهُمْ مِنَ الميراثِ ، فَأَمَرَكُمُ اللهُ بِتَوْريثِ الذُّكورِ وَالإِناثِ صِغاراً وَكِباراً .

وَيُفْتيكُمُ اللهُ تَعالى أَنْ تَقوموا عَلى شُؤونِ اليَتامى وَأَنْ تَهْتَمّوا بِهِمْ ، وَتُعامِلوهُمْ بِالعَدْلِ عَلى أَكْمَلِ الوجوهِ .

إِنَّ هَذا الَّذي تَلاهُ عَلَيْكُمْ في كِتابِهِ يَنْبَغي أَنْ يَمْنَعَكُمْ أَنْ تَفْعَلوا مَعَهُنَّ شَيْئاً مِمَّا حَرَّمَهُ اللهُ تَعالى مِمَّا كُنْتُمْ تَفْعَلونَهُ في الجاهِلِيَّةِ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ .

أَيْ : ما تَفْعَلوا مِنْ خَيْرٍ يَتَعَلَّقُ بِمَنْ ذَكَرَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، أَوْ بِغَيْرِهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ كانَ عَليماً مُحيطاً بِهِ ، وَسَيُجازيكُمْ عَلَيْهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى خَيْرَ الجَزاءِ .

لَقَدْ جاءَتِ الآياتُ الكَريمَةُ لِتُرَغِّبَ في الإِحْسانِ إِلى النِّساءِ وَإِلى المُسْتَضْعَفينَ مِنَ الوِلْدانِ ،

وَالإِحْسانِ إلى اليَتامى ، وَقَدْ قالَ ﷺ : « أنا وَكافِلُ اليَتيمِ في الجَنَّةِ كَهاتَيْنِ »[1] وَرَفَعَ إِصْبَعَيْهِ : السَّبَّابَةَ والوسْطَى .

وَرُوِيَ عَنِ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها في قَوْلِهِ ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ أَنَّها قالَتْ : « هُوَ الرَّجُلُ تَكونُ عِنْدَهُ يَتيمَةٌ هُوَ وَلِيُّها وَوارِثُها ، فَأَشْرَكَتْهُ في مالِهِ حَتَّى العَذَقِ ، فَيَرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَها وَيَكْرَهُ أَنْ يُزَوِّجَها رَجُلاً فَيُشْرِكُهُ في مالِهِ بِما شَرِكَتْهُ فَيَعْضُلَها »[2] .

وَعَنْها أَنَّها قالَتْ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتيمَتِهِ الَّتي في حِجْرِهِ حينَ تَكونُ قَليلَةَ المالِ وَالجَمالِ ، فَنُهوا أَنْ يَنْكِحوا مَنْ رَغِبوا في مالِها وَجَمالِها مِنْ يَتامى النِّساءِ إِلاَّ بِالقِسْطِ مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ ، أَيْ : إِذا كُنَّ قَليلاتِ المالِ والجَمالِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبادَةِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ ، لأَنَّهُ هُوَ المالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ .

٢ـ الحَثُّ عَلى إِعْطاءِ النِّساءِ حُقوقَهُنَّ ، وَعَدَمُ ظُلْمِهِنَّ ، وَالعَدْلُ مَعَهُنَّ .

٣ـ الحَثُّ عَلى الإِحْسانِ إلى اليَتيمِ وَحِفْظِ حُقوقِهِ كامِلَةً غَيْرَ مَنْقوصَةٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ؟

٢ـ ما مَعْنى ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ ؟

٣ـ لِمَ كانَ الصَّحابَةُ يُكْثِرونَ مِنَ السُّؤالِ وَالفُتيا عَنِ النِّساءِ ؟

٤ـ ما السُّلوكُ الَّذي كانَ يَتَّبِعُهُ الرِّجالُ في الجاهِلِيَّةِ تِجاهَ يَتامى النِّساءِ ؟

٥ـ ما الحُكْمُ الَّذي بَيَّنَهُ سُبْحانَهُ في شَأْنِ المُسْتَضْعَفينَ مِنَ الوِلْدانِ ؟

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الأدب ، باب فضل من يعول يتيماً ، حديث رقم ٥٦٥٩ .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ، باب ويستفتونك في النساء ، حديث رقم ٤٣٢٤ .

٦ـ لَقَدْ بَيَّنَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْها المَقْصودَ بِقَوْلِهِ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ ، إلى قَوْلِهِ ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ، هاتِ مَا ذَكَرَتْهُ في ذَلِكَ .

نَشاطٌ :

ـ تَحَدَّثَتِ الآياتُ في مَطْلَعِ سورَةِ النِّساءِ عَنِ إباحةِ التَّعدُدِ شَريطةَ العَدْلِ . اكْتُبِ الآياتِ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ السَّادِسُ وَالثَّلاثونَ

سورةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ السَّادِسُ وَالثَّلاثونَ

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

خافَتْ : تَوَقَّعَتْ مَكْروهاً .

نُشوزاً : تَرَفُّعاً عَنْ زَوْجِهِ .

إِعْراضاً : مَيْلاً وَانْحِرافاً .

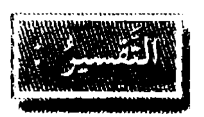
جُناحَ : إِثْماً وَحَرَجاً .

الشُّحَّ : البُخْلَ .

كالمُعَلَّقَةِ : لَيْسَتْ بِذاتِ زَوْجٍ أَوْ مُطَلَّقَةً .

مِنْ سَعَتِهِ : مِنْ غِناهُ .

واسِعاً : غَنِيّاً .



التَّفْسيرُ :

تَحَدَّثَتْ آياتُ الدَّرْسِ السَّابِقِ عَمَّا سَأَلوهُ عَنِ النِّساءِ ، وَفي هَذهِ الآياتِ مَزيدُ بَيانٍ لأَحْكامِهِنَّ . فَبَدَأَتِ الآيَةُ الحَديثَ هُنا عَمَّا يَتَعَلَّقُ بِالزَّوْجَيْنِ ، وَما يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ بَيْنَهُما مِنْ خِلافٍ وَشِقاقٍ .

وَقَدْ ذَكَرَتْ سورَةُ النِّساءِ مِنْ قَبْلُ حُكْمَ نُشوزِ المَرْأَةِ ، وَخُروجِها عَنْ طاعَةِ زَوْجِها ، وَهُنا تَتَحَدَّثُ عَنْ نُشوزِ الرَّجُلِ ، فَيَقولُ اللهُ سُبحانَهُ :

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

وَالمَقْصودُ بالنُّشوزِ هُنا : اسْتِعْلاءُ الرَّجُلِ عَلى زَوْجِهِ ، وَمُجافاتُهُ لَها وَذَلِكَ بِأَنْ يَمْنَعَها نَفْسَهُ وَنَفَقَتَهُ ، وَالمَوَدَّةَ والرَّحْمَةَ . وَيَقْصُدُ بالإِعْراضِ : التَّقليلُ مِنْ مُحادَثَتِها ، وَعَدَمُ مُؤانَسَتِها وَإِدْخالِ السُّرورِ عَلَيْها .

وَمَعْنى الآيَةِ : إِنْ خافَتِ امْرَأَةٌ مِنْ زَوجِها تَرَفُّعاً عَنْ صُحْبَتِها أَوْ إِعْراضاً بِحَيْثُ صارَ يَنْصَرِفُ عَنْ مُحادَثَتِها وَمُؤانَسَتِها ، فَفي هَذِهِ الحالِ لاَ بَأْسَ وَلاَ حَرَجَ وَلاَ إِثْمَ عَلى الزَّوْجَيْنِ أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً ، أَيْ يَتَّفِقا عَلى الصُّلْحِ فيما بَيْنَهُما ، إِبْقاءً لِرابِطَةِ الزَّوْجِيَّةِ ، وَذَلِكَ كَأَنْ تَتَنازَلَ لَهُ عَنْ بَعْضِ حَقِّها في النَّفَقَةِ أَوْ المَبيتِ مَعَها .

رُوِيَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قالَ : « خَشِيَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ إِحْدى زَوْجاتِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُطَلِّقَها رَسولُ اللهِ ﷺ فَقالَتْ : « يا رَسولَ اللهِ ، لا تُطَلِّقْني وَاجْعَلْ يَوْمي لِعائِشَةَ »[1] .

إِنَّ الصُّلْحَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ خَيْرٌ مِنَ الفُرْقَةِ أَوْ سوءِ العِشْرَةِ ، لأَنَّ رابِطَةَ الزَّوْجِيَّةِ مِنْ أَعْظَمِ الرَّوابِطِ وَأَحَقِّها بِالحِفْظِ ، قالَ تَعالى : ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ وَهِيَ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ ، جاءَتْ في بَيانِ ما جَبَلَ اللهُ تَعالى عَلَيْهِ الإِنْسانَ ، فَقَدْ جُبِلَتْ عَلى الحِرْصِ عَلى ما تَمْلُكُ ، فَالمَرْأَةُ تَحْرِصُ عَلى حَقِّها وَلا تَكادُ تَتَنازَلُ عَنْهُ ، وَالرَّجُلُ كَذَلِكَ فَهُوَ حَريصٌ عَلى أَمْوالِهِ لا يَتَنازَلُ عَنْها ، فَجاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتُذَكِّرَهُمْ بِالتَّسامُحِ فيمَا بَيْنَهُمْ ، مِنْ أَجْلِ الإِبْقاءِ عَلى الحَياةِ الزَّوْجِيَّةِ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أَي إِنْ تُحْسِنوا أَيُّها الرِّجالُ في أَقوالِكُمْ وَأَفْعالِكُمْ إِلى نِسائِكُمْ ، وَتَتَّقوا اللهَ فيهِنَّ بِأَنْ تَتْرُكوا التَّرَفُّعَ عَلَيْهِنَّ وَالإِعراضَ عَنْهُنَّ وَتَصْبِروا عَلى ما تَرْضَوْنَهُ مِنْهُنَّ ، إِنْ تَفْعَلوا ذَلِكَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى خَبيرٌ بِهِ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ يَعْلَمُ دَقائِقَ الأُمورِ وَخَفاياها ، وَسَيَجْزيكُمْ سُبْحانَهُ بِما تَسْتَحِقّونَ .

وَفي هَذا تَوْجيهٌ لِلْمُسْلِمينَ إِلى أَنَّ الحَياةَ الزَّوْجِيَّةَ لاَ يُقْصَدُ بها التَّمَتُّعُ فقط دونَ مُراعاةِ أَهَمِّ أُسُسِها ، وَهِيَ مَا ذَكَرَهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : ٢١] . إِنَّ أَهَمَّ أُسُسِ الحَياةِ الزَّوْجِيَّةِ تَكْوينُ النَّسْلِ ، وَإِصْلاحُ الذُّرِّيَّةِ ،

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع ، حديث رقم ٣٠٤٠ ، وأبو داود في السنن ، حديث رقم ٢١٣٥ .

فَلْيَحْرِصِ المُسْلِمُ على هَذِهِ الأُمورِ حَتَّى تَسيرَ الأُمورُ كَما يَنْبَغي ، وَلا يَظْلِمِ المَرْأَةَ حُقوقَها .

إِنَّ العَدْلَ التَّامَ بَيْنَ النِّساءِ أَمْرٌ مُسْتَحيلٌ ، وَلِذا قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

أَيْ : لَنْ تَسْتَطيعوا أَنْ تَعْدِلوا بَيْنَ زَوْجاتِكُمْ وَأَنْ تُساووا بَيْنَهُنَّ عَدْلاً كامِلاً ، مَهْما حَرَصْتُمْ عَلى ذَلِكَ ، لأَنَّكُمْ تَميلونَ في مَحَبَّتِكُمْ إِلى واحِدَةٍ مِنْهُنَّ ، وَهَذا المَيْلُ القَلْبِيُّ لا يَمْلِكُهُ المَرْءُ ، وَلِذا فَإِنَّ اللهَ تَعالى خَفَّفَ عَنْكُمْ وَلَمْ يُؤاخِذْكُمْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ كانَ رَسولُ اللهِ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسائِهِ فَيَعْدِلُ ، ثُمَّ يَقولُ : « اللَّهُمَّ هَذا قَسْمي فيما أَمْلِكُ فَلاَ تَلُمْني فيما تَمْلِكُ وَلا أَمْلِكُ »[1] . يَعْني بِذَلِكَ المَيْلَ القَلْبِيَّ .

وَإِذا كانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ وَثَبَتَ أَنَّكُمْ لاَ تَسْتَطيعونَ أَنْ تَعْدِلوا بَيْنَهُنَّ عَدْلاً كامِلاً فَلا تَميلوا كُلَّ المَيْلِ إِلى إِحداهُنَّ ، وَتُبالِغوا في إِرْضائِها ، وَالإِقْبالِ عَلَيْها وَتُعْرِضوا عَنِ الأُخْرى وَتَهْجُروها ، فَتَصيرُ كَأَنَّها لَيْسَتْ مُتزَوِّجَةً وَلَيْسَتْ مُطَلَّقَةً ، وَقَدْ سَمَّاها القُرْآنُ (المُعَلَّقَةَ) أَيْ لا هِيَ ذاتُ زَوْجٍ تَنالُ حُقوقَها الكامِلَةَ مِنْهُ وَلا مُطَلَّقَةٌ تَرْجو اللهَ أَنْ يَرْزُقَها زَوْجاً آخَرَ ، إِنَّ الَّذي يَغْفِرُهُ لَكُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ما لا يَدْخُلُ في اخْتِيارِكُمْ ، وَلَكِنَّهُ سُبْحانَهُ لا يَغْفِرُ ما يَكونُ فيهِ تَقْصيرٌ مِنْكُمْ عَنْ تَعَمُّدٍ وَإِهْمالٍ .

وَخَتَمَ سُبْحانَهُ الآيَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أَيْ : بَعْدَ ما بَدَرَ مِنْكُمْ مِنَ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الزَّوْجاتِ وَعَدَمِ المُساواةِ بَيْنَهُنَّ ، إِنْ تُصْلِحوا وَتَعْدِلوا في قِسْمَتِكُمْ بَيْنَهُنَّ ، وَتُعاشِروهُنَّ بِالمَعْروفِ ، وَتَتَّقوا اللهَ فيهِنَّ فَلا تَظْلِموهُنَّ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى يَغْفِرُ لَكُمْ ما بَدَرَ مِنْكُمْ مِنْ ذُنوبٍ في تَقْصيرِكُمْ بِحَقِّهِنَّ .

إِنَّ الدِّينَ يَحْرِصُ عَلى اسْتِمرارِ الحَياةِ الزَّوْجِيَّةِ ، وَلِذا فَقَدْ حَثَّ عَلى الصُّلْحِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وَلَكِنَّ هَذا الصُّلْحَ بَيْنَهُما قَدْ يَتَعَذَّرُ ، وَقَدْ يَكونُ في الفُرْقَةِ بَيْنَهُما خَيْرٌ ، وَلِذا قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾

إِنْ يَتَفَرَّقْ هَذانِ الزَّوْجانِ اللَّذانِ يَحْرِصانِ عَلى إِقامَةِ ما حَدَّهُ اللهُ في أُمورِ الزَّوْجِيَّةِ ، وَلَنْ يَسْتَطيعا ذَلِكَ أَيْ : لَمْ يَستَطِعِ الرجُلُ الصَّبْرَ عَلى المَرْأَةِ ، أَوْ هِيَ لَمْ تَسْتَطِعْ كَذَلِكَ الصَّبْرَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى جَعَلَ لَهُما في الطَّلاقِ ما يُغْني كُلاً مِنْهُما عَنْ صاحِبِهِ بِسَعَةِ فَضْلِهِ سُبْحانَهُ وَإِحْسانِهِ ، فَقَدْ يُسَخِّرُ لِلْمَرْأَةِ زَوْجاً خَيْراً مِنْهُ وَيُهَيِّئُ لَهُ امْرَأَةً أُخْرى تُرْضيهِ وَتَقومُ بِشُؤونِ أَوْلادِهِ وَبَيْتِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعالى كانَ وَلا يَزالُ واسِعَ الفَضْلِ وَالغِنى وَالرَّحْمَةِ ، حَكيماً فيما شَرَعَهُ مِنْ أَحْكامٍ فيها مَصْلَحَةٌ لِعِبادِهِ .

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب النكاح ، باب في القسمة بين النساء .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حَثُّ الزَّوْجَيْنِ عَلى أَنْ يُحْسِنا العِشْرَةَ الزَّوْجِيَّةَ ، وَأَنْ يَصْبِرَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما على ما يَكونُ مِنْ صاحِبِهِ مِنْ هَفَواتٍ .

٢ـ يَجوزُ لأَحَدِ الزَّوْجَيْنِ أَنْ يَسْتَغْنيَ عَنْ بَعْضِ حُقوقِهِ لِلآخَرِ ، وَذَلِكَ بِقَصْدِ الإِبْقاءِ عَلى الحَياةِ الزَّوْجيَّةِ .

٣ـ العَدْلُ الكامِلُ بَيْنَ النِّساءِ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ ، وَلِذا فَإِنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعالى بِالإِنْسانِ أَنَّهُ لَمْ يُؤاخِذْهُ على ما لاَ يَمْلِكُهُ وَهُوَ المَيْلُ القَلْبِيُّ ، أَمَّا ما يَمْلِكُهُ فَهُوَ مُؤاخَذٌ عَلَيْهِ وَمُحاسَبٌ .

٤ـ الأَيَّامُ سِجالٌ بَيْنَ النَّاسِ ؛ يَومٌ لَهُمْ وَيَوْمٌ عَلَيْهِمْ ، يَوْمُ نَصْرٍ ، وَيَوْمُ هَزيمَةٍ ، وَلَكِنَّ العاقِبَةَ لِلمُتَّقينَ .

التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التَّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بِنُشوزِ الرَّجُلِ ؟

٢ـ كَيْفَ تَخافُ المَرْأَةُ نُشوزَ الرَّجُلِ ؟

٣ـ مَا الحُكْمُ في حالِ نُشوزِ الرَّجُلِ ؟

٤ـ بيِّنِ المَقْصودَ بِقَوْلِهِ : ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ .

٥ـ بِمَ أَمَرَتِ الآياتُ الرِّجالَ تِجاهَ النِّساءِ في مُعامَلَتِهِنَّ ؟

٦ـ العَدْلُ التَّامُ بَيْنَ النِّساءِ مُسْتَحيلٌ ، وَضِّحْ هَذِهِ العِبارَةَ .

٧ـ مَا المَقْصودُ بِقَوْلِ اللهِ تَعالى : ﴿فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ ؟

٨ـ إِنَّ كَثيراً مِنَ الرِّجالِ يَعيشونَ مَعَ نِسائِهِمْ في نَكَدٍ وَضيقٍ ، حَتَّى لاَ يُطَلِّقَها فَيَخْسَرَ مالاً كَثيراً ، وَلا يَسْتَطيعُ الزَّواجَ مَرَّةً أُخْرى ، بِمَ وَعَدَ اللهُ تَعالى هَؤُلاءِ هُمْ وَنِساءَهُمْ إِذا افْتَرَقا ؟

نَشاطٌ :

١ـ تَحَدَّثَتْ أَوائِلُ سُورَةِ النِّساءِ عَنْ إِباحَةِ التَّعدُّدِ شَريطَةَ العَدْلِ ، اكْتُبِ الآياتِ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ارْجِعْ إِلى أَحَدِ مَعاجِمِ اللُّغَةِ المَوْجودَةِ في مَدْرَسَتِكَ ، وَاسْتَخْرِجْ مِنْهُ مَعْنى كُلٍّ مِنَ البُخْلِ وَالشُّحِّ ، وَتَبَيَّنِ الفَرْقَ بَيْنَهُما ، وَاكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرس السابع والثلاثون

سورةُ النِّساءِ - القِسْمُ السّابعُ والثّلاثون

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

معاني المُفْرَدات :

وَصَّيْنا : أَمَرْنا .

يُذْهِبْكُمْ : يُفْنيكُمْ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ شَرَعَ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِلنَّاسِ ما تُحقِّقُ بِهِ مَصالِحُهُمْ مِنَ الأَحْكام ، كَالعَدْلِ والإحسانِ إِلى اليَتامَى ، وَالعَدْلِ مَعَ النِّساءِ وَعَدَم ظُلْمِهِنَّ ، فَالواجِبُ عَلى المُسْلِم الالتِزامُ بِما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى لَهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ القادِرُ عَلى إِثابَتِهِمْ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ المالِكُ لِكُلِّ ما في الكَوْنِ ، فَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ مُلْكِهِ وَقُدْرَتِهِ وَسُلْطانِهِ ، فَعَلى النَّاسِ أَنْ يَخْشَوْهُ سُبْحانَهُ وَيَتَّقوهُ ، وَلِذا قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾ .

للهِ وَحْدَهُ سُبْحانَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأَرْضِ خَلْقاً وَمُلْكاً ، فَهُوَ سُبْحانَهُ مُدَبِّرُ الكَوْنِ إِيجاداً

وَإِعْداماً ، وَإِحْياءً وَإِماتَةً ، فَلا يَتَعَذَّرُ عليْهِ إِغْناءُ أَحَدٍ بَعْدَ فَقْرِهِ ، وَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ بَعْدَ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ، لِيُنَبِّهَ الخَلْقَ إِلى أَنَّ الزَّوْجَيْنِ إِذا أَرادا الفُرْقَةَ وَخافا مِنْ ذَلِكَ لِما يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ تَبعاتٍ مالِيَّةٍ ، عَلَيْهِما عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَتَوَجَّها إِلى اللهِ وَحْدَهُ الذي لَهُ مُلْكُ الكَوْنِ كُلِّهِ ، وَلَنْ يَتَعذَّرَ عَلَيْهِ سُبْحانَهُ أَنْ يُغْنِيَهُما وَيُغْنِيَ كُلَّ صاحِبِ حاجَةٍ ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلى كُلٍّ مِنَ الزَّوجَيْنِ بالصّاحِبِ وَالأَنيسِ المُناسِبِ .

لَقَدْ أَمَرَ رَبُّكُمْ مالِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَما فيهِما ، الَّذينَ كانوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ اليَهودِ والنَّصارَى وَغَيْرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ ، أَمَرَهُمْ بِتَقوى اللهِ تَعالى ، وَأَمَرَكُمْ أَنْتُمْ كَذَلِكَ يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ بِتَقوى اللهِ تَعالى وَبِمُراقَبَتِهِ وَخَشْيَتِهِ وَالْتِزامِ أَوامِرِهِ وَاجْتِنابِ نَواهيهِ ، وَتَطبيقِ شَرائِعِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى .

وَإِنْ تَكْفُروا أَيُّها النَّاسُ بَعْدَ هَذا بِأَنْعُمِ اللهِ تَعالى وَتَجْحَدوا فَضْلَهُ سُبْحانَهُ وَإِحْسانَهُ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَعْلَموا وَتَتَيَقَّنوا أَنَّهُ سُبْحانَهُ مالِكُ المُلْكِ والمَلَكوتِ ، لَنْ يَضُرَّهُ كُفْرُكُمْ وَإِتْيانُكُمُ المَعاصي ، كَما أَنَّهُ لا يَنْفَعُهُ شُكْرُكُمْ وَتَقواكُمْ ، وَلَكِنَّهُ سُبْحانَهُ وَصَّاكُمْ بِما وَصَّاكُمْ بِهِ رَحْمَةً بِكُمْ لا حاجَةً إِلَيْكُمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ كانَ وَما يَزالُ غَنِيّاً عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، مُسْتَحِقّاً لأَنْ يَحْمِدَهُ الحامِدونَ ، وَفي الحَديثِ القُدُسِيِّ : « يا عِبادِيَ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني ، وَلَنْ تَبْلُغوا نَفْعي فَتَنْفَعوني ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانوا على أَتْقى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُمْ ما زادَ في مُلْكي شَيْئاً ، يا عِبادي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكي شَيْئاً ، يا عِبادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قاموا في صَعيدٍ واحِدٍ فَسَأَلوني فَأَعْطَيْتُ كُلَّ واحِدٍ مَسْأَلَتَهُ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدي إِلاَّ كَما يُنْقِصُ المَخيطُ إِذا أُدْخِلَ البَحْرَ ، يا عِبادي ، إِنَّما هِيَ أَعْمالُكُمْ أُحْصيها لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاها ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ »[1] .

وَأَكَّدَ سُبْحانَهُ هَذا الأَمْرَ بِقَوْلِهِ :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

فَكَما أَنَّهُ سُبْحانَهُ قادِرٌ عَلى أَنْ يُغْنِيَ كُلاً مِنْ سَعَتِهِ ، لأَنَّ مُلْكَ الكَوْنِ كُلِّهِ بِيَدِهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ غَنِيٌّ عَنِ الخَلْقِ كُلِّهِمْ وَعَنْ تَقْواهُمْ ، وَمُلْكُ ما في السَّماواتِ وَالأَرْضِ بِيَدِهِ سُبْحانَهُ ، وَكَفى بِهِ سُبْحانَهُ قَيِّماً وَكَفيلاً بِأَمْرِ العِبادِ ، كَفِلَ لَهُمْ أَرْزاقَهُمْ وَأَقْواتَهُمْ وَسائِرَ شُؤونِهِمْ .

إِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ عَظيمُ السُّلْطانِ والقُدْرَةِ وَالغِنى ، وَما يَدُلُّ لِذَلِكَ أَنَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى قالَ :

---

(١) رواه مسلم في الصحيح ، باب تحريم الظلم ، حديث رقم ٢٥٧٧ .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ١٣٣ ﴾

أَيْ : إِنْ يُرِدْ سُبْحانَهُ وَتَعالى إِفْناءَكُمْ وَاسْتِئْصالَكُمْ مِنَ الوجودِ ، وَيوجِدُ مَكانَكُمْ أَقواماً آخرينَ يَحِلُّونَ مَحَلَّكُمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وَتَعالى قادِرٌ عَلى ذَلِكَ ، لأَنَّ كُلَّ ما في السَّماواتِ والأَرْضِ داخِلٌ تَحْتَ قَبْضَتِهِ خاضِعٌ لِسُلْطانِهِ ، وَلَكِنَّهُ سُبْحانَهُ لَمْ يَفْعَلْ ، وَلَمْ يُرِدِ اسْتِئْصالَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ لِحِكَمٍ وَمَصالِحَ أَرادَها سُبْحانَهُ لا لِعَجْزٍ مِنْهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ قَديرٌ عَلى إِفْنائِكُمْ وَإِيجادِ خَلْقٍ آخَرَ ، كَما اسْتَأْصَلَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ وَجاءَ بِكُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ .

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ١٣٤ ﴾

إِنَّ الَّذي بِيَدِهِ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ وَما فيهِما ، يَسْتَحِقُّ أَنْ تَتَوَجَّهوا إِلَيْهِ سُبْحانَهُ بِأَعْمالِكُمْ ، وَتَقْصِدُوا ثَوابَهُ وَنَعيمَهُ ، وَتَخْشَوْا عِقابَهُ وَنِقْمَتَهُ ؛ لأَنَّ مَنْ كانَ مِنْكُمْ حَريصاً في حَياتِهِ وَسَعْيِهِ عَلى نَعيمِ الدُّنْيا مِنْ مالٍ وَجاهٍ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَمْلِكُ نَعيمَ الدُّنْيا وَخَيْراتِها وَيَمْلِكُ كَذَلِكَ نَعيمَ الآخِرَةِ ، إِنَّ العاقِلَ هُوَ الَّذي يَطْلُبُ النَّعيمَيْنِ مَعاً ، وَلا يَقْصُرُ طَلَبَهُ عَلى نَعيمِ الدُّنْيا وَحْدَها ، وَقَدْ عَلَّمَنا اللهُ تَعالى أَنْ نَدعوهُ بِقَوْلِنا : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] ، وَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ ، سَميعاً لأَقْوالِ العِبادِ ، بَصيراً بِجَميعِ أَحْوالِهِمْ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَخْشَوْهُ وَيُراقِبوهُ في أَقوالِهِمْ وأَفْعالِهِمْ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ قُدْرَةُ اللهِ تَعالى على إغْناءِ الفَقيرِ ، وَإِيناسِ وَحْشَةِ الإِنسانِ .

٢ـ اللهُ تَعالى غَنِيٌّ عَنْ طاعَةِ المُطيعينَ وَعِصْيانِ العاصينَ ، فَهُوَ الغَنِيُّ الحَميدُ .

٣ـ إِنَّ كلَّ ما في السَّماواتِ وَالأَرْضِ خاضِعٌ لِسُلْطانِ اللهِ تَعالى ، وَهُوَ سُبْحانَهُ قادِرٌ عَلى اسْتِئْصالِ الأُمَّةِ وَالإِتيانِ بِأُمَّةٍ أُخْرى تَحِلُّ مَحَلَّها ، كَما فَعَلَ بِالأُمَمِ السَّابِقَةِ .

٤ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أَنَّهُ لَمْ يُرِدِ اسْتِئْصالَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِحِكَمٍ وَمَصالِحَ أَرادَها سُبْحانَهُ .

التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التَّالِيةِ :

١ـ مَا صِلَةُ قَوْلِهِ تعالى : ﴿وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ بِما ذُكِرَ مِنْ أَحْكامٍ ؟

٢ـ بِمَ تَوَعَّدَتِ الآياتُ الَّذينَ يَكْفُرونَ باللهِ تَعالى ؟

٣ـ لِمَ جَاءَ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ في المرَّةِ الثَّانِيَةِ في الآياتِ ؟

٤ـ بَيَّنَتِ الآيَةُ عَظيمَ قُدْرَةِ اللهِ ، وَسُلْطانِهِ وَغِناهُ ، وَضِّحْ ذَلِكَ .

٥ـ فَسِّرْ كُلاً مِمَّا يلي :

أـ ﴿وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ .

ب ـ ﴿وَكَانَ اللهُ غَنِيّاً حَمِيداً﴾ .

ج ـ ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً﴾ .

د ـ ﴿فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالأَخِرَةِ﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ اسْتَخْلِصْ ما في الحَديثِ مِنْ عِبَرٍ ، وَاكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ سَمَّى النَّبِيُّ تِلْكَ المَرْتَبَةَ الَّتي يَصِلُ إِلَيْها الإِنْسانُ ، أَيْ مُراقَبَةَ اللهِ تَعالى بِالإِحْسانِ ، ما المَقْصودُ بِهِ ؟ اكْتُبِ الحديثَ الدَّالَ عَلى ذَلِكَ .

* * *

الدرس الثامن والثلاثون

سورة النساء القسم الثامن والثلاثون

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾

معاني المفردات :

القِسْطِ : العَدْلِ .

تَلْووا : مِنَ اللَّيِّ : وَهُوَ الدَّفعُ .

التفسير :

لَقَدْ أَمَرَ سُبْحانَهُ وَتَعالى بِالعَدْلِ مَعَ اليَتامَى وَالمُسْتَضْعَفينَ والنِّساءِ ، وَلَكِنَّ العَدْلَ لَيْسَ مَطلوباً مَعَ هؤُلاءِ فقطْ ، إِنَّما هُوَ مَطْلوبٌ بَيْنَ النَّاس جَميعاً ، فَفيهِ حِفْظٌ لِلنِّظام في المُجْتَمَعِ المُسْلِمِ . وَهُنا يُخاطِبُ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى المُؤْمِنينَ ، وَيُناديهِمْ بِهَذا النِّداءِ المُحَبَّبِ إِلى نُفوسِهِمْ ، لإِلهابِ مَشاعِرِهِمْ ، وَحَثِّهِمْ عَلى الالْتِزام آمِراً إِيَّاهُمْ بِقَوْلِهِ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ .

كونوا مُواظِبينَ عَلى إِقامَةِ العَدْلِ فيمَا بَيْنَكُمْ ، وَلْتَجْعَلوا العِنايَةَ بِإِقامَةِ العَدْلِ كَما يَنْبَغي صِفَةً ثابِتَةً

راسِخَةً في نُفوسِكُمْ ، فَلَنْ تَتَحَقَّقَ الصِّفَةُ فيكُمْ إذا أَقَمْتُمُ العَدْلَ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، وَإِنَّما عَلَيْكُمْ أَنْ تُداوِموا عَلى ذَلِكَ في جَميعِ أَحْوالِكُمْ وَمَعَ جَميعِ الخَلْقِ كَذَلِكَ .

وَالعَدْلُ كَما يَكونُ في الحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ ، يَكونُ في العَمَلِ وَذَلِكَ كالقِيامِ بِحُقوقِ الزَّوْجَةِ أَوْ الزَّوْجاتِ ، وَالعَدْلِ بَيْنَ الأَوْلادِ ؛ كَبيرِهِمْ وَصَغيرِهِمْ ، ذَكَرِهِمْ وَأُنْثاهُمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَأَمَرَهُمْ سُبْحانَهُ أَنْ يَكونوا ﴿ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ وَمَعْنى ذَلِكَ : أَنْ تَتَحَرَّوْا الحَقَّ الَّذي يَرْضاهُ اللهُ تَعالى ، وَيَأْمُرُ بِهِ مِنْ غَيْرِ مُحاباةِ أَحَدٍ عَلى أَحَدٍ ، وَلَوْ كانَتِ الشَّهادَةُ عَلى أَنْفُسِكُمْ ، أَيْ : إِنِ الحَقُّ لَمْ يَثْبُتْ لَكُمْ ، وَإِنَّما لِغَيْرِكُمْ ، وَقَدْ قالوا : (مَنْ أَقَرَّ عَلى نَفْسِهِ بِحَقٍّ فَقَدْ شَهِدَ عَلَيْها ، لأَنَّ الشَّهادَةَ إِظْهارٌ لِلحَقِّ) ، وَلَوْ كانَتِ الشَّهادَةُ أَيْضاً عَلى والِدَيْكُمْ وَأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْكُمْ كَأَوْلادِكُمْ ، وَإِخْوانِكُمْ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ البِرِّ وَلا صِلَةِ الرَّحِمِ أَنْ يَشْهَدَ الإِنْسانُ لآخَرينَ بِحَقٍّ لَمْ يَثْبُتْ لَهُمْ ، وَالنَّاسُ مَأْمورونَ بِالتَّعاوُنِ عَلى البِرِّ وَالتَّقْوى ، وَلَيْسَ عَلى الإِثْمِ وَالعُدْوانِ وَهَضْمِ النَّاسِ حُقوقَهُمْ .

وَلَقَدْ كانَ النَّاسُ في الجاهِلِيَّةِ يَقِفونَ مَعَ الغَنِيِّ في شَهادَتِهِمْ ضِدَّ الفَقيرِ ، وَلِذا نَبَّهَ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَلى هَذِهِ القَضِيَّةِ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ أَيْ إِنْ يَكُنْ هَذا الَّذي تَشْهَدونَ مَعَهُ تَرْجونَ مِنْهُ مالاً ، أَوْ فَقيراً تَتَرَحَّمونَ عَلَيْهِ لِفَقْرِهِ ، أَو لا تَأْبَهونَ لَهُ وَلِحالِهِ ، فَلاَ تَمْتَنِعوا عَنِ الشَّهادَةِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى أَوْلى بِهِما ، أَيْ أَعْلَمُ بِما فيهِ صَلاحُهُما ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ مَرْضاةَ كُلِّ واحِدٍ مِنَ الغَنِيِّ وَالفَقيرِ لَيْسَتْ خَيْراً لَكُمْ وَلا لَهُما مِنْ مَرْضاةِ اللهِ تَعالى ، وَلَسْتُمْ أَعْلَمَ بِمَصْلَحَتِهِما مِنَ اللهِ تَعالى أَوْ الوالِدَيْنِ أَوْ عَلى ذي قَرابَتِكَ ، وَأَشْرافِ قَوْمِكُمْ فَإِنَّما كانَتِ الشَّهادَةُ للهِ وَلَيْسَتْ لِلنَّاسِ ، وَالعَدْلُ ميزانُ اللهِ في الأَرْضِ وبِهِ يَرُدُّ اللهُ مِنَ الشَّديدِ عَلى الضَّعيفِ ، وَمِنَ الكاذِبِ عَلى الصَّادِقِ ، وَمِنَ المُبْطِلِ عَلى المُحِقِّ .

﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ أَيْ : لا تَتَّبِعوا أَهْواءَكُمْ لِئَلاَّ تَعْدِلوا عَنِ الحَقِّ إِلى الباطِلِ ، وَقَدْ قالَ تَعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ﴾ [المائدة : ٨] ، فَلاَ يَحْمِلَنَّكُمُ الهَوى وَالعَصَبِيَّةُ وَبُغْضُ قَوْمٍ عَلى غَيْرِ وُجْهَتِها أَوْ تُعْرِضوا عَنْها فَلا تُقيموها ، فَاللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَليمٌ بِخَفايا نُفوسِكُمْ وَسَيُجازِيكُمْ عَلى أَعْمالِكُمْ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَأْمُرَ المُؤْمِنينَ بِالثَّباتِ عَلى دينِهِمْ ، وَالعَمَلِ بِهَدْيِ كِتابِهِمْ وَإِقامَةِ الشَّهادَةِ بِالحَقِّ ، فَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ وَهُنا خِطابٌ آخَرُ لِلمُؤْمِنينَ ؛ أَيْ : اثْبُتوا عَلى إِيمانِكُمْ ، وَازْدادوا في الإِيمانِ طُمأْنينَةً وَيَقيناً ، وآمِنوا بِرَسولِهِ خاتَمِ النَّبِيِّينَ وَبِالقُرْآنِ الَّذي نَزَّلَهُ عَلَيْهِ ، وَبِالكُتُبِ الَّتي

نَزَّلَها عَلى رُسُلِهِ مِنْ قَبْلِهِ . وَبَعْدَ أَنْ أَمَرَ سُبْحانَهُ بِالإيمانِ ، تَوَعَّدَهُمْ عَلى الكُفْرِ ، فَقالَ تَعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ وَهَذِهِ هِيَ أُسُسُ الدِّينِ ؛ الإيمانُ بِاللهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى رَبّاً وَخالِقاً وَإِلهاً مَعْبوداً لا مَعْبودَ سِواهُ سُبْحانَهُ ، وَالإيمانُ بِمَلائِكَتِهِ الَّذينَ هُمْ عِبادٌ مُكْرَمونَ لا يَعْصونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلونَ مَا يُؤْمَرونَ ، وَالإيمانُ بِكُتُبِهِ الَّتي أَنْزَلَها عَلى رُسُلِهِ لِهِدايَةِ البَشَرِيَّةِ ، وَالإيمانُ بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ جَميعِهِمْ ، لاَ يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَالإيمانُ بِاليَوْمِ الآخِرِ ، وَما فيهِ مِنْ ثَوابٍ وَعِقابٍ . وَمَنْ كَفَرَ بِواحِدٍ مِمَّا ذُكِرَ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ طَريقِ الهُدى ، وَبَعُدَ عَنِ السَّبيلِ القَويمِ بُعْداً كَبيراً .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الضَّلالِ آمَنوا في الظَّاهِرِ نِفاقاً ، وَكانَ الكُفْرُ قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلى قُلوبِهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنَ الرَّجوعِ إِلى الكُفْرِ مَرَّةً أُخْرى ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَفْهَموا حَقيقَةَ الإيمانِ ، وَلا ذاقوا حَلاوَتَهُ ، قالَ تَعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾

فالآيَةُ تَتَحَدَّثُ عَنْ تَكَرُّرِ الكُفْرِ مِنْهُ بَعْدَ الإيمانِ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الإيمانَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَقْعٌ في قُلوبِهِمْ ، فَلَمْ يَفْقَهوا حَقيقَةَ الإيمانِ وَلا ذاقوا حَلاوَتَهُ ، وَكانوا مُذَبْذَبينَ مُضْطَرِبينَ في أَحْوالِهِمْ مِنَ الإيمانِ إِلى الكُفْرِ ، ثُمَّ مِنْ إيمانٍ إِلى كُفْرٍ وَهَكَذا ، وَهَؤُلاءِ لاَ يُرْجى مِنْهُمُ الاهْتِداءُ إِلى الخَيْرِ ، وَهُمْ يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَمْنَعَ اللهُ تَعالى عَنْهُمْ رَحْمَتَهُ وَرِضْوانَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَإِحْسانَهُ ، إِنَّ المَغْفِرَةَ لِلذَّنْبِ إِنَّما تَكونُ بِالتَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَهَؤُلاءِ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ ذَلِكَ أَبَداً .

دُروسٌ وَعِبَرٌ

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حَثُّ المُسْلِمِ عَلى الاتِّصافِ بِالعَدْلِ ، بِحَيْثُ يَكونُ خُلُقاً ثابِتاً راسِخاً فيهِ .

٢ـ عَلى المُسْلِمِ أَنْ يَتَحرَّى الشَّهادَةَ بِالحَقِّ دائِماً ، وَلَوْ كانَتْ عَلى نَفْسِهِ أَوِ الوالِدَيْنِ أَوِ الأَقْرَبينَ .

٣ـ الغِنى والفَقْرُ يَجِبُ أَنْ لا يَكونا سَبَباً في شَهادَةِ الزُّورِ ؛ الشَّهادَةِ الباطِلَةِ .

٤ـ دَعْوَةُ المُسْلِمِ إِلى الثَّباتِ عَلى دينِهِ ، وَالإِكْثارِ مِنَ العَمَلِ الصَّالِحِ لِيَزْدادَ إِيماناً إِلى إِيمانِهِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التَّالِيةِ :

١ـ هَلِ العَدْلُ مَطْلوبٌ بَيْنَ النِّساءِ اليَتَامَى وَالضُّعَفاءِ فقط ؟

٢ـ ما السِّرُّ في اخْتِيارِ كَلِمَةِ ﴿قَوَّامِين﴾ ؟

٣ـ فَسِّرْ قَوْلَهُ : ﴿شُهَدَاءَ للهِ﴾ .

٤ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ قَوْلِهِ ﴿إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً﴾ ؟

٥ـ عَلى مَنْ أُمِرَ الإِنْسانُ بِإِقامَةِ الشَّهادَةِ ؟

٦ـ أَمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ بِالثَّباتِ عَلى دِينِهِمْ ، هاتِ نَصَّ الآيَةِ الَّتي أَمَرَتْ بِذَلِكَ .

٧ـ ما أُسُسُ الدِّينِ الحَنيفِ الَّتي ذَكَرَتْها الآيَةُ ؟

٨ـ مَنِ المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تعالى : ﴿إِنِ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا . . . . . .﴾ ؟ وَعَلامَ يَدُلُّ فِعْلُهُمْ هَذا ؟



١ـ هاتِ مَجالاً لاَ بُدَّ وأَنْ يَتَحَقَّقَ العَدْلُ فيهِ وَاكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

فَكِّرْ :

قالَ تَعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ ماذا تَفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ ؟ اكْتُبْ ذَلِكَ بِالتَّفْصيلِ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

سورَةُ النِّساءِ القِسْمُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾

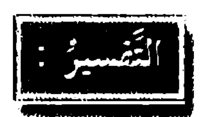
مَعاني المُفْرَداتِ :

أَيَبْتَغونَ : أَيَطْلُبونَ .

يَتَرَبَّصونَ : يَنْتَظِرونَ .

فَتْحٌ : نَصْرٌ .

نَسْتَحوِذْ : الاستِحْواذُ : الاسْتيلاءُ عَلى الشَّيْءِ .



التَّفْسيرُ :

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾ .

بَدَأَتِ الآياتُ الكَريمَةُ تَتَحَدَّثُ عَنِ المُنافِقينَ ، وَتَشُنُّ الحَمْلَةَ عَلَيْهِمْ ، فَبَدَأَتْ بِتَبْشيرِهِمْ بِالعَذابِ الأَليمِ ، وَقَدِ اسْتَعْمَلَ سُبْحانَهُ كَلِمَةَ التَّبْشيرِ بَدَلَ (الإِنْذارِ) تَهَكُّماً بِهَؤُلاءِ المُنافِقينَ وَتَوْبيخاً لَهُمْ ، إِذِ

البشارَةُ تكونُ غالِباً في الأَخْبارِ السَّارَّةِ ، ولَكِنَّهُ اسْتَعْمَلَها أَيْضاً في الأَخْبارِ السَّيِّئَةِ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : أَنْذِرْ هَؤُلاءِ بِالعَذابِ الأَليمِ .

وتَبْدَأُ الآياتُ الكَريمَةُ الحَديثَ عَنْ طَبيعَةِ المُنافِقينَ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ .

إِنَّ مِنْ صِفاتِ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ أَنَّهُمْ يَتَّخِذونَ الكافِرينَ أَوْلياءَ لَهُمْ وأَنْصاراً ويَتْرُكونَ وِلايَةَ المُؤْمِنينَ ، اعْتِقاداً مِنْهُمْ أَنَّ النَّصْرَ سَيَكونُ لِلكافِرينَ .

وقَدْ وبَّخَهُمْ سُبْحانَهُ عَلى فِعْلِهِمْ فَقالَ : ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ والاسْتِفْهامُ إِنْكارِيٌّ تَعَجُّبِيٌّ مِنْ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ ، لِماذا تَرَكوا وِلايَةَ المُؤْمِنينَ ، وما الَّذي دَفَعَهُمْ إِلى مُوالاةِ الكافِرينَ ؟ أَيَطْلُبونَ العِزَّةَ والقُوَّةَ والمَنْفَعَةَ مِنْ عِنْدِ الكافِرينَ ؟ إِذا كانَ هَذا هُوَ هَدَفُهُمْ ، فَقَدْ خابوا وخَسِروا ، فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ تَعالى ، فالعِزَّةُ والقُوَّةُ والمَنْعَةُ والنُّصْرَةُ لَهُ سُبْحانَهُ وَحْدَهُ ، وعَلَيْهِمْ أَنْ يَطْلُبوها مِنْهُ سُبْحانَهُ وَحْدَهُ ، ومَنِ اعْتَزَّ بِغَيْرِ اللهِ تَعالى ذَلَّ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَنْهى المُؤْمِنينَ عَنْ مُخالَطَةِ أُولَئِكَ الَّذينَ يَسْتَهْزِئونَ بِآياتِ اللهِ تَعالى :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ .

لَقَدْ نَزَّلَ اللهُ عَلَيْكُمْ ـ أَيُّها المُؤْمِنونَ ـ في مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ أَنَّكُمْ إِذا سَمِعْتُمُ الكافِرينَ يَسْتَهْزِئونَ بِآياتِ اللهِ تَعالى ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَتْرُكوا مَجالِسَهُمْ ، وأَنْ تُعْرِضوا عَنْهُمْ ، حَتَّى يَتَكَلَّموا في حَديثٍ غَيْرِهِ . قالَ تَعالى في سورَةِ الأَنْعامِ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ ﴾ [الأنعام : ٦٨] ، إِنَّ هَذا تَحْذيرٌ لأَفْرادِ المُجْتَمَعِ المُسْلِمِ ، ولا يَخْلو مُجْتَمَعٌ مِنَ المُنافِقينَ والعابِثينَ الَّذينَ يَتَّخِذونَ قَضايا الإِسْلامِ هُزُواً وسُخْرِيَةً ، إِمَّا بِدافِعِ الحِقْدِ عَلى أَصْحابِها ، وإِمَّا كَراهِيَةَ أَنْ تَسْتَقِرَّ في المُجْتَمَعِ مِثْلُ هَذِهِ القَضايا ، وهَؤُلاءِ إِذا جالَسَهُمْ أَحَدٌ مِنَ المُسْلِمينَ كانَ في ذَلِكَ تَشْجيعٌ لَهُمْ ، وهَذا أَمْرٌ لا يَنْبَغي ، فَإِنَّ صاحِبَ الحَقِّ والمَبْدَأَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكونَ عِنْدَهُ غيرَةٌ عَلى الحَقِّ الَّذي يُؤْمِنُ بِهِ ، وعَلَيْهِ أَنْ يَغْضَبَ لِما يَسْمَعُ مِنَ انْتِهاكاتٍ وسُخْرِيَةٍ ، ولَوْ أَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَّا أَعْرَضَ عَنْ مِثْلِ هَؤُلاءِ لَكَفُّوا عَنْ خَوْضِهِمْ ولَهْوِهِمْ واسْتِهْزائِهِمْ بِآياتِ اللهِ ، إِنَّ مَنْ يَرْضى مِثْلَ هَذا ولا يُقاوِمُهُ بِمُجَرَّدِ الإِعْراضِ ، يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ ﴾ إِنَّكُمْ إِذا شارَكْتُموهُمْ في هَذِهِ المَجالِسِ ، مَعَ هَذا الخَوْضِ في الآياتِ والاسْتِهْزاءِ بِها ، تَكونونَ مِثْلَهُمْ ، فَالسَّاكِتُ عَنِ الباطِلِ شَريكٌ فيهِ .

وَقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ إِنَّهُمْ كَما اجْتَمَعوا عَلى الاسْتِهزاءِ بِآياتِ اللهِ في الدُّنْيا ، سَيَجْتَمِعونَ في العِقابِ يَوْمَ القِيامَةِ .

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِبيانِ بَعْضِ أَحْوالِ المُنافِقينَ ، لَقَدْ جاءَتْ لِتُبَيِّنَ أَنَّ المُنافِقينَ قَوْمٌ انْتِهازِيّونَ ، يَسْتَغِلُّونَ كُلَّ حادِثٍ يَحْدُثُ في المُجْتَمَعِ ، وَيَتَرَبَّصونَ الفُرَصَ لِيَنْتَفِعوا بِكُلٍّ ما فيها ، وَتَرى أَنَّ لَهُمُ القُدْرَةَ في تَقْديمِ الأَعْذارِ لِيَعْتَذِروا عَمَّا كانَ مِنْهُمْ ، إِنَّهُمْ يَنْتَظِرونَ ما يَحْدُثُ لِلمُؤْمِنينَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، فَإِذا نالَ المُؤْمِنينَ مِنَ اللهِ تَعالى فَتْحٌ وَنَصْرٌ ، قالوا لَهُمْ : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ أَيْ أَلَمْ نُشارِكْكُمْ في الضَّراءِ ، أَلَمْ نَتْرُكْ أَهْلينا وَقَوْمَنا لِنَعيشَ مَعَكُمْ ، وَنُقَوِّيَ جَمْعَكُمْ ، فَنَحْنُ نَسْتَحِقُّ أَنْ نُشارِكَكُمْ في الغَنيمَةِ .

أَمَّا إِذا دارَتِ الدَّوائِرُ عَلى المُسْلِمينَ وَكانَ لِلكافِرينَ نصيبٌ مِنَ الغَلَبَةِ وَالقُوَّةِ قالوا لَهُمْ : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ المُؤْمِنينَ . وَالاسْتِحواذُ كَما عَرَفْنا : الاسْتيلاءُ عَلى الشَّيْءِ ، فَهَؤُلاءِ يَتَوَدَّدونَ إِلى الكافِرينَ وَيَقولونَ لَهُمْ : إِنَّنا كُنَّا مُسْتَحوذينَ عَلى أَمْرِكُمْ أَيْ مالِكينَ لَهُ ، قادِرينَ عَلى التَّصَرُّفِ فيهِ ، فَنَحْنُ لَمْ نَتَصَرَّفْ إِلاَّ بِما فيهِ مَصْلَحَتُكُمْ ، وَذَلِكَ مِنْ تَخْذيلِ المُؤْمِنينَ عَنْكُمْ ، وَإِفْشاءِ أَسْرارِهِمْ إِلَيْكُمْ ، وَتَرْويجِ الفِتَنِ ، فَاسْتَفَدْتُمْ مِمَّا فَعَلْنا ، وَكانَ النَّصْرُ لَكُمْ ، فَنَحْنُ شُرَكاؤُكُمْ فيهِ .

وَقَدْ عَبَّرَ سُبْحانَهُ عَنْ نَصْرِ المُؤْمِنينَ بِالفَتْحِ ، وَعَنْ نَصْرِ الكافِرينَ بِالنَّصيبِ ، لِيُبَيِّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ العاقِبَةَ إِنَّما تَكونُ لِلْحَقِّ دائِماً ، وَأَنَّ الباطِلَ سَيُهْزَمُ أَمامَهُ مَهْما كانَ ، فَقَدْ يَكونُ هُناكَ نَصيبٌ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ لِلباطِلِ ، وَلَكِنْ دائِماً ـ إِنْ شاءَ اللهُ ـ يَنْتَهي بِغَلَبَةِ الحَقِّ ما دامَ أَهْلُهُ مُتَّبعينَ لِسُنَّةِ اللهِ تَعالى .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يَحْكُمُ بَيْنَ المُؤْمِنينَ الصَّادِقينَ ، وَالمُنافِقينَ الَّذينَ يُظْهِرونَ الإيمانَ وَيُبْطِنونَ الكُفْرَ ، حُكْماً يَليقُ بِكُلِّ فَريقٍ مِنْهُمْ بِما يَسْتَحِقُّونَ مِنْ ثَوابٍ أَوْ عِقابٍ ، إِنَّ المُؤْمِنينَ مَا داموا مُتَمَسِّكينَ بِدينِهِمْ مُتَّبِعينَ لأَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ ، مُسْتَعِدِّينَ دائِماً لِقِتالِ الكافِرينَ بِإِعْدادِ العُدَّةِ وَالعَتادِ ، فَإِنَّهُ لَنْ يَكونَ لِلكافِرينَ عَلى المُؤْمِنينَ سُلْطانٌ ، وما غُلِبَ المُسْلِمونَ في أَيَّامِنا إِلاَّ بِسَبَبِ تَرْكِهِمْ هَدْيَ كِتابِهِمْ وَتَرْكِهِمْ أَوامِرَ دينِهِمْ ، وَلِذا أَذَلَّهُمُ اللهُ بَعْدَ عِزِّهِمْ ، وَهَزَمَهُمْ بَعْدَ النَّصْرِ الَّذي كانَ لَهُمْ ، فَلاَ حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ تَحْريمُ مُوالاةِ المُؤْمِنينَ لِلكافِرينَ ، وَذَلِكَ أَنَّ المُؤْمِنينَ بَعْضُهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ ، وَالكافِرينَ بَعْضُهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ .

٢ـ المُسْلِمونَ أَعِزَّاءُ ما داموا مُتَمَسِّكينَ بِكِتابِ اللهِ تَعالى ، سائِرينَ عَلى نَهْجِهِ القَويم .

٣ـ حُرْمَةُ مُجالَسَةِ الَّذينَ يَسْتَهْزِئونَ بِآياتِ اللهِ تَعالى ، أَوْ يَفْعَلونَ المُنْكَراتِ ، لأَنَّ في مُجالَسَتِهِمْ رِضىً بِما يَفْعَلونَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّالِيةِ :

١ـ مَا سِرُّ اسْتِخْدامِ كَلِمَةِ التَّبْشيرِ بَدَلَ الإِنْذارِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ ؟

٢ـ مَنِ الَّذينَ يُواليهِمُ المُنافِقونَ ؟

٣ـ بِمَ وَبَّخَ سُبْحانَهُ وَتَعالى المُنافِقينَ عَنِ الجُلوسِ مَعَ المُنافِقينَ ؟

٤ـ لِمَ نَهَتِ الآياتُ المُؤْمِنينَ عَنِ الجُلوسِ مَعَ المُنافِقينَ ؟ وَهَلْ مَعْنى ذَلِكَ أَنَّنا لا يَجوزُ لَنا أَبَداً أَنْ نُجالِسَهُمْ ؟

٥ـ مَا مَوْقِفُكَ مِمَّنْ تَسْمَعُهُ يَسْتَهْزِىءُ بِآياتِ اللهِ تَعالى أَوْ بِحُكْمٍ مِنْ أَحْكامِهِ ؟

٦ـ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْ صِفةِ الانْتِهازِيَّةِ عِنْدَ المُنافِقينَ ، وَضِّحْ هَذهِ الصِّفَةَ مِنْ خِلالِ الآيَةِ .

٧ـ مَتَى يَكونُ النَّصْرُ لِلْمُسْلِمينَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ صِفاتِ عِبادِ الرَّحْمنِ الَّتي ذَكَرَتْها سورَةُ الفُرْقانِ وَبِخاصَّةٍ ما يُناسِبُ مَعْنى الآيَةِ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الَّتي تُبَيِّنُ صِفَةَ كَلِمَةِ الكافِرينَ ، وَصِفَةَ كَلِمَةِ رَبِّ العالَمينَ .

الدرس الأربعون

سورة النساء - القسم الأربعون

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾

معاني المفردات

كُسالى : مُتثاقِلينَ مُتباطِئينَ .

يُراءُونَ النّاسَ : الرِّياءُ : العَمَلُ كَيْ يَراهُ النّاسُ وَيكونُ قَصْدُهُ رِضاهُمْ .

مُذَبْذَبينَ : الذَّبْذَبَةُ تَعْني الاضْطِرابَ وَالحَرَكَةَ وَعَدَمَ الاسْتِقرارِ عَلى أَمْرٍ .

التّفسير :

لَقَدْ حَذَّرَ القُرْآنُ كَثيراً مِنَ المُنافِقينَ ، الَّذينَ لاَ يُظْهِرونَ لِلنَّاسِ حَقيقَتَهُمْ ، وَقَدْ بَيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ بَعْضَ صِفاتِهِمْ ، وَهَذِهِ الآياتُ تَتَحَدَّثُ عَنْ صِفاتٍ أُخْرى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ .

١ ـ إِنَّ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ يُخادِعونَ اللهَ وَرَسولَهُ ﷺ ، حَيْثُ يُظْهِرونَ الإيمانَ وَيُبْطِنونَ الكُفْرَ ، وَمَعَ

أَنَّهُمْ لاَ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَخْدَعوا اللهَ ، وَلَكِنْ جَعَلَ عَمَلَهُمْ خِداعاً للهِ تَعالى لِبيانِ فَظاعَةِ فِعْلِهِمْ ، فَهُمْ بِمُخادَعَتِهِمْ لِرَسولِ اللهِ وَالمُؤْمِنينَ كَأَنَّهُمْ يُخادِعونَ اللهَ تَعالى ، لَقَدْ غابَ عَنْ أَذْهانِ المُنافِقينَ أَنَّ اللهَ تَعالى لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ في الأَرْضِ وَلا في السَّماءِ ، فَهُوَ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ جاهِلونَ نَشأوا عَلى النِّفاقِ وَالخِداعِ وَاسْتَمَرّوا عَلَيْهِ ، وَفي الحَقيقَةِ أَنَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى خادِعُهُمْ ، أَيْ مُجازيهِمْ عَلى خِداعِهِمْ في العاجِلِ وَالآجِلِ ، أَيْ أَنَّهُمْ في خِداعِهِمْ لِلرَّسولِ ﷺ وَالمُؤْمِنينَ يَسيرونَ في طَريقِ الضَّلالِ وَالخِزْيِ .

٢ـ ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ فَهُمْ إِذا قاموا إِلى الصَّلاةِ قاموا مُتباطِئينَ مُتَثاقِلينَ ، لَيْسَ لَهُمْ أَيَّةُ رَغْبَةٍ بِها ، لأَنَّهُمْ لا يَرْجونَ ثَوابَ اللهِ ، وَلا يَخْشَوْنَ عِقابَهُ ، وَإِنَّما هُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَقْصُدونَ بِصَلاتِهِمُ الرِّياءَ والسُّمْعَةَ وَالخِداعَ ، وَهُمْ لا يَذْكُرونَ اللهَ في صَلاتِهِمْ إِلاَّ ذِكْراً قَليلاً ، أَوْ وَقْتاً قَليلاً ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لا يَخْشَعونَ وَلا يَدْرونَ ما يَقولونَ ، بَلْ هُمْ في صَلاتِهِمْ ساهونَ لاهونَ ، أَوْ أَنَّهُمْ لاَ يُصَلُّونَ إِلاَّ قَليلاً ، فَهُمْ ما داموا غائِبينَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ لا يُصَلُّونَ ، أَمَّا إِنْ كانوا مَعَهُمْ فَهُمْ يُصَلُّونَ مُراءاةً وَسُمْعَةً .

٣ـ ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾

مِنْ صِفاتِهِمْ أَنَّهُمْ مُذَبْذَبونَ ، مُتَحَيِّرونَ ، لاَ يَسْتَقِرُّونَ عَلى حالٍ ، فَهُمْ تارَةً يَميلونَ إِلى المُؤْمِنينَ ، وَتارَةً إِلى الكافِرينَ ، وَفي هَذا عَذابٌ لَهُمْ في الدُّنْيا ، فَإِنَّ الاسْتِقْرارَ أَمْرٌ ضَروريٌ لِلإِنْسانِ في جَميعِ أُمورِهِ ، وَلَكِنَّ هَؤُلاءِ لاضْطِرابِهِمْ لا يَشْعُرونَ بالاسْتِقْرارِ وَالهُدوءِ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : مَنْ قَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعالى أَنْ يَكونَ ضالاًّ ، سائِراً في طَريقِ الباطِلِ بِما قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبيلاً لِلهِدايَةِ ، فَإِنَّكَ مَهْما أَتَيْتَهُ بِالحُجَجِ وَالبَراهينِ ، فَلَنْ يَقْتَنِعَ بِالحَقِّ وَذَلِكَ لِسوءِ اخْتِيارِهِ ، وَانْطِماسِ بَصيرَتِهِ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَنْهى المُؤْمِنينَ عَنْ مُوالاةِ الكافِرينَ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾

وَالوِلايَةُ تَكونُ بِالنُّصْرَةِ بِالقَوْلِ والفِعْلِ ، بِما يَكونُ فيهِ ضَرَرٌ لِلْمُسْلِمينَ ، وَها نَحْنُ نَرى الكَثيرينَ مِمَّنْ يَدَّعونَ الإِسْلامَ ، يُوالونَ الكافِرينَ ، فَهُمْ يُفْشونَ أَسْرارَ المُؤْمِنينَ لَهُمْ ، وَلَيْسَ هَذا فقط ، بَلْ إِنَّهُمْ يُنْزِلونَ أَقْسى أَلْوانِ الأَذى وَالعَذابِ بِالمُؤْمِنينَ لإِرْضاءِ الكافِرينَ ، وَلاَ حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ .

والاسْتِفْهامُ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ للإِنْكارِ وَالتَّحْذيرِ مِنْ

أَنْ تقَعَ هَذِهِ المُوالاةُ مِنْهُمْ ، إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ إِذا اتَّخَذْتُمُ الكافِرينَ أَوْلِياءَ مِنْ دونِ المُؤْمِنينَ ، فَقَدْ جَعَلْتُمْ للهِ حُجَّةً في عِقابِكُمْ ، وَفي تَخَلِّيهِ عَنْ نُصْرَتِكُمْ وَرِعايَتِكُمْ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ مَصيرَ المُنافِقينَ يَوْمَ القِيامَةِ ، فَهُمْ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، وَالنَّارُ سَبْعُ دَرَكاتٍ ، سُمِّيَتْ كَذَلِكَ لأَنَّها مُتَتابِعَةٌ ، بَعْضُها تَحْتَ بَعْضٍ .

إِنَّ هَؤُلاءِ المُنافِقينَ ، الَّذينَ نَشَأوا عَلى النِّفاقِ سَيَكونونَ يَوْمَ القِيامَةِ في الطَّبَقَةِ السُّفْلى مِنَ النَّارِ ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصيراً يُنْقِذُهُمْ مِنْ ذَلِكَ العَذابِ أَوْ يُخَفِّفُ عَنْهُمْ ، لَقَد كانَتْ نَتيجَةُ النِّفاقِ الدَّرْكَ الأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ ، وَذَلِكَ لأَنَّهُمْ جَمَعوا بَيْنَ الكُفْرِ وَالاسْتِهْزاءِ بِالإِسْلامِ وَأَهْلِهِ ، وَجَمَعوا بَيْنَ الكُفْرِ وَالفِسْقِ وَالتَّضْليلِ وَالخِداعِ ، وَإِشاعَةِ الفَواحِشِ في صُفوفِ المُؤْمِنينَ ، فَنُفوسُهُمْ هِيَ أَحَطُّ النُّفوسِ في الدُّنْيا ، فَكانَ مَصيرُهُمُ الدَّرْكَ الأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ في الآخِرَةِ .

إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعالى واسِعَةٌ ، وَلِذا فَإِنَّنا نَجِدُهُ سُبْحانَهُ يَفْتَحُ بابَ التَّوْبَةِ لِلْبَشَرِ جَميعاً ، لِيَدْخُلَهُ مَنْ يُريدُ أَنْ يُقْلِعَ عَنْ ذُنوبِهِ مِنَ المُنافِقينَ وَغَيْرِهِمْ ، قالَ تَعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

إِنَّ هَذا الجَزاءَ الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ لِلمُنافِقينَ ، لِمَنِ اسْتَمَرَّ عَلى نِفاقِهِ ، أَمَّا الَّذينَ تابوا وَنَدِموا عَلى ما كانَ مِنْهُمْ وَفَعَلوا بَعْدَ ذَلِكَ بَعْضَ الأُمورِ مِنْها :

١ـ أَنْ يُصْلِحوا أَعْمالَهُمْ فَيَلْتَزِموا الصِّدْقَ في القَوْلِ وَالعَمَلِ ، مَعَ الأَمانَةِ وَالوَفاءِ بِالوَعْدِ ، وَيُخْلِصوا النُّصْحَ للهِ وَرَسولِهِ ﷺ ، وَيُقيموا الصَّلاةَ خاشِعينَ فيها ، خاضِعينَ للهِ تَعالى .

٢ـ أَنْ يَعْتَصِموا بِاللهِ تَعالى ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَكونَ غَرَضُهُمْ مِنَ التَّوْبَةِ وَصَلاحِ الأَعْمالِ ، مَرْضاةَ اللهِ تَعالى ، مَعَ التَّمَسُّكِ بِكِتابِهِ ، وَالتَّخَلُّقِ بِآدابِهِ ، وَالاعْتِبارِ بِمَواعِظِهِ ، وَالانْتِهاءِ عَنْ نَواهيهِ .

٣ـ إِخْلاصُهُمْ للهِ تَعالى بِأَنْ يَدْعوهُ وَحْدَهُ وَلاَ يَدْعونَ مِنْ دونِهِ أَحَداً لِكَشْفِ ضُرٍّ ، أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ .

أُولئِكَ التَّائِبونَ الَّذينَ يَفْعَلونَ ما ذُكِرَ يَكونونَ مَعَ المُؤْمِنينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتي اللهُ تَعالى هَؤُلاءِ ما وَعَدَهُمْ بِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإخْلاصُ في العَمَلِ للهِ تَعالى ، وَالمُؤْمِنُ يَبْعُدُ عَنْ مُراءاةِ النَّاسِ في الصَّلاةِ وَغَيْرِها .

٢ـ التَّحْذيرُ مِنَ المُنافِقينَ ، بِذِكْرِ صِفاتِهِمْ ، لِيَحْذَرَهُمُ المُسْلِمُ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ .

٣ـ عَدَمُ مُوالاةِ الكافِرينَ ، وَنُصْرَتِهِمْ بِما يُؤَدِّي إلى الإضْرارِ بِالمُسْلِمينَ .

٤ـ بابُ التَّوْبَةِ مَفْتوحٌ أَمامَ العِبادِ ، لِيَدْخُلَهُ كُلُّ مَنْ يُقْلِعُ عَنْ ذَنْبِهِ .



أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مِنْ صِفاتِ المُنافِقينَ مُخادَعَتُهُمْ للهِ ، لِماذا جاءَ هَذا التَّعبيرُ : يُخادِعونَ اللهَ ، وَلَمْ يَقُلْ يُخادِعونَ رسولَ اللهِ ؟

٢ـ ما مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ ؟ وَعَلامَ يَدُلُّ ؟

٣ـ كَيْفَ يُؤَدِّي المُنافِقونَ الصَّلاةَ ؟ وما مَعْنى : ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إلاَّ قَلِيلاً﴾ ؟

٤ـ لِماذا كانَ المُنافِقونَ مُذَبْذَبينَ ؟

٥ـ كَيْفَ تَكونُ المُوالاةُ لِلكافِرينَ ؟ وَلِماذا يَنْهى اللهُ المُؤْمِنينَ عَنْها ؟

٦ـ ما هُوَ مَصيرُ المُنافِقينَ يَوْمَ القِيامَةِ ؟

٧ـ إنَّ اللهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ التَّوْبَةَ لاَ بُدَّ أَنْ يَتْبَعَها أُمورٌ ، ما هِيَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةَ سورَةِ البَقَرَةِ الَّتي تُبَيِّنُ هَذِهِ الصِّفَةَ ـ يُخادِعونَ اللهَ ـ لِلمُنافِقينَ .

٢ـ لِلتَّوْبَةِ شُروطٌ ذَكَرَها العُلَماءُ ، هاتِ هَذِهِ الشُّروطَ ، وَاكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٣ـ تَتَبَّعْ صِفاتِ المُنافِقينَ الَّتي وَرَدَتْ في سورَةِ النِّساءِ ، وَاكْتُبْها عَلى لَوْحَةٍ كَرْتونِيَّةٍ ، وَعَلِّقِ اللَّوْحَةَ في مَكانٍ بارِزٍ في المَدْرَسَةِ .

الدرس الحادي والأربعون

سورةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الحادي والأَرْبَعونَ

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

معاني المفردات :

يُفرِّقوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ : يُؤْمِنوا باللهِ ظاهِراً ويَكْفُروا بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

سَبيلاً : طَريقاً .

التفسير :

لَقَدْ بيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ مَصيرَ المُنافِقينَ في الآخِرَةِ ، فَهُمْ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النارِ ، أَمَّا الَّذينَ يَتوبونَ مِنْهُمْ ، وَيُصْلِحونَ أَعْمالَهُمْ ، ويَعْتَصِمونَ باللهِ ، وَيُخْلِصونَ دينَهُمْ للهِ ، فَهُمْ مَعَ المُؤْمِنينَ . وَقَدْ جاءَتِ الآياتُ هُنا لِتُبَيِّنَ لَنا جانِباً مِنْ مَظاهِرِ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى بِعِبادِهِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ وَتَعالى :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ .

فَأَيُّ مَنْفَعَةٍ لَهُ سُبْحانَهُ في عَذابِ النَّاسِ وَمُعاقَبَتِهِمْ ، أَيَتَشَفَّى بِهِ مِنَ الغَيْظِ ؟ أَمْ يَسْتَجْلِبُ بِهِ نَفْعاً ؟

أَمْ يَسْتَدْفِعُ بِهِ ضرراً ؟ إنَّ اللهَ تَعالى هُوَ الغَنِيُّ المُتَعالي ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يَفْعَلُ بِكُمْ شَيْئاً مِنَ العَذابِ ما دُمْتُمْ تُؤْمِنونَ بِاللهِ وَتَشْكُرونَهُ سُبْحانَهُ ، وَلَقَدِ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ تَعالى أَنْ لاَ يُعَذِّبَ إِلاَّ مَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ العَذابَ .

لَقَدْ قَدَّمَ سُبْحانَهُ هنا الشُّكْرَ عَلى الإيمانِ ، وَذَلِكَ لأَنَّ الشُّكْرَ سَبَبٌ في الإيمانِ ، فَالإِنْسانُ الَّذي يَرى نِعَمَ اللهِ تَعالى ، وَيَتَفَكَّرُ فيها ، وَيُقَدِّرُها حَقَّ قَدرِها ، يَزْدادُ إِيماناً بِشُكْرِ تِلْكَ النِّعَمِ ، وَالشُّكْرُ إِنَّما يَكونُ بِطاعَةِ اللهِ تَعالى .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ حُكْمَ الجَهْرِ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ ، وَإِبْداءِ الخَيْرِ وَإِخْفائِهِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الآياتِ السَّابِقَةَ ذَكَرَتْ عُيوبَ المُنافِقينَ وَمَفاسِدَهُمْ ، وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُنا أَنَّ الجَهْرَ بالسُّوءِ ، وَذِكْرَ مَساوِئِ الآخَرينَ أَمْرٌ مُباحٌ مُسْتَدِلاً بِذِكْرِ القُرْآنِ لِعُيوبِ غَيْرِ المُؤْمِنينَ ، فَجاءَتِ الآياتُ هُنا لِتُبَيِّنَ لِلناسِ أَنَّ اللهَ تَعالى لاَ يُحِبُّ الجَهْرَ بالسُّوء ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾

وَالسُّوءُ مِنَ القَوْلِ ، ما يَسوءُ مَنْ يُقالُ فيهِ وَذَلِكَ بِأَنْ يَذْكُرَ عُيوبَ الشَّخْصِ وَمَساوِئَهُ الَّتي تُؤْذي كَرامَتَهُ ، إِنَّ اللهَ تَعالى لاَ يُحِبُّ مِنْ عِبادِهِ أَنْ يَجْهَروا فيما بَيْنَهُمْ بِذِكْرِ العُيوبِ والسَّيِّئاتِ ، لأَنَّ في ذَلِكَ مَفاسِدَ كَثيرةً ، إِذ يُشيعُ العَداوَةَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَيَتْبَعُ ذَلِكَ سَفْكُ الدِّماءِ ، وَأَكْلُ حُقوقِ النَّاسِ .

إِنَّ اللهَ تَعالى لاَ يُحِبُّ لأَحَدٍ مَنْ عِبادِهِ أَنْ يَجْهَرَ بالأَقْوالِ السَّيِّئَةِ ، إِلاَّ مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ الظُّلْمُ ، بِأَنْ ظَلَمَهُ ظالِمٌ فَجَهَرَ بالشَّكْوى ، لِيُرْفَعَ عَنْهُ الظُّلْمُ . فَمَنْ يَقولُ السُّوءَ دونَ أَنْ يَكونَ لَهُ ضَرورةٌ يَبْغُضُهُ اللهُ تَعالى وَلاَ يُحِبُّهُ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ القُرْآنَ يَأْمُرُ أَتْباعَهُ دائِماً بِالقَوْلِ الطَّيِّبِ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَسْمَعُ قَوْلَ مَنْ يَجْهَرُ بالسُّوءِ وَلا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَقوالِ العِبادِ وَأَفْعالِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ ، وَأَكَّدَتِ الآياتُ هَذا الأَمْرَ بِقَوْلِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى :

﴿ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾

أَيْ إِنَّكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ يا مَنْ تَفْعَلونَ الخَيْرَ مِنْ طاعَةٍ وَبِرٍّ وَقَوْلٍ حَسَنٍ إِنْ أَظْهَرْتُمُ الخَيْرَ ، أَوْ أَخْفَيْتُموهُ بِأَنْ عَمِلْتُموهُ سِرّاً ، أَوْ إِنْ عَفَوْتُمْ عَنْ سوءٍ صَدَرَ مِنْ غَيْرِكُمْ ، يُكافِئُكُمُ اللهُ تَعالى عَلى ذَلِكَ مُكافَأَةً حَسَنَةً ، وَيَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِكُمْ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى كانَ عَفُوّاً قَديراً ، يَعفو عَنِ العُصاةِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلى مُعاقَبَتِهِمْ .

وَبَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ أَنَّ الإيمانَ الصَّحيحَ لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ رُكْنَيْنِ أَساسِيَّيْنِ لاَ يُقْبَلُ الإيمانُ بِدونِهِما وَهُما : الإِيمانُ باللهِ وَالإيمانُ بِرُسُلِهِ جَميعاً :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝ ﴾ .

إنَّ مَنْ يُفرِّقُ بَيْنَ الإيمانِ باللهِ وَالإيمانِ برُسُلِهِ يُعَدُّ كافِراً ، لأنَّ اللهَ تعالى فَرَضَ عَلى النَّاسِ أَنْ يَعْبُدوهُ بالطَّريقَةِ الَّتي شَرَعَها وَالَّتي جاءَ الرُّسُلُ لِبيانِها ، فإذا جَحَدوا رِسالَةَ الرُّسُلِ وَأَنْكَروها ، فَقَدْ أَنْكَروا شَرْعَ اللهِ تَعالى الَّذي جاءَ عَلى أَلْسِنَتِهِمْ ، وَامْتَنَعوا عَنْ طاعَةِ اللهِ تَعالى وَعِبادَتِهِ .

إنَّ مَنْ يَقولُ مُعانِداً نُؤْمِنُ بِبَعْضِ الرُّسُلِ ونَكْفُرِ بِبَعْضِهِمْ كَما قالَ اليَهودُ : نُؤْمِنُ بِموسى والتَّوْراةِ وَنَكْفُرُ بِما وَراءَ ذَلِكَ ، وَكَما قالَ النَّصارَى : نُؤْمِنُ بِعيسى وَالإِنْجيلِ وَنَكْفُرُ بِما سِوى ذَلِكَ ، وَيُريدونَ بِقَوْلِهِمْ هَذا أَنْ يَتَّخِذوا بَيْنَ الإيمانِ بِبَعْضِ الرُّسُلِ وَالكُفْرِ بِبَعْضِهِمْ الآخَرِ طَريقاً لَهُمْ يَسْلُكونَهُ ، وديناً يَتَّبِعونَهُ ، إنَّ أُولَئِكَ المَوْصوفينَ بِتِلْكَ الصِّفاتِ سَيَكونُ لَهُمْ عَذابٌ فيهِ ذُلٌّ وَمَهانَةٌ جَزاءَ كُفْرِهِمْ وَجُحودِهِمْ .

هَذا هُوَ شأْنُ وَجَزاءُ الكافِرينَ باللهِ تَعالى وَرُسُلِهِ ، وَتِلْكَ هِيَ عاقِبَتُهُمْ ، فَعَلى الإِنْسانِ أَنْ يَحْرِصَ عَلى أَنْ يُؤْمِنَ باللهِ تَعالى ، وَيُؤْمِنَ بِرُسُلِ اللهِ تَعالى جَميعَهُمْ ، وَبِما جاءوا بِهِ مِنْ لَدُنِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ خاتَمِ الأَنْبياءِ وَالمُرْسَلينَ ؛ وَلِذا جاءَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ شَأْنَ المُؤْمِنينَ ، فَقَدْ بَشَّرَهُمْ اللهُ تَعالى بِقَوْلِهِ :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝ ﴾ .

أَيْ آمَنوا حَقَّ الإيمانِ ، وَآمَنوا بِرُسُلِهِ جَميعاً ، وَلَمْ يُفَرِّقوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، فَلَمْ يُفَرِّقوا في الإِيمانِ بَيْنَ رسولٍ وَرَسولٍ ، بَلْ آمَنوا بِهِمْ جَميعاً ، أُولَئِكَ الَّذينَ اسْتَقَرَّ الإيمانُ الكامِلُ في قُلوبِهِمْ ، وَالَّذينَ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعالى بِتِلْكَ الأَوْصافِ الحَميدَةِ سَوْفَ يُؤْتيهِمُ اللهُ أُجورَهُمُ الَّتي وَعَدَهُمْ اللهُ بِها ، وَكانَ اللهُ غَفوراً رَحيماً .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُسْلِمُ يُكْثِرُ مِنْ فِعْلِ الخَيْرِ سواءٌ أَكانَ في السِّرِّ أَمْ في الجَهْرِ .

٢ـ المُسلِمُ يَعْفو عَمَّنْ أَساءَ إِلَيْهِ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ عَفا عَمَّنْ أَساءَ إِلَيْهِ زادَهُ اللهُ تَعالى عِزّاً .

٣ـ الإِيمانُ بِاللهِ تَعالى يَتَمَثَّلُ في طاعَتِهِ واتِّباعِ أَوامِرِهِ وَاجْتِنابِ نَواهيهِ .
٤ـ الإِيمانُ بِحَقٍّ هُوَ الإِيمانُ بِرُسُلِ اللهِ تَعالى جَميعاً ، وَعَدَمُ التَّفْرِقَةِ بَيْنَهُمْ .
٥ـ حِفظُ اللِّسانِ ، وَعَدَمُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ ، وَذِكْرِ مَعايِبِ النَّاسِ .

التَّقويمُ

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليَةِ :
١ـ هَلْ للهِ تَعالى أَيُّ مَنْفَعَةٍ في تَعْذيبِهِ لِلْبَشَرِ ؟
٢ـ لِمَ قَدَّمَتِ الآياتُ الشُّكْرَ عَلى الإِيمانِ ؟
٣ـ لِماذا نَهَتِ الآياتُ عَنِ الجَهْرِ بِالسُّوءِ ؟
٤ـ مَتَى يَكونُ الجَهْرُ بِالسُّوءِ مُباحاً ؟
٥ـ ما مَصيرُ مَنْ يَعْمَلُ الخَيْرَ وَيَعْفو عَنِ النَّاسِ ؟
٦ـ ذَكَرَتِ الآياتُ رُكْنَيْنِ أَساسيَّيْنِ لِلإِيمانِ ، ما هُما ؟
٧ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾ .
٨ـ بَيِّنْ سَبَبَ كُفْرِ اليَهودِ وَالنَّصارى ، أَيِّدْ إِجابَتَكَ بِالدَّليلِ .

نَشاطٌ

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آخِرَ آيَةٍ مِنْ سورَةِ الفُرْقانِ ، وَتَدَبَّرْ مَعْناها .
٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ قَبْلَ الأخيرَةِ مِنْ سورَةِ البَقَرَةِ الَّتي تُبَيِّنُ إِيمانَ المُؤْمِنينَ بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ .

* * *

الدرس الثاني والأربعون

سورةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثّاني والأَرْبَعون

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

مَعاني المُفْرَدات :

جَهْرَةً	عَياناً بالبَصَرِ .
الصَّاعِقَةُ	نارٌ مِنَ السَماءِ .
اتَّخذوا العِجْلَ	جَعَلوهُ إلهاً وَعَبَدوهُ .
سُجَّداً	خاضِعينَ للهِ تَعالى .
ميثاقاً غَليظاً	عَهْداً مُؤَكَّداً بِطاعَةِ اللهِ تَعالى .

التَّفْسيرُ :

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾ .

إنَّ أَهْلَ الكِتابِ ـ كَما جاءَ في الآياتِ السَّابِقَةِ ـ قَدْ كَفروا ، حَيْثُ فَرَّقوا بَيْنَ الرُّسُلِ ، فَقالوا نُؤْمِنُ

بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَقَدْ ذَكَرَتْ هَذِهِ الآياتُ بَعْضَ أُمورِهِمُ الَّتي كانَتْ مِنْهُمْ ، مِمَّا يَدُلُّ على تَعَنُّتِهِمْ وَعلى جَهْلِهِمْ بِدينِ اللهِ تَعالى وَشَرْعِهِ .

لَقَدْ طَلَبوا مِنَ الرَّسولِ ﷺ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً خالِصاً لَهُمْ ، كَما نُزِّلَ عَلى سَيِّدِنا موسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ التَّوْراةُ في الأَلْواحِ ، وَسُؤالُهُمْ هَذا كانَ عَلى سَبيلِ التَّعَنُّتِ وَالعِنادِ ، وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِنَبيِّهِ ﷺ أَنَّهُمْ سَأَلوا موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَسْئِلَةً أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ :

١ـ فَقَدْ قالوا لَهُ أَرِنا اللهَ تَعالى جَهْرَةً ، أَيْ : رُؤْيَةً ظاهِرَةً بِحَيْثُ نُعايِنُهُ وَنُشاهِدُهُ بِأَبْصارِنا ، فَلا تَعْجَبْ يَا مُحَمَّدُ مِنْ سُؤالِهِمْ وَلا تَسْتَنْكِرْهُ ، فَكُلُّ سُؤالٍ سَأَلوهُ يَدُلُّ عَلى جَهْلِهِمْ ، وَكانَتْ نَتيجَةُ ذَلِكَ أَنْ أَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ، وَالصَّاعِقَةُ هِيَ الصَّوْتُ الشَّديدُ في الجَوِّ ، ثُمَّ يَكونُ مِنْهُ نارٌ أَوْ عَذابٌ أَوْ مَوْتٌ ، وَقَدْ كانَ مِنْ آثارِ هَذا الصَّوْتِ الشَّديدِ أَنْ خَرُّوا مَغْشِيّاً عَلَيْهِمْ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وَعِنادِهِمْ وَخُروجِهِمْ عَنْ أَوامِرِ اللهِ تَعالى ، وَبِسَبَبِ جَهْلِهِمْ ، حَيْثُ شَبَّهوا الخالِقَ بِالمَخْلوقِ .

٢ـ ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ وَهَذِهِ مِنْ رَذائِلِ اليَهودِ العَظيمَةِ ، فَهُمْ بَعْدَ أَنْ نَجَّاهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ فِرْعَونَ وَأَتْباعِهِ ، وَبَدَلاً مِنْ أَنْ يَشْكُروا اللهَ تَعالى ، قاموا بِعِبادَةِ العِجْلِ بَعْدَ ما جاءَتْهُمُ البَيِّناتُ ، وَالدَّلائِلُ القاطِعَةُ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى ، وَصِدْقِ أَنْبيائِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَبَعْدَ أَنْ نَجَّاهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ عَدُوِّهِمْ وَأَغْرَقَهُ وَجُنودَهُ ، وَالأَوْلى بِهِمْ أَنْ يَعْبُدوا اللهَ وَيَشْكُروهُ وَلَكِنَّ رَحْمَةَ اللهِ واسِعَةٌ ، فَقَدْ عَفا عَنْهُمْ بَعْدَ أَنِ اتَّخذوا العِجْلَ مَعْبوداً لَهُمْ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى ، وأَعْطى سُبْحانَهُ وَتَعالى سَيِّدَنا موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِفَضْلِهِ وَمِنَّتِهِ حُجَّةً واضِحَةً ، وَسُلْطَةً عَلى اليَهودِ بِحَيْثُ خَضَعوا لَهُ .

٣ـ ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾

وَمِنْ رَذائِلِ اليَهودِ الَّتي تَدُلُّ عَلى عِنادِهِمْ ، نَقَضُهُمْ لِلْعُهودِ وَالمَواثيقِ ، فَقَدْ أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِمُ الميثاقَ ، بِأَنْ يَأْخُذوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَيَعْمَلوا بِهِ مُخْلِصينَ للهِ ، وَلَكِنَّهُمُ امْتَنَعوا عَنِ العَمَلِ بِما فيها ، فَرَفَعَ سُبْحانَهُ وَتَعالى الطُّورَ فَوْقَهُمْ ، وَهُوَ جَبَلٌ رَفَعَهُ اللهُ فَوْقَ رؤوسِهِمْ وأَلْزَمَهُمْ بِالسُّجودِ ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أَيْ : قيلَ لَهُمْ ادْخُلوا بابَ المَدينَةِ سُجَّداً ، خاضِعينَ للهِ تَعالى في ذِلَّةٍ وَانْكِسارٍ ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَفْعَلوا ، فَقَدْ أُمِروا بِالدُّخولِ ساجِدينَ قائِلينَ (حِطَّةٌ) أَيْ : حُطَّ عَنَّا خَطايانا يَا رَبِّ ، فَدَخَلوا يَزْحَفونَ عَلى أَستاهِهِمْ وَيَقولونَ : قَمْحَةٌ في شَعيرَةٍ .

٤ـ وَمِنْ رَذائِلِهِمْ كَذَلِكَ اعْتِداؤُهُمْ في السَّبْتِ ، فَقَدْ أَمَرَهُمُ اللهُ تَعالى أَنْ لا يَتَجاوَزوا الحُدودَ ، وَلا يَعْتَدوا في السَّبْتِ ، أَيْ لا يَصْطادوا الحيتانَ فيهِ ، وَلَكِنَّهُمْ خالَفوا أَمْرَ اللهِ تَعالى ، وَكانوا يَصيدونَ في هَذا اليَوْمِ ، وَلَكِنْ بِطَريقَةِ التَّحايُلِ في ظَنٍّ مِنْهُمْ أَنَّ هَذا لا حَرَجَ وَلا إِثْمَ فيهِ .

لَقَدْ أَخذَ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ عَهْداً مُؤَكَّداً ، وَمُوَثَّقاً بأَنْ يَعْمَلوا بِكُلِّ ما أَمَرَهُمْ اللهُ بِه ، وَلَكِنَّهُمْ نَقَضوا العُهودَ وَكَفَروا بِآياتِ اللهِ تَعالى ، فَهُمْ قَوْمٌ جُبِلوا عَلى حُبِّ المُخالَفَةِ .

٥ـ إِنَّ رَذائِلَ اليَهودِ وَجَرائِمَهُمْ كَثيرَةٌ ، فَاللهُ سُبْحانَهُ يَقولُ في بَيانِ ذَلِكَ :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

بِسَبَبِ نَقْضِ هَؤُلاءِ اليَهودِ لِعُهودِهِمْ ، وَبِسَبَبِ أَقْوالِهِمُ الكاذِبَةِ ، وَكُفْرِهِمْ بِآياتِ اللهِ تَعالى الكَثيرَةِ ، وَبِسَبَبِ قَتْلِهِمْ لِلأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، مِثْلَ زَكَرِيَّا وَيَحْيى عَلَيْهِما السَّلامُ ، وَبِسَبَبِ قَوْلِهِمْ : ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أَيْ : إِنَّ قُلوبَنا لا يُمْكِنُ أَنْ يَنْفذَ إِلَيْها شَيءٌ مِمَّا جاءَ بِهِ الرَّسولُ ، أَوْ تَتَأَثَّرَ كَذَلِكَ بِما جاءَ بِهِ ، بِسَبَبِ كُلِّ هَذِهِ الأُمورِ فَعَلْنا بِهِمْ مَا فَعَلْنا مِنْ لَعْنٍ وَغَضَبٍ وَضَرَبْنا عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالمَسْكَنَةَ ، وَمَسَخْناهُمْ قِرَدَةً وَخَنازيرَ ، وَأَزَلْنا مُلْكَهُمْ ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ : قُلوبُنا غُلْفٌ ، أَيْ : إِنَّهُمْ كاذِبونَ فيما يَقولونَ ، فَكُفْرُهُمْ لَيْسَ بِسَبَبِ أَنَّ قُلوبَهُمْ خُلِقَتْ مُغَطَّاةً بِحِجابٍ ، تَحْجُبُ عَنْهُمْ إِدْراكَ الحَقِّ ، ولكنَّ الحقَّ أَنَّ اللهَ تَعالى طَمَسَ عَلى هَذِهِ القُلوبِ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَأَعْمالِهِمُ القَبيحَةِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ قَدْ خَلَقَ النَّاسَ عَلى الفِطْرَةِ ، وَلَكِنَّهُمْ أَعْرَضوا عَنِ الخَيْرِ ، وَاتَّجهوا نَحْوَ الشَّرِّ ، فَطَبَعَ اللهُ عَلى قُلوبِهِمْ فَصارَتْ لاَ تُدْرِكُ الحَقَّ ، وَلا تُؤْمِنُ بِاللهِ تَعالى إِلاَّ قَليلاً مِنَ الإيمانِ الَّذي لا يُعْتَدُّ بِهِ ، فَقَدْ آمَنوا مَثَلاً بِموسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَلَكِنَّهُمْ كَفَروا بِغَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ ، فَهذا الإيمانُ لا قيمَةَ لَهُ عِنْدَ اللهِ تَعالى .

دروس وعبر

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإيمانُ الحَقُّ بِاللهِ تَعالى بِامْتِثالِ أَوامِرِهِ وَاجْتِنابِ نَواهيهِ .

٢ـ اليَهودُ قَوْمٌ جُبِلوا عَلى مُخالَفَةِ أَوامِرِ اللهِ تَعالى وَعلى الكُفْرِ وَكُرْهِ الحَقِّ فَعَلى المُسْلِمينَ أَنْ لا يُسالِموهُمْ وَأَنْ لا يَثِقوا بِهِمْ .

٣ـ الدِّينُ كُلٌّ مُتَكامِلٌ ، فَلا يَجوزُ الإيمانُ أَوِ العَمَلُ بِجُزْءٍ مِنْهُ وَتَرْكُ جُزْءٍ آخَرَ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليَةِ :

١ـ بيِّنْ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التَّاليَةِ :

جَهْرَةً ، الصَّاعِقَةُ ، مِيثاقاً غَليظاً .

٢ـ مِنْ تَعَنُّتِ اليَهودِ زَمَنَ النَّبيِّ ﷺ طَلَبُهُمْ مِنْهُ أَمْراً ما ، ماذا سَأَلَ بَنو إِسْرائيلَ الرَّسولَ ﷺ ؟

٣ـ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْ رَذيلَةِ عِبادَةِ العِجْلِ ، تَحَدَّثْ عَنْ هَذِهِ الرَّذيلَةِ .

٤ـ ما المواثيقُ الَّتي نَقَضَها اليَهودُ ؟

٥ـ ما مَعنى : ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ ؟ وَلِمَ قالَ اليَهودُ هَذا القَوْلَ ؟

٦ـ بِمَ رَدَّتِ الآياتُ عَلى أُولَئِكَ الَّذينَ قالوا : ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ ؟

٧ـ كَيْفَ طُبِعَ عَلى قُلوبِ اليَهودِ ؟ وَما الحِكْمَةُ مِنْ هَذا الطَّبْعِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ تَحَدَّثَتْ سورَةُ البَقَرَةِ عَنِ اتِّخاذِ اليَهودِ لِلْعِجْلِ إلهاً مِنْ دونِ اللهِ ، وَبَيَّنَتْ مَا أَمَرَهُمْ اللهُ بِهِ لِيَتوبَ عَلَيْهِمْ ، اكْتُبِ الآياتِ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ في حُدودِ الصَّفْحَةِ عَنْ تَحايُلِ اليَهودِ عَلى الصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْتِ ، مُؤَيِّداً قَوْلَكَ بِالأَدِلَّةِ القُرْآنِيَّةِ ، وَضَعِ المَوْضوعَ عَلى مَجَلَّةِ الحائِطِ في المَدْرَسَةِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثُ وَالأَرْبَعونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ الثَّالِثُ وَالأَرْبَعونَ

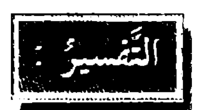
﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

بُهْتاناً : كَذِباً وَباطِلاً .

شُبِّهَ لَهُمْ : أُلْقِيَ على المَقْتولِ شَبَهُ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

يَقيناً : عِلْماً جازِماً لا يَحْتَمِلُ الشَّكَّ .



التَّفْسيرُ :

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾ .

إِنَّ رَذائِلَ اليَهودِ وَجَرائِمَهُمْ كَثيرةٌ ، ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ بَعْضاً مِنْها ، وَتَذْكُرُ هَذِهِ الآياتُ شَيْئاً عَظيماً شَنيعاً وَهُوَ كُفْرُهُمْ بِعيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . فَقَدْ طُبِعَ عَلى قُلوبِهِمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِسَيِّدِنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الَّذي بَعَثَهُ اللهُ تَعالى إِلَيْهِمْ لِيَهْدِيَهُمْ إِلى الحَقِّ ، وَبِسَبَبِ افْتِرائِهِمْ عَلى أُمِّهِ مَرْيَمَ عَلَيْها السَّلامُ ، الكَذِبَ وَرَمْيِهِمْ إِيَّاها بِالتُّهَمِ الَّتي هِيَ بَريئَةٌ مِنْها ، حَيْثُ اتَّهَموها بِالفاحِشَةِ ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعالى بَرَّأَها مِنْها ، قالَ تَعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم : ١٢] .

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾

وَقَدْ طَبَعَ اللهُ تعالى عَلى قُلوبِ اليَهودِ بِسَبَبِ قَوْلِهِمْ : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ لَقَدْ قالوا : إنَّا قَتَلْنا المَسيحَ عيسى ابنَ مَرْيَمَ . وَفي قَوْلِهِمْ هَذا جُرأَةٌ عَلى الباطِلِ وَاسْتِهْزاءٌ بآياتِ اللهِ . لَقَدْ وَصَفوه بِأَنَّهُ رَسولُ اللهِ تَهَكُّماً وَاسْتِهْزاءً بِدَعْوَتِهِ .

لَقَدْ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ قَتَلوا سَيِّدَنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، لكِنَّهُمْ في الحَقيقَةِ لَمْ يَقْتُلوهُ ، وَلَمْ يَصْلِبوهُ كَما زَعَموا وَشاعَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَلَكِنْ وَقَعَ لَهُمُ الشَّبَهُ ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ صَلَبوا عيسى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَهُمْ إِنَّما صَلَبوا غَيْرَهُ .

إنَّ الَّذينَ اخْتَلَفوا في شَأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ، لَفي شَكٍّ دائِمٍ مِنْ حَقيقَةِ أَمْرِهِ ، فَهُمْ في حيرَةٍ وَتَرَدُّدٍ ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ عِلْمٍ قَطْعِيِّ الثُّبوتِ ، وَإِنَّما هُمْ يَتَّبعونَ الظَّنَّ الَّذي لاَ يُغْني مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ، لَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ الكِتابِ في شَأْنِ عيسى كَثيراً ، فَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ ابنُ اللهِ ، وَزَعَمَ آخَرونَ أَنَّ روحَهُ روحُ لاهوتٍ ، أَيْ : إلهٍ ، وَجَسَدَهُ جَسَدُ إِنْسانٍ ، وَزَعَموا أَنَّ السَّيِّدَةَ مَرْيَمَ وَلَدَتِ الإِنْسانَ ثُمَّ نُفِخَ فيهِ روحُ اللاَّهوتِ ، وَاخْتَلَفوا كَذلِكَ في أَمْرِ قَتْلِهِ ، هَلْ قَتَلوهُ هُوَ ، أَوْ أَنَّهُمْ قَتَلوا غَيْرَهُ ؟ وَقَدْ رَدَّ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ ﴾

إنَّ الحَقَّ المُتَيَقَّنَ في هَذِهِ المَسْأَلَةِ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْتُلوهُ ، فَقَدْ نَجَّاهُ اللهُ تَعالى مِنْ مَكْرِ اليَهودِ ، بَلْ إِنَّ اللهَ تَعالى رَفَعَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إِلَيْهِ بِجَسَدِهِ وَروحِهِ ، فَقَدْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ حَيّاً مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ .

وَقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يَغْلِبُهُ غالِبٌ ، وَبِعِزَّتِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى يُجازي كُلَّ إِنْسانٍ عَلى عَمَلِهِ ، وَلِذا عاقَبَ اليَهودَ بِما يَسْتَحِقُّونَ مِنْ إِذْلالٍ وَمَهانَةٍ وَمَسْكَنَةٍ وَلَعْنَةٍ وَغَضَبٍ ، وَتَشْريدٍ في الأَرْضِ ، وَسَيُعاقِبُهُمْ كَذَلِكَ يَوْمَ القِيامَةِ بِما هُمْ أَهْلٌ لَهُ مِنَ العَذابِ الأَليمِ .

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝ ﴾

ذَهَبَ أَكْثَرُ المُفَسِّرينَ إِلى أَنَّ المَقْصودَ بِالآيَةِ الكَريمَةِ أَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ سَوْفَ يُؤْمِنُ بِعيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عِنْدَ نُزولِهِ آخِرَ الزَّمانِ ، إيماناً صَحيحاً ، قَبْلَ أَنْ يَموتَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ

والسَّلامُ ، وَسَيكونُ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى أَهْلِ الكِتابِ شَهيداً ، فَيَشْهَدُ عَلَيْهِم بِأَنَّهُ قَدْ أَمَرَهُمْ بِعِبادَةِ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وَأَنَّهُ قَدْ نَهاهُمْ عَنِ الإِشْراكِ مَعَهُ آلِهَةً أُخرى .

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فيكُمْ ابنُ مَرْيَمَ حَكَماً عَدْلاً فَيَكْسِرُ الصَّليبَ ، وَيَقْتُلُ الخِنْزيرَ ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ ، وَيَفيضُ المالَ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ ، وَحَتَّى تَكونَ السَّجْدَةُ خَيْراً مِنَ الدُّنيا وما فيها » ثُمَّ قالَ أَبو هُرَيْرَةَ : اقْرَءوا إِنْ شِئْتُمْ : « وإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ »[1] .

وَيَرى بَعْضُ المُفَسِّرينَ أَنَّ المَقْصودَ بالآيَةِ أَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ عِنْدَما يُدْرِكُهُ المَوْتُ ، سَيَنْكَشِفُ لَهُ الحَقُّ في أَمْرِ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ وَفي غَيْرِهِ مِنْ أُمورِ الدِّينِ ، فَلْيَعْلَمْ هَذا الكِتابِيُّ أَنَّ عيسى رَسولُ اللهِ صادِقٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، وَلَيْسَ إِلهاً ، أَوْ ابْناً للهِ ، وَيُؤْمِنُ بهذا الأَمْرِ ، وَلَكِنَّ هَذا الإِيمانَ لَنْ يَنْفَعَهُ أَبداً ، فَقَدْ أَخْبَرَ الرَّسولُ ﷺ أَنَّ الرُّوحَ إذا وَصَلَتْ إِلى الحُلْقومِ ، فَلَنْ يَنْفَعَ نَفْساً إيمانُها ما لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ . ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ .

حَيْثُ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بهذا ، فَقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَقولُ للهِ يَوْمَ القِيامَةِ ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة : ١١٧] مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَني بِهِ ، أَنِ اعْبُدوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهيداً مَا دُمْتُ فيهِمْ ، وكِلا المَعْنيينَ المَذْكورَيْنَ للآيَةِ صَحيحٌ ، وَاللهُ تَعالى أَعْلَمُ بِمُرادِهِ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إِنَّ السَّيِّدَةَ مَرْيَمَ امْرَأَةٌ شَريفَةٌ عَفيفَةٌ ، قَدْ بَرَّأَها اللهُ تَعالى مِمَّا اتَّهَمَها اليَهودُ بِهِ .

٢ـ إِنَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَبْدُ اللهِ وَرَسولُهُ آتاهُ اللهُ الكِتابَ ، وَبَعَثَهُ إِلى بَني إِسْرائيلَ ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَلَمْ يَقْتُلْهُ اليَهودُ .

٣ـ عَلى الإِنْسانِ أَنْ يُبادِرَ بِطاعَةِ اللهِ وَامْتِثالِ أَمْرِهِ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفاجِئَهُ المَوْتُ ، فَلا يَسْتَطيعُ الإِيمانَ .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى ابن مريم ، حديث رقم ١٥٥ .



أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيّنَتِ الآياتُ السّابقَةُ أَنَّ اللهَ تَعالى طَبَعَ عَلى قُلوبِ أَهْلِ الكِتابِ ، لِمَ كانَ هَذا الطَّبْعُ عَلَيْها ؟

٢ـ ما الحَقيقَةُ في شَأْنِ اليَهودِ مَعَ سَيِّدِنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟ هَلْ قَتَلوهُ ؟ أَيِّدْ إِجابَتَكَ بِالدَّليلِ .

٣ـ لَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ الكِتابِ كَثيراً في شَأْنِ عيسى ، بَيِّنْ هَذا الاخْتِلافَ .

٤ـ لِمَ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ ؟

٥ـ بَيِّنْ مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ .



ـ يَدَّعي أَهْلُ الكِتابِ أَنَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قَدْ صُلِبَ ، ما الَّذي يَقْصِدونَهُ بِهَذِهِ العَقيدَةِ ، اكْتُبْ تَقْريراً حَوْلَ هَذِهِ العَقيدَةِ عِنْدَ النَّصارى ، واسْتَعِنْ بِتَفْسيرِ المَنارِ : الجُزْءِ السّادِسِ .

* * *

الدَّرسُ الرَّابعُ والأربعونَ

سورةُ النِّساءِ - القِسْمُ الرَّابعُ والأَرْبعونَ

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

معاني المفرداتِ :

الَّذينَ هادُوا : هُمُ اليَهودُ .

وَبِصدِّهِمْ : وَبِمَنْعِهِمْ .

الرَّاسِخونَ : الثَّابِتونَ على الحَقِّ .

التَّفسيرُ :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ .

إِنَّ رَذائِلَ اليَهودِ وَجَرائِمَهُمْ كَثيرةٌ ، وَنَتيجَةً لِهَذِهِ الجَرائِمِ شَدَّدَ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ . لَقَدْ كانَ اليَهودُ ظالِمينَ لأَنْفُسِهِمْ بِابْتِعادِهِمْ عَنِ الحَقِّ ، وَسَيْرِهِمْ في طَريقِ الباطِلِ . وَبِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ هَذا فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمُ الكَثيرَ مِنَ الطَّيِّباتِ عُقوبَةً لَهُمْ وَتَرْبِيَةً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعونَ عَنِ ظُلْمِهِمْ . وَلَكِنْ ما هِيَ تِلْكَ الطَّيِّباتُ الَّتي حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ ؟

لَقَدْ بَيَّنَتْ سورَةُ الأَنْعامِ ما حَرَّمَهُ اللهُ تَعالى عَلى اليَهودِ ، قالَ تَعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٤٦] .

إنَّ مِنْ ظُلْمِ هَؤُلاءِ اليَهودِ :

١ـ صَدِّهُمْ عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى كَثيراً ، والصَّدُّ هُوَ المَنْعُ ، فَهُمْ قَدْ صَدُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى حَيْثُ عَصَوْا موسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَنَقَضوا العُهودَ الَّتي أَخَذَها اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَعَبَدوا العِجْلَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الرَّذائِلِ ، وَهُمْ كَذَلِكَ صَدُّوا النَّاسَ عَنِ اتِّباعِ اللهِ تَعالى ، وَذَلِكَ بِالأَمْرِ بِالمُنْكَرِ ، وَالنَّهي عَنِ المَعْروفِ ، وَمَنْعِ الناسِ مِنَ الدُّخولِ في دينِ اللهِ .

﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

٢ـ وَإِنَّ مِنْ ظُلْمِ اليَهودِ أَكْلَهُمْ الرِّبا ، فَقَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الطَّيِّباتُ ، بِسَبَبِ أَخْذِهِمُ الرِّبا . وَالحالُ أَنَّ اللهَ تَعالى قَدْ نَهاهُمْ عَنْهُ عَلى أَلْسِنَةِ أَنْبيائِهِمْ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَجاءَ تَحْريمُهُ كَذَلِكَ في التَّوراةِ الَّتي أَنْزَلَها اللهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَدْ وَرَدَ في سِفرِ الخُروجِ : (إِنّي أَقْرَضْتُ فِضَّةً لِشَعْبي الفَقيرِ الَّذي عِنْدَكَ ، فَلا تَكُنْ لَهُ كَالمُرابي ، لا تَضعوا عَلَيْهِ رِباً) . وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الطَّيِّباتُ بِسَبَبِ أَكْلِهِمْ أَموالَ النَّاسِ بِالباطِلِ ، أَيْ : بِالرَّشْوَةِ وَالخيانَةِ وَالباطِلِ ، هُوَ أَخْذُ المالِ بِلا مُقابِلٍ ، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ عَنِ اليَهودِ : ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ [المائدة :٤٢] والسُّحْتُ هُوَ الكَسْبُ الحَرامُ ، فَقَدْ كانوا يَكْتُبونَ الكُتُبَ بِأَيْديهِمْ وَيُشَرِّعونَ لِلنَّاسِ وَيَدَّعونَ أَنَّها مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى .

إِنَّ جَرائِمَ اليَهودِ كَثيرَةٌ ، فَقَدِ اسْتَحَقُّوا بِسَبَبِها أَنْ يُعاقَبوا في الدُّنْيا ، بِتَحْريمِ الطَّيِّباتِ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتَحَقُّوا كَذَلِكَ أَنْ يُعاقَبوا في الآخِرَةِ بِالعَذابِ الأَليمِ ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيْ : هَيَّأنا وَأَعْدَدنا لِلَّذينَ كَفَروا مِنْهُمْ عَذاباً مُؤْلماً مُوجعاً ، جَزاءَ ظُلْمِهِمْ ، وَخُروجِهِمْ عَنْ أَمْرِ اللهِ تَعالى .

لَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ ﴾ وَهَذا يَدُلُّ عَلى أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ لَمْ يَكونوا كُلُّهُمْ كافِرينَ ، بَلْ كانَ مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَثَبَتَ عَلى إيمانِهِ ، وَلِذَلِكَ جاءَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتُبَيِّنَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كانَ مُؤْمِناً ، قالَ تَعالى :

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿لَّٰكِنِ﴾ لِلاِسْتِدْراكِ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيْ إِنَّ أَهْلَ الكِتابِ لَهُمُ العاقِبَةُ السَّيِّئَةُ ، يُسْتَثْنى مِنْهُمْ : ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ .

١ـ الرَّاسِخونَ في العِلْمِ مِنْهُمْ والمُؤْمِنونَ ، أَيْ أَهْلُ العِلْمِ الصَّحيحِ بِالدِّينِ المُسْتَبْصِرونَ فيهِ ؛ المُتَيَقِّنونَ ، الَّذينَ لا يَتَّبِعونَ الظَّنَّ ، وَلا يَشْتَرونَ بِآياتِ اللهِ تَعالى ثَمَناً قَليلاً ، الَّذينَ أَدْرَكوا حَقائِقَ الدِّينِ ، وَأَذْعَنوا لَها ، وَرَسَخَتْ في نُفوسِهِمْ ، هَؤُلاءِ الرَّاسِخونَ وَالمُؤْمِنونَ ، يُؤْمِنونَ بِما أَنْزَلَ اللهُ

عَلى النَّبيِّ ﷺ ، أَيْ يُؤْمِنونَ بِالقُرْآنِ الكَريمِ ، وَيُؤْمِنونَ بِما نَزَلَ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ كُتُبٍ سَماوِيَّةٍ عَلى الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

٢ـ ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أَيْ : وَأَخُصُّ المُقيمينَ الصَّلاةَ ، فَقَدْ جاءَتِ الكَلِمَةُ ﴿وَالْمُقيمينَ﴾ مَنْصوبَةً عَلى المَدْحِ ، وَذلِكَ لِبيانِ فَضْلِ الصَّلاةِ ، فَإِنَّ الَّذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ ، أَيْ : يُؤَدُّونَها عَلى أَكْمَلِ وَجْهٍ ، في أَوْقاتِها ، وَيُقيمونَ أَرْكانَها كامِلَةً بِما فيها الخُشوعُ ، وَبِحَيْثُ تُؤْتي هَذِهِ الصَّلاةُ ثِمارَها المَرْجُوَّةَ مِنْها ، وَهِيَ النَّهْيُ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ وَالبَغْيِ ، إِنَّ إِقامَةَ الصَّلاةِ كَما يَنْبَغي مِنْ أَعْظَمِ عَلاماتِ كَمالِ الإِيمانِ .

٣ـ ﴿ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ والجُمْلَةُ مَعْطوفَةٌ عَلى قَوْلِهِ : ﴿ ٱلرَّٰسِخُونَ ﴾ وَهَذِهِ صِفَةٌ ثالِثَةٌ مِنْ صِفاتِ أُولَئِكَ الَّذينَ اسْتَثْناهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ سُوءِ العاقِبَةِ في الآخِرَةِ ، فَهُمْ يُطَهِّرونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الشُّحِّ وَالبُخْلِ بِأَداءِ الزَّكاةِ المَفْروضَةِ عَلَيْهِمْ ، فَالزَّكاةُ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكّيهِمْ ، وَتُحَرِّرُهُمْ مِنْ سَيْطَرَةِ المالِ عَلَيْهِمْ .

٤ـ ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ فَهُمْ يُؤْمِنونَ بِاللهِ تَعالى إِيماناً حَقّاً ، وَيُؤْمِنونَ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَما فيهِ مِنْ حِسابٍ وَعِقابٍ ، وَقَدْ ذُكِرَتْ هاتانِ الصِّفتانِ ، بَعْدَ ذِكْرِ إِقامَةِ الصَّلاةِ ، وَإِيتاءِ الزَّكاةِ ، لِبيانِ عِظَمِ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ ، فَهُما يُرَسِّخانِ الإِيمانَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ في نَفْسِ الإِنْسانِ .

إِنَّ المَوْصوفينَ بِتِلْكَ الصِّفاتِ العَظيمَةِ سَوْفَ يُؤْتيهِمُ اللهُ تَعالى يَوْمَ القِيامَةِ أَجْراً عَظيماً ،لاَ يَعْلَمُ مِقْدارَهُ وَوَصْفَهُ إِلاّ اللهُ تَعالى ، نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أَنْ نَكونَ مِنْهُمْ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إِنَّ اللهَ تَعالى يُعاقِبُ الظّالِمينَ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ بِعُقوباتٍ دُنْيَوِيَّةٍ ، وَعُقوباتٍ أُخْرَوِيَّةٍ .

٢ـ النَّهْيُ عَنْ أَكْلِ أَمْوالِ النَّاسِ بِالباطِلِ سَواءٌ كانَ عَنْ طَريقِ الرِّبا أَمِ الرَّشْوَةِ أَمْ غَيْرِ ذلِكَ .

٣ـ إِنَّ القُرْآنَ الكَريمَ عادِلٌ في أَحْكامِهِ ، فَهُوَ لَمْ يَجْعَلْ أَهْلَ الكِتابِ كُلَّهُمْ سَواءً ، بَلْ ذَكَرَ أَنَّ مِنْهُمُ الكافِرينَ وَمِنْهُمُ المُؤْمِنينَ الرَّاسِخينَ في العِلْمِ .

٤ـ الحِرْصُ عَلى إِقامَةِ الصَّلاةِ عَلى أَكْمَلِ وَجْهٍ ، وَإِيتاءِ الزَّكاةِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَا سَبَبُ تَحريمِ الطَّيِّباتِ عَلى بَني إِسْرائيلَ ؟

٢ـ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْ ظُلْمِ اليَهودِ ، وَذَكَرَتْ صُوراً لِهذا الظُّلْمِ ، هاتِ واحِدَةً مِنْها .

٣ـ لَقَدْ كانَ مِنَ اليَهودِ أَنَّهُمْ أَكَلوا أَموالَ النَّاسِ بِالباطِلِ . ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ بِالباطِلِ ؟ وَما الَّذي فَعَلوهُ ؟

٤ـ لِمَ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾ ؟ وَما الجَزاءُ الَّذي أَعَدَّهُ سُبْحانَهُ لَهُمْ ؟

٥ـ اذْكُرْ صِفاتِ أَهْلِ الكِتابِ المُؤْمِنينَ .

٦ـ ما السِّرُّ في مَجيءِ ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ مَنْصوبَةً وَلَيْسَتْ مَرْفوعَةً ؟

٧ـ لِماذا تَقَدَّمَ الوَصْفُ بِإِقامَةِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ عَلى الوَصْفِ بِالإِيمانِ بِاللهِ تَعالى ؟

٨ـ مَا المَصيرُ الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ لأُولَئِكَ المُؤْمِنينَ ؟



ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الدَّالَّةَ عَلى أَنَّ أَخْذَ الزَّكاةِ يُطَهِّرُ وَيُزَكِّي نُفوسَ المُؤْمِنينَ ويُزَكّيها .

* * *

الدَّرْسُ الخامِسُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ الخامِسُ والأَرْبَعونَ

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَوْحَيْنا : أَعْلَمْنا في خَفاءٍ .

الأَسْباطِ : أَوْلادُ سَيِّدِنا يَعْقوبَ عَلَيْهِ السَّلامُ .

زَبوراً : كِتاباً فيهِ مَواعِظُ وَحِكَمٌ .

تَكْليماً : تَكْليماً خاصّاً دونَ وَساطَةِ جِبْريلَ عَلَيْهِ السَّلامُ .

التَّفْسيرُ :

إِنَّ أَهْلَ الكِتابِ كَما بَيَّنَتِ الآياتُ السّابِقَةُ قَدْ فَرَّقوا في إِيمانِهِمْ بَيْنَ الرُّسُلِ ، فَقالوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، فَآمَنُوا بِموسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَمَنْ قَبْلَهُ ، وَكَفَروا بِعيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَبِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقَدْ جاءَتِ الآياتُ هُنا لِتُبَيِّنَ أَنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ واحِدٌ ، وَأَنَّ الوَحْيَ الَّذي نَزَلَ عَلى جَميعِ الأَنْبِياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ كَذَلِكَ واحِدٌ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى لِنَبيِّهِ ﷺ :

﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾

وَالوَحْيُ : هُوَ الإعْلامُ عَنْ طَريقِ الإشارَةِ أَوِ الإيماءِ أَوْ الإلْهام ، وَوَحْيُ اللهِ إلى أَنْبيائِهِ هُوَ عِرْفانٌ يَجِدُهُ الشَّخْصُ نَفْسُهُ مَعَ اليَقينِ بِأَنَّهُ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعالى بِواسِطَةٍ أَوْ بِغَيْرِ واسِطَةٍ .

لَقَدْ أَوْحى اللهُ تَعالى إلى مُحَمَّدٍ ﷺ بِكَلامِهِ وَأَوامِرِهِ وَنَواهيهِ وَهِداياتِهِ كَما أَوْحى إلى سَيِّدِنا نوحٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَإلى سائِرِ الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ الَّذينَ جاءوا مِنْ بَعْدِهِ ، فَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ لَسْتَ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ ، وَإِنَّما أَنْتَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، تَلَقَّيْتَ الرِّسالَةَ مِنَ اللهِ ، كَما تَلَقَّاها الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى .

وَقَدْ بَدَأَتِ الآياتُ بِنوحٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لأَنَّهُ أَوْلُ رسولٍ بُعِثَ إلى البَشَرِيَّةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ أَنْذَرَ على الشِّرْكِ ، وَأَوَّلُ أُمَّةٍ عُذِّبَتْ هِيَ أُمَّتُهُ .

وَقَدْ أَوْحى اللهُ تَعالى إلى مُحَمَّدٍ ﷺ ، كَما أَوْحى إلى سَيِّدِنا إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الَّذي هُوَ أَبو الأَنْبياءِ الّذينَ جاؤوا مِنْ بَعْدِهِ ، وَكَما أَوْحى إلى إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ وَإلى يَعْقوبَ ابن إِسْحاقَ ، وَأَبناءِ يَعقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَهُمْ اثنا عَشَرَ سِبْطاً .

وَقَدْ أَوْحى اللهُ تَعالى كَذٰلِكَ إلى عيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارونَ وَسُلَيمانَ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ جَميعاً . ﴿ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ أَمَّا داودُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِ كِتاباً هُوَ الزَّبورُ ، وَلَيْسَ هَؤُلاءِ هُمُ الَّذينَ أَوْحى اللهُ إِلَيْهِمْ فقطْ ، بَلْ إِنَّ هُناكَ رُسُلاً كَثيرينَ بَعَثَهُمُ اللهُ تَعالى ؛ وَلِذا قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾

أَيْ : أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ غَيْرِ هَؤُلاءِ قَصَصْنا عَلَيْكَ قِصَصَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ هَذِه الآياتُ ، فَقَدْ ذُكِرَتْ قِصَصُهُمْ في سورَةِ القَصَصِ وَهُودٍ والشُّعراءِ وَغَيْرِها مِنَ السُّوَرِ المَكِّيَة : ﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ ﴾ فَلَمْ يَقُصَّ سُبْحانَهُ وَتَعالى أَخْبارَهُمْ ، لأَنَّ القَصْدَ مِنَ القَصَصِ العِبرَةُ والعِظَةُ وَلَيْسَ السَّرْدُ التَّاريخِيُّ ، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ [فاطر : ٢٤] .

وَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [النحل : ٣٦] .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ أَيْ كَلَّمَهُ تَكْليماً خاصّاً دونَ وَساطَةِ وَحْيٍ ، وَلَكِنْ بِطَريقَةٍ لاَ يَعْلَمُها إلاَّ اللهُ تَعالى .

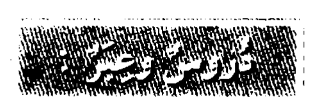
﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾

إنَّ هؤلاءِ الرُّسُلَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ تعالى ، والَّذينَ قصَّ علَيْنا قِصَصَ بَعْضِهِمْ ، ولَمْ يَقُصَّ علَيْنا قِصَصَ بَعْضِهِمُ الآخَرِ ، إنَّما أَرْسَلَهُمْ لِيَكونوا مُبَشِّرينَ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحاً بالثَّوابِ العَظيمِ ، ومُنْذِرينَ كُلَّ مَنْ كَفَرَ وأَجْرَمَ بِعَذابٍ أَليمٍ مِنَ اللهِ تَعالى ، إنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى أَرْسَلَهُمْ لِحِكْمَةٍ عَظيمَةٍ ، إذ لَوْ لَمْ يُرْسِلْهُمْ سُبْحانَهُ لَكانَ لِلنَّاسِ عَلى اللهِ حُجَّةٌ ، إذ إنَّهُمْ سَوْفَ يَدَّعونَ بأَنَّهُمْ إنَّما كانَ مِنْهُمُ الكُفْرُ والإثْمُ والمَعاصي لِجَهْلِهِمْ بما يَجِبُ علَيْهِمْ مِنَ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ ، قالَ تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقالَ تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه : ١٣٤] .

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فهُوَ سُبْحانَهُ كانَ ولا يَزالُ عَزيزاً ، قَوِيّاً لا يَغْلِبُهُ غالِبٌ ، حَكيماً في أَفعالِهِ وفي بَعْثِهِ لِلرُّسُلِ ، وفي تَبْشيرِهِ وإنْذارِهِ ، وفي ثوابِهِ وعِقابِهِ .

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾

ومَع كُلِّ ما بيَّنَهُ اللهُ تعالى ، فإنَّ أَهْلَ الكِتابِ يُنكِرونَ نُبُوَّةَ مُحمَّدٍ ﷺ ، وقَدْ سَأَلوا النَّبيَّ ﷺ أَنْ يُنَزِّلَ علَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ ، يُثْبِتُ صِدْقَهُ في دَعواهُ ، فهُوَ سُبْحانَهُ يَقولُ لِنَبيِّهِ ﷺ : إنَّهُمْ يا مُحمَّدُ مَعَ وُضوحِ الأَدِلَّةِ على نُبُوَّتِكَ ، لا يَشْهَدونَ بما أُنْزِلَ إلَيْكَ ، ولَكِنَّ اللهَ تعالى يَشْهَدُ بِهِ ، فإنَّهُ سُبْحانَهُ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ . وجُحودُ أَهْلِ الكِتابِ لِنُبُوَّتِكَ لا يَضُرُّكَ بِشَيءٍ ، فاللهُ تعالى يَشْهَدُ بما أَنْزَلَ إلَيْكَ مِنَ الوَحْيِ ، والمَلائِكَةُ يَشْهَدونَ بِذلِكَ أَيْضاً بأَنَّكَ صادِقٌ في رِسالَتِكَ ، وبأَنَّ ما أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْكَ هُوَ الحَقُّ ، وكَفَى بِشَهادَةِ اللهِ تعالى شَهادَةً بأَنَّكَ على الحَقِّ . ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٩] .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ واحِدٌ ، وهُوَ دينُ الإسْلامِ ، فالوَحْيُ الَّذي جاءَ الأَنْبياءَ جَميعاً واحِدٌ كَذلِكَ .

٢ـ القُرْآنُ لَيْسَ كِتاباً تاريخيّاً ، وَلِذا لَمْ يَقُصَّ عَلَيْنا سُبْحانَهُ قِصَصَ جميعَ الأَنبياءِ وَالمُرْسَلينَ ، وَلَكِنَّهُ كِتابٌ يَذْكُرُ مِنَ القِصَصِ ما فيهِ العِبْرَةُ وَالعِظَةُ .

٣ـ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعالى أَنْ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرينَ لِكَيْ لا يَكونَ لِلنَّاسِ حُجَّةٌ عَلى اللهِ تَعالى بَعْدَ الرُّسُلِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بِالوَحْيِ ؟

٢ـ لِماذا بَدَأَتِ الآياتُ الحديثَ عَنْ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٣ـ مَنِ الأَسْباطُ ؟

٤ـ ما الزَّبورُ ؟

٥ـ هَلِ الأَنبياءُ المَذكورون في الآياتِ هُمْ وَحْدَهُمْ الَّذينَ بَعَثَهُمْ اللهُ تَعالى لِلنَّاسِ ؟ أَيِّدْ إِجابَتَكَ بِالدَّليلِ .

٦ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْليماً﴾ .

٧ـ مَا الحِكْمَةُ مِنْ إِرسالِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٨ـ لَقَدْ ذَكَرَ القُرْآنُ الكَثيرَ مِنَ الآياتِ لأَهْلِ الكِتابِ ، فَكَيْفَ قابَلوا هَذِهِ الآياتِ ؟

٩ـ مَنِ الَّذي شَهِدَ عَلى مُحَمَّدٍ ﷺ ؟ وَهَلْ صَدَّقَ اليَهودُ بِهَذِهِ الشَّهادَةِ ؟

نَشاطٌ :

ـ ذَكَرَتْ سورَةُ الشُّورى أَنواعَ الوَحْيِ الَّتي تَكونُ لِلأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ . اكْتُبِ الآيَةَ في دَفْتَرِكَ ، وَعَدِّدْ مِنْ خِلالِها هَذِهِ الأَنواعَ .

* * *

الدَّرسُ السَّادِسُ والأَربَعونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ السَّادِسُ والأَرْبَعون

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾

معاني المفردات

صَدُّوا : أَعْرَضوا .

خالِدينَ ماكِثينَ مُكْثاً طَويلاً لا يَنْتَهي .



إِنَّ سَيِّدَنا مُحَمَّداً ﷺ نَبِيٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، وَقَدْ شَهِدَ بِذَلِكَ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، وَشَهِدَتِ المَلائِكَةُ بِذَلِكَ أَيضاً ؛ وَلِذا عَلى النَّاسِ جَميعاً أَنْ يُؤْمِنوا بِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَيَتْرُكوا الكُفْرَ وَالعِصْيانَ ، وَقَدْ جاءَتِ الآياتُ هُنا لِتُنْذِرَ الَّذينَ كَفَروا بِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾

إِنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ كَفَروا بِالحَقِّ الَّذي جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ وَبِالقُرْآنِ ، وَأَعْرَضوا عَنْ طَريقِ الحَقِّ ، وَصَدُّوا غَيْرَهُمْ كَذَلِكَ عَنِ اتِّباعِ سَبيلِ اللهِ تَعالى حَيْثُ أَلقَوْا الشُّبُهاتِ الكَثيرَةَ حَوْلَ نُبُوَّتِهِ وَرِسالَتِهِ ، فَقالوا عَنْهُ ساحِرٌ ، وَقالوا عَنْهُ كاهِنٌ ، وَإِنَّهُ مَجْنونٌ ، وَإِنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَإِنَّهُ لَوْ كانَ رَسُولاً مِنْ عِنْدِ اللهِ لَجاءَ بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ جُمْلَةً واحِدَةً ، وَلَيْسَ مُفَرَّقاً ، وَأَنَّهُ تَعَلَّمَ ما تَعَلَّمَ عَلى يَدِ مُعَلِّمٍ عَلَّمَهُ القُرْآنَ .

إِنَّهُمْ بتِلْكَ الشُّبُهاتِ الَّتي أَلْقوها مَنَعوا غَيْرَهُمْ مِنَ الدُّخولِ في دينِ اللهِ وَاتِّباعِ الحَقِّ ، وَهُمْ بِفِعْلِهِمْ هَذا قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَلَغَ غايَةً عَظيمَةً في الشِّدَّةِ وَالشَّناعَةِ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ ﴾

إِنَّ الَّذينَ كَفَروا يَا مُحَمَّدُ بِما أَنْزَلَ اللهُ تَعالى إِلَيْكَ ، وَظَلَموا أَنْفُسَهُمْ بِإِعْراضِهِمْ عَنِ الحَقِّ وَعَنِ الطَّريقِ الموصِلِ إِلى الخَيْرِ ، وَظَلَموا غَيْرَهُمْ بِإِغوائِهِمْ وَصَدِّهِمْ عَنِ الطَّريقِ المُسْتَقيمِ ، طَريقِ اللهِ تَعالى ، إِنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ جَمَعوا بَيْنَ الكُفْرِ وَالظُّلْمِ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ، لأَنَّهُ سُبْحانَهُ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ ما دونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ، وَلَمْ يَكُنْ سُبْحانَهُ لِيَهْدِيَهُمْ طَريقَ الخَيْرِ الَّذي يُؤَدِّي إِلى طَريقِ الجَنَّةِ ، إِنَّهُ سُبْحانَهُ لَنْ يَهْديَهُمْ إِلاَّ طَريقاً يوصِلُهُمْ إِلى جَهَنَّمَ جَزاءً لَهُمْ عَلى أَعْمالِهِمْ ، فَهِيَ طَريقُ مَنِ اتَّصَفَ بِالكُفْرِ وَالظُّلْمِ ، وَهُمْ مُخَلَّدونَ في نارِ جَهَنَّمَ لا يَخْرُجونَ مِنْها أَبَداً ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أَيْ : كانَ الجَزاءُ سَهْلاً عَلى اللهِ دونَ غَيْرِهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يَسْتَعْصي عَلَيْهِ وَعلى قُدْرَتِهِ شَيْءٌ ، وَفي هَذهِ الخاتِمَةِ لِلآيَةِ تَحْقيرٌ لأُولَئِكَ الكافِرينَ ، وَبَيانٌ لَهُمْ بِأَنَّ اللهَ تَعالى لاَ يَعْبأُ بِهِمْ وَلاَيُقيمُ لَهُمْ وَزْناً .

وَبَعْدَ أَنْ رَدَّ سُبْحانَهُ عَلى أُولَئِكَ الَّذينَ اتَّصفوا بِالكُفْرِ وَالظُّلْمِ ، خاطَبَ النَّاسَ جَميعاً وَأَمَرَهُمْ بِالإِيمانِ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ ﴾

يَا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسولُ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الَّذي شهِدَ اللهُ بِالصِّدْقِ في رِسالَتِهِ ، وَشَهِدَتْ لَهُ المَلائِكَةُ بِذَلِكَ ، قَدْ جاءَكُمْ بِالحَقِّ وَالهُدى مِنْ رَبِّكُمْ فَعَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنوا بِهِ وَتُصَدِّقوهُ ، وَتُطيعوهُ ، فَالإِيمانُ خَيْرٌ لَكُمْ ، لأَنَّهُ يُزَكِّيكُمْ وَيُطَهِّرُكُمْ مِنَ الدَّنَسِ وَالرِّجْسِ . إِنَّ الآيَةَ تُخاطِبُ النَّاسَ جَميعاً ، إِذْ إِنَّ رِسالَةَ الرَّسولِ ﷺ لِلنَّاسِ كافَةً ، لِلْعَرَبِيِّ وَغَيْرِ العَرَبِيِّ .

لَقَدْ حَثَّتِ الآياتُ عَلى الإِيمانِ بِهِ ، لأَنَّ ما جاءَهُمْ بِهِ حَقٌّ ، بَعيدٌ عَنِ الباطِلِ ، إِنَّهُ الحَقُّ الموافِقُ لِما فُطِرَ عَلَيْهِ البَشَرُ ، وَهُوَ الحَقُّ الَّذي يُوصِلُهُمْ إِلى السَّعادَةِ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ .

آمِنوا أَيُّها النَّاسُ يَكُنِ الإِيمانُ خَيْراً لَكُمْ ، وَلَكِنَّكُمْ إِنْ كَفَرْتُمْ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ تَعالى كُفْرُكُمْ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى غَنِيٌّ عَنْ إِيمانِكُمْ ، وَقادِرٌ عَلى جَزائِكُمْ ، فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ لَهُ ما في السَّماواتِ وَما في الأَرْضِ ، فَهُوَ خالِقُها وَالمالِكُ لَها وَالمُتَصَرِّفُ فيها ، وَكانَ اللهُ عَليماً حكيماً ، أَحاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ ما في الكَوْنِ ، حَكيماً في أَفْعالِهِ وَأَحْكامِهِ ، لاَ يَخْفى عَلَيْهِ سُبْحانَهُ أَمْرُكُمْ سَواءٌ آمَنْتُمْ أَمْ كَفَرْتُمْ ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّهُ يُجازيكُمْ عَلى أَفعالِكُمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إنَّ الكافِرينَ لاَ يُحِبُّونَ أَنْ يَعْلوَ صَوْتُ الحَقِّ ، وَلِذَلِكَ تَجِدُهُمْ يُحارِبونَهُ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ .

٢ـ إنَّ مَصيرَ الكافِرينَ نارُ جَهَنَّمَ خالِدينَ فيها .

٣ـ حَثُّ النَّاسِ جَميعاً عَلى الإِيمانِ بِالرَّسولِ ﷺ وَبِما جاءَ بِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لِمَ جَمَعَ القُرْآنُ في وَصْفِ الضَّالِّينَ بَيْنَ الكُفْرِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبيلِ اللهِ ؟ وَما المَقْصودُ بِذَلِكَ ؟

٢ـ لَقَدْ أَثارَ الكافِرونَ الكَثيرَ مِنَ الشُّبُهاتِ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ ، ما هَدَفُهُمْ ؟ وَما المَصيرُ الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ لَهُمْ مُقابِلَ ذَلِكَ ؟

٣ـ قالَ تَعالى : ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيراً﴾ ما هَذا الأَمْرُ اليَسيرُ عَلى اللهِ ؟

٤ـ بِمَ خاطَبَ اللهُ تَعالى النَّاسَ جَمعياً ؟ وَعَلامَ حَثَّهُمْ ؟

٥ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ للهِ مَا في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ﴾ ؟

٦ـ مَا الحِكْمَةُ مِنْ خَتْمِ الآيَةِ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اذْكُرْ شُبْهَةً أُخرى أَثارَها الكافِرونَ حَوْلَ الرَّسولِ ﷺ وَكِتابِهِ الَّذي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً شَريفاً يُبيِّنُ أَنَّ رَسولَ اللهِ بُعِثَ لِلنَّاسِ كَافَّةً .

* * *

الدَّرسُ السَّابِعُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ النِّساءِ ـ القِسْمُ السَّابِعُ والأَرْبَعونَ

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تَغْلوا : تَجاوَزوا الحَدَّ .

كَلِمَتُهُ : خَلقَهُ بِكَلِمَةِ : كُنْ .

يَسْتَنْكِفَ : يَمْتَنِعَ .

التَّفسيرُ :

إنَّ الآياتِ السَّابِقَةَ جاءَتْ لِتُحاجِجَ اليَهودَ وَتَرُدَّ عَلَيْهِمْ شُبُهاتِهِمْ ، وَتُقيمَ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ القاطِعَةَ ، وَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِمُحاجَّةِ النَّصارى ، وَرَدِّ شُبُهاتِهِمْ حَوْلَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى مُخاطِباً أَهْلَ الكِتابِ :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ ﴾

أَيْ لا تَتَجاوَزوا الحُدودَ الَّتي شَرَعَها لَكُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، فَالزِّيادَةُ في الدِّينِ كالنَّقْصِ فيهِ ، لَقَدْ غالَى النَّصارَى في شَأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَرَفَعوا مَرْتَبَتَهُ فَوْقَ مَرْتَبَةِ البَشَرِ ، في حينِ أَنْكَرَ اليَهودُ نُبُوَّتَهُ وَحارَبوهُ ، وَاتَّهَموا أُمَّهُ بِما هِيَ بَريئَةٌ مِنْهُ .

عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « لا تُطْروني كَما أَطْرَتِ النَّصارى عيسى ابنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّما أَنا عَبْدُهُ ، فَقولوا : عَبْدُ اللهِ وَرَسولُهُ »[1] .

﴿ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾ لا تَصِفوا اللهَ تَعالى بِما يَسْتَحيلُ اتِّصافُهُ بِهِ ، مِنَ اتِّخاذِ الزَّوْجَةِ وَالوَلَدِ ، وَحُلولِهِ في جَسَدِ المَسيحِ عَلَيْهِ السَّلامُ ، تَعالى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوّاً كَبيراً .

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ القَوْلَ الحَقَّ في شَأْنِ المَسيحِ عيسى ابنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ جاءَتْ بِأَداةِ القَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾ حَيْثُ قَصَرَتِ المَسيحَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى الرِّسالَةِ ، فَهُوَ رَسولٌ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، وَلَيْسَ ابْناً للهِ كَما تَدَّعونَ ، وَهُوَ كَلِمَتُهُ سُبْحانَهُ ، أَيْ : إِنَّهُ مُكَوَّنٌ وَمَخْلوقٌ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ تَعالى هِيَ (كُنْ) مِنْ غَيْرِ واسِطَةِ أَبٍ ، لَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ تَعالى جِبريلَ عَلَيْهِ السَّلامُ إِلى السَّيِّدَةِ مَرْيَمَ ، وَبَشَّرَها بِأَنَّهُ أُمِرَ أَنْ يَهَبَ لَها غُلاماً زَكِيّاً ، فاسْتَنْكَرَتْ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ أَخْبَرَها بِأَنَّ هَذِهِ إِرادَةُ اللهِ ، ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٤٧] ، لَقَدْ خَلَقَهُ سُبْحانَهُ وَنَفَخَ فيهِ مِنْ روحِهِ ، ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩١] وَ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] ، فَإِذا كانَ اللهُ سُبْحانَهُ قَدْ خَلَقَ عيسى مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، فَإِنَّ آيَتَهُ في آدَمَ أَعْظَمُ حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَلا أُمٍّ كَذَلِكَ .

وَمَعْنى : وَروحٌ مِنْهُ ، أَيْ : إِنَّهُ سُبْحانَهُ أَنْشَأَهُ بِنَفْخِ الرُّوحِ فيهِ ، مِنْ غَيْرِ واسِطَةِ بَشَرٍ ، وَإِذا كانَ هَذا هُوَ الحَقُّ في شَأْنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَآمِنوا بِاللهِ إِيماناً صَحيحاً ، وَاعْبُدوهُ وَحْدَهُ سُبْحانَهُ ، وَآمِنوا بِرُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ جَميعَهُمْ ، إِيماناً يَليقُ بِهِمْ ، فَهُمْ عَبيدٌ للهِ تَعالى

(١) أخرجه البخاري في الصحيح حديث رقم ٣٢٦٠ .

بِالرِّسالَةِ وَأَكْرَمَهُمْ بِها ، وَلاَ تَقولوا إِنَّ الآلِهَةَ ثَلاثَةٌ ؛ الأَبُ وَالابْنُ وَالرُّوحُ القُدُسُ .

عَقيدَةُ النَّصارى في التَّثْليثِ :

يَرَى النَّصارَى أَنَّ الآلِهَةَ ثَلاثَةٌ : الأَبُ وَالابنُ وَالرُّوحُ القُدُسُ ، وَيُسَمُّونَها الأَقانيمَ الثَّلاثَةَ ، وَبَيانُ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ أَنَّ اللهَ ثَلاثَةُ أَقانيمَ ، كُلٌّ مِنْها عَيْنُ الآخَرِ ، فَكُلٌّ مِنْها كامِلٌ وَمَجْموعُها إِلهٌ واحِدٌ ، وَهُمْ بِهذا القَوْلِ تَرَكوا التَّوْحيدَ الخالِصَ ، الَّذي هُوَ مِلَّةُ إِبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَعيسى وَسائِرِ الأَنبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، كَما أَنَّ هَذِهِ العَقيدَةَ مَبْنِيَّةٌ عِنْدَهُمْ على الجَمْعِ بَيْنَ التَّثْليثِ الحَقيقيِّ وَالتَّوْحيدِ الحَقيقيِّ ، وَهُما أَمْرانِ مُتَناقِضانِ ، لاَ يَقْبَلُ العَقْلُ الجَمْعَ بَيْنَهُما .

وَعَقيدَةُ التَّثليثِ عَقيدَةٌ وَثَنِيَّةٌ نَقَلَها الوَثَنِيُّونَ الَّذينَ تَنَصَّروا إِلى الدِّيانَةِ النَّصرانِيَّةِ . لَقَدْ أَكَّدَ هَذا الأَصْلَ الوَثَنِيَّ لِعَقيدَةِ التَّثْليثِ كَثيرٌ مِنْ عُلَماءِ التَّاريخِ وَالآثارِ الأوروبيِّينَ ،حَيْثُ أَثْبَتوا وُجودَهُ في الحَضاراتِ وَالعقائِدِ القَديمَةِ .

إِنَّ الدِّيانَةَ في الأَصْلِ ديانَةُ تَوْحيدٍ ، جَعَلَها أَتْباعُها ديانَةً وَثَنِيَّةً بِتَثْليثٍ لا تَقْبَلُهُ العُقولُ ، اقْتَبَسوهُ مِنَ الوَثَنِيَّةِ اقْتِباساً شَوَّهوا بِهِ ديانَةَ تَوْحيدٍ سَماوِيَّةً ، فَلَمْ تَرِدْ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ عَنْ أَنبياءِ بَني إِسْرائيلَ تَدُلُّ عَلى هَذا التَّثْليثِ ، مَعَ أَنَّ النَّصارى يَزْعُمونَ أَنَّها مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ جَميعِ كُتُبِ أَنْبياءِ بَني إِسْرائيلَ ، كَما نَسَبوها إِلى المَسيحِ ، وَلَيْسَ في كَلامِ المَسيحِ نَصٌّ عَلى هَذا ، بَلْ إِنَّ في كَلامِهِ نُصوصاً قاطِعَةً في حَقيقَةِ التَّوْحيدِ وَالتَّنْزيهِ ، وَعَدَمِ المُساواةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ ، وَعدَمِ المُساواةِ بَيْنَ الأَبِ وَالابْنِ بِالمَعْنى المَجازِيِّ لِلابْنِ الَّذي يُطْلَقُ عَلى المَسيحِ وَعلى غَيْرِهِ مِنَ الأَبْناءِ ، كَما أَنَّ المَسيحَ كَثيراً ما يُطْلِقُ عَلى نَفْسِهِ ابنَ الإِنْسانِ ، وَلَوْ رَجَعْنا إِلى الأَناجيلِ سَنَجِدُ أَنَّها تَدُلُّ عَلى أَنَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ خُلِقَ بِواسِطَةِ الرُّوحِ القُدُسِ ، وَهُوَ المَلَكُ المُسَمَّى بِروحِ القُدُسِ ، فَلا يَجوزُ حينَها أَنْ يُقالَ إِنَّ قَوْلَه : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ في شَأْنِ المَسيحِ عَلَيْهِ السَّلامُ يُفيدُ أَنَّهُ جزْءٌ مِنَ اللهِ تعالى . وَالمُطَّلِعُ عَلى الأَناجيلِ يَرَى أَنَّ مُؤَلِّفيها يَسْتَعْمِلونَ كَلِمَةَ الرُّوحِ القُدُسِ اسْتِعْمالاً لا يَدُلُّ عَلى أَنَّهُ مَلَكٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ .

لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى أَهْلَ الكِتابِ أَنْ لاَ يَقولوا ثَلاثَةٌ ، وَأَنْ يَنْتَهوا عَنْ هَذا القَوْلِ ، وَيَسيروا في طَريقِ الحَقِّ ، لأَنَّ انْتِهاءَهُمْ عَنِ القَوْلِ خَيْرٌ لَهُمْ ، وَقَدْ أَثْبَتَ اللهُ وَحْدانِيَّتَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ إِنَّ المَعْبودَ بِحَقٍّ لَيْسَ إِلاَّ واحِدٌ ، وَهُوَ اللهُ تَعالى ، وَقَدْ تَنَزَّهَ سُبْحانَهُ عَنْ أَنْ يَكونَ لَهُ وَلَدٌ ، فَهُوَ مُنَزَّهٌ سُبْحانَهُ عَنْ صِفاتِ المَخْلوقينَ ، وَالدَّليلُ عَلى ذَلِكَ أَنَّهُ سُبْحانَهُ لَهُ ما في السَّمواتِ والأَرْضِ ، وَمَنْ كانَ مالِكاً لِجَميعِ المَوْجوداتِ عُلْوِيِّها وَسُفْلِيِّها ، لَمْ يَكُنْ بِحاجَةٍ إِلى الوَلَدِ وَالصَّاحِبَةِ وَالشَّريكِ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ لِبيانِ سَعَةِ قُدْرَتِهِ سُبْحانَهُ وَهَيْمَنَتِهِ عَلى هَذا

الكَوْنِ . وَالوَكيلُ هُوَ الحافِظُ وَالمُدَبِّرُ لأَمْرِ غَيْرِهِ ، وَالمَعْنى : وَكَفى بِاللهِ وَكيلاً يُوكَلُ إِلَيْهِ أَمْرُ الخَلْقِ كُلِّهِمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ الغَنِيُّ عَنْهُمْ ، وَهُمُ الفُقَراءُ إِلَيْهِ .

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ .

وَقَدْ بَيَّنَتِ الآياتُ أَنَّ المَسيحَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَبْدٌ مِنْ عِبادِ اللهِ تَعالى ، وَلَنْ يَمْتَنِعَ وَلَنْ يَتَنَزَّهَ عَنْ العُبودِيَّةِ للهِ ، وَلَنْ يَنْقَطِعَ عَنْها ، وَلَنْ يُعابَ أَنْ يَكونَ عَبْداً للهِ تَعالى ، وَكَذلِكَ المَلائِكَةُ المُقَرَّبونَ ، وَمِنْهُمْ جِبْريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ وَهُوَ الرُّوحُ القُدُسُ ، لَنْ يَمْتَنِعوا وَيَتَنَزَّهوا عَنْ عِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، فَهُمْ لاَ يَعْصونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلونَ ما يُؤْمَرونَ . وَلِذا فَإِنَّ مَنْ يَأْنَفُ عَنِ عِبادَةِ اللهِ وَيَمْتَنِعُ عَنْها وَيَأْبى الخُضوعَ لِطاعَةِ اللهِ ، وَيَسْتَكْبِرُ عَنْ كُلِّ ذلِكَ فَسَيَجِدُ يَوْمَ القِيامَةِ ما يَسْتَحِقُّهُ مِنْ عِقابٍ بِسَبَبِ اسْتِكْبارِهِ ، فَإِنَّ مَصيرَ العِبادِ كُلِّهِمْ إِلى اللهِ تَعالى ، وَسَيُجازي كُلاًّ عَلى عَمَلِهِ .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾ .

هَذا هُوَ مَصيرُ الَّذينَ لا يُنَزِّهونَ اللهَ تَعالى ، أَمَّا الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ فَسَيُعْطيهِمُ اللهُ تَعالى أُجورَهُمْ كامِلَةً عَلى إيمانِهِمُ الصَّحيحِ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ ، وَأَمَّا الَّذينَ امْتَنَعوا عَنْ عِبادَةِ اللهِ تَعالى وَاسْتَكْبَروا فَهَؤُلاءِ يُعَذَّبونَ عَذاباً أَليماً يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ اللهِ تَعالى ، إِذْ إِنَّ سُنَّةَ اللهِ جَرَتْ عَلى أَنْ يُجازِيَ المُحسِنَ عَلى إِحْسانِهِ بِالعَدْلِ وَالفَضْلِ ، وَيُجازِيَ المُسيءَ عَلى إِساءَتِهِ ، وَلَنْ يَجِدَ أَحَدٌ وَلِيّاً غَيْرَ اللهِ تَعالى يُدَبِّرُ أُمورَهُ وَمَصالِحَهُ ، وَلا نَصيراً يَنْصُرُهُ مِنْ بَأْسِ اللهِ تَعالى ، وَيَرْفَعُ عَنْهُ العَذابَ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إِلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كَثيرَةٍ ، مِنْها :

١ـ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ عِبادٌ مِنْ عِبادِ اللهِ ، اخْتَصَّهُمُ اللهُ تَعالى بِالرِّسالَةِ .

٢ـ إِنَّ عَقيدَةَ التَّثْليثِ عَقيدَةٌ وَثَنِيَّةٌ ، دَخَلَتِ النَّصْرانِيَّةَ وَحَرَفَتْها عَنْ مَسارِها الصَّحيحِ .

٣ـ إِنَّ النَّصْرانِيَّةَ في الأَصْلِ دينُ الوَحْدانِيَّةِ وَتَنْزيهِ اللهِ تَعالى عَنِ الوَلَدِ وَالشَّريكِ وَالصَّاحِبَةِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَنِ المُخاطَبُ في قَوْلِهِ تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ ؟ وما المَقْصودُ بِالغُلُوِّ في الدِّينِ ؟

٢ـ ما مَوْقِفُ النَّصارى مِنَ المَسيحِ عيسى ابنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٣ـ بِمَ رَدَّتِ الآياتُ عَلى أُولَئِكَ الَّذينَ يُؤَلِّهونَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٤ـ ما مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ؟ وَما المُسْتَفادُ مِنْهُ ؟

٦ـ بَيِّنْ عَقيدَةَ النَّصارى في التَّثْليثِ .

٧ـ مِمَّنْ أَخَذَ النَّصارى هَذِهِ العَقيدَةَ ؟

٨ـ كَيْفَ تَرُدُّ عَلى مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ التَّثْليثَ عَقيدَةٌ تُنْسَبُ إِلى أَنبياءِ بَني إِسْرائيلَ وَمِنْهُمْ سَيِّدُنا عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٩ـ أَمَرَ سُبْحانَهُ بَني إِسْرائيلَ أَنْ لا يَقولوا(ثَلاثَةٌ) ، ثُمَّ أَثْبَتَ لَهُمْ أَصْلاً عَظيماً ، ما الأَمْرُ الَّذي أَثْبَتَتْهُ الآياتُ ؟

١٠ـ لِمَ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً﴾ ؟

١١ـ بِماذا وَصَفَتِ الآياتُ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

١٢ـ ما مَصيرُ مَنْ لَمْ يُنَزِّهِ اللهَ سُبْحانَهُ وَتَعالى ؟ وما مَصيرُ المُؤْمِنينَ الَّذينَ يُنَزِّهونَهُ عَنْ كَلِّ عَيْبٍ ؟



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما أَمَرَنا الإِسْلامُ بِخُصوصِ سَيِّدِنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الَّتي تُبَيِّنُ رَدَّ المَسيحِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى بَني إِسْرائِيلَ عِنْدَما جاءَتْ بِهِ أُمُّهُ تَحْمِلُهُ وَهُوَ في المَهْدِ .

* * *

الدَّرسُ الثَّامِنُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ النِّساءِ - القِسْمُ الثَّامِنُ والأَرْبَعون

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

بُرْهانٌ : حُجَّةٌ وَدَليلٌ قاطِعٌ .

نوراً مُبيناً : قُرْآناً واضِحاً .

اعْتَصِموا : تَمَسَّكوا بِهِ واتَّبعوا تَعاليمَهُ .

يَسْتَفْتونَكَ : يَطْلُبونَ مِنْكَ .

الكَلالَةِ : مَنْ ماتَ وَلا وَلَدَ لَهُ وَلا والِدَ لَهُ ولَهُ أُخْتٌ .

التَّفسيرُ :

اخْتُتِمَتْ سُورَةُ النِّساءِ بِنداءٍ وَفَتْوى ، أَمَّا النِّداءُ فَجاءَ لِيُخاطِبَ النَّاسَ كُلَّ النَّاسِ ، وَأَمَّا الفَتْوى فَجاءَتْ لِبَيانِ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ يَحْتاجُهُ المُسْلِمونَ في تَعامُلِهِمْ في حَياتِهِمْ . وَفيما يَلي بَيانُ ذَلِكَ :

قالَ تَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾

في هَذا النِّداءِ الإِلَهِيِّ الكَريمِ يُخاطِبُ اللهُ تَعالى النَّاسَ كُلَّ النَّاسِ ، كَما افْتُتِحَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ بِمُخاطَبَةِ النَّاسِ ، جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ تُخاطِبُ النَّاسَ .

فَماذا جاءَ في النِّداءِ الإِلَهِيِّ لِلنَّاسِ ؟

يُبَيِّنُ لَهُمْ اللهُ رَبُّهُم أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلاً وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُباً ، وَمِنْ هَؤُلاءِ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ فَهُوَ البُرْهانُ الواضِحُ وَالدَّليلُ القاطِعُ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى . وَمِنْ هَذِهِ الكُتُبِ الَّتي أَنْزَلَها اللهُ تَعالى إِلى خَلْقِهِ القُرْآنُ الكَريمُ ، وَهُوَ النُّورُ المُبينُ وَالمُعْجِزَةُ الخالِدَةُ .

وَلَقَدْ بَيَّنَ الحَقُّ تَبارَكَ وَتَعالى أَنَّ هَذا البُرْهانَ وَهَذا النُّورَ جاءَكُمْ ﴿ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ وَمِنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى وَكَرَمِهِ أَنْ ذَكَرَ هَذِهِ الصِّفَةَ : الرُّبُوبِيَّةَ ، وَذَلِكَ لإِظْهارِ لُطْفِ اللهِ بِالنَّاسِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ ، فَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ ، وَأَنْزَلَ إِلَيْهِمْ كُتُبَهُ ، لِتَرْبِيَتِهِمْ وَهِدايَتِهِمْ إِلى الصِّراطِ المُسْتَقيمِ الَّذي يُوصِلُهُمْ بِرَحْمَتِهِ إِلى جَنَّاتِ النَّعيمِ .

وَمِمّا يَجِبُ الانْتِباهُ إِلَيْهِ أَنَّ اللهَ تَعالى جاءَ بِالبُرْهانِ وَأَنْزَلَ النُّورَ إِلى النَّاسِ كافَّةً ، وَلَمْ يَحْرِمْ مِنْ ذَلِكَ أَحَداً كَيْلا يَكونَ لِلنَّاسِ عَلَيْهِ حُجَّةٌ ، فَهَلْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَاتَّبَعوا رُسُلَهُ وَانْتَفَعوا بِكُتُبِهِ ؟ هَذا ما سَتُبَيِّنُهُ الآيَةُ التَّالِيَةُ ، قالَ تَعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾

جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ تُبَيِّنُ ثَمَرَةَ الإيمانِ بِاللهِ وَاتِّباعِ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ ، فَإِنَّ النَّاسَ انْقَسَموا بَعْدَ بِعْثَةِ الرُّسُلِ إِلى قِسْمَيْنِ :

قِسْمٌ آمَنَ وَصَدَّقَ ، وَاتَّبَعَ فَنَجا ، وَقِسْمٌ كَفَرَ وَكَذَّبَ ، وَابْتَعَدَ فَهَلَكَ .

وَتَعْرِضُ الآيَةُ الكَريمَةُ لأَحْوالِ المُؤْمِنينَ المُصَدِّقينَ ، وَيُفْهَمُ أَنَّ غَيْرَهُمْ قَدْ مُنِعوا مِنْ رَحْمَتِهِ وَحُرِموا فَضْلَهُ ، وَضَلُّوا ضَلالاً مُبيناً .

أَمَّا الَّذينَ آمَنوا بِاللهِ تَعالى ، وَعَبَدوهُ وَحْدَهُ ، وَصَدَّقوا رُسُلَهُ عَلَيْهِمُ السَّلامُ ، وَتَمَسَّكوا بِدينِهِ وَاتَّبَعوا شَريعَتَهُ ، وَاعْتَصَموا بِهِ ، وَالاعْتِصامُ يَعْني تَمَسَّكوا ، وَاسْتَعانوا مُتَبَرِّئينَ مِنْ حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ فَبِماذا كانَ اعْتِصامُهُمْ ؟

هُناكَ تَفْسيرانِ : الأَوَّلُ أَنَّهُمْ اعْتَصَموا بِاللهِ تَبارَكَ وَتَعالى ، فَهُمْ آمَنوا بِهِ وَاعْتَصَموا بِه ، وَقَدْ

يَكونُ الضَّميرُ في (بِهِ) عائِداً عَلى القُرْآنِ الكَريمِ فَهُمْ آمَنوا بِاللهِ ، وَاعْتَصَموا بِكِتابِهِ وَكِلا التَّفْسيرَيْنِ صَحيحٌ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمُرادِهِ .

هَؤُلاءِ المُؤْمِنونَ بِاللهِ المُعْتَصِمونَ بِهِ ماذا لَهُمْ ؟

١ ـ ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ .

إِنَّ أَعْظَمَ مَا يُكْرِمُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ المُؤْمِنينَ إِدْخالُهُمْ في رَحْمَتِهِ ، فَهُمْ قَدْ حازوا هَذا التَّكريمَ الإِلَهِيَّ فَلا يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ يُعَذِّبُهُمْ ، وَهَذا مِنَ اللهِ فَضْلٌ كَبيرٌ ، وَرَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ مِنَ اللهِ الرَّحيمِ ، هَذِهِ الرَّحْمَةُ بِها يَكونُ التَّوْفيقُ في الدُّنْيا وَالنَّعيمُ المُقيمُ في الآخِرَةِ .

أَخْرَجَ الإِمامُ مُسْلِمٌ في صَحيحِهِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « قارِبوا وَسَدِّدوا وَاعْلَموا أَنَّهُ لَنْ يَنْجوَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ ، قالوا : وَلا أَنْتَ يا رَسولَ اللهِ ، قالَ : وَلا أَنا ، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ »[1] .

٢ ـ ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُّسْتَقِيماً﴾ .

هَؤُلاءِ المُؤْمِنونَ قَبِلوا الهِدايَةَ حَيْثُ رَفَضَها النَّاسُ ، وَآمَنوا بِاللهِ ، وَكَفَرَ غَيْرُهُمْ ، وَاسْتَحَقُّوا بَعْدَ هَذا القُبولِ دُخولَ رَحْمَةِ اللهِ ، وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِهِمْ أَنْ هَداهُمْ إِلَيْهِ ، أَيْ : ثَبَّتَهُمْ عَلى دينِهِ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلى أَحْكامِهِ وَتَعاليمِ شَرْعِهِ ، فاسْتَقاموا عَلى ذَلِكَ وَعَمِلوا بِما أَمَرَهُمْ بِهِ اللهُ .

وَالصِّراطُ المُسْتَقيمُ هُوَ دينُ اللهِ وَشَرْعُهُ ، وَمِنْهاجُهُ الَّذي وَضَعَهُ لِلنَّاسِ . قالَ اللهُ تَعالى مُعَلِّماً لِلمُؤْمِنينَ الدُّعاءَ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة ٦ ، ٧] .

وَالصِّراطُ المُسْتَقيمُ يَكونُ كَذَلِكَ في الآخِرَةِ ، وَهُوَ طَريقُهُمْ إِلى الجَنَّةِ ، وَالنَّعيمِ المُقيمِ عِنْدَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ .

وَخِتامُ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتي ذَكَرَتِ الميراثَ وَتَوْزيعَهُ ، وَحَدَّدَتْ حُقوقَ كُلٍّ مِنَ الأَوْلادِ وَالوالِدَيْنِ ، وَالزَّوْجَيْنِ ، جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ تُبَيِّنُ حُكْمَ مَنْ ماتَ وَلَمْ يَتْرُكْ إِلاَّ أُخْتاً ، وَلَمْ يَتْرُكْ وَلَداً ، وَلا والِداً .

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ۝ ﴾ .

سَبَبُ النُّزولِ :

أَخْرَجَ الإِمامُ أَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بن المُنْكَدِرِ قالَ : سَمِعْتُ جابِرَ بنَ عَبْدِ اللهِ قالَ : دَخَلَ

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، حديث رقم ٢٨١٦ .

عليَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأنا مَريضٌ ، لاَ أَعقِلُ فَتَوَضَّأ ثُمَّ صَبَّ عَلَيَّ أَوْ قالَ صُبُّوا عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ : إِنَّهُ لا يَرِثُني إلا كَلالَةٌ فَكَيْفَ الميراثُ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ الفَرائِضِ . قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ .

الخِطابُ هُنا مُوَجَّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ الَّذي اسْتَفْتاهُ أَصْحابُهُ بَعْدَ أَنْ عَلَّمَهُمُ القُرْآنُ أَحْكامَ الميراثِ كَما جاءَ في مَطْلَعِ هَذِهِ السُّورَةِ . سُئِلَ رَسولُ اللهِ ﷺ عَنْ مَسْأَلَةِ الكَلالَةِ وَكَيْفِيَّةِ تَوْزيعِ الميراثِ بَعْدَ مَوْتِ الكَلالَةِ .

جاءَ الجَوابُ مِنَ اللهِ العَليمِ الخَبيرِ الَّذي يَعْلَمُ مَا يُصْلِحُ النَّاسَ وَما يَصْلُحُ لَهُمْ ، جاءَ مُخاطِباً رَسولَهُ ﷺ : قُلْ يا مُحَمَّدُ ﷺ : اللهُ يُفْتيكُمْ وَيُبَيِّنُ لَكُمْ حُكْمَ هَذِهِ المَسْأَلَةِ ، فَإِذا ماتَ إِنْسانٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ يَرِثُهُ أَوْ والِدٌ فَيَكونُ ميراثُهُ حَسَبَ الحالاتِ الآتِيَةِ :

الحالَةُ الأُولى : أَنْ يَموتَ الرَّجُلُ وَتَرِثُهُ أُخْتٌ واحِدَةٌ ، فَلَها النِّصْفُ ، قالَ تَعالى : ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ ﴾ .

الحالَةُ الثَّانِيَةُ : أَنْ تَموتَ المَرْأَةُ وَيَرِثُها أَخٌ واحِدٌ ، فَلَهُ جَميعُ ميراثِها ، قالَ تَعالى :

﴿ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ ﴾ .

الحالَةُ الثَّالِثَةُ : أَنْ يَموتَ الرَّجُلُ وَتَرِثُهُ أُخْتاهُ ، فَلَهُما الثُّلُثانِ ، قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ ﴾ .

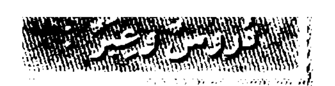
الحالَةُ الرَّابِعَةُ : أَنْ يَموتَ الرَّجُلُ وَيَرِثُهُ إِخْوَةٌ وَأَخَواتٌ فَيَكونُ الميراثُ بَيْنَهُمْ لِلذَّكَرِ ضِعْفَ نَصيبِ الأُنْثى ، قالَ تَعالى : ﴿ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ ﴾ .

هَذا حُكْمُ الكَلالَةِ كَما بَيَّنَهُ اللهُ تَعالى ، وَلَكِنْ ، ما الفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا جاءَ في صَدْرِ السُّورَةِ عِنْدَ ذِكْرِ الكَلالَةِ ؟ فالَّذي عَلَيْهِ أَهْلُ العِلْمِ أَنَّ الكَلالَةَ في الآياتِ الأُولى هُمْ الإِخْوَةُ لأُمٍ فقطْ ، أَمَّا الكَلالَةُ في هَذِهِ الآيَةِ فَهُمْ الإِخْوَةُ لأَبٍ وَأُمٍ أَوْ لأَبٍ .

ثُمَّ خُتِمَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ بَلِ السُّورَةُ كُلُّها بِقَوْلِ اللهِ تَعالى : ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ .

فَهَذا البَيانُ الإِلَهِيُّ لِمَسْأَلَةِ الكَلالَةِ بَخاصَّةٍ وَلأَحْكامِ الشَّرْعِ بِعامَّةٍ مِنَ اللهِ تَعالى مِنْ أَجْلِ أَلاَّ تَضِلُّوا عَنِ الصِّراطِ المُسْتَقيمِ ، بِسَبَبِ الجَهْلِ أَوْ عَدَمِ العِلْمِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ عَليمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ، لاَ يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فَيُعَلِّمُكُمْ مِنْ عِلْمِهِ وَيَنْفَعُكُمْ بِما عَلَّمَكُمْ .

وَاللهُ أَعْلَمُ بِمُرادِهِ ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أَقامَ اللهُ تَعالى الحُجَّةَ عَلى النَّاسِ بِإرْسالِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ وإِنْزالِ الكُتُبِ .

٢ـ المُهْتَدونَ هُمُ الَّذينَ يُؤْمِنونَ باللهِ تَعالى وَيَعْتَصِمونَ بِكِتابِهِ .

٣ـ مَشْروعِيَّةُ السُّؤالِ عَنْ أُمورِ الشَّرْعِ مِمَّنْ يَعْلَمُها .

٤ـ يُبَيِّنُ اللهُ تَعالى الأَحْكامَ الشَّرْعِيَّةَ كَيْلا نَضِلَّ أَوْ نَشْقى .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ قالَ تَعالى : ﴿جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾ .

أ ـ ما البُرْهانُ الَّذي جاءَ ؟

ب ـ ما النُّورُ الَّذي أَنْزَلَهُ اللهُ ؟

ج ـ ما الحِكْمَةِ مِنْ ذِكْرِ ﴿رَّبِّكُمْ﴾ في هَذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ ؟

٢ـ النَّاسُ بِالنِّسْبَةِ لِشَرْعِ اللهِ وَدينِهِ فَريقانِ . وَضِّحْ ذَلِكَ .

٣ـ ما ثِمارُ الإيمانِ باللهِ وَالاعْتِصامِ بِكِتابِهِ كَما جاءَ في الآياتِ الكَريمَةِ ؟

٤ـ عَرِّف ما يَلي :

الكَلالَةُ ، الإِخْوَةُ لأَبٍ ، الإِخْوَةُ لأُمٍ ، الإِخْوَةُ الأَشِقَّاءُ .

٥ـ بَيِّنْ نَصيبَ ميراثِ الكَلالَةِ لِكُلٍ مِمَّا يَلي :

أ ـ الأُخْتُ الواحِدَةُ .

ب ـ الأَخُ الواحِدُ .

ج ـ الثَّلاثُ أَخواتٍ .

د ـ الأَخَوانِ .

هـ ـ أَخٌ واحِدٌ وَأُخْتانِ .

نَشاطٌ

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيَةً سَمَّتِ القُرْآنَ نُوراً .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً شَريفاً يُبَيِّنُ تَفاوُتَ النَّاسِ وَهُمْ يَمُرُّونَ عَنِ الصِّراطِ يَوْمَ القِيامَةِ .

* * *

مراجع الكتاب

١ـ الكشّافُ عَنْ حَقائِقِ التأويلِ وَغوامِضِ التَنزيل : مُحمَّد بن عمر الزَّمخشَرِيّ ، مَطبعة الاستقامَةِ ، الطَّبْعَة الأُولى .

٢ـ تفسيرُ القرآنِ الحَكيمِ الشهيرُ بالمنارِ ـ الشيخ مُحمّد رشيد رضاـ دار المَعْرفةِ للطّباعَةِ والنَّشْرِ ، بيروتُ ، الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ .

٣ـ أنوارُ التنزيل وأَسرارُ التأويلِ ـ القاضي ناصر الدّينِ أبو سَعيدٍ عبدُ اللهِ بن عُمرَ الشيرازيّ ، شركَةُ وَمطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعةُ الثَّانِيَةُ .

٤ـ دراسة الكتبِ المُقدَّسةِ في ضوءِ المعارِفِ الحديثَةِ ـ موريسُ بوكاي ـ الطّبعة الرَّابعة ١٩٧٧م .

٥ـ روحُ المعاني في تفسيرِ القرآنِ والسبع المثاني للإمامِ الآلوسيِّ .

٦ـ البحرُ المحيطُ للإمامِ أبي عبدِ اللهِ بنِ يوسفَ الأندلسيِّ .

٧ـ إرشادُ العقلِ السّليمِ إلى مَزايا القرآنِ الكَريمِ ، للإمامِ محمّدِ بنِ أبي السُّعودِ العماديّ .

٨ـ تفسيرُ النَّسَفيِّ .

٩ـ التفسيرُ الوسيطُ ، محمّد سيّد طَنطاوي .

١٠ـ جامِعُ البيانِ في تفسيرِ القرآن ، محمّد بنُ جريرِ الطبريُّ .

١١ـ السّيرَةُ النبويَّةُ ـ ابنُ هِشامٍ .

١٢ـ تفسيرُ القرآنِ العظيمِ ، الحافظُ عماد الدّينِ ابن كَثير .

* * *